صلاح الأمة في علو الهمة

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم

الشيخ عائض القرني

الشيخ محمد عبد المقصود

الشيخ أبو إسحاق الحويني

المجلد الخامس

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الرسالة

الفصل الأول

عُلُوُّ الهِمَّةِ في الاسْتِقامة

« أعظمُ الكرامة لزومُ الاستقامة »

« إني إلى الآن أُجدِّد إسلامي كلَّ وقتٍ »

ابن تيمية

□ علوُّ الهمَّة في الاستقامة □

اعلم يا أخي أنَّ الاستقامة روحٌ تحيا به الأحوال ، وزكـاة تربو عليها الأعمال ، فلا زكاء للعمل ، ولا صحَّة للحال بدونها .

قال الله تعالى : ﴿ **إنّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكة ألَّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنَّة التي كُنتم تُوعَدُون** ﴾ [فصلت : ٣٠].

وقال تعالى : ﴿ **إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحابُ الجنَّة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ [الأحقاف : ١٣ - ١٤] .

وقال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **فاسْتَقِم كما أُمِرتَ ومَن تابَ معك ولا تَطْغَوْا إنَّه بما تعملونَ بصير** ﴾ [هود : ١١٢] .

وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مثلُكم يُوحىٰ إليَّ أنَّما إلهُكم إلهٌ واحدٌ فاستقيموا إليه واستغفروه ....** ﴾ الآية . [فصلت : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ **وأنْ لو استقاموا على الطريقة لأسْقيناهم ماءً غَدَقًا لنفتنهم فيه ....** ﴾ الآية . [الجن : ١٦] .

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولًا ، لا أسأل عنه أحدًا غيرك . قال : « قل : آمنتُ بالله . ثم اسْتقِم » .

وفيه عن ثوبان رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « استقيموا ولن تُحْصُوا ، واعلموا أنّ خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلّا مؤمن » .

والمطلوب من العبد الاستقامة ، وهي السداد ، فإن لم يقدر عليها ، فالمقاربة . فإن نزل عنها ، فالتفريط والإضاعة . كما في صحيح مسلم من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سدّدوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحدٌ منكم بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلّا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفَضْل » . فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها ؛ فأمَر بالاستقامة ، وهي السداد ، والإصابة في النيَّات والأقوال والأعمال . وأخبر في حديث ثوبان : أنهم لا يُطيقونها ، فنقَلهم إلى المقاربة ، وهي أنْ يقرُبوا من الاستقامة بحسَب طاقتهم ؛ كالذي يرمي إلى الغرض ، فإن لم يُصبْه يُقاربه . ومع هذا أخْبرَهم أنَّ الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة ؛ فلا يَركن أحدٌ إلى عمله ، ولا يعجب به ، ولا يرى أنَّ نجاتَه به ، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله .

فالاستقامة كلمةٌ جامعة ، آخِذةٌ بمجامع الدّين ، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصّدق ، والوفاء بالعهد .

الاستقامة على مَحْض التوحيد :

ولقد سُئل صدِّيق الأُمَّة وأعظمها استقامةً – أبو بكر الصديق رضي الله عنه – عن الاستقامة ، فقال : أن لا تشرك بالله شيئًا . فأراد بها الاستقامة على مَحْض التوحيد .

قال مجاهد : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله ، حتى لحقوا بالله .

قال شيخ الإسلام الهروي : ﴿ **فاستقيموا إليه واستغفروه** ﴾ . إشارةٌ إلى عين التفريد .

قال ابن القيم : يريد أنه أرشدَهم إلى شهود تفريده ، وهو أن لا يَرَوْا غيرَ فردانيَّته . وتفريدُه نوعان ؛ تفريدٌ في العِلْم والمعرفة والشهود ، وتفريدٌ في الطَلَب والإرادة ، وهما نوعا التوحيد .

ومَن استقام على مَحْض التوحيد الصّادق الذي يدين به الصدّيق ، واستقام له توحيدُه على العِلم الصادق بأسماء الله وصفاته ، وآثارها في الأنفس والآفاق – استقام في كلِّ شأنه على الصراط المستقيم ، فاستقام له كلُّ عمل وكلُّ حالٍ .

الاستقامة على الأمْر والنهي :

وفسَّرها الفاروق بالاستقامة على الأمْر والنهي :

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الاستقامة : أن تستقيم على الأمر والنهي ، ولا تروغ روغان الثعالب .

قال الشاعر :

كـلَّ يـوم تتلـوَّنْ غير هذا بك أجْمَلْ

قال أرباب الإشارات : لا يكن حال الرجل كحال الكلب ؛ يأتي إلى السَّبُع ويقول : ياملك الغابة ، غَيِّر لَي اسمي ؛ فإن « كلب » اسمٌ قبيح . فيقول له السبع : إذن فاحتفظ بقطعة اللحم هذه إلى الليل ، فإن احتفظتَ بها غيَّرنا لك الاسم . فإذا كان عند الظهيرة واشتدّ به الجوع ، نظر إلى قطعة اللحم وقال : كلب كلب ، إنّ « كلب » اسم جميل . ثم التهم قطعة اللحم ، فلمّا كان الليل أتى إلى الأسد فقال له : غيِّر لي اسمى . فقال له السبع : ائتمنَّاك بعض يوم على قطعة من اللحم فلم توفِّ ، فكيف نأتمنُك على الاسم الجميل ؟!!

قال علي بن أبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهما : استقاموا : أدَّوْا الفرائض .

قال الحسن : استقاموا على أمْر الله ؛ فعملوا بطاعته ، واجتنبوا معصيته .

الاستقامة هي الإخلاص :

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : استقاموا : أخلصوا العمل لله .

الاستقامة على المحبّة :

وفسَّرها ابن تيمية بالاستقامة على المحبَّة .

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢/١٠٤) : « سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّسَ الله روحه - يقول : استقاموا على محبَّته وعبوديَّته ، فلم يلتفتوا عنه يَمْنةً ولايَسْرة .

والاستقامة تتعلَّق بالأقوال ، والأفعال ، والأحوال ، والنيات . فالاستقامة فيها : وقوعها لله ، وبالله ، وعلى أمْر الله .

قال بعض العارفين : كن صاحب الاستقامة ، لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحرِّكة في طَلَب الكرامة ، وربُّك يطالبك بالاستقامة .

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول : أعظم الكرامة لزومُ الاستقامة »[(١)] .

لله درُّ ابن تيمية ، فالاستقامة شَرَفٌ وعِزٌّ ... والكرامة حَيْضُ الرجال .

والاستقامة هي الاعتدال ، وردُّ الجهالات إلى السُّنَّة ، والمتابعة في مسائل الاعتقاد ومسائل العمل والعبادة .

يقول ابن تيمية : « الرأي المُحْدَث في الأصـول ، وهو الكلام المحدَث . وفي الفروع ، وهو الرأي المحدَث في الفقه . والتعبد المحدث ؛ كالتصوُّف المُحدَث ، والسياسة المُحدَثة »[(٢)] .

درجات الاستقامة :

قال شيخ الإسلام الهروي : « وهي على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد ، لا عاديًا رَسْم العِلْم ، ولا متجاوزًا حَدَّ الإخلاص ، ولا مخالفًا نهجَ السُّنَّة » .

قال ابن القيم : « هذه درجة تتضمَّن ستة أمور ؛ عملا واجتهادًا فيه : وهو بَذْل المجهود . واقتصادًا : وهو السلوك بين طرفي الإفراط ؛ وهو الجوْر على النفوس ، والتفريط بالإضاعة . ووقوفًا مع ما يرسمه العلم ، لا وقـوفًا مع داعي الحال . وإفراد المعبود بالإرادة : وهو الإخلاص . ووقوع الأعمال على

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٠٥ .

(٢) الاستقامة لابن تيمية ١/ ٣ ، تحقيق د . محمد رشاد سالم ، طبع مؤسسة قرطبة .

الأمْر : وهو متابعة السنة .

فبهذه الأمور الستة ، تتمُّ لأهل هذه الدرجة استقامتهم ، وبالخروج عن واحد منها ، يخرجون عن الاستقامة ؛ إمّا خروجا كليًا ، وإمّا خروجًا جزئيًا .

والسّلف يذكرون هذين الأصلين كثيرًا - وهما الاقتصاد في الأعمال ، والاعتصام بالسنة - فإن الشيطان يَشُمُّ قلْب العبد ويختبره ؛ فإن رأى فيه داعية للبدعة ، وإعراضًا عن كمال الانقياد للسُّنة ؛ أخرجه عن الاعتصام بها . وإن رأى فيه حرصًا على السنة ، وشدَّة طَلَب لها ؛ لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها ، فأمَره بالاجتهاد ، والجوْر على النفس ، ومجاوزة حدّ الاقتصاد فيها ، قائلا له : إن هذا خيرٌ وطاعة ، والزيادة والاجتهاد فيها أكْمل ، فلا تفتر مع أهْل الفتور ، ولا تنم مع أهل النوم . فلا يزال يحثُّه ويحرِّضه ، حتى يُخرجه عن الاقتصاد فيها ، فيخرج عن حدِّها ، كما أنَّ الأول خارج عن هذا الحد ، فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر . وهذا حال الخوارج الذين يَحْقِر أهل الاستقامة صلاتَهم مع صلاتِهم ، وصيامَهم مع صيامِهم ، وقراءتهم مع قراءتهم .

وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة ، ولكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة ، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف .

وقال بعض السلف : ما أمر الله بأمْر إلا وللشيطان فيه نزغتان ؛ إمّا إلى تفريط ، وإمَّا إلى مجاوزة ؛ وهي الإفراط ، ولا يبالي بأيهما ظفر ؛ زيادة أو نقصان .

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : « ياعبد الله ابنَ عمرو ، إن لكلِّ عاملٍ شِرَّة ، ولكلِّ شِرَّةٍ فتْرة ؛ فمن كانت فترته إلى سنة أفْلَح ، ومَن كانت فتْرته إلى بدعة خاب وخسر » . قال له ذلك حين أَمَره بالاقتصاد في العمل .

فكل الخير في اجتهادٍ باقتصاد ، وإخلاص مقرون بالاتباع ، كما قال بعض الصحابة : اقتصاد في سبيل وسُنَّة ، خير من اجتهاد في خلافِ سبيلٍ وسنّة ، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء - عليهم السلام - وسنتهم .

وكذلك الرياء في الأعمال يُخرجه عن الاستقامة ، والفتور والتواني يخرجه عنها أيضًا » .

قال الهروي :« **الدرجة الثانية** : استقامة الأحوال ؛ وهي شهود الحقيقة لا كَسْبًا ، ورفْض الدعوى لا علمًا ؛ والبقاء مع نور اليقظة لا تحفُّظًا » .

قال ابن القيم : « يعني أنَّ استقامة الحال بهذه الثلاثة ، أما« شهود الحقيقة » : فالحقيقة حقيقتان ؛ حقيقة كونيَّة ، وحقيقة دينية ، يجمعهما حقيقة ثالثة ، وهي مصدرهما ومنشؤهما وغايتهما .

وأكْثر أرباب السلوك مِن المتأخِّرين إنما يريدون بالحقيقة : الحقيقة الكونية . وشهودها : هو شهودُ تفرُّد الربّ بالفِعْل ، وأنَّ ما سواه محلٌّ جريان أحكامه وأفعاله ؛ فهو كالحفير الذي هو محلٌّ لجريان الماء حسب . وعندهم أنَّ شهودَ هذه الحقيقة والفناءَ فيها ، غاية السالكين . ومنهم : مَن يشهد حقيقة الأزليَّة والدوام وفناء الحادثات وطيَّها ، في ضِمْن بساط الأزليَّة والأبديّة وتلاشيها في ذلك ؛ فيشهدها معدومة ، ويشهد تفرُّد موجدها بالوجود الحقِّ بالحقّ ، وأن وجود ما سواه رسومٌ وظلالٌ .

فالأول : شَهِد تفرّدَه بالأفعال ، وهذا : شهد تفرُّده بالوجود . وصاحبُ الحقيقة الدينية في طَوْرٍ آخر ؛ فإنه في مشهد الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، والموالاة والمعاداة ، والفَرْق بين ما يحبّه الله ويرضاه ، وبين ما يبغضه ويسخطه ؛ فهو في مقام الفرْق الثاني الذي لا يحصلُ للعبد درجة الإسلام - فضلًا عن مقام الإحسان - إلّا به .

فالمعرض عنه صفحًا لا نصيب له في الإسلام ألبتة ، وهو كالذي كـان

الجنيد يوصي به أصحابه ، فيقول : « عليكم بالفرْق الثاني » . وإنما سُمِّي ثانيًا ؛ لأن الفَرْق الأول : فرقٌ بالطبع والنفس ، وهذا فَرْق بالأمْر .

والجمع أيضا جمعان : جَمْعٌ في فَرْق ، وهو جمع أهل الاستقامة والتوحيد . وجمع بلا فَرْق ، وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد .

فالناس ثلاثة : صاحبُ فرْقٍ بلا جَمْع ، فهو مذموم ناقص مخذول . وصاحب جمْعٍ بلا فرْق وهو جمع أهل الزندقة والإلحاد ؛ فصاحبه مُلْحد زنديق . وصاحب فرْق وجمْع ، يشهد الفرْق في الجمع ، والكثرة في الوحدة ، فهو المستقيم الموحِّد الفارق . وهذا صاحب الحقيقة الثالثة ، الجامعة للحقيقتين الدينية والكونية ؛ فشهودُ هذه الحقيقة الجامعة : هو عينُ الاستقامة .

وأما شهودُ الحقيقة الكونية - أو الأزليّة - والفناء فيها ، فأمْرٌ مُشتَرك بين المؤمنين والكفار ؛ فإن الكافر مقرٌّ بقَدَر الله وقضائه ، وأزليَّته وأبديَّته ، فإذا استغرق في هذا الشهود وفني به عن سواه ، فقد شَهِد الحقيقة .

وأما قوله : « لا كسْبًا » . أي : يتحقق عند مشاهدة الحقيقة ، أن شهودها لم يكن بالكسْب ؛ لأن الكسْب من أعمال النفس ، فالحقيقة لا تبدو مع بقاء النفس ؛ إذ الحقيقة فردانيّة أحديّة نورانيّة ، فلا بدّ من زوال ظلمة النفس ، ورؤية كسْبها ، وإلّا لم يشْهد الحقيقة .

وأمّا « رفْض الدعوى لا علمًا »: فـ « الدعوى » : نسبة الحال وغيره إلى نفسك وإنِّيَّتك . فالاستقامة لا تصحّ إلّا بتَرْكها ، سواء كانت حقا أو باطلا ، فإن الدعوى الصادقة تطفيءُ نور المعرفة ، فكيف بالكاذبة ؟!

وأما قوله : «لا علمًا» . أي : لا يكون الحامل له على تَرْك الدعوى ، مجرّد علمه بفساد الدعوى ومنافاتها للاستقامة ؛ فإذا تَركها يكون تَرْكها لكون العِلْم قد نهى عنها ، فيكون تاركا لها ظاهرًا لا حقيقة ، أوْ تاركا لها لفظًا ، قائمًا بها حالا ؛ لأنه يرى أنه قد قام بحق العِلْم في تَرْكها ، فيتركها تواضعًا ، بل يتركها حالا وحقيقة ، كما يترك من أحبَّ شيئًا تضرُّه محبَّتُه حُبَّه حالا وحقيقة .

وإذا تحقَّق أنه ليس له من الأمر شيء - كما قال الله عز وجل لخير خلقه على الإطلاق : ﴿ **ليس لك مِن الأمْرِ شيءٌ** ﴾ - تَرَكَ الدعوى شهودًا وحقيقة وحالا .

وأمّا « البقاء مع نور اليقظة » : فهو الدوام في اليقظة ، وأن لا يطفئ نورها بظلمة الغفلة ، بل يستديم يقظته ، ويرى أنه في ذلك كالمجذوب المأخوذ عن نفسه حفظًا من الله له ، لا أنّ ذلك حَصَلَ بتحفُّظه واحترازه .

فهذه ثلاثة أمور ؛ يقظة ، واستدامة لها ، وشهود أن ذلك بالحق سبحانه لا بك ، فليس سبب بقائه في نور اليقظة بحِفْظه ، بل بحِفْظ الله له .

وكأنَّ الشيخ يشير إلى أن الاستقامة في هذه الدرجة ، لا تحصُل بكسْب وإنما هو مجرّد موهبة من الله ، فإنه قال في الأولى : « الاستقامة على الاجتهاد » . وفي الثانية : « استقامة الأحوال ، لا كسبًا ولا تحفُّظًا » . ومنازعتُه في ذلك متوجّهة ، وأن ذلك مما يمكن تحصيله كسْبًا ، بتعاطي الأسباب التي تهجم بصاحبها على هذا المقام .

نعم الذي يُنْفَى في هذا المقام : شهود الكسْب ، وأن هذا حصل له بكسبه . فَنفْي الكسْب شيءٌ ، ونفي شهوده شيءٌ آخر .

ولعلَّ أن نشبع الكلام في هذا فيما يأتي ، إن شاء الله تعالى » .

قال الهرويُّ : « **الدرجة الثالثة** : استقامة بترك رؤية الاستقامة ، وبالغيبة عن تطلُّب الاستقامة بشهود إقامة وتقويمه الحق » .

قال ابن القيم : « هذه الاستقامة معناها : الذهول بمشهوده عن شهوده ، فيغيب بالمشهود المقصود - سبحانه - عن رؤية استقامته في طلبه ، فإن رؤية الاستقامة ، تحجبه عن حقيقة الشهود .

« وأما الغيبة عن تطلُّب الاستقامة » : فهو غيبته عن طلبها بشهود إقامة الحق للعبد ، وتقويمه إياه ؛ فإنه إذا شَهِد أن الله هو المقيم له والمقوِّم ، وأن

استقامته وقيامه بالله ، لا بنفسه ولا بطلبه - غاب بهذا الشهود عن استشعار طلبه لها . وهذا القدْر من موجبات شهود معنى اسمه « القيُّوم » ، وهو الذي قام بنفسه ، فلم يحتج إلى أحد ، وقام كلُّ شيءٍ به فكلُّ ما سواه محتاج إليه بالذات ، وليست حاجته إليه معلّلة بحدوث كما يقول المتكلِّمون ، ولا بإمكان كما يقول الفلاسفة المشّاءون ؛ بل حاجته إليه ذاتيَّة ، وما بالذَّات لا يعلَّل » .

أبو سفيان بن الحارث الصحابي الجليل ، لم يتنَطَّف بخطِيئة منذ أسلم إلى أن مات :

لله درُّه من سيِّد ، أبو سفيان المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي ، كان أخا النبي ﷺ من الرضاعة .

قال أبو إسحاق السبيعي : « لما احْتُضر أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، قال : لا تبكوا عليَّ ، فإني لم أتنطَّف[(١)] بخطيئة منذ أسلمت »[(٢)] .

لله درُّه ، ثنتا عشرة سنة لم يفعل خطيئة ، وحياتُه كلُّها طاعة .

« كان يصلِّي في الصيف نصف النهار حتى تُكره الصلاة ، ثم يصلّي من الظهر إلى العصر »[(٣)] .

الربيع بن خثيم : أنموذج مثاليّ في الاستقامة :

عن مسلم البطين: «أنَّ الربيع بن خثيم - أو خيثم - جاءته ابنته ، فقالت : يا أبتاه ، أذهب ألعب ؟ قال : اذهبي فقولي خيرًا »[(٤)] .

لا ينطق أبدًا بكلمة اللعب ... فما بال أقوام لا يفيقون من اللهو واللعب.

قيل له رحمه الله : « ألا تتمثَّل ببيت شعر ، فقد كان أصحابُك يتمثَّلون ؟

---

(١) أي لم أتلطَّخ بها .
(٢) السير ٢٠٤/١ ، والطبقات لابن سعد ٣٧/١/٤ ، والاستيعاب ٢٩١/١١ - ٢٩٢ .
(٣) السير ٢٠٥/١ .
(٤) الحلية ١١٥/٢ .

قال : ما من شيء يُتمثَّل به إلا كُتِبَ ، وأنا أكره أنْ أقرأ في إمامي بيتَ شعر يوم القيامة »[(١)] .

وقال رجل : صَحِبْنا ربيع بن خثيم عشرين سنة ، فما تكلَّم إلّا بكلمة تصْعد . وعن رجل من بني تيم : جالستُ الربيع عشر سنين ، فما سمعتهُ يسأل عن شيء من أمْر الدنيا إلّا مرتين ؛ قال مرة: والدتك حيَّة ؟ وقال مرة: كَم لك مسجدا ؟ وقال بعضهم : صحبتُ الربيع عشرين عامًا ، ما سمعت منه كلمة تُعاب .

ويوم قُتِل الحسين بن علي رضي الله عنه ، قال رجل : « إن لم أستخرج اليوم سيئة من الربيع لأحدٍ ، لم أستخرجها أبدًا . قال : قلت : يا أبا يزيد ، قتل ابن فاطمة عليهما السلام . قال : فاسترجع ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **قل اللهمَّ فاطرَ السمواتِ والأَرْضِ عالمَ الغَيْبِ والشهادة أنت تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ [الزمر : ٤٦] . قال : قلت : ما تقول ؟ قال : ما أقول ؟! إلى الله إيابُهم ، وعلى الله حسابُهم »[(٢)] .

فرحم الله الربيعَ تلميذَ عبد الله بن مسعود ، فقد كان – والله – من معادن الصدق والاستقامة .

وهب بن منبّه : لم يسبَّ شيئا فيه الروح أربعين سنة :

قال المثنى بن الصباح : « لبث وهب بن منبّه أربعين سنة لم يسبَّ شيئا فيه الروح ، ولبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءًا .

وعن عبد المنعم بن إدريس ، عن أبيه ، قال : كان وهب يحفظُ كلامَه كلَّ يوم ، فإن سلم أفطر ، وإلا طوى »[(٣)] .

---

(١) الحلية ٢/١١٣ .
(٢) الحلية ٢/١١١ .
(٣) السير ٤/٥٤٧ .

عبد الله بن عون بن أرطبان : عالم البصرة ، القدوة ، الإمام :

قال خارجة بن مصعب : صحبت ابن عون أربعًا وعشرين سنة ، فما أعلم أنَّ الملائكة كتبت عليه خطيئة .

وعن سلام بن أبي مطيع قال : كان ابن عون أملكهم للسانه .

وعن معاذ بن معاذ : حدَّثني غير واحد من أصحاب يونس بن عُبيد أنه قال : إني لأعرف رجلا منذ عشرين سنة ، يتمنَّى أنْ يَسْلَم له يومٌ من أيام ابن عـون ، فما يقدر عليه[1] . رحم الله سيِّـد القراء في زمانه : عبـد الله بن عون .

عن مكي بن إبراهيم ، قال : « كنَّا عند عبد الله بن عون ، فذكروا بلال ابن أبي بُردة ، فجعلوا يلعنونه ، ويقعون فيه - يعني لجوره وظلمه - قال : وابن عون ساكت ، فقالوا له : إنما نذكره لما ارتكب منك . فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة ؛ لا إله إلا الله ، ولعن الله فلانًا .

وعن ابن المبارك قال : قيل لابن عون : ألا تتكلَّم فتُؤجر ؟ فقال : أما يرضى المتكلِّم بالكفاف »[2] .

قال الذهبي في السير : « كان ابن عون عديم النظير في وقته ؛ زهدًا وصلاحًا ، وقد كان ابن عون قد أوتي حلمًا وعلمًا ، ونفسًا زكيَّة تُعِين على التقوى ، فطوبى له »[3] .

قال بكَّار بن محمد السِّيريني : ما رأيتُ ابن عون يُماري أحدًا ولا يُمازحه ،

---

(١) السير ٦/٣٦٦ .

(٢) السير ٦/٣٦٩ .

(٣) السير ٦/٣٦٩ ، ٣٧٥.

ما رأيتُ أملك للسانه منه . وكان إذا جاءه إخوانُه ، كأنّ على رؤوسهم الطير ، لهم خشوع وخضوع ، وما رأيته مازح أحدًا ، ولا ينشدُ شعرًا ، كان مشغولًا بنفسه . وكان له ناقة يغزو عليها ويحجُّ ، وكان بها معجبًا ، فأمر غلامًا له يستقي عليها ، فجاء بها وقد ضربها على وجهها ، فسالتْ عينُها على خدِّها ، فقلنا : إن كان من ابن عون شيءٌ ، فاليوم . قال : فلم يلبث أن نزل ، فلما نظر إلى الناقة ، قال: سبحان الله ، أفلا غيرَ الوجه ، بارك الله فيك ، **اخرج عني، اشهدوا أنه حُرّ**[(١)] .

الإمامُ الحجَّة يونس بن عُبيد بن دينار : ما حَضَر حقٌّ لله ، إلّا وهو متهيِّئٌ له :

عن سلام بن مطيع ، قال : ما كان يونس بأكثرهم صلاة ولا صومًا ، ولكن لا والله ما حَضَر حق لله ، إلّا وهو متهيئٌ له[(٢)] .

وقال سلمة بن علقمة : جالستُ يونس بن عبيد ، فما استطعت أنْ آخُذ عليه كلمة[(٣)] .

طبيب القلوب ، الوَرِعُ التقيّ ، وهيب بن الورد المكّي : « لا يجدُ طعْمَ العبادة مَن همّ بمعصيةٍ » :

كان سفيان الثوريّ إذا حدّث الناس في المسجد الحرام وفرغ من الحديث ، قال : قوموا إلى الطبيب ؛ يعني : وهيبًا[(٤)] .

قال وهب رحمه الله : إن استطعتَ أن لا يشغلك عن الله تعالى أحدٌ ، فافعل .

وعن محمد بن يزيد قال : حَلَف وهيب أن لا يراه الله ولا أحدٌ من خَلْقه ضاحكًا ، حتى يأتيه الرسل من قِبَل الله عند الموت فيخبرونه بمنزله عند الله . **قال : وكانوا يرون له الرؤيا أنه من أهل الجنة ، فإذا أُخبر بها اشتدَّ بكاؤه،**

---

(١) السير ٦/٣٧١
(٢) السير ٦/٢٩١
(٣) السير ٦/٢٨٩
(٤) الحلية ٨/١٤٠

وقال : قد حسبتُ أن يكون هذا من الشيطان .

عن عبد الله بن المبارك قال : قيل لوهيب بن الورد : أيجدُ طعم العبادة من يعصي الله ؟ قال : لا ، ولا مَن همَّ بمعصيةٍ(١) .

وقال رحمه الله : لا يكون همُّ أحدكم في كثرة العمل ، ولكن ليكن همُّه في إحكامه وتحسينه ؛ فإن العبد قد يصلِّي وهو يعصي الله في صلاته ، وقد يصوم وهو يعصي الله في صيامه .

وقال رحمه الله : لَأن أدَع الغيبة ، أحبُّ إليّ من أن يكون لي الدنيا - منذ خُلِقت إلى أن تفنى - فأجعلها في سبيل الله ، ولأن أغضّ بصري ، أحبُّ إليّ من أن تكون لي الدنيا - منذ خُلقت إلى أن تفنى - فأجعلها في سبيل الله ، ثم تلا : ﴿ **قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارِهم ويحفظوا فروجهم ...** ﴾ .

ولله ما أجمل قوله في تَرْك ظاهر الإثم وباطنه ، **قال** : « اتَّقِ الله أن تسبَّ إبليس في العلانية ، وأنت صديقُه في السِّر »(٢) .

بشر بن الحارث الحافي : ما عُرف له غيبةٌ لمسلم :

إمام الناس ، الذي قال عنه الإمام أحمد يومَ بَلَغه موته : مات رحمه الله ، ولم يكن له نظير في هذه الأُمَّة ، إلَّا عامر بن عبد قيس ، ولو تزوَّج كان قد تمَّ أمره ، وما ترك بعده مثلَه .

قال عنه تلميذه إبراهيم الحربي : ما أخرجتْ بغدادُ أتمَّ عقلًا منه ، ولا أحْفَظ للسانه من بشر،ما عُرف له غِيبةٌ لمسلم .

وقال الخطيب البغدادي: كان بشر ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد، وتفرّد بوفور العقل ، وأنواع الفضْل ، وحُسْن الطريقة ، واستقامة المذهب ، وعُزوف النفس .

---

(١) الحلية ٨/١٤٤ ، والسير ٧/١٩٩

(٢) الحلية ٨/١٥٤ .

قال محمد بن المثنى : قلتُ لأحمد : ما تقول في هذا الرجل ؟ فقال لي : أي الرجال ؟ قلت : بشر . فقال لي : ما مثله عندي إلَّا مثل رجل ركَّز رُمحًا في الأَرض ، ثم قعَد منه على السِّنان ، فهل تَرَكَ لأحدٍ موضعا يقعد فيه ؟

سعى بعدهم قومٌ لكي يدركوهمُ ... فلم يفعلوا ولم يُلاموا ولم يَألوا

قال ابن كثير : وحين مات بشر ، اجتمع في جنازته أهلُ بغداد عن بكرة أبيهم ، فأُخرج بعد صلاة الفجر ، فلم يستقرَّ في قبره إلّا بعد العتمة ، وكان النهار نهارًا صائفًا فيه طُول .

قال يحيى بن عبد الحميد الحمّاني: رأيتُ أبا نصر التمَّار وعليّ بن المديني في جنازة بشر ، يصيحان في الجنازة : هذا والله شَرَفُ الدنيا قبل شرف الآخرة .

داود الطائي : « هذه خُطًى لا أدري كيف تُكتب » :

قال ابن المبارك : وهل الأمر إلّا ما كان عليه داود الطائيّ .

قال سهل بن بكَّار : قالت أختٌ لداود الطائيّ : لو تنحيتَ من الشمس إلى الظِّل قال : هذه خُطًى لا أدري كيف تُكتب .

هذا والله منتهى علوّ الهمَّة في الاستقامة .

وكيعُ بن الجرّاح :

ووكيع بن الجراح كان كلامه نزرًا جدًّا في الرجال . قال الفلّاس : ما سمعتُ وكيعًا ذاكرًا أحدًا بسوءٍ قطّ[1] .

وعن مُليح بن وكيع قال : لما نزل بأبي الموت ، أخرج يديه ، فقال : **يا بني،** ترى يديّ ؛ ما ضربتُ بهما شيئا قط . قال مليح : فحدّثت بهذا داود بن يحيى بن يمان ، فقال : رأيت رسول الله ﷺ في النوم ، فقلت : **يا رسول الله،**

---

(١) السير ٩/ ١٥٨ ، ١٥٩ .

مَنِ الأبدال ؟ قال : « الذين لا يضربون بأيديهم شيئا ، وإنَّ وكيعًا منهم »[(١)] .

الإمامُ الكبير ، يحيى بن سعيد القطان :

قال بندار : « اختلفتُ إلى يحيى بن سعيد أكثر من عشرين سنة ، ما أظنّه عصى الله قط ، لم يكن في الدنيا في شيءٍ »[(٢)] .

فرحم الله هذا العبد الصالح ، الذي كان يدعو لألف إنسان كلَّ يوم .

سيِّد الحفَّاظ ، عبد الرحمن بن مهدي :

« قال رحمه الله : ما تركتُ حديث رجل ، إلّا دعوتُ الله له وأُسمِّيه .

ورُوي عنه أنه قال : لولا أني أكره أن يُعصى الله ، لتمنَّيتُ أنْ لا يبقىٰ **أحدٌ في المصر إلّا اغتابني ؛ أيّ شيءٍ أهنأ من حسنة يجدها الرجل في صحيفته لم يعمل بها ؟!** »[(٣)] .

إمام الدنيا ، أحمد بن حنبل :

قال إبراهيم الحربي : يقول الناس : أحمد بن حنبل . بالتوهُّم ، والله ما **أجد لأحد من التابعين عليه مزيَّة ، ولا أعرف أحدًا يُقْدَر قَدْره ، ولا يُعرف** لأحدٍ من الإسلام محلَّه ، ولقد صحبته عشرين سنة صيفًا وشتاءً ، وحرًّا وبردًا ، وليلًا ونهارًا ، فما لقيته لقاةً في يوم ، إلّا وهو زائد عليه بالأمس . **ولقد كان يقْدُمُ** أئمة الإسلام العلماء من كلِّ بلد ، وإمام كلّ مصر ، فهم بجلالتهم ما دام الرجل منهم خارجًا من المسجد ، **فإذا دخل المسجد صار غلامًا متعلِّمًا**[(٤)] .

---

(١) السير ٩/١٥٨ ، ١٥٩ .
(٢) السير ٩/١٧٨ .
(٣) السير ٩/١٩٥ – ١٩٦ .
(٤) مناقب الإمام أحمد ص ١٨٢ .

قال أبو داود السجستاني : لم يكن أحمد بن حنبل يخوض في شيءٍ ، مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا ، فإذا ذُكِر العلمُ تكلَّم .

ناصُر السُّنَّة ، الإمام الشافعي :

قال حرملة : سمعت الشافعي يقول : ما حلفتُ بالله صادقًا ولا كاذبًا(١) .

شيخ الإسلام ، الذُّهلي محمد بن يحيى :

قال أبو العباس الأزهري : سمعتُ خادمة محمد بن يحيى ، وهو على السرير يُغسَّل ، تقول : خدمته ثلاثين سنة ، وكنت أضع له الماء ، فما رأيتُ ساقه قطّ ، وأنا مِلْكٌ له(٢) !!

شيخ خراسان القدوة الرباني ؛ أبو حفص النيسابوري :

قال رحمه الله : من لم يزن أحوالَه كلَّ وقْت بالكتاب والسنة ، ولم يَتَّهم خواطرَه ، فلا تعُدَّه .

ولله درُّه ، وما أعلى استقامته حين يقول : « حرستُ قلبي عشرين سنة ، ثم حرسني عشرين سنة ، ثم وردتْ علي وعليه حالةٌ صرنا محروسَيْن جميعا »(٣) .

أيّ أناسٍ كان هؤلاء السادة ؟! وأيّ أمْر أبي حفص لم يكن بعجيب ؟! هذا الإمام الذي أنفَذ - في يوم واحد - بضعةَ عشر ألف دينار يَفْتكُّ بها أسرى ، فلما أمسى لم يكن له عشاء .

أمير المؤمنين في الحديث : البخاري ؛ لا يكون له خصْمٌ في الآخرة :

قال بكر بن منير : سمعتُ أبا عبد الله البخاري يقول : أرجو أن ألقى الله

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ٥٤/١ ، وتوالي التأسيس ص ٦٧ .
(٢) السير ٢٧٩/١٢ .
(٣) السير ٥١٠/١٢ - ٥١٣ .

ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا .

قال الذهبي في « السير » (١٢/٤٣٩ - ٤٤١) : « صدق رحمه الله ، ومن نَظَر في كلامه في الجرح والتعديل ، علم ورعه في الكلام في الناس ، وإنصافه فيمن يضعِّفه ؛ فإنه أكثر ما يقول : مُنكَرُ الحديث ، سكتوا عنه ، فيه نظر . ونحو هذا ، وقلَّ أن يقول : فلانٌ كذَّاب ، أو كان يضع الحديث . حتى إنه قال : إذا قلتُ فلان في حديثه نظر ، فهو مُتَّهم واهٍ . وهذا معنى قوله : لا يحاسبني الله أنِّي اغتبتُ أحدًا . وهذا هو والله غاية الورع .

قال محمد بن أبي حاتم الورَّاق : سمعته - يعني البخاري - يقول : لا يكون لي خَصْم في الآخرة . فقلت : إنَّ بعض الناس ينقمون عليك في كتاب « التاريخ » ، ويقولون : فيه اغتياب الناس ، فقال : إنما روَيْنا ذلك روايةً ، لم نقُلْه من عند أنفسنا ، قال النبي ﷺ : « بئس مولى العشيرة ... » يعني : حديث عائشة[1] .

الإمام الحافظ المقرئ : أبو الحسين الحجّاجي محمد بن محمد :

قال الحاكم : كان أبو الحسين الحجّاجي من الصالحين المجتهدين بالعبادة ، صحبتُه نيِّفًا وعشرين سنة بالليل والنهار ، فما أعلم أن المَلَك كتب عليه خطيئة[2] .

الحافظ ابن عساكر :

قال ابنه القاسم : كان يحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة .

وقال أبو المواهب : لم أر مثله ، ولا مَن اجتمع فيه ما اجتمع مِن لزوم

(١) أخرجه مالك ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وأحمد .
(٢) السير ١٦/٢٤١ .

طريقة واحدة مدَّة أربعين سنة[١] .

الحافظ ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن محمد بن إدريس : لا يُعرَف له ذنب :

كان رحمه الله بحرًا لا تكدِّره الدِّلاء .

قال عنه أبوه أبو حاتم : « **ومَن يقوى على** عبادة عبد الرحمن ؟! لا أعرف لعبد الرحمن ذنبًا »[٢] .

وقال علي بن أحمد الفرضي : ما رأيت أحدًا ممن عَرَف عبد الرحمن ذَكَر عنه جهالةً قطّ .

وقال علي بن محمد البصري - وهو في جنازة ابن أبي حاتم - : قلنسوة عبد الرحمن من السماء ، وما هو بعجب ؛ رجلٌ منذ ثمانين سنة على وتيرةٍ واحدة ، **لم ينحرف عن الطريق**[٣] .

قال علي بن إبراهيم الرازي : كان ابن أبي حاتم قد كساه الله بهاءً ونورًا يسرُّ مَن ينظر إليه . دخل محمد بن مهرويه الرازي عليه يومًا ، وهو يقرأ على الناس كتاب الجرح والتعديل ، فحدَّثه بقول يحيى بن معين : « إنَّا لنطعن على أقوام ، لعلَّهم قد حطّوا رحالَهم في الجنة من أكثر من مائتي سنة[٤] » . فبكى ، وارتعدتْ يداه ، حتى سقط الكتاب ، وجعل يبكي ويستعيده الحكاية .

الإمام الجليل أبو الطيِّب الطبري ، طاهر بن عبد الله بن طاهر : « ما عصى الله بجارحةٍ قطّ » :

اشتهر اسمه، فملأ الأقطار. وشاع ذِكْره، فكان أكثر حديث السمَّار. وطاب

---

(١) السير ٥٦٢/٢٠ ، ٥٦٥ .

(٢) تذكرة الحفاظ ٨٣٠/٣ ، والسير ٢٦٥/١٣ .

(٣) طبقات السبكي ٣٢٥/٣ .

(٤) قال الذهبي في السير ٢٦٨/١٣ : لعلّها من مائة سنة .

ثناؤه ، فكان أحسن من مِسْك الليل وكافور النهار .

«قال القاضي أبو بكر الشامي: قلت للقاضي أبي الطيب شيخنا- وقد عُمِّر-: لقد مُتِّعْتَ بجوارحك . فقال : لم لا ، والله ما عصيتُ الله بواحدة منها قط »[١] .

وعن القاضي أبي الطيب، أنه رأى النبي ﷺ في المنام، وقال له: «يا فقيه» وأنه كان يفرح بذلك ، ويقول : سمّاني رسول الله ﷺ فقيهًا

رُكْنُ الإسلام ، الشيخ أبو محمد الجويني : عبد الله بن يوسف بن حَيُّوَيَه

والد إمام الحرمين ، أوحد زمانه عِلْمًا ، ودينًا وزهدًا ، وتقشُّفًا زائدا ، وتحرِّيًا في العبادات .

« قال أبو سعيد بن أبي القاسم القشيري : كان أئمتنا في عصره والمحقّقون من أصحابنا ، يعتقدون فيه من الكمال والفضْل والخصال الحميدة ، أنه لو جاز أن يبعث الله نبيًّا في عصره ، لما كان إلّا هو ؛ من حُسْن طريقته وزهده وكمال فضْله .

قال شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني : لو كان الشيخ أبو محمد في بني إسرائيل ، لنُقل إلينا شمائله **ولافتخروا به »**[٢] .

الإمام القدوة ابن دقيق العيد ، محمد بن عليّ بن وهْب :

كان حافظًا للسانه ، مقبلًا على شانه ، وقَفَ نفسَه على المعالي وقصَرها ، ولو شاء العادُّ أن يحصر كلماته لحصرها .

قال ابن دقيق العيد رحمه الله : « ما تكلَّمتُ كلمة ، ولا فعلتُ فِعْلًا ، إلّا وأعددتُ له جوابًا بين يدي الله عز وجل »[٣] .

---

(١) طبقات السبكي ١٥/٥ .
(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٧٤/٥ .
(٣) طبقات الشافعية ٢١٢/٩ .

الإمام تقي الدين ، أبو عمرو بن الصلاح عثمان بن عبد الرحمن :

« قال رحمه الله : ما فعلتُ صغيرةً في عمري قطّ »(١) .

وهذا فضْل من الله عليه عظيم ... لم يكن ابن الصلاح ، بل هو والله الصلاح ذاته ؛ يعيد زمان السالفين استقامة وجدًّا .

الإمام الزاهد العماد المقدسي ، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد :

قال عنه الإمام موفَّق الدين ابن قدامة : ما نقدر نعمل مثل العماد .

وقال عنه الإمام محاسن بن عبد الملك التنوخي: كان الشيخ العماد جوهرة العصر .

قال الضياء المقدسي : سمعت خالي الموفق يقول : من عمري أعرفه – يعني العماد – ما عرفت أنه عصى الله معصية(٢) .

ومع هذا كان دعاؤه المشهور : اللهم اغفر لأقسانا قلبًا ، وأكبرنا ذنبًا ، وأثقلنا ظهرًا ، وأعظمنا جُرْمًا ... يا دليل الحيارى ، دلَّنا على طريق الصادقين ، واجعلنا من عبادك الصالحين .

ولما جاءه الموت جعل يقول : يا حيُّ يا قيوم ، لا إله إلا أنت ، برحمتك أستغيث . واستقبل القبلة وتشهَّد .

وختام المسْك : شيخ الإسلام ابن تيمية : « إني إلى الآن أُجدِّد إسلامي كلَّ وقْت »

انظر إلى هذا الجبل الربَّاني ، الذي يقول قولًا تتضاءل كلُّ الأقوال إلى جانبه : والله إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كلَّ وقْت وما أسْلمتُ بعدُ إسلامًا جيِّدًا .

---

(١) طبقات الشافعية ٣٢٧/٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥٠/٢٢ .

الفصل الثاني

عُلُوُّ الهِمَّةِ في الصِّدْقِ

وإذا الأمـورُ تـزاوجتْ ... فالصـدقُ أكرمُها نِتَاجَا
الصـدقُ يعقدُ فوقَ رأْ ... سِ حليفـهِ بالصـدقِ تاجـا
والصـدقُ يقـدحُ زِنْدُهُ ... في كلِّ نـاحية سـراجَا

□ عُلُوُّ الهمَّةِ في الصِّدْقِ □

وهي منزلة القوم الأعظم ، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين . والطريق الأقوم الذي من لم يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين . وبه تميَّز أهل النفاق من أهل الإيمان ، وسُكَّان الجِنان من أهل النيران . وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِعَ على شيء إلا قطعه ، ولا واجَه باطلا إلا أرْداه وصَرعه ، مَنْ صال به لم تُردَّ صولتُه . ومن نطق به عَلَتْ على الخصوم كلمتُه . فهو روح الأعمال ، وَمَحَكُّ الأحوال ، والحامل على اقتحام الأهوال ، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال . وهو أساس بناءِ الدِّين ، وعمود فسطاطِ اليقين ، ودرجته تالية لدرجة « النبوة » التي هي أرفع درجات العالَمين . ومن مساكنهم في الجنات : تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصِّدِّيقين . كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مددٌ متصلٌ وَمَعين .

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين ، وخصَّ المنعَم عليهم بالنبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين ؛ فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّن والصِّدِّيقين والشهداءِ والصالحين** ﴾ [النساء : ٦٩] ، فهم الرفيقُ الأعلى ﴿ **وَحَسُنَ أولئك رفيقًا** ﴾ ، ولا يزال الله يُمِدُّهم بأنعمه وألطافه ومزيدِه إحسانًا منه وتوفيقًا . ولهم مرتبة المعيَّة مع الله ؛ فإن الله مع الصادقين . ولهم منزلة القرب منه ؛ إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين .

وأخبر تعالى أن مَنْ صَدقَه فهو خير له ؛ فقال : ﴿ **فإذا عَزَمَ الأَمْرُ فلو صدقوا الله لَكان خيرًا لهم** ﴾ ، [محمد : ٢١] .

وأخبر تعالى عن أهل البرِّ، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم- من الإيمان، والإسلام ، والصدقة ، والصبر - بأنهم أهل الصدق ، فقال : ﴿ **ولكنَّ البِرَّ مَن آمن بالله واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيين وآتى المالَ على حُبِّه ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلين وفي الرقابِ وأقام الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفُون بعهدِهم إذا عاهدوا والصابرينَ في البأساء والضرَّاء وحينَ البأسِ أولئك الذين صدقوا وأولئك هُمُ المتقون** ﴾ [البقرة : ١٧٧]، وهذا صريح في أن « الصدق » بالأعمال الظاهرة والباطنة ، وأن « الصدق » هو مقام الإسلام والإيمان .

- وقسّم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق ؛ فقال : ﴿ **ليجزيَ الله الصادقين بصدقهم ويعذِّبَ المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم** ﴾ ، [الأحزاب : ٢٤].

والإيمان أساسه الصدق ، والنفاق أساسه الكذب ، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر .

وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد ويُنجيه من عذابه إلا صدقُه ؛ قال تعالى : ﴿ **هذا يومُ ينفعُ الصادقينَ صدقُهُم لهمْ جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدينَ فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضُوا عنه ذلك الفوز العظيم** ﴾ ، [المائدة: ١١٩].

وقد أمر الله رسوله أن يسأله أن يجعل مُدْخَله ومُخْرجَه على الصدق ؛ فقال تعالى : ﴿ **وقلْ ربِّ أدخلْني مُدْخلَ صِدْقٍ وأخرجني مُخْرجَ صِدْقٍ واجعل لي من لدُنكَ سلطانًا نصيرًا** ﴾ ،[الإسراء : ٨٠] .

وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ أنه سأله أن يهب له لسانَ صِدقٍ في الآخرين ، فقال تعالى : ﴿ **واجعلْ لي لسانَ صِدقٍ في الآخرين** ﴾ ، [الشعراء : ٨٤] .

وبشَّر عبادَه بأنَّ لهم قدَمَ صِدْق،ومَقْعَدَ صدْق؛ فقال تعالى: ﴿ **وبشِّر الذين آمنوا أنَّ لهم قدَمَ صدقٍ عند ربهم** ﴾ الآية [يونس : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ **إنَّ**

المتقين في جنات ونَهَرٍ في مقْعدِ صدقٍ عند مليك مُقْتدِر ﴾ ، [القمر : ٥٤ - ٥٥] .

- وحقيقة الصدق في هذه الأشياء : هو الحق الثابت المتصل بالله ، والموصل إلى الله . وهو ما كان به وله ؛ من الأقوال والأعمال ، وجزاء ذلك في الدنيا وفي الآخرة .

- فمُدْخَل الصدق ، ومُخْرج الصدق أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا بالله ، وفي مرضاته . كمخرجه ﷺ هو وأصحابه يوم بدر ، وكذلك مُدخله ﷺ المدينة كان **مُدْخل صدق بالله ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد والظفر** والنصر ، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة .

فكلُّ مُدخل ومخرج كان بالله ولله ، فصاحِبه ضامِن على الله ، فهو مخرج صدق مدخل صدق .

وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلى السماء ، وقال : « اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجًا لا أكون فيه ضامنًا عليك » .

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه - أو مدخلًا آخر - إلا بصدق أو بكذب ؛ فمخرج كل واحد ومدخله لا يعدو الصدق والكذب . والله المستعان .

قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسلِه أولئك هم الصِّدِّيقون ﴾ .

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال : **« إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغُرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُّرِّيَّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ؛ لتفاضل ما بينهم » . قالوا : يا رسول الله ،** تلك منازل الأنبياء ، لا يبلغها غيرهم !! قال : « والذي نفسي بيده ، رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسَلين » .

وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن تصْدق الله يصدقْكَ » .

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال : « أَفلح إنْ صدَق » .

وقال رسول الله ﷺ : « أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنة لمن ترك المِراءَ وإن كان مُحِقًّا ، وببيت في وسط الجنة لِمَن ترك الكذِبَ وإن كان مازِحًا ، وببيتٍ في أعلى الجنة لمن حسَّن خُلقه »[١] .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن الصدق يهدي إلى البِرِّ ، وإن البِرّ يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل لَيَصدق حتى يُكتَب عند الله صِدِّيقًا . وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل لَيكذب حتى يُكتَب عند الله كذَّابًا » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : « إن الرجل لَيَصدق حتى يُكتَب عند الله صِدِّيقًا ، ويتحرّى الصدق حتى ما يكون للفجور في قلبه موضع إبرة يستقرُّ فيه . وإن الرجل لَيَكذب ويتحرَّى الكذب حتى ما يكون للبِرِّ في قلبه موضع إبرة يستقرُّ فيه » .

وقال الصِّدِّيق رضي الله عنه : عليكم بالصدق ؛ فإنه مع البِرِّ ، وهما في الجنة .

وقال إبراهيم الخوَّاص : الصادق لا تراه إلَّا في فرْض يؤدِّيه ، أو فضلٍ يعمل فيه.

وقيل : ثلاث لا تُخطِئ الصادق : الحلاوة والملاحة والهيْبة .

وقال يوسف بن أسباط : لَأَنْ أَبيت ليلة أعاملُ الله بالصدق ، أَحبُّ إليَّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله .

وقال الحارث المُحَاسِبي : الصادق هو الذي لا يُبالي لو خرج كلُّ قدْرٍ له في قلوب الخلْق ؛ من أجل صلاح قلبه ، ولا يحبُّ اطلاع الناس على مثاقيل الذَّرِّ من حُسْن عمَلِه .

---

(١) رواه أبو داود ، الأدب : ٧ .

وقال بعضهم : مَن لم يُؤدِّ الفرض الدائم ، لم يُقبلْ منه الفرْض المؤقَّت .

قيل : وما الفرض الدائم ؟ قال : الصدق .

وقيل : مَنْ طلب الله بالصدق أعطاه مرآةً يُبصر فيها الحقَّ والباطل .

وقال سهل بن عبد الله : أول خيانة الصِّدِّيقين : حديثهم مع أنفسهم .

وقال أبو تراب النخشبي : إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله ، فإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت عمله . كأنس بن النضر رضي الله عنه ؛ وجد ريح الجنة قبل أن يُقاتل .

وقال محمد بن سعيد المروزي : إذا طلبتَ الله بالصدقِ ، آتاك الله تعالى مرآةً بيدك ، تُبصر كلَّ شيء من عجائب الدنيا والآخرة .

وقال محمد بن كعب:إنما يكذب الكاذب من مهانة نفسه عليه .

- الصادق يتقلَّب في اليوم أربعين مرَّة :

قال الجُنَيد : « الصادق يتقلَّب في اليوم أربعين مرة ، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة » .

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢/٢٧٤ - ٢٧٦) : « مراد الشيخ أبي القاسم صحيح غير هذا ؛ فإن المعارضات والواردات التي تردُ على الصادق لا تردُ على الكاذب المرائي ، بل هو فارغ منها ؛ فإنه لا يردُ عليه من قِبَل الحقِّ موارد الصادقين على الكاذبين المرائين ، ولا يُعارضهم الشيطان كما يُعارض الصادقين ؛ فإنه لا أرَبَ له في خَربةٍ لا شيءَ فيها ، وهذه الواردات تُوجب تقلُّب الصادق بحسب اختلافها وتنوُّعها، فلا تراه إلا هاربًا من مكان إلى مكان، ومن عمل إلى عمل ، ومن حال إلى حال ، ومن سبب إلى سبب ؛ لأنه يخاف في كلِّ حال يطمئن إليها ، ومكان وسبب أن يقطعه عن مطلوبه ، فهو لا يساكن حالة ولا شيئًا دون مطلوبه ، فهو كالجوَّال في الآفاق في طلب الغِنَى الذي يفوق به الأغنياء .

والأحوال والأسباب تتقلَّب به ، وتُقيمه وتُقعده ، وتحرِّكه وتُسكنه ، حتى يجد فيها ما يُعينه على مطلوبه ، وهذا عزيز فيها ؛ فقلبه في تقلب وحركه شديدة بحسب سَعة مطلوبه ، وعظمته وهمَّته أعلى من أن يقف دون مطلبه على رسم أو حالٍ ، أو يساكن شيئًا غيره ، فهو كالمحبِّ الصادق ، الذي همته التفتيشُ على محبوبه ، وكذا حال الصادق في طلب العلم ، وحال الصادق في طلب الدنيا ، فكلُّ صادق في طلب شيء لا يستقرُّ له قرار ، ولا يدوم على حالة واحدة .

وأيضًا : فإن الصادق مطلوبه رضا ربِّه وتنفيذ أوامره وتتبُّع محابِّه ، فهو **متقلِّب فيها يسير معها أين توجَّهتْ ركائبُها، ويستقلُّ معها أين استقلت مضاربُها،** فبينا هو في صلاة ، إذْ رأيتَه في ذِكْر ثم في غزو ، ثم في حجّ ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفْع ، ثم في أمْر بمعروف أو نهي عن منكر ، أو في قيام بسببٍ فيه عمارة الدين والدنيا ، ثم في عيادة مريض أو تشييع جنازة ، أو نصْر مظلوم إن أمكن ، إلى غير ذلك من أنواع القُرَب والمنافع . فهو في **تفرُّق دائم لله ، وجمعيَّة على الله ، لا يملكه رسمٌ ولا عادةٌ ولا وضع ،** ولا يتقيد بقيْدٍ ولا إشارة ، ولا بمكان معيَّن يصلّي فيه لا يصلي في غيره ، وزِيٍّ معيَّن لا يلبس سواه ، وعِبادة معيَّنة لا يلتفت إلى غيرها ، مع فضل غيرها عليها ، أو هي أعلى من غيرها في الدرجة ، وبُعْد ما بينهما كبعدِ ما بين السماء والأرض .

فإن البلاء والآفات ، والرياء والتصنُّع ، وعبادة النفس وإيثار مرادها والإشارة إليها ، كلها في هذا الأوضاع والرسوم والقيود ، التي حبسَتْ أربابها عن السيْر إلى قلوبهم ، فضلًا عن السيْر من قلوبهم إلى الله تعالى ، فإذا خرج أحدهم عن رسْمِه ووضعه وزِيِّه وقيْده وإشارته – ولو إلى أفضل منه – استهجن ذلك ، ورآه نقصًا وسقوطًا من أعين الناس ، وانحطاطًا لرتبته عندهم ، وهو قد انحطَّ وسقط من عيْن الله .

وقد يحسُّ أحدهم ذلك من نفسه وحاله ، ولا تدعه رسومه وأوضاعه وزيُّه وقيوده ، أن يسعى في ترميم ذلك وإصلاحه . وهذا شأن الكذّاب المرائي الذي يُبدي للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه ، العامل على عمارة نفسه ومرتبته ، وهذا هو النفاق بعينه ، ولو كان عاملًا على مراد الله منه وعلى الصدق مع الله؛ لأثقلتْه تلك القيود، وحبستْه تلك الرسوم ، ولرأى الوقوفَ عندها ومعها عيْنَ الانقطاع عن الله لا إليه ، ولَمَا بالَى : أيَّ ثوب لبِسَ ، ولا أيَّ عملٍ عَمِل ، إذا كان على مراد الله من العبد .

فكلام أبي القاسم الجنيد حقٌّ ، كـلامُ راسخ في الصدق ، عالمٍ بتفاصيله وآفاته ، ومواضيع اشتباهه بالكذب .

ـــ وأيضًا فحمْل الصدق كحمل الجبال الرواسي لا يُطيقه إلا أصحاب العزائم ، فهم يتقلَّبون تحته تقلُّب الحامل بحمْله الثقيل . والرياء والكذب خفيف كالريشة ، لا يجد له صاحبه ثقـلًا ألبتة ، فهو حامل له في أيِّ موضع اتفق ، بلا تعب ولا مشقَّة ولا كُلْفة ، فهو لا يتقلَّب تحت حمْله ، ولا يجد ثقلَه » .

قال بعضهم : لا يشمُّ رائحةَ الصدق عبدٌ داهَنَ نفسَه أو غيره .

الصِّدْقُ مِفْتاحُ الصِّدِّيقيَّة :

كما جاء في الحديث : « وإن الرجل لَيصدُق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقًا » .

فالصدق مفتاح الصِّدِّيقيَّة ومبدؤها وهي غايته ، فلا ينال درجتَها كاذبٌ ألبتة ، لا في قوله ، ولا في عمله ، ولا في حاله ، ولا سيَّما كاذب على الله في أسمائه وصفاته ، ونفي ما أثبته ، أو إثبات ما نفاه عن نفسه ، فليس في هؤلاء صِدِّيق أبدًا .

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرْعه بتحليل ما حرَّمه ، وتحريم ما لم

يُحرِّمه ، وإسقاط ما أوجبه ، وإيجاب ما لم يُوجبه ، وكراهة ما **أحبَّه**، واستحباب ما لم يحبَّه . كل ذلك منافٍ للصِّدِّيقيَّة .

وكذلك الكذب معه في الأعمال ؛ بالتحلِّي بحلية الصادقين المخلصين ، والزاهدين المتوكِّلين ، وليس في الحقيقة منهم .

قالـوا لنـا أرضُنـا أرضٌ مباركـةٌ ... فيها الهدىٰ والتُّقىٰ والوحيُ والرُّسُلُ
ما لي أراها وبحـرُ الزورِ يُغْرِقُهـا ... وأكـبرُ الأمـر في أرجـائهـا دَجَـلُ
لـم يَبْرحِ الـدمُ في يـومٍ مشانِقَهـا ... **حتى المشانِقُ قد ضاقتْ بمَن قُتِلُوا**
يـا لعنـةَ الـدم مَنْ يومًا يُطهِّرُهـا ... فالـزورُ في أهلهـا دِيـنٌ لـهُ مِلَـلُ
في أيِّ شيءٍ أمـامَ اللهِ قـد عـدَلُوا ... وكلُّهمْ كـاذبٌ قالـوا ومـا فَعَلُـوا
هـذا جبـانٌ وهـذا بـاعَ أُمَّتَـهُ ... وكلُّهـمْ في حِمَىٰ الشيطـان يَبتهلُ
مِن يـومِ أنْ مزَّقـوا أحكـامَ ملَّتهـمْ ... وثوبُنا الخِـزْيُ والبُهْتـانُ والـزلَلُ
عارٌ على الأرضِ كيفَ الزورُ ضاجَعَهَا ... كيفَ استوىٰ عندها الكذَّاب والرجُلُ
يا وصمةَ العارِ هُزِّي جِذْعَ نخلَتِنا ... يَسَّاقطُ القهْـرُ والإرهـابُ والـدَّجَلُ
ما زالَ في القلبِ يدمى جرْحُ قرْطبةٍ ... ومسجدٌ في كُهوفِ الصمْتِ يبتهلُ
فكـمْ بكَيْنا علىٰ أطـلال قرطبـةٍ ... وقُـدْسُنا لـم تـزلْ في العـار تغتسِلُ
في القـدس تبكي أمام اللهِ مِئـذنـةٌ ... ونهـرُ دمعٍ علىٰ المحـراب ينهملُ
وكعبــةٌ تشتكــي للهِ غُـرْبَتَهــا ... وتنزفُ الدمعَ في أعتابِ مَن رحَلُوا
كانوا رجالًا وكـانوا للورىٰ قبَسًا ... وجَذْوةً مِن ضميـرِ الصـدقِ تشتعلُ
لم يَبْقَ شيءٌ لنا من بعد ما غـربتْ ... شمسُ الرجال تساوىٰ اللصُّ والبطـلُ
لم يَبْقَ شيءٌ لنا مِن بعد ما سـقطتْ ... كُلُّ القلاع تساوىٰ السَّفْحُ والجَبَلُ
في سـاحةِ الملكِ أصنامٌ مزركشـةٌ ... **عصابةٌ مَن رَمَادِ الصبحِ تكتحلُ**
من أين تأتي لوجْهِ الزورِ مَكْرُمةٌ ... **وأنْهُرُ الملحِ هلْ ينمو بها الشـجَرُ**
القاتلُ الوغدُ لا تحميهِ مِسبَحَـةٌ ... حتـى إذا قـام وسْـطَ البيـتِ يعتمـرُ
في صفقـةِ العمـرِ دجَّـالٌ وسيِّدُهُ ... وأُمَّــةٌ في مــزادِ المــوتِ تنتحـرُ

يعقـوبُ لا تبتئسْ فالـذئبُ نعـرفُهُ ... مِن دمِ يوسفَ كلُّ الأهل قَدْ سَكِرُوا
أسمـاءُ تبكي أمامَ البيتِ في ألـم ... وابنُ الزبير على الأعناقِ يحتضـرُ
يا فارسَ الشِّعْرِ قلْ للشِّعرِ معـذرةً ... لنْ يسمعَ الشِّعرَ مَن بالوحي قد كَفَرُوا
وصِحْ على القبـر هـذي أمـةٌ رحلـتْ ... لـم يَبْـقَ مـن أهلِهـا ذِكْـرٌ ولا أثَرُ

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها ستأتي على الناس سنون خدَّاعة ، يصدَّق فيها الكاذب ، ويُكذَّب فيها الصادِق ؛ ويُؤْتَمنُ فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة » . قيل : وما الرويبضة ؟ قال : « السفيه يتكلَّم في أمر العامَّة »[1] .

أعلىٰ مراتبِ الصِّدْقِ : الصِّدِّيقيَّة ، وأعلىٰ مراتبِ الصِّدِّيقيَّة لأبي بَكْرٍ رضي الله عنه :

قال تعالى : ﴿ والذي جاء بالصدقِ وصدَّقَ به أولئكَ هُمُ المتقون ﴾ [الزمر : ٣٣] .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : والذي نفسي بيده ، إن الله سمَّى أبا بكر في السماء صِدِّيقًا .

فالذي جاء بالصدق : مَن هو شأنه الصدق في قوله وعمله وحـاله .

فالصدق : في هذه الثلاثة .

فالصدق في الأقوال : استواء اللسان على الأقوال ، كاستواء السنبلة على

(١) إسـناده جيد : رواه أحمد في مسنده ، وقال ابن كثير : إسـناده جيد . وقال الشـيخ أحمد شاكر : إسناده حسن .

والرَّابض : هو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور وقعد عن طلبها ، فهو التافه الخسيس الحقير .

ساقها . والصدق في الأعمال : استواء الأفعال على الأمر والمتابعة ، كاستواء الرأس على الجسد . والصدق في الأحوال : استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص ، واستفراغ الوسع ، وبذل الطاقة ؛ فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صِدِّيقيته ، ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه : ذروة سَنام الصديقية ، سُمي : «الصِّدِّيق» على الإطلاق . و «الصِّدِّيق» أبلغ من الصدوق ، والصدوق أبلغ من الصادق .

فأعلى مراتب الصدق : مرتبة الصِّدِّيقيَّة ؛ وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ ، مع كمال الإخلاص للمرسِل .

قال ابن القيم في « المدارج » ، (١/٣٩ - ٤٠) : « قال شيخنا : والصِّدِّيق أكمل من المُحَدَّث ؛ لأنه استغنى بكمال صِدِّيقيَّته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف ؛ فإنه قد سلَّم قلبَه كلَّه وسِرَّه وظاهره وباطنه للرسول ، فاستغنى به عمَّا منه .

قال : وكان هذا المحدَّث يعرض ما يُحَدَّث به على ما جاء به الرسول ؛ فإنْ وافقه قبِلَه ، وإلا ردَّه ، فعُلِمَ أنَّ مرتبة الصِّدِّيقية فوق مرتبة التحديث .

قال : وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : (حدَّثني قلبي عن ربي) . فصحيح أن قلبه حدَّثه ، ولكن عمَّن ؟ عن شيطانه ، أو عن ربِّه ؟ فإذا قال:(حدثني قلبي عن ربي) ؛ كان مسندًا الحديث إلى من يَعلم أنه حدَّثه به ، وذلك كذِب » .

والفهم عن الله ورسوله عُنوانُ الصديقية ، ومنشور الولاية النبوية ، وفيه تفاوتت مراتب العلماء ، حتى عُدَّ ألفٌ بواحدٍ .

صِدِّيق الأنصار سعْدُ بن معاذ ؛ قمَّةٌ سامِقةٌ في علوِّ الهمَّة في الصدْق بعد الصِّدِّيق الأكبر رضي الله عنه :

قال سعد بن معاذ رضي الله عنه: « ثلاثة أنا فيهنَّ قوي ، وفيما سواهنَّ ضعيف:

ما صليتُ صلاة منذ أسلمتُ فحدَّثتُ نفسي حتى أفرغ منها .

ولا شيَّعتُ جنازةً فحدّثتُ نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقولٌ لها ، حتى يُفرَغ من دفنها .

وما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول ، إلَّا علمتُ أنه حقٌّ » .

فقال ابن المسيِّب : ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلَّا في النبي ﷺ .

درجاتُ الصّدْق :

قال الهروي : « وهو على ثلاثِ درجات :

الدرجة الأولى : صدق القصد . وبه يصحُّ الدخول في هذا الشأن ، ويتلافى به كلّ تفريط ، ويتَدارَكُ به كلّ فائتٍ ، ويعمر به كلّ خراب .

وعلامة هذا الصادق : أن لا يتحمل داعية تدعو إلى نقْضِ عهد ، ولا يصبر على صحبة ضِدّ ، ولا يقعُد عن الجدِّ بحال » .

قال ابن القيم في « المدارج » ، (٢/٢٧٩ - ٢٨٠) : « يعني **بصدق القصْد** : كمال العزْم ، وقوة الإرادة ؛ بأن يكون في القلب داعية صادقة إلى السلوك ، وميل شديد يقهر السرَّ على صحَّة التوجُّه . فهو طلب لا يمازجه رياء ولا فتور ، ولا يكون فيه قسمة بحال ، ولا يصحُّ الدخول في شأن السفر إلى الله والاستعداد للقائه ، إلَّا به .

« **ويتلافى به كلّ تفريط** » : فإنه حامل على كل سبب ينال به الوصولَ ، وقطعِ كلِّ سبب يحول بينه وبينه ، فلا يترك فرصة تفوته ، وما فاته من الفُرصِ السابقة تَدَاركها بحسب الإمكان . فيصلح من قلبه ما مَزَّقتْه يدُ الغفلة والشهوة ، ويُعَمِّر منه ما خرّبتْه يد البطالة ، ويُوقد فيه ما أطفأته أهْويةُ النفس ، وَيَلُمُّ منه ما شعَّثتْه يد التفريط والإضاعة ، ويستردُّ منه ما نهبتْه أَكُفُّ اللصوص والسُّرَّاق ، ويزرع منه ما وجده بُورًا من أراضيه ، ويقلَع ما وجده شوكًا وشِبْرَقًا في نواحيه ،

ويستفرغ منه ما ملأته موادُّ الأخلاط الرديئة الفاسدة المترامية به إلى الهلاك والعَطَب ، ويُداوي منه الجراحات التي أصابتْه من عَبَرات الرياء ، ويغسل منه الأوساخ والحوْبات التي تراكمتْ عليه على تقادُم الأوقات ، حتى لو اطلع عليه لأحزنه سوادُه ووسخُه الذي صار دِباغًا له ، فيطهِّره بالماء البارد من ينابيع الصدق الخالصة من جميع الكَدُورات ، قبل أن يكون طهوره بالجحيم والحميم ؛ فإنه لا يجاور الرحمٰن قلبٌ دَنِسٌ بأوساخِ الشهوات والرياء أبدًا . ولا بدَّ من طهور ، فاللبيب يُؤْثر أسهلَ الطهورَيْن وأنفعَهما . والله المستعان .

وقوله : « **وعلامة هذا الصادق : أن لا يتحمَّل داعيةً تدعو إلى نقْضِ عهْدٍ** » : يعني أن الصادق حقيقة : هو الذي قد انجذبتْ قوى رُوحه كلها إلى إرادة الله وطَلَبه ، والسير إليه ، والاستعداد للقائه . ومن تكون هذه حاله : لا يحتمل سببًا يدعوه إلى نقضِ عهده مع الله بوجْهٍ .

تضيقُ بنا الدنيا إذا غِبْتمُ عنَّا ... وتزهقُ بالأشواقِ أرواحُنا منَّا
بعادُكمُ موتٌ وقربكمُ حَيا ... ولوْ غبتمُ عنَّا ولو نفَسًا مِتْنا
نعيشُ بذكراكُمْ ونحيا بقربكمْ ... ألَا إنَّ تَذكارَ الأَحبَّةِ يُنعشنَا

وقوله : « **ولا يصبر على صحبة ضِدٍّ** » : الضدُّ عند القوم : هم أهل الغفلة ، وقُطَّاع طريق القلب إلى الله . وأضرُّ شيء على الصادق : صحبتهم ، بل لا تصبر نفسُه على ذلك أبدًا ، إلّا جمْعَ ضرورة . وتكون صحبتهم له في تلك الحال بقالبه وشَبَحِه دون قلبه وروحه .

وشُغلتُ عن فهْمِ الحديثِ سوىٰ ... ما كان عنكَ فإنَّهُ شُغلي
وأُديمُ نحوَ مُحدِّثي وجهي ليَرىٰ ... أنْ قدْ عقلتُ وعندكمْ عقلي

فإنَّ هذا لما استحكمت الغفلة عليه كما استحكم الصدقُ في الصادق ، أحسَّت رُوحه بالأجنبيَّة التي بينه وبينهم بالمضادَّة ، فاشتدت النّفرة ، وقوي الهَرَب . وبحسب هذه الأجنبية وإحساس الصادق بها : تكون نفْرته وهربه عن الأضداد ؛

فإن هذا الضدَّ إن نطق أحسَّ قلب الصادق أنه نطق بلسان الغفلة والرياء ، والكبر وطلب الجاه . ولو كان ذاكرًا أو قارئًا ، أو مصلّيًا أو حاجًّا ، أو غير ذلك ، فنفر قلبه منه . وإن صمت أحسَّ قلبه أنه صمت على غير حضور وجمعيَّة على الله ، وإقبال بالقلب عليه ، وعكوف السرِّ عليه ، فينفر منه أيضا ؛ فإن قلب الصادق قوي الإحساس ، فيجد الغيرية والأجنبية من الضدِّ ، ويشمُّ القلبُ القلبَ كما يشمُّ الرائحة الخبيثة ، فيزوى وجهُهُ لذلك ويعتريه عبوس ، فلا يأنس به إلّا تكلُّفًا ، ولا يصاحبه إلّا ضرورة ، فيأخذ من صحبته قدْر الحاجة ؛ كصحبةِ مَن يشتري منه أو يحتاج إليه في مصالحه ، كالزوجة والخادم ونحوه .

قوله : « **ولا يقعد عن الجدِّ بحال** » : يعني أنه لما كان صادقًا في طلبه مستجمِعَ القوة ، لم يقعد به عزمُه عن الجد في جميع أحواله ؛ فلا تراه إلا جادًّا ، وأمره كلّه جدٌّ » .

« **الدرجة الثانية** : أن لا يتمنَّى الحياة إلّا للحقِّ ، ولا يشهد مِن نفسه إلا أثر النقصان ، ولا يلتفت إلى تَرْفيه الرُّخَص » .

قال ابن القيم : « أي : لا يحبُّ أن يعيش إلّا ليشبعَ من رضا محبوبه ، ويقوم بعبوديته ، ويستكثر من الأسباب التي تُقرِّبه إليه وتُدنيه منه ، لا لعلّة من علل الدنيا ولا لشهوة من شهواتها ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لولا ثلاثٌ لَمَا أحببتُ البقاء : لولا أن أحمل على جِياد الخيل في سبيل الله ، ومكابدة الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايبَ الكلام ، كما يُنْتَقى أطايبُ التمر » .

يريد رضي الله عنه : الجهاد ، والصلاة ، والعلم النافع . وهذه درجات الفضائل ، وأهلها هم أهل الزلْفى والدرجات العليا .

وقال معاذ رضي الله عنه عند موته : « اللهم إنك تعلم أنِّي لم أكن أحبُّ البقاء لجَرْي الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولا لنكح الأزواج ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الليل ، ومُزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حلق الذكْر » .

وقوله : « **ولا يَشْهد من نفسه إلا أثَرَ النقصان** » : يعني لا يرى نفسه إلا مقصِّرًا ، والموجب له لهذه الرؤية : استعظام مطلوبه ، واستصغار نفسه ومعرفته بعيوبها ، وقلَّة زاده في عينه . فمن عرف الله وعرف نفسه ، لم يرَ نفسه إلا بعين النقصان .

وأما قوله : « **ولا يلتفت إلى ترفيهِ الرخص** » : فلأنه - لكمال صدقه ، وقوة إرادته ، وطلبه للتقدُّم - يحمل نفسه على العزائم ، ولا يلتفت إلى الرفاهية التي في الرُّخَص .

وهذا لا بدَّ فيه من التفصيل ؛ فإن الصادق يعمل على رضا الحق تعالى ومحابِّه . فإذا كانت الرُّخَص أحبَّ إليه تعالى من العزائم ، كان الْتفاته إلى ترفيهها ، وهو عيْن صِدْقه؛ فإذا أفطر في السفر ، وقَصَرَ وجمع بين الصلاتين عند الحاجة إليه ، وخفَّف الصلاة عند الشغْل ، ونحو ذلك من الرُّخص التي يحبُّ الله تعالى أن يُؤْخَذَ بها ، فهذا الالتفات إلى ترفيهها لا ينافي الصدق . بل هاهنا نكتة ؛ وهي أنه فرَّق بين أن يكون التفاته إليها تَرَفُّهًا وراحة ، وأن يكون متابَعةً وموافَقةً ، ومع هذا فالالتفات إليها ترفُّهًا وراحةً لا ينافي الصدق ؛ فإن هذا هو المقصود منها ، وفيه شهود نعمة الله على العبد ، وتعبُّده باسمه : « البَرُّ ، اللطيف ، المحسن ، الرفيق» ؛ فإنه رفيقٌ يحبُّ الرفْق . وفي الصحيح:« ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمريْن ، إلَّا اختار أيسرَهما ؛ ما لم يكن إثمًا » لِمَا فيه من روح التعبُّد باسم : « الرفيق ، اللطيف » ، وإجمام القلب به لعبودية أخرى ؛ فإن القلب لا يزال يتنقَّل في منازل العبودية ، فإذا أخذ بترفيه رخصةِ محبوبه ، استعدَّ بها لعبودية أخرى . وقد تَقْطعه عزيمتُها عن عبودية هي أحبُّ إلى الله منها ، كالصائم في السفر الذي ينقطع عن خدمة أصحابه ، والمُفطِر الذي يضرب الأخبية ، ويسقي الركاب ، ويضم المتاع . ولهذا قال فيهم النبي ﷺ : « ذهب المفطرون اليومَ بالأجر » .

أما الرُّخص التأويلية ، المستندة إلى اختلاف المذاهب والآراء التي تُصيب

وتخطئ : فالأخذ بها عندهم عين البطالة ، منافٍ للصدق » .

الدرجة الثالثة : « الصدق في معرفة الصدق ؛ فإن الصدق لا يستقيم – في علم أهل الخصوص – إلّا على حرف واحد ، وهو أن يتفق رضا الحق بعمل العبد أو حاله أو وقته ، وإيقان العبد وقصده : بكون العبد راضيًا مرضيًا ، فأعماله إذن مُرضية، وأحواله صادقة، وقصوده مستقيمة. وإنْ كان العبد كُسي ثوبًا مُعَارًا ، فأحسن أعماله : ذنب ، وأصدق أحواله : زُور ، وأصفى قصوده : قُعود » .

قال ابن القيم: «يعني أن الصدق المتحقّق إنما يحصل لمَن صدق في معرفة الصدق، فكأنه قال : لا يحصل حال الصدق إلا بعد معرفة علْم الصدق .

ثم عَرَّف حقيقة الصدق ، فقال:« لا يستقيم الصدْق – في علم أهل الخصوص – إلَّا على حرف واحد ، وهو أن يتفق رضا الحق بعمل العبد ، أو حاله ، أو وقته ، وإيقانه ، وقصده » . وهذا مُوجب الصدق وفائدته وثمرته .

فالشيخ ذكَر الغاية الدالَّة على الحقيقة التي يُعرف انتفاء الحقيقة بانتفائها ، وثبوتها بثبوتها ؛ فإن العبد إذا صدق الله ، رضي الله بعمله وحاله ويقينه وقصده ، لا أن رضا الله نفس الصدق ، وإنما يعلم الصدق بموافقة رضاه سبحانه ، ولكن مِن أين يعلم العبد رضاه ؟!

فمن هاهنا كان الصادق مضطرًّا – أشدَّ ضرورة – إلى متابعة الأمر ، والتسليم للرسول ﷺ ، في ظاهره وباطنه ، والاقتداء به والتعبد بطاعته في كل حركة وسكون ، مع إخلاص القصد لله عز وجل ؛ فإن الله تعالى لا يرضيه من عبده إلا ذلك ، وما عدا هذا ففوتُ النفس، ومجرَّد حظِّها واتباع أهوائها ، وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات والخلَوات ما كان . فإن الله سبحانهُ وتعالى أبى أن يقبل من عبده عملًا أو يرضى به ، حتى يكون على متابعة رسوله ﷺ ، خالصًا لوجهه سبحانه .

ومن هاهنا يفارق الصادق أكثر السالكين ، بل يستوحش في طريقه ، وذلك لقلَّة سالكها ؛ فإن أكثرهم سائرون على طُرُق أذواقهم ، وتجريد أنفاسهم لنفوسهم ، ومتابعة رسوم شيوخهم . والصادق في وادٍ ، وهؤلاء في واد .

وقوله : « **فيكون العبد راضيًا مرضيًّا** » : لأنه قد رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولًا . فرضي الله به عبدًا . وأعمالُه إذن مَرضية لله ، وأحواله صادقة مع الله ، وقصوده مستقيمة على متابعة أوامر الله عز وجل .

وقوله : « **وإن كان العبد كُسِيَ ثوبًا معارًا ، فأحسن أعماله : ذنب ، وأصدق أحواله : زور ، وأصفى قصوده : قعود** » : هذا يُراد به أمران :

أحدهما : أن يُكسىٰ حِلْية الصادقين ، ويلبس ثيابهم على غير قلوبهم وأرواحهم ، فثَوب الصدق عارية له ، لا مِلْكٌ له، فهو كالمتشبع بما لم يُعْطَ. فإنه كلابس ثوبي زُور ، فهذا أحسن أعماله : ذنب يُعاقبُ عليه ، كما يعاقب : المقتول في الجهاد ، والقارئ القرآن المتنسِّك ، والمتصدِّق ، ويكونون أوَّل مَن تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة ، لمَّا لبسوا ثياب الصادقين على قلوب المرائين . وهذا معنًى صحيح ...... »[1] .

معاني الصدق وعلوُّ الهمَّة فيها :

الصدق الأول : الصدق في القول :

قال الجنيد : « حقيقة الصدق : أن تصدُق في موطن لا يُنجيك منه إلا الكذب » .

وقالوا : عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرُّك ؛ فإنه ينفعك ، ودَع الكذب حيث ترى أنه ينفعك ؛ فإنه يضرُّك .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٢٧٩ - ٢٨٤ .

قال ابن مسعود : لا يصلح الكذب في هزل ولا جدّ ، ولا أن يَعِدَ أحدُكم حبيبَه شيئًا ثم لا يُنجزه به .

قال إسماعيل بن عُبيد الله المخزومي : أمرني عبد الملك بن مروان أن أُعلِّم بنيه الصدقَ كما أعلِّمهم القرآن ، وأن أجنِّبهم الكذب وإن كان فيه القتل .

عمر بن عبد العزيز :

كلَّم عمر بن عبد العزيز الوليد في شيءٍ ، فقال له : كذبتَ . فقال عمر : ما كذبتُ مذْ علمتُ أن الكذبَ يَشين صاحبَه .

وقال مطرَّف بن طريف : ما أحبُّ أني كذبتُ وأنَّ لي الدنيا وما فيها .

إياس بن معاوية :

قال إياس رحمه الله : ما يسرُّني أنِّي كذبتُ كَذبة فغفرها الله عز وجل لي وأُعطِي عليها عشرة آلاف درهم ، ويعلم بها أبي معاوية بن قرَّة . يعني إجلالًا لأبيه لا يطلع عليه .

قال الفُضيل بن عياض : ما من مضغة أحبُّ إلى الله من لسان صدوق ، وما من مضغة أبغض إلى الله من لسان كذوب .

وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مَطِيَّتك ، والحقَّ سيفَك ، والله تعالى غايةَ طلْبتك .

وقال أيضا : مَن كان الصدق وسيلته ، كان الرضا من الله جائزته .

وقال ذو النون المصري : الصدق سيف الله في أرضه ، ما وُضِع على شيء إلا قطعَه .

ولهذا الصدق كمالات :

منها : الاحتراز عن المعاريض .

ومنها : أن يُراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربَّه ، كقوله :

﴿ وجَّهتُ وجهيَ للذي فطر السمواتِ والأَرض ﴾ ؛ فإن كان قلبه منصرفا عن الله مشغولًا بأماني الدنيا وشهواتها ، فهو كذب . وكقوله : ﴿إيَّاك نعبدُ﴾. فإذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله ، لم يكن كلامُه صِدقًا ، فكان عبْدًا لنفسه ، أو عبدًا للدنيا أو عبدًا لشهواته ؛ وفي الحديث : « تعِسَ عبدُ الدرهم ، تعِسَ عبدُ الدينار .. » . فسمَّى كلَّ مَن تقيَّد بشيء فهو عبدٌ له . فالعبد الحقُّ من أُعتق أوّلًا من غير الله فصار حرًّا ، فتحلُّ في قلبه العبودية لله . فالعبد الحق الذي وجوده لمولاه لا لنفسه ؛ وهذه درجة الصِّدِّيقين ، « عبد ذاهب عن نفسه » ، كما قال الجنيد : الحرية عن غير الله .

الإمامُ القدوةُ ، الوليُّ الربَّاني ، أبو مريم الغَطَفاني : ربعيُّ بنُ حِـراش ؛ بلَغ الغايَةَ في الصِّدْق فيُنجِّي الله ولَدَيْه بصدْقه :

كان ربعي من « أشجع » ، زعم قومه أنه لم يكذبْ قطُّ[(١)] .

« قال الأصمعي : أتى رجلٌ الحجَّاجَ ، فقال : إن ربعيَّ بن حِراش زعموا لا يكذب ، وقد قدِم ولداه عاصِيَيْن . قال : فبعث إليه الحجاج ، فقال: ما فعل ابناك ؟ قال : هما في البيت ، والله المستعان . فقال له الحجَّاج بن يوسف : هُما لك . وأعجبه صِدْقه »[(٢)] .

فـلله درُّه من صادقٍ وفّى بصدْقِهِ إلى الممات !!

عن الحارث الغنوي ، قال : « آلَى ربعي بن حراش أن لا تفترَ أسنانُه ضاحكًا ، حتى يعلم أين مصيره . قال الحارث : فأخبرَ الذي غسَّله أنه لم يزل متبسِّمًا على سريره ونحن نغسِّله ، حتى فرغنا منه . رحمة الله عليه »[(٣)] .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٦/١٠١ ب .
(٢) السير ٤/٣٦٠ .
(٣) السير ٤/٣٦١ .

الربيعُ بن حِراش : العبد الصالحُ الذي تكلَّم بعد الموت :

«عن عبد الملك بن عُمير عن ربعي قال : كنَّا أربعة إخوة ، فكان الربيع أكثرنا صلاةً وصيامًا في الهواجر ، وإنه تُوفِّي ، فبينا نحن حَوْله قد بعثنا من يبتاع له كَفَنًا ؛ إذْ كشف الثوب عن وجهِهِ ، فقال : السلام عليكم . فقال القوم : عليكم السلام يا أخا عيسى ، أبعْدَ الموت ؟ قال:نعم ، إني لقيتُ ربي بعدكم ، فلقيتُ ربًّا غيرَ غضبانَ ، واستقبلني بروحٍ وريحان وإستبرقٍ ، ألا وإن أبا القاسم ينتظر الصلاة عليّ فعجِّلوني . ثم كان بمنزلة حصاة رُمي بها في طسْتٍ »[1] .

وفي رواية : « ....وَعَدتُ رسولَ الله ﷺ أن لا يذهبَ حتى أُدركَه . قال : فما شبَّهتُ خروجَ نفسِهِ إلَّا كحصاة ألقيتْ في ماءٍ فرَسَبتْ » .

الجيلاني : يتوبُ على يديْه وهو طفلٌ قُطَّاعُ الطريقِ بِصدْقِه :

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله : بنيتُ أمري على الصدق ؛ وذلك أني خرجتُ من مكة إلى بغداد أطلب العلم ، فأعطتني أمي أربعين دينارًا ، وعاهدتْني على الصدق . ولمّا وصلنا أرض (همدان) خرج علينا عربٌ ، فأخذوا القافلة ، فمرَّ واحد منهم ، وقال : ما معك ؟

قلتُ : أربعون دينارًا ، فظنَّ أني أهزأ به ، فتركني . فرآني رجلٌ آخر ، فقال : ما معك ؟ فأخبرتُه ، فأخذني إلى أميرهم ، فسألني فأخبرتُه ، فقال : ما حَمَلَك على الصدق ؟

قلتُ : عاهدتْني أمي على الصدق ؛ فأخاف أن أخون عهدها . فصاح باكيًا ، وقال : أنت تخاف أن تخون عهدَ أمِّك ، وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله !! ثم أمَر بَردِّ ما أخذوه من القافلة ، وقال : أنا تائبٌ لله على يديْك . فقال مَن معه : أنت كبيرُنا في قطْعِ الطريق ، وأنت اليوم كبيرنا في التوبة . فتابوا جميعًا

---

(١) الحلية ٤/٣٦٧ ، ٣٦٨ والسير ٤/٣٦١، ورجالُ إسنادِه ثقات، ورواه عن عبد الملك غيرُ واحد .

ببركة الصدق وسببه .

الصدقُ الثاني : الصِّدْق في النيَّةِ والإِرَادَة :

وذلك يرجع إلى الإخلاص ، وهو أن يكون لا باعثَ له في الحرَكات والسَّكَنات إلّا الله تعالى ، فإنْ مازجه شوْبٌ من حظوظ النفس بطل صِدق النية ، وصاحِبُه يجوز أن يُسمَّى كاذبًا . ففي حديثِ (أولُ من تُسَعَّر بهم النار) : « كذبتَ ، بل أردتَ أن يُقال : فلان عالم » . فإنه لم يكذبْه و لم يقلْ له : لمْ تعمل . ولكن كذَّبه في إرادته ونيَّته ، قال تعالى عن المنافقين : ﴿ **والله يشهدُ إنهم لَكاذبون** ﴾ .

فمن شهد في إخلاصه الإخلاصَ ، احتاج إخلاصُه إلى إخلاص .

الصدقُ الثالث : الصدقُ في العَزْمِ :

فإنَّ الإنسان قد يقدِّم العزمَ على العمل ، فيقول مثلًا في نفسه : إنْ رزقني الله مالًا تصدَّقتُ بجميعه . وهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه ، وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوعُ ميْلٍ وتردُّدٍ وضعْفٍ يُضادُّ الصدق في العزيمة .

والصادق في عزْمه : هو الذي تصادِف عزيمته في الخيرات كلها قوةً تامَّةً ليس فيها ميْل ولا ضعف ولا تردُّد ، بل تسخو نفسه أبدًا بالعزْم المصمِّم الجازم على الخيرات ، وهو كما قال عمر رضي الله عنه : « لَأَنْ أقدَّم فتُضْرَب عُنقي ، أحبُّ إليَّ من أنْ أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه » .

ومراتب الصِّدِّيقين في العزائم تختلف ؛ فقد يصادف العزْم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ، ولكن إذا خُلِّي ورأيه لم يقدّم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه ، بل في الصادقين والمؤمنين مَنْ لو خُيِّر بين أن يُقتَل هو أو أبو بكر ، كانت حياته أحبَّ إليه من حياة أبي بكر الصديق .

الصِّدْق الرابعُ : الصدقُ في الوفاءِ بالعَزْم :

فإن النفسَ قد تسخو بالعزمِ في الحالِ ؛ إذ لا مشقَّة في الوعد والعزم ، فـإذا حُقَّت الحقـائق ، وهاجت الشهوات ، انحلَّتِ العزيمة و لم يتحقَّق الـوفاء بالعزم .

قال تعالى : ﴿ **مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليهِ فمنهمْ مَن قضىٰ نحْبَهُ ومنهمْ من ينتظر وما بدلوا تبديلًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : « عمِّي أنس بن الـنضر – سُمِّيتُ به – لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ ، فكبُر عليه ، فقال : أول مشهد قد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه !! أما والله ، لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ، لَيرينَّ الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحدٍ ، من العام المقبِل ، فاستقبله ، فقال : يا أبا عمرو ، إلى أين ؟ قال : واهًا لـريح الجنـة !! أجـدها دون أُحد . فقاتل حتى قُتِل ، فوُجد في جسـده بضعٌ وثمانون ؛ من بين ضربةٍ وطعنةٍ ورميةٍ . قالت عمَّتي الرُّبيِّع بنتُ النضْر : فمـا عرفتُ أخي إلَّا ببَنَانِه . ونزلتْ هذه الآية : ﴿ **رجالٌ صدقوا ما عاهـدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبَه ومنهم من ينتظرُ وما بدلوا تبديلًا** ﴾»[1] .

لله درُّه من صادق ربانِّي !! يجد حلاوة العمل قبل الشروع فيه ، يجد ريح الجنة قبل أن يقاتل ! وما هذا إلَّا لصدقه في الوفاء بالعزم !!

وعن نعيم بن هبار ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الشهداء الذين يُقاتلون في سبيل الله في الصف الأول ، ولا يلتفتون بوجوههم حتى يُقتلُوا ، فأولئك يُلقوْن في الغُرَف العُلا من الجنة ، يضحك إليهم ربُّك ، إن الله تعالى إذا ضحِك

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي في « جامعه » في كتاب التفسير ، وقال : حسن صحيح . والنسـائي في « الكـبرى » ، وصححه الألباني في « صحيح » الترمذي رقم ٢٥٥٧ ، وهو عند البخاري مختصرًا : أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر ، وهو عند مسلم أيضًا.

إلى عبده المؤمن فلا حسابَ عليه »(١) .

الصدقُ الخامس : الصدق في الأعمال :

مخالفة الظاهر للباطن عن قصْد هي الرياء ، وإن كانت عن غير قصْدٍ ، يفوت بها الصدقُ ؛ فقد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفًا بذلك الوقار ، فهذا غير صادق في عمله ، وإن لم يكن مرائيًا .

قال يزيد بن الحارث: إذا استوتْ سريرةُ العبد وعلانيته فذلك النَّصْفُ ، وإذا كانت سريرتُه أفضلَ من علانيته فذلك الفضل ، وإن كانت علانيتُه أفضل من سريرته فذلك الجوْر .

وقال عبد الواحد بن زيد : كان الحسن إذا أَمَرَ بشيء كان من أعمل الناس به ، وإذا نهى عن شيء كان من أتْرَكِ الناس له ، و لم أرَ أحدًا قطُّ أشبَهَ سريرةً بعلانيةٍ منه .

وكان أبو عبد الرحمٰن الزاهد يقول : إلهي ، عاملتُ الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة ، وعاملتُك فيما بيني وبينك بالخيانة . ويبكي .

وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق موافقة الحقِّ في السر والعلانية .

فمساواة السريرة للعلانية أحدُ أنواع الصدق .

الصدقُ السادس : الصدقُ في مقامَاتِ الدِّين:

ومنها :

أ – الصدق في المحاسبة والمجاهدة والتوبة :

قال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيرَه كما لم

(١) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط ، وأحمد ، وأبو يعلى وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » رقم ٣٧٤٠ .

يختَرْ عليك غيرَك ؛ قال تعالى : ﴿ **هو اجتباكُمْ** ﴾ .

وقـد مرَّ بك في المحـاسبة والمجاهدة قولُ ابن الصمَّة ، وموته من جرَّاء المحاسبة .

أما التوبة :

فالصدق وعلو الهمة فيها : أن تكون توبةً نصُوحًا، لا يعودُ إلى الذنب مرةً ثانية حتى يعودَ اللبنُ في الضرْع ، ويخاف أنه لم يؤدِّها على الوجه المطلوب ، وأنه ما وفَّاها حقَّها و لم يبذلْ جهده في صحتها ، وأنها توبة علة وهو لا يشعر ، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله فتاب للحال ، لا خوفًا من ذي الجلال ، أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكدِّ في تحصيل الذنب ، أو اتقاءَ ما يخافه على عِرْضهِ ومالهِ ومنصبه ، **أو لضعفِ داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته. وإنما يتوب تعظيمًا لله** ولحرماته وإجلالًا له ، وخشيةً من سقوط المنزلة عنده ، ومن البعد والطرْد عنه ، **والحجاب عن رؤيةِ وجهه في الدار الآخرة . ولا يتوب لعزّ التوبة وإنما للتقوى، وإنْ علم أن العزَّ يحصل له بالتوبة والطاعة .**

توْبة رجل من بني إسرائيل قَتَل مائةَ نفس :

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كان في بني إسرائيل رجلٌ قَتَل تسعةً وتسعينَ إنسانًا ، ثم خرج يسأل ، فأتى راهبًا فسأله ، فقال له : أَلي توبة ؟ قال : لا. **فقتله، فجعل** يسأل ، فقال له رجل : ائْتِ قريةَ كذا وكذا . فأدركه الموت فنأى بصدره نحوها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله إلى هذه : **أن تقرَّبي، وأوحى الله إلى هذه: أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما. فوجداه** إلى هذه أقرب بشبرٍ ، **فغُفرَ له** » .

ماعز والغامدية :

عن بريدة رضي الله عنه قال : جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، طهِّرني . فقال: «ويحك !!! ارجعْ فاستغفر الله وتبْ إليه ». قال: فرجع غيرَ بعيد ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ، طهِّرني . فقال رسول الله ﷺ : « ويحك !!! ارجعْ فاستغفر الله وتبْ إليه » . قال: فرجع غيرَ بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله، طهِّرني. فقال النبي ﷺ مثلَ ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: « فيمَ أُطهِّرك ؟ ». فقال: من الزنى . فسأل رسول الله ﷺ : « أبِهِ جنون ؟ » . فأُخبر أنه ليس بمجنون . فقال : « أشَرب خمرًا ؟ » . فقام رجل فاستنكهه[1] ، فلم يجد منه ريحَ خمر . قال : فقال رسول الله ﷺ : « أزنيتَ ؟ » فقال : نعم . فأمر به فرُجم ، فكان الناس فيه فرقتَيْن : قائل يقول : لقد هلَك . لقد أحاطت به خطيئته . وقائل يقول : ما توبة أفضل من توبة ماعز ؛ إنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده ، ثم قال : اقتلني بالحجارة . قال : فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس ، فسلَّم ثم جلس ، فقال : « استغفروا لماعز بن مالك » . قال : فقالوا : غفر الله لماعز بن مالك . قال : فقال رسول الله ﷺ : « لقد تاب توبة لو قُسِمَتْ بين أمَّة لوسِعَتْهم » .

وفي حديث مسلم عن الغامدية وشأنها : « فجاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله، إني قد زنيت فطهِّرني. وأنه ردَّها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله ، لِمَ تردُّني ؟ لعلَّك أن تردَّني كما رددتَ ماعزًا ، فوالله إني لَحُبْلَى . قال : « إمَّا لا فاذهبي حتى تلدي » . فلمَّا ولدتْ أتته بالصبي في خرقة ، قالت : هذا قد ولدتُه . قال : « فاذهبي فأرضعيه حتى تَفطميه » . فلما فطمتْه أتته بالصبي في يده كِسْرة خبز، فقالت: هذا يا نبيَّ الله قد فطمتُه، وقد أكل الطعام.

---

(١) أي شمَّه .

فدفعَ الصبيَّ إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحُفر لها إلى صدْرها ، وأمر الناس فرجموها ، فيُقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها ، فتنضَّح الدم على وجهِ خالد فسبَّها ، فسمع نبيُّ الله ﷺ سبَّه إيَّاها ؛ فقال : « مهلًا يا خالد، فوالذي نفسي بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكسٍ[1] لَغُفر له». ثم أمر بها فصلى عليها ودُفنتْ » .

وفي الحديث : الحرص التامُّ من ماعز والغامدية على تعجيل الطهارة ؛ إذ في إقامة الحدِّ حصولُ البراءة بطريق متيقَّن دون ما يتطرَّقُ إليه احتمال .

توْبةُ كعبِ بن مالك مثلٌ للتوبة النصوح :

عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، أنَّ عبد الله بن كعب كان قائد كعب من بنيه حين عَمِيَ . قال : سمعتُ كعب بن مالك يحدِّث حديثه حين تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قال كعب بن مالك : لم أتخلفْ عن رسـول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطُّ إلَّا في غزوة تبوك ، غير أني قد تخلَّفتُ في غزوة بدرٍ و لم يعاتِبْ أحدًا تخلَّف عنه ، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيرَ قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعاد ، ولقـد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبُّ أنَّ لي بها مشهدَ بدرٍ ، وإن كانت بدر أذكرَ في الناس منها ، وكان من خبري حين تخلَّفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك : أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيْسَر مني حين تخلفتُ عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعتُ قبلها راحلتيْن قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، فغزاها رسـول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ ، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا ، واستقبل عدوًّا كثيرًا ، فجلا للمسلمين أمرَهم ليتأهَّبوا أهبة غزْوهم ، فـأخبرهم بـوجههم الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد بذلك الديوان) . قال كعب : فقلَّ رجلٌ يريد

(١) المكْس : الجِباية .

أن يتغيَّب يظنُّ أن ذلك سيخفىٰ له ما لم ينزلْ فيه وحيٌ من الله عز وجل . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر ، فتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معه ، فأرجع ولم أقضِ شيئًا ، وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردتُ . فلم يزلْ ذلك يتمادىٰ بي حتى استمرَّ بالناس الجدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جهازي شيئًا ، ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقضِ شيئًا ، فلم يزلْ ذلك يتمادىٰ بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممتُ أن أرتحل ، فأدركهم ، فيا ليتني فعلتُ ، ثم لم يُقدَّر ذلك لي ، فطفِقتُ إذا خرجتُ في الناس بعدَ خروج رسول الله ﷺ ، يُخزنني أني لا أرى لي أسوةً إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق ، أو رجلًا ممَّن عذَرَ الله من الضعفاء، ولم يذكرْني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » . قال رجل من بني سَلِمة : يا رسول الله ، حبَسَه بُرْداهُ والنظرُ في عطفيه . فقال له معاذ بن جبل : بئسَ ما قلتَ ! والله يا رسول الله ، ما علمنا عليه إلَّا خيرًا . فسكتَ رسول الله ﷺ ، فبينما هو على ذلك رأى رجلًا مبيضًا يزول به السراب ، فقال رسول الله ﷺ : « كنْ أبا خيثمة » . فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري ، وهو الذي تصدَّق بصاعِ التمر حين لمزَه المنافقون . قال كعب بن مالك : فلمَّا بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلًا من تبوك، حضرني بثي ، فطفقتُ أتذكَّر الكذبَ ، وأقول : بمَ أخرج من سُخْطه غدًا ؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي ، فلما قيل لي : إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادمًا ، زاحَ عني الباطل حتى عرفتُ أني لن أنجوَ منه بشيء أبدًا ، فأجمعتُ صدِقَه ، وصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان إذا قدِم من سفرٍ بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتيْن . ثم جلس للناس ، فلمَّا فعل ذلك جاءَه المخلَّفون وطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا ، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم؛ ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئتُ، فلمَّا سلَّمتُ تبسَّمَ تبسُّم المغضَب ، ثم قال: «تعال». فجئتُ أمشي حتى

جلست بين يديه ، فقال لي : « ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظهرَك ؟ » . قال: قلتُ: يا رسول الله، إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا، لَرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أُعطِيتُ جدلًا ، ولكني والله لقد علمتُ لَئِن حدثتُك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني ، لَيوشكنَّ الله أن يُسخِطَك عليَّ ، ولئنْ حدَّثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ عَلَيّ فيه ، إني لَأرجو فيه عُقبى الدار ، والله ما كان لي عذرٌ ، والله ماكنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلَّفتُ عنك .

قال رسول الله ﷺ : « أمَّا هذا فقد صدق ، فقمْ حتى يقضيَ الله فيك » .

فقمتُ وثار رجالٌ من بني سَلَمة فاتَّبعوني ، فقالوا لي : والله ما عَلِمناك أذنبتَ ذنبًا قبل هذا ، لقد عجزتَ في ألا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلَّفون ؛ فقد كان كافيَكَ ذنبَكَ استغفارُ رسول الله ﷺ لك . قال : فوالله ، ما زالوا يؤنِّبونني حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأُكذب نفسي .

قال : ثم قلتُ لهم : هل لقي هذا معي من أحدٍ ؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان قالا مثلَ ما قلتَ ، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك . قال : قلتُ : مَنْ هما ؟ قالوا : مرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لي رجلَيْن صالحَيْن قد شهِدا بدرًا ، فيهما أسوة . قال : فمضيتُ حين ذكروهما لي .

قال : ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامِنا أيها الثلاثة من بين مَن تخلَّف عنه . قال : فاجتنَبَنا الناسُ . وقال : تغيَّروا لنا حتى تنكرتْ لي في نفسي الأَرض ، فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً ، فأمَّا صاحبايَ فاستكانا وقعدا في بُيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدَهم ، فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأُسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتَيْه بردِّ السلام أم لا ؟ ثم أصلِّي قريبًا منه وأسارقُه النظرَ ، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظرَ إليَّ ، وإذا التفتُّ نحوَه أعرَضَ عني ، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين ، مشيتُ حتى تسوَّرتُ جدارَ حائطِ أبي قتادة وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إليَّ فسلَّمتُ عليه ، والله ما ردَّ عليَّ السلام ، فقلتُ له : يا أبا

قتادة، أنشُدكَ بالله، هل تعلمني أني أحبُّ الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، فعدتُ فناشدتُه فسكت ، فعدتُ فناشدتهُ ، فقال : الله ورسوله أعلم . ففاضتْ عيناي ، وتولَّيتُ حتى تسوَّرتُ الجدار ، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة ، إذا نَبَطِيٌّ - من نبطِ أهل الشام ممَّن قدِم بالطعام يبيعه بالمدينة - يقول : مَن يدلُّ على كعب بن مالك ؟ قال : فطفِقَ الناسُ يُشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إليَّ كتابًا من مَلِك غسَّان ، وكنت كاتبًا فقرأتهُ ، فإذا فيه : أمَّا بعد ؛ فإنه قد بلغنا أنَّ صاحبَك قد جفَاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالْحَقْ بنا نُواسِك . قال: فقلتُ حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء !! فتيامَمتُ بها التَّنُّورَ فسجرتُها بها ، حتى إذا مضتْ أربعون من الخمسين واستلبث الوحي ، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمُرك أن تعتزلَ امرأتك. قال: فقلتُ: أُطلِّقها أم ماذا أفعل؟ قال : لا ، بل اعتزِلْها فلا تَقْربنَّها . قال : فأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك . قال : فقلتُ لامرأتي : الحقي بأهلِك ، فكوني عندهم حتى يقضيَ الله في هذا الأمر . قال : فجاءتِ امرأةُ هلال بن أُميَّة رسولَ الله ﷺ فقالت له : يا رسول الله ، إن هلال بن أُمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكْرَه أن أخدمَه ؟ قال : « لا ، ولكن لا يَقربنَّك » . فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك ؛ فقد أذِن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلتُ : لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يُدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنتُه فيها وأنا رجلٌ شابّ ؟ قال : فلبثتُ بذلك عشرَ ليالٍ ، فكمل لنا خمسون ليلةً من حين نهي عن كلامنا . قال:ثم صلَّيتُ صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلةً على ظهر بيتٍ من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا : قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحُبتْ ، سمعتُ صوتَ صارخٍ

أوفى على « سلْع »[١] ، يقول بأعلى صوته : ياكعب بن مالك ، أبشرْ . قال : فخررتُ ساجدًا ، وعرفتُ أنْ قد جاء فرج . قال:فآذنَ رسولُ الله ﷺ الناسَ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشِّروننا ، فذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشِّرون ، وركَضَ رجلٌ إليّ فرسًا ، وسعى ساعٍ من « أسلم » قِبلي ، وأوفى الجبلَ فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلمَّا جاءني الذي سمعتُ صوتَه يبشِّرني ، فنزعتُ له ثوبيَّ . فكسوتهما إيَّاه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبيْن فلبستُهما ، فانطلقتُ أتأمَّم رسولَ الله ﷺ ، يتلقَّاني الناسُ فوْجًا فوجًا ، يُهنِّئوني بالتوبة ويقولون : لِتهنئك توبة الله عليك . حتى دخلتُ المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد وحوله الناس ، فقام طلحة بن عُبيد الله يُهرول حتى صافحني وهنّأني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة . قال كعب : فلمَّا سلَّمتُ على رسول الله ﷺ وهو يبرقُ وجهُه من السرور ويقول : « ابشرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أُمُّك » . قال : فقلتُ : أمن عندك يا رسول الله ، أم من عند الله ؟ فقال : « لا ، بل من عند الله » . وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُهُ ، كأنَّ وجهَه قطعة قمر . قال : وكنا نعرف ذلك . قال : فلمَّا جلستُ بين يديْه قلتُ : يا رسول الله ، إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي ، صدقةً إلى الله وإلى رسوله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « **أمسكْ بعض مالك فهو خير لك** » . قال : فقلتُ : فإني أُمسِكُ سهمي الذي بخيبر . قال : فقلتُ : يا رسول الله ، إن الله إنما أنجاني بالصدق ، وإنَّ من توبتي ألَّا أُحدث إلَّا صِدقًا ما بقيتُ . قال : فوالله ما علمتُ أنَّ أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث ، منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، أحسنَ مما أبلاني الله به . والله ما تعمدتُ كذبةً منذ قلتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: فأنزل الله عزَّ وجل : ﴿**لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار**

(١) سلْع : جبل في المدينة .

الذين اتبعوهُ في ساعةِ العُسْرةِ منْ بعد ما كادَ يَزيغُ قلوبُ فريقٍ منهمْ ثمَّ تابَ عليهم إنه بهم رءوف رحيم وعلى الثلاثةِ الذين خُلِّفُوا حتَّى إذا ضاقتْ عليهم الأرضُ بما رحُبَتْ وضاقت عليهم أنفسهم .. ﴾حتى بلغ ﴿ **يأيها الذينَ آمنوا اتقوا الله وكونوا معَ الصادقين** ﴾ [التوبة :١١٧ - ١١٩] .

قال كعب : والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قطُّ ، بعد إذ هداني الله للإسلام ، أعظمَ في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألَّا أكونَ كذبته فأهلِك كما هلَك الذين كذبوا . إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد؛ فقال الله: ﴿ **سيحلفونَ بالله لكمْ إذا انقلبْتمْ إليهم لِتعرضوا عنهم فأَعرِضُوا عنهم إنهم رِجْسٌ ومأْواهم جهنَّم جزاءً بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لِترضَوْا عنهمْ فإنْ ترضوا عنهمْ فإنَّ الله لا يرضىٰ عن القوم الفاسقين** ﴾ [التوبة : ٩٥ - ٩٦] .

قال كعب : كنا خُلِّفنا أيّها الثلاثة عن أمْرِ أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلَفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمْرَنا حتى قضىٰ الله فيه ، فبذلك قال الله عزَّ وجل : ﴿ **وعلىٰ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا** ﴾ [التوبة : ١١٨] وليس الذي ذكر الله **ممَّا خُلِّفْنا تخلُّفَنا** عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيَّانا ، وإرجاؤه أمْرنا عمَّن حلَف له واعتذر إليه فقَبل منه » رواه مسلم(١) .

توْبةُ أبي محمد حبيب العجمي :

عن أبي نُعيم الحافظ ، قال : كان سببَ إقبال حبيب أبي محمد على الآجلة وانتقاله عن العاجلة ، حضوره مجلس الحسن ، فوقعتْ موعظتُه في قلبه ، فخرج عما كان يتصرَّف فيه ، ثقة بالله **ومُكتفيًا** بضمانه ، فاشترى نفسه من الله ، فتصدَّق بأربعين ألف درهم في أربع دَفْعاتٍ ، تصدَّق بعشرة آلاف درهم في أول النهار ، فقال : يا ربّ ، قد اشتريتُ نفسي منك بهذا . ثم أَتْبَعَها بعشرة آلافٍ

(١) صحيح مسلم ، جـ ٤ ، كتاب التوبة .

أخرى ، وقال : هذه شكرًا لما وفَّقْتني له . ثم أخرج عشرة آلافٍ أخرى ؛ وقال : يا ربّ ؛ إن لم تقبلْ مني الأولى والثانية ، فاقبلْ مني هذه . ثم تصدَّق بعشرة آلافٍ أخرى، فقال: يا ربّ، إنْ قبلت مني الثالثة، فهذه شكرًا لها[(١)] .

تَوْبةُ الفُضَيْل بنِ عِيَاض :

كان الفضيل يقطع الطريق وحدَه ، فخرج ذاتَ ليلة ليقطعَ الطريق ، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلًا ، فقال بعضهم لبعض : اعدلوا بنا إلى هذه القرية ، فإن أمامنا رجلًا يقطع الطريق ، يُقال له : الفُضيل . فسمع الفضيل فأرعَدَ ، فقال: يا قوم، أنا الفضيل، جُوزوا، والله لأجتهدنَّ أن لا أعصي الله أبدًا. فرجع عمَّا كان عليه .

ورُوي من طريق أخرى : أنه أضافهم تلك الليلة ، وقال : أنتم آمِنون من الفضيل . وخرج يرتاد لهم علَفًا ثم رجع ، فسمع قارئًا يقرأ : ﴿ **ألَمْ يأنِ للذينَ آمنُوا أنْ تخشعَ قلوبُهم لذكْرِ الله** ﴾ [الحديد : ١٦] . قال : بلى والله ، قد آن . فكان هذا مبتدأ توبتِه[(٢)] .

تَوْبةُ بِشْر بنِ الحَارث الحَافي :

كان بشر في زمن لَهْوه في داره ، وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون ، فاجتاز بهم رجل من الصالحين فدقَّ الباب فخرجتْ إليه جارية ، فقال : صاحب هذا الدار حُرٌّ أم عبدٌ ، فقالت : بل حرٌّ . فقال : صدقتِ ؛ لو كان عبدًا لاستعملَ أدب العبودية وترَك اللهو والطرب . فاستمع بشرٌ محاورتهما ، فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا ، وقد ولَّى الرجل ، فقال للجارية : ويحكِ ! من كلَّمك على الباب ؟ فأخبرتْه بما جرى ، فقال : أيّ ناحية أخذ الرجل ؟ فقالت : كذا . فتبعه

---

(١) التوابين ٢٠١ .

(٢) التوابين ص ٢٠٧ – ٢٠٨

بشر حتى لَحِقَه ، فقال له : يا سيدي ، أنت الذي وقفتَ بالباب وخاطبْتَ الجارية ؟ قال : نعم . قال : أعِدْ عليَّ الكلام . فأعاده عليه ، فمرَّغ بشرٌ خدَّيْه على الأرض ، فقال : بل عبدٌ . ثم هام على وجهه حافيًا حاسرًا حتى عُرِف بالحَفَاءِ ، فقيل له : لِمَ لا تلبسُ نعلًا ؟ قال : لأني ما صالحني مولايَ إلَّا وأنا حافٍ ، فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات[١] .

ب - الصِّدْقُ في التوكُّل :

وقد مرَّ .

أن تَرِدَ عليك موارد الفاقات ، فلا تسمو إلّا إلى مَن إليه الكفايات ، والاستسلام لتدبير الربِّ لك فيما يفعله بك ، لا فيما أمَرك بفعله ، وأن تُنزل أمورَك كلها بالله طلبًا واختيارًا ، لا كرها واضطرارًا .

قال رسول الله ﷺ : « إن رجلًا مِن بني إسرائيلَ سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار ، فقال ائتني بالشهداء أُشهدهم . فقال : كفىٰ بالله شهيدًا . قال : فأتني بالكفيل. قال كفى بالله كفيلًا. قال: صدقتَ: فدفَعَها إليه إلى أجل مسمًّى ، فخرج في البحر فقضى حاجته ، ثم التمسَ مركبًا يركبها يُقدِم عليها للأجل الذي أجَّله ، فلم يجد مركبًا ، فأخذ خشبة ، فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار ، وصحيفةً منه إلى صاحبه ، ثم زجَّ[٢] موضعَها ، ثم أتى بها إلى البحر ، فقال : اللهم إنك تعلم أني تسلَّفتُ فلانًا ألف دينار ، فسألني كفيلًا فقلتُ : كفى بالله كفيلًا ، وسألني شهيدًا فقلتُ : كفى بالله شهيدًا . فرضي بك ، وإني جَهِدتُ أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أجد ، وإني أستودعُكَهَا . فرمى بها إلى البحر ، حتى وَلَجتْ[٣] فيه ، ثم انصرف ، فخرج الرجل الذي كان

---

(١) التوابين صـ ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) زجّ : أي سوّى موضع النقر وأصلحه .

(٢) وَلَجَ : دخل .

أسلفه ، ينظر لعلَّه يجد مركبًا قد جاء بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حَطَبًا ، فلمَّا نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدِم الذي كان أسلفه ، فأتى بالألف دينار ، وقال : والله ما زلتُ جاهدًا في طلب مركبٍ لآتيك بمالك ، فما وجدتُ مركبًا قبل الذي أتيتُ فيه . قال : كنتَ بعثتَ إليَّ شيئًا ؟ قال أُخبرك أني لم أجدْ مركبًا قبل الذي جئتُ فيه . قال : فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثتَ في الخشبة . فانصرفَ بالألفِ دينار راشدًا[1] .

جـ – الصدقُ في الخوْف :

وقد مرّ علو هِمَّة زرارة بن أوفى وعليٍّ زين العابدين وعلي بن الفُضيَل ؛ إذا مرّوا بآيةٍ فيها ذكْر النار فكأنَّ زفيرها في آصال آذانهم .. قد براهم الخوْف بَرْيَ القِداح ، ويقال : قد خُولِطوا . وما خُولطوا ؛ ولكنه الخوْف !!

د ــ الصدقُ في الرضا :

وقد مرَّ .

هـ – الصدق في الاستقامة :

وقد مرَّ .

يقول الشاعر :

أرْدْناكمُ صِرْفًا فلمَّا مُزِجتُمُ ... بعُدْتُمْ بمقدار الْتفاتكمُ عَنَّا
وقلْنا لكمْ لا تُسْكِنوا القلْبَ غيرَنا ... فأسكنتمُ الأغيارَ ما أنتمُ مِنَّا

لو غفل عنه مولاه لحظة ، فأيّ شيء يعوِّض خسارته فيما فاته ؟ !

قال الشاعر :

كلُّ شيءٍ لكَ مغفُو ... رٌ سوى الإعراض عنا
قدْ غفرْنا لك ما فا ... ت بقي ما فات مِنَّا

(١) رواه أحمد (٣٤٨/٢) ، البخاري (١٥٩/٢) ، (١٢٤/٣) .

وصدق في الدعاء .

وصدق في تعظيم حُرُمات الله .

وصدق في الحياء والحبِّ والشوْق إلى الله .

أمَّا في عصرنا :

يُباح كلُّ شيء ... لمن ؟

لكاتبٍ أقلامُهُ مشدودةٌ ... بحبالِ صوتِ جلالةِ الأُمراءِ
ولثائر يرنو إلى الحرية الْـ ... حمراءِ عَبْرَ الليلةِ الحمراء
ويعومُ في عَرَقِ النضالِ ويحتسي ... أنخابَهُ في صحَّةِ الأشلاءِ
للموثِقين على الرِّباطِ رباطنا ... والصانعينَ النصرَ في صنعاءِ
ممّنْ يَرصُّون الصكوكَ بزحْفِهِمْ ... ويُناضلونَ برايةٍ بيضاءِ
ويُسافحونَ قضيةً من صُلبهِمْ ... ويُصافحونَ عداوةَ الأعداءِ
ويُخلِّفون هزيمةً لمْ يعترفْ ... أحدٌ بها مِنْ كثرةِ الآباءِ
المُعْلنين من القصور قصورَهمْ ... واللاقطينَ لقيطةَ اللُّقطاءِ

وفي عصْرِنا :

في كلِّ يوم يرتعُ الكَذِبُ الرَّخيص
على ضفاف الأُمَّةِ الثكْلَى
فترقصُ موْجةُ المذياع
تزهو الشاشة الصفراء
تنبت في أيادي الناس
مزبلة نسمِّيها صَحِيفه
في كل يوم يخرجُ المذياعُ والصحفُ اللَّقيطهْ
تُعلن البشرىٰ لشعبٍ ماتَ من زمنٍ
ويبدو في سَواد الليل كالعِفْريتِ أشباحًا مخيفهْ

وفي عصــــرنا :

الصـدقُ مليكٌ مطـرودٌ
لا جاهَ لديهِ ولا سلطـانْ
سَجنـوه دوامًا في قفصٍ
سـرَقوا الأوسِمَةَ مَعَ التِّيجـانْ
صلَبـوا أجنحةَ الطيـرِ
وبـاعُـوا المـوتىٰ والأكفـانْ
قطعـوا أوردة الصـدقِ
ونصَبـوا سـرْكًا للبهتـانْ

* * *

الفصل الثالث
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
اليَقِينِ

معَ الله طوعًا مع الله سوْقًا ... هداةٌ دعاةٌ إلى ما أمَرْ
مع الله والفيْضُ مِن قُدْسِهِ ... يُنير بصيرتَنا والبَصَرْ
ويدفعُ أعماقَ إيمانِنا ... فرارًا إليهِ ونِعمَ المفَرْ
ونحيَا بهِ ثمَّ نحيا لهُ ... ونحيا ونحيا ونحيا الدهرْ

[الأميري]

« اليقينُ : الإيمانُ كلُّه »

[الشعْبي]

□ عُلُوُّ الهمَّة في اليقين □

« اعلم يا أخي أن اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، وبه تفاضَل العارفون وفيه تنافسَ المتنافسون ، وإليه شمَّر العاملون ، وعمَلُ القوم إنما كان عليه وإشاراتُهم كلُّها إليه ، وإذا تزوَّج الصبر باليقين : وُلِد بينهما حصول الإمامة في الدين . قال الله تعالى – وبقوله يهتدي المهتدون – : ﴿ **وجعلنا منهمْ أئمةً يهدونَ بأمرِنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يُوقِنون** ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وخصَّ سبحانه أهلَ اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين ، فقال – وهو أصدق القائلين – : ﴿ **وفي الأرضِ آياتٌ للموقنين** ﴾ [الذاريات : ٢٠] .

وخصَّ أهلَ اليقين بالهدى والفلاح من بين العالَمين ، فقال : ﴿ **والذين يُؤْمنونَ بما أُنزلَ إليكَ وما أنزلَ مِنْ قبْلِكَ وبالآخرةِ هُمْ يُوقنونَ * أولئك على هدى من ربِّهم وأولئكَ هُمُ المُفلحون** ﴾ [البقرة : ٤ – ٥] .

وأخبر عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهلِ اليقين ، فقال تعالى : ﴿ **وإذا قيلَ إنَّ وعد الله حق والساعةُ لا ريبَ فيها قلتمْ ما ندري ما الساعةُ إنْ نظنُّ إلَّا ظنًّا وما نحنُ بمستيقنين** ﴾ [الجاثية : ٣٢] .

فاليقين روح أعمال القلوب التي هي روح أعمال الجوارح ، وهو حقيقة الصِّدِّيقية ، وهو قُطْب هذا الشأن الذي عليه مدارُه »[(١)] .

التوكُّلُ ثمرَةُ اليقينِ :

و« التوكُّل ثمرتُه ونتيجتُه ، ولهذا حسُن اقترانُ الهدى به ؛ قال تعالى : ﴿ **فتوكَّلْ علىٰ الله إنَّكَ على الحقِّ المبين** ﴾ ، [القصص : ٧٩] . فالحقُّ هو اليقين ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٧

وقالت رسُل الله : ﴿ **وما لنا ألّا نتوكّلَ على الله وقد هدانا سُبُلَنا** .. ﴾ الآية [إبراهيم : ١٢] . ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا ، وانتفى عنه كلُّ ريْب وشكٌّ وسُخْط ، وهمٌّ وغمٌّ ، فامتلأ محبّةً لله وخوفًا منه ، ورضًا به وشكرًا له ، وتوكُّلًا عليه وإنابةً إليه ؛ فهو مادّة جميع المقامات والحامل لها .

قال رسول الله ﷺ : « صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرُها بالبخل والأمل »(١).

وقال ﷺ : « نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخِرُها بالبخل والأمَل»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدَّعوات لأصحابه : « اللهمَّ اقسمْ لنا مِن خشيتك ما يحولُ بيننا وبين معاصِيك ، ومن طاعتِك ما تبلِّغنا به جنتَكَ ، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا ، ومتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييْتَنا ، واجعلْه الوارث منَّا ، واجعلْ ثأرنا على مَن ظَلمنا ، وانصرْنا على من عادانا ، ولا تجعلْ مصيبتَنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ، ولا مبلغَ عِلْمِنا ، ولا تسلِّطْ علينا من لا يرحمنا »(٣).

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : « عليكم بالصدقِ فإنه معَ البر ، وهما في الجنة ، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور ، وهما في النار ، وسَلُوا الله المعافاة ؛ فإنه لم يُؤْتَ أحدٌ شيئًا بعدَ اليقين خيرٌ من المعافاة ، ولا تَقاطَعوا، ولا تدابروا،

---

(١) حسن : أخرجه أحمد في « الزهد » والطبراني في « الأوسط » ، والبيهقي في « شُعب الإيمان » عن ابن عمرو ، وحسنّه الألباني في « صحيح الجامع » رقم ٣٨٤٥ .

(٢) حسن : رواه ابن أبي الدنيا في « العقل وفضله واليقين » ، عن ابن عمرو ، وحسنّه الألباني في « صحيح الجامع » رقم ٦٧٤٦ .

(٣) إسناده حسن : أخرجه الترمذي في الدعوات ، والحاكم بلفظ قريب منه ، وصحَّحه ووافقه الذهبي وأورده البغوي في « شرح السنة » وابن أبي الدنيا في اليقين ، وحسنّه الألباني في« صحيح الجامع » رقم ١٢٧٩ ، والشيخ شعيب الأرناؤوط .

ولا تحاسدوا ، وكونوا عبادَ الله إخوانا »[(١)] .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : « ياحبَّذا نوم الأكياس وإفطارهم ، كيف يعيبون سهر الحمقى وصيامَهم ؟! ولَمثقال ذرَّةٍ من برٍّ ، من صاحب تقوى ويقين ، أفضل وأرجح وأعظم ، من أمثال الجبال عبادةً من المغْترين »[(٢)] .

قال أبو السريّ الباهليّ : « كان يُقال : الاهتمام بالعمل يُورث الفكرة ، والفكرة تُورث العِبْرة ، والعِبرة تُورث الحَزْم ، والحزم يُورث العزْم ، والعزْم يُورث اليقين ، واليقين يُورث الغِنى ، والغِنى يُورث الحبَّ ، والحبُّ يُورث اللِّقاء » .

وصحَّ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إنَّ الروح والفرَج في اليقين والرضا، وإنَّ الغمَّ والحزن مِن الشَّكِّ والسُّخْط » .

وكان عطاء الخراساني لا يقوم من مجلسه حتى يقول : « اللهمَّ هَبْ لنا يقينًا بك حتى تهونَ علينا مصيباتُ الدنيا ، وحتى نعلم أنه لا يصيبنا إلّا ما كُتِب علينا ، ولا يأتينا من هذا الرزق إلّا ما قسَمْتَ لنا به » .

وقال بلال بن سعد: «عبادَ الرحمن، اعلموا أنكم تعملون في أيام قصار لأيَّام طِوال ، في دار زوال لدار مقام ، ودار حزن ونصَبٍ لدار نعيم وخُلدٍ ، ومَن لم يعملْ على اليقين فلا يغْترَّ » . وفي رواية : « فلا يتعنَّ » .

وقال رحمه الله : « كـأنَّا قومٌ لا يعقلون ، وكأنَّا قومٌ لا يُوقنون » .

وقال رحمه الله : « عباد الرحمٰن ، أمَّا ما وكَّلكم الله به فتضيِّعونه ، وأمَّا ما تكفَّل لكم به فتطلبونه ، ما هكذا بعث الله عبادَه الموقنين . أَذَوُو عقولٍ في

---

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن ماجه ، وأحمد في مسنده ، وابن حبان ، والبخاري في الأدب المفرد .

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ١٧١ ، وأبو نعيم في الحلية ٢١١/١ .

طلب الدنيا ، وبُلْهٌ عمَّا خُلقتم له ؟! فكما ترجون رحمة الله بما تؤدُّون من طاعة الله عزَّ وجلَّ ، فكذلك أشفِقُوا من عذابِ الله بما تنتهكون من معاصي الله عزَّ وجلَّ »[١] .

وقال الحسن البصري : « ما رأيتُ يقينًا لا شكَّ فيه ، أشبهَ من شكٍّ لا يقين فيه ، من أمْرِنا هذا » .

نعم ، كلُّنا قد أيقن بالموت ولا نرى له مستعِدًّا ، وكلُّنا قد أيقن بالجنة ولا نرى لها عاملًا ، كلُّنا قد أيقن بالنار ولا نرى لها خائفًا. أُمَّتُنا آخر الأمم ، ورسولنا ﷺ آخر الرسل ، وقد أُسرِع بخيارنا ، فما ننتظر إلَّا المعاينة ؟!

قال الجُنيد : اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغيَّر في القلب .

قال مالك بن دينار : أشهدكم أن يقيني شبكور[٢] .

وقال : قد مشىٰ رجال باليقين على الماء ، ومات بالعطش من هو أفضل منهم يقينًا .

وقال ابن عطاء : على قدْرِ قرْبهم من التقوى ، أدركوا من اليقين .

قال ابن القيم : وأصل « التقوى » مباينة النهي ، وهو مباينة النفس ، فعلى قدْر مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين .

وقالوا : اليقين لا يساكن قلبًا فيه سكون إلى غير الله .

وقال السّرِّيُّ : اليقينُ سكونك عند جولان الموارد في صدرك ، لتيقُّنك أن حركتك فيها لا تنفعك ، ولا تردُّ عنك مَقضيًّا .

وقال أبو بكر الورَّاق : اليقينُ مِلاك القلب ، وبه كمال الإيمان ، وباليقين عُرِف الله ، وبالعقل عُقِل عن الله .

وقال ابن خفيف : هو تحقُّق الأسرار بأحكام المغيَّبات .

وقال أبو بكر بن طاهر : العلم تعارضه الشكوك ، واليقين لا شكَّ فيه .

وقال ذو النون : اليقين يدعو إلى قِصَر الأمل ، وقِصَرُ الأمل يدعو إلى الزهد ،

---

(١) صفة الصفوة ٤/٢١٨ - ٢١٩ ، والحلية ٥/٣٣١

(٢) الشبكرة : هي العشي ، والشبكور هو الذي لا يبصر بالليل .

والزهد يُورث الحكمة ، وهي تُورث النظر في العواقب .

اليقينُ : هلْ هوَ كَسْبيٌّ ، أو مَوْهِبي ؟

قال ابن القيِّم : « واخْتُلِفَ فيه : هل هو كسبيٌّ أو موهبيٌّ ؟

فقيل : هو العلم المستودَع في القلوب . يُشير إلى أنه غير كسبيّ .

وقال سهل : « اليقين من زيادة الإيمان » . ولا ريب أن الإيمان كسبيٌّ .

والتحقيق : أنه كسبيٌّ باعتبار أسبابه ، موهبيٌّ باعتبارِ نفسه وذاته ».

اليقينُ أَوَّلُهُ المكاشَفَة ، ثمَّ المُعَاينة والمشَاهَدَة :

قال ابن القيم : « قيل : اليقين هو المكاشفة . وهو على ثلاثة أوجه : مكاشفة في الأخبار .. ومكاشفة بإظهار القدرة . ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان .

ومراد القوم بالمكاشفة : ظهور الشيء للقلب ، بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئيِّ إلى العين ، فلا يبقى معه شكٌّ ولا ريب أصلًا . وهذا نهاية الإيمان . وهو مقام الإحسان .

وقد يريدون بها أمرًا آخرَ ، وهو ما يراه أحدهم في برزخ بين النوم واليقظة ، عند أوائل تجرُّد الروح عن البدَن .

ومَن أشار منهم إلى غير هذين ، فقد غلط ولُبِّس عليه .

قال سهل : ابتداؤه : المكاشفة ، كما قال بعض السلف : « لو كُشِف الغطاء ما ازددتُ يقينًا » . ثم المعاينة والمشاهدة »[1] .

اليقينُ على ثلاثةِ أوْجُهٍ : يقين خَبَرٍ ، ويقين دلالةٍ ، ويقين مُشاهَدَة :

قال ابن القيم : « قال أبو بكر الوراق : اليقينُ على ثلاثةِ أوجه : يقين خبرٍ ، ويقين دلالةٍ ، ويقين مشاهدةٍ .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

يريد بيقين الخبَر : سكون القلب إلى خبَر المخبِر وتوثُّقه به .

وبيقين الدلالة : ما هو فوقه ، وهو أن يُقيم له - مع وثوقه بصدْقه- الأدلَّة الدالَّة على ما أُخبِر به .

وهذا كعامَّة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن ؛ فإنه سبحانه - مع كونه أصدقَ الصادقين - يُقيم لعباده الأدلَّة والأمثال والبراهين على صدق أخباره ، فيحصل لهم اليقين من الوجهين ؛ من جهة الخبر ، ومن جهة الدليل ، فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة ، وهي : « يقين المكاشفة » ؛ بحيث يصير المخبَر به لقلوبهم كالمرئيِّ لعيونهم . فنسبة الإيمان بالغيْب حينئذٍ إلى القلب : كنسبة المرئي إلى العين ، وهذا أعلى أنواع المكاشَفَة ، وهي التي أشار إليها عامر بن عبد قيس في قوله : « لو كُشف الغطاءُ ما ازددتُ يقينًا » . وليس هذا من كلام رسول الله ﷺ ، ولا من قول عليٍّ ، كما يظنه من لا علم له بالمنقولات .

وقال بعضهم : رأيتُ الجنة والنار حقيقة . قيل له : وكيف ؟ قال : رأيتُهما بعيْني رسول الله ﷺ ، ورؤيتي لهما بعينيه : آثَرُ عندي من رؤيتي لهما بعينَي ؛ فإن بصري قد يطغْى ويَزيغ ، بخلاف بصره ﷺ .

و« اليقين » يحمله على الأهوال وركوب الأخطار ، وهو يأمر بالتقدُّم دائمًا ، فإن لم يقارنْه العلم ، حَمَلَ على المعاطب .

والعلمُ يأمرُ بالتأخُّر والإحجام ، فإن لم يصحبه « اليقين » ، قعَد بصاحبه عن المكاسب والمغانم . والله أعلم »[1] .

اليقينُ والحُضُور :

قال ابن القيم في « المدارج » (٢/٣٩٩ - ٤٠٠) : « وقد اختُلف في

(١) مدارج السالكين ٢/٤٠٠ - ٤٠١

تفضيل اليقين على الحضور والحضور على اليقين .

فقيل :الحضور أفضل ؛ لأنه وَطَنات ، واليقين خطرات .

وبعضهم رجَّح اليقين ، وقال:هو غاية الإيمان .

والأول رأى أن اليقين ابتداء الحضور ، فكأنه جعل اليقين ابتداءً ، والحضور دوامًا .

وهذا الخلاف لا يتبيّن ؛ فإن اليقين لا ينفكُّ عن الحضور ، ولا الحضور عن اليقين ، بل في اليقين من زيادة الإيمان ، ومعرفة تفاصيله وشعبه ، وتنزيلها منازلها ؛ ما ليس في الحضور،فهو أكمل منه في هذا الوجه .

وفي الحضور من الجمعيَّة ، وعدم التفْرِقة ، والدخول في الفناء ؛ ما قد ينفكُّ عنه اليقين ، فاليقين أخصُّ بالمعرفة ، والحضور أخصُّ بالإرادة . والله أعلم » .

قال النهرجوري : إذا استكمل العبدُ حقائقَ اليقين ، صار البلاء عنده نعمةً ، والرخاءُ عنده مصيبة .

أخي ، العلم ما استعملك ، واليقين ما حملك . اليقينُ مركبٌ يركبُهُ السائرُ إلى الله ؛ فإنه لولا اليقينُ ما سار ركْبٌ إلى الله ، ولا ثبتَ لأحدٍ قدمٌ في السلوك إلّا به .

أعْلامُ اليقين :

قال ذو النون : « ثلاثة من أعلام اليقين :

قلة مخالطةِ الناس في العشْرة .

وترْك المدْح لهم في العطيَّة .

والتنزُّه عن ذمِّهم عند المنْع .

وثلاثة من أعلامه أيضًا :

النظر إلى الله في كلِّ شيء .
والرجوعُ إليه في كلِّ أمْر .
والاستعانة به في كلِّ حال »[١] .

درجَاتُ اليقين :

قال شيخ الإسلام الهروي ، الأنصاري : « وهو على ثلاث درجات .

الدرجةُ الأولى : علْمُ اليقين :

وهو قَبُول ما ظهر من الحقِّ ، وقبول ما غاب للحقِّ ، والوقوف على ما قام بالحق » .

قال ابن القيِّم في « المدارج » ، (٢/٤٠١ - ٤٠٣) : « ذكَر الشيخُ في هذه الدرجة ثلاثةَ أشياء ، هي متعلّق اليقين وأركانه :

الأول : قبُول ما ظهر من الحقِّ تعالى :

والذي ظهر منه سبحانه : أوامره ونواهيه وشرعه ، ودينه الذي ظهر لنا على ألْسنة رُسُله ، فتتلقَّاه بالقبول والانقياد ، والإذعان والتسليم للربوبية ، والدخول تحت رقِّ العبودية .

الثاني : قبول ما غاب للحقِّ :

وهو الإيمان بالغيب الذي أَخبر به الحقُّ سبحانه على لسان رسله ؛ من أمور المعاد وتفصيله والجنة والنار . وما قبل ذلك ؛ من الصراط والميزان والحساب . وما قبل ذلك ؛ من تشقُّق السماء وانفطارها، وانتثار الكواكب ، ونسْف الجبال ، وطَيِّ العالم ، وما قبل ذلك ؛ من أمور البرزخ ، ونعيمه وعذابه . فقبول هذا

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٨

كله – إيمانًا وتصديقًا وإيقانًا – هو اليقين ، بحيث لا يخالج القلبَ فيه شبهةٌ ولا شك ، ولا تناسٍ ولا غفلةٌ عنه ؛ فإنه إنْ لم يُهلِكْ يقينه أفسده وأضعفه .

الثالث : الوقوف على ما قام بالحقِّ سبحانه :

من أسمائه وصفاته وأفعاله : وهو علْم التوحيد ، الذي أساسه : إثبات الأسماء والصفات ، وضدُّه : التعطيل والنفي والتجَهُّم . فهذا التوحيد يقابله التعطيل .

وأما التوحيد القصدي الإرادي ، الذي هو إخلاص العمل لله ، وعبادته وحده : فيقابله الشّرك . والتعطيلُ شرٌّ من الشرك ؛ فإن المعطِّل جاحِد للذات أو لكمالها . وهو جحدٌ لحقيقة الإلهية ؛ فإن ذاتًا لا تسمع ولا تُبصر ، ولا تتكلم ولا ترضى ، ولا تغضب ولا تفعل شيئًا ، وليست داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة ، ولا مجانبة له ولا مباينة له ، ولا مجاورة ولا مجاوزةً ، ولا فوق العرش ولا تحت العرش ، ولا خلفه ولا أمامه ، ولا عن يمينه ولا عن يساره – سواءٌ هي والعدم .

والمشرك مُقِرٌّ بالله وصفاته ، لكنْ عَبدَ معه غيرَه ، فهو خير من المعطِّل للذات والصفات .

فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحقِّ ؛ من أسمائه وصفاته ، ونعوت كماله ، وتوحيده . وهذه الثلاثة أشرف علوم الخلائق : علم الأمْر والنهي ، وعلم الأسماء والصفات والتوحيد ، وعلم المعاد واليوم الآخر . والله أعلم » .

قال شيخ الإسلام الهروي :

« **الدرجة الثانية : عَيْنُ اليقين :**

وهو المُغني بالاستدلال عن الاستدلال ، وعن الخبر بالعِيان ، وخرَق الشُّهودُ حجابَ العلْم » .

قال ابن القيم : « الفرق بين علْم اليقين وعيْن اليقين كالفرق بين الخبر الصادق والعيان . وحقُّ اليقين فوق هذا .

وقد مثَّلتُ المراتب الثلاثةَ بمَن أخبرَك: أنَّ عنده عسلًا، وأنت لا تشكُّ في صِدْقه ، ثم أراك إيَّاه ، فازددتَ يقينًا ، ثم ذُقْتَ منه . فالأول : علْم اليقين ، والثاني : عيْن اليقين ، والثالث : حقُّ اليقين .

فعلْمُنا الآنَ بالجنة والنار : علْم يقين . فإذا أُزلفتِ الجنة في الموقف للمتقين وشاهدها الخلائق ، وبُرِّزت الجحيم للغاوين وعاينها الخلائق ، فذلك عين اليقين . فإذا أُدخل أهل الجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ؛ فذلك حينئذ حقُّ اليقين .

قوله : « هو المغني بالاستدلال عن الاستدلال » : يريد بالاستدلال : الإدراك والشهود ؛ يعني : صاحبه قد استغنى به عن طلب الدليل . فإنه إنما يطلب الدليل ليحصل له العلم بالمدلول ، فإذا كان المدلول مشاهَدًا له ، وقد أدركه بكشْفه ، فأي حاجة به إلى الاستدلال ؟!

وهذا معنى : « الاستغناء عن الخبَر بالعِيان » .

وأما قوله : « وخرَق الشُّهودُ حجابَ العلْم » : فيريد به : أنَّ المعارف التي تحصل لصاحب هذه الدرجة ، هي من الشهود الخارق لحجاب العلم ؛ فإن العلم حجابٌ عن الشهود . ففي هذه الدرجة يرتفع الحجاب ويُفضي إلى المعلوم ، بحيث يُكافِح بصيرتَه وقلبَه مكافحةً » .

قال شيخ الإسلام الهروي :

« **الدرجة الثالثة : حَقُّ اليَقين** :

وهو إسفار صُبْح الكشف ، ثم الخلاص من كُلْفة اليقين ، ثم الفناء في حقِّ اليقين » .

قال ابن القيم في المدارج ، (٢/٤٠٤ - ٤٠٦) « اعلمْ أنَّ هذه الدرجة لا تُنال في هذا العالَم إلَّا للرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؛ فإن نبينا ﷺ رأى بعينه الجنة والنار ، وموسى عليه السلام سمِعَ كلامَ الله - منه - إليه بلا واسطة ، وكلَّمه تكليمًا ، وتجلَّى للجبل وموسى ينظر ، فجعله دَكًّا هشيمًا .

نعم ، يحصل لنا حقُّ اليقين من مرتبة ، وهي ذوْق ما أخبر به الرسول ﷺ من حقائق الإيمان ، المتعلِّقة بالقلوب وأعمالها ؛ فإن القلب إذا باشرها وذاقها صارت في حقِّه حقَّ يقينٍ .

وأما في أمور الآخرة والمعاد ، ورؤية الله جهرةً عِيانًا ، وسماع كلامه حقيقة بلا واسطة ، فحظُّ المؤمن منه في هذه الدار : الإيمان وعلم اليقين . وحقُّ اليقين يتأخَّر إلى وقت اللقاء .

ولكنْ لمَّا كان السالك عنده ينتهي إلى الفناء ، ويتحقَّق شهود الحقيقة ، ويصل إلى عين الجمع ، قال : « حقُّ اليقين : هو إسفار صبح الكشْف » .

يعني: تحقُّقه وثبوته، وغَلَبة نوره على ظلْمة ليل الحجاب ، فينتقل من طوْر العلم إلى الاستغراق في الشهود ، بالفناء عن الرسم بالكلية .

وقوله : « ثم الخلاص من كُلْفة اليقين » : يعني أنَّ اليقين له حقوق يجبُ على صاحبه أن يُؤدِّيها ويقوم بها ، ويتحمَّل كُلَفها ومشاقَّها . فإذا فني في التوحيد ، حصل له أمور أخرى رفيعة عالية جدًّا ، يصير فيها محمولا بعد أن كان حاملًا ، وطائرًا بعد أن كان سائرًا ، فتزول عنه كُلْفة حمل تلك الحقوق ، بل يبقى له كالنفَس وكالماء للسمك . وهذا أمْرٌ التحاكُم فيه إلى الذوق والإحساس[1] . فلا تسرعْ إلى إنكاره .

---

(١) قال الشيخ حامد الفقي : « بشرط أن يكون خاضعًا كل الخضوع لهدي رسول الله ﷺ ، وجاريًا على هدي رسالته متحريًا الاقتداء به وبأصحابه على عِلْم وبصيرة ، فليس كلّ ذوْق وإحساس . فما وقع مَن وقع في الهاوية إلَّا بتحكيمِ الذوْق والإحساس » .

وتأملْ حال ذلك الصحابي[١] الذي أخذ تمْراتِه ، وقعد يأكلها على حاجة وجوع وفاقة إليها ، فلمَّا عايَن سُوقَ الشهادة قامتْ ، ألقى قُوتَه من يده ، وقال: «إنها لَحياة طويلة، إن بقيتُ حتى آكل هذه التمرات». وألقاها من يده، وقاتل حتى قُتِل ، وكذلك أحوال الصحابة رضي الله عنهم ، كانت مطابقة لما أشار إليه .

لكنْ بقيتْ نكتة عظيمة ، وهي موضع السجْدة ، وهي أنَّ فناءَهم لم يكن في توحيد الربوبية ، وشهودِ الحقيقة التي يشير إليها أرباب الفناء ، بل في توحيد الإلهية ، ففنوا بحبِّه تعالى عن حبِّ ما سواه ، وبمراده منهم عن مرادهم وحظوظهم ، فلم يكونوا عاملين على فناء ، ولا إلى استغراق في الشهود ؛ بحيث يفْنُون به عن مراد محبوبهم منهم ، بل قد فنوا بمراده عن مرادهم ؛ فهم أهل بقاء في فناء ، وفرْق في جمْع ، وكثرة في وَحدة ، وحقيقة كونية في حقيقة دينية .

هُم القـومُ لا قـوم إلَّا هُـمُ ولولاهُمُ ما اهتـدينا السبيلَا

فنسبة أحوال مَن بعدَهم – الصحيحة الكاملة – إلى أحوالهم ، كنسبة ما يَرْشَح من الظرف والقِرْبة إلى ما في داخلها .

وأما الطريق المنحرفة الفاسدة : فسبيل غير سبيلهم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

الغِنَى هو اليقين :

اجتمع حُذيفة المرعشي وسليمان الخوَّاص ، ويوسف بن أسباط ، فتذاكروا الفقر والغِنَى، وسليمان ساكت، فقال بعضُهم: الغنيُّ من كان له بيت يُكِنُّه ، وثوب يستره ، وسَداد من عيش يكفُّه عن فضول الدنيا . وقال بعضهم : الغنيُّ مَن لم يحتجْ إلى الناس . فقيل لسليمان : ما تقول أنت يا أبا أيوب ؟ فبكى ، ثم قال : رأيتُ جوامع الغِنَى في التوكُّل ، ورأيتُ جوامع الشرِّ من

(١) الصحابي هو عُمير بن الحمام ، في بدر.

القنوط ، والغنيُّ حقُّ الغنى : من أسكن الله قلبَه مِن غناه يقينًا ، ومن معرفته توكُّلًا ، ومن عطاياه وقسْمه رضًا ، فذاك الغنيُّ حقُّ الغنى ، وإن أمسىٰ طاويًا وأصبح مُعوِزًا . فبكى القوم جميعًا من كلامه .

أَمثلةٌ عَطِرةٌ علىٰ عُلُوِّ الِهمَّة في اليقينِ والثقةِ بالله :

يزخر التاريخ بأمثلة عَطِرة على عُلُو الهِمَّة في اليقين والثقة بالله، نُوردها على عُجالة :

نوحٌ عليهِ السَّلام :

قال تعالى : ﴿ **واتلُ عليهِمْ نبأ نوحٍ إذْ قالَ لقومهِ يا قوم إنْ كانَ كَبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآياتِ الله فعلىٰ الله توكَّلتُ فأجمعُوا أمْرَكم وشركاءَكم ثمَّ لا يكنْ أمرُكم عليكمْ غُمَّةً ثمَّ اقضوا إليَّ ولا تُنظرون** ﴾ [يونس : ٧١] .

بعد الصبر الجميل والعَناء الكريم ، والإنذار الطويل والتذكير الطويل ، وبعد التكذيب الطويل ، كانت حلْقة التحدِّي الأخير ، وهو تحدٍّ صريحٌ مثير ، ليسَ غرورًا ، وليس كذلك تهوُّرًا ، وليس انتحارًا ، إنما هو تحدِّي القوة الحقيقية الكبرىٰ للقوىٰ الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان .

لقد كان مع نوح : الإيمانُ واليقينُ الذي يتضاءل أمامه الكثرة ، ويعجز أمامه التدبير . لقد كان معه الله الذي لا يدع أولياءَه لأولياء الشيطان .

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله .. وإنه لَينبغي لهم أن تمتلئ قلوبُهم بالثقة حتى تفيض ، وإن لهم أن يتوكَّلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أيًّا كان . ثم تكون الغلبة للمؤمنين . هذه سنة الله في الأرض ، وهذا وعده لأوليائه فيها ، فإذا طال الطريق على العُصبْة المؤمنة مرَّة ، فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق ، وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء ، وهي ماضية في الطريق .. والله لا يخدع أولياءه - سبحانه - ولا يعجز عن نصرهم بقوته ، ولا يسلِّمهم كذلك لأعدائه ، ولكنه يعلِّمهم ويدربهم ويزوِّدهم بزادِ الطريق .

هودٌ عليهِ السلام :

يقصُّ اللهُ مَقالة قومه له وردَّه عليهم : ﴿ **قالوا يا هودُ ما جئتَنا ببيِّنةٍ وما نحنُ بتاركي آلهتِنا عن قولِكَ وما نحنُ لكَ بمؤمنين إن نقولُ إلّا اعتراكَ بعضُ آلهتِنا بسُوءٍ قال إني أُشهدُ اللهَ واشهدوا أني بريءٌ ممَّا تشركون من دُونِهِ فكيدوني جميعًا ثمَّ لا تُنظرون إني توكَّلتُ على اللهِ ربِّي وربِّكمْ ما مِن دابَّةٍ إلَّا هو آخذٌ بناصيتِها إنَّ ربّي على صراطٍ مستقيم** ﴾ [هود : ٥٣ - ٥٦].هذه ثقة الإيمان ويقينُه واطمئنانه ، وهذه عِزَّة الإيمان واستعلاؤه .

إنَّ الإنسان لَيدهَشُ لرجلٍ فردٍ يواجه قومًا غِلاظًا شدادًا حمقى ، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أنَّ هذه المعبودات الزائفة تمَسُّ رجلًا فيهذي ، ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هَذَيانًا من أثرِ المسِّ !! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة ، فيسفه عقيدَتهم ويقرعهم عليها ويؤنِّبهم ؛ ثم يُهيج ضراوتهم بالتحدي ، ولا يطلب مهْلة ليستعدَّ استعدادهم ، ولا يدعهم يتريَّثون فيفثأ غضبهم !! ولكن الدهشة تزول حين يتدبَّر العامِلَ والسبَبَ.. إنه اليقين والثقة.. اليقين الذي يَغمرُ القلب ، والثقة بوعده ، واليقين الذي يخالط القلب ، فإذا وعْدُ الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشكُّ فيها لحظة، وحاضر واقع تتملّاه العين والقلب ... ويبلغ الغاية من اليقين بقوله : ﴿ **إنَّ ربي على صراطٍ مستقيم** ﴾ .

خليلُ الرحمٰن إبراهيم ﷺ : أنموذجٌ عَطِرٌ وعالٍ لليقين بالله :

وأيُّ موقف من مواقف الخليل لم يكن عُلُوَّ همة في اليقين ؟! بل والله إنه اليقين الذي يمشي على الرِّجْل ، وإنْ شئتَ فقلْ : كان خلُقُه اليقين في محاجَّته لقومه : ﴿ **وحاجَّهُ قومُه قالَ أتحاجُّونّي في اللهِ وقد هدانِ ولا أخافُ ما تُشركونَ به إلا أنْ يشاءَ ربي شيئًا وسِعَ ربِّي كلَّ شيءٍ عِلمًا أفلا تتذكَّرون وكيف أخافُ ما أشركتمْ ولا تخافون أنكم أشركتم باللهِ ما لمْ ينزِّل بهِ عليكمْ سلطانًا فأيُّ الفريقَيْنِ أحقُّ بالأمنِ إنْ كنتمْ تعلمون الذين آمنوا ولمْ يَلبِسوا إيمانهمْ بظلمٍ أولئكَ**

لهُمُ الأمنُ وهمْ مهتدون ﴾ [الأنعام : ٨٠ - ٨٢] .

وهكذا واجه إبراهيمُ - الذي مِلْؤه اليقين، الذي يُحسُّ بعناية الله له ونعمه عليه في قلبه وعقله ، وفي الوجود كلِّه مِن حوله - قُوى الشَّرّ . كيف يخاف مَن عنده هذا اليقين ؟! كيف يخاف مَن وجد الله ؟ وماذا يخاف ؟! ومَن ذا يخاف ؟!

وقوله لقومه : **﴿ أفرأيتمْ ما كنتمْ تعبدونَ أنتمْ وآباؤكُمُ الأقدمونَ فإنهم عدوٌّ لي إلا ربّ العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يُطعمني ويسقين وإذا مرضتُ فهو يشفين والذي يُميتني ثم يُحيين والذي أطمعُ أنْ يغفر لي خطيئتي يومَ الدين ﴾** [الشعراء : ٧٥ - ٨٢] .

يجاهر بعدائه لآلهتهم ، ثم يُثني على ربِّه ، ويأخذ في صفته ، وصلته به في كلِّ حالٍ وفي كلِّ حين ، فنجد اليقين كلّ اليقين ، والقربى الوثيقة ، والصلة الندِيَّة ، والشعور بقدرة الله وآلائه في كلِّ حركة ونأمة ، وفي كلِّ حاجة وغاية . ونستشعر من صفة إبراهيم لربه ، أنه يعيش بكيانه كلِّه مع ربه ، وأنه يتطلع إليه في ثقة ، ويتوجه إليه في حبٍّ .. يقين يملأ على إبراهيمَ قلبَه ومشاعره وجوارحه .. واستسلام مطلَق في طمأنينةٍ وراحةٍ ويقين .

وقوله لقومه : **﴿ وقالَ إنّما اتخذتُمْ من دُون الله أوثانًا مودة بينكم في الحياةِ الدنيا ثمَّ يومَ القيامةِ يكفُرُ بعضُكمْ ببعضٍ ويلعنُ بعضُكمْ بعضًا ومأواكمُ النارُ وما لكمْ مِن ناصرين ﴾** ، [العنكبوت : ٢٥] .

ويبدو هذا اليقين في هذه الآيات : **﴿ وتاللهِ لأُكيدَنَّ أصنامَكُمْ بعدَ أنْ تولُّوا مُدْبرينَ * فجعَلَهُمْ جُذاذًا إلَّا كبيرًا لهم لَعلَّهمْ إليهِ يَرجعون ﴾** ، [الأنبياء : ٥٧ - ٥٨] .

ثم استهزاؤه بأوثانهم يدلّ على يقينه بربِّه : **﴿ قالوا ءَأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم قالَ بلْ فعلَهُ كبيرُهم هذا فاسْألوهم إنْ كانوا ينطقون ﴾** ، [الأنبياء : ٦٢ - ٦٣] .

ويتجلّى الموقف الأكبر ليقينه وتوكّله وثقته على ربِّه ، حينما يُلقونه في النيران ؛ يبدو له جبريل ويقول له : ألك حاجة ؟ فيلقاه : أما إليك فلا . ثم يردِّد نشيده العُلوي : « حَسبنا الله ونعم الوكيل » .. كل موقف من مواقف الخليل ملؤه اليقين والثقة والتوكُّل ... إلقاء طفله الرضيع وزوجه في البريَّة .. همُّه بذبْح ولده .. فلله درُّه ! وصلوات ربي وسلامه عليه .

كليمُ الله موسى ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ **فَلمَّا تراءا الجمعان قالَ أصحابُ موسى إنَّا لَمُدرَكُون * قال كلَّا إنَّ معيَ ربي سَيَهْدين** ﴾ ، [الشعراء : ٦١ - ٦٢] .

دلائل الحال كلها : أنْ لا مفرَّ والبحرُ أمامَهم والعدوُّ خلفَهُم ، وبلغ الكرْب مداه ، وإنْ هي إلا دقائقُ تمرُّ ثمَّ يهجم الموت ولا مناصَ ولا مُعينَ ، ولكنَّ موسى الذي تلقَّى الوحي من ربِّه ، لا يشكُّ لحظة،ومِلْءُ قلبه الثقة بربه واليقين بعوْنه ، والتأكُّد من النجاة ، وإن كان لا يدري كيف تكون ، فهي لا بدَّ كائنة ، والله هو الذي يوجِّهه ويرعاه . ﴿ **كلَّا** ﴾ : في شِدَّة وتوكيد ، كلَّا لن نكون مُدْرَكين . كلَّا لن نكون هالكين . كلّا لن نكون مفتونين . كلّا لن نكون ضائعين : ﴿ **كلَّا إن معيَ ربي سيهدين** ﴾ بهذا الجزم والتأكيد واليقين .

وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرْب ، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون .

رسولُ الله ﷺ القمَّة في عُلُوِّ الهمَّة :

ومَن كرسولِ الله ﷺ ، حينما يَشتدُّ الكرْب يبدو يقينُه مثالًا يُحتذىٰ ... ولا كرْب أشدُّ من ساعة الهجرة ؛ قال تعالى : ﴿ **إلَّا تنصروه فقدْ نصره الله إذْ أخرجه الذين كفروا ثانيَ اثنَيْنِ إذ هما في الغار إذْ يقولُ لصاحبِهِ لا تحزن إنَّ الله معنا فأنزل الله سكينتهُ عليه وأيَّده بجنود لم تروْها وجعَلَ كلمة الذين كفروا السُّفْلَى وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

يقول الصِّدِّيق وهو مَنْ هو : لو أن أحدهم نظر إلى قدمَيْه لَأبصَرَنا ، والرسول ﷺ يهدِّئُ من روعِهِ ويُطَمْئِنُ من قلبه ، فيقول له : « يا أبا بكر ما ظنك باثنَيْن الله ثالثهما ؟! » .

وفي أُحُدٍ لمَّا انكشف صفُّ المسلمين في نهاية المعركة ، يَصيح أبو سفيان : « اعلُ هُبَل » . ويأمر الرسول صحابته أن يُجيبوه : « الله أعلى وأجلُّ » . فيصيح أبو سفيان :« لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم » . ويأمر الرسول ﷺ صحابته أن يجيبوه : « الله موْلانا ولا موْلى لكم » .

وفي حُنين يقول : « أنا النبيُّ لا كَذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

ويُسطَّرُ في القرآن الكريم اليقينُ العظيم لرسولنا ﷺ ﴿ ... **قل ادعوا شركاءَكم ثم كِيدُونِ فلا تنظرون * إنَّ وليِّيَ الله الذي نزَّلَ الكتابَ وهَو يتولَّى الصالحين** ﴾ ، [الأعراف : ١٩٤ - ١٩٥] .

تحدَّى بها رسول الله ﷺ المشركين في زمانه وآلهتهم المُدَّعاة ، في لهجة الواثق المطمئن إلى السند الذي يرْتكن إليه، ويحتمي به من كيدهم جميعًا، وإنها لَكلمةُ صاحبِ الدعوة إلى الله ، بعد رسول الله ﷺ ، في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمان .

إنه لا بدَّ لصاحب الدعوة إلى الله أن يتجرَّد من أسناد الأرض ، وأن يستهينَ كذلك بأسناد الأرض .

صاحب الدعوة إلى الله يرتكن إلى الله ، فما هذه الأسناد الأخرى إذن ؟! وماذا تساوي في حسِّه ؟! حتى لو قدَرَتْ على أذاه ؟! إنما تقدر على أذاه بإذن ربّه الذي يتولَّاه ، لا عجزًا من ربِّه ولا تخلِّيًا منه سبحانه عن نصرة أوليائه .. إنما ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص .

« إن صاحب الدعوة إلى الله في كلِّ زمان وفي كل مكان ، لن يبلغ شيئًا إلَّا بمثل هذه الثقة ، وإلّا بمثل هذه العزيمة ، وإلَّا بمثل ذلك اليقين ... ومهما أسفر

الباطل من تعدٍّ ، وأطلق على الدعاة تهديده ، وبغى في وجه كلمة الحقِّ الهادئة ، وعرْبَد في التعبير والتفكير ... ينبغي على الدعاة أن يَمضوا في الطريق ، وأن يحملوا الواجب المُلْقَى على عاتقهم »(١) .

وانظرْ إلى يقينه ﷺ بربِّه ، بعد أن جَرَى له ما يَشيب لذكْره الولْدان في الطائف حين يقول لملك الجبال : « بل أرجو أن يُخرِجَ الله من أصلابهم مَن يعبد الله لا يشرك به شيئًا » . فهل بعد هذا اليقين يقين ؟!

سَحَرةُ فرْعونَ ويقينُهم العَالي الغالي :

قال تعالى : ﴿ **فأُلقِيَ السَحَرةُ ساجدينَ * قالوا آمنَّا بربِّ العالمين * ربِّ موسى وهارون * قال ءامنتمْ لهُ قبلَ أنْ آذنَ لكمْ إنهُ لكبيرُكُمُ الذي علَّمَكُمُ السِّحْرَ فلَسَوْف تعلمون لأُقطِّعنَّ أيديَكمْ وأرجلَكمْ من خلافٍ ولأُصلبنَّكمْ أجمعين * قالوا لا ضيْرَ إنَّا إلى ربنا مُنقلِبون * إنَّا نطمَعُ أن يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا أنْ كنَّا أوَّلَ المؤمنين** ﴾ [الشعراء : ٤٦ - ٥١] .

إنها كلمة الفئة المؤمنة التي رأتِ النور وملأ اليقين قلبها ، كلمة القلب الذي وجدَ الله فلم يعُدْ يَحْفل ما يفقد بعد هذا الوجدان ، القلب الذي اتصل بالله فذاقَ طعْمَ العزَّة ، فلم يعد يحفل بالطغيان ، القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمُّه من أمْر هذه الدنيا قليل ولا كثير ... لا ضيْر في تقطيع الأيدي والأرجُل من خِلاف .. لا ضير في التعذيب والتصليب ، لا ضير في الموت والاستشهاد.. ﴿ **لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ .. وليكنْ في هذه الأرض ما يكون .

يا لله !! يا لَروعة الإيمان !! إذْ يشرق في الضمائر، وإذْ يفيض على الأرواح، وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس ، وإذ يرتفع بسُلالة الطين إلى أعلى عِلِّيِّين ، وإذْ يملأ القلوب بالغِنَى والذّخر والوَفر ، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد . يا لجلال المشهد ويا للروعة الغامرة !!

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن لأحمد فايز .

وقال تعالى في الأعراف : ﴿ **وأُلقِيَ السَّحَرَةُ ساجدين قالوا آمنَّا بربِّ العالمين ربِّ موسى وهارون** ﴾ ، [الأعراف : ١٢٠ - ١٢٢] . إنها صوْلة الحقِّ واليقين في الضمائر ، ونور الحقِّ في المشاعر ، ولَمْسَة الحقِّ للقلوب المهيَّأة لتلقِّي الحقِّ والنور واليقين . تحوّل السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق ، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين . ولكنَّ الطواغيت المتجبِّرين لا يدركون كيف يتسرّب النور إلى قلوب البشر ، ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان ، ولا كيف تَلمَسُها حرارة اليقين ، فما كان من فرعون إلَّا أن قال : ﴿ **آمنتمْ له قبلَ أنْ آذن لكمْ** ﴾ !! كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق ، أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم، أو يستأذنوه في أن تُشرق أرواحهم !! أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت في الأعماق ، أو يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار ، أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شِعاب اليقين !!

ولكنه الطاغوت جاهل غبيٌّ مطموس ، وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبِّر مغرور .

ولكن هيهات ؛ فقد جاء اليقينُ قلوبَ السحَرَة ، وتفتَّحتْ لهذه القلوب آفاقٌ مشرقة وضيئة ، لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عَرَض زائل ، ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافهٍ .

إن النفس البشرية حين تشِفُّ وترِقُّ باليقين ، وحين تستعلن فيها حقيقة الإيمان ؛ تستعلي على قوىٰ الأرض ، وتستهين ببأسِ الطغاة ، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة ، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم . إنها لا تقف لتسأل ماذا ستأخذ وماذا ستدع ؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع ؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب ؟ وماذا ستلقىٰ في الطريق من صِعابٍ وأشواك وتضحيات ؟ لأن الأفق المشرق الوضيّ أمامها هناك ، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق .

إنها لمسَة اليقين في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون ، وتعدُّ

القربى منه مغنمًا يتسابق إليه المتسابقون ، فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة ، وترخّص مُلْكه وزُخْرُفَه وجاهَهُ وسلطانه ؛ ﴿ **قالوا لن نُؤْثرك على ما جاءنا منَ البيِّنات والذي فطرنا**﴾؛ فهي علينا أعزُّ وأغلى، وهو- جلّ شأنه- أجلُّ وأعلى: ﴿ **فاقض ما أنتَ قاضٍ إنما تقضي هذهِ الحياةَ الدنيا إنَّا آمنَّا بربِّنا لِيغفرَ لنا خطايانا وما أكرهتَنَا عليه من السِّحْر والله خيرٌ وأبقى** ﴾ [طه : ٧٢ - ٧٣] ؛ خيرٌ قسمةً وجوارًا ، وأبقى مغنمًا وجزاءً .

﴿ **قالوا إنا إلى ربِّنا منقلبونَ وما تنقمُ منَّا إلّا أنْ آمنَّا بآياتِ ربِّنا لمَّا جاءتْنا ربَّنا أفرغْ علينا صبْرًا وتوفَّنا مسلمين** ﴾ . [الأعراف : ١٢٥ - ١٢٦] . إنه اليقين الذي لا يفزَعُ ولا يتزعزع ، كما أنه لا يخضع ولا يخنع ، اليقين الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها ، ويستيقن من الرجعة إلى ربِّه فيطمئن إلى جواره .

وهزأت القلوب الموقنة بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهتْه بكلمة الإيمان القوية ، وباستعلاء الإيمان الواثق ، وبتحذير الإيمان الناصع ، وبرجاء الإيمان العميق .

ويقف الطغيان عاجزًا أمام اليقين ، وماذا يملك الطغيان إذا رغبتِ القلوب في جوار الله ؟! وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمتِ القلوب بالله ؟! وماذا يملك السلطان إذا رغبتِ القلوب عمَّا يملك السلطان ؟!

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلانًا لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض ، وعلى الطمع في المثوبة والخوف من السلطان . وما يملك القلب البشريُّ أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلّا في ظلال اليقين .

إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية ، هذا الذي كان بين فرعون وملَئِهِ ، والمؤمنين من السَّحَرة السابقين .

إنه موقفٌ حاسمٌ في تاريخ البشرية ؛ بانتصار العقيدة على الحياة ، وانتصار العزيمةِ على الألم ، وانتصار الإنسان على الشيطان .

إنه موقفٌ حاسمٌ في تاريخ البشرية بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية ، فما الحرية إلَّا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبِّرين وطغيان الطغاة ، ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب ، فقد وُلِدتِ الحرية الحقيقيَّة في هذه القلوب .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية ؛ فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوْز ، وتمنَّى بالقُرْب من السلطان ، هي ذاتها التي تستعلي على فرعون ، وتستهين بالتهديد والوعيد ، وتُقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب ؛ وما تغيَّر في حياتها شيء ، ولا تغيَّر من حولها شيء ، إنما وقع الحقُّ واليقين في القلوب واستقرَّ وثبت ، وتسمَّع الضميرُ أصداء الهداية ، وتلقَّت البصيرة إشراقاتِ النور ، فرفعتِ الإنسانَ من عالَمِ الواقع إلى الآفاق التي لم يكن يطمحُ إليها الخيال .

ويذهب التهديد ، ويتلاشى الوعيد ، ويمضي الإيمان في طريقه ، لا يتلفَّتُ ولا يتردَّد ولا يحيد . ويُقدِم أهلُ الإيمان على الموت مستهينين ؛ ليقينهم بأنهم هم المؤمنون بربِّ العالمين ، وأنَّ عدوَّهم على غير دينهم ، يُنكر ربوبية ربِّ العالمين . وما كان أن يمضي المؤمنون في طريق الدعوة إلى رب العالمين على ما ينتظرهم من التعذيب والتنكيل ؛ إلَّا بمثل هذا اليقين بشقَّيْه : أنهم هم المؤمنون وأن أعداءهم هم الكافرون ، وأنهم إنما يحاربونهم على الدين ، ولا ينقمون منهم إلا هذا الدين .

فلله ما أروعه من مشهد نعجز عن القول فيه !! وتعجز البشرية !! ولا يصوِّره بصدْقٍ إلَّا القرآن الكريم !!

نماذجُ مِنْ الجِيلِ السامِقِ الذي تَربَّى بالقرآن ، وصُنِع على عَيْنِ النبي ﷺ :

ابن مسعود رضي الله عنه :

تناوله المشركون بالأذى ، لأنه أسمعهم القرآن في ناديهم إلى جوار الكعبة ،

حتى تركوه وهو يترنَّح لا يصلب قامته ، فكان يقول بعد هذا الأذى المنكر الفاجِر الذي ناله : « والله ما كانوا أهونَ عليَّ منهم حينذاك » !! .

كان يستيقن أنَّ الذي يحادُّ الله مغلوبٌ هيِّنٌ على الله ، فينبغي أن يكون مَهينًا عند أولياءِ الله .

ابنُ مَظْعُون رضي الله عنه :

وهذا عثمان بن مظعون يردُّ جِوار عُتبة بن ربيعة ، ويضربه المشركون ، وآذوه حتى خسروا عينه ، فدعاه عُتبة إلى جواره ، فقال لعتبة : « لَأَنا في جوارِ مَن هو أعز منك » !! ولمَّا قال له عتبة : « يا ابن أخي ، لقد كانت عينُكَ في غنى عمَّا أصابها » . فقال : « لا والله ، ولَلأُخرى أحقُّ لما يُصلحُها في سبيل الله » .

كان يعلم أنَّ جوار ربِّه أعزُّ من جوار العبيد ، وكان يستيقن أنَّ ربه لا يتخلَّى عنه ، ولو تركه يُؤذَىٰ في سبيله هذا الأذىٰ ، لترتفع نفسه إلى هذا الأفق العجيب : « لا والله ، ولَلأخرى أحقُّ لِمَا يُصلحها في سبيل الله » .

لقد احتملوا الأذىٰ بثقة في الله لا تتزعزع ، وبعزمةٍ في الله لا تلين .

وللأنصار يقينٌ أَغربُ من الخيالِ وأطيبُ من المِسْك :

كان للأنصار يقينٌ كامل ، وثقة سامية بالله ورسوله ﷺ ؛ وخذ على هذا مثالًا :

في يوم العَقَبة الْتقىٰ رسول الله ﷺ بالوفد الثاني للأنصار ، وكان من أمْرهم كما قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري : « يا معشر الخزرج ، هل تدرون علامَ تُبايعون هذا الرجل ؟ قالوا: نعم ! قال: إنكم تبايعونه على حرْب الأحمر والأسود من الناس ؛ فإن كنتم ترَون أنكم إذا أنهكتْ أموالكُمْ مُصيبة وأشرافكم قتلًا ، أسلمتموه ؟ فمِن الآن ، فهو - والله - إن فعلتم خزيُ الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترَوْن أنكم وافون له بما دعوتموه على نهكة الأموال وقتل الأشراف ،

فخذوه ؛ فهو - والله - خيرُ الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتْل الأشراف » .

وعند الإمام أحمد من حديث بيعة العقبة : « فقلنا - أي الأنصار - : يا رسول الله، نبايعك ؟ قال : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومةَ لائمٍ ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمتُ عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجَكم وأبناءكم ، ولكم الجنة ؟ » . قال: فقمنا إليه فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم، فقال: رويدًا يا أهل يثرب ؛ فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل ، إلَّا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ ، وإن إخراجَه اليومَ مفارقةُ العرب كافَّة ، وقتْل خياركم وتعضُّكم السيوف ، فإمَّا أنتم قوم تصبرون على ذلك ؛ وأجركم على الله ، وإمَّا أنتم قوم تخافون مِن أنفسكم جبينةً ، فبيِّنوا ذلك ؛ فهو أعذر لكم عند الله ، قالوا : أمطْ عنَّا يا أسعد ؛ فوالله لا ندع هذه البَيْعة أبدًا ولا نسلبها أبدًا »[1] .

« وهذه امرأة من بني عبد الدار عرفت معنى اليقين والثقة ، فعبَّرت عنها بكلمات بقيتْ تُزينُ صدر التاريخ ، وأصبحت أمانة في عنق كلِّ مسلمة ؛ وذلك عندما أُخبرتْ باستشهاد زوجها وأخيها وأبيها ، قالت : ماذا صنع رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : هو بخير . قالت : كلُّ مصيبة بعدك يا رسول الله جلل[2] »[3] .

---

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي ، وقال ابن كثير : وهذا إسناد جيّد على شرط مسلم . وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/٢٢٢) : رواه أحمد بإسناد حسن .

(٢) جلَل : هينة .

(٣) الرسول القائد : لمحمود شيت خطاب .

وفي هذا الجيلِ السامِق نزلت آياتٌ :

قال تعالى : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول مِن بعد ما أصابَهُمُ القَرْحُ للذينَ أَحسنـوا منهم واتقـوْا أجرٌ عظيمٌ * الذين قال لهُمُ الناسُ إنَّ الناسَ قـد جمَعُوا لكمْ فاخشوهُمْ فزادهم إيمانًا وقالوا حسبُنا الله ونعْمَ الوكيل * فانقلبُوا بنعمةٍ من الله وفضْلٍ لم يمسَسْهمْ سُوءٌ واتبعوا رضوانَ الله والله ذو فضلٍ عظيمٍ** ﴾ ، [آل عمران : ١٧٢ - ١٧٤] .

لله درُّ هؤلاءِ النفرِ من الصحابة !! دعاهم رسول الله ﷺ إلى الخـروج معه كرَّةً أخرى في « حمراء الأسد » غدَاة المعركة المريرة ، وهم مُثْخَنُون بالجراح ، وهم ناجون بشِقِّ الأنفس من الموت أمسِ في المعركة ، وهم لم ينسوا بعدُ هـوْلَ الدعْكَة ومرارة الهزيمة وشِدَّة الكرْبِ ، وقد فقدوا من أعزَّائهم مَن فقدوا ، فَقـلَّ عددهم ، فوق ما هم مُثْخَنون بالجراح ، ولقد دعاهم رسول الله ﷺ ، ودعاهم وحدهم فاستجابوا لدعوته ... لليقين الذي يغمر قلوبَهم ، وليُعْلِموا الدنيا أن هناك عقيدةً هي كلُّ شيء في نفوس أصحابها، ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها، وليس لهم من غاية في حياتهم سواها ، عقيدة يعيشون لها وحدها ، فلا يبقىٰ لهـم في أنفسهم شيء بعدها، ولا يستَبْقون هم لأنفسهم بقيَّة في أنفسهم لا يبذلونها لها ، و لم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة ، من خروج هؤلاء الـذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أَصابهم القَرْح ، ومن خروجهم بهذه الصورة الرائعة الناصعة الهائلة ؛ صورة التوكُّل على الله وحده ، واليقين به .

وقال تعالى : ﴿ **ولمَّا رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هـذا ما وعـدَنا الله ورسولُهُ وصدق الله ورسولهُ وما زادهم إلّا إيمانًا وتسليمًا** ﴾ ، [الأحزاب : ٢٢].

مع الزلزلة ، وزوَغان الأبصار ، وكرْب الأنفاس ؛ صِلَةٌ لا تنقطع بالله، وإدراك لا يضلُّ عن سنن الله ، وثقة لا تتزعزع بثبات هذه السنن ، ويقين لا يخالجه الشكُّ بربِّهم ، وارتباط بالعروة الوثقىٰ يشدُّهم إلى الله ويجدد فيهم الأمل .. يتخـذون

من الزلزال بشيرًا بالنصر ، وكانوا بهذا نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية ، لم يُعرَف له نظير .

الصِّدِّيقُ الأكبرُ رضي الله عنه ويقينُه الكبيرُ يومَ موْتِ رسول الله ﷺ :

مَن شاء أن يرىٰ يقين أبي بكر في أحفل ساعاته ، من شاء أن يرىٰ اليقين العُلْوِيَّ الموصول بقيُّوم السموات والأرض ، فلْيرَ هذا اليقين يومَ دُعي الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، فأجاب ورحل عن الحياة والأحياء ، يومئذٍ تكشَّف هذا الجوهر ... يقين لا يضعف بل يتفوّق ، ولا يجزع بل يحتشد ، ولا ينوء تحت وقْع الضربة ، بل ينهض أيِّدًا رشيدًا ثابتًا ليحمل مسئولياته وتبِعاته !!

وقف يقين أبي بكر يومَ وفاة الرسول ﷺ وقفة ما كان يقدر عليها سواه ، يومَ أن قال عمر : « إنَّ رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات ، وإنه والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عمران ... والله لَيرجعنَّ رسول الله ، فلَيقطِّعنَّ أيديَ رجال زعموا أنه مات » ... « ألا ، لا أسمع أحدًا يقول : إن رسول الله مات ، إلّا فَلَقْتُ هامَتَهُ بسيفي هذا » .

وأقبل أبو بكر يكلِّم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء ، ودخل على رسول الله ﷺ وهو مسجًّى في ناحية البيت ، عليه بُرْدُ حَبَرَة ، فكشف عن وجهه ثم قبَّله ، وقال : « بأبي أنت وأمي ، طبتَ حيًّا وميِّتًا ، إن الموتة التي كتبها الله عليك قد مِتَّها » . ثم ردَّ الثوب على وجه الرسول ﷺ ، ثم خرج وأقبل على الناس يكلِّمهم ، فلما سمِعوه أقبلوا عليه منصتين ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيُّها الناس ، مَن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومَن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت » . ثم تلا هذه الآية ﴿ **وما محمد إلّا رسول قد خلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُل أفإنْ مات أو قُتِلَ انقلبْتُم على أعقابكم ومَن ينقلب على عقبَيْه فلن يضرَّ الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] . فوالله لَكأنَّ الناسَ يسمعون هذه الآية لأوَّلِ مرة ... أما عمر فقد وقع على الأرض حين علم من كلمات أبي بكر أنه الموت حقًّا .

وهكذا كان يقين أبي بكر يُشبه عيْنَ الصقْر ، يقع في أقلّ مِن لمْح البصر على كلمة السِّرِّ التي ستردُّ الهمَمَ المنْسَحِقَةَ تحت وطأة الفاجعة ، إلى وعْيٍ قدير يستقبل تبعاته الجِسَام ، ويَعبُر أزمة الموت بسلام !!

إذن يا خيلَ الله اركبي ... ويارايةَ الله ارتفعي ... ويا حَمَلة هذه الراية قوموا ... انهضوا ... واصلوا رحلة الشمس المشرقة .

لقد فعل يقين أبي بكر في الصحابة ما فعل واستقبلوا الأمر بالعزْم الأيِّد.. .

ومِن قبلُ قالَها ثابتُ بنُ الدَّحْدَاحَةِ وأنسُ بنُ النضر رضي الله عنهما :

لما نادىٰ الشيطان يومَ أُحُد : « ألا إن محمدًا قد مات » . أُسقِطَ في أيدي نفَر من الصحابة ، فَماذا تمَّ ؟

في « الاستيعاب » (١/١٩٥) ، وعند الواقدي ، عن عبد الله بن عمَّار الخطمي قال : « أقبل ثابت بن الدحْدَاحَة رضي الله عنه يومَ أُحد والمسلمون أوزاع ؛ قد سُقِط في أيديهم ، فجعل يَصيح :يا معشر الأنصار ، إليَّ إليَّ ، أنا ثابت بن الدحداحة ، إن كان محمد ﷺ قد قُتِل ، فإن الله حيٌّ لا يموت ، فقاتِلوا عن دينكم ؛ فإنَّ الله مُظهِركم وناصِرُكم ، فنهض إليه نَفَرٌ من الأنصار ، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين ، وقد وقفتْ له كتيبةٌ خشناءُ فيها رؤساؤهم : خالد ابن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعِكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، فجعلوا يناوشونهم ، وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه فأنفذه ، فوقع فيها ، وقُتل مَن كان معه من الأنصار » .

وفي « البداية » ، (٤/٣٤) ، عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخي بني عدي بن النجار ، قال:انتهى أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله ، في رجالٍ من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم ، وقد ألقوا أيديهم ، فقال : فما يجلسكم ؟ قالوا : قُتِل رسولُ الله ﷺ . قال فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا ، فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ . ثم

استقبل القوم ، فقاتل حتى قُتل .

قال ابن كثير في « تفسيره » (١٠٩/٢) : « قال ابن أبي نجيح ، عن أبيه : أنَّ رجلًا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار ، وهو يتشحَّط[١] في دمه ، فقال له : يا فلان ، أشعرتَ أن محمدًا ﷺ قد قُتِل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قُتل فقد بلَّغ ، فقاتِلوا عن دينكم . فنزل : ﴿ **وما محمد إلَّا رسول قد خلتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُل** ﴾ » .

يا سبحان الله الذي أعلى هِمَمَ الصحابة ويقينهم بدينهم ، ودعوتهم الضاربة في جذور الزمن ، العميقة في منابت التاريخ ، المبتدِئة مع البشرية ، تحدو لها بالهدىٰ والسلام مِن مطالع الطريق . وهي أكبر من الداعية وأبقى من الداعية ، وتبقىٰ هي على الأجيال والقرون .

علَّمهم الرسول ووصلَهم مباشرة بالعروة الوثقى ... ويقينهم الكبيرُ أنَّ النبع لم يفجِّره محمد ﷺ ، ولكن جاء فقط لِيُومئ إليه ، ويدعو البشر إلى فَيْض هذا الدين المتدفِّق ، كما أوْمَأَ إليه من قبله الرسلُ ، ودعوا القافلة إلى الارتواء منه .

اليقينُ السَّامِق لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه :

عن أبي سعيد ، قال : بينا النبي ﷺ يقسِم ، جاء عبد الله بن ذي الخُوَيْصِرة التميمي ، فقال : اعدل يا رسول الله . فقال : « ويلك !! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ » . قال عمر بن الخطاب : دعني أضرب عنقه . قال : « دعه ؛ فإنَّ له أصحابًا يحقر أحدُكم صلاتَه مع صلاته[٢] وصيامه مع صيامِه[٢] ، يمرقون من الدين كما يمرُق السهمُ من الرمِيَّة ، يُنظر في قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر إلى نصْلِهِ فلا يُوجد فيه شيء ، ثم يُنظر إلى رِصافِه فلا يُوجد فيه شيء ، ثم يُنظر

(١) أي يتخبط فيه ويتمرَّغ .

(٢) وفي رواية للبخاري أيضًا:« صلاتهم .. صيامهم » .

في نِضِيِّه فلا يُوجد فيه شيء ، قد سبق الفرْث والدَّمَ . آيتُهم : رجلٌ إحـدى يديْه - أو قال : ثدْيَيْه - مثل ثدي المرأة . أو قال : مثل البضعة تَـدَرْدَرُ[(١)] يخرجون على حين فُرقة من الناس » .

قال أبو سعيد : أشهد سمعتُ من النبي ﷺ ، وأشهد أن عليًّا قتلهم وأنا معه ؛ جيءَ بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ قال : فنزلتْ فيه : ﴿ **ومنهمْ مَن يلمزُك في الصدقات** ﴾[(٢)] . رواه البخاري .

وآية الخوارج ، كما جاء في رواية علي عند مسلم : « فيهم رَجُلٌ مُخْدَج اليد أو مودن اليد أو مثدون اليد » .

وفي رواية أخرى عند مسلم لعليٍّ : « وغاية ذلك أن فيهم رجلًا له عَضُد ليس له ذراع ، على رأس عَضُده مثل حَلَمة الثدي عليها شعرات بيض » .

ولما خرجت الخوارج علىٰ عليٍّ وكانوا ثمانية آلافٍ من قُرَّاء الناس ، ونزل بحروراء فناظرهم علي ، فرجع منهم أربعة آلاف فيهم عبد الله بن الكواء ، فبعث عليٌّ إلى الآخرين أن يرجعوا فأبوا ، فأرسل إليهم : كونوا حيث شئتم ، وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا ، ولا تقطعوا سبيلًا ولا تظلموا أحدًا ، فـإن فعلتم نبذتم إليكم الحرب .

قال عبد الله بن شدَّاد : فوالله ما قتلهم حتى قطعوا السبيل ، وسفكوا الدم الحرام ، وذلك بقتلهم عبد الله بن خباب بن الأرت ، وبقروا بطن سُرِّيَّتِهِ .

« وفي « الأوسط » للطبراني : عن جندب بن عبد الله البجَلي ، قال : لما فارقت الخوارجُ عليًّا ، خرج في طلبهم ، فانتهينا إلىٰ عسكرهم ، فإذا لـهم دَوِيٌّ كدويِّ النحل من قراءة القرآن ، وإذا فيهم أصحاب البرانِس . أي الذين كانوا معـروفين بالـزهد والعبـادة . قال : فدخلني من ذلك شِدَّة ، فنزلتُ عن فرسي.

---

(١) تَدَرْدَر : أي تتدردر ، ومعناه تتحرَّك وتذهب وتجيء .

(٢) رواه البخاري في كتاب : « استتابة المرتدين » باب : مَن ترَك قتال الخوارج للتألف .

وقمتُ أصلي ، فقلتُ : اللهمَّ إنْ كان في قتال هؤلاء القوم لك طاعة فائذنْ لي فيه . فمرَّ بي عليٌّ ، فقال لمَّا حاذاني : تعوَّذْ بالله من الشكِّ يا جندب . فلما جئتُه أَقبل رجلٌ على بِرْذَوْنٍ يقول : إنْ كان لك بالقوم حاجة ، فإنهم قد قطعوا النهر . قال : ما قطعوه . ثم جاء آخر كذلك ، ثم جاء آخر كذلك . قال : لا ، ما قطعوه ، ولا يقطعونه ، ولَيقتلنَّ مَن دُونه عهدٌ من الله ورسوله . قلتُ : الله أكبر . ثم ركبنا فسايرته ، فقال لي : سأبعث إليهم رجلًا يقرأ المصحف يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيهم ، فلا يُقبل علينا بوجهه حتى يرشقوه بالنبْل ، ولا يقتل منا عشرة ولا ينجو منهم عشرة . قال : فانتهينا إلى القوم ، فأرسل إليهم رجلًا فرماه إنسان ، فأقبل علينا بوجهه فقعد ، وقال عليّ : دونكم القومَ . فما قُتل منَّا عشرة ولا نجا منهم عشرة » .

وفي رواية زيد بن وهب : « فقال عليٌّ : الْتمسوا فيهم المخْرج . فالتمسوه فلم يجدوه ، فقام عليٌّ بنفسه حتى أتى ناسًا قد قُتل بعضُهم على بعضٍ ، قال:أَخِّروهم . فوجده ممَّا يلي الأرض ، فكبَّر ، ثم قال : صدَقَ الله وبلَّغ رسولهُ » .

وفي رواية عبيد الله بن أبي رافع : « فلمَّا قتلهم عليٌّ قال : انظروا . فنظروا ، فلم يجدوا شيئًا ، فقال : ارجعوا ؛ فوالله ما كُذِبتُ ، ولا كَذبتُ . مرتين أو ثلاثًا ، ثم وجدوه في خَرِبة ، فأتوا به حتى وضعوه بين يديْه » . أخرجها مسلم .

وفي رواية للطبري من طريق زيد بن وهب : « فقال عليٌّ : اطلبوا ذا الثدية . فطلبوه فلم يجدوه ، فقال : ما كُذبتُ ولا كَذبتُ ، اطلبوه . فطلبوه ، فوجدوه في وَهْدةٍ من الأرض ، عليه ناس من القتلىٰ ، فإذا رجل على يده مثل سبلات السِّنَّور ، فكبَّر عليٌّ والناس ، وأعجَبَه ذلك »[١] .

---

(١) فتح الباري ١٢/٣١٠ - ٣١١ .

وفرح الناس حين رأوه واستبشروا ، وذهب عنهم ما كانوا يجدونه ، ورحمهم الله بيقين عليٍّ .

اليقين الغالي لشيخ الإسلام ابن تيمية ذي القدْر العَالي :

في الليلة التي سبقتْ مناظرتَه للبطائحيَّة وشيوخهم أمام نائب السلطنة ، استخار ربَّه واستعانه واستنصره واستهداه ، قال : « وسلكتُ سبيلَ عباد الله في مثل هذه المسالك ، حتى ألقي في قلبي أنْ أَدخُل النار عند الحاجة إلى ذلك ، وأنها تكون بَردًا وسلامًا على مَنِ اتَّبع ملَّةَ الخليل ، وأنها تحرق أشباه الصابئة ، أهل الخروج عن هذه السبيل ، وبين الصابئة ومَن ضلَّ من العباد المنتسبين إلى هذا الدين ، نسبٌ يعرفه مَن عرف الحقَّ المبين » .

ولمَّا حضر ابن تيمية والرفاعية وشيوخهم أمام نائب السلطان ؛ قال ابن تيمية : « هم يزعمون أن لهم أحوالًا يدخلون بها النار ، وأن أهل الشريعة لا يقدِرون على ذلك ، ويقولون : لنا هذه الأحوال التي يعجزُ عنها أهلُ الشرع ، ليس لهم أن يعترضوا علينا ، بل يُسلم إلينا ما نحن عليه ، سواء وافق الشرعَ أو خالَفه . وأنا قد استخرتُ الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخُلُ أنا وهم ، ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنةُ الله ، وكان مغلوبًا ، وذلك بعد أن نغسِل جُسومنا بالخلِّ والماء الحارِّ .
فقال الأمير : ولِمَ ذاك ؟ قلتُ : لأنهم يَطلُون جُسومَهم بأدوية يصنعونها من دُهن الضفادع ، وباطِن قِشْر النارنج ، وحَجَر الطلْق ، وغير ذلك من الحِيَل المعروفة لهم ، وأنا لا أطلي جِلدي بشيء ، فإذا اغتسلتُ أنا وهم بالخلِّ والماء الحارِّ ، بطلتِ الحِيلة وظهر الحق . فاستعظم الأمير هجومي على النار ، وقال : أتفعل ذلك ؟ فقلتُ له : نعم ، قد استخرتُ الله في ذلك ، وأُلقي في قلبي أنْ أفعله ، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداءً ؛ فإن خوارق العادات إنما تكون لأُمة محمد ﷺ المتَّبعين له باطنًا وظاهرًا لحجَّة أو حاجة ؛ فالحجَّة لإقامة دين الله ، والحاجة لما لا بدَّ منه من النصر والرزق ، الذي به يقوم دين الله ، هؤلاء إذا أظهروا ما يسمُّونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تُبطل دين الله وشرعه ، وجب علينا أن ننصر الله ورسوله ﷺ ، ونقوم في نصر دين الله وشريعته ، بما نقدر

عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا ، فلنا حينئذ أن نعارض ما يُظهرونه من هذه المخاريق ، بما يؤيّدنا الله به من الآيات ، ولْيُعْلَمْ أن هذا مثل معارضة موسى للسَّحرة ؛ لمَّا أظهروا سِحْرهم أيَّد الله موسى بالعصا التي ابتلعتْ سِحْرَهم . فجعل الأمير يخاطب مَن حضره من الأُمراء على السِّمَاط بذلك ، وفرح بذلك ، فلما حضروا تكلَّم منهم شيخٌ - يقال له : حاتم - بكلامٍ ، مضمونُه طلبُ الصلح والعفو عن الماضي والتوبة ، وإنا مجيبون إلى ما طلب - أي شيخ الإسلام - مِن ترك هذه الأغلال وغيرها من البِدع ، ومُتَّبِعون للشريعة »(١) .

ومِسْكُ الخِتام :

قال الإمام أحمد بن عاصم الأنطاكي : « يسيرُ اليقينِ يُخرِج كلَّ الشكِّ من القلب » .

وقال شيخ الإسلام الحافظ محمد بن منصور الطوسي : رأيتُ النبيَّ ﷺ في النوم ، فقلتُ : مُرْني بشيء حتى أَلْزَمَهُ . قال : « عليك باليقين » .

صيْحَةُ عُمير بن الحَمَامِ رضي الله عنه : منارةٌ مِن مناراتِ اليقينِ بالله :

« فهذا عُمير بن الحمام ؛ لمّا سمع رسول الله ﷺ يقول لأصحابه يوم بدر : « قوموا إلى جنة عرضُها السموات والأرض » ، قال : يا رسول الله ، جنة عرضها السمٰوات والأرض ؟ قال : « نعم » . قال : بخٍ بخٍ . فقال رسول الله : « ما يحملك على قولك : بخٍ بخٍ ؟ » . قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاءةَ أن أكون من أهلها . قال : « فإنك من أهلها » . فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهنَّ ، ثم قال : لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه ... إنها لحياةٌ طويلة . قال : فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قُتِل »(٢) .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/٤٤٥ - ٤٧٥ . تقرأ كاملة .

(٢) رواه مسلم .

فهذه صيحة من الأعماق ، نقتبس منها جذوة تُنير الطريق وترسم المعالم ، ثقة بالله ويقينًا به في كلِّ حركة ، وفي كل سَكَنة .

حَيْوةُ بن شُرَيْح :

قال ابن وهب : كان حيوة يأخذ عطاءه في السنة ستين دينارًا ، فلم يطلع إلى منزله حتى يتصدّق بها ، ثم يجيء إلى منزله فيجدها تحت فراشه . وبلغ ذلك ابنَ عمٍّ له فتصدَّق به كلَّه وجاء إلى تحت فراشه فلم يجد شيئًا ، فشكا إلى حَيْوة فقال : أنا أعطيت ربي بيقين وأنت أعطيتَه تجرِبةً[(١)] .

محمدُ بنُ إسماعيل البخاري :

وكان هِجِّيراه[(٢)] من الليل إذا أتيتَه في آخر مقدمه من العراق : ﴿ **إنْ ينصرْكمُ الله فلا غالِبَ لكمْ وإنْ يخذلْكُمْ فمنْ ذا الذي ينصرُكُمْ مِن بعده** ﴾[(٣)] .

عليُّ بن أبي طاهر : الإمام الأوْحدُ ، والثقةُ الحافظ :

لمَّا رحل إلى الشام وكتب الحديث ، جعل كُتُبَه في صندوق وقَيَّرَهُ وركب البحر ، فاضطربتِ السفينة وماجت ، فألقى الصندوق في البحر ثم سكنت السفينَة ، فلمَّا خرج منها أقام على الساحل ثلاثًا يدعو الله ، ثم سجد في الليلة الثالثة وقال : إنْ كان طلبي ذلك لوجهك وحبِّ رسولك ، فأغثني بردِّ ذلك . فرفَعَ رأسَه فإذا بالصندوق مُلقى عنده ، فقدم وأقام بُرهةً ، ثم قصدوه لسماع الحديث ، فامتنع منه . قال : فرأيتُ النبي ﷺ في منامي ومعه علي رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ : « يا علي ، مَن عامَلَ الله بما عاملك به على شط البحر ؟! لا تمتنعْ من رواية أحاديثي » . قال : فقلتُ : قد تبت إلى الله . فدعا لي وحثَّني على الرواية[(٤)] .

---

(١) السير ٦/٤٠٤ - ٤٠٦ .

(٢) هِجِّيراه : كلامه ودأبه وشأنه .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/٣٩١ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٤/٨٧ - ٨٨ .

أبو عبد الله مردنيش : الزاهد المجاهد ، أبو عبد الله ، محمد الجذامي المغربي :

قال الذهبي : فمن عجيب ما صحَّ عندي من مغازيه – يقول ذلك اليسَع ابن حزْم – أنه أغار يومًا ، فغنم غنيمةً كثيرةً واجتمع عليه من الروم أكثر مِن ألف فارس ، فقال لأصحابه – وكانوا ثلاثمائة فارس – : ما ترون ؟ فقالوا : نشغلهم بترْك الغنيمة . قال : ألم يقل القائل : ﴿ **إن يكنْ منكم عشرون صابرونَ يغلِبُوا مائتين** ﴾ ؟! قال له ابن مورين : يا رئيس ، الله قال هذا . فقال : الله يقول هذا ، وتقعدون عن لقائهم ؟! قال : فثبَتُوا ، فهزموا الروم(١) .

الشيخُ عبدُ القادر ؛ الشيخُ الإمامُ ، العالمُ الزاهدُ ، شيخُ الإسلامِ الجيلانيُّ :

قال رحمه الله : وتَرِدُ عليّ الأثقال التي لو وُضعتْ على الجبال تفسَّختْ ، فأضع جنبي على الأرض وأقول : إن مع العسر يسرًا ، إن مع العسر يسرًا . ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني(٢) .

أبو عثمان الحِيري ؛ الشيخُ الإمام ، شيخُ الإسلام : سعيد بن إسماعيل الحيري :

قال الحاكم : وسمعتُ أبي يقول : لمَّا قَتَلَ أحمد بن عبد الله الخجستاني – الذي استولى على البلاد – الإمامَ حكيان بن الذهلي ، أخذ في الظلم والعسْف ، وأمر بحرْبة رُكزت على رأس المربعة ، وجمَع الأعيانَ وحلَف إن لم يصبُّوا الدراهمَ حتى يغيب رأس الحربة فقد أحلُّوا دماءهم ، فكانوا يقتسمون الغرامة بينهم ، فخُصَّ تاجرٌ بثلاثين ألف درهم ، فلم يكن يقدر إلَّا على ثلاثة آلاف درهم ، فحملها إلى أبي عثمان وقال : قد حلف هذا كما بلغك ، ووالله لا أهتدي إلَّا إلى هذا . قال : تأذن لي أن أفعل فيها ما ينفعك ؟ قال : نعم . ففرَّقها أبو عثمان وقال للتاجر :

---

(١) السير ٢٠/ ٢٣٢ – ٢٣٤ .

(٢) السير ٢٠/٤٣٩ .

امكثْ عندي . فما زال أبو عثمان يتردَّد بين السِّكَّة والمسجد ليلَته حتى أصبحَ ، وأذَّن المؤذِّن ، ثم قال لخادمه : اذهبْ إلى السوق وانظرْ ماذا تسمع . فذهب ورجع ، فقال : لم أر شيئًا . قال : اذهب مرة أخرى . وهو في مناجاته يقول : وحقِّك لا أقمتُ ما لم تفرِّج عن المكروبين . قال : فأتى خادمه الفرغاني يقول : ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال**﴾، شُقَّ بطْنُ أحمد بن عبد الله . فأخذ أبو عثمان في الإقامة .

قال الذهبي : بمثل هذا يُعَظَّمُ مشايخ الوقت(١) .

وقد مرَّ مثلُها من سفيان الثوري مع أبي جعفر المنصور .

يقول عصام العطَّار : « إذا عرفتم الله صغُر عندكم مَن سواه وما سواه ، بل ذاب في أعينكم وفني في قلوبكم كلُّ ما عداه ، ولم يعُدْ يستأهل الطلب والنصَب إلَّا قربه ورضاه ، وإذا استشعرتم رابطتكم بربِّكم وعونه لكم ، وأيقنتم أنه معكم ، رأيتم أنفسكم أقوى من كلِّ قوى الشيطان والطغيان !! وهكذا يُولد المسلم ولادَةً جديدة ، من عقيدته لا من رحم أمِّه ، وينبعث بمعرفتِهِ بالله وحرارة إيمانه به .. ولقد أحسَّ جند الله المؤمنون المخلصون الذين فرَغوا من أنفسهم ووهبوا حياتهم - كلَّ حياتهم - لربهم ، فلم يتحرَّكوا ولم يقفوا ، ولم يُعطوا ولم يمنعوا ، ولم يُحبُّوا ولم يُبغضوا ، ولم يحاربوا ولم يُسالموا ، إلَّا به وفيه ومن أجله عز وجل ، لقد أحسُّوا أنهم قدَرٌ من قدَرِ الله الغلّاب ، لا تصدُّه ولا تردُّه قوة في الأرض ، إلا أن يشاء الله »(٢) .

ولله درُّ سيد قطب حين يقول :

وإنْ طوَّقتْني جيوشُ الظلام ... فإني على ثقة بالصباحِ
وإني على ثقةٍ من طريقي ... إلى الله ربِّ السَّنا والشروقِ
فإن عاقني الشوْقُ أو عقَّني ... فإني أمينٌ لعهدي الوثيقِ

---

(١) السير ١٤/٦٢ - ٦٦ .
(٢) « أزمة روحية » لعصام العطار .

أخي أخـذوكَ علـى إثْـرنا وفـوْج على إثْرِ فـوْجٍ جـديدِ
فـإنْ أنـا مـتُّ فـإني شهيـدٌ وأنـتَ ستمضـي بنصـرٍ مجيـدِ
قـد اختـارنـا الله في دعـوتِـهْ وإنَّـا سنمضـي عـلـى سنتـهْ
فمنَّـا الـذينَ قضـوا نحْبَهـمْ ومنَّـا الحفيـظُ عـلـى ذِمَّتـهْ
أخـي فـامـضِ لا تلتفـتْ للـوراءْ طـريقُكَ قـد خضبَّتْهُ الـدماءْ
ولا تلتفـتْ هـاهنـا أوْ هنـاك ولا تتطـلـعْ لـغيـرِ السمـاءْ

ولله درُّ القائل الموقن بوعد ربِّه في الدنيا قبل الآخرة :

لا تُهيِّـئْ كفنـي يـا عـاذلـي فأنا لي معَ الفجرِ مواثيق وعهدُ

ولله درُّ عبد الرحمن العشماوي وهو يهدِر بها :

تمـوتُ المبـادئ في مهـدِهَـا ويبقـى لنـا المبـدأُ الخـالـدُ
مـراكـبُ أهـل الهـوى أُتخِمَـتْ نـزولًا ومـرْكِبُنـا صـاعـدُ
سـوانـا يـلـوذ بعـرَّافـةٍ وأُسطـورةٍ أصلُهـا فـاسـدُ
يُحـدِّثنـا الليـلُ عـن نـفسـهِ وفيـهِ علـى نفسِـهِ شـاهـدُ
إذا عـدَّدَ النـاسُ أربَـابَهُـمْ فنحـنُ لنا ربُّنـا الـواحِـدُ[(١)]

ولله درُّ الدكتور النحوي وهو يقول في ملحمته :

سيجمعُ الغرباءَ الساحُ في لَهَبٍ وتهتدي فطنةُ الألبابِ بالحِكَمِ
وعِزَّةُ النهْجِ في أفياءِ موهبةٍ منَ التُّقى وجلال المْوْكبِ العَمَمِ[(٢)]
سندفعُ الخطوَ فوقَ الدرْبِ وَقْدَ لظًى ولفحةُ الشوْقِ إعصارُ الفتى القَرِمِ
علىٰ محاجِرنا أطيافُ ملحمةٍ وبين أكبادِنا أشواق كُلِّ كَمي
ومن سَواعِدِنا هدَّارةٌ عَصَفَتْ هُوجُ الأعاصيرِ جازتْ ظلْمة التُّخُمِ

---

(١) قصيدة : « موقف » ، من ديوان : شموخ في زمن الانكسار ، لعبد الرحمن العشماوي ، ص ٥ - مكتبة الأديب .

(٢) العمم : الاجتماع والكثرة ، والتامُّ من كلِّ شيء ، ومن الرجال : الذي يعمُّ خيره .

وفي مباسِمِنا إشراقةٌ طلَعَتْ تُعيدُ من عبقريِّ اللحن والنغَمِ
الله أكبرُ دارُ الخلدِ فامضِ لهَا مَعَ الميامينِ مِن غُرٍّ ومِنْ بُهَمِ (١)

ولله درُّ وليد الأعظمي وهو يقول :

واهتفْ بهمْ : أنا من جُنودِ محمدٍ بايعتُه فيما يُريحُ ويُتعِبُ
راياتُها خفَّاقةٌ وسُيُوفُها صفَّاقةٌ وجنودُها لا تُغْلَبُ
واهتزتِ الدنيا لصوتِ محمَّدٍ الله أكبرُ شرقُها والمغرِبُ

نعم يا أخي :

يقينٌ تنوءُ بهِ الراسياتُ ويكبرُ عنْ قبضةِ المجرمِ
وإخوتي .... يا مناطَ العُلا ويا صيحةَ الحقِّ ملْءَ الفمِ
ويا جرحَ آمالنا الغالياتِ توهَّجَ كالشَّررِ المضْرَمِ
ويا صحوةَ الفكْرِ .... أرواحُنا بغيرِ البطولاتِ لمْ تحْلُمِ
يُجلجِلُ فينا نداءُ السماءِ ويجأرُ كالقدَرِ المُبْرَمِ
يُحيِّي الرجالَ ذوي العَزمَاتِ ويُهدي الضِّياءَ لعيْنِ العَمِي
يُحيلُ المشاعرَ نارًا ونورًا يشقُّ سُجوفَ الدُّجَىٰ المظلِمِ
ويشرحُ للدهرِ معنىٰ الثباتِ على الحقِّ في نهجِهِ القيِّمِ (٢)

ولله درُّه حين يقول :

المُوقنونَ الصادقونَ مشاعلٌ خَلَلَ الظلامِ تُسَلْسِلُ الأضواءَا

(١) البُهَم : جمع بهْمة ؛ يُقال : فلان بهْمة من البُهم ، أي الشجاع الذي لا يُهتدى مِن أين يُؤتى .
من قصيدة : الخاتمة ، من ديوان : ملحمة الغرباء . للدكتور عدنان النحوي ص١٥١ - ١٥٢ ، دار النحوي للنشر والتوزيع .
(٢) التحدي ؛ من ديوان : نداء الحق ، لأحمد محمد الصديق ص ٨٣ ، ٨٤ - دار الضياء للنشر والتوزيع .

سَيُنَشِّئُون علـى المحجَّة فِتيةً ... ورجالَ صدقٍ في الورى أُمناءَا
هي دعوةٌ لله أقبلَ فجرُهَا ... بالنورِ يخفِقُ مُشرقًا وَضَّاءا
ضربتْ بأعماقِ النفوس جُذورُهَا ... وسمَتْ منارًا للهدىٰ ولواءَا
وسيُزهِرُ الحلمُ الذي نصبو لَهُ ... أرضًا تُعانِقُ في الوجودِ سَمَاءَا
يا للعزائمِ حينَ تنهضُ حُرَّةً ... وتحطِّم النِّيرَ البغيضَ هَبَاءَا
تمشي عَلى هام النجوم عزيزةً ... تُذْكِي النفوسَ توثُّبًا ومَضَاءَا

ولله درُّه حين يقول :

يا أيها النسرُ المشوق إلى الذُّرى ... يطوي الفضاءَ بلهفةٍ وحَنَانِ
قُمْ وانتفضْ يا ابنَ العلاءِ مبشِّرًا ... بتفتُّحِ النِّسْرين والرَّيْحانِ
ولتركبِ الريحَ الغضوبَ يهيجُها ... قدرٌ ويُطلِقُها بغير عِنانِ
واحملْ إلى الآفاقِ مُزْعة رايةٍ ... سقطتْ وتأبىٰ ذِلَّةَ القيعانِ
مَغْموسةً بجراحِنا منسوجةً ... بيقيننا بالصدقِ والإيمانِ
مِن عمْقِ هاتيكَ الجراح شموسُنا ... وُلِدَتْ وتُسقىٰ بالطَّهور القاني
وتفتَّقتْ خُضرُ البراعِمِ في الضُّحىٰ ... وتألَّقتْ شُهُبًا بكلِّ مكانِ
قد أَبرمتْ بيقينها وثباتها ... عهْدًا يدومُ غدًا معَ الرحمٰنِ
ولها معَ الأمجادِ وعدٌ صادقٌ ... قد سُطِّرتْ بُشْراه في القرآنِ
وإذا الرجالُ على العقيدةِ بايَعُوا ... يا صدقَ أحلامٍ لهمْ وأماني[١]

ولله درُّ القائل :

يا أُمَّتي وأقولُ اليومَ في ثقةٍ ... إني اليقينُ فلا شيءٌ يُزعْزِعُني
إني العقيدةُ والإقدامُ فَيْصَلُها ... وليسَ غيرُ نداءِ الله يُسحرني
أذودُ عنها وفيها علَّ خاتمتي ... تكونُ في ظلِّها يومًا فتقبَلني

---

(١) من قصيدة : « عودة النسر » . بتصرف ، من ديوان : قادمون مع الفجر ، لأحمد محمد الصدِّيق ص ٦٦ - ٦٨ . دار الضياء ، الأردن .

فالليـلُ يعقبُـهُ فجــرٌ ومِئْــذَنَــةٌ « واللهُ أكبرُ » نِبْراسٌ على الزمنِ
الهوْلُ في خطوي والنور في دربـي وأظلُّ أسمعُ صوتَ الحقِّ في أُذني

وختامًا : أبدًا نمضي باليقين معَ الله :

مـعَ الله طـوْعًا مـعَ الله سَــوْقًا هــداة دعــاة إلــى ما أمرْ
مـعَ الله والفيـضُ مــن قُـدْسِـهِ يُنيــر بصيـرتنا والبَصَـــرْ
ويـدفـعُ أعمـــاقَ إيمــانِنَــا فـــرارًا إليـــهِ ونِعْـم المَفَــرّْ
فنُبصـــرُهُ جــلَّ مــن خـالـقٍ بــآلائـهِ البـــارعـاتِ الغُـرَرْ
ونحيـا بـــه ثــمَّ نحيَـــا لـهُ ونحيا ونحيا ونحيا الدَّهَــرْ[(١)]

* * *

(١) « مع الله » من ديـوان : صفحات ونفحات ، لعمر بهاء الدين الأميري ص٥٤ - ٥٥ .

الفصل الرابع
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الدُّعَاءِ

« احشرْني إليكَ مِن حواصل الطيْرِ وبُطونِ السِّبَاع »

[عُتبةُ الغلام]

« اللهمَّ لا تجعلْ نعْشِي فوقَ أعناقِ الرجال »

□ عُلُوُّ الهمَّة في الـدُّعَـاءِ □

اعلم يا أخي أنَّ الله جعل من الدعاء عبادة وقُربى ، وأمر عباده المؤمنين بالتوجُّه إليه لينـالوا عنده منزلة رفيعةً وزُلْفى . أمَرَ بالدعاء ، وجعله وسيلـة الرجاء ، فكلُّ مَن خَلقَه يفزَعُ في حاجته إليه ، ويُعوِّل عند الحوادث والكوارث عليه .

« سبحانه من لطيفٍ لم تَخْفَ عليه مضمَراتُ القلوب ، فيفصح له عنها بنطْقِ بيان ، ولم تَسْتَتِرْ دُونه مضمَّناتُ الغيوب ، فيُعَبَّر له عنها بحركةِ لسان ، لكنه أنطق الأَلسُن بذكْره ، لتستمرَّ على وَلَهِ العبوديَّة ، وتظهر به شـواهـدُ الربوبية .

وحقيقته : إظهارُ الافتقار إليه ، والتبرُّؤ من الحوْل والقوة . وهو سِمَة العبودية ، واستشعار الذلَّة البشريَّة ، وفيه معنى الثناء على الله ، وإضافة الجُود والكرم إليه »[(١)] .

قال تعالى : ﴿ **وإذا سأَلَكَ عبادي عنِّي فإني قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ فليستجيبُوا لي وليُؤمنوا بي لعلَّهم يَرشُدون** ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

أيَّةُ رقةٍ ، وأيُّ انعطافٍ !! وأيَّةُ شفافية ، وأيُّ إيناس فوق هذا !! ألفاظٌ رفَّافة شفَّافة تُنير .. آيةٌ تسكبُ في قلبِ المؤمنِ الندواةَ الحُلْوة ، والوُدَّ المؤْنِس ، والرضا المطمئن ، والثقة واليقين ، يعيش منها المؤمن في جَنابٍ رَضيٍّ وقربى نديَّة ، وملاذ أمين وقرار مكين ، وهو يدعو سيِّدَ الساداتِ الذي ليس له مِثْلٌ ولا نظير .

ولو لم يكن في الدعاء إلّا رقَّة القلب ، لكفى ؛ ﴿ **فلولا إذْ جاءَهم بأْسُنا**

(١) « شأن الدعاء » للحافظ الخطابي ١ – ٤ ، تحقيق : أحمد يوسف الدقَّاق – دار المأمون للتراث .

تضرَّعوا ولكنْ قسَتْ قلوبُهم وزيَّن لهمُ الشيطانُ ما كانوا يعملون ﴾ ، [الأنعام : ٤٣] . ولو لم يكن في فضله إلَّا هذه الآية ، لكفى ؛ **﴿ قلْ ما يعبأ بكمْ ربِّي لولا دعاؤكم ... ﴾** الآية ، [الفرقان : ٧٧] .

قال رسول الله ﷺ : « أفضل العبادة : الدعاء »(١) . فالدعاء تذلُّل وخضوع ، وإخبات وانطراح على سُدَّةِ الكريم . قال ﷺ : « الدعاء هو العبادة »(٢) .

قال الخطَّابي : (معناه : أنه معْظَمُ العبادة ، أو أفضل العبادة ؛ كقولهم : الناس بنو تميم ، والمال الإبل ... وكقول النبي ﷺ : « الحجُّ عرَفة ») .

وقال رسول الله ﷺ:« إنَّ أبخل الناس مَن بخل بالسلام ، وأعجزَ الناس مَن عجز عن الدعاء »(٣) .

وقال رسول الله ﷺ : « ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء »(٤) .

وقال ﷺ : « مَن سرَّه أن يستجيبَ الله له عند الشدائد والكُرَب ، فلْيكثرِ الدعاء في الرخاء »(٥) .

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ، وابن عدي عن أبي هريرة ، وابن سعد عن النعمان بن بشير ، وصحَّحه الحاكم ، وأقرَّه الذهبي ، وصحَّحه السيوطي ، والألباني في صحيح الجامع رقم ١١٢٢ .

(٢) رواه أحمد وابن أبي شيبة ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن حبان عن النعمان بن بشير ، وأبو يعلى عن البراء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٤٠٧ .

(٣) صحيح : رواه أبو يعلى في مسنده عن أبي هريرة ، ورواه ابن حبان ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥١٩ .

(٤) حسن : رواه أحمد والبخاري في الأدب ، والترمذي ، والحاكم عن أبي هريرة وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ٥٣٩٢ .

(٥) حسن : رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٩٠ .

ومِن عُلُوِّ الهمَّة في الدعاء : أن يحافظ المرءُ على آدابه :

فيترصَّد لدعائه الأوقاتِ الشريفة ؛ كيوم عرفة من السَّنَة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السَّحَر من ساعات الليل .

وأن يغتنم الأوقات والأحوال التي يُسْتجاب فيها الدعاء ، كوقت التنزُّل الإلهي ، وفي السجود ، وأن يبيتَ على ذِكْر ، فيتعارَّ من الليل فيدعو ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وعند نزول المطر ، وعند التقاء الجيوش ، وعند الإقامة ، وآخر ساعة من نهار الجمعة ، ودعاء الأخِ لأخيه بظهْر الغيْب ، ودعوة المسافر والمظلوم ، ودعوة الصائم والوالد لولده ، وعدم العجَلة ، ودعاء رمضان(١) .

وأن يدعو مستقبلَ القِبْلة ويرفع يديه ، وألَّا يتكلَّف السجْعَ في الدعاء ، وأن يتضرَّع ويخشع عند الدعاء ؛ قال تعالى : ﴿ **ادعوا ربَّكمْ تضرُّعًا وخفْيَة** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **إنهم كانوا يُسارِعون في الخيرات ويدعوننا رَغَبًا وَرَهَبًا** ﴾ ، [الأنبياء : ٩٠] .

وأن يخفض الصوت ؛ فإنه أعظم في الأدب والتعظيم ، ولهذا لا تُخاطَب المَلوكُ ولا تُسألُ برفْع الأصوات ، ولله المَثَلُ الأعلىٰ .

ولأنه أَبلغ في التضرُّع والخشوع الذي هو رُوح الدعاء ولبُّه ومقصوده ؛ فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألةَ مسكينٍ ذليل ، قد انكسر قلبُه وذلَّت جوارحُه ، وهذه الحالة لا يتأتَّى معها رفْع الصوت بالدعاء أصلًا .

ولأنه أبلغ في الإخلاص ، وأبلغ في جمعيَّة القلب على الله في الدعاء ؛ فإنَّ رفْعَ الصوت يُفرِّقه ويُشتِّته ، فكلَّما خفض الصوت ، كان أبلغ في حمده وتجريد

---

(١) ذكرتُ أدلَّة ذلك بالتفصيل في كتابي : « نداء الريَّان في فقه الصوْم وفضل رمضان » ، فصل « رمضان شهر الدعاء المستجاب » ١/٢٦٤ - ٢٦٧ طبعة أولى .

همَّته وقصْده للمدعو سبحانه وتعالى .

ولأنه دالٌّ على قرْب صاحبه من الله ، فيسأله مسألةَ القريب للقريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد ، وهذا من النكَت السِّرِّيَّة البديعة جدًّا ، ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله : ﴿ **إذْ نادىٰ ربَّه نداءً خفيًّا** ﴾ [مريم : ٣] .

ولأن ذلك أدعى إلى دوام الطلب والسؤال ، وإخفاء الدعـاء أبعد لـه من القواطع والمشوِّشات والمُضْعِفات ، وأحفظ لهذه النعمة العظيمة التي ما مثلها نعمة من عيْن حاسد .. وهذا باب عظيمُ النفع ، وإنما يعرفه أهله ، وهذه فائدة شريفة نافعة .

مَن سارَرُوهُ فأبدَىٰ السِّرَّ مجتهدًا ... لمْ يأمنوهُ على الأسرارِ ما عـاشا
وأبعـدوه فلـمْ يظفَـرْ بقـرْبِهِـمُ ... وأبدلوهُ مكـانَ الأنسِ إيحـاشـا
لا يأمنونَ مذيعًا بعضَ سِـرِّهِـمُ ... حاشا ودادهم منْ ذلكمْ حاشا(١)

ومن عُلوِّ الهمَّة في الدعاء : أن يفتتح الدعاء بذكر الله والثناء عليـه وأن يختمه بالصلاة على رسول الله ﷺ :

فقد قال رسول الله ﷺ : «كلُّ دعاءٍ محجوبٌ حتى يُصلَّى على النبي ﷺ»(٢) .

« والأدب الباطن – وهو الأصل في الإجابة – التوبة وردُّ المظالم ، والإقبـال على الله عزَّ وجل بكُنْه الهِمَّة ؛ فذلك هو السبب القريب من الإجابة » . كما يقول الغزالي . بل وتطييب المطْعَم بأكْل الحلال .

ومن عُلوِّ الهمَّة في الدعاءِ : أن يجزِمَ بِهِ ويُوقِنَ بالإجابة ويصدقَ رجاءَه فيه :

قـال رسول الله ﷺ : « ادعـوا الله وأنتمْ مُوقِنونَ بالإجـابة ، واعلمـوا أن

---

(١) انتهى ملخَّصًا بتصرُّف من « التفسير القيم » ٨٧ – ٨٨ .

(٢) حسن : رواه الديلمي في « مسند الفـردوس » عن أنس ، والبيهقي في شعب الإيمـان عن عليٍّ موقوفًا ، ورواه ابن حبان عن مُعَاذ ، وابن مخلد عن عليّ مرفوعًا ، وحسَّنـه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ٤٥٢٣ .

الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافل لاهٍ »[١] .

وقال ﷺ : « إذا دعا أحدُكم فلا يقلْ : اللهمَّ اغفر لي إنْ شئْتَ . ولْيعزِمِ المسألة ، ولْيعظمِ الرغبة ؛ فإنَّ الله لا يعظُمُ عليه شيء أعطاه »[٢] .

وقال ﷺ : « لا يقلْ أحدُكم إذا دعا : اللهمَّ اغفر لي إن شئتَ ، اللهمَّ ارحمني إن شئتَ . فلْيعزمِ المسألة ؛ فإنه لا مُكرِهَ له »[٣] .

وعند البخاري ومسلم وأحمد ، عن أنس : « إذا دعا أحدُكم فلْيعزمِ المسألة ، ولا يقلْ : اللهم إن شئتَ فأعطني ؛ فإنَّ الله لا مُستكرِهِ له » .

قال سُفيان بن عُيينة : لا يمنعنَّ أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه ؛ فإن الله عزَّ وجلَّ أجاب دعاءَ شرِّ الخلْقِ إبليس لعنه الله ؛ ﴿ **قال ربِّ فأنظرْني إلى يوم يبعثون قال فإنَّك من المنظَرين** ﴾ . [الحجر : ٣٦ – ٣٧] .

ومِن عُلُوِّ الهمَّةِ : أنْ يُلِحَّ في الدعاءِ ويكرِّره ثلاثًا :

قال ابن مسعود : « كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثًا ، وإذا سأل سأل ثلاثًا »[٤] .

وفي صحيح مسلم ، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ ما زال يهتف بربِّه ، مادًّا يديْه ، مستقبلَ القبلة ، حتى سقط رداؤه عن مِنْكبيْه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ، فألقاه على منكبيْه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبيَّ الله ، كفاكَ مناشدتُكَ ربَّك ، فإنه سيُنجِزُ لك ما وعدك .

---

(١) حسن : رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٤٥ .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة ، والبخاري في الأدب عن أبي سعيد .

(٣) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .

(٤) رواه مسلم ، وأصله متفق عليه .

« وهذا نبي الله يعقوب ﷺ ، ما زال يدعو ويدعو ، فذهب بصره واشتدَّ روعه ، وأُلقي ولده في الجُبّ ولا يدري عنه شيئًا ، وأُخرج الولدُ من الجُبِّ ، ودخل قصرَ العزيز ، إلى أن شبَّ وترعرع ، ثم راودته المرأة عن نفسها فأبى وعصَمَهُ الله ، ثم دخل السجن فلبث فيه بِضْعَ سنين ، ثم أُخرج من السجن ، وكان على خزائن الأرض ، ومع طول هذا الوقت كلِّه ويعقوبُ يقول لبنيه : **﴿ يا بَني اذْهبُوا فتحسَّسوا من يُوسف وأخيه ولا تَيأسوا من رَوْح الله إنه لا ييأسُ من رَوْح الله إلا القومُ الكافرون ﴾** »(١) .

ومن عُلوِّ الهمَّةِ في الدعاء : أنْ يُعظِّمَ المسألة :

قال رسول الله ﷺ : « إذا تمنَّى أحدُكم فلْيُكثر ؛ فإنما يسأل ربَّه »(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا سأل أحدُكم فليْكثر ؛ فإنما يسأل ربَّه »(٣) .

قال المناوي : « إذا تمنَّى أحدُكم خيرًا من خير الدارَيْن ، فلْيُكثر الأماني ؛ فإنما يسأل ربَّه الذي ربَّاه وأنعم عليه وأحسنَ إليه ، فيعظم الرغبة ويوسِّع المسألة ، ويسأله حتي شسْعَ النعل ؛ فإنه إن لم ييسّره لا يتيسَّر ، فينبغي للسائل إكثار المسألة ولا يختصر ولا يقتصر ؛ فإن خزائن الجُود سحَّاء الليلَ والنهارَ ، ولا يُفنيها عطاءٌ وإنْ جلَّ وعظُم ، فعطاؤه بين الكاف والنون ، وليس ذا بمناقِضٍ لقوله سبحانه : **﴿ ولا تتمنَّوا ما فضَّل الله بهِ بعضَكم على بعضٍ ﴾** [النساء : ٣٢] .

---

(١) « من فقْه الدعاء » . لمصطفى العدوي ص ٣٥ - ٣٦ . دار السنة .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن عائشة ، ورمز السيوطي لحسنه ، قال المناوي ١/٣٢٠ : « وهو تقصير أو قصور ، وحقُّه الرمز لصحَّته ؛ فقد قال الهيثمي وغيره : رجالُه رجال الصحيح » . وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٣٧ .

(٣) صحيح : رواه ابن حبان في صحيحه عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩١ .

فإن ذلك نهي عن تمنّي ما لأخيه بغيًا وحسدًا ، وهذا تمنّى على الله خيرًا في دينه ودنياه ، وطلب من خزائنه ، فهو نظيرُ : ﴿ **واسألوا الله من فضلِه** ﴾ » .

وقد ذمَّ الله من دعا ربَّه الدنيا فقط ، فقال تعالى : ﴿ **فمِنَ الناسِ من يقولُ ربَّنا آتِنا في الدنيا وما له في الآخرة مِن خلاقٍ** ﴾ [البقرة : ٢٠٠] ، وأثنى سبحانه وتعالى على الداعين بخيري الدنيا والآخرة ، فقال تعالى : ﴿ **ومنهم مَنْ يقولُ ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النارِ أولئك لهم نصيبٌ ممَّا كسبوا والله سريعُ الحِسَاب** ﴾. [البقرة : ٢٠١ - ٢٠٢] .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة مائة درجة ، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتَيْن كما بين السماءِ والأرضِ ، فإذا سألتُم الله فاسألوه الفِرْدوس ؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة - أراه قال : وفوقه عرشُ الرحمن - ومنه تفجَّرُ أنهار الجنة » .

ومِن عُلوِّ الهمَّة في الدعاء : الدعاءُ باسمِه الأعظمِ الذي إذا دُعي بِهِ أجاب :

وأن يُسبَقَ الدعاءُ بحمدِ الله والثناء عليه وتمجيده ، والصلاة على النبي ﷺ ، ثم يدعو بما يريد ، وأن يشفع الدعاءَ بأسماءِ الله الحسنى تارة ، وبالتوسُّل إلى الله بفضله وسابق رحمته ، أو بصالح عمله ، تارةً أُخرى .

عن بُريدة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقول : « اللهمَّ إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد و لم يُولد و لم يكن له كُفُوًا أحد » ، فقال : « لقد سألتَ الله بالاسمِ الذي إذا سُئل به أعطى ، وإذا دُعي به أجاب »[1] .

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود واللفظ له ، والترمذي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : حديث حسن . وصحَّحه سليم الهلالي في كتاب : « صحيح كتاب الأذكار وضعيفه » ٢/٩٤٠ ، ٩٤١ .

وفي رواية : « لقد سألتَ الله باسمه الأعظم » .

وعن أنسٍ رضي الله عنه ؛ أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ، ورجلٌ يصلّي ، ثم دعا : اللهمَّ إني أسألك بأنَّ لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنَّان ، بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، ياحيُّ يا قيُّوم . فقال النبيُّ ﷺ : « لقد دعا الله تعالى باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعِيَ به أجاب ، وإذا سُئِل به أعطى »(١) .

ومن عُلُوِّ الهِمَّة في الدعاء : حرْصُ الرجل على الدعاءِ بالأدعية الواردة في القرآن الكريم :

﴿ رَبَّنا تقبَّل منَّا إنكَ أنتَ السميعُ العليمُ ربَّنا واجعلْنا مسلمَيْن لكَ ومِن ذرِّيتنا أُمَّةً مسلمةً لكَ وأرنَا مناسِكَنَا وتُبْ علينْا إنكَ أنت التوَّاب الرحيم ﴾ [البقرة : ١٢٧ - ١٢٨] .

وقوله تعالى في أواخر سورة البقرة التي نزل بها مَلَكٌ ما نزل إلى الأرض قطُّ ، وفُتِح لها بابٌ مِن السماء ما فُتح قبل يوم نزولها قطُّ : **﴿ ربَّنا لا تُؤَاخذْنا إنْ نسينا أو أخطأْنا ربَّنا ولا تحملْ علينا إصرًا كما حملتَه على الذين من قبلنا ربَّنا ولا تحَمّلْنا ما لا طاقةَ لنا به واعفُ عنا واغفرْ لنا وارحمْنا أنت مولانا فانصرنا على القومِ الكافرين ﴾** [البقرة : ٢٨٦] .

﴿ ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذابَ النار ﴾ [البقرة : ٢٠١] . وهي أكثر دعاء رسول الله ﷺ ، فمِن عُلُوِّ الهمَّة : الحرصُ عليها .

﴿ ربنا لا تُزِغْ قلوبَنا بعدَ إذْ هديتَنا وهبْ لنا من لدنْك رحمةً إنك أنت الوهّاب ﴾ [آل عمران : ٨] .

(١) صحيح : أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائيّ وأحمد والحاكم وابن حبان .

﴿ ربَّنا إنَّنَا آمنَّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذابَ النار ﴾ [آل عمران : ١٦] .

﴿ ربَّنا آمنَّا بما أنزلتَ واتبعْنا الرسولَ فاكتبْنا مع الشاهدين ﴾ .
[آل عمران : ٥٣] .

ودعاء الخليل : ﴿ ربِّ اجعلني مقيمَ الصلاةِ ومِن ذرِّيَّتي ربَّنا وتقبَّلْ دعاءِ ربَّنا اغفرْ لي ولوالدَيَّ وللمؤمنين يومَ يقوم الحِسَاب ﴾ [إبراهيم : ٤٠ - ٤١] .

وأيُّ دعاء أعظم مِن دعاء يُعَلِّمه الله لنبيِّه : ﴿ ربِّ أدخلني مُدْخَلَ صدقٍ وأخرجني مُخْرَجَ صِدقٍ واجعلْ لي من لدنكَ سلطانًا نصيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠] .

ومِن دعاء عُلاة الهِمَم من عباد الرحمن : ﴿ ربَّنا هبْ لنا من أزواجنا وذرِّيَّاتنا قُرَّة أَعيُن واجعلْنا للمتقين إمامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

ودعاء نبيِّ الله موسى : ﴿ ربِّ اشرحْ لي صدْري * ويَسِّرْ لي أمْري * واحلُلْ عُقدةًمن لساني * يفقهوا قولي ﴾ [طه : ٢٥ - ٢٨] .

وقوله تعالى : ﴿ ربَّنا أتمِمْ لنا نورَنا واغفرْ لنا إنك على كلِّ شيءٍ قدير ﴾ [التحريم : ٨] .. وغيرها(١) .

عالي الهِمَّة يحرصُ على هذا الدعاء الذي علَّمه الله لنبيِّه محمد ﷺ :

وهو جزء مِن حديث اختصام الملأ الأعلى ، الذي صحَّحه ابن رجب والألباني : « يا محمد ، إذا صلَّيتَ فقل : اللهم إني إسألك فعْلَ الخيرات ، وتركَ المنكرات ، وحُبَّ المساكين ، وأن تغفر لي وترحَمَني وتتوبَ عليَّ ، وإذا أردتَ بعبادِك فتنةً فاقبضْني إليكَ غيرَ مفتون » .

(١) راجع الآيات (الكهف : ١٠) ، (الفرقان : ٦٥) ، (الحشر : ١٠) ، (الممتحنة:٤ - ٥) ، (الأنبياء : ٨٩) ، (المؤمنون : ٩٧ - ٩٨) ، (النمل : ١٩) ، (آل عمران : ١٦ ، ١٤٧ ، ١٩٣ ، ١٩٤) ، (الأعراف : ٢٣ ، ٨٩) ، (يونس : ٨٥ - ٨٦) ، (هود : ٤٧) ، (البقرة : ٢٥٠) .

وعالي الهِمَّة يحرِص على حديثٍ يُعلِّمه النبيُّ ﷺ للصِّدِّيق الأكبر أبي بكر رضي الله عنه :

روى البخاري ومسلم ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ؛ أنه قال لرسول الله ﷺ : علِّمني دعاء أدعو به في صلاتي . قال : « قل : اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا ، ولا يغفر الذنوب إلَّا أنت ، فاغفرْ لي مغفرة من عندك وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

وأمْره ﷺ لعائشة رضي الله عنها أن تدعو بهذا الدعاء : « اللهمَّ إني أسألك من الخير كلِّه ، عاجِله وآجِله ، ما علمتُ منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنَّة وما قرَّب إليها من قوْل أو عمل ، وأعوذُ بك من النار وما قرَّب إليها من قوْل أو عمل ، وأسألك من خير ما سألك عبدُك ورسولُك محمد ﷺ ، وأعوذ بك من شرِّ ما استعاذ بك منه عبدُك ورسولُك محمد ﷺ ، وأسألك ما قضيْتَ لي من أمر أن تجعل عاقبتَه رُشْدًا »[(١)] .

وعن ربيعة بن عامر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : « أَلِظُّوا[(٢)] بـ : يا ذا الجلال والإكرام »[(٣)] .

ويلزم الأدعيةَ المأثورة عن رسول الله ﷺ ؛ فإنه ﷺ أعلى الناس هِمَّة وأدبًا في دعائه لربِّه ، وهي كثيرة ، ومنها :

« اللهمَّ اجعلْ أوسعَ رزقك عليّ عند كِبَر سنِّي ، وانقطاع أمري »[(٤)].

---

(١) إسناده صحيح : أخرجه ابن ماجه ، وابن حبان ، وأحمد ، والحاكم .

(٢) أي : الزموها وداوموا عليها .

(٣) إسناده صحيح : أخرجه أحمد ، والبخاري في التاريخ الكبير ، والحاكم .

(٤) حسن : رواه الحاكم عن عائشة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع ١٢٥٥ .

« اللهمَّ اجعلْ في قلبي نورًا ، وفي لساني نورًا ، وفي بصري نورًا ، وفي سمْعي نورًا ، وعن يميني نورًا ، وعن يساري نورًا ، ومِن فوقي نورًا ، ومن تحتي نـورًا ، ومن أمامي نورًا ، ومِن خلْفي نورًا ، واجعلْ لي في نفسي نورًا، وأعظِمْ لي نورًا »[١] .

« اللهمَّ احفظْني بالإسلام قائمًا ، واحفظْني بالإسلام قاعدًا ، واحفظْني بالإسلام راقدًا ، ولا تُشْمِتْ بي عدوًّا حاسدًا ، اللهم إني أسألك من كـلِّ خير خزائنه بيدك ، وأعوذ بِك من كلِّ شرٍّ خزائنه بيدك »[٢] . « اللهمَّ أحيني مسكينًا ، وأمتني مسكينًا ، واحشرني في زمْرة المساكين »[٣] . « اللهمَّ أصلحْ لي ديني الذي هو عِصْمة أمري ، وأصلحْ لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلحْ لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياةَ زيادةً لي في كل خير ، واجعل الموتَ راحة لـي من كلِّ شرٍّ »[٤] .

« اللهم اغفر لي خطيئتي وجهْلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلمُ به مني ، اللهم اغفر لي خطئي وعَمْدي ، وهزْلي وجدِّي ، وكلّ ذلك عندي ، اللهمَّ اغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ؛ أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر ، وأنت على كلِّ شيء قدير »[٥] .

« اللهم اغفرْ لي ذنوبي وخطاياي كلَّها ، اللهم أنعشني واجبُرني ، واهدني لصالح الأعمال والأخلاق ؛ فإنه لا يَهدي لصالحها ولا يصرف سيِّئها إلا أنت »[٦] .

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس .
(٢) حسن : رواه الحاكم عن ابن مسعود ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٦٠ .
(٣) صحيح : رواه عبد بن حميد وابن ماجه عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير ، والضياء عن عبادة بن الصامت ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٦٠ .
(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة .
(٥) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى .
(٦) حسن : رواه ابن السني ، والطبـراني في الأوسـط والصغير ، والحـاكم ، عن أبي أيوب ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٦٦ .

« اللهمَّ اقسمْ لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك ، ومن اليقين ما يهوِّن علينا مصيبات الدنيا ، ومتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتَنا ، واجعلْه الوارث منا ، واجعلْ ثأرنا على مَن ظَلَمنا ، وانصرْنا على مَن عادانا ، ولا تجعلْ مصيبتَنا في ديننا ، ولا تجعلِ الدنيا أكبرَ هَمّنا ولا مبْلَغَ علْمنا ، ولا تسلِّطْ علينا من لا يرحمنا »(١) .

« اللهم إني أسألك من الخير كلِّه عاجِله وآجِله ، ما علمتُ منه وما لم أعلمْ ، وأعوذ بك من الشر كلِّه عاجله وآجله ، ما علمتُ منه وما لم أعلم . اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيُّك ، وأعوذ بك من شرِّ ما عاذ به عبدُك ونبيُّك ، اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قوْل أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قوْل أو عمل ، وأسألك أن تجعل كلَّ قضاء قضيتَه لي خيرًا »(٢) .

« اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك ؛ فإنه لا يملكها إلا أنت »(٣) .

« اللهم إني أعوذ بك من العجْز والكسل ، والجبْن والبخل والهرَم ، والقسوة والغفلة والعَيْلة ، والذلة والمسكنة ، وأعوذ بك من الفقر والكفر ، والفسوق والشقاق والنفاق ، والسمعة والرياء ، وأعوذ بك من الصَّمَم والبكَم والجنون ، والجُذام والبرَص وسيِّىء الأسقام »(٤) .

« اللهم آتِ نفسي تقواها ، وزكِّها أنت خير من زكَّاها ، أنت وليُّها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علْم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفسٍ

---

(١) حسن : رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمر ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٦٨ .
(٢) رواه ابن ماجه عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٧٦ .
(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٧٨ .
(٤) صحيح : رواه الحاكم والبيهقي في « الدعاء » عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٨٥ .

لا تشبع ، ومن دعوةٍ لا يُستَجاب لها »[١] .

« اللهم إني أعوذ بك من علْمٍ لا ينفع ، وعمل لا يرفع ، ودعاء لا يُسمع»[٢] .

« اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يُسمع ، ومن نفْس لا تشبع ، ومن علْم لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع »[٣] .

« اللهم إني أعوذ بك من منكَرات الأخلاق والأعمال ، والأهواء والأدواء »[٤].

« اللهم إني أعوذ بك من يوم ِ السُّوء ، ومن ليلة السوءِ ، ومن ساعة السوءِ ، ومن صاحب السوءِ ، ومن جار السوء في دار المقامة »[٥] .

« اللهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ومحمدٍ ﷺ ، نعوذ بك من النار »[٦].

« اللهم ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وربَّ إسرافيل ، أعوذ بك من حرِّ النار ومن عذاب القبر »[٧] .

---

(١) جزء من حديث صحيح : رواه أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، والنسائي ، عن زيد ابن أرقم .

(٢) صحيح:رواه أحمد ، وابن حبان ، والحاكم عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع ١٢٩٥ .

(٣) صحيح : رواه الترمذي والنسائيُ عن ابن عمرو ، وأبو داود والنسائيُ وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة ، والنسائيُ عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٩٧ .

(٤) صحيح : رواه الترمذي ، والطبراني في الكبير ، والحاكم عن عمِّ زياد بن علاقة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٩٨ .

(٥) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٩٩ .

(٦) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم عن والد أبي المليح ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٠٤ .

(٧) حسن : رواه النسائيُ عن عائشة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٠٥

« اللهم حبِّبْ إلينا لقاءك ، وسهِّلْ علينا قضاءك ، وأقلِلْ لنا من الدنيا » .

« اللهم بعلْمِكَ الغيبَ ، وقدرتِكَ على الخلْقِ ، أحيني ما علمتَ الحياةَ خيرًا لي ، وتوفَّني إذا علمتَ الوفاة خيرًا لي . اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الإخلاص في الرِّضا والغضب ، وأسألك القصْدَ في الفقر والغِنىٰ ، وأسألك نعيمًا لا ينفد ، وأسألك قرَّة عيْنٍ لا تنقطع ، وأسألك الرضا بالقضاء ، وأسألك بردَ العيش بعد الموت ، وأسألك لَذَّة النظر إلى وجهك ، والشوْقَ إلى لقائك ، في غير ضرَّاء مُضِرة ، ولا فتنةٍ مضلَّة ، اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان ، واجعلنا هُدَاة مهتدين »[(١)] .

« اللهم يا وليَّ الإسلامِ وأهلِه ، مَسِّكني بالإسلام حتى ألقاك عليه »[(٢)] .

عُلوُّ هِمَّة الكَلِيمِ مُوسىٰ عليهِ السَّلام في سُؤالِهِ ودعائه النبوةَ لأخيهِ هارون عليه السلام من ربِّه عزَّ وجلَّ :

لله دَرُّ الكليم !! وصلوات ربي وسلامه عليه .. يدعو الكريم عز وجل أن يَمُنَّ على أخيه بالنبوة ، واستجاب الله دعاءه ؛ قال تعالى : ﴿ **ووهبْنا لهُ مِن رحمتنا أخاهُ هارونَ نبيًّا** ﴾ [مريم : ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ **وأخي هارونُ هو أفصحُ منِّي لسانًا فأرسلْه معيَ رِدْءًا يصدِّقني إني أخاف أن يكذِّبون** ﴾ [القصص : ٣٤] ، وقال تعالى في دعاء موسى : ﴿ **واجعلْ لي وزيرًا من أهلي هارونَ أخي اشددْ به أزري وأشركْه في أمري** ﴾ [طه : ٢٩ - ٣٢] .

« عن عروة ، عن عائشة أنها خرجتْ فيما كانت تعتمر ، فنزلت ببعض الأعراب ، فسمعتْ رجلًا يقول : أيُّ أخٍ كان في الدنيا أنفعَ لأخيه ؟ قالوا : ما ندري . قال : والله أنا أدري . قالت : فقلتُ في نفسي : في حلفه لا يستثني ؛ إنه لَيعلم أيَّ أخٍ في الدنيا كان أنفعَ لأخيه ؛ قال : موسى حين سأل لأخيه النبوة

(١) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن عمَّار بن ياسر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٠١ .

(٢) صحيح .

فقلتُ : صدق والله . قلتُ : وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام : ﴿ وكان عندَ الله وَجِيهًا ﴾ »(١) .

نماذجُ مِن دُعاءِ عُلاَة الهِمَم :

العلاءُ الحضرميُّ رضي الله عنه يدعو ربَّه ، فيسير بجيش المسلمينَ بأكْمَله علىٰ صَفْحةِ الماء :

وأي همَّة في الدعاء أعلىٰ من هذا ؟! يسير بجيش المسلمين على صفحة الماء ، ولما عطشوا و لم يجدوا ماءً لوضوئهم ، دعا ربَّه ، فهطلتِ السماء كأفواه القِرَب ، ثم دعا ربَّه النصرَ للمسلمين ، وأن يُخفيَ عليهم مكان قبره ، واستجاب الله لدعائه .. وقد مرَّ الدعاء سابقًا فليراجَعْ .

شأني أنَّ الله بعَثَ لي حماري :

عن الشعبي : أن قومًا من المهاجرين خرجوا متطوِّعين في سبيل الله ، فنفق حمار رجل منهم ، فأرادوه على أن ينطلق معهم فأبى ، فانطلق أصحابُه مرتحلين وتركوه ، فقام فتوضَّأ وصلَّى ، ثم رفع يديْه فقال : اللهمَّ إني خرجتُ من الدفينة(٢) مجاهِدًا في سبيلك وابتغاءَ مرضاتك ، وأشهد أنك تُحيي الموتي وتبعث مَن في القبور . اللهمَّ فأحي لي حماري . ثم قام إلى الحمار ، فضربه ، فقام الحمار ينفض أذنَيْه ، فأسْرَجَه وألجمه ثم ركبه ، فأجراه حتى لحِقَ بأصحابه ، فقالوا له : ما شأنك ؟ قال : شأني أنَّ الله بعَث لي حماري(٣) .

البَراءُ بنُ مالك ، مجابُ الدعوة : يسأل ربَّه النصرَ للمسلمين ، ولنفسه الشهادة :

« لقي البراءُ المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين ، فقالوا له :

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/٢٧٧ ، وتفسير ابن أبي حاتم .
(٢) مكان بين مكة والبصرة .
(٣) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص ٨٥ ، تحقيق : مجدي السيد – مكتبة القرآن .

يا براء ، إن رسول الله ﷺ قال : « إنك لو أقسمتَ على الله لأَبرَّك » ، فأقسِمْ على ربِّك . قال : أُقسم عليك يا ربِّ لَمَا منحتنا أكتافهم ، وألحقتَني بنبيِّك . فمُنِحوا أكتافَهم ، وقُتل البراء شهيدًا »[1] .

دعاءُ النعمانِ بن مُقرن بالشهادة :

وفي يوم « نهاوند » قال النعمان بن مقرن رضي الله عنه : « اللهمَّ إني أسألك أن تُقِرَّ عيني اليوم ، بفتحٍ يكون فيه عِزُّ الإسلام وذلٌّ يذلُّ به الكفار ، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة . أمِّنوا رَحِمَكُمُ الله » . قال جُبير : فأمَّنا وبكينا .

رحمك الله ورضي عنك من قائد جيش !!

وفي رواية معقل بن يَسَار : قال النعمان : « إني أدعو الله عزَّ وجلَّ بدعوة ، فعزمتُ على كلِّ امرئ منكم لَمَا أمَّن عليها : اللهمَّ أعطِ اليوم النعمانَ الشهادةَ في نصْر المسلمين ، وافتحْ عليهم » . ثم حَمَلَ فكان أوَّلَ صريعٍ .

لله درُّ عبدِ الله بن جحْشٍ ، ما أعلى هِمَّته :

أخرج الطبراني عن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه : أن عبد الله بن جحش رضي الله عنه قال له يوم أُحد : ألا تدعو الله ؟ فخلَوْا في ناحيةٍ ، فدعا سعد فقال : يا ربِّ ، إذا لقيتُ العدوَّ فلقِّني رجلًا شديدًا بأسُه ، شديدًا حرده ، أقاتله ويقاتلني ، ثم ارزقني الظفَر عليه ، حتى أقتله وآخذَ سَلَبَه . فأمَّن عبد الله بن جحش ، ثم قال : اللهمَّ ارزقني رجلًا شديدًا حردُه ، شديدًا بأسهُ ، أقاتله فيك ويقاتلني ، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ، فإذا لقيتُك غدًا قلتَ : من جَدَع أنفَكَ وأُذُنك ؟ فأقول : فيك

---

(١) صحيح:رواه أبو نعيم والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

وفي رسولك ﷺ . فتقول : صدقتَ . قال سعد : يا بُنيَّ ، كانت دعوة عبد الله ابن جحش خيرًا من دعوتي ، لقد رأيتُه آخر النهار ، وإنّ أنفَهُ وأذنه لمعلّقان في خيْط[١] .

وأخرجه الحاكم : عن سعيد بن المسيب قال : قال عبد الله بن جحش رضي الله عنه : « اللهمَّ إني أقسم عليك أن ألقى العدوَّ غدًا فيقتلوني ، ثم يبقروا بطني ، ويجدعوا أنفي وأذني، ثم تسألني: بِمَ ذاك؟ فأقول: فيك». قال سعيد بن المسيب: إني لَأرجو أن يبرَّ الله آخرَ قسَمِه كما برَّ أوَّلَه[٢] .

وانظرْ إلى عظمِ دُعاءِ الفاروقِ رضي الله عنه :

أخرج البخاري عن أسلم ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اللهمَّ ارزقني شهادةً في سبيلك ، واجعلْ موتي في بلدِ رسولك ﷺ .

وأخرجه الإسماعيلي « عن حفصة رضي الله عنها : قالت : سمعتُ عمر رضي الله عنه يقول : اللهمَّ قتْلًا في سبيلك ، ووفاةً ببلدِ نبيِّك ﷺ . قالت : فقلتُ : وأنّى يكون هذا ؟ قال : يأتي به الله إذا شاء »[٣] .

فانظرْ رحمك الله إلى عُلُوِّ هِمَّة الفاروق في دعائه ، وحسْن ظنِّه بربِّه .

مِن دَعاءِ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

كان رضي الله عنه إذا أصبح قال : « اللهمَّ اجعلني من أعظم عبادك نصيبًا في كلِّ خير تقسِمه الغداة ، ونورًا يهدي ، ورحمةً تنشرها ، ورزقًا تبسُطه،وضرًّا تكشفه ، وبلاء تَرفعه ، وفتنة ....

(١) أخرجه الطبراني ، وقال الهيثمي (٣٠٣/٩) : رجاله رجال الصحيح . وكذا أخرجه البغوي كما في الإصابة (٢٨٧/٢) ، وابن وهب ، والبيهقي ، وأبو نعيم ، واقتصر على دعاء عبد الله .

(٢) قال الحاكم : حديث صحيح على شرط الشيخين ، لولا إرسالٌ فيه . قال الذهبي : مرسل صحيح .

(٣) فتح الباري ٧١/٤ .

تصرفها »[(١)]

ومن دعائه على الصفا :

« اللهمَّ اعصمني بدينك ، وطاعتك وطاعة رسولك . اللهمَّ جنِّبني حدودك . اللهمَّ اجعلني ممن يحبُّك ، ويحب ملائكتك ، ويحبُّ رسلك ، ويحبُّ عبادك الصالحين . اللهمَّ يسّرني لليُسرىٰ ، وجنّبني العُسرىٰ ، واغفر لي في الآخرة والأولى ، واجعلني من أئمة المتقين . اللهمَّ إنك قلت : ﴿ **ادعوني استجبْ لكم** ﴾ ، وإنك لا تخلف الميعاد ، اللهمَّ إذ هديتني للإسلام ، فلا تنزعْني منه ، ولا تنزعه مني ، حتى تقبضني وأنا عليه »[(٢)] .

ومن دعاءِ ابنِ مسعود رضي الله عنه :

عن عبد الله : أن رسول الله ﷺ مرَّ بين أبي بكر وعمر ، وعبد الله قائم يصلِّي ، فافتتح سورة النساء يسجِّلها[(٣)] ، فقال ﷺ : « مَن أحبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزِل ، فليقرأ قراءة ابن أمِّ عبد » . فأخذ عبد الله في الدعاء ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « سلْ تُعْطَ » . فكان فيما سأل : « اللهمَّ إني أسألك إيمانًا لا يرتدُّ ، ونعيمًا لا ينفدُ ، ومرافقة نبيِّك محمد ﷺ في أعلىٰ جِنان الخلْد » . فأتى عمرُ عبدَ الله يبشِّره ، فوجد أبا بكر خارجًا قد سبقه ، فقال : إنك لَسبَّاق بالخير .

وعن القاسم بن عبد الرحمٰن : أن ابنَ مسعود كان يقول في دعائه : خائف مستجير ، تائب مستغفر ، راغب راهب .

« وعن أبي الأحوص قال : سمعتُ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يدعو بهذا الدعاء : « اللهمَّ إني أسألك بنعمتك السابغة التي أنعمتَ بها ، وبلائك الذي ابتليتني ، وبفضلِك الذي أفضلتَ عليَّ ؛ أن تدخلني الجنة . اللهمَّ أدخلني الجنة

---

(١) أخرجه الطبراني ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٨٤ : رجاله رجال الصحيح . وذكره أبو نعيم في الحلية ١/٣٠٤ .

(٢) الحلية (١/٣٠٨) .

(٣) أي : يقرؤها قراءة مفصَّلة .

بفضلِك ومنِّك ورحمتك »[١] .

ومِن دعاءِ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما :

عن سعيد بن جبير قال : كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : « اللهمَّ إني أسألك بنور وجهك الذي أشرقتْ له السموات والأرض ؛ أن تجعلني في حِرْزِك وحِفْظك ، وجوارك وتحت كَنَفِك »[٢] .

وعامر بن عبد قيْس : يسأل ربَّه أن ينزع شهوةَ النساءِ من قلبه :

قال قتادة : كان عامر بن عبد قيْس يسأل ربَّه أن ينزع شهوة النساء من قلبه ، فكان لا يُبالي:أذكرًا لقيَ أمْ أنثي[٣] .

والربيع بن خُثيم يدعو بدعاءٍ يُدمي القلوبَ :

قال الفُضيل بن عِياض : كان الربيع بن خُثيم يقول في دعائه : « أشكو إليك حاجة لا يَحسُن بثُّها إلَّا إليك ، وأستغفر منها وأتوب إليك »[٤] .

وابن المسيِّب يسأل ربَّه السلامة :

عن عبد الرحمن بن حرْملة : كان سعيد يُكثر أن يقول في مجلسه : اللهمَّ سلِّمْ سلِّمْ .

ومِن دعاء المذنبين :

قال الشعبي : خطَب عبد الملك ، فقال : اللهمَّ إنَّ ذنوبي عِظام ، وهي

(١) رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في المجمع (١٠/١٨٥) .
(٢) رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٨٤) .
(٣) ترجمته في السير ٤/١٥ – ١٩ .
(٤) الحلية ٢/١٠٩ .

صِغار في جنبْ عفوك يا كريم ، فاغفرْها لي .

ومن دعاء سعيد بن جُبَيْر :

عن سعيد بن جبير قال : التوكُّل على الله جِماع الإيمان . وكان يدعو : اللهمَّ إني أسألك صِدْق التوكُّل ، وحسنَ الظنِّ بك .

ومُطَرِّف بن عبد الله : يسأل ربَّه الرِّضا :

كان رحمه الله يقول : اللهمَّ ارضَ عنَّا ، فإن لم ترضَ عنَّا فاعفُ عنا ؛ فإن المولى قد يعفو عن عبده وهو عنه غير راضٍ .

وكان رحمه الله يقول : « اللهمَّ إني أعوذ بك من شرِّ السلطان ، ومن شرِّ ما تجري به أقلامهم ، وأعوذ بك أن أقول بحقٍّ أطلب به غيرَ طاعتك ، وأعوذ بك أن أتزيَّن للناس بشيءٍ يَشينُني عندك ، وأعوذ بك أن أستعين بشيء من معاصيك على ضُرٍّ نزل بي ، وأعوذ بك أن تجعلني عِبْرة لأحد من خلقك ، وأعوذ بك أن تجعل أحدًا أسعدَ بما علمته مني ، اللهمَّ لا تخزني فإنك بي عالم ، اللهمَّ لا تعذِّبني فإنك عليَّ قادر »(١) .

ومحمد بن واسع يدعو ربَّه :

عن حمَّاد بن زيد قال : « كنا نجلس إلى محمد بن واسع ، فكان يقول : اللهمَّ إنَّا نعوذ بك من كلِّ رزْقٍ يُباعدنا منك ، طهِّرْنا من كلِّ خبيث ، ولا تسلِّط علينا الظَّلَمَة »(٢).

وبكر بن عبد الله المزني لا يَدَعُ هذا الدعاءَ :

عن المبارَك بن فُضالة قال : سمعتُ بكر بن عبد الله المزني يدعو بهذا الدعاء -

---

(١) الحلية ٢/٢٠٧ .

(٢) الحلية ٢/٣٥٣ .

لا يَدَعُه - : اللهمَّ افتحْ لنا من خزائن رحمتك رحمة لا تعذِّبنا بعدها أبدًا في الدنيا والآخرة ، ومن فضلك الواسع رزقًا حلالًا طيِّبًا لا تُفقرنا بعدَه إلى أحدٍ سِواك أبدًا ، تزيدنا لك بهما شكرًا وإليك فاقةً وفقرًا ، وبك عمَّن سواك غنًى وتعفُّفًا[1] .

والجرَّاح مقدّمُ الجيوش ، وفارسُ الكتائب : يدعو الله له ولإخوانه بالشهادة ، فنالوها جميعًا :

لله درُّكَ أبا عقبة الجرَّاح الحكمي !!

« قال سليم بن عامر : دخلتُ على الجرَّاح ، فرفع يديه ، فرفع الأُمراء أيديهم ، فمكث طويلًا ، ثم قال لي : يا أبا يحيىٰ ، هل تدري ما كنَّا فيه ؟ قلتُ : لا ، وجدتُكم في رغبة ، فرفعتُ يدي معكم . قال : سألنا الله الشهادة . فوالله ما بقي منهم أحدٌ في تلك الغزاة حتى استُشهد »[2] .

أبو معاوية الأسود : والعجَبُ العُجَاب في قصَّته ودعائه :

هذا الوليُّ الذي قال عنه الذهبي في السير (٩/٧٨) : « مِن كبار أولياء الله . صحِبَ سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم ، وغيرهما ، وكان يُعَدُّ من الأبدال .

قيل : إنه ذهب بصرُه ، فكان إذا أراد التلاوة في المصحف أبصر بإذن الله .

قال أحمد بن فضيل العكي : غزا أبو معاوية الأسود ، فحضر المسلمون حصنًا فيه عِلْجٌ لا يرمي بحجَرٍ ولا نشَّاب إلا أصاب ، فشكوا إلى أبي معاوية ، فقرأ: ﴿ **وما رميتَ إذْ رميْتَ ولكنَّ الله رمىٰ** ﴾ [الأنفال : ١٧]،استُروني منه . فلمَّا وقف قال : أين تريدون بإذن الله ؟ قالوا : المذاكير . فقال : أي ربِّ ،

---

(١) الحلية ٢/٢٢٥ .

(٢) السير ٥/١٨٩ - ١٩٠ .

قد سمعتَ ما سألوني فأعطِني ذلك . بسم الله . ثم رمى المذاكير فوقع » .

لله درُّك من وليٍّ ... ترمي وأنت ضرير،فتصيب من عدوِّك المذاكير .

أبو بكر بن عيَّاش ودعاؤه الجميل :

عن بِشْر بن الحارث : سمع أبا بكر بن عيّاش يقول : « يا مَلَكيَّ ادْعُوَا الله لي ، فإنكما أطوعُ لله مني » ..

ولجمالها لا تحتاج إلى تعليق !!

زين العابدين علي بنُ الحسين رضي الله عنهما ، ودعاءٌ من بيت النبوَّة :

كان زيْن العابدين يقول : « اللهمَّ إني أعوذ بك أن تُحسِّن في لوائح العيون علانيتي وتقبِّح في خفيَّات العيون سريرتي . اللهمَّ كما أسأتُ وأحسنتَ إليّ ، فإذا عُدتُ فعُدْ عليَّ » .

قال زيد بن أسلم : كان من دعاء عليّ بن الحسين : « اللهمَّ لا تكِلْني إلى نفسي فأعجز عنها ، ولا تكلْني إلى المخلوقين فيضيِّعوني » .

الوليُّ النَّباجِيُّ مجابُ الدعوة ، القدوة العابد الربَّاني ؛ أبو عبد الله سعيد بن بريد :

« له كلام شريف ومواعظ .

عنه قال : لو جُعلَتْ لي دعوة مجابَة ما سألتُ الفردوس ، ولَكنتُ أسأل الرضا ، فهو تعجيل الفردوس .

قال ابن بكر : سمعتُ النباجي يقول : ينبغي أن نكون بدعاء إخواننا أوثق منَّا بأعمالنا ، نخاف في أعمالنا التقصير ، ونرجو أن نكون في دعائهم لنا مُخلصين »[1].

---

(١) السير ٩/٥٨٦ .

طلقُ بنُ حبيب ودعاؤهُ العجيب :

كان رحمه الله يقول في دعائه : « اللهمَّ إني أسألك علْمَ الخائفين منك ، وخوْفَ العالمين بك ، ويقينَ المتوكِّلين عليك ، وتوكُّل الموقنين بك ، وإنابة المُخْبتين إليك ، وإخبات المُنيبين إليك ، وشكْرَ الصابرين لك ، وصبرَ الشاكرين لك ، ولحاقًا بالأحياء المرزوقين عندك »[1] .

أيُّوب السّختياني : يدعو الله مرافقةَ نبيِّه ﷺ :

كان رحمه الله يدعو بدعاء القرآن ، ويؤمِّن مَن خلفَه ، وآخر ذلك يصلِّي على النبي ﷺ ويقول : اللهمَّ استعملْنا بسنَّةِ نبيِّنا ، وتوفَّنا على مِلَّته ، وأوزعْنا بهدْيه ، وارزقنا مرافقته ، وعَرِّفْنا وجهه في رضوانك والجنة . اللهمَّ خذْ بنا سبيله وسنته ، نعوذ بك أن نُخالف سبيلَه وسُنَّته . اللهمَّ أقرَّ عينه بمن يتبعه مِن أُمَّته ، واجعلنا منهم ، وأورِدْنا حوْضه ، واسقنا مشربًا رويًّا لا نظمأ بعده أبدًا . اللهمَّ ألحقْنا بنبيِّنا غير خَزايا ولا نادمين ، ولا خارجين ولا فاسقين ، ولا مبدِّلين ولا مرتابين ، واجعلنا من الذين أنعمتَ عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء ، وحسُن أولئك رفيقًا .

وكان من دعائه في تطوُّع رمضان : « اللهمَّ أسألك الإيمان وحقائقه ووثائقه ، وكريم ما امتننتَ به من الأخلاق والأعمال ، التي نالوا بها منك حسْنَ الثواب ، اللهمَّ اجعلني ممن يتقيك ويخافك ، ويستحييك ويرجوك ، اللهمَّ استرْنا بالعافية » .

عطاء السليميّ :

كان رحمه الله يقول في دعائه : « اللهمَّ ارحمْ غربتي في الدنيا ، وارحم

---

(١) السير ٤/٦٠٢ .

مصرعي عند الموت ، وارحم قيامي بين يديك »[(١)] .

موسى الكاظِمُ رحمه الله ؛ الإمام القدوة السيد :

« دخل - رحمه الله - مسجد رسول الله ﷺ ، فسجد سجدة في أول الليل ، فسُمِع وهو يقول في سجوده : عظُمَ الذنب عندي فلْيَحْسُن العفو من عندك ، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة.فجعل يردِّدها حتى أصبح »[(٢)] .

عُتْبةُ الغلامُ : يدعو ربَّه أنْ يحشرَه مِن حواصل الطُّيور ، واستجاب الله دعاءَه :

قال رياح القيسي : بات عندي عتبة الغلام ، فسمعته يقول في سجوده : « اللهمَّ احشرْ عتبة من حواصل الطيرْ وبطونِ السِّبَاع » .

لله درُّه من غلامٍ رَهَّاب ؛ « إذا جنَّ الليلُ لبِسَ المَسُوحَ ، وغلَّ نفسَه ، وناجىٰ مولاه قائلًا : احشرني من حواصل الطيور . فاستجاب الله دعاءَه ، ولقيَ ربَّه شهيدًا ، وأكلتِ الطيورُ لحمَه »[(٣)] .

وعوْن بن عبد الله بن عتبة : عالي الهِمَّة في الدعاء :

كان يقول في دعائه : « اجعلْ طاعتك همِّي ، وقوِّ عليها جسدي . وسَخِّ نفسي عن الدنيا واشغلني بما ينفعني ، وباركْ لي في قواها حتى ينقضي مني حالي . وامنُنْ عليَّ وارحمني ، حين تُعيد بعدَ اللّقا خلْقي . ومن سوء الحساب فعافني ، يوم تبعثني فتحاسبني . ولا تُعرضْ عني ، يومَ تعرضني بما سلف من ظلْمي وجرْمي . وآمني يومَ الفزَع الأكبر ، يوم لا تهمُّني إلا نفسي . وارزقني نفْعَ عمل ، يومَ لا ينفعني عملُ غيري . وكما مننتَ عليَّ بالإسلام فامنن عليّ بطاعتك ، وبترْك معاصيك أبدًا ما أبقيتَني. ولا تفضحني بسرائري ، ولا تخذلْني بكثرة فضائحي .

---

(١) السير ٦/٨٦ .
(٢) السير ٦/٢٧٠ .
(٣) صفة الصفوة ٤/٢٠٠ .

سبحانك خالقي ، أنا تائب إليك فاقبل توبتي واستجبْ دعائي ، وارحمْ شبابي ، وأقلني عَثْرتي ، وارحمْ طولَ عَبْرتي ، ولا تفضحني بالذي قد كان مني . سبحانك خالقي ، أنت غِياث المُستغيثين ، وقرَّة أعين العابدين ، وحبيب قلوب الزاهدين ، فإليك مستغاثي ومنقطعي ، فارحمْ شبابي ، واقبلْ توبتي ، واستجبْ دعوتي ، ولا تخذلْني بالمعاصي التي كانت مني . ولا تجعلني لنار جَهنَّمَ وقودًا ، بعد توحيدي وإيماني بك » .

ورادُ العجليّ ودعاؤه في السَّحَر :

كان رحمه الله يبكي في مجلس وعْظ ابن ذرٍّ ، فيقول له ابن ذرٍّ : ما الذي قصّر بنا ؟ وكَلَمَ قلبَه حتى أبكاه ، والله إنْ هذا يا أخا بني عجلٍ إلَّا من صفاء قلبك وتراكم الذنوب على قلوبنا .

« قالت أختُه : كان إذا كان السَّحَر – أو قريب من طلوع الفجر – سجد ثم بكى ، ثم قال : (مولاي ، عبدك يحبُّ اجتناب سُخْطك ، فأعنه على ذلك بمنّك أيُّها المنَّان . مولايَ ، عبدك عظيم الرجاء لخيرك ، فلا تقطعْ رجاءه يوم يفرح الفائزون).فلا يزال كذلك حتى يصبح »(١) .

شعوانةُ وعُلُوُّ هِمَّتها في الدعاء :

« كانت – رحمها الله – تقول : إلهي ، ما أشوقني إلى لقائك ، وأعظم جزائي لجزائك ، وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ، ولا يبطل عندك شوْق المشتاقين . إلهي ، إن كان دنا أجلي و لم يُقَرِّبني منك عملي ، وقد جعلتُ الاعتراف بالذنب وسائل عللي ، فإن عفوتَ فمَن أولى منك بذلك ؟! وإن عدلت فمَن أعدلُ منك هُنالك ؟! إلهي ، قد جرتُ على نفسي بالنظر لها ، وبقي لها حسن نظرك ، فالويل

---

(١) صفة الصفوة ١٦٢/٣ .

لها إن لم تُسْعِدها . إلهي ، إنك لم تزلْ بي بَرًّا أيَّام حياتي ، فلا تقطع عني بِرَّك بعد مماتي ، ولقد رجوتُ ممَّن تولَّاني في حياتي بإحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه . إلهي ، كيف أيأس من حسْن نظرك بعد مماتي ، ولم تولِّني إلا الجميل في حياتي . إلهي ، إن كانت ذنوبي قد أخافتني ؛ فإنَّ محبَّتي لك قد أجارتني ، فتولَّ من أمري ما أنت أهلُه ، وعُدْ بفضلك على من غرَّه جهلُه . إلهي ، لو أردتَ إهانتي لَمَا هديتَني ، ولو أردتَ فضيحتي لم تسترْني ، فمتعْني بما له هديتَني ، وأدمْ لي ما بِهِ سترتَني »[1] .

الواعظُ البرُّ عمرُ بنُ ذرٍّ :

قال كثير بن محمد : « سمعتُ عمر بن ذرٍّ يقول : اللهمَّ إنا أطعناك في أحبِّ الأشياء إليك أن تطاع فيه : الإيمان بك والإقرار بك ، ولم نعصِكَ في أبغض الأشياء أن تُعصى فيه : الكفر والجحْد بك . اللهمَّ فاغفرْ لنَا بينهما ، وأنت قلتَ : ﴿ وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانِهم لا يَبعث الله مَن يموت ﴾ [النحل : ٣٨] ، ونحن نُقسِمُ بالله جَهْدَ أيْماننا لَتَبْعَثَنَّ مَن يموت ، أفتراك تجمع بين أهل القَسَمَيْن في دار واحدة »[2] .

عبدُ الله بنُ المبَارَك : يدعو الله للحَسَنِ بن عيسىٰ أن يُسْلِمَ ، فاستجاب الله له :

قال الحاكم : « حدَّثنا الحافظ أبو علي النيسابوري عن شيوخه : أن ابن المبارك نزل مرة برأس سكة عيسىٰ ، وكان الحسن بن عيسىٰ يركب فيجتاز به وهو في المجلس ، وكان مِن أحسن الشباب وجهًا ، فسأل ابنُ المبارك عنه ، فقيل : هو نصراني . فقال : اللهمَّ ارزقْه الإسلام . فاستُجيب له .

قال أبو العباس السرَّاج : حدَّثنا الحسن بن عيسىٰ موْلى عبد الله بن المبارك ،

---

(١) عودة الحجاب للشيخ محمد إسماعيل ٢/٣٠١ .
(٢) السير ٦/١٨٥ .

وكان عاقلًا : عُدَّ في مجلسه بـ « باب الطاق » اثنا عشر ألف محبرة »[١] .

هذه دعوة ابن المبارك المباركة .. يُسْلِم على أثرها الإمام المحدِّث ، الثقة الجليل : أبو علي الحسَن بن عيسىٰ بن ماسَرْجس .

يحيىٰ بنُ معاذ الواعِظ :

كان رحمه الله يقول في مناجاته في الليل : « اللهمَّ إن خطيئتي تُعذِّبني ، وتوبتي تُذوِّبني ، فعيشتي طولَ دهري بين تعذيبٍ وتذويب » .

وكان يقول : « واسَوْأتاه منك ، إذا شاهدتَني وهمَّتي تسبق إلى سواك ، أم كيف لا أضنى في طلب رضاك »[٢] .

وكان يقول : « يا منْ أقام لي غرْس ذكري ، وأجرىٰ لي أنهارًا تجري ، وجعل لي أيام عيدٍ في اجتماع الورىٰ ، وأقام لي فيهم أسواق التقوى ؛ أقبلتُ إليك معتمدًا عليك ، ممتلئَ القلب من رجائك ، ورطْبَ اللسان من دعائك ، في قلبي من الذنوب زَفَرات ، ومعي عليها ندامات ، إن أعطيتَني قبلتُ ، وإن منعتَني رضيتُ ، وإن تركتَني دعوتُ ، وإن دعوتَني أجبتُ ، فأعطني إلهي ما أريد ، فإن لم تُعطني ما أريد ، فصبِّرني على ما تريد »[٣] .

وقال رحمه الله : « طوبىٰ لعبد أصبحتِ العبادة حِرْفته ، والفقر مُنْيَته ، والعزْلة شهوتَه ، والآخرة هِمَّته ، وطلبُ العيش بُلْغَته ، وجعَلَ الموتَ فِكْرتَه ، وشغل بالزهد نيَّته ، وأمات بالذلِّ عزَّتَه ، وجعل إلى الربِّ حاجته ، يذكر في الخلَوات خطيئته ، وأرسل على الوَجْنة عَبرته ، وشكا إلى الله غُرْبته ، وسأله بالتوبة رحمته ، طوبىٰ لمن كان ذلك صفتَه ، وعلى الذنوب ندامته ، جَئَّار الليل والنهار ،

---

(١) السير ١٢/٢٧ .
(٢) الحلية ١٠/٥٦ .
(٣) الحلية ١٠/٦٦ .

وبكّاء إلى الله بالأسحار ، يناجي الرحمن ، ويطلب الجِنان ، ويخاف النيران »[(١)] .

الواعظُ الزاهدُ : عَزيزي بنُ عبدِ الملكِ بن منصور ؛ أبو المعالي ، الملقَّبُ بـ : « شَيْذَلَه »[(٢)] :

قالت شُهدة بنت أحمد بن الفرج : سمعتُ القاضي الإمام عزيزي بن عبد الملك من لِفظه - في سنة تسعين وأربعمائة - يقول : « اللهمَّ يا واسعَ المغفرة ، ويا باسطَ اليديْن بالرحمة ، افعلْ بي ما أنت أهلُه . إلهي ، أذنبتُ في بعض الأوقات ، وآمنتُ بك في كلِّ الأوقات ، فكيف يغلب بعضُ عمري مُذنبًا جميعَ عمري مؤمنًا ؟! إلهي ، لو سألتني حسناتي لَجعلتُها لك مع شِدَّة حاجتي إليها ، وأنا عبد ، فكيف لا أُرجو أن تهَبَ لي سيئاتي مع غِناك عنها ، وأنت ربٌّ ؟! فيا مَن أعطانا خير ما في خزائنه ، وهو الإيمان به قبل السؤال ، لا تمنعْنا أوسعَ ما في خزائنك ، وهو العفو مع السؤال . إلٰهي ، حُجَّتي حاجتي ، وعُدّتي فاقتَي ، فارحمني . إلٰهي ، كيف أمتنع بالذنب من الدعاء ، ولا أراك تمتنعُ مع الذنب من العطاء ؟! فإنْ غفرتَ فخيرُ راحم أنت ، وإن عذَّبتَ فغيرُ ظالمٍ أنت . إلٰهي ، أسألك تذلُّلا ، فأعطني تفضُّلًا »[(٣)] .

الإمامُ الزاهدُ ، مجابُ الدعْوَةِ : العمادُ المقدِسيُّ :

قال عنه الضياء المقدسي : « كان إذا دعا كأنَّ القلب يشهدُ بإجابة دعائه ؛ من كثرةِ ابتهاله وإخلاصه » .

ومن دعائه المشهور : « اللهمَّ اغفرْ لأَقْسَانا قلبًا ، وأكبرِنا ذنبًا ، وأثقلنا ظَهْرًا ، وأعظمنا جرْمًا » .

---

(١) الحلية ١٠/٥٨ .

(٢) ترجمته في السير ١٩/١٧٤ - ١٧٥ .

(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٥/٢٣٧ .

وكان يدعو : « يا دليل الحيارىٰ ، دُلَّنا على طريق الصادقين ، واجعلْنا من عبادك الصالحين »(١) .

الزاهد القدوة : الشيخ عبد العزيز بن أحمد الدّميريّ الدِّيرينّي :

كان من دعائه ومناجاته رحمه الله : « إلٰهي ، عرَّفتنا بربوبيتك ، وغرَّقتنا في بحار نعمتك ، ودعوتَنا إلى دار قُدْسك ، ونعَّمتَنا بذكْرِكَ وأُنسِك . إلٰهي ، إن ظلمة ظُلْمِنا لأنفسنا قد عمَّتْ ، وبحارَ الغفلة على قلوبنا قد طمَّتْ ، فالعجز شامل ، والحصر حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم . إلهي ، ما عصيناك جهْلًا بعقابك ، ولا تعرُّضًا لعذابك ، ولكن سوَّلتْ لنا نفوسُنا ، وأعانتْنا شقْوَتُنا ، وغرَّنا سترُك علينا ، وأطمعنا في عفوك برُّك بنا ، فالآن مِن عذابك مَن يستنقذُنا ؟! وبحبل مَن نعتصمُ إن قطعتَ حَبْلَك عنَّا ؟! واخجلتَنا من الوقوف غدًا بين يديْك !! وافضيحتنا إذا عُرضتْ أعمالنا القبيحة عليك !! اللهمَّ اغفر ما علمتَ ، ولا تهتكْ ما سترتَ . إلهي ، إن كنَّا عصيناك بجهْل ، فقد دعوناك بعقل ؛ حيث علمنا أنَّ لنا ربًّا يغفر الذنوب ولا يُبالي »(٢) .

شيْخُ الدِّيَار المصرية الزاهدُ ؛ أبو الفيْضِ ذو النُّونِ المصريُّ : أُنموذَجٌ عَطِرٌ لعُلُوِّ الهِمَّةِ في الدُّعَاء والمُنَاجَاة :

كان رحمه الله يقول في دعائه ومناجاته : « إلٰهي ، وسيلتي إليك : نعمُكَ عليَّ، وشفيعي إليك : إحسانُك إليَّ . اللهمَّ إليك تُقصد رغبتي ، وإيَّاك أسأل حاجتي ، ومنك أرجو نجاح طلْبتي ، وبيدك مفاتيحُ مسألتي ؛ لا أسأل الخيرَ إلَّا منك ، ولا أرجوه من غيرك ، ولا أيأس من رَوْحِك بعد معرفتي بفضلك . يا مَن جمَع كلَّ شيءٍ حِكْمته ، ويا مَن نفذ في كلِّ شيءٍ حُكْمُه ، يا مَن الكريمُ

(١) ترجمته في السير ٢٢/٤٧ - ٥٢ .
(٢) طبقات الشافعية ٨/٢٠٠ .

اسمُه ؛ لا أحدَ لي غيرك فأسأله ، ولا أثق بسواك فآمله ، ولا أجعل لغيرك مشيئة من دونك أعتصم بها ، وأتوكَّل عليه ، فمَن أسأل إنْ جهلتُك ؟! وبمَن أثِقُ بعد إذْ عرفتُك ؟! اللهمَّ إنَّ ثقتي بك ، وإنْ ألهتْني الغفلاتُ عنك وأبعدتْني العَثَرات منك بالاغترار . أنا نعمة منك أجري في نِعَمِك ، لا أزداد على سابقةِ عِلْمك ، ولا أنتقصُ من عزيمة أمْرك ، فأسألك يا منتهى السؤالات ، وأرغبُ إليك يا موضع الحاجات ، سؤال مَن قد كذَب كلّ رجاء إلَّا منك ، ورغبة مَن رغِب عن كلِّ ثقة إلَّا عنك – أن تهبَ لي إيمانًا أقدمُ به عليك ، وأوصلُ به عِظَم الوسيلة إليك ، وأن تهب لي يقينًا لا توُهِنُه بشبهةِ إفْكٍ ، ولا تهنه خَطْرة شكٍّ ، تُرحب به صدري ، وتُيسِّر به أمري ، ويأوي إلى محبَّتك قلبي ، حتى لا ألهو عن شكْرك ، ولا أنعم إلا بذكْرك . يا من لا تملُّ حلاوةَ ذكْرِه ألسنُ الخائفين ، ولا تكِلُّ من الرغَبَات إليه مدامِعُ الخاشعين ، أنت منتهىٰ سرائر قلبي في خفايا الكَتم ، وأنت موضع رجائي بين إسراف الظلْم ، مَن ذا الذي ذاق حلاوة مناجاتك فلَها بمرضاةِ بَشَرٍ عن طاعتك ومرضاتك؟! يا من يُعصىٰ ويُتاب إليه ، فيرضى كأنه لم يُعصَ ، بكرمٍ لا يُوصَف ، وتحنُّنٍ لا يُنعَت . يا حنَّانُ بشفقته ، يا متجاوزًا بعظمته ، لم يكن لي حوْل فأنتقل عن معصيتك إلا في وقتٍ أيقظتني فيه لمحبَّتك . خضعتُ لك وخشعتُ لك – إلهي – لِتُعِزّني بإدخالي في طاعتك ، ولِتنظرَ إليَّ نظرَ مَن ناديتَه فأجابك ، واستعملتَه بمعونتك فأطاعك . يا قريبُ ، لا تبعدْ عن المغترِّين . يا وَدود ، لا تعجلْ علىٰ المذنبين » .

« وقال محمد بن يوسف : كان ذو النون يقول في مناجاته : يا واهبَ المواهب ومجزِلَ الرغائب ، أعوذ بك من النزول بعد الوصول ، ومن الكَدَر بعد الصَّفا ، ومن الشوْق بعد الأُنس ، ومن طائف الحسرة لعارض الفترة ، ومِن تغيُّر الرضا ، ومن التخلُّف عن الحادي لحظةً ، أو الإيمان دون العلم ، ومن موقعِ حَذَر يُوجب للعقل بطئًا – ياربّ – حتى تكملَ النعمُ عندي ، ورقِّ في ذُرىٰ الكرامة مُهجتي ، ونضِّر اللهـمَّ بالكمال لديك بَهجتي ، وعزِّفني عن

الـدون ، ووارِ عِلْمي عن الخاطر . يا مَن منَح الأصفياءَ منـازلَ الحقِّ ومـدى الغايات ، أصْفِ هدايتي من دَنَس العارض واحسمْ عدوِّي عن ملاحظتي ، وأخلصني بكمال رغبتي وبما لا يبلغه سؤالي ؛ إنك رحيم ودود »[(١)] .

« وعن سعيد بن عثمان قال : سمعتُ ذا النون يدعو : اللهمَّ متِّعْ أبصارنا بالجوَلَان في جلالك ، وَسهِّرْنَا عَمّا نامت عنه عيونُ الغافلين ، واجعلْ قلوبنا معقودة بسلاسل النور ، وعلِّقْها بأطناب التفكُّر ، ونزِّه أبصارنا عن سرِّ مواقف المتحيِّرين ، وأطلقْنا من الأسر لِنجولَ في خدمتك مع الجوَّالين . اللهمَّ اجعلنا من الذين استعملوا ذكر قطْع اللذَّات ، وخالَفوا متاع الغرَّة بواضحات المعـرفـة . اللهمَّ اجعلْنا من الذين لخدمتك في أقطار الأرض لهم طُلَّابا ، ولخصائص أصفيائك أصحابًا ، وللمريدين المعتكفين ببابك أحبابًا . اللهمَّ اجعلْنا من الذين غسَلوا أوعية الجهل بصفو ماءِ الحياة في مسالك النعيم ، حتى جالتْ في مجالسِ الذكْر مع رطوبة ألسنةِ الذاكرين . اللهم اجعلْنا من الذين رتعوا في زهرة ربيع الفهْم حتى تسامت أسنية الفكرة فوق سموِّ السموِّ ، حتى تسامىٰ بهم نحو مسامِّ العلويين براحات القلوب ، ومستنبطات عيوب الغيوب بطول استعفار الوجوه في محاريب قدْسِ رهبانية الخاشعين ، حتى لاذت أبصار القلوب بجواهر السماء ، وعبرت أفنية النوَّاحين من مَصافِّ الكروبيِّين ومجالسة الروْحانيِّين ، فتوهَّموا أنْ قدْ قرب احتراقٌ بالقلوب عند إرسال الفكرة في مواقع الأحزان بين يديك ، فأحرقتْ نارُ الخشية بصائرَ مناقبِ الشهوات من قلوبهم ، وسكنتْ خوافي ضلوعِ مضايقِ الغَفَلات من صدورهم ، فأنبتَ ذكْرُ الصلوات رُقادَ قلوبهم »[(٢)] .

« وقال سعيد بن عثمان : سمعتُ ذا النون يقول : إلٰهي ، إن كان صغر في جنْب طاعتك عملي ، فقد كبُر في جنب رجائك أملي . إلهي ، كيف.أنقلبُ مِن

(١) الحلية ١٠/٣ .
(٢) الحلية ٩/ ٣٥٨ - ٣٥٩ .

عندك محرومًا وقد كان حسْن ظنِّي بك منوطًا ؟! إلٰهي ، فلا تُبطلْ صِدْقَ رجائي لك بين الآدميِّين . إلٰهي ، سمِع العابدون بذكْرك فخضعوا ، وسمِع المذنبون بحسْن عفوك فطمعوا . إلٰهي ، إن كانت أسقطَتْني الخطايا من مكارم لُطْفك ، فقد آنسني اليقين إلى مكارم عطْفك . إلهي ، إن أَمَّنتْني الغفْلة من الاستعداد للقائك ، فقد نبَّهتْني المعرفة لكرمِ آلائك . إلهي ، إن دعاني إلى النار أليمُ عقابك ، فقد دعاني إلى الجنة جزيلُ ثوابك »[1] .

وقال ذو النون رحمه الله : « اللهم اجعلْنا من الذين استظلُّوا تحت رواق الحزن ، وقرءوا صحف الخطايا،ونشروا دواوين الذنوب ، فأورثهم الفِكَرَ الصالحةَ في القلب . اللهمَّ واجعلْنا من الذين أدَّبوا أنفسَهم بلذَّة الجوع ، وتزيَّنوا بالعلم ، وسكنوا حظيرة الورَع ، وغلَّقوا أبواب الشهوات ، وعرفوا مسيرَ الدنيا بموقناتِ المعرفة ، حتى نالوا عُلُوَّ الزهد فاستعذبوا مذلَّة النفوس ، فظفروا بدار الجلال ، وتواسوا بينهم بالسلام . واجعلْنا من الذين فتقَتَ لهم رتْقَ غواشي جفونِ القلوب ، حتى نظروا إلى تدبير حكمتك وشواهد حُجَجِ تبيانك ، فعرفوك بموصولِ فِطَن القلوب ، فرقيتْ أرواحُهم عن أطراف أجنحة الملائكة ، فسمَّاهم أهلُ الملكوت : زُوَّارًا ، وأهلُ الجبروت : عمَّارًا . وتردَّوا في مصافِّ المسبِّحين ، ولاذوا بأفنية المقدسين ، فتعلَّقوا بحجاب العزَّة ، وناجَوْا ربَّهم عند مُطارفة كلِّ شهوة ، حتى نظروا بأبصار القلوب إلى عِزِّ الجلال ، إلى عظيم الملكوت ، فرجعتِ القلوب إلى الصدور على الثياب بمعرفةِ توحيدك ؛ فلا إله إلا أنت »[2] .

« وقال أبو عثمان سعيد بن عثمان : سمعتُ ذا النون أبا الفيض يقول : اللهمَّ اجعلْنا من الذين تفكَّروا فاعتبروا ، ونظروا فأبصروا ، وسمعوا فتعلَّقتْ قلوبهم بالمنازَعة إلى طلب الآخرة ، حتى أناخت وانكسرت عن النظر إلى الدنيا وما فيها ،

(١) الحلية ٩/٣٨٥ .
(٢) الحلية ٩/٣٨٣ .

ففتقوا بنور الحكم ما رتقهُ ظلْم الغفلات ، وفتحوا أبواب مغاليق العمىٰ بأنوار مفاتيح الضياء ، وعمَّروا مجالس الذاكرين بحسْن مواظبة استيدام الثناء . اللهمَّ اجعلْنا من الذين تراسلت عليهم سُتورُ عِصْمة الأولياء ، وحَصَّنتَ قلوبَهم بطهارة الصفاء ، وزيَّنْتَها بالفهم والحياء ، وطيَّرتَ همومَهم في ملكوت سمواتك حجابًا حتى تنتهيَ إليك ، فرددتَها بظرائف الفوائد . اللهمَّ اجعلْنا من الذين سهُل عليهم طريقُ الطاعة ، وتمكَّنوا في أزمَّة التقوى ، ومُنحوا بالتوفيق منازلَ الأبرار ، فزُيِّنوا وقُرِّبوا وكُرِّموا بخدمتك .

وسمعتُه يقول : لك الحمد يا ذا المنِّ والطَّوْل والآلاءِ والسَّعَة . إليك توجَّهنا ، وبفنائك أنخنا ، ولمعروفك تعرَّضنا ، وبقُرْبك نزلنا . يا حبيبَ التائبين ، ويا سرورَ العابدين ، ويا أنيسَ المنفردين ، ويا حِرْزَ اللاَّجِّين ، ويا ظهْرَ المنقطعين ، ويا مَن حبَّبَ إليه قلوب العارفين ، وبه أُنِستْ أفئدة الصِّدِّيقين ، وعليه عطفَتْ رهبةُ الخائفين . يا من أذاق قلوبَ العابدين لذيذَ الحمْد ، وحلاوة الانقطاع إليه . يا مَن يقبل مَن تاب ويعفو عمَّن أناب ، ويدعو المُولِّين كرَمًا ويرفع المقبلين إليه تفضُّلًا . يا مَن يتأنَّى على الخاطئين ، ويحلُم عن الجاهلين ، ويا من حلَّ عقدة الرغْبة من قلوب أوليائه ، ومحا شهوة الدنيا عن فكْر قلوبِ خاصَّته وأهل محبَّته ، ومنحهم منازلَ القرْب والولاية . ويا من لا يُضيِّع مطيعًا ، ولا ينسىٰ صبيًّا . يا مَن منح بالنوال ، ويا مَن جادَ بالاتِّصال ، يا ذا الذي استدرك بالتوبة ذنوبَنا ، وكشف بالرحمة غُمومَنا ، وصفح عن جُرْمنا بعد جهْلنا ، وأحسن إلينا بعد إساءتنا ، يا آنسَ وحشتنا ويا طبيبَ سقمنا ، يا غِياث مَن أُسقِطَ بيده ، وتمكَّن حبْلُ المعاصي وأسفر خِدْرُ الحيا عن وجهه ، هبْ خدودَنا للتراب بين يديْك ، يا خيرَ مَن قدَر ، وأرأف مَن رحِم وعفا »[1] .

(١) الحلية ٩/٣٣٥ - ٣٣٦ .

« وقال سعيد بن عثمان : سمعتُ ذا النون يقول : أسألك باسمك الذي ابتدعتَ به عجائبَ الخلْق في غوامض العلم ، بجود جلال جمالِ وجهك في عظيم عجيب تركيب أصنافِ جواهر لغاتها ، فخرَّتِ الملائكة سُجَّدًا لهيبتك من مخافتك ؛ أن تجعلَنا من الذين سرحت أرواحُهم في العلى ، وحطَّتْ هِمَمُ قلوبهم في مغلبات الهوى ، حتى أناخوا في رياض النعيم ، وجَنَوْا من ثمار التسليم، وشربوا بكأس الحب، وخاضوا لُجَج السرور ، واستظلُّوا تحت فناء الكرامة . اللهمَّ اجعلْنا من الذين شربوا بكأس الصَّفَا ، فأورثهم الصبر على طول البَلَا ، حتى تولَّيْتَ قلوبهم في الملكوت ، وجالت بين سرائر حُجُب الجبروت ، ومالت أرواحُهم في ظلِّ بردِ نسيمِ المشتاقين ، الذين أناخوا في رياض الراحة ومعدن العزِّ وعَرَصَات المخلَّدين »[1] .

ومناجاةٌ لذي النُّونِ تُكْتَبُ بأحرُفٍ من نورٍ :

« قال عبد القدُّوس الشاشي : سمعتُ ذا النون المصري يقول : إلٰهي ، ما أُصغي إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ، ولا ترنُّم طائر ولا تنعُّم ظلٍّ ولا دوي ريح ولا قعقعة رعد ؛ إلَّا وجدتُها شاهدةً بوحدانيتك ، دالَّةً على أنه ليس كمثلك شيء ، وأنك غالب لا تُغلَب ، وعالم لا تجهل ، وحليم لا تَسْفَه ، وعدلٌ لا تجور ، وصادق لا تكذب . إلهي ، فإني أعترف لك اللهمَّ بما دلَّ عليه صُنعُك ، وشهد لك فعْلُك ، فهبْ لي اللهمَّ تطلُّبَ العزيمة إليك ؛ لأنَّ مَن لم يُشبعه الوُلوعُ باسمك ؛ ولم يروه من ظمَئِهِ وُرودُ غُدرانِ ذكْرك ، ولم يُنسِهِ جميعَ الهموم رضاهُ عنك ، ولم يُلهِهِ عن جميع الملاهي تعداد آلائك ، ولم يقطعه عن الأنس بغيرك مكانه منك - كانت حياته مِيتةً ، وميتَتُه حسرةً ، وسروره غُصَّة ، وأنسه وحشة . إلٰهي ، عرِّفني عيوبَ نفسي ، وافضحْها عندي لأتضرعَ

(١) الحلية ٩/٣٣٦ .

إليك في التوفيق للتنزُّه عنها ، وأبتهل إليك بين يديك خاضعًا ذليلًا في أن تغسلني منها ، واجعلني من عبادك الذين شَهِدَتْ أبدانُهم وغابت قلوبهم ؛ تجول في ملكوتك وتتفكَّر في عجائب صُنْعك ، ترجع بفوائد معرفتك وعوائد إحسانك ، قد ألبستَهم خُلَعَ محبتك ، وخلعتَ عنهم لباس التزيُّن لغيرك . إلٰهي ، لا تتركْ بيني وبين أقصى مرادك حجابًا إلَّا هتكتَه ، ولا حاجزًا إلَّا رفعتَه ، ولا وَعرًا إلا سهَّلته ، ولا بابًا إلَّا فتحتَه ، حتى تقيم قلبي بين ضياء معرفتك ، وتُذيقني طعْمَ محبَّتك ، وتُبرد بالرضا منك فؤادي وجميع أحوالي ، حتى لا أختار غير ما تختاره ، وتجعل لي مقامًا بين مقامات أهل ولايتك ، ومضطربًا فسيحًا في ميدان طاعتك . إلٰهي ، كيف أسترزق مَن لا يرزقني إلَّا من فضلك ؟! أم كيف أسخطك في رضا مَن لا يقدر على ضرِّي إلَّا بتمكينك ؟! فيا من أسأله إيناسًا به وإيحاشًا مِن خلقه ، ويا من إليه التجائي في شدَّتي ورجائي ، ارحمْ غربتي ، وهبْ لي من المعرفة ما أزداد به يقينًا ، ولا تكلْني إلى نفسي الأمارةِ بالسُّوء طَرْفة عيْن »[1] .

لله درُّ الخليفة العباسي القادر بالله ، الذي يعرف مقادير الرجال حين يقول عن ذي النون المصري : « إذا ذُكِرَ الصالحون ، فحيَّهَلا بذي النون » .

« وقال - رحمه الله - : إلٰهي ، لك تسبِّحُ كلُّ شجرة ، ولك تقدِّس كلُّ مَدَرَة ، بأصوات خفية ، ونَغَماتٍ زكيَّة . إلهي ، قد وقفتُ بين يديك قدمي ، ورفعتُ إليك بصري ، وبسطتُ إلى مواهبك يدي ، وصرخ إليك صوتي ، وأنت الذي لا يُضجره النِّدَا ، ولا تُخَيِّبُ مَن دعاك . إلهي ، هبْ لي بصرًا يرفعه إليك صِدْقه ؛ فإنَّ من تعرَّف إليك غيرُ مجهول ، ومَن يلوذ بك غير مخذول ، ومن يبتهج بك مسرور ، ومَن يعتصم بك منصور »[2] .

---

(١) الحلية ٩/٣٤٢ - ٣٤٣ .
(٢) الحلية ٩/٣٤٩ .

« وقال - رحمه الله - : إلٰهي ، إن أهل معرفتك لما أبصروا العافية ، ولمحوا بأبصارهم إلى منتهى العاقبة ، وأيقنوا بجودك وكرمك وابتدائك إيَّاهم بنعمك ، ودللتَهم على ما فيه نفعُهم دونك ، إذ كنتَ متعاليًا عن المضارِّ والمنافع - استقلُّوا كثير ما قدَّموا من طاعتك ، واستصغروا عظيم ما اقترفوا من عبادتك ، واستلانوا ما استوعرَه غيرُهم ، بذلوا المجهود في طلب مرضاتك ، واستعظموا صِغر التقصير في أداء شُكْرك ، وإن كان ليس شيءٌ من التقصير في طاعتك : بذْلُ المجهود صغيرًا كان عندهم ، فنحلتْ لذلك أبدانُهم ، وتغيَّرت ألوانهم ، وخلَتْ من غيرك قلوبهم ، واشتغلتْ بذكرك عقولُهم وألسنتُهم ، وانصرفت عن خلقك إليك همومهم ، وأنِست وطابت بالخلوة فيك نفوسُهم ، لا يمشون بين العباد إلّا هوْنًا ، وهم لا يسعَوْن في طاعتك إلا رَكْضًا . إلٰهي ، فكما أكرمتَهم بشرف هذه المنازل ، وأبحْتَهم رِفْعةَ هذه الفضائل ؛ اعقدْ قلوبنا بحبْل محبَّتك ، ثم حوِّلنْا في ملكوتِ سمٰواتك وأرضك ، واستدرجْنا إلى أقصىٰ مرادك درجةً درجةً ، واسلُكْ بنا مسلك أصفيائك منزلةً منزلةً ، واكشفْ لنا عن مكنون علمِكَ حجابًا حجابًا ، حتى تنتهي إلى رياض الأُنْس ، وتجتني من ثمار الشوْق إليك ، وتشرب من حِياضِ معرفتك ، وتتنزَّه في بساتين نشْر آلائك ، وتستنقع في غدران ذكر نعمائك ، ثم اردُدْها إلينا بطرف الفوائد ، وامددْها بتُحَف الزوائد ، واجعلِ العيون منا فوَّارة بالعَبَرات ، والصدور منا محشوَّة بالحرقات ، واجعلْ قلوبَنا من القلوب التي سافرت إليك بالجوع والعطش ، واجعلْ أنفسنا من الأنفس التي زالتْ عن اختيارها لهيْبتك ، أحينا على طاعتك ، وتوفَّنا إذا توفيتَنا على مِلَّتك ، راضِين مرضيِّين ، هُداةً مهدِيِّين مهتدين ، غيرَ مغضوب علينا ولا ضالِّين »[1] .

ونختم بما قال - رحمه الله - : « إلٰهي ، لو أصبتُ موئلًا في الشدائد غيرك ،

---

(١) الحلية ٩/٣٦٧ - ٣٦٨ .

أو ملجأ في المنازل سواك ، لَحقّ لي أن لا أُعرض إليه بوجهي عنك ، ولا أختاره عليك ؛ لِقديم إحسانك إليَّ وحديثِهِ ، وظاهرِ مِنَّتك عليَّ وباطِنها ، ولو تقطَّعتُ في البلاد إربًا إربًا ، وانصبَّتْ عليَّ الشدائد صبًّا صبًّا ، ولا أجد مشتكًى غيرك ، ولا مفرِّجًا لما بي عني سواك ، فيا وارث الأرض ومن عليها ، ويا باعث جميعِ مَن فيها ، ورِّثْ أملي فيك مُنى أَمَلي ، وبلِّغْ همِّي فيك منتهى وسائلي »(١) .

* * *

(١) الحلية ٩/٣٥١ .

الفصـل الخامس
عُلُـوُّ الهِـمَّـةِ
فـي
الإِرَادَةِ

﴿ ولا تطـردِ الـذيـنَ يَـدعُونَ ربَّهـمْ بالغَـداةِ والعَشِيِّ يُـريـدون وَجْهَـهُ ﴾
[الأنعام : ٥٢]

« لا يكنْ همُّك همَّ النفسِ والطبْع ....
أين همُّ القلب .... همُّك ما أهمَّك .
فليكنْ همُّك ربَّك عزَّ وجلَّ وما عنده »

[الجيلاني]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الإِرَادَةِ □

قال الله تعالى : ﴿ ولا تطردِ الذينَ يدعونَ ربَّهم بالغداةِ والعَشِيِّ يُريدون وجهَه .... ﴾ الآية [الأنعام : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ وإنْ كُنتنَّ تُرِدْنَ الله ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإنَّ الله أعدَّ للمُحسناتِ منكنَّ أجرًا عظيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وما لأحدٍ عندهُ من نعمةٍ تُجزىٰ إلَّا ابتغاءَ وجهِ ربّه الأعلىٰ ولَسوف يرضىٰ ﴾ [الليل : ١٩ - ٢١] .

وصدَّر شيخُ الإسلام الهرويّ الأنصاري هذا البابَ بقول الله تعالى : ﴿ قلْ كلّ يعملُ على شاكِلَتِه فربُّكم أعلمُ بمن هو أهدىٰ سبيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٤] .

قال ابن القيم معلِّقًا في « المدارج » (٢/٣٧١) : « في تصديره الباب بهذه الآية : دلالة على عِظم قدره ، وجلالة محلِّه من هذا العلم ؛ فإن معنى الآية : كلٌّ يعمل على ما يشاكله ، ويُناسبه ، ويَليق به ؛ فالفاجر يعمل على ما يليق به ، وكذلك الكافر والمنافق ، ومريد الدنيا وجيفَتِهَا : عامل على ما يناسبه ، ولا يليق به سواه . ومحبُّ الصُّوَر : عامل على ما يناسبه ويليق به .

فكـلُّ امـرئٍ يهفـو إلى مـا يحبُّـهُ   وكـلُّ امرئ يصبو إلى ما يناسبهْ

فالمريد الصادق المحبُّ لله : يعمل ما هو اللائق به والمناسب له ، فهو يعمل على شاكلةِ إرادته ، وما هو الأَلْيق به ، والأنسب لها » .

قال ابن القيم : « وقد أشكل على المتكلِّمين تعلُّق الإرادة بالله ، وكون وجهه تعالى مرادًا ؛ قالوا : الإرادة لا تتعلَّق إلَّا بالحادث ، وأما بالقديم : فلا ؛ لأنَّ القديم لا يُراد . وأوّلوا « الإرادة » المتعلِّقة به بإرادة التقرُّب إليه . ثم إنه لا يُتصوَّر عندهم التقرُّب إليه . فأوّلوا ذلك بإرادة طاعته الموجِبة لجزائه .

هذا حاصل ما عندهم . وحجابهم في هذا الباب غليظ كثيف ، مِن أغلظ الحُجُب وأكثفها ، ولهذا تجدهم أهلَ قسْوة ، ولا تجد عليهم روح السلوك ، ولا بهجة المحبَّة » .

« وقد تنوَّعتْ عبارات القوم عنها ، وغالبهم يُخبر عنها بأنها ترْك العادة . ومعنى هذا : أنَّ عادة الناس غالبًا التعريجُ على أوطان الغفلة ، وإجابة داعي الشهوة ، والإخلاد إلى أرض الطبيعة . والمريد منسلِخٌ عن ذلك ، فصار خروجه عنه : أمَارةً ودِلالةً على صحَّة الإرادة ؛ فسُمِّي انسلاخُه وترْكُه : إرادة .

وقيل : نهوض القلب في طلب الحقِّ .

ويُقال : لوعة تهوِّن كلَّ روْعة .

قال الدقَّاقي : الإرادة لوْعة في الفؤاد ، لَذْعة في القلب ، غَرام في الضمير ، انزعاج في الباطن ، نيرانٌ تأجَّجُ في القلوب .

وقيل : من صفات المريد : التحبُّب إلى الله بالنوافل ، والإخلاص في نصيحة الأمة ، والأنس بالخلْوة ، والصبر على مقاساة الأحكام ، والإيثار لأمْره ، والحياء مِن نظره ، وبذْل المجهود في محبوبه ، والتعرُّض لكلِّ سبب يُوصل إليه ، والقناعة بالخمول ، وعدم قرار القلب حتى يصل إلى وليِّه ومعبوده .

وقال حاتم الأصمُّ : إذا رأيتَ المريد يريد غيرَ مراده ، فاعلمْ أنه أظهرَ نذالتَه .

وقيل : من حِكَم المريد : أن يكون نومُه غَلَبة ، وأكْلُه فاقة ، وكلامه ضرورة .

وقال بعضهم : نهاية الإرادة : أن تشير إلى الله ، فتجده مع الإشارة . فقيل له : وأين تستوعبه الإشارة ؟ فقال : أن تجد الله بلا إشارة .

وهذا كلام متين فإن المراتب ثلاثة :

أعلاها : أن يكون واجدًا لله في كلِّ وقت ، لا يتوقف وجودُه له على الإشارة منه ولا من غيره .

الثاني : أن يكون له مَلَكَة وحالٌ وإرادة تامَّة ، بحيث إنه متى أُشير له إلى الله ، وجدَه عند إشارةِ المشير .

الثالث : أن لا يكون كذلك ، ويتكلَّف وجْدانَه عند الإشارة إليه .

فالمرتبة الأولى : للمقرَّبين السابقين . والوسطى : للأبرار المقتصدين . والثالثة : للغافلين .

وقال أبو عثمان الحِيري : مَن لم تصحَّ إرادتُه ابتداء ، فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدبارًا .

وقال : المريد إذا سمِع شيئًا من علوم القوم فعمل به ، صار حكمةً في قلبه إلى آخر عمْره ينتفع به . وإذا تكلَّم انتفع به مَن سمِعه . ومَن سمع شيئًا من علومهم ولم يعمل به ، كان حكايةً يحفظها أيامًا ثم ينساها .

وقال الواسطي : أول مقام المريد : إرادة الحقِّ بإسقاط إرادته .

وقال يحيى بن معاذ : أشدُّ شيءٍ على المريد : معاشرة الأضداد .

وسئل الجُنيد : ما للمريد حظٌّ في مجازات الحكايات ؟ فقال : الحكايات جند من جند الله يثبِّت الله بها قلوبَ المريدين . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **وكُلًّا نَقُصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** ﴾ [هود : ١٢٠] » .

دفاعُ ابنِ القيِّم عن الجُنَيْد :

ذُكر عن الجُنيد – سيِّد الطائفة – في الإرادة كلمةٌ مجمَلة تحتاج إلى تفسير ، ففسَّرها ابن القيم مدافعًا عن الجُنيد ومكانتِه :

قال الجُنيد : « المريدُ الصادق غنيٌّ عن العلماء » .

قال ابن القيم : « قلتُ : إذا صدق المريد ، وصحَّ عقْد صِدْقه مع الله ؛

فتح الله على قلبه ببركة الصدْق ، وحسْن المعاملة مع الله : ما يُغنيه عن العلوم التي هي نتائج أفكار الناس وآرائهم ، وعن العلوم التي هي فضْلَةٌ ليستْ مِن زادِ القبر ، وعن كثير من إشارات الصوفية وعلومهم ، التي أفنوا فيها أعمارهم ؛ من معرفة النفس وآفاتها وعيوبها ، ومعرفة مفسدات الأعمال ، وأحكام السلوك . فإن حال صدقه ، وصحَّة طلبه : يُريه ذلك كلَّه بالفعل .

ومثال ذلك : رجل قاعد في البلد يدأب ليلَه ونهارَه في علْم منازل الطريق وعقباتها وأوديتها ، ومواضع المتاهات فيها ، والموارِد والمفاوز . وآخرُ : حمَلَه الوجْدُ وصِدقُ الإرادة على أنْ ركب الطريق وسار فيها ، فصدْقُه يُغنيه عن علْم ذلك القاعد ، ويُريه إياها في سلوكه عِيانًا .

وأما أن يُغنيه صدْق إرادته عن علْم الحلال والحرام ، وأحكام الأمر والنهي ، ومعرفة العبادات وشروطها وواجباتها ومبطلاتها ، وعن علْم أحكام الله ورسوله على ظاهره وباطنه ؛ فقد أعاذ الله مَن هو دُون الجُنيد من ذلك ، فضلًا عن سيد الطائفة وإمامها . وإنما يقول ذلك قُطَّاع الطريق ، وزنادقة الصوفية ومَلاحِدتهم ، الذين لا يروْن اتِّباع الرسول شرطًا في الطريق .

وأيضًا فإنَّ المريد الصادق يفتح الله على قلبه ، وينوِّره بنورٍ مِن عنده ، مضاف إلى ما معه مِن نور العلم ، يعرف به كثيرًا من أمْر دينه ، فيستغني به عن كثير من علْم الناس ؛ فإن العلم نور ، وقلب الصادق ممتلئ بنور الصدق ، ومعه نور الإيمان ، والنور يهدي إلى النور . والجُنيد أَخبرَ بهذا عن حاله . وهذا أمر جزئيٌّ ليس على عمومه ، بل صدقه يُغنيه عن كثير من العلم . وأما عن جملة العلم : فكلام أبي القاسم الثابت عنه في ضرورةِ الصادِق إلى العلم ، وأنه لا يفلح مَن لم يكن له علْم ، وأن طريق القوْم مقيَّدة بالعلم ، وأنه لا يحلُّ لأحد أن يتكلَّم في الطريق إلا بالعلم - فمشهور معروف ، قد ذكرنا فيما مضى طرَفًا منه ؛ كقوله : « من لم يحفظِ القرآنَ ويكتبِ الحديثَ ، لا يُقتدَى به في هذا

الأمر ؛ لأنَّ علْمَنَا مقيَّد بالكتاب والسنة » .

وأيضًا فإن علم العلماء الذين أشار إليهم : هو ما فهموه واستنبطوه من القرآن والسنة .

والمريد الصادق : هو الذي قرأ القرآن وحفِظ السنة ، والله يرزقه ببَرَكَة صِدْقه وَنور قلبه فهْمًا في كتابه وسُنَّة رسوله ﷺ ، يُغنيه عن تقليد فهْم غيره »[1] .

والمريد الصادق لا يقصرُ هِمَّته على ظاهر العبادة دون أرواح المعارف ودون حقائق الإيمان ، وروح المحبَّة وأعمال القلوب .

فالبَوْن شاسِعٌ بين من يسير بالقلوب والأرواح ، ومَن يسير بمجرَّد القوالب والأشباح .

والمريد لله بصدْقٍ:إذا أراد الله به خيرًا ؛ أوْقعه على طائفة يهذِّبون أخلاقه ، وَيَدلُّونه على تزكية نفسه ، وإزالة أخلاقها الذميمة ، والاستبدال بالأخلاق الحميدة ، ويعرِّفونه منازل الطريق ومفازاتِها وقواطعها وآفاتها . لا مَن يُدَقِّك بالعبادة ولا يذيقك شيئًا من حلاوة أعمال القلوب وتهذيب النفوس .

والبصير الصادق يضرب في كلِّ غنيمة بسهْم ، ويُعاشر كلَّ طائفة على أحسن ما معها ، ولا يتحيَّز إلى طائفة ، وينأى عن الأخرى بالكلِّيَّة : أن لا يكون معها شيء من الحقِّ ، فهذه طريقة الصادقين . ودعوى الجاهلية كامنة في النفوس .

ولا أُعني بـذلـك أصغريهـمْ ... ولكنني أُريـد بـهِ الـذُّوَيْنـا

ولا يذوق العبد حلاوة الإيمان وطعْمَ الصدق واليقين ، حتى تخرج الجاهلية كلُّها من قلبه .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٦٦ - ٣٦٨ .

عِلْمُ السُّلوك مَبنيٌّ على الإرادة :

قال الهرويُّ : « الإرادة من قوانين هذا العلم وجوامع أبنيته » .

قال ابن القيم : يريد أنَّ هذا العلم مبنيٌّ على الإرادة ، فهي أساسه ومجمع بنائه ، وهو مشتمِل على تفاصيل أحكام الإرادة ، وهي حركة القلب ، كما أن عِلْم الفقهِ يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح .

فالفقيه : ينظر في تلك الحركات من جهةِ موافقتها لأمْرِ الشرع ونهيه ، وإذنه وكراهته ، ومتعلِّقات ذلك .

والمريد : ينظر في تلك الحركات من جهة كوْنها موصلة له إلى مراده أو قاطعة عنه ، ومفسدة لقلبه أو مصحِّحة له .

لا بدَّ للسالِكِ مِن ثلاثةِ أشياء :

ولا بد في ذلك من ثلاثة أشياء :

نفس مستعِدَّة قابلة لا تعوز إلا الداعي .

ودعوة مستَمَعَة .

وتخلية الطريق مِن المانع .

فما انقطع مَنِ انقطع إلَّا من جهةٍ من هذه الجهات الثلاث .

الدرجةُ الأُولَى في الإرادة : « ذَهابٌ عن العاداتِ بصحَّة العلم ، مع صدْق القصد ، وخلْع كلِّ شاغِلٍ » :

هذا يُوافق مَنْ حَدَّ « الإرادةَ » بأنها : مخالَفةُ العادة . وهي ترك عوائد النفس ، وشهواتها ، ورعوناتها وبطالاتها . ولا يمكن ذلك إلَّا بهذه الأشياء التي أشار إليها ؛ وهي : صحبة العلم ومعانقته ؛ فإنه النور الذي يُعَرِّف العبد مواقع ما ينبغي إيثار طلبه ، وما ينبغي إيثار تَرْكه . فمَن لم يصحبْه العلم ، لم تصحَّ له

إرادة ، باتفاق كلمة الصادقين . ولا عِبرةَ بقطّاع الطريق .

وقال بعضهم : متى رأيتَ الصوفي الفقير يقدح في العلم ، فاتهمْه على الإسلام .

وصدْق القصْد يكون بأمرَيْن :

أحدهما : توحيده . **والثاني** : توحيد المقصود .

فلا يقع في قصْدك قسْمَة ، ولا في مقصودك .

وممَّا يُعين على الإرادة وترْك العادة : ترْك الموانع والقواطع العائقة عن السلوك ؛ من صحبة الأغيار ، والتعلُّق بالأوطان ، التي أَلِف فيها البِطالةَ والنذالةَ ؛ فليس على المريد الصادق أضرُّ من عُشَرَائه ووطنه ، والقاطعين له عن سيره إلى الله تعالى . فلْيغترِبْ عنهم بجهْده .

قال بعضهم : انظرْ كلَّ ما يقطعك عن الله فاقطعْهُ .

الدرجَةُ الثانية : « تقطُّعٌ بصحبةِ الحال ، وترويحُ الأنْس ، والسَّيْرُ بين القبْضِ والبَسْطِ » :

إذا صحَّت له الدرجةُ الأولى أسلمتْه إلى هذه الدرجة العالية ، فينتقل مِن رسوم الأعمال إلى مقام حقائقها وأذواقها ، ومواجيدها ، وأحوالها ؛ فيترقَّى من الإسلام إلى الإيمان ، ومن الإيمان إلى الإحسان . فإن السالك في أول الأمر يجد تعَبَ التكاليف ومشقَّة العمل ؛ لعدم أُنس قلبه بمعبوده ، فإذا حصل للقلب روح الأُنس زالتْ عنه تلك التكاليف والمشاقُّ ، فصارت قرَّةَ عيْنٍ له ، وقوَّةً ولذَّةً ؛ فتصير الصلاة قرة عيْنِه ، بعد أنْ كانت عملًا عليه . ويستريح بها ، بعد أن كان يطلب الراحة منها . فله ميراثٌ مِن قوله ﷺ : « أرِحْنا بالصلاة يا بلال » ، « وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة » ؛ بحسب إرادته ، ومحبَّته ، وأُنْسه بالله سبحانه وتعالى ، ووحشته مما سواه .

وأمَّا « السيْر بين القبْضِ والبسْط » :

فـ « القبض » و« البسْط » : حالتان تَعرِضَان لكلِّ سالكٍ ، يتولَّدان من الخوْف تارةً ، والرجاء تارة ، فيقبضه الخوف ويَبْسُطه الرجاء .

ويتولَّدان من الوفاء تارة والجفاء تارة ؛ فوفاؤه : يُورثه البسْطَ ، وجفاؤه يُورثه القبْض .

وقد يهجم على قلْب السالك قبْضٌ لا يدري ما سببه ، وبسْط لا يدري ما سببه . وحكم صاحب هذا القبْض أمران :

الأول : التوبةُ والاستغفار ؛ لأن ذلك القبْض نتيجةُ جِنَايةٍ أو جفْوة ، ولا يشعر بها .

والثاني : الاستسلام حتى يمضيَ عنه ذلك الوقت ، ولا يتكلَّف دفْعَهُ ، ولا يستقبل وقتَهُ مغالبةً وقهْرًا ، ولا يطلب طلوع الفجْر في وسَط الليل ، ولْيَرْقُد حتى يمضيَ عامَّة الليل ، ويحين طلوعُ الفجر وانقشاعُ ظلْمة الليل ، بل يصبر حتى يهجم عليه المَلَكَ . فالله يقبض ويبسط .

وكذلك إذا هجَم عليه وارِدُ البسْط : فلْيحذرْ كلَّ الحذَرِ من الحركة والاهتزاز ، ولْيحرزْه بالسكون والانكماش . فالعاقل يقف على البِساط ، ويحذر من الانبساط ؛ وهذا شأن عقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم ؛ إذا ما ورد عليهم ما يسرُّهم ويَبسُطهم ويهيج أفراحهم ؛ قابلوه بالسكون والثبات والاستقرار ، حتى كأنه لم يهجمْ عليهم .

وقال كعْب بن زُهَيْر في مدْح المهاجرين :

ليسوا مفاريحَ إنْ نالتْ رماحُهُمُ   قومًا وليسوا مجازيعًا إذا نِيلُوا

فلا يخرجه البسْطُ عن استقامته ، وملازمَتِهِ رعاية حقوق سيِّده ، مع التأدُّب بآدابه . ولا عن الوقوف بالأدب بين يديه .

ونختمُ بما قال شيخ الإسلام عبد القادر الجيلاني لغلامه : « يا غلامُ ، لا يكنْ همُّك ما تأكل وما تشرب ، وما تلبَس وما تنكِح ، وما تسكن وما تجمع ؛ كلّ هذا : همُّ النفس والطبْع ، فأين همُّ القلب ؟! همُّك ما أهمّك ، فليكنْ همّك ربّك عزَّ وجل وما عنده »[1] .

* * *

(١) إحياء فقه الدعوة للراشد ، مجلة المجتمع ص ١٣٦ .

الفصل السادس
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الرِّعَايَةِ

« ذمَّ الله سبحانه مَن لمْ يرعَ قُرْبةً ابتدَعَها للهِ حقَّ رعايتها ، فكيفَ بمَنْ لمْ يرْعَ قُرْبةً شرعَهَا الله لعبادهِ وأذِنَ بها وحثَّ عليها ؟! »

[ابن قيِّم الجوزيّة]

□ عُلُوُّ الهِمَّة في الرِّعايةِ □

و « الرعاية » : منزلةٌ من منازل ﴿ **إيَّاك نعبُدُ وإيّاك نستعين** ﴾ .

قال ابن القيم : « وهي مراعاة العلْم وحفْظُه بالعمل ، ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص ، وحفظه من المُفسدَات ، ومراعاة الحال بالموافقة ، وحفظه بقطع التفريق . فالرعاية صيانة وحفْظ .

ومراتب العلْم والعَمَلِ ثلاثة :

« رواية » : وهي مجرَّد النقل وحمْل المرويّ .

و« دِرَاية » : وهي فهْمُهُ وتعقُّل معناه .

و« رعاية » : وهي العمل بموجَب ما علمه ومقتضاه .

فالنَّقَلَة هِمَّتهم الرواية ، والعلماء هِمَّتهم الدراية ، والعارفون همتهم الرعاية .

وقد ذمَّ الله مَن لم يرْعَ ما اختاره وابتدَعَه من الرهبانية حقَّ رعايته ؛ فقال تعالى : ﴿ **وجعلنا في قلوبِ الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيَّةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلَّا ابتغاءَ رِضوانِ الله فما رعوْها حقَّ رعايتها** ﴾ [الحديد : ٢٦] .

فالله سبحانه وتعالى ذمَّ مَن لم يَرْع قرْبةً ابتدعها لله تعالى حقَّ رعايتها ، فكيف بمَن لم يرْعَ قُرْبةً شرَعَها الله لعباده ، وأذِن بها وحثَّ عليها ؟! »[(١)] .

قال شيخ الإسلام الهروي الأنصاري : « الرعاية : صوْنٌ بالعناية .

وهي على ثلاثِ درجات :

الدرجة الأولى : رعايةُ الأعمال .

والثانية : رعايةُ الأحوال .

والثالثة : رعايةُ الأوْقات »..

---

(١) مدارج السالكين ٢/٦٠ - ٦١ .

الدرجة الأولى : رعَاية الأعمال :

« فأمَّا رعاية الأعمال : فتوفيرها بتحقيرها ، والقيامِ بها مِن غير نظَرٍ إليها ، وإجراؤها على مجرى العلم ، لا على التزيُّن بها » .

قال ابن القيِّم : « قوله : « أمَّا رعاية الأعمال : فتوفيرها بتحقيرها » :

فالتوفير : سلامة مِن طرَفي التفريط بالنقص ، والإفراط بالزيادة على الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها .

وأما تحقيرها : فاستصغارها في عينه واستقلالها ، وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبوديته أمرٌ آخر ، وأنه لم يُوَفِّه حقَّه ، وأنه لا يرضى لربه بعمله ، ولا بشيء منه .

وقد قيل : علامة رضا الله عنك : إعراضك عن نفسك . وعلامة قبول عملك : احتقاره واستقلاله ، وصغره في قلبك ، حتى إنَّ العارف لَيستغفر الله عقيبَ طاعته ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم من الصلاة ، استغفرَ الله ثلاثًا . وأمَر الله عباده بالاستغفار عقيبَ الحجِّ . ومدحَهم على الاستغفار عقيبَ قيام الليل . وشرع النبي ﷺ عقيبَ الطهور التوبةَ والاستغفار .

فمن شهِد واجب ربِّه ، ومقدار عمله ، وعيْبَ نفسه : لم يجدْ بُدًّا من استغفار ربِّه منه ، واحتقارِه إيَّاه واستصغاره .

وأمَّا « القيام بها » : فهو توفيتُها حقَّها ، وجعْلُها قائمة ؛ كالشهادة القائمة ، والصلاة القائمة ، والشجرة القائمة على ساقها التي ليست بساقطة .

وقوله : « مِن غير نظَر إليها » : أي من غير أن يلتفتَ إليها ويعدِّدها ويذكرها؛ لمخافة العجْب والمِنَّة بها ، فيسقط من عيْن الله ، ويحبَط عمله .

وقوله : « وإجراؤها على مجرى العلم » : هو أن يكون العمل على مقتضى العلم المأخوذ من مِشكاة النبوة ، إخلاصًا لله وإرادةً لوجهه وطَلَبًا لمرضاته ، لا على

وجْهِ التزيُّن بها عند الناس .

الدرَجَةُ الثانيةُ : رِعَايةُ الأحوال :

« أنْ يَعدَّ الاجتهادَ مراءَاةً ، واليقينَ تشبُّعًا ، والحالَ دعوىٰ » :

قال ابن القيِّم : أي يتهم نفسه في اجتهاده : أنه راءَىٰ الناس ، فلا يطغىٰ به ، ولا يسكن إليه ، ولا يعتدُّ به .

وأما عدُّه اليقينَ تشبُّعًا : فالتشبُّع : افتخار الإنسان بما لا يملكه ، ومنه قول النبي ﷺ : « المتشبِّع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبي زُور » .

وعدُّ اليقينِ تشبُّعًا : يحتمل وجهيْن :

أحدهما : أن ما حصل له من اليقين لم يكن به ، ولا منه ، ولا استحقَّه بِعِوَض ، وإنما هو فضل الله وعطاؤه ، ووديعته عنده ، ومجرَّد منَّته عليه . فهو خلعة خلَعها سيِّده عليه ، والعبد وخِلْعته ملْكُه وله . فما للعبد في اليقين مدخل ، وإنما هو متشبِّع بما هو مِلْك لله وفضله ومِنَّته على عبده .

والوجه الثاني : أن يتهم يقينه ، وأنه لم يحصل له اليقين على الوجه الذي ينبغي ، بل ما حصل له منه هو كالعارية لا المِلْك المستقرّ ، فهو متشبِّع بزعْم نفسه بأن اليقين ملْكُه وله . وليس كذلك . وهذا لا يختص باليقين ، بل بسائر الأحوال ؛ فالصادق يعدُّ صدقه تشبُّعًا ، وكذا المخلص يعدُّ إخلاصه ، وكذا العالم ؛ لاتهامه لصدْقه وإخلاصه وعلْمه وأنه لم ترسخ قدمه في ذلك ، ولم يحصل له فيه مَلَكَة . فهو كالمتشبِّع به .

ولمَّا كان « اليقين » روح الأعمال وعمودها ، وذروة سنامها ، خصَّه بالذكْر ، تنبيهًا على ما دونه .

والحاصل : أنه يتهم نفسه في حصول اليقين ، فإذا حصل فليس حصوله به ولا منه ، ولا له فيه شيء ، فهو يذمُّ نفسه في عدم حصوله ، ولا يحمدها عند حصوله .

وأما عدُّ الحال دعوىٰ : أي دعوى كاذبة ، اتهامًا لنفسه ، وتطهيرًا لها من رعونة الدعوى ، وتخليصًا للقلب مِن نصيب الشيطان ؛ فإنَّ الدعوى من نصيب الشيطان ، وكذلك القلب الساكن إلى الدعوى مأوى الشيطان . أعاذنا الله من الدعوى ومن الشيطان .

الدرجة الثالثة : رعاية الأَوْقات :

« أنْ يقف معَ كلِّ خطوة .

ثم أن يغيب عن حضوره بالصفاء من رسْمه .

ثم أن يذهب عن شهود صفوِ صفوه » .

قال ابن القيم : « أي يقف مع حركة ظاهره وباطنه بمقدار تصحيحها ، نيةً وقصدًا وإخلاصًا ومتابعة ؛ فلا يخطو هجْمًا وهمَجًا ، بل يقف قبل الخطوِ حتى يصحِّحَ الخطوة ، ثم ينقل قدَم عزْمِه ، فإذا صحَّت له ونقل قدمَه انفصل عنها ، وقد صحَّت الغيبة عن شهودها ورؤيتها ، فيغيب عن شهود تقدُّمه بنفسه ؛ فإن رسمه هو نفسُه . فإذا غاب عن شهود نفسه وتقدُّمه بها في كلِّ خطوة ، فذلك عيْن الصفاء من رسْمه الذي هو نفسه ، فعند ذلك يشاهد فضْلَ ربه .

ولما كانتِ النفس محلَّ الأكدار ، سُمِّي انفصاله عنها : صفاءً . وهذه الأمور تستدعي لطفَ إدراكٍ ، واستعدادًا من العبد ، وذلك عيْن المنَّة عليه .

وأما ذَهابه عن شهود صفوه : أي لا يستحضره في قلبه ، ويشهد ذلك الصفو المطلوب ، ويقف عنده ؛ فإن ذلك من بقايا النفس وأحكامها ، وهو كدَر ، فإذا تخلص من الكَدَر لا ينبغي له الالتفات والرجوع إليه ، فيصفو من الرسْم ويغيب عن الصفو ، بمشاهدة المطلب الأعلى ، والمقصد الأَسْنىٰ » .

* * *

الفصل السابع
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
التعْظِيم

□ عُلُوُّ الهِمَّة في التعْظِيم □

اعلَمْ يا أخي أنه على قدْر المعرفة يكون تعظيم الربِّ تعالى في القلب . وأعرفُ الناس بِهِ : أشدُّهم له تعظيمًا وإجلالًا . وقد ذمَّ الله تعالى من لم يعظِّمه حقَّ عظمته ، ولا عَرَفه حقَّ معرفته ، ولا وصفه حقَّ صفته . وأقوالهم تدور على هذا ؛ فقال تعالى : ﴿ ما لكم لا ترجونَ لله وقارًا ﴾ [نوح : ١٣] . قال ابن عباس ومجاهد : لا ترجون لله عظمة . وقال سعيد بن جُبير : ما لكم لا تعظِّمون الله حقَّ عظمته ؟! وقال الكلبي : لا تخافون لله عظمة .

وروح العبادة : هو الإجلال والمحبَّة . فإذا تخلَّى أحدهما عن الآخر فسدت ، فإذا اقترن بهذين الثناءُ على المحبوب المعظَّم ، فذلك حقيقة الحمد . والله سبحانه أعلم .

درَجاتُ التعْظِيم :

الأولى : تعظيم الأمر والنهْي :

« وهو أن لا يُعارَضَا بترخُّص جافٍ ، ولا يُعرَّضا لتشدُّد غالٍ ، ولا يُحمَلا على عِلَّة تُوهِن الانقياد » .

هاهنا ثلاثة أشياء تُنافي تعظيم الأمر والنهي :

أحدها : الترخُّص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال .

والثاني : الغلوُّ الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي .

فالأول : تفريط . والثاني : إفراط .

وما أمر الله بأمرٍ إلَّا وللشيطان فيه نزغتان : إما إلى تفريط وإضاعة ، وإما إلى إفراط وغلوٍّ . ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه ، كالوادي بين

جبلَيْن ، والهدَىٰ بين ضلالتَيْن ، والوسط بين طرفين ذميمين . فكما أن الجافي عن الأمر مضيِّع له ، فالغالي فيه مضيِّع له ؛ هذا بتقصيره عن الحدِّ ، وهذا بتجاوزه الحدَّ .

وقد نهى الله عن الغلو بقوله : ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غيرَ الحقِّ** ﴾ [المائدة : ٧٧] .

و« الغلوُّ » نوعان : نوع يُخرجه عن كونه مطيعًا ؛ كمن زاد في الصلاة ركعة ، أو صام الدهر مع أيام النهي ، أو رمىٰ الجمَرات بالصخرات الكبار التي يُرمىٰ بها في المنجنيق ، أو سعىٰ بين الصفا والمروة عشْرًا ، أو نحو ذلك عمْدًا .

وغلو يُخَافُ منه الانقطاع والاستحسار ؛ كقيام الليل كلِّه ، وسَرْد الصيام الدهرَ أجمع ، بدون صوْم أيام النهي ، والجوْر على النفوس في العبادات والأوراد ، الذي قال فيه النبي ﷺ : « إن هذا الدين يُسْرٌ ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلَّا غلَبه . فسدِّدوا وقاربوا ويَسِّروا ، واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحَة ، وشيءٍ من الدُّلْجَة ». يعني : استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة ؛ فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسَّيْر فيها .

وقال ﷺ : « لِيُصَلِّ أحدُكم نَشاطَه ، فإذا فَتَر فلْيرْقد » . رواهما البخاري .

وفي صحيح مسلم : عنه ﷺ أنه قال : « هلَك المتنطِّعون – قالها ثلاثًا – وهم المتعمِّقون المتشدِّدون » .

وفي صحيح البخاري : عنه ﷺ : « عليكم من الأعمال ما تُطيقون ؛ فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تَملُّوا » .

وفي السنن : عنه ﷺ أنه قال : « إن هذا الدِّين متين ، فأوغِلْ فيه برِفْق ، ولا تُبَغِّضَنَّ إلى نفسك عبادةَ الله ». أو كما قال .

وقوله : « ولا يُحْمَلا على علَّة توهِن الانقياد » : يريد : أنْ لا يتأوَّل في الأمر والنهي علَّة تعود عليهما بالإبطال ، كما تأوَّل بعضُهم تحريم الخمر بأنه معلَّل

بإيقاع العداوة والبغضاء ، والتعرُّض للفساد . فإذا أمن من هذا المحذور منه جاز شربه ؛ كما قيل :

أدرْها فما التحريمُ فيها لذاتِها ولكنْ لأسبابٍ تضمَّنَها السُّكْرُ
إذا لم يكنْ سُكْرٌ يُضِلُّ عنِ الهدىٰ فسيَّانَ ماءٌ في الزجاجةِ أوْ خَمْرُ

وقد بلَغ هذا بأقوام إلى الانسلاخِ من الدين جملةً ، وقد حمل طائفةً من العلماء أن جعلوا تحريم ما عدا شراب خمر العنب معلَّلًا بالإسكار ، فله أن يشرب منه ما شاء ، ما لم يُسكر .

ومن العلل التي تُوهن الانقياد : أن يعلّل الحكم بعلّة ضعيفة ، لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر ، فيضعف انقياد العبد إذا قام عنده أنَّ هذه هي علَّة الحكم ، ولهذا كانت طريقة القوم : عدَم التعرُّض لعلل التكاليف ؛ خشيةَ هذا المحذور .

وفي بعض الآثار القديمة : « يا بَني إسرائيل ، لا تقولوا : لِـمَ أمـرَ ربُّنا ؟ ولكن قولوا : بِمَ أمَرَ ربنا؟ » .

وأيضًا فإنه إذا لم يمتثِلِ الأمرَ حتى تظهرَ له علَّتُه ، لم يكن منقادًا للأمر ، وأقل درجاته : أن يضعف انقياده له .

وأيضًا فإنه إذا نظر إلى حِكَمِ العبادات والتكاليف مثلًا ، وجعل العلَّة فيها هي جمعيَّة القلب والإقبال به على الله ؛ فقال : أنا أشتغل بالمقصود عن الوسيلة . فاشتَغَلَ بجمعيَّته وخلوته عن أوراد العبادات ، فعطَّلها ، وترَك الانقياد بحمْله الأمْر على العلَّة التي أذهبتِ انقياده .

وكلُّ هذا مِن ترْك تعظيم الأمْر والنهي . وقد دخل من هذا الفساد على كثير من الطوائف ما لا يعلمه إلا الله . فما يدري ما أَوْهنتِ العلَلُ الفاسدة من الانقياد إلى الله ، فكم عطَّلتْ لله من أمر ، وأباحت مِن نهْي ، وحرَّمت من مباح ؟! وهي التي اتفقت كلمة السلف على ذمِّها .

وهذه الدرجة تتضمَّن تعظيمَ الحكم الديني الشرعي .

وخواصُّ خلْقِه ممَّن يعظِّمون أمْره ونهيه ، يريدونه ويريدون ثوابه ؛ قال الله تعالى : ﴿ **وإنْ كنتنَّ تردْنَ الله ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإنَّ الله أعدَّ للمحسنات منكنَّ أجرًا عظيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٩] . فهذا خطابه لخير نساءِ العالمين ؛ أزواج نبيِّه ﷺ .

وقال الله تعالى : ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعْيَها وهو مؤمن فأولئك كان سعيُهم مشكورًا** ﴾ [الإسراء : ٩] ، فأخبر أنَّ السعْي المشكور : سعيُ مَن أراد الآخرة . وأصرحُ منها : قوله لخواصِّ أوليائه – وهم أصحاب نبيِّه ﷺ ورضي عنهم – في يوم أُحُد : ﴿ **منكم مَنْ يريد الدنيا ومنكم مَن يريد الآخرة** ﴾ [آل عمران : ١٥٢] فقسّمهم إلى هذيْن القِسْمين اللذَيْن لا ثالثَ لهما .

وقد غلط من قال : فأين مَن يريد الله ؟ فإنَّ إرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله تعالى وثوابه ، فإرادة الثواب لا تنافي إرادة الله .

والجنة ليست اسمًا لمجرَّد الأشجار والفواكه ، والطعام والشراب والحُور العِين ، والأنهار والقصور . وأكثر الناس يغلطون في مسمَّى الجنة ؛ فإن الجنة اسم لدار النعيم المطْلَق الكامل ، ومِن أعظم نعيم الجنة : التمتُّع بالنظر إلى وجه الله الكريم ، وسَماع كلامه ، وقرَّة العيْن بالقرْب منه وبرضوانه ، فلا نسبة للذَّةِ ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصُّوَر ؛ إلى هذه اللذَّة أبدًا ، فأيسرُ يسير من رضوانه أكبر من الجِنان وما فيها من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **ورضوانٌ من الله أكبرُ** ... ﴾ الآية [التوبة : ٧٢] ، وأتى به منكَّرًا في سياق الإثبات . أيُّ شيءٍ كان من رضاه عن عبده ؛ فهو أكبر من الجنة .

قليلٌ منك يكفيني ولكنْ ... قليلُك لا يُقال له قليلُ

وفي الحديث الصحيح – حديث الرؤية – : « فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى وجهِهِ » . وفي حديث آخر : أنه سبحانه إذا تجلّى لهم ،

ورأوا وجهه عِيانًا نسوا ما هم فيه من النعيم وذهلوا عنه ، ولم يلتفتوا إليه . ولا ريب أن الأمر هكذا ، وهو أجل مما يخطر بالبال ، أو يدور في الخيال ، ولا سيما عند فوْز المحبِّين هناك بمعيَّة المحبّة ، فإن المرء مع مَن أحبَّ ولا تخصيصَ في هذا الحكم ، بل هو ثابتٌ شاهدًا وغائبًا .

فأيُّ نعيم ، وأيُّ لذة ، وأيُّ قرَّة عيْن ، وأيُّ فوْز يُداني نعيمَ تلك المعيَّة ولذَّتها ، وقرة العين بها ؟! وهل فوق نعيم قرَّة العيْن بمعيَّة المحبوب الذي لا شيء أجلَّ منه ولا أكمل ولا أجمل - قرة عيْن ألبتة ؟!

وهذا - والله - هو العلم الذي شمَّر إليه المحبُّون ، واللواء الذي أَمَّهُ العارفون ، وهو روح مسمَّى « الجنة » وحياتها ، وبه طابتِ الجنة وعليه قامت .

وخواصُّ خلْق الله ، والكُمَّل من عباده : وسط بين طرفَيْن :

الأول : مَن يريد مِنَ الله ولا يريد الله ؛ فهذا ناقصٌ غاية النقص ، وهو حال الجاهل بربِّه ، الذي سمع أن ثَمَّ جنةً ونارًا ، فليس في قلبه غير إرادة نعيم الجنة المخلوق ، لا يخطر بباله سِواه ألبتة ، بل هذا حال أكثر المتكلِّمين ، المنكرين رؤية الله تعالى ، والتلذذ بالنظر إلى وجههِ في الآخرة ، وسماع كلامه ، وحبِّه ، والمنكرين على من يزعم أنه يحبُّ الله ، وهم عبيد الأجرة المحضة ، فهؤلاء لا يريدون الله تعالى وتقدَّس ، وهم منكرون لإرادة الله غاية الإنكار ، وأعلى الإرادة عندهم : إرادة الأكل والشرب ، والنكاح واللباس في الجنة ، وتوابع ذلك .

وهؤلاء من أكثف الناس حِجابًا ، وأغلظهم طباعًا ، وأقساهم قلوبًا ، وأبعدهم عن روح المحبَّة والتألُّه ، ونعيم الأرواح والقلوب . وهم يكفِّرون أصحاب المحبَّة والشوق إلى الله ، والتلذُّذ بحبِّه ، والتصديق بلَذَّة النظر إلى وجهه ، وسماع كلامه منه بلا واسطة .

جهلتْ هذه الطائفة أن النفوس العليَّة الزكيَّة تعبده ؛ لأنه أهل أن يُعبَد ، ويُجَلّ ويُحَبّ ويُعظَّم ، فهو لذَاتِه مستحقٌّ للعبادة .

ومع إرادة النعيم المخلوق في الجنة فهناك نعيم أعلى ، وهو نعيم القرْب من

المُطَاعِ ؛ قال تعالى في حقِّ نبيِّه داود ﷺ : ﴿ **وإنَّ له عندنا لزُلْفىٰ وحُسْنَ مآب** ﴾ [ص : ٤٠] ؛ فالزلفى : منزلة القرْب ، وحسْن المآبُ : حسن الثواب والجزاء .

وقال تعالى : ﴿ **للذين أحسَنوا الحسنىٰ وزيادة** ... ﴾ الآية [يونس : ٢٦] ، فالحسنى : الجزاء،والزيادة : منزلة القرْب ، ولهذا فُسِّرتْ بالنظر إلى وجه الله عزَّ وجل .

فالخواصُّ والكُمَّلُ عملهم على المنزلة والدرجة ، وهؤلاء العُمَّال عملهم على الثواب والأجرة ، وشتَّانَ ما بينهما!!

والثاني : مَن يريد الله ولا يريد منه ؛ فهذا هو الذي يزعمُ هؤلاءِ أنه مطلوبهم ، وأنَّ مَن لم يصل إليه ففي سَيْره علّة ، وأن العارف ينتهي إلى هذا المقام ، وهو أن يكون الله مرادَه ، ولا يريد منه شيئًا ؛ كما يُحكىٰ عن أبي يزيد أنه قال : قيل لي : ما تريد ؟ فقلتُ : أريد أن لا أريد .

وأصحاب هذه المنزلة ينكرون على الطرَف الآخر ، ولا يعدُّونهم من البَشَر إلا بالصورة ، ومرتبتهم عندهم قريبة من مرتبة الجماد والحيوان البهيم ، وهم عندهم في حجابٍ كثيفٍ عن معرفة نفوسهم وكمالها ، ومعرفة معبودهِم وسِرِّ عبوديته .

وهذا في التحقيق عيْنُ المحال الممتنع ، عقلًا وفِطْرةً ، وحِسًّا وشرعًا ؛ فإن الإرادة من لوازم الحيِّ ، وإنما يعرض له التجرُّد عنها بالغيْبة عن عقله وحِسِّه ، كالسُّكْر والإغماء والنوْم ، وهذه حالة عارضة غير دائمة ، وليست غاية مطلوبة للسالكين ، ولا مقدورة للبشر ، ولا هي أعلى المقامات فيُؤمر باكتساب أسبابها .

ونحن لا ننكر التجريد عن إرادة ما سواه من المخلوقات التي تزاحم إرادتُها إرادتَه ، أفليس صاحب هذا المقام مريدًا لقرْبه ورضاه ودوام مراقبته والحضور

معه ؟! وأيُّ إرادة فوق هذه؟!

وحال الطائفتَيْن عجَبٌ لمن اطلع عليه ، وخير الهدي هديُ محمد ﷺ .
وما سجَّله القرآن من قوْل آسية : ﴿ **ربِّ ابنِ لي عندَكَ بيتًا في الجنة** ... ﴾ الآية [التحريم : ١١] ، فطلبت جوار الرحمٰن وعنديَّته والقرْب منه في الجنة ، وهي التي كملتْ من النساء .

فهذا فصل الخطاب في هذا الموضع . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الدرَجَة الثانية : تعظيمُ الحكْمِ الكَوْنيِّ القَدَريِّ بأن لا يُبغَىٰ له عِوَجٌ ، ولا يُرضَىٰ بعِوَض :

أما الأول : « أن لا يُبغَىٰ له عِوَج » ؛ أي يُطلَب له عوج ، أو يُرىٰ فيه عِوَج ، بل يراه كلَّه مستقيمًا ؛ لأنه صادرٌ عن عين الحكمة ، فلا عِوَج فيه .

وهذا موضع قد أشكل على الناس جدًّا ؛ فقال نُفاة القدَر : ما في خلْق الرحمٰن مِن تَفَاوُتٍ ولا عِوج ، والكفر والمعاصي مشتمِلَة على أعظم التفاوت والعِوَج ، فليست بخلْقِهِ ولا مشيئتِه ولا قدَره .

وقالت فرقة تقابلهم : بل هي من خلْق الرحمٰن وقدَره ، فلا عِوج فيها ، وكلُّ ما في الوجود مستقيم .

والطائفتان ضالَّتان منحرفتان عن الهدى ، وهذه الثانية أشدُّ انحرافًا ؛ لأنها جعلت الكفرَ والمعاصي طريقًا مستقيمًا لا عِوجَ فيه . وعدم تفريق الطائفتين بين القضاء والمقضي ، والحكم والمحكوم به ، هو الذي أوقعهم فيما أوقعهم فيه .

وقول سلف الأُمَّة وجمهورها : إن القضاء غير المقضي ؛ فالقضاء : فعْلُه ومشيئته وما قام به ، والمقضيُّ : مفعوله المباين له المنفصل عنه ، وهو المشتمل على الخير والشرِّ ، والعِوج والاستقامة .

فقضاؤه كلُّه حقٌّ ، والمقضي : منه حقٌّ ، ومنه باطل . وقضاؤه كلُّه

عدل ، والمقضيُّ : منه عدل ، ومنه جور . وقضاؤه كلُّه مرضي ، والمقضي : منه مرضي ، ومنه مسخوط . وقضاؤه كلُّه مسالم ، والمقضي : منه ما يُسالَم ، ومنه ما يحارَب .

وهذا أصل عظيم تجب مراعاته ، وهو موضع مزلَّة أقدام كما رأيتَ ، والمنحرف عنه : إما جاهل للحكْمة ، أو القدرة ، أو للأمر والشرع ولا بدَّ . وعلى هذا يُحمل كلام صاحب « المنازل » رحمه الله : « أن لا يُبتَغىٰ للحكم عِوَج » .

« ولا يُرضىٰ بعِوَض » : أي إن صاحب « مشهد الحكم » قد وصل إلى حدٍّ لا يطلب معه عوضًا . ولا يكون ممَّن يعبد الله بالعوض ؛ فإنه يشاهد جريان حكم الله عليه ، وعدم تصرُّفه في نفسه ، وأن المتصرف فيه حقًّا هو مالكه الحقُّ ؛ فهو الذي يُقيمه ويُقعده ، ويقلِّبه ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال . وإنما يطلب العِوضَ من غاب عن الحكم وذهَلَ عنه ، وذلك منافٍ لتعظيمه ؛ فمِن تعظيمه : أن لا يرضى العبدُ بعِوَض يطلبه بعمله ؛ لأن مشاهدة الحكم وتعظيمه يمنعه أن يرى لنفسه ما يعاوَض عليه . فهذا الذي يمكن حمْل كلامه عليه من غير خروج عن حقيقة الأمر . والله سبحانه أعلم »[(١)] .

« **الدرجة الثالثة : أعظم التعظيم ؛ تعظيمُ الحقِّ سبحانه ، وهو أن لا يجعل دونه سببًا ، ولا يرى عليه حقًّا ، أو لا يُنازِع له اختيارًا** » :

هذه الدرجة تتضمَّن تعظيم الحاكم سبحانه ، صاحب الخَلْق والأمْر ، والتي قبلها تتضمَّن تعظيم قضائه لا مقضيّه ، والأُولى : تتضمَّن تعظيم أمْره .

وذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء :

(١) مدارج السالكين ٢/٤٩٩ - ٥٠٠ .

أحدها : « أن لا تجعل دونه سببًا » : أي : لا تجعل للوصلة إليه سببًا غيره ، بل هو الذي يُوصل عبدَه إليه ، فلا يُوصِل إلى الله إلا اللهُ ، ولا يقرِّب إليه سواه ، ولا يُدْني إليه غيره ، ولا يُتوصَّل إلى رضاه إلا به ، فما دلَّ على الله إلا اللهُ ، ولا هدىٰ إليه سواه ، ولا أدنىٰ إليه غيره ؛ فإنه سبحانه هو الذي جعل السبب سببًا ، فالسبب وسببيَّته وإيصاله : كلُّه خلقه وفعله .

الثاني : « أن لا يرى عليه حقًّا » أي : لا ترى لأحد من الخلق - لا لك ولا لغيرك - حقًّا على الله ، بل الحق لله على خلقه . وأما حقوق العبيد على الله تعالى ؛ من إثابته لمطيعهم ، وتوبته على تائبهم ، وإجابته لسائلهم ؛ فتلك حقوقٌ أحقَّها الله سبحانه على نفسه ، بحكْم وعدِه وإحسانه ، لا أنها حقوق أحقُّوها هم عليه . فالحقُّ - في الحقيقة - لله على عبده ، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده وبره ، وإحسانه إليه بمحْض جُوده وكرمه . هذا قول أهل التوفيق والبصائر . وهو وسط بين قولَيْن منحرفَيْن قد تقدَّم ذكْرهما مِرارًا . والله سبحانه أعلم .

الثالث : « أو لا ينازِع له اختيارًا » : إذا رأيتَ الله عز وجل قد اختار لك أو لغيرك شيئًا - إما بأمْره ودينه ، وإما بقضائه وقدره - فلا تنازع اختياره ، بلِ ارضَ باختيار ما اختاره لك ؛ فإن ذلك من تعظيمه سبحانه .

ولا يردُّ عليه قدره من المعاصي ؛ فإنه سبحانه - وإن قدَّرها - لكنه لم يختَرْها له ، فمنازعتها غير اختياره من عبده ، وذلك من تمام تعظيم العبد له سبحانه . والله أعلم »[١] .

ومن عُلُوِّ الهِمَّة في التعْظِيم : تعظيم حُرمات الله عزَّ وجل:

« قال تعالى : ﴿ وَمَن يعظِّمْ حرماتِ اللهِ فهو خيرٌ له عند ربِّه ﴾ [الحج : ٢٢] ، قال جماعة من المفسِّرين : « حُرُمات الله » هاهنا : مغاضبه وما نهى

---

(١) مدارج السالكين ٢/٥٠٠ - ٥٠١ .

عنه ، وتعظيمُها : ترْك ملابستها .

قال الليث : حُرُمات الله : ما لا يحلُّ انتهاكها .

وقال قوم : الحرمات : هي الأمْر والنهي . وقال الزجَّاج : الحرْمة ما وجب القيام به ، وحرّم التفريط فيه . وقال قوم : الحُرُمات هاهنا المناسك ومشاعر الحج ، زمانًا ومكانًا .

والصواب : أن « الحرمات » تعمُّ هذا كلَّه ، وهي جمع « حُرْمة » ، وهي ما يجب احترامه وحفظه ؛ من الحقوق والأشخاص ، والأزمنة والأماكن . فتعظيمها : توفيتها حقَّها ، وحفظُها من الأضاعة »[1] .

فمن الأشخاص : رسول الله ﷺ ، والصحابة ، وأهل بيته .

ومن الأزمنة : الأشهر الحُرُم وبخاصة عشْر ذي الحجة ، ورمضان وعشْره الأُخرَ .

ومن الأماكن : مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ...

قال الهروي في « منازل السائرين » : « الحرْمة هي التحرُّج عن المخالفات والمجاسرات » .

قال ابن القيم : أراد أنَّ الحرْمة هي الخروج من حَرَجِ المخالفة وجسارة الإقدام عليها .

ومن تعظيمِ الحُرُمات : تعظيم وحفْظ حرْمة نصوص الأسماء والصفات :

قال صاحب « المنازل » بعد ذكْره للدرجة الأولى وهي « تعظيم الأمر والنهي »:

---

(١) مدارج السالكين ٢/٧٤ .

« **الدرجة الثانية** : إجراء الخبر على ظاهره ؛ وهو أن تبقى أعلام توحيد العامَّة الخبرية على ظواهرها ، ولا يتحمَّل البحث عنها تعسُّفًا ، ولا يتكلَّف لها تأويلًا ، ولا يتجاوز ظواهرها تمثيلًا ، ولا يدَّعي عليها إدراكًا أو توهُّمًا »[١] .

قال ابن القيم : « يشير الشيخ - رحمه الله وقدّس روحه - بذلك إلى حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات بإجراء أخبارها على ظواهرها ؛ وهو اعتقاد مفهومها المتبادِر إلى أذهان العامَّة . ولا يعني بالعامَّة الجهَّال ، بل عامَّة الأُمَّة .

والعصمة النافعة في هذا الباب : أن يُوصف الله بما وصفَ به نفْسَه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ، ولا تمثيل ، بل نثبتُ له الأسماء والصفات وننفي عنه مشابهة المخلوقات . فيكون إثباتُك منزَّهًا عن التشبيه ، ونفيُك منزَّهًا عن التعطيل ، فمَن نفى حقيقة « الاستواء » فهو معطِّل ، ومَن شبَّهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثِّل ، ومَن قال : ليس كمثْلِه شيءٌ ؛ فهو الموحِّد المنزِّه .

وفي قوله : « لا يتجاوز ظاهرها تمثيلًا » : إشارة لطيفة ؛ وهي أن ظواهرها لا تقتضي التمثيل ، كما تظنُّه المعطِّلة النُّفَاة .

وأما قوله : « ولا يدِّعي عليها إدراكًا » : أي لا يدَّعي عليها استدراكًا ولا فهمًا ولا معنًى غيرَ فهم العامَّة ، كما يدَّعيه أرباب الكلام .

وقوله : « ولا توهمًا » : أي لا يعدِل عن ظواهرها إلى التوهُّم .

و« التوهُّم » نوعان :

توهُّمُ كيفيَّة : لا تدلُّ عليه ظواهرها .

أو توهم معنًى غير ما تقتضيه ظواهرها . وكلاهما توهُّمٌ باطل ، وهما توهم

---

(١) مدارج السالكين ٢/٨٥ .

تشبيهٍ وتمثيلٍ ، أو تحريفٍ وتعطيلٍ .

وهـذا الكلام من شيخ الإسلام يُبيِّن مرتبته من السنة ، ومقداره في العلم »[١] .

« **والدرجة الثالثة** : « صيانة الانبساط أن تشوبَه جُرْأة ، وصيانة السرور أن يداخلَه أَمْنٌ » : فيحذر من شائبة الجـرأة ؛ وهي ما يخرجه عن أدب العبودية ، ويُدخله في الشَّطح ، كشطح من قال : « سبحاني » . وهو أبو يزيد البسطامي ، وهو القائل أيضًا : « ما الجنة؟! إنها لعبة صبيان » . وقوله عن « النار » : « ما النار ؟! أستطيع أن أبصق عليها فأُطفئها » . وكقول دجَّال الصوفية الحلَّاج :

أَلَا أبـلــغْ أحبَّـائي بـأنـي ركبتُ البحرِ وانكسَرَ السفينهْ
على دينِ الصليبِ يكونُ موتي فلا البطحَـا أُريـدُ ولا المدينـهْ

وهذه الشطحات المعروفة المخرِجة عن أدب العبودية والتي نهاية صاحبها أن يُعذر بزوال عقله ، وغلبَة سُكْر الحال عليه ، وقد تُفضي بصاحبها إلى الردَّة ، كما هو حال الحلَّاج الذي أفتى علماءُ المسلمين بزندقته وردَّته وقتلوه .

« فلا بدَّ من مقارنة التعظيم والإجلال لبسط المشاهدة ، وإلَّا وقع في الجرأة ولا بدَّ ، فالمراقبة تصونه عن ذلك .

وينبغي لصاحب الانبساط والمشاهدة أن لا يأمن في حال سروره المكْرَ ، بل يصون سرورَه وفرحه عن خطفات المكْرِ بخوْفِ العاقبة المطويِّ عنه علمُ غيْبِها ، ولا يغترّ »[٢] .

* * *

(١) مدارج السالكين ٢/٨٥ - ٨٧ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٨٩ .

الفصل الثامن
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الغَيْرَةِ

« غيْرةُ العبدِ من نفسِهِ أهمُّ مِن غيْرتِهِ من غيره ؛ فإنك إذا غرْتَ من نفسك صحَّتْ لك غيرتُك لله من غيْرك ، وإذا غرتَ له من غيرِك ولم تغِرْ من نفسك ، فالغيرة مدخولة معلولة ولا بدَّ »

[ابن قيِّم الجوزيّة]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الغيْـرَة □

اعلمْ يا أخي أنَّ الغَيْرَة بحسب قوَّة المحبَّة ، وأصلُها الحميَّة والأَنَفَة .

قال شيخ الإسلام الهرويّ : « الغيرة : سقوط الاحتمال ضنًّا ، والضيقُ عن الصبر نفاسة » .

قال ابن القيم : « أي عجْز الغيُور عن احتمال ما يشغله عن محبوبه ، ويحجبه عنه ؛ ضنًّا به – أي بُخْلًا به – أن يعتاض عنه بغيره ، وهذا البخل : هو محْضُ الكرَم عند المحبِّين الصادقين .

وأمَّا « الضيق عن الصبر نفاسة » : فهو أن يضيق ذرْعُه بالصبر عن محبوبه ، وهذا هو الصبر الذي لا يُذمُّ من أنواع الصبر سواه ، أو ما كان من وسيلته . والحامل له على هذا الضيق : مغالاته بمحبوبه ، وهي النفاسة ؛ فإنه – لمنافسته ورغبته – لا يسامح نفسه بالصبر عنه . والمنافسة هي كمال الرغبة في الشيء ومنع الغير منه إن لم يُمدح في المشاركة ، والمسابقة إليه،إن مُدِحتْ فيه المشاركة ؛ قال تعالى : ﴿ **وفي ذلكَ فلْيتنافسِ المتنافِسون** ﴾ [المطفِّفين : ٢٦] »[(١)].

وقد قال الله تعالى – حاكيًا عن نبيِّه سليمان عليه السلام – : ﴿ **رُدُّوها عليَّ فطفِقَ مسحًا بالسُّوقِ والأعناق** ﴾ [ص : ٣٣] . فقد كان « سليمان عليه السلام يحب الخيْل ، فشغله استحسانُها ، والنظر إليها – لمَّا عُرِضت عليه – عن صلاة النهار ، حتى توارتِ الشمس بالحجاب ، فلحقتْه الغيرة لله من الخيل ، إذ استغرقه استحسانها والنظر إليها عن خدمة مولاه وحقِّه ، فقال : ﴿ **ردُّوها عليَّ** ﴾ ؛ فطفِق يضرب أعناقها وعراقيبَها بالسيف غيرةً لله »[(٢)] .

« والغيرة نوعان : غيرة للمحبوب ، وغيرة عليه .

---

(١) ، (٢) مدارج السالكين ٣/٤٧ – ٤٨ .

فأما الغيرة له : فهي الحميَّة له والغضَب له إذا استُهين بحقِّه وانتُقِصت حرمته ، فيغضب له المحبُّ ويَحمىٰ ، وتأخذه الغَيْرة له بالمبادرة إلى التغيير ومحاربة مَن آذاه ، فهذه غَيْرة المحبِّين حقًّا ، وهي من غيرة الرسل وأتباعهم لله ، ممَّن أشرك به واستحلَّ محارمه وعصىٰ أمْره .

وهذه الغيرة هي التي تحمِلُ على بذْل نفسِ المحبِّ ومالِه وعِرضْه لمحبوبه ؛ حتى يزول ما يكرهه ، فهو يغار لمحبوبِهِ أن تكون فيه صفة يكرهها محبوبُه ويمقته عليها ، أو يفعل ما يُبغضه عليه ، ثم يَغار له بعد ذلك أن يكون في غيره صفة يكرهها ويُبغضها . والدِّين كلُّه في هذه الغيرة ، بل هي الدين .

وما جاهد مؤمنٌ نفسَه وعدوَّه ، ولا أمر بمعروف ولا نهىٰ عن منكر إلَّا بهذه الغيْرة ، ومتى خَلَتْ من القلب خلا من الدين ، فالمؤمن يغار لربِّه من نفسه ومن غيره إذا لم يكن له كما يحبُّ ، والغيرة تصفِّي القلب وتُخرج خبَثه كما يُخرج الكِيرُ خبَثَ الحديد »[١] .

قال ابن القيم : « (الغيرة) منزلة شريفة عظيمة جدًّا ، جليلة المقدار ، ولكن الصوفية المتأخِّرين منهم من قلَبَ موضوعَها ، وذهب بها مذهبًا آخر باطلًا سمَّاه « غيرة » ، فوضعها في غير موضعها ، ولُبِّس عليه أعظم تلبيس ، كما ستراه .

أنواع الغَيْرة :

« والغيرة » نوعان : غيرة من الشيء ، وغيرة على الشيء .

والغيرة من الشيء : هي كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك .

والغيرة على الشيء : هي شدَّة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك في الفوز به .

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية ص ٣٠١ - ٣٠٢ ، تحقيق : د . السيد الجميلي - نشر : دار الكتاب العربي .

و« الغيرة » أيضًا نوعان : غيرة العبد من نفسه على نفسه ، كغيرته من نفسه على قلبه ، ومن تفرُّقه على جمعيَّته ، ومن إعراضه على إقباله ، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة . وهذه الغيرة خاصيَّة النفس الشريفة الزكيَّة العلوية . وما للنفس الدنيَّة المهينة فيها نصيبٌ . وعلى قدر شرف النفس وعلوِّ هِمَّتها تكون هذه الغيرة .

ثم « الغيرة » أيضًا نوعان : غيرة الحقِّ تعالى على عبده . وغيرة العبد لربِّه لا عليه ؛ فأما غيرة الربِّ على عبده : فهي أن لا يجعله للخلق عبدًا ، بل يتخذه لنفسه عبدًا ، فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين ، بل يُفرده لنفسه ويضنُّ به على غيره ، وهذه أعلى الغيرتَيْن .

وغيرة العبد لربِّه ، نوعان أيضًا : غيرة من نفسه ، وغيرة من غيره ؛ فالتي من نفسه : أن لا يجعل شيئًا من أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه ؛ والتي من غيره:أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهِكون ، ولحقوقه إذا تهَاون بها المتهاوِنون .

وغيرة العبد من نفسه : أهمُّ من غيرته من غيره ، فإنك إذا غِرْتَ من نفسك صَحَّت لك غيرتك لله من غيرك ، وإذا غِرْتَ له من غيرك ، ولم تغرْ من نفسك ، فالغيرة مدخولة معلولة ولا بدَّ . فتأمَّلْها وحقِّقِ النظر فيها »[(١)] .

الغيرةُ مِن صفاتِ الله عزَّ وجلَّ :

قال ابن القيم : « الغيرة من صفات الله عزَّ وجلّ ، والأصل فيها قوله تعالى : ﴿ **قل إنما حرَّم ربيَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطَن** ... ﴾ الآية [الأعراف : ٣٣] .

ومن غيرته تعالى لعبدِهِ وعليه : يحميه مما يضرُّه في آخرته ؛ كما في الترمذي

(١) مدارج السالكين ٣/٤٣ - ٤٤ .

وغيره مرفوعًا : « إن الله لَيحمي عبدَه المؤمنَ من الدنيا كما يحمي أحدُكم مريضه من الطعام والشراب » .

ولفظ أحمد عن محمود بن لبيد مرفوعًا : « إن الله لَيحمي عبدَه المؤمن من الدنيا وهو يحبُّه ، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب ؛ تخافون عليه »[1] .

وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال في خطبة الكسوف : « والله يا أمة محمد ، ما أحد أغيَرَ من الله أن يزني عبدُه أو تزني أَمَتُه » . وفي ذكرِ هذا الذنْب بخصوصه في خطبة الكسوف سِرٌّ بديع ، فغضُّ البصر يُورث نورًا في القلب ، ولهذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الأمر به وبين ذكر آية النور ، فجمع الله سبحانه بين نور القلب بغضِّ البصر ، وبين نوره الذي مثَّله بالمشكاة لتعلُّق أحدهما بالآخر،فجمع النبي ﷺ بين ظلْمة القلب بالزنا وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس ، وذكَر أحدَهما مع الآخر .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس شيءٌ أغْيَرَ من الله ، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدحُ من الله ، من أجل ذلك أثنى على نفسه ، ولا أحد أحبّ إليه العذْر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل » .

وفي الصحيح عنه من حديث أبي هريرة : « إن الله يغارُ والمؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حَرَّم عليه »[2] .

وعند مسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن يغار والله أشد غيرًا » .

---

(١) صحيح : رواه أحمد والحاكم ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨١٠
(٢) رواه الشيخان وأحمد والترمذي .

ومِن غيرةِ الله على عبْدِه :

والله سبحانه وتعالى يَغار عَلَى قلب عبده أن يكون مُعَطَّلًا من حبِّه وخوْفه ورجائه ، وَأن يكون فيه غيرُه ؛ فالله سبحانه وتعالى خلَقه لنفسه واختاره من بين خلقه ، كما في الأثر الإلٰهي : « ابنَ آدم،خلقتُك لنفسي وخلقتُ كلَّ شيءٍ لك ، فبحقِّي عليك ، لا تشتغلْ بما خلقتُه لك عن ما خلقتُك له » . وفي أثر آخر : « خلقتُك لنفسي فلا تلعبْ ، وتكفَّلتُ لك برزقك فلا تتعبْ . يا ابنَ آدم ، اطلبني تجدْني ، فإن وجدتَني وجدتَ كلَّ شيء ، وإن فُتُّكَ فاتك كلُّ شيء ، وأنا خيرٌ لك من كل شيء » . ويغار على لسانه أن يتعطَّل من ذكره ويشتغلَ بذكر غيره ، ويغار على جوارحه أن تتعطّل من طاعته وتشتغل بمعصيته ، فيقبح بالعبد أن يغار مولاه الحقُّ على قلبه ولسانه وجوارحه ، وهو لا يغار عليها .

وإذا أراد الله بعبده خيرًا سلَّط على قلبه - إذا أعرض عنه واشتغل بحبِّ غيره - أنواع العذاب حتى يرجع قلبه إليه ، وإذا اشتغلتْ جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاءِ ؛ وهذا من غيرته سبحانه وتعالى عَلَى عبده ، وكما أنه سبحانه وتعالى يغار عَلَى عبده المؤمن فهو يغار له ولحُرْمته ، فلا يُمكِّن المفسدَ أن يتوصَّل إلى حُرمته ، غيرةً منه لعبده ؛ فإنه سبحانه وتعالى يدفع عن الذين آمنوا ، فيدفع عن قلوبهم ، وجوارحهم ، وأهلهم ، وحريمهم ، وأموالهم ، يتولّى سبحانه الدفْع عن ذلك كلّه ؛ غَيْرَةً منه لهم كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم . والله تعالى يغار عَلَى إمائه وعَبيده من المفسدين شرعًا وقَدَرًا ، ومن أجل ذلك حَرَّم الفواحش وشرَّع عليها أعظمَ العقوبات وأشنعَ القِتَلاتِ ؛ لشدَّة غَيْرته على إمائه وعبيده ، فإن عُطِّلت هذه العقوباتُ شرعًا أجراها سبحانه قَدَرًا .

غيرةُ الله علىٰ توحيدِه وكلامِه :

ومن غَيْرَته سبحانه وتعالى : غَيْرَتُه عَلَى توحيده ودينه وكلامه أن يحظى

به مَن ليس مِن أهلِه ، بل حالَ بينهم وبينه غيرةً عليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام : ٢٥]،ولذلك ثبَّط سبحانه أعداءه عن متابعة رسوله واللّحاق به غَيْرَةً ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ ٱللهُ ٱنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ولأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وٱللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة : ٤٦ - ٤٧] ، فغار سبحانه عَلَى نبيِّه ﷺ وأصحابه أن يخرج بينهم المنافقون فيسعَوْا بينهم بالفتنة فثبطهم وأقعدهم عنهم .

قال تعالى : ﴿ وإذا قرأتَ القرآنَ جعلْنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] ؛ « قال السري لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ حجاب الغيرة . ولا أحد أغير من الله ؛ إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلًا لفهْم كلامه ، ولا أهلًا لمعرفته وتوحيده ومحبَّته ، فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجابًا مستورًا عن العيون ، غيرة عليه أن يناله من ليس أهلًا له »[(١)] .

نوْعٌ لطيفٌ من غيرة الربِّ سبحانه وتعالى :

قال ابن القيم : « وهاهنا نوع من غيرة الربِّ سبحانه وتعالى لطيف ، لا تهتدي إليه العقول ؛ وهو أن العبد يُفْتَحُ له بابٌ من الصفاء والأنس والوجود ، فيساكنه ويطمئنّ إليه وتلتذُّ به نفسُه ، فيشتغل به عن المقصود ، فيغار عليه مولاه الحقُّ فيخلّيه منه ، ويَرُدُّه حينئذ إليه بالفقر والذِّلَّة والمسكَنة ، ويُشهده غايةَ فقره وإعدامه ، وأنه ليس معه من نفسه شيء ألبَتَّة ، فتعود عزَّةُ ذلك الأُنْس والصفاء والوجود ذِلةً ومسكنة وفقرًا وفاقه ، وذرَّةٌ مِن هذا : أحبُّ إليه سبحانه وتعالى ، وأنفعُ للعبد من الجبال الرواسي ، من ذلك الصفاء والأنس المجرَّد

(١) هذا قوله في مدارج السالكين ٤٣/٣ ، وفي روضة المحبين ص ٣١١ نسبة إلى الشبلي .

عن شهود الفقر والذلَّة والمسكنة . وهذا بابٌ لا يتسع له قلب كلِّ أحَدٍ »[(١)].

الغيرة على دقيقِ العلْمِ أن يُذكَر لمَن لا يفهمه :

« ومن الغَيْرة : الغَيْرة على دقيق العلْم وما لا يدركه فَهْمُ السامع أن يُذْكر له ؛ ولهذه الغيرة قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : حدِّثوا الناسَ بما يعرفون ، أتحبُّون أن يُكذَّب الله ورسوله ؟! وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ما أنت بمحدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم ، إلَّا كان لبعضهم فتنةً . فالعالم يغار على علمه أن يَبْذُلَه لغير أهلِه ، أو يضَعه في غير محلِّه ، كما قال عيسى بن مريم ﷺ : يا بني إسرائيل ، لا تمنعوا الحكمة أهلَهَا فتظلموهم ، ولا تبذلوها لغير أهلها فتظلموها .

وسُئل ابنُ عباس رضي الله عنهما عن تفسير قوله تعالى : ﴿ **اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ﴾ [الطلاق : ١٢] ؛ فقال للسائل : وما يُؤَمِّنُك أني إنْ أخبرتُك بتفسيرها كفرتَ ؟ فإنك تكذِّب به ، وتكذيبُك بها كفرُك بها .

فالمسألة الدقيقةُ اللطيفةُ التي تُبْذَلُ لغير أهلها ، كالمرأة الحسناء التي تُهْدَى إلى ضريرٍ مُقْعَد ؛ كما قيل :

خودٌ تُزَفُّ إلى ضريرٍ مُقعَدٍ ... يا محنةَ الحسناءِ بالعميانِ »[(٢)] .

ويرحم الله الشافعي حين يقول :

* أأنثر درًّا بين سارِحةِ الغنم *

ومن قال : « لا تقلِّدوا الحكمة أعناقَ الخنازيرِ فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلَها فتظلموهم » .

---

(١) روضة المحبين ص ٣١١ .

(٢) روضة المحبين ص ٣١٢ .

ويرحم الله مَن قال :

عليَّ نحْتُ المعاني من معادنها   وما عليَّ إذا لم تفهَمِ البقرُ

ثم يحجب هذا المعاني غيرة عليها من البقر .

وكان أبو علي إذا وقع شيءٌ في خِلال مجلسه من تشويش الوقت ، يقول : هذا من غيرة الحقِّ . يريد أن لا يجري ما يجري من صفاء الوقت .

نعم .. هناك من الناس من يكون جافيًا جِلفًا غليظًا بليدَ الفهم ، كحال الأعرابي الذي بايعه رسول الله ﷺ فرسًا ، فاستقاله الأعرابيُّ فأقاله ، فقال له الأعرابيُّ : عمَّرك الله،فمن أنت ؟ فقال له النبي ﷺ : « امرؤٌ من قريش » . فقال له بعض الحاضرين : كفاك جفاء أن لا تعرف نبيَّك !! فأحبَّ النبيُّ ﷺ أن يعرِّفه جفاءَه وجَلافتَه بطريقٍ لا يبكِّته بها ، ويعرف من نفسه أنه أهلٌ لذلك . فكأنه يقول بلسان الحال : كفاك جفاءً أن تجهلني فتسألني من أنا !! فلما فهِم الصحابي ذلك بلطف إدراكه ودِقَّة فهمه ، فباداه به وقال : كفاك جفاءً أن لا تعرف نبيَّك !!

كلامٌ حسنٌ :

ذكر القشيري عن الشِّبْلِي أنه قال : « غيرة الإلٰهية على الأنفاس أن تُضيَّع فيما سوىٰ الله » .

قال ابن القيم : وهذا كلام حسن[١] .

وقال السَّريُّ لرجل عارفٍ : بي علَّةٌ باطنةٌ فما دواؤُها ؟ قال : يا سَريّ ، الله غيّورٌ ؛ لا يراك تُساكن غيرَه فتسقط من عينه . فهذه غَيْرة صحيحة .

سُنَّةُ الحقِّ مع أوليائهِ أنْ يَغار على قلوبهم إذا ساكَنتْ غيرَه :

قال ابن القيم : « مِن سنة الحقِّ مع أوليائه : أنهم إذا ساكنوا غيرًا ، أو

---

(١) روضة المحبّين ص ٣١٦ .

لاحظوا شيئًا ، أو صالحوا بقلوبهم شيئًا يشوِّش عليهم ذلك ، فيغار على قلوبهم بأن يُعيدها خالصةً لنفسه فارغةً ؛ كآدم عليه السلام : لمَّا وطَّن نفسه على الخلود في الجنة أخرجه من الجنة ، وإبراهيم الخليل عليه السلام : لمَّا أعجبه إسماعيل أمَره بذبْحه حتى أخرجه من قلبه ، فلما أسلما وتلَّه للجبين وصفَّى سرَّه منه ، أمره بالفِداء عنه .

وقال بعضهم : احذروه ؛ فإنه غيُور لا يحبُّ أن يرى في قلب عبده سواه .

وقيل : الْحقُّ تعالى غيُورٌ ، ومن غَيْرته أنه لم يجعل إليه طريقًا سواه »[١] .

لطيفةٌ :

« ومِلاك الغَيرة وأعلاها ثلاثة أنواع : غيْرةُ العبد لربِّه أن تُنْتَهكَ محارِمُهُ وتُضيَّعَ حدودُه . وغيرتُه عَلَى قلبه أن يسكن إلى غيره وأن يأْنس بسواه . وغيرتُه عَلَى حُرْمَتِه أن يتطلَّع إليها غيرُه . فالغيرةُ التي يحبُّها الله ورسوله دارت عَلَى هذه الأنواع الثلاثة ، وما عداها فإنها مِن خِدَع الشيطان »[٢] .

غيْرةُ العبدِ علىٰ حُرْمتِهِ وحُرُمَاتِ المسلمين :

عن سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله ، أرأيتَ إنْ وجدتُ رجلًا مع امرأتي،أُمهله حتي آتي بأربعة شهداء ؟ فقال النبي ﷺ : « نعم » . فقال : والذي بعثك بالحقِّ ، إن كنتُ لَأُضربه بالسيف غير مُصْفحٍ[٣] . فقال النبي ﷺ : « أتعجبون من غَيْرَة سعد ؟! لأنا أغْيَرُ منه ، والله أغير مني »[٤] .

(١) روضة المحبين ص ٣١٦ .
(٢) روضة المحبين ص ٣٢٠ .
(٣) صفح بالسيف فلانًا : إذا ضربه بعرْضه لا بحدِّه .
(٤) رواه الشيخان .

غيْرة عمر بن الخطابِ رضي الله عنه :

كان عمر رضي الله عنه شديدَ الغَيرَة ، وكانت امرأته تخرُج فتشهد الصلاة فيكره ذلك ، فتقول : إن نهيتَني انتهيتُ . فيسكت ؛ امتثالًا لقول رسول الله ﷺ : « لَا تَمْنَعُوا إمَاء الله مَسَاجِدَ الله » ، وهو الذي أشار على النبي ﷺ أن يَحْجُب نساءه ، وكان عادة العرب أن المرأة لا تحتجب ؛ لنزاهتهم ونزاهة نسائهم ، ثم قام الإسلام على ذلك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو حجبتَ نساءَك ؛ فإنه يدخل عليهنَّ البَرُّ والفاجر ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ آية الحجاب .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « بينما أنا أسير في الجنة فإذا أنا بقصر ، فقلتُ : لمن هذا يا جبريل ؟! ورجوتُ أن يكون لي . قال:قال : لعمر . قال : ثم سِرتُ ساعة ، فإذا أنا بقصرٍ خيرٌ من القصر الأول . قال : فقلتُ : لمن هذا يا جبريل ؟ ورجوتُ أن يكون لي . قال : قال : لعمر . وإنَّ فيه لَمن الحُور العِين يا أبا حفص . وما منعنى أن أدخله إلّا غيرتُك » . قال : فاغرورقتْ عينا عمر ، ثم قال : أما عليك فلم أكن لِأُغار[(١)] .

ورُفِعَ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل قد قتل امرأته ومعها رجلًا آخر ، فقال أولياءُ المرأة : هذا قتل صاحبتَنا . وقال أولياءُ الرجل : إنه قد قتل صاحبنا . فقال عمر رضي الله عنه : ما يقول هؤلاء ؟ قال : ضرب الآخر فَخِذَي امرأته بالسيف ؛ فإن كان بينهما أحدٌ فقد قتلته . فقال لهم عمر : ما يقول ؟ فقالوا : ضرب بسيفه فقطع فَخِذَي المرأة فأصاب وسط الرجل فقطعه باثنتين . فقال عمر رضي الله عنه : إن عادوا فَعُدْ . ذكره سعيد بن منصور في سننه . وأخذ بهذا جماعة من الفقهاء منهم الإمام أحمد وأصحابه رحمهم الله تعالى ؛ قالوا : لو وجد رجلًا يزني بامرأته فقتلهما فلا قصاص عليه ولا

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد ، وأبو يعلى ، وابن أبي عاصم مختصرًا في السنة .

ضمان ، إلَّا أن تكون المرأة مُكْرَهَة فعليه القصاص بقتلها ، ولكن لا يُقبل قولُ الزوج إلا بتصديق الولي أو بيّنة . واختلفت الرواية عن الإمام أحمد في عدد البيِّنة؛فرُوِيَ عنه : أنها رجلان . ويروى عنه : لا بدَّ من أربعة .

وذكر سعيد بن منصور عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه : أنه سُئل عن رجل دخل بيتَه ، فإذا مع امرأته رجلٌ ، فقتلها وقتله ، فقال عليّ رضي الله عنه : إن جاء بأربعة شُهَداء وإلَّا دُفع بِرُمَّتِه[1] .

ووجهُ رواية الاكتفاء باثنين : أن البينةَ ليست على إقامة الحدّ ، ولكن عَلَى وجوب السبب المانع من القصاص ؛ فإن الزوج كان له أن يقتل المتعدّيَ عَلَى أهله ، ولكن لما أنكر أولياء القتيل ، طُولِبَ القاتلُ بالبيِّنة فاكتُفِيَ برجلين .

ورُفع إلى عمر رضي الله عنه رجلٌ قد قتل يهوديًّا فسأله عن قصته فقال : إن فلانًا خرج غازيًا وأوصاني بامرأته ، فبلغني أن يهوديًا يختلف إليها فكمنتُ له حتى جاء ، فجعل ينشد ويقول :

وأبيضَ غـرَّه الإسـلام مِنِّي ... خَلَـوْتُ بعِرْسِهِ ليلَ التَّمـامِ
أبيتُ عَلَى ترائبها ويُمسـي ... عَلَى جَرْدَاءَ لاحقةِ الْحِـزَامِ
كأنَّ مواضعَ الرَّبَلاتِ منها ... فِئـامٌ ينهضـونَ إلـى فِئَـامِ

فقمتُ إليه فقتلتُه . فأهدر عُمَر دَمَه .

وليس في هذَيْن الأمْرَيْن مطالبة عُمَر رضي الله عنه القاتل بالبيِّنة ؛ إذْ لعلَّه تيقَّن ذلك أو أقرَّ به الوليُّ . والصواب : أنه متى قام عَلَى ذلك دلالةٌ ظاهرةٌ لا تحتمل الكذب،أغنتْ عن البيِّنة .

وذكر سفيان بن عُيَيْنَةَ عن الزهري ، عن القاسم بن محمد ، عن عبيد ابن عُمَير : أن رجلًا أضاف إنسانًا من هُذَيل ، فذهبتْ جاريةٌ لهم تحتطب ،

(١) الرمّة : هي قطعة الحبل يُوثق بها الأسير أو القاتل إذا اقتيد للقتْل .

فأرادها عن نفسها ، فرمته بِفِهْرٍ فقتلتْه ، فرُفع ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ذاك قتيلُ الله ، لا يُودى أبدًا .

وذكر حَمَّاد بن سَلَمة عن القاسم بن محمد : أن أبا السيَّارة أولع بامرأة أبي جُنْدَب يراودها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل ؛ فإن أبا جُنْدَب إن يعلمْ بهذا يَقْتُلْك . فأبى أن يَنْزِع ، فكلَّمتْ أخا أبي جُندب ، فكلَّمه فأبى أن يَنْزِع ، فأخبرت بذلك أبا جُندب ، فقال أبو جُندب : إني مخبر القوم أني أذهب إلى الإبل ، فإذا أظلمتْ جئتُ فدخلتُ البيت ، فإن جاءك فأدخليه عليَّ . فودَّع أبو جُندب القوم وأخبرهم : إني ذاهبٌ إلى الإبل . فلما أظلم الليل جاء فكمن في البيت ، وجاء أبو السيَّارة وهي تطحن في ظلِّها ، فراودها عن نفسها ، فقالت : وَيْحَك ! أرأيتَ هذا الأمر الذي تدعوني إليه هل دعوتُك إلى شيء منه قطُّ ؟ قال : لا ، ولكن لا أصبر عنك . قالت : ادخلِ البيت حتى أتهيَّأ لك . فلما دخل البيتَ أغلق أبو جُندب الباب ، ثم أخذه فدقَّه من عنقه إلى عَجْبِ[1] ذَنَبه ، فذهبت المرأة إلى أخي أبي جُندب فقالت : أَدرِكِ الرجلَ ؛ فإن أبا جُندب قاتلهُ . فجعل أخوه يُناشده فتركه ، وحمله أبو جُندب إلى مدْرَجةِ الإبل فألقاه ، فكان إذا مرَّ به إنسان قال له : ما شأنك ؟ فيقول : وقعتُ من بَكْرٍ[2] فحطَّمني . وبلغ الخبرُ عُمَرَ رضي الله عنه،فأرسل إلى أبي جُندب فأخبره بالأمر على وجهه ، فأرسل إلى أهل المرأة فصدَّقوه ، فجلد عمر أبا السيارة مائة جلدة وأبطل دِيَتَه .

وذكر العباس بن هشام الكلبيّ،عن أبيه أنَّ عمرو بن حُمَمَةَ الدَّوْسِيّ أتى مكة حاجًّا ، وكان من أجمل العرب ، فنظرتْ إليه امرأةٌ فقالت : لا أدري : وجهُهُ أحسن أم فرسه ؟ وكانت له جُمَّةٌ[3] تُسمَّى : الزينة ، فكان إذا جلس

---

(١) العجب:مؤخر كلِّ شيء ، وعَجْب الذَّنَب : هو جزء في أصل الذنب عند رأس العُصْعُص .

(٢) البكر : يُطلق على الفتي من الإبل ، والجمع : أبكر وبكران ، كما يُقال للأنثى : بكرة .

(٣) الجمَّة : مجتمع رأس الشعر .

مع أصحابه نشَرَها ، وإذا قام عَقَصَهَا[(١)] ، فقالت له المرأة : أين منزلك ؟ قال : نجْد . قالت : ما أنت بنجديٍّ ولا تِهاميٍّ ، فاصدقْني . فقال : رجلٌ من أهل السَّراة فيما بين مكة واليمن . ثم أشار إليها : ارْتَدفي خلفي . ففعلت ، فمضى بها إلى السَّراة وتبعها زوجُها ، فلم يلحقها فرجع ، فلما استقرَّت عنده ، قطَع عروقَها وقال : والله لا تتبعين بعدي رجلًا أبدًا . ثم ردَّها إلى زوجها عَلَى تلك الحال .

غيْرة الزبير بن العوَّام رضي الله عنه :

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت : تزوَّجني الزبير رضي الله عنه ، وما له في الأرض مالٌ ولا مملوك ولا شيء غير فرسه . قالت : فكنتُ أعلف فرسه وأكفيه مئونته وأسُوسُه ، وأدقُّ النوى للناضحة ، وأعلفه وأسقيه الماء ، وأخرز غربه ، وأعجن ، ولم أكن أُحسن أخبزُ ، فكان يخبز لي جاراتٌ من الأنصار ، وكنَّ نسوةَ صدق . قالت : وكنت أنقل النوىٰ من أرض الزبير التي أقطعَهُ رسولُ الله ﷺ على رأسي ، وهي على ثُلُثَي فرسخ . قالت : فجئتُ يومًا والنوىٰ على رأسي ، فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نفرٌ من أصحابه فدعا لي ، ثم قال « أخ أخ » ؛ ليحملَني خلفه ، فاستحييتُ أن أسير مع الرجال ، وذكرتُ الزبير وغيرتَه . قالت : وكان مِن أغيَر الناس . قالت : فعرف رسولُ الله ﷺ أني قد استحييتُ فمضىٰ ، فجئتُ الزبير فقلتُ : لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوىٰ ، ومعه نفر من أصحابه ، فأناخ لأركبَ معه ، فاستحييتُ وعرفتُ غيرتك ، فقال : والله لحملُك النوى كان أشدَّ عليَّ مِن ركوبك معه !! قالت : حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم ، فكفتْني سياسة الفرس ، فكأنَّما أعتقني[(٢)] .

(١) عقَص الشعر : ضفره ولواه على رأسه .
(٢) حياة الصحابة للكاندهلوي ٢/٦٩١ .

غيْرة مُعاذ بن جبَل رضي الله عنه :

ذكر الخرائطيُّ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : أنه كان يأكل تُفَّاحًا ومعه امرأته ، فدخل عليه غلامٌ له،فناولتْه تفَّاحةً قد أكلت منها،فأوجعَها معاذٌ ضرْبًا[١].

غيرة عبدِ الله بن عُمَر رضي الله عنهما :

« ذكر حمَّاد بن زيد عن أيُّوب ، عن ابن أبي مُلَيْكة : أن ابن عمر رضي الله عنهما،سمع امرأته تكلِّم رجلًا من وراء جِدارٍ ، بينها وبينه قَرابةٌ لا يعلمها ابنُ عمر ، فجمع لهَا جرائد[٢] ثم ضربهَا حتى أضبَّتْ حسيسًا »[٣] .

ولله درُّ من قال عن نسوة الصالحين :

يعزُّ علٰى مَن يطرقُ البابَ لفظُها ... جوابًا فلا عقْـدًا تراه ولا حَلَّا
يُطيلُ وُقوفًا لا يُجَابُ مُحَرَّمًا ... عليها كـلامُ الأجنبيِّ وإنْ قَلَّا

ويرحم الله مَن قال في غيرته على زوجته :

أغـارُ عليـكِ مِـن نفسي ومنّي ... ومنكِ ومـن مكانِـكِ والزمـانِ
ولـوْ أني خبـأْتُـك فـي عيـوني ... إلـى يـومِ القيـامـةِ مـا كفـاني

ولله درُّ عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهَه !! لمّا رأى فاطمةَ رضي الله عنها تستاكُ ؛ غارَ عليها مِن أن يمسَّ السِّواكُ ثغْرَها فأنشأ يقول :

لقد فُزتَ يا عُودَ الأراكِ بثغْرِها ... وما خفتَ ياعودَ الأراكِ أَرَاكَا
لو كنتَ مِن أهلِ القتالِ قتلتُكَ ... ومـا لي يـا سـواكُ سِـواكـا

وفي واقعنا : « طولُ السُّهاد وقرْبُ الوسادِ » :

في قصـور الكُبَـراء – بل في خراباتهم – ما أكثر الخدم والحشَم مـن الرجال ، مِن سائـق وخادم وطبَّاخ .... يخلو الواحـد بسيِّداتِ البيـوت ، وصاحب البيت لاهٍ في أمور دنياه .... لا يفكر فيما تفكِّر فيه النساء ولا فيما

(١) روضة المحبين ص ٣٠٦ .

(٢) الجرائد : جمع جريدة ، وهي قضبان النخل – يجرّد ويُقلمُ عنها السَّعَف .

(٣) الحسيس : الصوت الخفي ، وأضبَّ الشيء : أخفاه . روضة المحبين ص ٣٠٦ .

يفكّر فيه الخادم ... وكأنَّ نساءَه معصومات ، ولا يدري أنه « ما خلا رجل بامرأة إلا وثالثهما الشيطان » ، وأنَّ النساء حبائِل الشيطان ، وأنَّ لذَّة الرجل عندهنَّ ولذاتهنَّ عند الرجال ، لا يخالف في ذلك إلا معتوه .

إن امرأة العزيز لم تسألْ عن شرفها وكرامتها ، ولا شرف زوجها ، بل داستهما ببغل الشهوة دوْسًا .

إن الله لم يذكر قصةَ امرأة العزيز إلَّا ليحترس الرجال على نسائهم من الخَدَم .

قالوا لامرأة شريفة راودت خادمها حتى فعل معها الفاحشة : لِمَ هذا ؟ قالت: طول السُّهَاد وقرْبُ الوساد !! فاحذرْ .

فالحافظاتُ الغيْب منهنَّ التي قد أصبحت فردًا مِنَ النسوانِ
أمَّا جميلاتُ الوجوهِ فخائنا تُ بُعُولِهنَّ وهُنَّ للأخدانِ

نفيسةٌ هامَّةٌ :

قال ابن القيم في « روضة المحِّبين » (٣٢٠ - ٣٢١) : « فإن قيل : فمِن أيِّ الأنواع تَعُدُّون غيْرةَ فاطمة رضي الله عنها ابنةِ رسول الله ﷺ على عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، لمَّا عزم عَلَى نكاح ابنةِ أبي جهل ، وغيْرةَ رسول الله ﷺ لها ؟ قيل : من الغيرة التي يُحبُّها الله ورسوله ، وقد أشار إليها النبي ﷺ بأنها بُضْعةٌ[1] منه ، وأنه يُؤْذيه ما آذاها ، ويُريبه ما أرابها[2] ، ولم يكن يَحْسُنُ ذلك الاجتماعُ ألبَتَّة ؛ فإن ابنةَ رسول الله ﷺ لا يَحْسُن أن تجمع مع ابنة عدوِّه عند رجلٍ ؛ فإن هذا في غاية المنافرة ، مع أن ذكر النبي ﷺ صِهْرَه الذي حدَّثه فصدَّقه ووعدَه فوفَّى له ؛ دليلٌ على أن عليًّا رضي الله عنه كان مشروطًا عليه في العَقد،إما لفظًا وإما عُرْفًا وحالًا،أن لا يُريب فاطمة ولا يُؤْذيهَا

(١) البضْعة : الجزء : وهي قطعة اللحم .
(٢) أرابها : أقلقها .

بـل يُمسكهـا بالمعروف ، وليس من المعروف أن يَضُمَّ إليها ابنة عـدوٍّ الله ورسوله ويغيظَها بها ، ولهذا قال النبي ﷺ : « إلَّا أنْ يُـرِيدَ ابْنُ أبي طـالبٍ أنْ يُطَلِّقَ ابْنَتي وَيَتَزَوَّجَ ابْنَةَ أبي جَهْلٍ »[(١)] . والشرط العُرْفي الحالي كالشرط اللفظي عند كثيرٍ من الفقهاء ؛ كفقهاء المدينة وأحمد بن حنبل وأصحابه رحمهم الله تعالى . على أن رسول الله ﷺ خاف عليها الفتنة في دينها باجتماعها وابنة عدوّ الله عنده ، فلم تكن غَيْرتُه ﷺ لمجرد كراهيَة الطبْع للمشاركة ، بل الحاملُ عليها حُرْمةُ الدِّين . وقد أشار إلى هذا بقوله : « إنِّي أَخَافُ أنْ تُفْتَنَ فِي دينها » . والله أعلم بالصواب » .

درجات الغيْرة عند شيخ الإسلام الهَرَوِيِّ :

قال رحمه الله في « منازل السائرين » : وهي على ثلاث درجات :

« الدرجة الأولى : غيْرة العابد على ضائع يستردُّ ضياعه ، ويستدرك فواته ، ويتدارك قُواه »[(٢)] :

وشرَح هذا الكلامَ وبيَّنهُ ابنُ القيم ، فقال : « العابد » هو العامل – بمقتضى العلم النافع – للعمل الصالح . فغيْرته على ما ضاع عليه من عمل صالح ، فهو يستردُّ ضياعه بأمثاله ، ويجبُر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب بفعْل أمثالها ، من جنْسها وغير جنسها ، فيقضي ما ينفع فيه القضاء ، ويعوِّض ما يقبل العِوضَ ، ويجبُر ما يمكن جَبْرُه .

وقوله: « ويستدرك فواتَه »: الفرق بين استرداد ضائعه ، واستدراك فائِتِهِ. أن الأول : يمكن أن يُستردَّ بعيْنه ؛ كما إذا فاته الحجُّ في عام تمكَّن منه ، فأضاعه في ذلك العام ؛ استدرَكه في العام المُقبل ، وكذلك إذا أَخَّر الزكاة عن وقت وجوبها ؛ استدرَكها بعد تأخيرها ، ونحو ذلك .

---

(١) وهذه القصة رواها الشيخان والترمذي .

(٢) مدارج السالكين ٣/٤٨ .

وأما الفائت : فإنما يستدرك بنظيره ؛ كقضاء الواجب المؤقَّت إذا فات وقته . أو يكون مرادُه باسترداد الضائع ، واستدراك الفائت : نوعَي التفريط في الأمر والنهي ، فيستردُّ ضائع هذا بقضائه وفعْل أمثاله ، ويستدرك فائتَ هذا - أي سالفه - بالتوبة والندم .

وأما « تدارُك قواه » : فهو أن يتدارك قوته ببذْلها في الطاعة قبل أن تتبدَّل بالضعْف ، فهو يغار عليها أن تذهب في غير طاعة الله . ويتدارك قُوَى العمل الذي لحقه الفتور عنه ، بأن يكسوه قوةً ونشاطًا ، غيْرة له وعليه .

فهذه غيرة العباد على الأعمال . والله أعلم .

« الدرجة الثانية : غيْرة المريد ؛ وهي غيْرة على وقتٍ فاتَ ، وهي غيْرة قاتلة ؛ فإن الوقت وَحِيُّ التقضِّي ، أبيُّ الجانب ، بطيُّ الرجوع » :

تكلَّمنا عنها في « عُلُوّ الهِمَّة في حفظ الوقت » في المجلد الرابع من كتابنا هذا،من ص ١٥٤ إلى ١٥٦ .

« الدرجة الثالثة : غيْرة العارف على عيْنٍ غطَّاها غيْنٌ ، وسرٍّ غشيَه رَيْنٌ ، ونفَسٍ علِقَ برجاءٍ أو الْتفتَ إلى عطاءٍ » :

قال ابن القيم شارحًا هذه الدرجة العليَّة : « أي يغار على بصيرةٍ غطَّاها ستْرٌ أو حجاب ؛ فإن « الغيْن » بمنزلة الغطاء والحجاب ، وهو غطاء رقيق جدًّا ، وفوقه « الغَيْم » وهو لعموم المؤمنين ، وفوقه « الريْن ، والران » وهو للكفَّار .

وقوله : « وسرٍّ غَشِيَه ريْن » : أي حجاب أغلظ من الغيْم الأول . « والسر » هاهنا : إما اللطيفة المدرَكة من الروح ، وإما الحال التي بين العبد وبين الله عز وجل ؛ فإذا غشيه ريْنُ النفس والطبيعة استغاثَ صاحبه ، كما يستغيث المعذَّب في عذابه ، غيْرةً على سرِّه من ذلك الريْن .

وقوله : « ونَفَسٍ علِق برجاء ، والتفت إلى عطاء » : يعني : أن صاحب النفَس يَغار على نفسه إذا تعلَّق برجاءٍ من ثواب منفصل ، ولم يتعلَّق بإرادة الله ومحبَّته ؛ فإن بين النَفَسَيْن كما بين متعلَّقهما .

وكذلك قوله : « أوِ التفتَ إلى عطاء » : يعني : أنه يلتفت إلى عطاءٍ من دون الله فيرضىٰ به ، ولا ينبغي أن يتعلَّق إلا بالله ، ولا يلتفت إلا إلى المعطي الغني الحميد ، وهو الله وحدَه . والله أعلم » .

الغَيْرة على الله أعظمُ الجهْلِ وأبطلُ الباطل :

قال ابن القيم : « وأما الغيْرة على الله : فأعظم الجهل وأبطل الباطل ، وصاحبها من أعظم الناس جهلًا ، وربما أدَّت بصاحبها إلى معاداته وهو لا يشعر ، وإلى انسلاخه من أصل الدين والإسلام ، وربما كان صاحبها شرًّا على السالكين إلى الله من قُطَّاع الطريق ، بل هو من قُطَّاع طريق السالكين حقيقةً ، وأخرج قَطْع الطريق في قالَبِ الغيرة . وأين هذا من الغيْرة لله التي توجب تعظيم حقوقه ، وتصفية أعماله وأحواله لله ؟ فالعارف يغَار لله ، والجاهل يغار على الله ، فلا يُقال : أنا أغار على الله . ولكن : أنا أغار لله .

كما حُكي عن واحد من مشهوري الصوفية ، أنه قال : لا أستريح حتى لا أرى مَن يـذكر الله . يعني غيْرة عليه من أهلِ الغفلة وذكْرهـم . والعجـب أنَّ هذا يعدُّ من مناقبه ومحاسنه . وغاية هذا : أن يُعذَر فيه ؛ لكونه مغلوبًا على عقله ، وهو من أقبح الشطحات . وذكْر الله على الغفلة وعلى كل حال : خيرٌ من نسيانه بالكليَّة ، والألسن متى تركت ذكر الله - الذي هو محبوبها - اشتغلت بذكر ما يُبغضه ويَمقُت عليه . فأيُّ راحة للعارف في هذا؟! وهل هو إلَّا أشقُّ عليه ، وأكره إليه ؟!

وقولُ آخرَ : لا أحبُّ أن أرى الله ولا أنظر إليه . فقيل له : كيف ؟

قال : غَيْرةً عليه من نظر مثلي .

فانظر إلى هذه الغَيْرة القبيحة ، الدالَّة على جهْلِ صاحبها ، مع أنه في خفارة ذُلّه وتواضعه وانكساره واحتقاره لنفسه .

ومِن هذا : ما يُحكَى عن الشِّبلي : أنه لما مات ابنه دخل الحمَّام ونَوَّر لحيته ، حتى أذهب شعرَها كلَّه . فكل منِ أتاه معزِّيًا ، قال : أيش هذا يا أبا بكر ؟ قال : وافقتُ أهلي في قَطْع شعورهم . فقال له بعض أصحابه : أخبرني : لِمَ فعلتَ هذا ؟ فقال : علمتُ أنهم يعزُّونني على الغفْلة ، ويقولون : آجرَك الله . ففديتُ ذكْرهم لله على الغفلة بلحيتي .

فانظر إلى هذه الغيرة المحرَّمة القبيحة ، التي تضمَّنت أنواعًا من المحرَّمات : حلْق الشعر عند المصيبة ، وقد قال رسول الله ﷺ : « ليس منا مَن حلَق وسَلَق وخرق » . أي حلَق شعره ، ورفع صوته بالندب والنياحة ، وخرق ثيابه .

ومنها : حلْق اللحية ، وقد أمر رسول الله ﷺ باعفائها وتوفيرها .

ومنها : منْع إخوانه من تعزيته ونيْل ثوابها .

ومنها : كراهته لجريان ذكْر الله على ألسنتهم بالغفْلة ، وذلك خير – بلا شكٍّ – من ترْك ذكْره .

فغاية صاحب هذا : أن تغفر له هذه الذنوب ويُعفَى عنه . وأما أنْ يُعدَّ ذلك في مناقبه ، وفي الغيرة المحمودة ؛ فسبحانك ، هذا بهتان عظيم !!

ومن هذا : ما ذُكِرَ عن أبي الحسين النوري : أنه سمع رجلًا يؤذِّن . فقال : طعنه ، وسمّ الموت . وسمِع كلبًا ينبح ، فقال : لبيك وسعديك . فقالوا له : هذا ترك للدين!!

وصدقوا والله ؛ يقول للمؤذِّن في تشهدُّه : طعنه ، وسمّ الموت . ويلبي نباح الكلب!! فقال : أما ذاك فكان يذكر الله عن رأسِ الغفلة ، وأما الكلب : فقد قال تعالى : ﴿ وإنْ مِنْ شيءٍ إلَّا يسبّح بحَمْدِه ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

فبالله !! ماذا ترى رسول الله ﷺ يواجه هذا القائل لو رآه يقول ذلك ، أو عمر بن الخطاب ، أو من عَدَّ ذلك في المناقب والمحاسن ؟!

وسمِع الشبليُّ رجلًا يقول : جَلَّ الله . فقال : أحبُّ أن تجلّه عن هذا . وأذّن مرةً ، فلمَّا بلغ الشهادتين ، قال : لولا أنك أمرتَني ، ما ذكرتُ معك غيرك . وقال بعض الجهَّال من القوم : « لا إله إلا الله » من أصل القلب ، و« محمد رسول الله » من القرط .

ونحن نقول : محمد رسول الله ، من تمام قول : لا إله إلا الله . فالكلمتان تخرجان من أصل القلب ، من مشكاة واحدة ، لا تتمُّ إحداهما إلا بالأخرى »(١).

« قال القُشَيري : والواجب أن يُقال : الغَيْرةُ غَيْرتان : غَيْرَة الحقِّ على العبد ، وهو أن لا يَجعَله للخلق فيَضِنَّ به عليهم . وغَيْرة العبد للحقّ ، وهو أن لا يجعل شيئًا من أحواله وأنفاسه لغير الحقِّ سبحانه ، فلا يُقال : أنا أغار عَلَى الله . ولكن يُقال : أنا أغار لله . قال : فإذَن الغَيْرة على الله جهل ، وربما تؤدي إلى ترك الدين .

قال القُشَيْري : وقيل لبعضهم : أتحبُّ أن تراهم ؟ قال : لا . قيل : ولِمَ ؟ قال : أُنزِّهُ ذلك الجمالَ عن نظرِ مثلي . وفي معناه أُنشدوا

إني لأحسُدُ ناظِريّ عليكا ... حتى أغُضَّ إذا نظرتُ إليكا
وأراكَ تخطُر في شمائلكَ التي ... هي فِتْنتي فأغارُ منكَ عليكا

قلتُ : وهذه غيْرةٌ فاسدة ، وغاية صاحبها أن يُعْفَى عنه وأن يعدَّ ذلك في شَطَحاته المذمومة ، وأما أن تُعَدَّ في مناقبه وفضائله : أن يُقال : أتحبُّ أن ترى الله فيقول : لا . ورؤيتُه أعلى نعيم ِأهلِ الجنة ، وهو سبحانه وتعالى يحبُّ

(١) مدارج السالكين ص ٣/٤٥ - ٤٧ .

من عبده أن يسأله النظر إليه ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان من دعائه : « اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ ، وَالشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ » . وقول هذا القائل : (أُنزّه ذلك الجمالَ عن نظر مثلي) : من خِدَع الشيطان والنفس ، وهو يشبه ما يُحْكَىٰ عن بعضهم أَنه قيل له : أَلَا تذكره ؟ فقال : أُنزِّهه أن يجري ذكرُه على لساني . وطَرْدُ هذا التنزيه الفاسد؛أن ينزّهه أن يجري كلامُه على لسانه،أو يخطُرَ هو أيضًا على قلبه . وقد وقع بعضهم في شيء من هذا فلاموه ، فأنشد :

يقولونَ زُرْنا واقضِ واجبَ حقِّنا وقدْ أَسقطتْ حالي حقوقَهمْ عنِّي
إذا هم رأَوْا حالي ولم يأْنَفُوا لها ولـم يأْنَفُـوا منّي أَنِفْتُ لهـمْ منِّي

وطَرْدُ هذه الغيرة أن لا يزور بيتَه غيرةً على بيته أن يزوره مثلُه . ولقد لُمْتُ شَخْصًا مرَّةً على ترك الصلاة فقال لي : إني لا أرى نفسي أهلًا أنْ أدخل بيتَه .فانظرْ إلى تلاعب الشيطان بهؤلاء!!

وسمِع الشبليُّ مرةً رجلًا يقول : جَلَّ الله . فقال : أحب أن تُجِلَّه عن هذا . ويا عجبًا ممَّن يَعُدُّ هذا في مناقب رجلٍ ، ويجعله قدوةً ، ويزيِّن به كتابه !! وهل شيءٌ أشدُّ على قلب المؤمن وأمرُّ عليه من أن لا يَرىٰ لربِّه ذاكرًا ؟! وهـل شيء أقرُّ لعيْنه من أن يَرىٰ ذاكرين لله بكلِّ مكان ؟! وعذرُ هذا القائل : أنه لا يرى ذاكرًا لله بحقِّ الذكْر ، بل لا يرى ذاكرًا إلَّا والغفلة والسهوةُ مستوليَةٌ على قلبه ، فيذكر ربَّه بلسانٍ فارغٍ من القلب وحضوره في الذكر ، وذلك ذكرٌ لا يليق به ، فيغار محبُّه أن يُذكَر بهذا الذكر،فيحبُّ أن لا يَسمع أحدًا يذكُره هذا الذكْر . ولمَّا اشترك الناس في هذا الذكر ، أخبر أن راحته أن لا يرىٰ له ذاكرًا . هذا أَحسنُ ما يُحْمَل عليه كلامه ، وإلَّا فظاهرُه إلى العداوة أقربُ منه إلى المحبَّة ، وليس هذا حال الشبليّ رحمه الله تعالى ؛ فإن المحبَّة كانت تغلب عليه ، ومع ذلك فهو من شطحاته التي يُرجىٰ أنْ تُغْفَر له بصدْقِه ومحبَّته وتوحيده ، لا أنها ممَّا يُحْمَدُ عليه ويُقتدىٰ به فيها .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يذكروه على جميع أحوالهم . وإن كان

ذكرهم إيَّاه مراتبَ ؛ فأعلاها : ذكرُ القلب واللسان مع شهود القلب للمذكور وجمعيَّته بكليّته بأحبِّ الأذكار إليه ، ثم دُونه : ذكر القلب واللسان أيضًا وإن لم يشاهد المذكور ، ثم ذكْر القلب وحدَه ، ثم ذكْر اللسان وحده . فهذه مراتب الذكر وبعضها أَحبُّ إلى الله من بعض »[(١)] .

* * *

(١) روضة المحبين ص٣١٢ - ٣١٤ .

الفصل التاسع
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الرَّغبَة

« تَشَرُّفٌ يصحبهُ تقيَّة ، تحمله عليها هِمَّة
نقيَّة ، لا تُبقي معه من التفرُّقِ بقيَّة »

[شيخ الإسلام الهروي]

□ عُلُوُّ الهِمَّة في الرغْبَة □

اعلمْ يا أخي أنَّ الرغبةَ ثمرةُ الرجاء ، وهي منه بالحقيقة ، والرجاء طمَعٌ ، والرغبة طلبٌ ، فمَن رجا الشيءَ طلبَه ورغبَ فيه ، وكلُّ راجٍ راغبٌ ، وكلُّ خائف هاربٌ .

وقد أثنى الله على زكريًّا – عليه السلام – وبَيْتِهِ بها ، فقال تعالى : ﴿ ... إنهمْ كانوا يُسارعُون في الخيراتِ ويدعُوننا رَغبًا ورَهَبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾ الآية [الأنبياء : ٩٠] .

درجاتُ الرغْبَة :

قال شيخ الإسلام الهروي[١] : والرغبة على ثلاث درجات :

« **الدرجة الأولىٰ : رغبةُ أهل الخبر : تتولَّدُ من العِلْم ، فتبعثُ علىٰ الاجتهادِ المَنُوطِ بالشُّهودِ ، وتصون السالِكَ عن وهْنِ الفَتْرة ، وتمنعُ صاحبَها مِنَ الرجوع إلى غَثَاثَةِ الرُّخص** » :

وهي رغبة أهل الإيمان المتولِّد مِن العلم والخَبر ، المتصل والمشرف على منزلة الإحسان .

وشهودُ هذا المقام الرفيع : أن تعبدَ الله كأنَّك تراه ، ولا مشهد للعبد في الدنيا أعلىٰ من هذا .

وتحقيق مقام الإحسان : هو الفَناء المحمود ، وهو أن يَفْنىٰ العابد بحبِّ الله وخوفه ورجائه ، والتوكُّل عليه وعبادته ، والتبتُّل إليه عن غيره . وليس فوق

(١) مدارج السالكين ٢/٥٦ .

ذلك مقام يُطلَب،إلَّا ما هو من عوارض الطريق .

وهذه الرغبة تحفظ السالك عن وهْن فُتوره وكَسَله،الذي سبَّبه عدم الرغبة أو قلّتها .

قال ابن القيم : « وقوله : « تمنع صاحبها من الرجوع إلى غَثَاثَة الرُّخَص » : أهل العزائم بِناءُ أمرهم على الجدِّ والصدق ، فالسكون منهم إلى الرُّخَص رجوعٌ وبطالة . وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل ليس على إطلاقه ؛ « فإنَّ الله يحبُّ أن يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ كما يُحبُّ أن يُؤْخذ بعزائمه »[(١)] . وفي المسند مرفوعًا إلى النبي ﷺ : « إن الله يحبُّ أن يُؤخَذ برخصه كما يكره أن تُؤتـىٰ معصيته »[(٢)] ؛ فجعل الأخذ بالرخص قُباله إتيان المعاصي . وجعل حظَّ هذا : المحبَّة ، وحظَّ هذا : الكراهية . « وما عرَض للنبيِّ ﷺ أمران ، إلَّا اختار أيسَرَهما ، ما لم يكن إثمًا » . والرخصة أيسر من العزيمة ، وهكذا كان حاله في فطره وسفره ، وجمْعِه بين الصلاتين ، والاقتصار من الرباعية على ركعتين ، وغير ذلك . فنقول : الرخصة نوعان :

النوع الأول : الرخصة المستقرَّة المعلومة من الشرع نصًّا :

كأكْل الميتة والدم ولحم الخنزير عند الضرورة ، وإن قيل لها : عزيمة ؛ باعتبار الأمر والوجوب ، فهي رخصة باعتبار الإذن والتوسعة ؛ وكفطْر المريض

---

(١) أخرج أحمد في مسنده، والبيهقي في سننه ، عن ابن عمر ، وما أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم ؛ قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يحبُّ أن تُؤتىٰ رُخَصُه كما يحبُّ أن تؤتى عزائمه » . صحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٨١) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد ، وابن حبان ،والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ؛ قال رسول الله ﷺ :« إن الله تعالى يحبُّ أن تُؤتىٰ رُخَصُه ، كما يكره أن تؤتى معصيته » . وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٨٢) .

والمسافر ، وقصْر الصلاة في السفر ، وصلاة المريض إذا شقَّ عليه القيام قاعدًا ، وفطْر الحامِل والمُرْضع خوفًا على ولديْهما ، ونكاح الأَمة خوفًا من العَنَت ونحو ذلك ، فليس في تعاطي هذه الرُّخص ما يُوهن رغبته ولا يردُّ إلى غَثاثةٍ ، ولا يُنقص طلبه وإرادته ألبتة ؛ فإن منها ما هو واجب ، كأكْل الميتة عند الضرورة ، ومنها ما هو راجح المصلحة ، كفطر الصائم المريض ، وقصر المسافر وفطره ، ومنها ما مصلحته للمترخّص وغيره . ففيه مصلحتان : قاصرة ومتعدِّية ، كفطر الحامل والمرضع . ففعْلُ هذه الرخص أرجح وأفضل من ترْكها .

النوع الثاني : رُخصُ التأويلات ، واختلاف المذاهب :

فهذه تَتبُّعُها حرامٌ يُنقص الرغبة ، ويُوهِن الطلب ، ويَرجع بالمترخِّص إلى غثاثة الرخص . فإنَّ من ترخَّصَ بقول أهل مكة في الصَّرْف ، وأهل العراق في الأشربة ، وأهل المدينة في الأطعمة ، وأصحاب الحِيَل في المعاملات ، وقوْل ابن عباس في المُتْعة ، وإباحة لحوم الحُمُر الأهلية ، وقول مَن جوَّز نِكاح البغايا المعروفات بالبِغاء ، وجوَّز أن يكون زوجَ قحْبة ، وقوْل مَن أباح آلاتِ اللَّهو والمعازف ؛ من اليراع والطنبور والعُود والطبل والمزمار ... وقول من أَباح الغناء ، وقول من جوّز استعارة الجواري الحِسَان للوطْءِ ، وقول من جوَّز للصائم أكل البَرَد ، وقال : ليس بطعام ولا شرابٍ ، وقول من جوَّز الأكْل ما بين طُلوع الفجر وطلوع الشمس للصائم ، وقوْل من صحَّح الصلاة بـ ﴿ **مُدْهامَّتان** ﴾ بالفارسية ، وركَع كلحظة الطرْف ، ثم هوى من غير اعتدال ، وفصل بين السجدتين كَحَدِّ السَّيْف ، ولم يصلِّ على النبي ﷺ ، وخرج من الصلاة بحَبْقة ، وقول مَن جوَّز وطءَ النساء في أعجازهنَّ،ونكاح بنته المخلوقة مِن مائه ، الخارجة من صلبه حقيقة ، إذا كان ذلك الحمْل مِن زِنا .. وأمثال ذلك من رُخص المذاهب وأقوال العلماء – فهذا : الذي تنقص بترخُّصه

رغبتُه ، ويُوهن طلبه ، ويلقيه في غثاثة الرُّخَص . فهذا لَوْنٌ والآخر لَوْنٌ »[١] .

« الدرجة الثانية : رَغْبةُ أربابِ الحال ؛ وهي رغبة لا تُبقي مِنَ المجهودِ مبذولًا ، ولا تدَعُ للهِمَّة ذُبولًا ، ولا تتركُ غير القصْدِ مأمولًا » :

قال ابن القيم : « يعني : أنَّ الرغبة الحاصلة لأرباب الحال فوق رغبة أصحاب الخبر ؛ لأن صاحب الحال كالمضطر إلى رغبته وإرادته ، فرغبته لا تدعُ منه مجهودًا مقدورًا إلَّا بَذَلَه ، ولا تدَعُ لِهمَّته وعزيمته فتْرةً ولا خمودًا ، وعزيمتُه في مزيد بِعَدَدِ الأنفاس ، ولا تترك في قلبه نصيبًا لغير مقصوده ؛ وذلك لغَلَبة سلطان الحال .

وصاحب هذا الحال لا يقاومه إلا حالٌ مثل حاله أو أقوى منه ، ومتى لم يصادفْه حالٌ تُعارضه ، فله من النفوذ والتأثير بحسب حاله » .

« الدرجة الثالثة : رغبةُ أهل الشُّهود ؛ وهي تشرُّفٌ يصحَبُه تقيَّة ، تحمله عليها هِمَّة نقيَّة ، لا تبقي معه من التفرُّق بقيَّة » :

وهو أن يفنىٰ لمولاه بحبِّه وخوْفه ورجائه وعبادته والتبتُّل إليه عن غيره ، يحمِلُه عليها هِمَّة نقيَّة من أدناس الالتفات إلى ما سوى الحقِّ ، بحيث لا يبقىٰ معه بقيَّة من تفرْقةٍ ، بل قد اجتمع شاهدُه كلُّه وانحصر في مشهوده . وأراد بالشهود هاهنا : شهود الحقيقة .

والتشرُّف هاهنا : تشرُّف عن التفاته إلى ما سوى مشهوده .

و« التقيَّة » التي تصْحَب هذا التشرُّف : يحتمل أن يريد بها التقيَّة من إظهار الناس على حاله ، واطِّلاعهم عليها ؛ صيانةً لها وغيْرةً عليها . ويحتمل أن يريد بها الحذَرَ من التفاته في شهوده إلى ما سوى حَضْرةِ مشهوده ، فهي تتقي ذلك الالتفاتَ وتحْذَره كلَّ الحذَر .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٥٧ – ٥٨ .

ثم ذكَر الحامِلَ له على هذه الرغبة ، وهي اللطيفة المدْرِكة المريدة ، التي قد تطهَّرت قبل وصولها إلى هذه الغايِة ، وهي : الهِمَّة النقيَّة . ولو لـم يحصل لها كمال الطهارة ، لَبقيتْ عليها بقيَّة منها تمنعها من وصولها إلى هذه الدرجة . والله سبحانه وتعالى أعلم »[١] .

* * *

(١) مدارج السالكين ٢/٥٩ .

الفصل العاشر
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
التهْذِيبِ والتصْفِيَة

□ عُلُوُّ الهِمَّة في التهذيبِ والتصْفِيَة □

قال ابن القيِّم عن هذه المنزلة من منازل العبودية : « هو سبْك العبودية في كِيرِ الامتحان ، طلبًا لإخراج ما فيها من الخبَث والغشِّ ، وهو صعب على المبتدِئ ؛ فهو له كالمحنة ، وطريقة للمرْتاض الذي قد مرَّن نفسه ، حتى اعتادت قبوله وانقادت إليه » .

درجاتُ التهذيبِ والتصْفِيَة :

قال صاحبُ « المنازل » شيخ الإسلام الهرويُّ الأنصاريُّ : وهو على ثلاث درجات :

« الدرجة الأولى : تهذيبُ الخِدْمَة ؛ أنْ لا يخالجها جَهَالةٌ ، ولا يَشُوبها عادة ، ولا يقف عندها هِمَّة » :

قال ابن القيم شارِحًا ومبيِّنًا هذه الدرجة : « أي : تخليص العبودية وتصفيتها من هذه الأنواع الثلاثة ، وهي : مخالجة الجهالة ، وشوْب العادة ، ووقوفُ همَّةِ الطالب عندها .

النوع الأول : مخالجة الجهالة :

فإن الجهالة متى خالطتِ العبودية ، أوردها العبد غيرَ موْردها ، ووضعها في غير موضعها،وفعَلَها في غير مستحقِّها ، وفعَل أفعالًا يعتقد أنها صلاح ، وهي إفساد لخدمته وعبوديته ، بأن يتحرَّك في موضع السكون ، أو يسكن في موضع التحرُّك ، أو يفرّق في موضع جمْع ، أو يجمع في موضع فرْق ، أو يطير في موضع سفوف ، أو يُسفَّ في موضع طيران ، أو يُقْدِمَ في موْضِع إحجامٍ ،

أو يُحْجِم في موضع إقدام.، أو يتقدَّم في موضع وُقوف ، أو يقف في موضع تقدُّم ، ونحو ذلك من الحركات التي هي حقُّ الخدمة ، كحركات الثقيل البغيض في حقوق الناس .

فالخدمة ما لم يصحبْها علْمٌ ثانٍ بآدابها وحقوقها ، غير العلم بها نفسِها ؛ كانت مظنَّةَ أنْ تُبعِدَ صاحبَها ، وإنْ كان مراده بها التقرُّب . ولا يلزم حُبوط ثوابها وأجْرها ، فهي إنْ لم تُبعده عن الأجر والثواب ، أبعدتْه عن المنزلة والقرْبة ، ولا تنفصل مسائل هذه الجملة إلَّا بمعرفةٍ خاصَّة بالله وأمْره ، ومحبَّة تامَّةٍ له ، ومعرفةٍ بالنفس وما منها .

النوْع الثاني : شوْب العادة :

وهو أن يُمازِج العبوديةَ حكمٌ من أحكام عوائد النفس تكون مُنْفِذة لها ، مُعينة عليها ، وصاحبها يعتقدها قُرْبةً وطاعةً ، كَمَنِ اعتاد الصوم - مثلًا - وتمرَّن عليه ، فألِفَتْه النفس ، وصار لها عادة تتقاضاها أشدَّ اقتضاء ، فيظنّ أن هذا التقاضي محضُ العبودية ، وإنما هو تقاضي العادة ؛ وعلامةُ هذا : أنه إذا عَرَض عليها طاعة دون ذلك وأيسر منه وأتمَّ مصلحة ؛ لم تُؤْثِرها إيثارها لِمَا اعتادته وأَلِفَتْه ، كما حُكِي عن بعض الصالحين قال : حَجَجْتُ كذا وكذا حَجَّة على التجريد ، فبان لي أنَّ جميع ذلك كان مشوبًا بحظِّي ؛ وذلك : أن والدتي سألتني أن أستقي لها جَرْعةَ ماء،فثقل ذلك على نفسي ، فعلمتُ أن مطاوعة نفسي في الحجَّات كان بحظِّ نفسي وإرادتها ، إذْ لو كانت نفسي فانية ، لم يَصعُبْ عليها ما هو حقُّ الشرع .

النوع الثالث : وقوفُ هِمَّته عند الخدمة :

وذلك علامةُ ضعْفها وقصورها ؛ فإنَّ العبد المحْض لا تقفُ هِمَّته عند خدمة ، بل هِمَّته أعلىٰ من ذلك ؛ إذْ هي طالبة لرضا مخدومه ، فهو دائمًا مستصغِرٌ خدمته له ، ليس واقفًا عندها ، والقناعة تُحمَد مِن صاحبها إلَّا في هذا المَوْضع ، فإنها عيْن الحرمان ، فالمحبُّ لا يقنع بشيْءٍ دون محبوبه ، فوقوف

هِمَّةِ العبد مع خدمتها وأجرتها : سُقوط فيها وحرمان »[١] .

« الدرجة الثانية : تهذيبُ الحال ؛ وهو أنْ لا يَجْنح الحالُ إلى عِلْم ، ولا يخضع لِرَسْمٍ ، ولا يلتفت إلى حظٍّ » :

قال ابنُ القيِّم شارحًا وموضِّحًا للمبهَمات من الألفاظ : « أمَّا (جُنوح الحال إلى العلم) ؛ فهو نوعان : ممدوح ، ومذموم ؛ فالممدوح : التفاته إليه ، وإصغاؤه إلى ما يأمر به ، وتحكيمه عليه . فمتى لم يجنحْ إليه هذا الجنوح ، كان حالًا مذمومًا ناقصًا مبعِدًا عن الله ، فإنَّ كلَّ حال لا يصحبه علم : يُخاف عليه أن يكون من خدَع الشيطان . وهذا القدْر هو الذي أفسد على أرباب الأحوال أحوالهم ، وعلى أهل الثغور ثغورَهم ، وشرَّدهم عن الله كلَّ مشردٍ ، وطردهم عنه كلَّ مطردٍ ، حيث لم يحكِّموا عليه العلمَ ، وأعرضوا عنه صفْحًا ، حتى قادهم إلى الانسلاخ من حقائق الإيمان وشرائع الإسلام .

وهم الذين قال فيهم سيِّد الطائفة الجُنَيْد بن محمد ، لمَّا قيل له : أهل المعرفة يَصلُون إلى ترْك الحركات من باب البر والتقرُّب إلى الله ؟ فقال الجنيد : إن هذا كلام قومٍ تكلَّموا بإسقاط الأعمال عن الجوارح ، وهو عندي عظيمة ، والذي يزني ويسرق أحسنُ حالًا من الذي يقول هذا ؛ فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألفَ عام ، لم أُنقص من أعمال البرِّ ذرَّةً ؛ إلَّا أن يُحَال بي دونها .

وقال : الطُّرق كلُّها مسدودة على الخلْق ، إلَّا مَنِ اقتفىٰ أثَر الرسول ﷺ .

وقال : مَن لم يحفظِ القرآن ويكتب الحديث ، لا يقتدىٰ به في طريقنا هذا ؛ لأن طريقنا وعلْمنا مقيَّد بالكتاب والسنة .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٩٨ - ٩٩ .

وقال : عِلْمنا هذا مشيَّد بحديث رسول الله ﷺ .

والبليَّة التي عرضتْ لهؤلاء : أنَّ أحكام العلْم تتعلَّق بالعلْم وتدعو إليه ، وأحكام الحال تتعلَّق بالكشْف ، وصاحب الحال تردُ عليه أمورٌ ليست في طَوْر العلم ، فإنْ أقام عليها ميزانَ العلم ومعيارَه ، تعارَضَ عنده العلمُ والحال ، فلم يجد بُدًّا من الحكْم على أحدهما بالإبطال . فمَن حصلت له أحوال الكشْف ، ثم جنَحَ إلى أحكام العلْم ، فقد رجَعَ القهقرَىٰ ، وتأخَّر في سيره إلى وراء .

فتأمَّلْ هذا الوارد ، وهذه الشبهة التي هي سمٌّ ناقع : تُخرج صاحبها من المعرفة والدين،كإخراج الشعْرة من العجين .

واعلَمْ أن هذه المعرفة الصحيحة هي رُوح العلم ، والحالُ الصحيح هو روح العمَل المستقيم ، فكلُّ حال لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقًا للعلم : فهو بمنزلة الروح الخبيثة الفاجرة ، ولا يُنكر أن يكون لهذه الروح أحوال ، لكن الشأن في مرتبة تلك الأحوال ومنازلها ، فمتى عارَض الحالَ حكْمٌ من أحكام العلم فذلك الحال إمَّا فاسد ، وإمَّا ناقص ، ولا يكون مستقيمًا أبدًا .

فالعلم الصحيح والعمل المستقيم : هما ميزانُ المعرفة الصحيحة والحال الصحيح ، وهما كالبدَنَيْن لرُوحَيْهما .

فأحسن ما يُحمَل عليه قولُه : « أن لا يَجْنَح الحالُ إلى العلم » : أنَّ العلم يدعو إلى التفرقة دائمًا ، والحالُ يدعو إلى الجمعيَّة ، والقلب بين هذيْن الداعيَيْن ، فهو يُجيب هذا مرةً وهذا مرةً .

فتهذيبُ الحال وتصفيتُه : أن يُجيب داعيَ الحال لا داعيَ العلم ، ولا يلزم من هذا إعراضُه عنِ العلم ، وعدَمُ تحكيمه والتسليم له ، بل هو متعبِّد

بالعلم ، محكِّمٌ له ، مستسلم له ، غيرُ مجيب لداعيه من التفْرقة ، آخذ من العلم ما يصحِّح له حالَه وجمعيَّته ، غيرُ مستغرقٍ فيه استغراقَ مَن هو مُطَّرِحٌ هِمَّته وغاية مقصده ، لا مطلوبَ له سواه ، ولا مرادَ له إلَّا إيَّاه . فالعلم عنده آلةٌ ووسيلة ، وطريقٌ توصِّله إلى مقصده ومطلوبه ، فهو كالدليل بين يديْه ، يدعوه إلى الطريق ويدلُّه عليها ، فهو يُجيب داعِيَه للدلالة ومعرفةِ الطريق . وما في قلبه من ملاحظة مقصده ، ومطلبه من سيْره وسفره ، وباعثُ هِمَّته على الخروج من أوطانه ومربَّاه ومن بين أصحابه وخُلَطائه ، الحامل له على الاغتراب والتفرُّد في طريق الطلب – هو المسيِّر له والمحرِّك والباعث ، فلا يجنح عن داعيه إلى اشتغاله بجزئيَّات أحوال الدليل ، وما هو خارج عن دلالته على طريقه .

فهذا مقصد شيخ الإسلام – إن شاء الله تعالى – لا الوجه الأول .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

ولا يخضع لرَسْمٍ :

وأما قوله : « ولا يخضع لرسم » : أي لا يستولي على قلبه شيء من الكائنات ؛ بحيث يخضع له قلبه ؛ فإنَّ صاحب الحال إنما يطلب الحيَّ القيُّوم ، فلا ينبغي له أنْ يقفَ عند المَعَاهد والرُّسوم .

ولا يلتفت إلى حظٍّ :

وأما قوله : « ولا يلتفت إلى حظٍّ » : أي إذا حصَل له الحال التامُّ ، لم يشتغل بفرحه به وحظِّه منه واستلذاذه ؛ فإن ذلك حظٌّ من حظوظ النفْس ، وبقيَّة من بقاياها »[(١)] .

« الدرجة الثالثة : تهذيبُ القصْد ؛ وهو تصفيتُه مِن ذُلِّ الإكراه ، وتحفُّظه مِن مرضِ الفُتور ، ونُصْرته على منازَعَات العلْم » :

قال ابن القيِّم : « هذه أيضًا ثلاثة أشياء تُهذِّب قصدَه وتصفِّيه :

---

(١) مدارج السالكين ٢/٩٩ – ١٠١ .

أحدها : « تصفيتُه من ذلِّ الإكراه » : أي لا يسوق نفسَه إلى الله كرهًا كا لأجير المسخَّر المكلَّف ، بل تكون دواعي قلبه وجواذِبُه منساقة إلى الله طوْعًا ومحبَّةً وإيثارًا ، كجريان الماء في منحدره ، وهذه حال المحبِّين الصادقين ، فإن عبادتهم طوْعًا ومحبَّة ورضًا ، ففيها قرَّة عُيونهم وسرور قلوبهم ، ولَذَّة أرواحهم ، كما قال النبي ﷺ : « وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة » . وكان يقول : « يا بلال ، أرحنا بالصلاة » . فقرة عيْن المُحِبِّ ولذَّته ونعيم رُوحه في طاعة محبوبه ، بخلاف المطيع كرهًا ، المتحمِّل للخدمة ثِقلًا .

وفي قوله : « ذلّ الإكراه » لطيفةٌ ؛ وهي أنَّ المطيع كرهًا يرى أنه لولا ذلُّ قهْره وعقوبة سيِّده له ، لَمَا أطاعه ، فهو يتحمَّلِ طاعته كالمكره الذي قد أذلَّه مُكْرِهُهُ وقاهِرُه ، بخلاف المحبِّ الذي يعدُّ طاعة محبوبه قوَّة ونعيمًا ولذَّةً وسُرورًا ، فهذا ليس الحامِل له ذلُّ الإكراه .

الثاني : « تحفُّظُه من مَرَض الفتوْر » : أي توقِّيه من مَرَض فُتور قصده ، وخمود نار طلَبِه ؛ فإن العزم هو روح القصد ، ونشاطه كالصحَّة له ، وفتوره مرض من أمراضه ، فتهذيب قصْده وتصفيته : بحِمْيَته من أسباب هذا المرض الذي هو فتوره ، وإنما يتحفَّظ منه بالحِمْية من أسبابه وهو أن يلهو عن الفضول من كلِّ شيء ، ويحرِص على ترْك ما لا يعنيه ، ولا يتكلَّم إلّا فيما يرجو فيه زيادة إيمانه وحاله مع الله ، ولا يصحب إلَّا مَن يُعينه على ذلك ، فإنْ بُلي بمَن لا يُعينه ، فلْيدرأْه عنه ما استطاع ويدفعه دفْعَ الصائل .

الثالث : « نصرة قصده على منازعات العلم » : ومعنى ذلك نصرة خاطر العبودية المحْضة ، والجمعيَّة فيها والإقبال على الله فيها بكليَّة القلب ، على جواذب العلم ، والفكرة في دقائقه وتفاريع مسائله وفَضَلاته .

فتهذيب القصْد وتجريدُه : أن قصده وعبوديته محبَّةٌ لله بلا علَّة ، وأن

لا يحبَّ الله لِمَا يُعطيه ويحميه منه ، فتكون محبَّته لله محبَّةَ الوسائل ، ومحبَّته بالقصد الأول لِمَا يَناله من الثواب المخلوق ، فهو المحبوب له بالـذَّات ، بحيث إذا حصل له محبوبه تسلَّى به عن محبة من أعطاه إيَّاه ، فإن من أحبَّك لأمرٍ وَالَاك عند حصوله ، ومَلَّكَ عند انقضائه »[1] .

فلا يجعل محبوبه تعالىٰ وسيلةً له إلى غيره ، بل يجعل ما سواه وسيلةً له إلى محبوبه .

* * *

(١) مدارج السالكين ٢/١٠٢ - ١٠٣ .

الفصل الحادي عشر
عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
التحلِّي بحُسْنِ الخُلُقِ

قالت عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ : « كان خُلُقه القرآن »
[رواه الشيخان]

« كُنْ مع الحقِّ بلا خَلْق ،
ومعَ الخَلْقِ بلا نَفْسٍ »
[الجيلاني]

□ عُلو الهِمَّة في التحلِّي بحُسْن الخُلُق □

اعلمْ – هدانا الله وإيَّاك – أنَّ « الخُلُق الحسَن صفة سيِّد المرسلين ، وأفضل أعمال الصِّدِّيقين ، وهو على التحقيق شطْر الدين ، وثمرة مجاهـدة المتقين ، ورياضة المتعبدين .

والأخلاق السيئة هي السمومُ القاتلة ، والمهلكات الدامغة ، والمخازي الفاضِحة ، والرذائل الواضحة ، والخبائث المبعِدة عن جِوار ربِّ العالمين ، المنخرِطة بصاحبها في سلك الشياطين ، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة التي تطلِع على الأفئدة ، كما أنَّ الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة مـن القلـب إلى نعيم الجِنان ، وجوار الرحمن . والأخـلاق الخبيثـة أمـراض القلوب ، وأسقام النفوس ، إلّا أنَّه مَرَض يُفوِّت حياة الأبد ، وأين منه المرضُ الذي لا يُفوِّت إلّا حياة الجَسَد ؟! ومهما اشتدَّتْ عناية الأطبَّاء بضبْط قوانين العلاج للأبدان ، وليس في مرضها إلّا فوْت الحياة الفانية ، فالعناية بضبْـط قوانين العلاج لأمراض القلوب – وفي مرضها فوْت حياة باقيـة – أولـى ، وهذا النوع من الطبِّ واجب تعلّمه على كلِّ ذِي لُبٍّ ؛ إذ لا يخلو قلبٌ من القلوب عن أسقام ، لو أهملتْ تراكمتْ ، وترادفت العلل وتظاهرتْ ، فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها ، ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها ، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى : ﴿ **قد أفلح مَن زكَّاها** ﴾ [الشمس : ٩] ، وإهمالها هو المراد بقوله : ﴿ **وقد خاب مَن دسَّاها** ﴾[(١)] [الشمس : ١٠] .

وتزكية النفوس – بالتحلِّي بالأخلاق الحسَنة ، والتخلِّي عن سيِّئها – مطلب عظيمٌ وربْع الرسالة المحمدية[(٢)] ، ولذا أقسَم الله عز وجل أحـدَ عشر

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٥٣ .

(٢) لقوله تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياتِهِ ويزكِّيهم ويعلِّمهُم الكتاب والحكمة ﴾ .

قسَمًا متتاليًا - لم تأت إلّا في موضع واحد من القرآن الكريم - على أنَّ الفلاح مَنوط بتزكية النفوس ؛ قال تعالى : ﴿ **والشمسِ وضُحاها والقمرِ إذا تلاها والنهارِ إذا جلّاها والليلِ إذا يغشاها والسماءِ وما بناها والأرضِ وما طحاها ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلَح مَن زكّاها وقد خاب من دسَّاها** ﴾ [الشمس : ١ - ١٠] . وقال سبحانه : ﴿ **قد أفلح مَن تزكّى وذكر اسمَ ربِّه فصلّى** ﴾ [الأعلى : ١٤ - ١٥] .

وتزكية النفوس ملاك دعوة الرسل بعد التوحيد ؛ فهذا موسى عليه السلام يقول لفرعون : ﴿ **هل لكَ إلى أن تزكّى وأهديَك إلى ربِّك فتخشىٰ** ﴾ [النازعات : ١٨ - ١٩] .

وتزكية النفوس سببُ الفوز بالدَّرجات العلىٰ والنعيم المقيم ، كما قال عز وجل : ﴿ **ومَن يأْتِهِ مؤمنًا قد عمِل الصالحاتِ فأولئك لهمُ الدرجاتُ العُلىٰ جناتُ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء مَن تزكّى** ﴾ [طه : ٧٥ - ٧٦] .

وكان مِن دعائه ﷺ : « اللهمَّ آتِ نفسي تقواها ، وزكِّها أنتَ خير مَن زكّاها ، أنتَ وليُّها ومولاها »(١) .

وجعل النبي ﷺ تزكيَة النفس إحدىٰ الخصال الموجبة لذوْقِ طعْم الإيمان ، وفسَّر التزكية بإحدىٰ مراتب الإحسان ، وهو أعلى مقامات الدين ، وهو أنْ يعلمَ أن الله عزَّ وجل معه حيث كان ؛ قال رسول الله ﷺ : « ثلاث مَن فعَلَهُنَّ فقد ذاق طعْمَ الإيمان : مَن عبَدَ الله عز وجل وحده بأنه لا إله إلا هو . وأعطى زكاةَ ماله طيِّبة بها نفسُه في كلِّ عام ، ولم يُعط الهَرِمة ، ولا الدرنة ، ولا المريضة ، ولكن مِن أواسط أموالكم ؛ فإن الله عز وجل لم يسألكم خيرها ، ولم يأمركم بشرها . وزكّى نفسَه » . فقال رجل : وما تزكية النفس ؟ فقال : « أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث..........................

(١) أخرجه مسلم .

كان »[(١)] .

تزكيةُ النفوسِ مُسلَّم إلى الرسل :

قال ابن القيم:« إن تزكيةَ النفوس مُسَلَّم إلى الرسل ، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولَّاهم إياها ، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليمًا ، وبيانًا وإرشادًا ، لا خلقًا ولا إلهامًا ؛ فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم ، قال الله تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا مِن قبل لَفي ضلال مبين** ﴾ [الجمعة : ٢].وقال تعالى : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكِّيكم ويعلِّمكم الكتابَ والحكمةَ ويعلِّمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكرْكُم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] .

وتزكية النفوس أصعبُ مِن علاج الأبدان وأشدُّ ؛ فمَن زكَّى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة ، التي لم يجئ بها الرسل ؛ فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه،وأين يقع رأيه مِن معرفة الطبيب ؟! فالرسل أطبَّاء القلوب ، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا مِن طريقهم ، وعلى أيديهم ، وبمحْض الانقياد ، والتسليم لهم،والله المستعان »[(٢)] .

وقال: « الأبدان الزاكية هي التي زكَتْ بطاعة الله ، ونبتَتْ على أكْل الحلال ، فمتى خلصت الأبدان مِن الحرام وأدناس البشرية التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة ، وطهرت الأنفسُ مِن علائق الدنيا ؛ زكَتْ أرض القلب ، فقبلتْ بذرَ العلوم والمعارف ؛ فإن سُقيت بعد ذلك بماءِ الرياضة الشرعية – وهي التي لا تخرج عن علْم ، ولا تبعد عن واجب ، ولا تُعطِّل سنة – أنبتت

(١) صحيح : أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ، والبيهقي في السنن ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ١٠٤٦ .
(٢) مدارج السالكين ٢/٣١٥ .

من كلِّ زوجٍ كريمٍ ، مِن علْمٍ وحكمةٍ وفائدةٍ »[١] .

وَقَفَاتٌ مع قوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وإنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ :

رضي الله عن ابن عباس حين قال مفسرًا هذه الآية : « لعلى دين عظيم ، لا دين أحبُّ إليَّ ولا أرضىٰ عندي منه ، وهو دين الإسلام » . فجعل الدين كلَّه خلقًا ، فمن زاد عليك في الخُلُق ، فقد زاد عليك في الدين .

وقال الحسن رضي الله عنه : هو آداب القرآن .

وقال ابن القيم : إنك لعلىٰ الخلق الذي آثرك الله به في القرآن .

وفي الصحيحيْن : أن هشام بن حكيم « سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلُقه القرآن . فقال : لقد هممتُ أن أقوم ولا أسأل شيئًا » .

هكذا « تجيء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم : ﴿ **وإنك لعلىٰ خلق عظيم** ﴾ [القلم : ٤] ، وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم ﷺ ، ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود . ويعجز كلُّ قلمٍ ، ويعجز كل تصوُّر عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من ربِّ الوجود ، وهي شهادة من الله ، في ميزان الله لعبد الله ، يقول له فيها : ﴿ **وإنك لعلىٰ خلُق عظيمٍ** ﴾ . ومدلول الخلُق العظيم هو ما هو عند الله ، ممَّا لا يبلغ إلى إدراك مداه أحدٌ من العالمين !

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ ، تبرز من نواحٍ شتَّى :

تبرز من كوْنها كلمة من الله الكبير المتعال ، يسجّلها ضميرُ الكون ، وتثبت في كيانه وتتردَّد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٥ . انظر كتاب : معالم في السلوك وتزكية النفوس لعبد العزيز بن محمد العبد اللطيف – دار الوطن .

وتبرز من جانب آخر ، من جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقِّيها ، وهو يعلم مَنْ ربُّه هذا ، قائل هذه الكلمة ؛ ما هو ؟ ما عظمته ؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم مَن هو إلى جانب هذه العظمة المطلَقة ، والتي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين .

إن إطاقة محمد ﷺ لتلقِّي هذه الكلمة من هذا المصدر ، وهو ثابت لا ينسحق تحت ضغطها الهائل ، ولو أنها ثَناء ، ولا تتأرجح شخصيته تحت وقْعِها وتضطرب .. تلقِّيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن – هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كلِّ دليل .

ولقد رُويت عن عظمة خُلُقه في السيرة وعلى لسان أصحابه : رواياتٌ متنوِّعة كثيرة ، وكان واقِعُ سيرته أعظم شهادة من كل ما رُوي عنه ، ولكنّ هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كلِّ شيءٍ آخر .. أعظم بصدورها عن العليِّ الكبير ، وأعظم بتلقِّي محمد ﷺ لها وهو يعلم مَنْ هو العلي الكبير ، وبقائه بعدها ثابتًا راسخًا مطمئنًّا ، لا يتكبَّر على العباد ، ولا ينتفخ ولا يتعاظم ، وهو الذي سمِع ما سمِع من العلي الكبير !

والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وما كان إلّا محمد ﷺ – بعظمة نفسه هذه – مَن يحمل الرسالة الأخيرة بكلِّ عظمتها الكونية الكبرى ، فيكون كُفئًا لها ، كما يكون صورة حيَّة منها .

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال ، والعظمة والشموخ ، والصدق والحقِّ ؛ بحيث لا يحملها إلّا الرجل الذي يُثني عليه الله هذا الثناء ، فتُطيق شخصيته كذلك تلقي هذا الثناء ، في تماسُكٍ وفي توازنٍ ، وفي طمأنينة القلب الكبير ، الذي يسع حقيقةَ تلك الرسالة وحقيقة هذا الثناء العظيم .

إن حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة ، وإن عظمة هذه النفس

من عظمة هذه الرسالة ، وإن الخلُق المحمدي - كالحقيقة الإسلامية - لأبعدُ مِن مدى أي مجهرٍ يملكه بَشَرٌ ، وقصارىٰ ما يملكه راصدٌ لعظمة هذه الحقيقة أن يراها ولا يحدِّد مَداها ، وأنْ يُشير إلى مسارها الكوني دون أن يحدِّد هذا المسار .

ومرةً أخرىٰ أجد نفسي مشدودًا للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقِّي رسول الله ﷺ لهذه الكلمة من ربِّه ، وهو ثابت راسخ متوازِنٌ مطمئنٌّ الكيان .. لقد كان - وهو بشرٌ - يُثني على أحد أصحابه ، فيهتزُّ كيان صاحبه هذا وأصحابه ، من واقع هذا الثناء العظيم ، وهو بَشَرٌ ، وصاحبه يعلم أنه بشر ، وأصحابه يدركون أنه بَشَر . إنه نبيٌّ .. نعم ، ولكن في الدائرة المعلومةِ الحدود ، دائرة البشرية ذات الحدود ، فأمّا هو فيتلقَّى هذه الكلمة من الله ، وهو يعلم مَنْ هو الله ، هو بخاصَّةٍ يعلم مَن هو الله ، هو يعلم منه ما لا يعلمه سواه ، ثم يصطبر ويتماسك ، ويتلقَّى ويسير .. إنه أمر فوق كلِّ تصوُّر وفوق كل تقدير !! إنه محمد ﷺ وحدَه هو الذي يرقىٰ إلى هذا الأفْقِ مِن العظمة ، إنه محمد ﷺ .. وحده هو الذي يبلغ قمَّة الكمال الإنساني .إنه محمد ﷺ وحدَه هو الذي يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية ، حتى لتتمثَّل في شخصهِ حيَّة ، تمشي على الأرض في إهابِ إنسان .. إنه محمد ﷺ وحده الذي علِم الله منه أنه أهل لهذا المقام ، والله أعلمُ حيثُ يجعل رسالته ، وأعلَنَ في هذه أنه على خُلُقٍ عظيم ، وأعلن في الأخرى أنه جلَّ شأنه ، وتقدَّستْ ذاته وصفاته - يصلّي عليه هو وملائكته »[1] .

أصَالَةُ العنْصرِ الأخلاقيِّ في الإسلام :

قال الشيخُ سيِّد قطب رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ **وإنَّك لَعَلىٰ خلُقٍ عظيم** ﴾:« إن لهذه اللَّفتةِ دلالتَها على تمجيد العنصر الأخلاقي في ميزان الله ،

(١) الظلال ٦/٣٦٥٦ - ٣٦٥٧ .

وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الإسلامية . والناظر في هذه العقيدة كالناظر في سيرة رسولها ﷺ،يجد العنصر الأخلاقي بارزًا أصيلًا فيها ، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبيَّة على السَّوَاء ؛ الدعوة الكبرىٰ في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة ، والأمانة والصدق ، والعدل والرحمة ، والبرِّ وحفْظ العهد ، ومطابقة القول للفعل ، ومطابقتهما معًا للنيَّة والضمير ، والنهي عن الجور والظلم ، والخداع والغشِّ ، وأكل أموال الناس بالباطل والاعتداء على الحرمات والأعراض ، وإشاعةِ الفاحشة بأيَّة صورة من الصور.والتشريعاتُ في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي ؛ في الشعور والسلوك ، وفي أعماق الضمير ، وفي واقع المجتمع ، وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء . والرسول الكريم ﷺ يقول : « إنما بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق » ؛ فيلخِّص رسالته في هذا الهدَف النبيل ، وتتوارد أحاديثه تترىٰ في الحضِّ على كلّ خلُقٍ كريم ، وتقوم سيرته الشخصية مثالًا حيًّا وصفحة نقية ، وصورة رفيعة تستحقُّ من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد : ﴿ **وإنك لعَلَىٰ خلُقٍ عظيم** ﴾ ، فيمجِّد بهذا الثناء نبيَّه ﷺ كما يمجِّد به العنصر الأخلاقي في منهجه ، الذي جاء به هذا النبي الكريم ﷺ ، ويشدّ به الأرض إلى السماء ، ويعلِّق به قلوب الراغبين إليه سبحانه ، وهو يدلُّهم على ما يحبُّ ويرضىٰ من الخلُق القويم .

وهذا الاعتبار هو الاعتبار الفذُّ في أخلاقيَّة الإسلام ، فهي أخلاقية لم تنبع من البيئة ، ولا من اعتبارات أرضية إطلاقًا ، وهي لا تُستمدُّ ولا تعتمد على اعتبار من اعتبارات العُرْف أو المصلحة أو الارتباطات التي كانت قائمة في الجيل ، إنما تُستمدُّ من السماء وتعتمد على السماء .. تستمدّ من هُتاف السماء للأرض لكي تطّلع إلى الأفق ، وتستمدّ من صفات الله المطلقة ليحقِّقها البَشَر في حدود الطاقة ، كي يحقِّقوا إنسانيَّتهم العليا ، وكي يصحبوا أهلًا لتكريم الله لهم واستخلافهم في الأرض ، وكي يتأهَّلوا للحياة الرفيعة الأخرى في مقعَدِ صِدْق عند مليكٍ مُقْتدِر ، ومِن ثَمَّ فهي غير مقيَّدة ، ولا محدودة بحدود ، من

أي اعتبارات قائمة في الأرض ، إنما هي طليقة ترتفع إلى أقصى ما يُطيقه البشر ؛ لأنها تتطلَّع إلى تحقيق وظهور آثار صفات الله الطليقة من كلِّ حدٍّ ومن كلِّ قيد . ثم إنها ليست فضائل مفردة ؛ صدق وأمانة وعدل ورحمة وبرّ ، إنما هي منهج متكامل تتعاون فيه التربية التهذيبيَّة مع الشرائع التنظيميَّة ، وتقوم عليه فكرة الحياة كلّها واتجاهاتها جميعًا ، وتنتهي في خاتمة المطاف إلى الله ، لا إلى أيِّ اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة .

وقد تمثَّلت هذه الأخلاقية الإسلامية- بكمالها وجمالها ، وتوازنها واستقامتها ، واطِّرادها وثباتها- في محمد ﷺ ، وتمثَّلت في ثناء الله العظيم ، وقوله : ﴿ **وإنك لعلى خلُقٍ عظيم** ﴾ »[1].

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى : ﴿ **خذِ العفو وأْمُرْ بالعُرْف وأعرضْ عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف : ١٩٩]. قال جعفر بن محمد : أمَرَ الله نبيَّه ﷺ بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال :

أحدها : أمْرهم ونهيُهم بما فيه مصلحتهم .

الثاني : أخْذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة .

الثالث : أن الناس معه قسمان : موافقٌ له موالٍ ، ومعادٍ له معارض . وعليه في كل واحد من هذه واجب :

فواجبه في أمرهم ونهيهم : أن يأمر بالمعروف ، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم ، وينهاهم عن ضدِّه .

وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة : أن يأخذ منهم ما سهل عليهم ، وطوَّعت له به أنفسهم ، سماحةً واختيارًا، ولا يحملهم على العَنَت والمشقَّة فيُفْسِدهم .

---

(١) ظلال القرآن ٦/٣٦٥٧ - ٣٦٥٨ .

وواجبه عند جهْل الجاهلين عليه : الإعراض عنهم ، وعدم مقابلتهم بالمِثْل والانتقام منهم لنفسه ؛ فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **خذِ العفو وأْمُرْ بالعُرْف وأعرِض عن الجاهلين** ﴾ .

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : أمَرَ الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس .

وقال مجاهد : يعني خُذِ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس ، مثل : قبول الأعذار ، والعفو والمساهلة ، وترك الاستقصاء في البحث ، والتفتيش عن حقائق بواطنهم .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : خذْ ما عفا لك من أموالهم . وهو الفاضل عن العيال ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قلِ العفو** ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

ثم قال تعالى : ﴿ **وأمر بالعرف** ﴾ ، وهو كل معروف . وأعْرَفُه : التوحيد ، ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد .

ثم قال تعالى : ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ يعني إذا سفه عليك الجاهلُ ، فلا تقابله بالسَّفَه ؛ كقوله تعالى : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، وعلى هذا فليست بمنسوخة ، بل يُعرض عنه مع إقامة حقِّ الله عليه ، ولا ينتقم لنفسه .

وهكذا كان خلُقه ﷺ ؛ قال أنس رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا » . وقال : « ما مسستُ ديباجًا ولا حريرًا ألْيَنَ من كفِّ رسول الله ﷺ ، ولا شممتُ رائحة قطُّ أطيب من رائحة رسول الله ﷺ . ولقد خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي قطُّ : أُفٍّ ؛ ولا قال لشيء فعلتُه : لِمَ فعلْتَهُ ؟ ولا لشيء لم أفعلْه : ألا فعلتَ كذا ؟ » . متفق عليهما .

وأخبر رسول الله ﷺ « أن البرَّ : هو حسن الخلق » .

وفي صحيح مسلم عن النوَّاس بن سمعان رضي الله عنه قال : « سألتُ رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم ، فقال : البرّ حسْنُ الخُلُق ، والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

فقابَلَ البر بالإثم ، وأخبر أن البر حُسْن الخلُق ، والإثمَ حوازُّ الصدور . وهذا يدل على أنَّ حسن الخلق : هو الدين كله ، وهو حقائق الإيمان ، وشرائع الإسلام ؛ ولهذا قابله بالإثم .

وفي حديث آخر : « البر ما اطمأنَّت إليه النفس ، والإثم ما حاك في الصدر » . وقد فسر حسن الخلق بأنه البرُّ ، فدلّ على أنَّ حسْنَ الخلق : طمأنينة النفس والقلب ، والإثم : حواز الصدور ، وما حاك فيها واسترابتْ به . وهذا غيرُ حسْن الخلق وسوئه في عرْف كثير من الناس ؛ كما سيأتي في الصحيحيْن عن رسول الله ﷺ : « خياركم : أحاسنكم أخلاقًا » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عنه ﷺ : « أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَض الجنة لمن ترك المِرَاء وإن كان محقًّا ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازِحًا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسُن خلُقه » . رواه الطبراني . وإسناده صحيح .

فجعل البيت العلويَّ جزاءً لأعلى المقامات الثلاثة ، وهي حُسْن الخلُق . والأوسط لأوسطها ، وهو ترك الكذب . والأدنى لأدناها ، وهو ترك المماراة وإن كان معه حقٌّ . ولا ريبَ أن حسن الخلق مشتمِل على هذا كلِّه .

أحاديثُ عَطِرَة في الحثِّ علىٰ حُسْن الخُلُق :

قال رسول الله ﷺ : « اتقِ الله حيثما كنتَ ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمْحُها ، وخالقِ الناسَ بخُلُق..................................

حسن »[١] .

وقال ﷺ : « أثقلُ شيءٍ في الميزانِ : الخُلُقُ الحسنُ »[٢] .

وقال ﷺ : « أثقلُ شيءٍ في ميزانِ المؤمنِ خلُقٌ حسنٌ ؛ إنَّ الله يُبغضُ الفاحشَ المتفحِّش البذيَّ »[٣] .

وقال ﷺ : « أحبُّ عبادِ الله إلى الله أحسنهمْ خلقًا»[٤] .

وقال ﷺ : « استقِمْ وليْحسُنْ خُلقُكَ للناسِ »[٥] .

وقال رسول الله ﷺ : « أفضلُ المؤمنينَ أحسنُهمْ خلقًا »[٦] .

وقال ﷺ : « أقربكم مني مَجلسًا يومَ القيامةِ : أحسنكم خُلقًا »[٧] .

وقال ﷺ : « أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهم خُلقًا »[٨] .

---

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي ذرٍّ ، وأحمد والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ ، وابن عساكر عن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٦ .

(٢) رواه ابن حبان عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٣ .

(٣) رواه البيهقي في السنن عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٣٤ .

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن أسامة بن شريك ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٧ .

(٥) رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٦٢ .

(٦) رواه ابن ماجه ، والحاكم في المستدرك عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٣٩ .

(٧) رواه ابن النجار عن علي ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٨٧ .

(٨) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان ، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٤١ .

وقال ﷺ : « أكملُ المؤمِنينَ إيمانًا أحسنُهمْ خُلقًا ، الموطئون أكْنافًا ، الَّذينَ يألفُونَ ويُؤلَفونَ ، ولا خيرَ فِي مَنْ لا يألَفُ ولا يُؤلَفُ »(١) .

وقال ﷺ : « أكمل المؤمِنينَ إيمانًا أحسنُهمْ خُلقًا ، وخِيارُكمْ خِيارُكمْ لِنسائِهِمْ »(٢) .

وقال ﷺ : « إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرةِ مجالِسَ أحاسنُكمْ أخلاقًا ، وإنَّ أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرةِ أسوأُكم أخلاقًا ، الثرثارُونَ المتفيهقونَ المتشدِّقون »(٣) .

وقال ﷺ : « إنَّ أقربَكمْ مني مَنزِلًا يومَ القيامة : أحاسنُكمْ أخلاقًا في الدُّنيا »(٤) .

وقال ﷺ : « إنَّ أكمل المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهمْ خُلقًا ، وإن حُسنَ الخُلقِ لَيبلُغُ درجة الصوْمِ والصلاة »(٥) .

وقال ﷺ : « إن الرجلَ ليدرِكُ بحسنِ خلقِهِ درجاتِ قائمِ الليلِ ، صائمِ النَّهارِ »(٦) .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٤٢ .

(٢) رواه الترمذي وابن حبان عن أبي هريرة وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٤٣ .

(٣) رواه أحمد وابن حبان ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي ثعلبة الخشني ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٣١ . والمتفيهقون : أي المتكبِّرون .

(٤) رواه ابن عساكر عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٦٩ .

(٥) رواه البزار عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٧٤ .

(٦) رواه أحمد ، والحاكم في المستدرَك عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦١٧ .

وقال ﷺ : « إنَّ الرجلَ لَيُدرك بحسْن خلقِه درجةَ القائمِ بالليلِ الظامئ بالهواجر »[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال ، ويحبُّ معاليَ الأخلاقِ ، ويكرهُ سفسافَها »[٢] .

وقال ﷺ : « إنَّ الله تعالى يحِبُّ معاليَ الأمورِ وأشْرَافَها ، ويكرهُ سَفْسافها »[٣] .

وقال ﷺ : « إنَّ المؤمنَ لَيُدركُ بحسْنِ الخُلقِ درجةَ القائمِ الصائم »[٤] .

وقال ﷺ : « إنَّ المسلمَ المُسَدَّدَ[٥] لَيُدركُ دَرَجَةَ الصَّوَّامِ القوَّامِ بآياتِ الله ، بحسْنِ خلُقه وكرمِ ضريبتِهِ[٦] »[٧] .

وقال ﷺ : « إنّ النَّاسَ لمْ يُعطَوْا شيئًا خيرًا منْ خلُقٍ حسَنٍ »[٨] .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦١٧ .
(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن جابر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٣٩ .
(٣) رواه الطبراني في الكبير عن الحسين بن علي ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٨٦ .
(٤) رواه أبو داود وابن حبان عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٢٨ .
(٥) المسدد : أي المستقيم على أمر الله .
(٦) كَرَمَ ضريبته : أي حُسْن طبيعته وسجيته .
(٧) رواه أحمد والطبراني في الكبير عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٤٥ .
(٨) رواه الطبراني في الكبير عن أسامة بن شريك ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٧٣ .

وقال ﷺ : « إنَّ لله تعالى آنيةً من أهلِ الأرض ، وآنيةُ ربِّكم قلوبُ عباده الصالحين ، وأحبُّها إليه ألينُها وأرقُّها »[١] .

وقال ﷺ : « إنّ مِنْ أحَبِّكمْ إليَّ أحسنَكمْ أخلاقًا »[٢] .

وفي سنن الترمذي ، وصحَّحه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ سُئل عن أكثر ما يُدْخل الناس الجنة ، فقال : « تقوى الله ، وحسن الخُلق » . وسُئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : « الفم والفرج »

وقال ﷺ : « إنَّ منْ أحَبكمْ إليَّ وأقرَبكمْ منِّي مَجلسًا يومَ القيامةِ : أحاسِنَكمْ أخلاقًا ، وإنَ أبغَضَكمْ إليَّ وأبعَدَكمْ منِّي يومَ القيامةِ : الثَّرثارُونَ ، والمتشدِّقون ، والمتَفيهِقونَ » . قالوا : يا رسولَ الله ، ما المُتَفيهِقونَ ؟ قال : « المتكبِّرون »[٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « إنّما بُعِثْتُ لِأتَمِّمَ صالحَ الأخلاق »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « بُعِثتُ لأتمِّمَ صالحَ الأخلاقِ »[٥] .

وقال رسول الله ﷺ : « خِيارُكمْ أحاسِنكم أخلاقًا »[٦] .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن أبي عنبسة وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٥٩ .

(٢) رواه البخاري عن ابن عمرو .

(٣) رواه الترمذي عن جابر ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٩٧ .

(٤) رواه ابن سعد ، والبخاري في الأدب ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٤٥ .

(٥) رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٣٠ .

(٦) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي عن ابن عمرو .

وقال ﷺ : « خِيارُكمْ أحاسِنُكمْ أخلاقًا ، المُوَطئُونَ أكنافًا ، وشِرارُكمْ الثّرثارون ، المُتفيهِقونَ ، المُتشدِّقونَ »[١] .

وقال ﷺ : « خيرُ الناسِ أحسنهم خُلقًا »[٢] .

وقال ﷺ : « خيرُكم مَن يُرجى خيرُهُ ، ويُؤمَنُ شرُّهُ ، وشرُّكم مَنْ لا يُرجى خيْرهُ ولا يُؤمَنُ شرُّهُ »[٣] .

وقال ﷺ : « خيرُكمْ إسلامًا أحاسنُكمْ أخلاقًا إذا فقِهُوا »[٤] .

وقال ﷺ : « خيرُ ما أُعطِيَ الناسُ خُلقٌ حَسنٌ »[٥] .

وقال ﷺ : « عليكَ بحسنِ الخُلقِ ، وطولِ الصَّمْتِ ؛ فوَالَّذي نفسي بيدِهِ ، ما تَجمَّلَ الخلائقُ بمِثلِهما »[٦] .

وقال ﷺ : « ليسَ شيءٌ أثقلَ في الميزانِ من الخُلُق الحسن »[٧] .

وقال ﷺ : « ما شيءٌ أثقل في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ من خلُقٍ حسنٍ ؛ فإنَّ الله تعالى يُبغضُ الفاحِشَ البذيَّ »[٨] .

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢٥٥ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢٨٢ .

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده عن أنس ، وأحمد والترمذي عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣١٥ .

(٤) رواه البخاري في الأدب ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٠٧ .

(٥) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه ، والحاكم في المستدرك عن أسامة بن شريك ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣١٦ .

(٦) رواه أبو يعلى في مسنده عن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٩٢٧ .

(٧) رواه أحمد عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٢٦٦ .

(٨) رواه الترمذي عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٠٨ .

وقال ﷺ : « ما من شيء يُوضع في الميزان أثقلَ من حسْن الخلق ، وإنَّ صاحب حسن الخلق لَيبلُغُ به درجةَ صاحب الصَّوم والصَّلاةِ »[١] .

وقال ﷺ : « مَن كان سَهلًا هيِّنًا ليِّنًا ، حرَّمه الله على النَّار »[٢] .

وقال ﷺ : « المؤمنونَ هيِّنونَ ليِّنونَ ، كالجملِ الأَنِفِ[٣] ، إنْ قِيدَ انقادَ ، وإذا أُنيخَ على صخرةٍ استناخ[٤] »[٥] .

وقال ﷺ : « يا عائشة ، إن شِرار الناس الذين يُكرَمون اتقاءَ شرِّهم »[٦] .

« قال يحيى بن معاذ : في سَعة الأخلاق كُنوزُ الأرزاق .

وقال رحمه الله : سُوءُ الخلُقِ سيِّئة لا تَنفع معها كثرة الحسنات ، وحُسْن الخلُق حسنة لا تضرُّ معها كثرة السيئات .

وقال الجنيد : أربع ترفَعُ العبد إلى أعلى الدرجات وإن قَلَّ عمله وعِلْمُه : الحِلْم والتواضع والسخاء وحسْن الخلُق ، وهو كال الإيمان .

وقال الفضيل : لَأنْ يصاحِبَني فاجرٌ حَسَنُ الخلُق أحبُّ إليَّ من أن يصحبَني عابد سيِّءُ الخلُق »[٧] .

---

(١) رواه الترمذي عن أبي الدرداء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٦٠٢ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٦٠ .

(٣) أي : الذلول المنقاد .

(٤) أي : إذا مال به صاحبه علي صخرة ، انقاد له .

(٥) رواه ابن المبارك عن مكحول مرسلًا ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٥٤٥ .

(٦) رواه أبو داود عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٠٠ .

(٧) إحياء علوم الدين ٣/٥٧ .

قال الحسن : حسْن الخلُق : بسطُ الوجه ، وبذْلُ الندىٰ ، وكفُّ الأذىٰ .

وقال أبو عثمان : هو الرضا عن الله تعالى .

وقال سهل التستري : أدْناه : الاحتمال ، وترْك المكافأة ، والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه .

وقال : أن لا يتهم الحقَّ في الرزق ، ويثقَ به ويسكن إلى الوفاء بما ضمِن ، فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه ، وفيما بينه وبين الناس .

وقيل : حُسْن الخُلُق : بذل الجميل وكفُّ القبيح .

وقيل : التخلّي من الرذائل ، والتحلي بالفضائل .

أمّهاتُ محَاسِنِ الأخلاقِ وأركانُ حُسْن الخُلُق عند ابن القيّم :

قال ابن القيم في « المدارج » (٢/٣٠٨ - ٣١١):وحسن الخلُق يقوم على أربعة أركان ، لا يُتصوَّر قيام ساقه إلّا عليها : الصبر ، والعفَّة ، والشجاعة ، والعدْل .

فالصبر : يحمله على الاحتمال وكظْم الغيظ ، وكفِّ الأذىٰ ، والحلْم والأناة والرفْق ، وعدم الطيش والعجلة .

والعِفَّة : تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل . وتحمله على الحياء وهو رأس كلّ خير . وتمنعه من الفحشاء ، والبخل ، والكذب ، والغيبة والنميمة .

والشجاعة : تحمله على عزَّة النفس ، وإيثار معالي الأخلاق والشِّيم ، وعلى البذْلِ والندىٰ ، الذي هو شجاعة النفس وقوَّتها على إخراج المحبوب ومفارقته . وتحمِله على كظْم الغيْظ والحلْم ؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يُمسك

عنانها ، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطْش ؛ كما قال النبي ﷺ : « ليس الشديدُ بالصُّرَعَة ، إنما الشديد : الذي يملك نفسه عند الغضب » . وهو حقيقة الشجاعة ، وهي ملكة يقْتَدِرُ بها العبد على قهر خَصْمه .

والعدلُ : يحمله على اعتدال أخلاقه ، وتوسُّطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط ، فيحمله على خلُق الجود والسخاء الذي هو توسُّطٌ بين الذلّ والقِحَةِ . وعلى خلق الشجاعة ، الذي هو توسُّط بين الجبن والتهوُّر . وعلى خلُق الحلْم ، الذي هو توسُّط بين الغضَب والمهانة وسقوط النفس .

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة .

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان : الجهل ، والظلم ، والشهوة ، والغضب .

فالجهل : يُريه الحسَن في صورة القبيح ، والقبيحَ في صورة الحسن ، والكمالَ نقصًا،والنقصَ كمالًا .

والظلم : يحمِله على وضْع الشيءِ في غير موضعه ؛ فيغضب في موضع الرضا ، ويرضى في موضع الغضب ، ويجهل في موضع الأَناة ، ويبخل في موضع البذْل ، ويبذُل في موضع البخْل ، ويُحجم في موضع الإقدام ، ويُقدِم في موضع الإحجام ، ويَلين في موضع الشِّدَّة ، ويشتدُّ في موضع اللِّين ، ويتواضع في موضع العِزَّة ، ويتكبَّر في موضع التواضع .

والشهوة : تحمله على الحِرْص والشحِّ والبخل ، وعدم العفَّة والنَّهمة والجَشَع ، والذلّ،والدناءات كلِّها .

والغضب : يحمله على الكِبْر والحِقْد والحَسَد ، والعدوان والسَّفَه .

ويتركب من بين كل خُلقيْن من هذه الأخلاق : أخلاقٌ مذمومة .

وملاك هذه الأربعة أصلان : إفراط النفس في الضعْف ، وإفراطها في

القوة ؛ فيتولَّد من إفراطها في الضعف : المهانة والبخل ، والخِسَّة واللُّؤْم ، والذلُّ والحرص ، والشحّ،وسَفْساف الأمور والأخلاق .

ويتولَّد من إفراطها في القوة : الظلم ، والغضب ، والحِدَّة ، والفحْش ، والطيْش .

ويتولَّد مِن تزوُّج أحدِ الخلُقَيْن بالآخر : أولاد غيَّة كثيرون ؛ فإن النفس قد تجمع قوَّة وضعفًا ، فيكون صاحبها أجْبَرَ الناس إذا قَدَر ، وأذلَّهم إذا قُهِر . ظالم عنوف جبار ؛ فإذا قُهِر صار أذلَّ من امرأة . جبانٌ عن القوي ، جريء على الضعيف .

فالأخلاق الذميمة : يولِّد بعضُها بعضًا ، كما أن الأخلاق الحميدة : يولِّد بعضها بعضًا وكلّ خلُق محمود مُكْتَنَفٌ بخلُقَيْن ذميمَيْن ، وهو وسط بينهما ، وطرفاه خلقان ذميمان ؛ كالجود : الذي يكتنفه خُلُقَا البخلِ والتبذير . والتواضُع : الذي يكتنفه خلُقا : الذلّ والمهانة ، والكبر والعلو .

فإن النفس متى انحرفتْ عن « التوسُّط » ، انحرفتْ إلى أحد الخلُقين الذميمَيْن ولا بدَّ ؛ فإذا انحرفتْ عن خلُق « التواضع » ، انحرفتْ : إمَّا إلى كبْرٍ وعُلُو ، وإما إلى ذلٍّ ومهانة وحقارة . وإذا انحرفت عن خلُق « الحياء » ، انحرفت : إما إلى قِحَة وجرأة ، وإما إلى عجْزٍ وخَوَر ومهانة ، بحيث يُطمِع في نفسه عدوه ، ويفوته كثير من مصالحه ، ويزعم أن الحامِل له على ذلك الحياء ، وإنما هو المهانة والعجْز ، وموْت النفس .

وكذلك إذا انحرفتْ عن خلُق « الصبر المحمود » ، انحرفتْ : إما إلى جزع وهلَع وجشَع وتسخُّط ، وإما إلى غلْظَةِ كَبِدٍ ، وقسوة قلبٍ ، وتحجر طبْع . كما قال بعضهم :

تبكي علينا ولا نبكي على أحدٍ   فنحنُ أغلظُ أكبادًا من الإبلِ

وإذا انحرفت عن خلُق « الحلم » ، انحرفت : إمَّا إلى الطيش والترَف

والحِدَّة والخفَّة ، وإما إلى الذلِّ والمهانة والحقارة . ففرقٌ بين مَن حلْمُه حلْمُ ذلٍّ ومهانة وحقارة وعجز ، وبين من حلمه حلْم اقتدار وعزَّة وشَرَف . كما قيل :

كـلُّ حلـمٍ أتـى بغيْـرِ اقتـدارٍ حجَّـةٌ لاجـئٌ إليهـا اللئـامُ

وإذا انحرفتْ عن خلُق « الأَناة والرفق » ، انحرفت : إما إلى عجَلَة وطيْش وعُنْف ، وإما إلى تفريط وإضاعة . والرفق والأناة بينهما .

وإذا انحرفتْ عن خلُق « العزة » التي وهبَها الله للمؤمنين ، انحرفت : إما إلى كبْر ، وإما إلى ذلٍّ . والعزة المحمودة بينهما .

وإذا انحرفتْ عن خلق « الشجاعة » ، انحرفتْ : إما إلى تهوُّر وإقدامٍ غير محمود ، وإما إلى جبْن وتأخُّر مذموم .

وإذا انحـرفت عن خلُق « المنافسة في المراتب العاليـة والغِبْطـة » ، انحرفتْ : إما إلى حسَد ، وإمّا إلى مهانة وعجزٍ وذلٍّ ، ورضًا بالـدُّون .

وإذا انحرفتْ عن « القناعة » ، انحرفت : إما إلى حرص وكَلَبٍ ، وإما إلى خِسَّة ومهانة وإضاعة .

وإذا انحرفتْ عن خلق « الرحمة » ، انحرفت : إما إلى قسوة ، وإما إلى ضعف قلب وجبْن نفْسٍ ؛ كمن لا يقدم على ذبْح شاة ، ولا إقامة حدٍّ ، وتأديبِ ولد ، ويزعم أنَّ الرحمة تحمله على ذلك ، وقد ذبح أرحمُ الخلْقِ ﷺ بيدِه في موضعٍ واحدٍ ثلاثًا وستين بَدَنة ، وقطع الأيدي من الرجـال والنسـاء ، وضرب الأعناق ، وأقام الحدود ، ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم . وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم .

وكـذلك طلاقَة الوجْه ، والبِشْر المحمود ؛ فإنه وسَطٌ بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخدِّ ، وطي البشْر عن البَشَر ، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد ، بحيث يُذهب الهيْبة ، ويُزيل الوقار ، ويطمع في الجانب ، كما

أن الانحراف الأول يوقع الوَحْشة والبغضة والنفْرة في قلوب الخلْق .

وصاحب الخلُق الوسَط : مهيبٌ محبوب ، عزيزٌ جانبُه ، حبيب لقاؤه .

وفي صفة نبينا ﷺ : « من رآه بديهةً هابَه ، ومن خالطه عِشْرةً أحبَّه » . والله أعلم .

أركانُ حُسْنِ الخُلُقِ ثلاثةٌ عندَ الهروي :

قال الهروي : « جميعُ الكلام فيه يدور على قطْبٍ واحد ، وهو بذْلُ المعروف ، وكفُّ الأذىٰ . وإنما يُدرَك إمكان ذلك في ثلاثة أشياء :

في العلم ، والجُود ، والصبر »[1] .

فأركان حسْنِ الخلُق عند شيْخ الإسلام الهروي ثلاثة :

١ - العلم .	٢- الجود .	٣- الصبر .

قال ابن القيم : « فـ « العلم » يُرشده إلى مواقع بذْل المعروف ، والفرقِ بينه وبين المنكر ، وترتيبه في وضعه مواضعه ؛ فلا يضع الغضب موضع الحلم ، ولا بالعكس ، ولا الإمساك موضع البذل ، ولا بالعكس ، بل يعرف مواقع الخير والشرِّ ومراتبها ، وموضع كلِّ خلُق : أين يضعه ، وأين يحسن استعماله .

و« الجود » يبعثه على المسامحة بحقوق نفسه ، والاستقصاء منها بحقوق غيره . فالجود هو قائد جيوش الخير .

و« الصبر » يحفظ عليه استدامة ذلك ، ويحمله على الاحتمال ، وكظم الغيظ ، وكف الأذى ، وعدم المقابلة . وعلى كلِّ خير ، كما تقدم . وهو أكبر العون على نيْل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة . قال الله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبرِ والصلاةِ وإنها لَكَبيرةٌ إلّا على الخاشعين** ﴾ [البقرة : ٤٥] .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٦ - ٣١٧ .

فهذه الثلاثة أشياء : بها يدرَك التصوفُ ، والتصوُّف : زاوية من زوايا السلوك الحقيقي ، وتزكية النفس وتهذيبها ، لتستعدَّ لسيْرها إلى صحبة الرفيق الأعلى ، ومعيَّة مَن تحبُّه ؛ فإن المرء مع مَن أحبَّ . كما قال سمنون : ذهب المحبُّون بشرف الدنيا والآخرة ؛ فإن المرء مع من أحب . والله أعلم »(١) .

أمهاتُ محاسِنِ الأخلاقِ وأركانُ حُسْنِ الخُلُق عند الغزالي أربعة :

ذهب الغزالي إلى أنّ حُسْن الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال الجميلة المحمودة شرعًا وعقلًا ، بسهولة ويُسْر من غير حاجة إلى فكر وروِيَّة . فهاهنا أربعة أمور :

أحدها : فعْل الجميل .

والثاني : القدرة عليه .

والثالث : المعرفة به .

الرابع : هيئة للنفس ، بها تميل إلى الحسن ويتيسر عليها .

وليس الخلُق عبارة عن الفعل ، فربَّ شخصٍ خلُقه السخاء ولا يبذل ؛ إمَّا لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلُقه البخل وهو يبذل ؛ إما لباعث أو لرياء .

وليس هو عبارة عن القوة ؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء واحد ، وكل إنسان خُلِق بالفطرة قادرًا على الإعطاء والإمساك .

وليس هو عبارة عن المعرفة ؛ فإن المعرفة تتعلَّق بالجميل والقبيح جميعًا على وجه واحدٍ ، بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، فالخُلُق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة .

يقول الغزالي رحمه الله : « في الباطن أربعة أركان لا بدّ من الحسن في

---

(١) مدارج السالكين ٣١٧/٢ .

جميعها ، حتى يتمَّ حسن الخُلُق ، فإذا استوتِ الأركان الأربعة واعتدلتْ وتناسبتْ ، حصل حُسْن الخلق ؛ وهي :

١ - قوة العلم . ٢ - وقوة الغضب . ٣ - وقوة الشهوة .

٤ - وقوة العدْل بين هذه القوى الثلاث .

أمَّا قَوَّةُ العلم : فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يَسهُل بها درْك الفرْق بين الصدق والكَذِب في الأقوال ، وبين الحقِّ والباطل في الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح في الأفعال ، فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحِكْمَة ، والحكمة رأس الأخلاق الحَسَنَة ، وهي التي قال الله فيها : ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتي خيرًا كثيرًا** ... ﴾ الآية [البقرة : ٢٦٩] »[1] .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : « إن مِن فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان ؛ متى تأتيه ؟ ومن أين تأتيه ؟ » .

وقال الحسن البصري رحمه الله : « لا يزال العبد بخير ما علم الذي يُفسِد عليه عمله »[2] .

وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله : « اعلم أن الباب الأعظم الذي يدخل منه إبليس على الناس هو الجهل ، فهو يدخل منه على الجُهَّال بأمان ، وأمَّا العالم فلا يدخل عليه إلّا مسارَقَة ، وقد لبّس إبليس على كثير من المتعبِّدين بقلّة علْمهم ؛ لأن جمهورهم يشتغل بالتعبُّد ، ولم يحكِّم العلم »[3] .

قال الغزالي : « **وأمَّا قوة الغضب** : فحُسْنُها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حدِّ ما تقتضيه الحكمة . **وكذلك الشهوة** ؛ حُسْنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة ؛ أعني إشارة العقل والشرع .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٥٨ .

(٢) الزهد لابن المبارك ص ٥٢٨ ، والزهد لأحمد ص٢٧٨ .

(٣) تلبيس إبليس ص ١٤٩ .

وأمَّا قوة العدل : فهو ضبْط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع .

فمن استوتْ فيه هذه الخصال واعتدلتْ ، فهو حسَنُ الخُلق مطلقًا ، ومن اعتدل فيه بعضُها دون البعض ، فهو حسَنُ الخُلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصَّة ، كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض .

وحُسْن القوة الغضبية واعتدالها يُعبّر عنه بالشجاعة . وحُسْنُ قوة الشهوة واعتدالها يعبّر عنه بالعفّة .

فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرَف الزيادة ، تُسمَّى تهوُّرًا . وإن مالت إلى الضعف والنقصان ، تسمَّى جُبْنًا وخوَرًا . وإن مالت قوة الشهوة إلى طرَف الزيادة تسمَّى شَرَهًا . وإن مالت إلى النقصان تسمَّى جمودًا .

والمحمود هو الوسَط وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان مذمومتان ، والعدل إذا فات فليس فيه طرفَا زيادةٍ ونقصان ، بل له ضدٌّ واحد ومقابل ، وهو الجوْر .

وأمَّا الحكمة فيسمَّى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة : خبْثًا وجربزة ، ويسمَّى تفريطها بَلَهًا ، والوسَطُ هو الذي يختصُّ باسم الحكمة .

فإذن ، أُمَّهاتُ الأخلاق وأصولها أربعة :

١ – الحكمة . ٢ – الشجاعة . ٣ – العفَّة . ٤ – العدل .

فمِنَ اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلُّها .

إذ من **اعتدال قوة العقل** : يحصل حسن التدبير وجودة الذهن ، وثقَابة الرأي وإصابة الظنّ ، والتفطُّن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس .

ومن إفراطها : تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء .

ومن تفريطها : يصدر البلَهُ والغمارة والحمق والجنون .

وأمَّا خلق الشجاعة : فيصدر منه الكرم ، والنجدة ، والشهامة ، وكسْرُ النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والوقار ، والتودُّد ... وأمثالها ، وهي أخلاق محمودة .

وأما إفراطها ، وهو التهوُّر : فيصدر منه الصَّلَف والبذخ والاستشاطة والتكبُّر والعجْب .

وأمَّا تفريطها : فيصدر منه المهانة والذلّة والجزَع ، والخساسة وصغر النفس ، والانقباض عن تناوُل الحقِّ الواجب .

وأما **خلُق العِفَّة** : فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة ، والورَع واللَّطَافة والمساعدة والظَّرْف وقلّة الطمع .

وأمَّا ميلها إلى الإفراط أو التفريط : فيحصُل منه الحرص والشَّره ، والوقاحة والخبث ، والتبذير والتقتير ، والرياء والهتكة ، والمجانة والعبَث ، والملَق والحسد ، والشماتة ، والتذلُّل للأغنياء ، واستحقار الفقراء وغير ذلك .

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة ؛ وهي : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . والباقي فروعها »[1] .

كمَالُ الاعتدالِ في هذه الأربع لرسول الله ﷺ :

قال الغزالي : « ولم يبلغْ كمالَ الاعتدال في هذه الأربع إلَّا رسولُ الله ﷺ ، والناس بعده متفاوتون في القرْب والبعد منه . فكلُّ من قرب منه في هذه الأخلاق ، فهو قريب من الله تعالى بقدْر قرْبه من رسول الله ﷺ ، وكلّ من جمع كمال هذه الأخلاق استحقَّ أن يكون بيْن الخلْق مِلكًا مطاعًا ، يرجع الخلق كلُّهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال . ومَنِ انفكَّ عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها ؛ استحقَّ أن يخرج من بين البلاد والعباد ؛ فإنه قد قرُب من الشيطان اللَّعِين المُبْعَد .

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين ، فقال تعالى :

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٥٧ - ٥٩ .

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسولِه ثمَّ لمْ يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك همُ الصادقون ﴾ [الحجرات : ١٥] . فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين ، وهو ثمرة العقل ، ومنتهى الحكمة . والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب ، على شرط العقل وحدِّ الاعتدال ؛ فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال : **﴿ أشدَّاء على الكفَّارِ رُحَماءُ بينهم ﴾** [الفتح : ٢٩] ، إشارة إلى أنَّ للشِّدَّة موضعًا ، وللرحمة موضعًا ، فليس الكمال في الشدَّة بكل حال ، ولا في الرحمة بكل حال ، فهذا بيان معنى الخلُق وحُسْنه وقُبحه ، وبيان أركانه وثمراته وفروعه »(١) .

الخُلق يمكنُ اكتسابُه :

قال ابن القيم في « المدارج » : « فإن قلتَ : هل يمكن أن يقع الخُلُق كسبيًّا ، أو هو أمر خارج عن الكسب ؟

قلت : يمكن أن يقع كسبيًّا بالتخلُّق والتكلُّف ، حتى يصير له سَجية وملَكة ؛ وقد قال النبي ﷺ لأشجّ عبد القيس رضي الله عنه : « إن فيك لخلُقيْن يحبُّهما الله : الحلم ، والأناة » . فقال : أخلُقين تخلَّقْتُ بهما ، أم جَبَلني الله عليهما ؟ فقال : « بل جبَلك الله عليهما » . فقال : الحمد لله الذي جبَلني على خُلُقيْنِ يحبُّهما الله ورسوله . متفق عليه .

قد دلَّ على أن من الخلُق : ما هو طبيعة وجِبِلَّة ، وما هو مكتسب . وكان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح : « اللهمَّ اهدني لأحسنِ الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرفْ عنِّي سيِّئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت » . فذكر الكسْب والقَدَر . والله أعلم »(٢) .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٦٠ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٣١٥

قال الغزالي رحمه الله في بيان السبب الذي به يُنال حُسْن الخلق :

« **أحدهما** : جُودٌ إلهي وكمال فِطْري ، بحيث يُخلق الإنسانُ ويُولد كامل العقل حسَن الخلُق ، قد كُفي سلطانَ الشهوة والغضب ، فيصير مؤدَّبًا بغير تأديب .

والثاني : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وحمْل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلُق المطلوب »(١) .

فالأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة ، وهي تكلّف الأفعال الصادرة عنها ابتداءً ، لتصير طبعًا انتهاء ؛ قال رسول الله ﷺ : « إنما العلم بالتعلُّم ، وإنما الحلْمُ بالتحلُّم ، ومَن يتحرَّ الخير يُعطَه ، ومَن يتق الشرَّ يُوَقَّه »(٢) .

وطالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسَنة لا يَنالها بعبادة يوم ، ولا يُحرم عنها بعصيان يوم .

والثالث :بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم ، وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، إذِ الطبع يسرق من الطبْع . الشرَّ والخير جميعًا ، فمَن تظاهرت في حقِّه الجهات الثلاث ، حتى صار ذا فضيلة طبعًا واعتيادًا وتعلُّمًا ، فهو في غاية الفضيلة . ومن كان رَذِلًا بالطبع واتفق له قرناءُ السُّوء فتعلّم منهم ، وتيسَّرت له أسباب الشرِّ حتى اعتادها ؛ فهو في غاية البعد من الله عز وجل ، وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات ، ولكلٍّ درجة في القرْب والبعد بحسَب ما تقتضيه صورته وحالته .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٦٣ - ٦٤ .

(٢) حسن : أخرجه الدارقطني في الأفراد ، والخطيب في تاريخه عن أبي هريرة ، والخطيب في تاريخه عن أبي الدرداء ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٢٤

نفائسُ ولطائفُ من كُنوزِ البرِّ والمعرفة مِنْ طبيبِ القلوبِ وحاديها ابنِ القيِّم :

قال رحمه الله في « مدارج السالكين » (٢/٣١١ - ٣١٥) :

فصل :

نافع جدًّا ، عظيم النفع للسالك ، يوصله عن قريب ، ويسيِّره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتها ؛ فإن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية : تغيير الأخلاق التي طُبعت النفوس عليها ، وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقَّة إنما عمِلوا عليها ، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها . لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها ، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز ؛ كسر جيوش الرياضة وشتَّتها ، واستولى على مملكة الطبع .

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق ، ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها ، ويكون سيْره أقوى وأجلّ وأسرع من سير العامل على إزالتها .

ونقدِّم قبل هذا مثلًا نضربه ، مطابقًا لما نريده ، وهو : نهرٌ جارٍ في صَبَبِه ومُنْحَدَرِه ، وَمُنْتَهٍ إلى تغريق أرض وعمرانٍ ودُورٍ ، وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يُخَرِّبَ دُورهم ، ويُتلف أراضيهم وأموالهم ، فانقسموا ثلاثَ فرق :

فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سَكْره وحَبْسه وإيقافه ، فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمْر ؛ فإنه يُوشك أن يجتمع ثم يَحْمِل على السكْر ، فيكون إفساده وتخريبه أعظم .

وفرقة رأتْ هذه الحالة ، وعلمت أنه لا يغني عنها شيئًا ، فقالت : لا خلاص من محذوره إلا بقطْعه من أصل الينبوع ، فرامت قطْعَه من أصله ، فتعذّر عليها ذلك غاية التعذُّر ، وأبتِ الطبيعة النهرية عليهم ذلك أشدَّ الإباء ، فهم دائمًا في قطع الينبوع ، وكلَّما سدُّوه من موضع نَبعَ من موضع ، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرْس الأشجار .

فجاءت فرقة ثالثة ، خالفت رأي الفرقتَيْن ، وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم ، فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمران ، فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه ، ولا يتضرَّرون به ، فصرفوه إلى أرض قابلة للنبات ، وسقوها به ، فأنبتتْ أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف ، فكانت هذه الفرقة هُمْ أصوبَ الفِرق في شأن هذا النهر .

فإذا تبيَّن هذا المثل ، فالله سبحانه قد اقتضتْ حكمتُه : أن ركَّب الإنسان - بل وسائر الحيوان - على طبيعة محمولةٍ على قوَّتيْن : غضبية ، وشهوانية ، وهي الإرادية ، وهاتان القوَّتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها ، وهما مركوزتان في جِبِلَّة كل حيوان ؛ فبقوَّة الشهوة والإرادة : يجذِب المنافع إلى نفسه ، وبقوة الغضب : يدفع المضارَّ عنها . فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه ؛ تولَّد منها الحرص . وإذا استعمل الغضب في دفع المضرَّة عن نفسه ؛ تولَّد منه القوة والغيْرة . فإذا عجز عن ذلك الضارِّ ؛ أورثه قوَّة الحقد . وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه ، ورأى غيره مستبدًّا به ؛ أورثه الحسد . فإن ظفر به ؛ أورثتْه شدَّة شهوته وإرادته خلُق البخل والشحِّ ، وإن اشتدَّ حرصُه وشهوتُه على الشيء ، ولم يمكنه تحصيله إلّا بالقوة الغضبية ، فاستعملها فيه ؛ أورثه ذلك العدوان والبغي والظلم ، ومنه يتولَّد الكبر والفخر والخيلاء ؛ فإنها أخلاق متولِّدة من بين قوَّتَي الشهوة والغضب ، وتزوّج أحدهما بصاحبه .

فإذا تبيَّن هذا ؛ فالنهر مثال هاتيْن القوتين ، وهو منصبٌّ في جدول الطبيعة ومجراها إلى دُور القلب وعمرانه وحواصله ، يخربها ويُتلفها ولا بدّ ؛ فالنفوس الجاهلة الظالمة تركتْه ومجراه ، فخرَّب ديار الإيمان ، وقلع آثاره ، وهدم عمرانه ، وأنبت موضعها كلَّ شجرة خبيثة ، من حَنْظل وضَريع وشوك

وزَقُّوم ، وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد .

وأما النفوس الزكيَّة الفاضلة : فإنَّها رأتْ ما يؤول إليه أمر هذا النهر ، فافترقوا ثلاث فرق :

فأصحاب الرياضات والمجاهدات ، والخَلَوات والتمرينات : راموا قطْعَه من ينبوعه ، فأبتْ عليهم ذلك حكمةُ الله تعالى ، وما طبَع عليه الجِبِلَّة البشرية ، ولم تَنْقَدْ له الطبيعة ، فاشتدَّ القتال ، ودام الحرب ، وحميَ الوطيس ، وصارت الحرب دُوَلًا وسِجالًا . وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات .

وفرقة أعرضوا عنها ، وشغلوا نفوسهم بالأعمال ، ولم يُجيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم إيّاها على مجراها ، لكن لم يمكِّنوا نهرها من إفساد عمرانهم ، بل اشتغلوا بتحصين العمران ، وإحكام بنائه وأساسه ، ورأوا أن ذلك النهر لا بد أن يصل إليه ؛ فإذا وصل وصل إلى بناء محكم فلم يهدمْه ، بل أخذ عنه يمينًا وشمالًا . فهؤلاء صرفوا قوَّة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة ، وإحكام البناء . وأولئك صرفوها في قطْع المادة الفاسدة مِن أصلها ، خوْفًا من هدْم البناء .

وسألتُ يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه المسألة ، وقطْعِ الآفات ، والاشتغال بتنقية الطريق وبتنظيفها ؛ فقال لي جملة كلامه : النفسُ مثل الباطوس - وهو جُبّ القذَر - كلَّما نبشتَه ظهر وخرج ، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبُره وتجُوزه ، فافعلْ ، ولا تشتغلْ بنبشِه ؛ فإنك لن تصل إلى قراره ، وكلما نبشتَ شيئًا ظهَر غيره .

فقلتُ : سألتُ عن هذه المسألة بعض الشيوخ ، فقال لي : مثال آفات النفس مثال الحيَّات والعقارب التي في طريق المسافر ؛ فإن أقبل على تفتيش

الطريق عنها ، والاشتغال بقتلها ؛ انقطَع ، ولم يمكنه السفر قطُّ ، ولكن لتكنْ همتك المسير ، والإعراض عنها ، وعدم الالتفات إليها ، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله ، ثم امضِ على سيْرك . فاستحسَنَ شيخ الإسلام ذلك جدًّا ، وأثنى علىٰ قائله .

إذا تبيَّن هذا ، فهذه الفرقة الثالثة : رأتْ أن هذه الصفات ما خُلقت سُدًى ولا عبثًا ، وأنها بمنزلة ماءٍ يُسْقى به الورد والشوك والثمار والحطَب ، وأنها صِوان وأصداف لجواهر منطوية عليها ، وأن ما خاف منه أولئك هو نفْسُ سبب الفلاح والظفر ، فرأوا أن الكِبْر نهْرٌ يُسقىٰ به العلوُّ والفخر ، والبطرُ والظلم والعدوان ، ويسقىٰ به علو الهمة ، والأنَفَة ، والحميَّة ، والمراغمة لأعداء الله ، وقهْرهم والعلوّ عليهم ، وهذه درَّة في صدفته . فصرفوا مجراه إلى هذا الغراس ، واستخرجوا هذه الدرَّة من صدفته ، وأبقوه على حاله في نفوسهم ، لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع ، وقد رأى النبي ﷺ أبا دُجانة يتبختر بين الصفَّين ، فقال : « إنها لَمِشْية يُبغضها الله ، إلَّا في مثل هذا الموضع » .

فانظر كيف خلَّى مجرى هذه الصفة وهذا الخلُق يجري في أحسن مواضعه .

وفي الحديث الآخر - وأظنه في المسند - : « إن من الخيلاء ما يحبُّها الله ، ومنها ما يُبغضها الله ، فالخيلاء التي يحبُّها الله : اختيالُ الرجل في الحرب ، وعند الصَّدَقَة » .

فانظرْ كيف صارتِ الصفة المذمومة عبودية ؟ وكيف استحال القاطع مُوصِلًا ؟

فصاحب الرياضات ، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات ، والخلوات :

هيهاتَ هيهاتَ ، أنْ يوقعه ذلك في الآفات ، والشبهات ، والضلالات ؛ فإن تزكية النفوس مُسَلّم إلى الرسل ، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية ، وولّاهم إيَّاها وجعلها على أيديهم دعوة وتعليمًا ، وبيانًا وإرشادًا ، لا خلقًا ولا إلهامًا » .

درجات حُسْن الخلُق ومراتبه :

١ - تحسين الخلُق مع الخَلْق .

٢ - تحسين الخلُق مع الحقِّ عز وجل .

٣ - تصفية الخلق ، ثم الصعود عن تفرقة التخلُّق ، ثم التخلُّق بمجاوزة الأخلاق .

قال الهروي : « وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن تعرف مقامَ الخَلْق :

وأنهم بأقدارهم مربوطون ، وفي طاقتهم محبوسون ، وعلى الحكم مَوْقوفون ، فتستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء : أمْن الخَلْق منك ، حتى الكلب . ومحبّة الخلق إياك . ونجاة الخلْق بك »[1] .

قال ابن القيم : « فبهذه الدرجة : يكون تحسين الخُلُق مع الخلق في معاملتهم ، وكيفية مصاحبتهم .

يقول : إذا عرفتَ مقام الخلق ومقاديرهم ، وجريان الأحكام القدرية عليهم ، وأنهم مقيَّدون بالقدر ، لا خروج لهم عنه ألبتة ، ومحبوسون في قدرتهم وطاقتهم ، لا يمكنهم تجاوزها إلى غيرها ، وأنهم موقوفون على الحكم الكوني القدَري لا يتعدّونه - استفدتَ بهذه المعرفة ثلاثة أشياء :

أمْن الخلق منك : وذلك أنه إذا نظر إليهم بعيْن الحقيقة ؛ لم يطالبهم بما

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٧ .

لا يقدرون عليه ، وامتثل فيهم أمرَ الله تعالى لنبيه ﷺ بأخذ العفو منهم ، فأمِنُوا من تكليفه إياهم ، وإلزامه لهم ما ليس في قواهم وقدرهم .

وأيضًا فإنهم يأمنون لائمتَه ؛ فإنه في هذه الحال عاذِر لهم فيما يجري عليهم من الأحكام ، فيما لم يأمر الشرع بإقامته فيهم ؛ لأنهم إذا كانوا محبوسين في طاقتهم فينبغي مطالبتهم بما يطالب به المحبوس ، وعذْرهم بما يعذر به المحبوس ، وإذا بدا منهم في حقِّك تقصيرٌ أو إساءة ، أو تفريط ؛ فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم ، بل اغفرْ لهم ذلك واعذرهم ؛ نظرًا إلى جريان الأحكام عليهم ، وأنهم آلة . وهاهنا ينفعك الفناء بشهود الحقيقة عن شهود جناياتهم عليك ، كما قال بعض العارفين لرجل تعدَّى عليه وظلمه : إنْ كنتَ ظالمًا فالذي سلَّطك عليَّ ليس بظالم »[١] .

مشاهِدُ العبد فيما يُصيبه مِن أذىٰ الخلْقِ ، وتفاوُتُ الناسِ في ذلك :

قال ابن القيم : « للعبد أحدَ عشر مشهدًا فيما يصيبه من أَذىٰ الخلْق وجنايتهم عليه .

المشهد الأول : مشهد « القدر » :

هو المشهد الذي ذكره الشيخ رحمه الله ، وهو مشهد « القدَر » ، وأن ما جرى عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره فيراه ، كالتأذِّي بالحرِّ والبرْد ، والمرض والألم ، وهبوب الرياح وانقطاع الأمطار ؛ فإنَّ الكل أوجبتْه مشيئة الله ، فما شاء الله كان ووجب وجوده ، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده ، وإذا شهد هذا : استراح ، وعلم أنه كائن لا محالة ؛ فما للجزع منه وجه ، وهو كالجزع من الحرِّ والبرْدِ والمَرض والموت »[٢] .

---

(١) ، (٢) مدارج السالكين ٢/٣١٨ .

قال ابن القيم رحمه الله : « فتعْذرهم بالقدر في حقِّك ، لا في حق ربِّك ، فهذا حق ، وهو من شأن سادات العارفين ، وخواصِّ أولياء الله الكُمَّل ، يفنىٰ أحدُهم عن حقه ، ويستوفي حقَّ ربِّه . ينظر في التفريط في حقِّه ، وفي الجناية عليه إلى القَدَر ، وينظر في حقِّ الله إلى الأمر ، فيطلب لهم العذْر في حقِّه ، ويمحو عنهم العذْر ويطلبه في حقِّ الله .

وهذه كانت حال نبينا ﷺ ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : « ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قطُّ ، ولا نيل منه شيءٌ فانتقم لنفسه ، إلّا أن تُنتهك محارمُ الله ، فإذا انتُهكت محارم الله لم يَقُمْ لغضبه شيء حتى ينتقم لله » .

وقالت عائشة رضي الله عنها : « ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادِمًا ، ولا دابَّة ولا شيئًا قطُّ ، إلّا أن يجاهد في سبيل الله » .

وقال أنس رضي الله عنه : « خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين ، فما قال لي لشيء صنعتُه : لِمَ صنعتَه ؟ ولا لشيءٍ لمْ أصنعْه : لِمَ لَمْ تصنعْه ؟ وكان إذا عاتبني بعضُ أهلِه يقول : دعوه . فلو قُضي شيءٌ لَكان » .

فانظر إلى نظره إلى القدَر عند حقِّه ، وقيامه بالأمر ، وقطع يد المرأة عند حقِّ الله ، ولم يقل هناك : القدر حكم عليها .

وكان رسول الله ﷺ أعرفَ بالله وبحقِّه من أن يحتجَّ بالقدَر على ترْك أمره ، ويقبلَ الاحتجاجَ به من أحد ، ومع هذا فعذَر أنسًا بالقدَر في حقِّه وقال : « لو قُضي شيءٌ لكان » . فصلواتُ ربي وسلامه عليه »(١) .

المشهد الثاني : مشهد « الصبر » :

« فيشهده ، ويشهد وجوبه ، وحُسْن عاقبته وجزاء أهله ، وما يترتب عليه من الغِبْطة والسرور ، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام ؛ فما انتقم أحد لنفسه

---

(١) مدارج السالكين ١/١٩٦ ، ١٩٧ .

قطُّ إلّا أعقبه ذلك ندامة ، وعلم أنه إن لم يصبر اختيارًا على هذا - وهو محمود - صبرَ اضطرارًا على أكبر منه وهو مذموم »(١) .

قال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصُّرَعة ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » .متفق عليه .

وعن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وسيِّدًا وحَصُورًا ﴾ [آل عمران : ٣٩] قال : السيد الذي لا يغلبه الغضب .

وقال رسول الله ﷺ : « مَن كظَم غيْظًا وهو قادر على أن يُنْفذه ، دعاه الله على رؤوس الخلائق ، حتى يخيِّره من الحُور العين ، يزوِّجه منها ما شاء »(٢) .

شتم رجلٌ سلمانَ الفارسيّ ، فقال له : « إن خفَّتْ موازيني فأنا شرٌّ مما تقول ، وإنْ ثقُلتْ موازيني لم يضرَّني ما تقول » .

وشتم رجلٌ الربيعَ بنَ خثيم ، فقال له : يا هذا ، قد سمِع الله كلامك ، وإنَّ دون الجنة عَقَبَة ، إن قطعتُها لم يضرَّني ما تقول ، وإن لم أقطعْها فأنا شرٌّ مما تقول .

وقالت امرأة : يا مرائي . فقال : ما عرفني غيرُك .

وقال علي بن زيد : أغلظَ رجلٌ من قريش لعمرَ بن عبد العزيز القول ، فأطرق عمر زمانا طويلًا ثم قال : أردتَ أن يستفزَّني الشيطان بعزِّ السلطان ، فأنال منك اليوم ما تنالُه مني غدًا .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٩ .

(٢) حسن : رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وأحمد ، والطبراني في الصغير عن معاذ بن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٩٨ .

المشهد الثالث : مشهد « العفو والصفْح والحِلم » :

فإنه متى شِهد ذلك وفضْلَه وحلاوته وعزَّته ؛ لم يعدل عنه إلّا لعشى في بصيرته ؛ فإنه « ما زاد الله عبدًا بعفو إلّا عزًّا » ، كما صحَّ ذلك عن النبي ﷺ ، وعُلِمَ بالتجرِبة والوجود . وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلَّ .

هذا ، وفي الصفح والعفو والحلم ؛ من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس ، وعزها ورفعتها عن تشفِّيها بالانتقام : ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام .

ولله درُّ من قال :

لن يُدرك المجدَ أقوامٌ وإن كرُموا حتَّى يذلُّوا وإنْ عزُّوا لأقوامِ
ويُشتَموا فترى الألوان مسفرةً لا صفحَ ذلٍّ ولكنْ صفح أحلامِ[(١)]

الأحنف بن قيس سيِّد أهل المشرق ، المسمَّى بغير اسمه ، ومن يُضرب به المثَل في الحلْم :

قال الأحنف رحمه الله : « وجدتُ الحلْم أنصر لي من الرجال » . وقال له رجل : علِّمني الحلْمَ يا أبا بحر . فقال : هو الذلُّ يا ابن أخي ، أتصبر عليه ؟!

وقال رحمه الله : « لستُ حليمًا ولكنني أتحالم »[(٢)] .

ومن أخبار حلْمه : أنَّ رجلًا شتمه فسكت عنه ، وأعاد الرجل فسكت عنه ، وأعاد فسكت عنه ، فقال الرجل : « والهْفاه !! ما يمنعه من أن يردَّ عليّ إلَّا هواني عنده »[(٣)] .

وشتمه رجل وجعل يتبعه حتى بلغ حيَّهُ ، فقال الأحنف : « يا هذا ، إن كان بقي في نفسك شيءٌ فهاتِهِ وانصرفْ ؛ لا يسمعك بعضُ سفهائنا فتلقى ما

---

(١) لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ ص ٣٢٤ ، تحقيق : أحمد شاكر - دار الكتب السلفية .
(٢) العقد الفريد ١/ ٢٨٧ .
(٣) عيون الأخبار ١/ ٢٨٣ .

تكره » .

وكان رحمه الله يقول : « مَن لم يصبر على كلمة سمع كلمات ، ورُبَّ غيظٍ قد تجرَّعْته مخافةَ ما هو أشدُّ منه »(١) .

قيس بن عاصم المنقري : وحلمه العجيب الذي يتعلَّمه الأحنف :

قال عنه رسول الله ﷺ : « هذا سيد أهل الوبر » .

قال الأحنف بن قيْس : « ما تعلَّمتُ الحلمَ إلّا من قيس بن عاصم المنقري ؛ لأنه قتلَ ابنُ أخٍ له بعضَ بنيه ، فأُتي بالقاتل مكتوفًا يُقاد إليه ، فقال : ذَعَرْتُم الفتى ! ثم أقبل على الفتى فقال : بئس ما فعلتَ !! نقصتَ عددَكَ ، وأوْهنتَ عَضُدك ، وأشمتَّ عدوَّك ، وأسأتَ بقومك ، وأثمتَ بربِّك ، وقطعتَ رحمك ، ورميتَ نفسك بسهمِك . خلُّوا سبيله ، واحملوا إلى أمِّ المقتول دِيتَه ؛ فإنها غريبة ! ثم انصرف القاتل وما حلَّ قيسٌ حَبْوته ولا تغيَّر وجهه »(٢) .

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لِيَلِني منكم ذوو الأحلام والنهى ... » . الحديث . رواه مسلم .

قال الحسن : اطلبوا العلم وزيِّنوه بالوقار والحِلْم .

قال معاوية رضي الله عنه : لا يبلغ الرَّجُلُ مبلغ الرأي حتى يغلب حلمُه جهلَه وصبرُه شهوتَه ، ولا يبلغ ذلك إلَّا بقوَّة العلم .

وقال معاوية لعمرو بن الأهتم : أيُّ الرجال أشجع ؟ قال : مَن ردّ جهلَه بحلمه .

وقال أنس بن مالك في قوله تعالى : ﴿ **فإذا الذي بينَك وبيْنَه عداوة كأنَّه وليٌّ حميم** ﴾ : هو الرجل يشتمه أخوه فيقول : إنْ كنتَ كاذبًا فغفر الله

(١) عيون الأخبار ١/٢٨٤ ، ٢٨٧ .
(٢) وفيات الأعيان ٢/١٨٨ ، والبداية والنهاية ٨/٣٢٧ ، وقادة فتح بلاد فارس ص ٢٣٣ .

لك ، وإن كنتَ صادقًا فغفر الله لي .

وقال رجل لمالك بن دينار : بلغني أنك ذكرتَني بسوء ؟! قال : أنتَ أكرم عليّ من نفسي ، إني إذا فعلتُ ذلك أهديتُ لك حسناتي .

وقال رجل لبعض الحكماء : والله لأسبَّنّك سبًّا يدخل معك في قبرك . فقال : معك يدخل لا معي .

وضرب رجل قدمَ حكيم فأوجعه ، فلم يغضب ، فقيل له في ذلك ، فقال : أقمتُه مقام حجَرٍ تعثرتُ به ، فذبحتُ الغضب .

وقال محمود الوراق :

سأُلزِمُ نفسي الصفحَ عن كلِّ مذنبٍ ... وإن كثرتْ منهُ عليَّ الجرائمُ
وما الناسُ إلّا واحدٌ من ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلي مقاومُ
فأمَّا الذي فوقي فأعرفُ قدْرَهُ ... وأتبعُ فيهِ الحقَّ والحقُّ لازمُ
وأمَّا الذي دُوني فإنْ قالَ صنتُ عنْ ... إجابتِهِ عِرضي وإنْ لامَ لائمُ
وأمَّا الذي مِثْلي فإنْ زلَّ أو هَفَا ... تفضَّلتُ إنَّ الفضلَ بالحلْم حاكمُ

أمَّا العفو : فقد قال بعضهم : إذا أراد الله أن يُتحفَ عبدًا ، قيَّض له مَن يظلمه .

وقال بعضهم : ليس الحليم مَن ظُلِم فحَلَم ، حتى إذا قدَر انتقم ، ولكنَّ الحليم مَن ظُلِم فحلَم ، حتى إذا قدَر عفا . قال الله تعالى : ﴿ **وأنْ تعفُوا أقربُ للتقوى** ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

وإخوة يوسف باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم ، فلمّا كمل له أمره ، وجمع أهله ، قال : ﴿ **لا تثريبَ عليكمُ اليوم يغفرُ الله لكمْ وهو أرحمُ الراحمين** ﴾ [يوسف : ٩٢] .

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : أشهد أنك من الفاسقين . قال : ليس تُقبل شهادتك .

المشهد الرابع : مشهد « الرضا » :

وهو فوق مشهد « العفو والصفح » ، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة ، سيَّما إن كان ما أصيبتْ به سببه القيامُ لله ، فإذا كان ما أصيب به في الله وفي مرضاته ومحبته ؛ رضيتْ بما نالها في الله . وهذا شأن كل محبٍّ صادق ، يرضىٰ بما يناله في رضا محبوبه من المكاره ، ومتى تسخَّط به وتشكَّى منه ، كان ذلك دليلًا على كذبه في محبته . والواقع شاهد بذلك ، والمحبُّ الصادق كما قيل :

مِنْ أجلِكَ جعلتُ خَدِّى أرضًا   للشامتِ والحسودِ حتى ترضىٰ

ومن لم يرضَ بما يصيبه في سبيل محبوبه ، فلينزل عن درجة المحبة ، ولْيتأخرْ ؛ فليس من ذا الشأن .

المشهد الخامس : مشهد « الإحسان » :

وهو أرفع مما قبله . وهو أن يُقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان ؛ فيحسن إليه كلَّما أساء هو إليه ، ويهوِّن هذا عليه علمُهُ بأنه قد ربح عليه ، وأنه قد أهدى إليه حسناته ، ومحاها من صحيفته ، وأثبتها في صحيفة مَن أساء إليه ، فينبغي لك أن تشكره ، وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك .

وهاهنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبةِ الثوابَ ، وهذا المسكين قد وهبك حسناته . فإن كنتَ من أهل الكرم فأَثِبْه عليها ، لتثبتَ الهبة ، وتأمن رجوع الواهب فيها . وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم ، وأهل العزائم .

ويهوِّنه عليك أيضًا : علمُك بأن الجزاء من جنس العمل ؛ فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك عفوتَ عنه وأحسنتَ إليه ، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلِّك . فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك ، يقابلها بما قابلتَ به إساءة عبدِه إليك . فهذا لا بدَّ منه ، وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأمَّلها .

ومقابلة الإساءة بالإحسان من فضائل أعمال المقرَّبين ، واختيار الصدِّيقين ، ومنتهى درجات الصالحين .

فهذا الصدِّيقُ أبو بكر رضي الله عنه ؛ لمَّا حلف أن لا ينفق على مِسْطَح - وكان قريبه - لكونه تكلَّم في واقعة الإفك ؛ نزل قوله تعالى : ﴿ ولا يأتَلِ أولو الفضل منكم ﴾ إلى قوله : ﴿ ألَا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ [النور : ٢٢] ، فقالَ أبو بكر : بلىٰ ، نحبُّ ذلك . وعاد إلى الإنفاق عليه(١) .

« وسبَّ رجلٌ ابنَ عباس رضي الله عنهما ، فلمَّا فرغ قال : يا عكرمة ، هل للرجل حاجة ، فتقضيها ؟ فنكسَ الرجل رأسه واستحىٰ .

وعن عليّ بن الحسين بن عليٍّ رضي الله عنهم أنه سبَّه رجل ، فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فقال بعضُهم : جُمع له خمس خصال محمودة : الحلم ، وإسقاط الأذىٰ ، وتخليص الرجل مما يُبعد عن الله ، وحمْله على الندَم والتوبة ، ورجوعه إلى المدح بعد الذم ؛ اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير »(٢) .

« قال إبراهيم التيمي : إن الرجل ليظلمني فأرحمه . وهذا إحسان وراء العفو ؛ لأنه يشتغل قلبه بتعرُّضه لمعصية الله تعالى بالظلم ، وأنه يُطالب يوم القيامة ، فلا يكون له جواب .

وقال الفضيل : ما رأيتُ أزهد من رجل من أهل خراسان جلس إليّ في المسجد ، ثم قام ليطوف فسُرقتْ دنانير كانت معه ، فجعل يبكي ، فقلت : أعلىٰ الدنانير تبكي ؟ فقال : لا ، ولكن مثَّلتُني وإيَّاه بين يدي الله عز وجل ، فأشرف عقلي على إدحاض حجَّته ، فبكائي رحمة له !! »(٣) .

---

(١) حديث : « لما حلف أبو بكر ... » ، متفق عليه من حديث عائشة .
(٢) الإحياء ٣/١٩٠ .
(٣) الإحياء ٣/١٩٥ ، ١٩٦

الربيعُ بن خُثيم يدعو لسارقه :

« اشترى الربيع رحمه الله فرسًا بثلاثين ألفًا فغزا عليها ، ثم أرسل غلامه « يسار » يحتشُّ وقام يصلّي ، وربط فرسَه ، فجاء الغلام فقال : يا ربيع أين فرسُك ؟ قال : سُرقت يا يسار . قال : وأنت تنظر إليها ؟! قال : نعم يا يسار ؛ إني كنتُ أناجي ربي عز وجل فلم يشغلني عن مناجاة ربي شيء ، اللهمَّ إنه سرقني و لم أكن لأسرقه ، اللهمَّ إن كان غنيًّا فاهْدِه ، وإن كان فقيرًا فأغْنه . ثلاث مرات »[1] .

لله درُّك يا أبا يزيد !! والله إن الكلمات لَتعجز عن تصوير جلال هذا المشهد ؛ « أَمَا والله لو رآك محمد ﷺ يا ربيع ، لَفَرِح بك » . هكذا قال أستاذك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قال عُبيد بن غاضرة العنبري :

إنَّا وإنْ كنَّا أَسِنَّةَ قومِنَا ... وكانَ لنا فيهمْ مَقامٌ مقدَّمُ
لَنصفحُ عنْ أشياءَ منهم تُرِيبُنا ... ونصدِفُ عن ذي الجهْل منهمْ ونحلُمُ
ونمنحُ منهمْ معْشرًا يحسدوننا ... هَنِيَّ عطاءٍ ليسَ فيهِ تندُّمُ
ونكلؤُهم بالغيب منَّا حفيظةً ... وأكبادُنا وجْدًا عليهمْ تَضَرَّمُ
فليسَ بمحمودٍ لدى الناسِ مَن جزى ... بسَيِّءٍ ما يأتي المُسِيءُ المُلَوَّمُ
سأحملُ عنْ قومي جميعَ كلُومِهمْ ... وأدفع عنهم كلَّ غُرْمٍ وأغرمُ[2] .

المشهد السادس : مشهد « السلامة وبرد القلب » :

وهذا مشهد شريف جدًّا لمن عرَفه وذاق حلاوته ، وهو أن لا يشتغل

---

(١) الزهد لابن حنبل ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، ومختصر قيام الليل للمقريزي ص ٢٧ .
(٢) لباب الآداب لابن منقذ ص ٣٢٤ - ٣٢٥

قلبه وسرُّه بما ناله من الأذى ، وطلب الوصول إلى دَرْك ثأره وشفاء نفسه ، بل يُفَرِّغ قلبه من ذلك ، ويرى أن سلامته وبرده وخلوَّه منه أنفع له ، وألذُّ وأطيب ، وأعون على مصالحه ؛ فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهمُّ عنده ، وخير له منه ، فيكون بذلك مغبونًا . والرشيد لا يرضى بذلك ، ويرى أنه من تصرُّفات السفيه ، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغلِّ والوساوس ، وإعمال الفكْر في إدراك الانتقام ؟!

المشهد السابع : مشهد « الأمْن » :

فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام ، أمِن ما هو شرٌّ من ذلك ، وإذا انتقم واقَعَهُ الخوف ولا بدَّ ؛ فإن ذلك يزرع العدواة ، والعاقل لا يأمن عدوَّه ولو كان حقيرًا . فكم مِن حقيرٍ أردىٰ عدوَّه الكبير !! فإذا غفر و لم ينتقم ولم يقابل ؛ أمِن من تولُّد العداوة أو زيادتها ، ولا بدَّ أن عفوه وحِلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوِّه ، ويكفُّ من جزَعه ، بعكس الانتقام ، والواقع شاهد بذلك أيضًا .

المشهد الثامن : مشهد « الجهاد » :

وهو أن يشهد تولُّد أذىٰ الناس له من جهاده في سبيل الله ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وإقامة دين الله ، وإعلاء كلماته .

وصاحب هذا المقام : قد اشترى الله منه نفسه وماله وعِرْضَه بأعظم الثمن ، فإن أراد أن يُسَلَّم إليه الثمن ، فليسلِّم هو السلعة ليستحقَّ ثمنها . فلا حقَّ له على من آذاه ، ولا شيء له قِبَله ، إن كان قد رضي بعقْد هذا التبايُع ؛ فإنه قد وجب أجرُه على الله .

وهذا ثابت بالنصِّ وإجماع الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنى مكة – أعزَّها الله – و لم يَرُدَّ على أحد منهم داره

ولا ماله الذي أخذه الكفار ، ولم يضمنهم دية مَن قتلوه في سبيل الله .

ولما عزم الصدِّيق رضي الله عنه على تضمين أهل الردَّة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم ؛ قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه– بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم – : « تلك دماء وأموال ذهبتْ في الله ، وأجورها على الله ، ولا دية لشهيد » . فأصفق الصحابة على قول عمر ، ووافقه عليه الصديق .

فمن قام لله حتى أوذي في الله ؛ حرَّم الله عليه الانتقام ، كما قال لقمان لابنه : ﴿ **وأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾ . [لقمان : ١٧] .

المشهد التاسع : مشهد « النِّعمْة »:

وذلك في وجوه :

أحدها : أن يشهد نعمة الله عليه في أنْ جعله مظلومًا يترقَّب النصر ، و لم يجعله ظالما يترقَّب المقْت والأخْذَ . فلو خُيِّر العاقل بين الحالتينْ – ولا بدَّ من إحداهما – لَاختار أن يكون مظلومًا .

ومنها : أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك مِن خطاياه ؛ فإنه ما أصاب المؤمنَ هَمٌّ ولا غمٌّ ولا أذًى إلّا كفَّر الله به من خطاياه ، فذلك في الحقيقة دواء يُستخرج به منه داء الخطايا والذنوب ، ومَن رضي أن يلقىٰ الله بَأدوائه كلها وأسقامه ، و لم يداوِهِ في الدنيا بدواء يُوجب له الشفاء ؛ فهو مغبون سفيه . فأذى الخلْق لك كالدواء الكريه من الطبيب المشْفِق عليك ، فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته ومَن كان على يديه ، وانظرْ إلى شفقة الطبيب الذي ركَّبه لك ، وبعثَه إليك على يدي مَن نَفعَك بمضرَّته .

ومنها: أن يشهد كوْن تلك البليَّة أهون وأسهل من غيرها؛ فإنه ما من محنة

إلَّا وفوْقها ما هو أقوى منها وأَمَرُّ ، فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال ، فلينظرْ إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده ، وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهيِّنة ، وأنها في الحقيقة نعمة ، والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين .

ومنها : توفية أجْرها وثوابها يوم الفقر والفاقة ، وفي بعض الآثار : أنه يتمنَّى أناسٌ يوم القيامة لو أنَّ جلودَهم كانت تُقْرَض بالمقاريض ، لِمَا يرون من ثواب أهل البلاء .

هذا، وإن العبد لَيشتدُّ فرحُه يوم القيامة بما له قِبَلَ الناسِ من الحقوق في المال والنفس والعِرْض ، فالعاقل يعدُّ هذا ذُخرًا ليوم الفقر والفاقة ، ولا يُبطله بالانتقام الذي لا يُجدي عليه شيئًا .

حبس أحدُ السلاطين رجلًا ، فكتب إليه بعض إخوانه الصالحين : اشكر الله . ثم ضُرب ، فكتب إليه : اشكرِ الله . ثم قُيِّد هو ومجوسي مبطون بقيْدٍ واحد ؛ فكان المجوسي يقوم بالليل لقضاء الحاجة مرَّاتٍ ، وكلَّما ذهبَ ذهبَ معه الرجل ، فيقف على رأسه حتى يقضيَ حاجته ، فكتب إليه صاحبه : اشكر الله . فقال : على ماذا أشكر الله ؟! وأيُّ بلاء فوقَ ما أنا فيه ؟! فكتب إليه : لو جُعل الزنار الذي في وسَطه في وسَطك كما جعل القيْد في رِجْلك ، ما كنت تصنع ؟ فاشكرِ الله على سلامة الدين .

المشهد العاشر : مشهد « الأُسْوَة » :

وهو مشهد شريف لطيف جدًّا ؛ فإن العاقل اللبيب يرضىٰ أن يكون له أسوة برسُل الله وأنبيائه ، وأوليائه وخاصَّته من خلقه ؛ فإنهم أشدُّ الخلْق امتحانًا بالناس ، وأذى الناس إليهم أسرع من السيْل في الحُدُور ، ويكفي تدبُّر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم ، وشأن نبينا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يُؤْذَه مَنْ قبلَه . وقد قال له وَرَقة بن نوفل : « لَتُكَذَّبنَّ ، ولَتُخْرَجَنَّ ، وَلَتُؤْذَيَنَّ » . وقال له : « ما جاء أحد بمثل ما جئتَ به إلا عُودي » . وهذا

مستمرٌّ في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ . أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار خلْق الله ، وخواصِّ عباده ؛ الأمثل فالأمثل ؟!

ومَن أحبَّ معرفة ذلك فليقفْ على مِحَنِ العلماء ، وأذى الجهَّال لهم . وقد صنف في ذلك ابن عبد البر كتابًا سمَّاه « محنُ العلماء » .

المشهد الحادي عشر : مشهد « التوحيد » :

وهو أجلُّ المشاهد وأرفعها . فإذا امتلأ قلبه بمحبَّة الله ، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرُّب إليه ، وقرَّة العيْن به ، والإنس به ، واطمأنَّ إليه ، وسكن إليه ، واشتاق إلى لقائه ، واتخذه وليًّا دون مَن سواه ، بحيث فَوَّض إليه أموره كلها ، ورضي به وبأقضيته ، وفني بحبَّه وخوْفه ورجائه وذكْرِه والتوكُّل عليه ، عن كلِّ ما سواه - فإنه لا يبقى في قلبه متَّسع لشهود أذىٰ الناس له ألبتة ، فضلًا عن أن يشتغل قلبه وفكْره وسِرُّه بتطلُّب الانتقام والمقابلة ؛ فهذا لا يكون إلّا مِن قلبٍ ليس فيه ما يُغنيه عن ذلك ويعوِّضه منه ، فهو قلبٌ جائع غير شبعان ؛ فإذا رأى أيَّ طعام رآه هَفَتْ إليه نوازعه ، وانبعثتْ إليه دواعيه . وأما مَنِ امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها ؛ فإنه لا يلتفت إلى ما دونها . وذلك فضْل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فمَن عامَل الخلْقَ بهذه المعاملة ؛ « من إقامة أعذارهم ، والعفو عنهم ، وترْك مقابلتهم ؛ استوتْ كراهتُهم ومحبتهم له ، وكان ذلك سببًا لنجاتهم الأُخروية أيضًا ؛ إذ يرشدهم ذلك إلى القبول منه ، وتلقِّي ما يأمرهم به وينهاهم عنه أحسنَ التلقِّي . وهذه طباع الناس »[١] .

« الدرجة الثانية : تحسينُ خُلُقك مع الحقِّ ؛ وتحسينه منك : أنْ تعلم أنَّ كلَّ ما يأتي منك يُوجب عُذرًا ، وأنَّ كل ما يأتي من الحقّ يوجب شكرًا ،

(١) مدارج السالكين ٢/٣٢٤

وأن لا ترى له من الوفاء بُدًّا » .

لله درُّك يا شيخ الإسلام الهروي !! ما أطيب وأعطر هذا القول منك !!

قال شيخ الإسلام ابن القيِّم شارحًا : « هذه الدرجة مبنيَّة على قاعدتيْن :

إحداهما : **أن تعلم أنك ناقص** : وكلُّ ما يأتي من الناقص ناقص ، فهو يُوجب اعتذاره منه لا محالة ، فعلى العبد أن يعتذر إلى ربِّه من كلِّ ما يأتي به من خير وشرٍّ ؛ أما الشرُّ : فظاهر ، وأما الخير : فيعتذر من نقصانه ، ولا يراه صالحًا لربِّه ، فهو – مع إحسانه – معتذر في إحسانه ، ولذلك مدَح الله أولياءه بالوَجَل منه مع إحسانهم،بقوله : ﴿ **والذين يُؤْتون ما آتوا وقلوبُهم وَجِلة** ﴾ [المؤمنون : ٦٠] وقال النبي ﷺ : « هو الرجل يصوم ويتصدق ، ويخاف أن لا يُقْبَل منه » . فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى . والحامل له على هذا الاعتذار أمران :

أحدهما :شهود تقصيره ونقصانه .

والثاني :صدق محبَّته : فإن المحبَّ الصادق يتقرب إلى محبوبه بغاية إمكانه ، وهو معتذر إليه ، مُسْتَحْيِي منه : أن يواجهه بما واجهه به ، وهو يرى أن قدْرَه فوقه وأجلُّ منه ، وهذا مشاهد في محبَّة المخلوقين .

القاعدة الثانية : **استعظام كل ما يصدر منه سبحانه إليك** : والاعتراف بأنه يُوجب الشكر عليك ، وأنك عاجز عن شكره ، ولا يتبين هذا إلّا في المحبَّة الصادقة ؛ فإن المحبَّ يستكثر من محبوبه كل ما يناله ، فإذا ذكره بشيء وأعطاه إياه ؛ كان سروره بذكْره له ، وتأهيله لعطائه : أعظم عنده من سروره بذلك العطاء ، بل يغيب بسروره بذكْره له عن سروره بالعطيَّة ، وإن كان المحبُّ يسرُّه ذكْر محبوبه له ، وإن ناله بمساءة . كما قال القائل :

لئنْ ساءني أنْ نلتَني بمساءةٍ لقدْ سرَّني أني خطرتُ ببالِكَا

فكيف إذا ناله محبوبه بمسرَّة ، وإن دقَّتْ ؟! فإنه لا يراها إلا جليلة خطيرة .

فكيف هذا مع الربِّ تعالى الذي لا يأتي أبدًا إلّا بالخير ؟! ويستحيل خلافَ ذلك في حقِّه . كما يستحيل عليه خلاف كماله . وقد أفصح أعرف الخلْق بربّه عن هذا بقوله : « والشرُّ ليسَ إليك » . أي لا يضاف إليك ، ولا ينسب إليك ، ولا يصدر منك ؛ فإن أسماءه كلها حسنى ، وصفاته كلها كمال ، وأفعاله كلها فضْل وعدْل ، وحكمة ورحمة ومصلحة ، فبأي وجه ينسب الشرُّ إليه سبحانه وتعالى ؟! فكل ما يأتي منه فله عليه الحمد والشكر ، وله فيه النعمة والفضل .

قوله : « وأن لا يرى من الوفاء بدًّا » :

يعني : أن معاملتك للحقِّ سبحانه بمقتضى الاعتذار من كل ما منك ، والشكر على ما منه : عقدٌ مع الله تعالى ، لازم لك أبدًا ، لا ترى من الوفاء به بدًّا . فليس ذلك بأمر عارض ، وحال يحول ، بل عقد لازم عليك الوفاء به إلى يوم القيامة »[1] .

« الدرجة الثالثة : التخلُّق بتصفية الخُلُق ، ثم الصعود عن تفرقة التخلُّق ، ثم التخلُّق بمجاوزة الأخلاق » :

« هذه الدرجة ثلاثة أشياء :

أحدها : تصفية الخُلق بتكميل ما ذُكِر في الدرجتين قبله ؛ فيصفِّيه من كل شائبة وقذًى ومشوش ، فإذا فعلتَ ذلك صعدتَ من تفرقته إلى جمعيَّتك على الله ؛ فإن التخلُّق تهذيب واستعداد للجمعية ؛ وإنما سمَّاه تفرقة لأنه اشتغال بالغير ، والسلوك يقتضي الإقبال بالكلِّية ، والاشتغال بالربِّ وحده عمَّا سواه .

ثم يصعد إلى ما فوق ذلك ، وهو مجاوزة الأخلاق كلها بأنْ يغيب عن

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٢٤ - ٣٢٦

الخلق والتخلّق . وهذه الغيبة لها مرتبتان :

إحداهما : الاشتغال بالله عن كلّ ما سواه .

والثانية : الفناء في الفردانية التي يسمُّونها « حضرة الجمع » ، وهي موهبية لا كسبيَّة ، لكن العبد إذا تعرَّض وصدَق في الطلب ، رُجي له الظفر بمطلوبه . والله أعلم » انتهى كلام ابن القيم .

كنْ مع الحقِّ بلا خَلْقٍ ، ومع الخَلْق بلا نفْس :

قال ابن القيِّم : « ومدار حسْنِ الخُلُق مع الحقِّ ، ومع الخلْق : على حرفيْن ، ذكرهما عبد القادر الجيلاني ؛ فقال : « كنْ مع الحقِّ بلا خَلْق ، ومع الخلْق بلا نفس » .

فتأمَّل ، ما أجلَّ هاتيْن الكلمتيْن ، مع اختصارهما ، وما أجمعهما لقواعد السلوك ولكل خلق جميل !! وفساد الخُلق إنما ينشأ من توسُّط الخلق بينك وبين الله تعالى ، وتوسُّط النفْس بينك وبين خلْقه ، فمتى عزلتَ الخلْق ، حالَ كونك مع الله تعالى ، وعزلتَ النفس ، حال كونك مع الخلق ، فقد فزتَ بكلِّ ما أشار إليه القوم ، وشمَّروا إليه ، وحاموا حوْله . والله المستعان » .

نفائسُ وأمثلةٌ عَطِرةٌ مِن حُسْن خُلُقِ سَلَفِنا :

الإمام ابنُ منده وحُسْن خلُقه : « مَن كتَب عني حديثًا فأنا له عبد » :

قال يحيى بن منده : كان عمي سيْفًا على أهل البدع ، وهو أكبر من أن يُثني عليه مثلي ، كان – والله – آمرًا بالمعروف ، ناهيًا عن المنكر ، كثير الذكر ، قاهرًا لنفسه ، عظيم الحلم كثيرَ العلم ؛ قرأتُ عليه قول شعبة : مَن كتبت عنه حديثًا فأنا له عبد ؛ فقال عمي : من كتب عني حديثًا فأنا له عبد[1] .

(١) انظر ترجمته في السير ١٨/٣٤٩ – ٣٥٤ .

الإمام أبو إسحاق الشيرازي وحُسْن خُلُقه :

قال خطيب الموصل أبو المفضَّل : حدَّثني أبي قال : توجَّهتُ من المَوْصل سنة ٤٥٩هـ إلى أبي إسحاق ، فلمَّا حضرتُ عنده ، رحَّبَ بي وقال : من أين أنت ؟! فقلتُ : من المَوْصل . قال : مرحبًا ؛ أنت بلديِّي . قلتُ : يا سيِّدَنا ، أنت من فيروزآباد ؟! قال : أمَا جمعتْنا سفينة نوح ؟! فشاهدتُ من حُسْن أخلاقه ولطافته وزهده ، ما حبَّب إليَّ لزومه ، فصحبتُه إلى أن مات[(١)] .

وقيل : إن أبا إسحاق نزع عمامته - وكانت بعشرين دينارًا - وتوضَّأ في دجلة ، فجاء لصٌّ فأخذها وترك عمامةً رديئة بَدَلها ، فطلع الشيخ فلبِسها ، وما شعر حتى سألوه وهو يدرِّس ، فقال : لعلَّ الذي أخذها محتاج[(٢)] .

إبراهيمُ بنُ أدهمَ أستاذُ الأُستاذِين في حُسن الخُلُق :

« خرج رحمه الله إلى بعض البراري ، فاستقبله رَجل جنديٌّ ، فقال : أنت عبد ؟ قال : نعم . فقال له : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فقال الجندي : إنما أردتُ العمران !! فقال : هو المقبرة . فغاظه ذلك فضرب رأسَه بالسوط فشجَّه ، وردَّه إلى البلد فاستقبله أصحابه ، فقالوا : ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندي ما قال له ، فقالوا : هذا إبراهيم بن أدهم !! فنزل الجندي عن فرسه وقبّل يديْه ورجليْه ، وجعل يعتذر إليه ، فقيل بعد ذلك له : لِمَ قلتَ له : أنا عبد ؟ فقال : إنه لم يسألني : عبدُ من أنت ، بل قال : أنت عبد ؟ فقلتُ : نعم ؛ لأني عبد الله ، فلمَّا ضرب رأسي سألتُ الله له الجنة . فقيل : كيف وقد ظلمك ؟ فقال : علمتُ أنني أُؤْجَر على ما نالني منه ، فلم أُرِدْ أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبُه مني الشرَّ »[(٣)] .

---

(١) ، (٢) انظر الترجمة في السير ١٨/ ٤٥٢ - ٤٦٤ .

(٣) الإحياء ٣/ ٧٦

شيْخ الإسلام أبو عثمان الحِيري يعلّمنا حُسْن الخلُق : « إنّ مَنِ استحقّ النارَ فصُولِح على الرماد ، لم يجُزْ له أن يغضب » :

« اجتاز رحمه الله يومًا في سكَّة ، فطرحت عليه إجانة رماد ، فنزل عن دابَّته فسجد سجدة الشكر ، ثم جعل ينفُض الرماد عن ثيابه ، و لم يقلْ شيئًا ، فقيل : ألا زبرتهم ؟ فقال : إنَّ من استحقَّ النارَ فصُولِح على الرَّمَاد ، لم يجُزْ له أن يغضب .

ودُعي أبو عثمان الحيري إلى دعوة ، وكان الداعي قد أراد تجربته ، فلمَّا بلغ منزله قال له : ليس لي وجه . فرجع أبو عثمان ، فلمَّا ذهب غيرَ بعيد ، دعاه ثانيًا فقال له : يا أستاذ ، ارجعْ . فرجع أبو عثمان ، فقال له مثل مقالته الأولى فرجع ، ثم دعاه الثالثة وقال : ارجعْ على ما يُوجب الوقت . فرجع ، فلمَّا بلغ الباب ، قال له مثل مقالته الأولى ، فرجع أبو عثمان ، ثم جاءه الرابعة فردَّه ، حتى عامله بذلك مرَّات وأبو عثمان لا يتغيّر من ذلك ، فأكبّ على رجليْه وقال : يا أستاذ ، إنما أردتُ أن أختبرك ، فما أحسن خلُقَك !! فقال : إن الذي رأيتَ مني هو خلُق الكلْب ؛ إن الكلب إذا دُعي أجاب وإذا زُجرَ انزجر »[1] .

« من أين تعلمتَ الحِلْم ؟ » :

« وقيل للأحنف بن قيس : مِن أين تعلَّمتَ الحِلْم ؟ فقال : من قيس ابن عاصم . قيل : وما بلغ حلمه ؟ قال : بينما هو جالس في داره ، إذ أتته جارية له بسَفُود عليه شِواء ، فسقط من يَدها ، فوقع على ابنٍ له صغير فمات ، فدُهِشَتِ الجارية ، فقال لها : لا روعَ عليك ؛ أنت حرَّة لوجه الله تعالى »[2] .

---

(١) الإحياء ٧٦/٣

(٢) الإحياء ٣/ ٧٧

« إنْ كان ولا بُدَّ ، فارموني بالصِّغَار » :

« وقيل : إن أُويسًا القرني كان إذا رآه الصبيان يرمُونه بالحجارة ، فكان يقول لهم : يا إخوتاه ، إن كان ولا بدَّ فارموني بالصِّغَار ؛ حتى لا تُدموا ساقي ، فتمنعوني عن الصلاة »(١) .

« يا هذه ، وجدتِ اسمي الذي أضلَّه أهلُ البصرة » :

« وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله : يا مرائي . فقال : يا هذه ، وجدتِ اسمي الذي أضلَّه أهل البصرة »(٢) .

« لأتعلَّم الحلْم عليه » :

« وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلامُ سوءٍ ، فقيل له : لِمَ تُمْسِكه ؟ فقال : لأتعلَّمَ الحلْمَ عليه »(٣) .

علامة حُسْن الخُلُق :

قال يوسف بن أسباط : علامة حُسْن الخلق عشرُ خصالٍ :

١ - قلّة الخلاف . ٢ - وحسْن الإنصاف . ٣ - وترْك طلب العثرات .

٤ - وتحسين ما يبدو من السيئات . ٥ - والْتماس المعذرة . ٦ - واحتمال الأذى .

٧ - والرجوع بالملامة على النفس . ٨ - والتفرُّد بمعرفة عيوب نفسِه دون غيره .

٩ - وطلاقة الوجه للصغير والكبير . ١٠ - ولطْف الكلام لمن دُونه ولمن فوْقه .

---

(١) ، (٢) ، (٣) الإحياء ٣/٧٧ .

وسُئل سهل عن حسن الخلُق فقال : « أدناه احتمال الأذى ، وتـرْك المكافأة ، والرحمة للظالم والاستغفار له ، والشفقة عليه »(١) .

ونمضي مع قافلة النور وركْب السادة :

« كان الفُضَيل بن عِياض رحمه الله إذا قيل له : إن فلانًا يقع في عِرْضك ؛ يقول : والله لأغيظنَّ من أمره . يعني إبليس ، ثم يقول : اللهمَّ إن كان صادقًا فاغفرْ لي ، وإن كان كاذبًا فاغفر له .

وقد كان أبو معاوية الأسود يدعو لمن نال منه .

وشتـم رجل بكر بن عبد الله المزني رحمه الله ، وبالَـغ في شتْمه وهـو ساكت ، فقيل له : ألَا تشتمه كما شتمك ؟! فقال : إني لا أعرف له شيئًا من المساوي حتى أشتمه به ، ولا يحلُّ لي أن أرميَه بالكذب .

وقال رجل لثور بن يزيد رحمهُ الله : يا قدَري ، يا رافضي . فقال له : إن كنتُ كما قلتَ لي ، فأنا رجلُ سوءٍ ، وإن كنتُ على خلافِ ذلك فأنتَ في حلٍّ مني .

وقد قال رجل مرةً لسالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم : يا شيخ السوء : فقال له سالم : ما أراك أبعدتَ يا أخي »(٢) .

لطيفة :

الحلْمُ على خمسة أقسام :

قال السريّ السقطي : الحلم على خمسة أقسام :

---

(١) الإحياء ٣/٧٧ .

(٢) تنبيه المغترين للشعراني ص ٧١ - ٧٢ - طبع : عيسى الحلبي .

الأول : **حلم غريزي** : وهو هبة من الله تعالى للعبد ، به يعفو عمَّن ظلمه ، ويعطي من حرمه ويصل به رحمه وإن قطَعَه .

والثاني : **حلم تحالم** : وهو أن يكظم العبدُ غيظه رجاءَ الثواب ، وفي القلب كراهة .

الثالث : **حلم مذموم** : وهو حلْم العبد على مَن جنى عليه ، رياءً وسمعة ؛ يعني يرائي به جلساءَه وهو حاقد ساكت .

الرابع : **حلم كِبْر** : وهو أن الشخص لا يراه أهلًا بأن يجاوبه .

الخامس : **حلْم مهابة ومذلَّة**(١) . اهـ .

فاعلمْ ذلك ؛ فإنه نفيس جاءَك به السريُّ .

« مدحوا عند الفضيل بن عياض رجلًا ، وقالوا : إنه لا يأكل الخبيص . فقال : وما تَرْكُ أكْل الخبيص ؟! انظروا كيف صلتُه للرحم !! انظروا كيف كظمُه للغيظ !! انظروا كيف عطفُه على الجار والأرملة واليتيم !! انظروا كيف حسن خلقه مع إخوانه !!

وكان حاتم الأصمُّ يقول : قد قلَّتْ أخلاق الرجال في ثلاث : تعظيم أخلاق الإخوان ، وستْر معايبهم ، واحتمال أذاهم »(٢) .

محمد بن واسع يُحسِن إلى شاةٍ صَحِبَتْه :

« كان محمد بن واسع يقول : لا يبلغ العبد مقام الإحسان حتى يُحسن إلى كلِّ مَن صَحِبَه ولو ساعة . وكان إذا باع شاة يوصي بها المشتري ويقول : قد كان لها معنا صُحْبَة »(٣) .

---

(١) تنبيه المغترين ص ٧٢ .

(٢) ، (٣) تنبيه المغترين ص ٣١ .

ومسْكُ الختامِ : حديثُ عُلبة بن زيد بن حَارثة الأنصاري الأوْسي ، صاحبِ الخُلُق التمام :

لله درُّه من صحابي جليل !!

روى ابن منده بإسناده : « كان علبة بن زيد بن حارثة رجلًا من أصحاب النبي ﷺ ، فلما حضَّ على الصدقة ، جاء كلُّ رجل منهم بطاقتِه وما عنده ، فقال علبة بن زيد : اللهم إنه ليس عندي ما أتصدَّق به ؛ اللهم إني أتصدَّق بعِرْضي على مَن ناله مِن خلْقِك . فأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى : أين المتصدِّق بعرضه البارحة ؟ فقام عُلبة ، فقال : « قد قُبِلتْ صدقتُكَ » .
وفي زاد المعاد : فقال النبي ﷺ : « أبشِرْ ؛ فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ، لقد كُتِبَتْ في الزكاة المتقبَّلة » .

هذه نفوس قد ذُلِّلتْ بالمجاهدة ، فاعتدلتْ وطابت أخلاقُها ، ونُقِّيت من الغشِّ والغلِّ بواطنُها فأثمرت الأطايب ، فظهرت العلامات على ظواهرهم ، فمَن لم يصادفْ من نفسه هذه العلامات ، فلا ينبغي أن يغترَّ بنفسه فيظنَّ بها حُسْن الخُلُق ؛ فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلّا المقرَّبون والصِّدِّيقون .

* * *

الفصـل الثـاني عشـر
عُلُـوُّ الهِـمَّـةِ
فـي
الفُتـوَّةِ « مكـارم الأخـلاق »

«إنما بُعثت لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق »
[حديث صحيح]
« مَن لم يتفتَّى لم يُحسن يتقـرَّا »
[تقرَّا : تنسَّك وتورَّع]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الفُتُوَّةِ « مكارم الأخلاق » □

اعلم يا أخي أن الفُتُوَّة إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخَلْق ، وهذه المنزلة حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى الناس ، وكفّ الأذى عنهم واحتمال أذاهم . فهي استعمال حُسْن الخُلُق معهم . فهي في الحقيقة نتيجة حُسْن الخلق واستعماله .

المروءة والفُتُوَّة :

قال ابن القيم : « والفرق بينها وبين المروءة : أن المروءةَ أعمُّ منها ؛ فالفتوة نوع من أنواع المروءة . فإن المروءة استعمال ما يَجمُل ويزين مما هو مختصٌّ بالعبد ، أو متعدٍّ إلى غيره ، وتَرْك ما يدنس ويشين مما هو مختصٌّ أيضًا به ، أو متعلّق بغيره »(١) .

المنازل ثلاثة : التخلُّق وحُسْن الخُلُق ، ثم الفُتُوَّة،ثم المروءة :

قال ابن القيم : « هي ثلاثة منازل : منزلة التخلُّق وحُسْن الخُلُق ، ومنزلة الفتوة ، ومنزلة المروءة .

وهذه منزلة شريفة لم تعبّر عنها الشريعة باسم « الفتوة » ، بل عبَّرت عنها باسم « مكارم الأخلاق » ، كما في حديث عن النبيِّ ﷺ : « إنما بُعِثت لأتمِّم مكارمَ الأخلاق »(٢) .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٤٠ .

(٢) صحيح : رواه من حديث أبي هريرة : البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣) ، وابن سعد في الطبقات (١/١٩٢) ، والحاكم ، وأحمد ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبي ، وصحّحه ابن عبد البر .

ولم يجئ اسم « الْفتوة » في القرآن ولا السُّنَّة ولا في لسان السلف ، وإنما استعمله مَنْ بعدهم في مكارم الأخلاق.وأصلها عندهم : أن يكون العبد أبدًا في أمر غيره .

وأقْدَم مَن علمتُه تكلَّم في « الفتوة » : جعفر بن محمد ، ثم الفضيل ابن عياض، والإمام أحمد ، وسهل بن عبد الله ، والجنيد ، ثم الطائفة .

فيُذكَر أن جعفر بن محمد سُئل عن الفتوة ، فقال للسائل : ما تقول أنت ؟ فقال : إن أُعطيتُ شكرت ، وإن مُنعت صبرت . فقال : الكلاب عندنا كذلك . فقال السائل : يا ابن رسول الله ، فما الفتوة عندكم ؟ فقال : إن أُعطينا آثرنا ، وإن مُنعنا شكرنا .

وقال الفضيل بن عياض : الفتوة : الصفحُ عن عثرات الإخوان .

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه، في رواية ابنه عبد الله عنه، وقد سُئل عن الفتوة ، فقال : تَرْكُ ما تهوى لما تخشى .

ولا أعلم لأحدٍ من الأئمة الأربعة فيها سواه »[(١)] .

« وقال سفيان الثوري : « من لم يتفتّى لم يُحسن يتقرًّا » .

وذُكرت الفتوة عند سفيان رحمه الله ، فقال : ليست بالفسق ولا بالفجور ؛ ولكن الفتوة كما قال جعفر بن محمد : طعامٌ موضوع ، وحجابٌ مرفوع ، ونائلٌ مبذول ، وبِشْرٌ مقبول ، وعفافٌ معروف ، وأذى مكفوف .

وقال آخر :

وليس فتى الفتيانِ مَن راح واغتدى ... لشُرْب صَبوحٍ أو لشُرْبِ غَبُوقِ
ولكن فتى الفتيانِ مَن راح واغتدى ... لضرّ عدوٍّ أو لنفْعِ صديقِ »[(٢)] .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٤١ .

(٢) بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، وشَحْذ الذاهن والهاجس لابن عبد البر القرطبي ١ / ٦٤٥ - ٦٤٧ . طبع مكتبة ابن تيمية .

كمال هذا الخلُق :

وقال الدقَّاق : هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ ؛ فإن كلَّ أحدٍ يقول يوم القيامة : نفسي نفسي ، وهو يقول : « أُمَّتي أُمَّتي » .

وقال سهل : هي اتِّباع السنة .

وقيل : هي الوفاء والحفظ .

وسُئِل الجنيد عن الفتوة ، فقال : لا تُنافر فقيرًا ، ولا تُعارض غنيًّا .

وقال أيضا : الفتوة : كفُّ الأذى ، وبَذْل الندى .

وقال الحارث المحاسبي : الفتوة : أن تَنصِف ولا تنتصف .

وقال عمر بن عثمان المكّي : الفتوة : حُسْن الخلق .

وقال محمد بن علي الترمذي : الفتوة : أن تكون خَصْمًا لربِّك على نفسك .

وقيل : الفتوة : أن لا ترى لنفسك فضلًا على غيرك .

وقيل : الفتوة : كسْر الصنم الذي بينك وبين الله تعالى ؛ وهو نفسك ؛ فإن الله حكى عن خليله إبراهيم عليه السلام : أنه جعل الأصنام جُذاذًا ، فكسر الأصنام له . فالفتى من كسر صنمًا واحدًا في الله .

وقيل : الفتوة : أن لا تكون خصمًا لأحد ، يعني في حفظ نفسك . وأمَّا في حق الله، فالفتوة: أن تكون خصمًا لكل أحد، «ولو كان الحبيب المصافيا».

وقال الترمذي : الفتوة : أن يستوي عندكم المقيم والطارئ .

وقيل : ليس الفتوة أن تَرْبح على صديقك .

وقيل : فضيلة تأتيها ، ولا ترى نفسك فيها . وقيل : أن لا تحتجب ممَّن قصدك .

وقيل : أن لا تهرب إذا أقبل العافي ، يعني طالب المعروف . وقيل : إظهار النعمة وإسرار المحنة .

وقيل : أن لا تدَّخِر ولا تعتذر .

فُتُوَّة يوسف عليه السلام مع إخوته :

انظر رحمك الله إلى ما قاله الله تعالى حاكيًا على لسان يوسف : ﴿ **ورفع أبويه على العرش وخرُّوا له سُجَّدًا وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤيايَ مِن قَبْلُ قد جعلها ربِّي حقًّا وقد أحسن بي إذْ أخْرَجني من السِّجن وجاءَ بكم من البدوِ من بَعْدِ أن نزغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي إنَّ ربِّي لطيفٌ لما يشاء إنه هو العليمُ الحكيمُ** ﴾ . [يوسف : ١٠٠] .

قال ابن القيم : « لم يقل : (أخرجني من الجُبِّ) ؛ حفظًا للأدب مع إخوته ، وتفتيًا عليهم : أن لا يُخجلهم بما جرى في الجبِّ .وقال : ﴿ **وجاء بكم من البدو** ﴾ و لم يقل : (رفع عنكم جهد الجوع والحاجة) أدبًا معهم . وأضاف ما جرى إلى السبب ، و لم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه ، فقال : ﴿ **من بعد أن نزغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي** ﴾ ، فأعطى الفُتُوَّة والكرم والأدب حقَّه ، ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم »[(١)] .

كمال الفُتُوَّة في بيت النُّبُوَّة :

قال ابن القيم : « ومن الفتوة التي لا تُلْحق : ما يُذْكر أن رجلًا نام من الحاج في المدينة ، ففقد هميانًا فيه ألف دينار ، فقام فزعًا ، فوجد جعفر بن محمد ، فعلِق به وقال : أخذتَ همياني ؟ فقال : أيّ شيء كان فيه ؟ قال : ألف دينار. فأدخله داره ووزن له ألف دينار، ثم إن الرجل وجد هميانه ، فجاء إلى

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٠ - ٣٨١ .

جعفر معتذرًا بالمال ، فأبى أن يقبله منه ، وقال : شيء أخرجته من يدي لا أستردُّه أبدًا . فقال الرجل للناس : مَن هذا ؟ فقالوا : هذا جعفر بن محمد رضي الله عنه »[1] .

لله درُّهم من أهل بيتٍ ، لسان حالهم يقول :

تركنا البحارَ الزَّاخِراتِ وراءنا فمن أين يدري الناس أنَّى توجَّهنا

من فُتُوّة رجل مع امرأته : « سبقتَ الفتيان » :

« وقيل : تزوّج رجل بامرأة ، فلما دخلت عليه رأى بها الجدري، فقال: اشتكيت عيني . ثم قال : عميت . فبعد عشرين سنة ماتت ، و لم تعلم أنه بصير ، فقيل له في ذلك ، فقال : كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها . فقيل له : سبقتَ الفتيان .

مِثْلُك يخدم الفتيان :

وقدم جماعة فتيان لزيارة فتى،فقال الرجل : يا غلام قدِّم السفرة . فلم يقدِّم ، فقالها ثانيًا وثالثًا ، فلم يقدِّم ، فنظر بعضُهم إلى بعض ، وقالوا : ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل مَن يتعاصى عليه في تقديم السفرة كلّ هذا . فقال الرجل : لِمَ أبطأت بالسفرة ؟ فقال الغلام : كان عليها نمل . فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلى الفتيان مع النمل ، و لم يكن من الفتوة إلقاء النمل وطردهم عن الزاد ، فلبثتُ حتى دبَّ النمل . فقالوا : يا غلام ، مثلك يخدم الفتيان .

واستضاف رجُلٌ جماعةً من الفتيان ، فلما فرغوا من الطعام ، خرجت جارية تصبُّ الماء على أيديهم ، فانقبض واحد منهم ، وقال : ليس من الفتوة أن تصبَّ النسوانُ الماء على أيدي الرجال . فقال آخر منهم : أنا منذ سنين أدخل

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٤٣ .

إلى هذه الدار ، ولم أعلم أن امرأة تصبُّ الماء على أيدينا أو رجلًا »[(١)] .

لله درُّك .. فقد سار على دربك الربيع بن خثيم ، تلميذُ ابن مسعود رضي الله عنه ، والذي تردَّد على بيته السنين الطويلة ، ومن كثرة غضّ طرفه ، كانت الجارية تظنُّه أعمى ... فإذا طرق الباب دخلت على ابن مسعود ، وقالت له : « صاحبك الأعمى أتى » .

« نكتة الفتوة : أن لا تشهد لك فضلًا ، ولا ترى لك حقًّا » :

يقول ابن القيم – شارحًا كلام شيخ الإسلام الهروي – : « يقول : قلب الفتوة ، وإنسان عينها : أن تفنى بشهادة نقصك وعيبك عن فضلك ، وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم .

والناس في هذا مراتب ؛ فأشرفها : أهل هذه المرتبة ، وأخسُّها : عكسهم . وهم أهل الفناء في شهود فضائلهم عن عيوبهم ، وشهود حقوقهم على الناس عن شهود حقوق الناس عليهم .

وأوسطهم : من شهد هذا وهذا ؛ فيشهد ما في العيب والكمال ، ويشهد حقوق الناس عليه وحقوقه عليهم .

درجات الفُتُوَّة :

قال الهروي : « وهي على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : تَرْك الخصومة ، والتغافل عن الزلّة ، ونسيان الأذيَّة » :

«هذه الدرجة من باب الترك والتخلي، وهي أن لا يخاصم أحدًا ؛ فلا ينصب نفسه خصمًا لأحدٍ غيرها ، فهي خَصْمُه .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٤٣ .

وهذه المنزلة أيضا ثلاث درجات :

أ - لا يُخاصم بلسانه .

ب - ولا ينوي الخصومة بقلبه .

ج - ولا يخطرها على باله . هذا في حقِّ نفسه .

وأما في حقِّ ربِّه : فالفتوة : أن يخاصم بالله وفي الله ، ويحاكم إلى الله ، كما كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح : « وبك خاصمت ، وإليك حاكمت » . وهذه درجة فتوة العلماء الدعاة إلى الله تعالى .

فُتُوَّة التغافل أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية :

وأمَّا « التغافل عن الزلَّة » : فهو أنه إذا رأى من أحد زَلَّة ، يوجب عليه الشرع أخذه بها ؛ أظهر أنه لم يرها ؛ لئلا يعرِّض صاحبها للوحشة ، ويريحه من تحمُّل العذر .

وفتوة التغافل : أرفع من فتوة الكتمان مع الرؤية .

قال أبو علي الدقَّاق : جاءت امرأة فسألت حاتمًا عن مسألة ، فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة، فخجلت ؛ فقال حاتم : ارفعي صوتك . فأوهمها أنه أصم ، فَسُرَّت المرأة بذلك ، وقالت : إنه لم يسمع الصوت . فلُقِّب بحاتم الأصم . وهذا التغافل هو نصف الفتوة .

نسيانُ الأذيَّة :

وأما « نسيان الأذيَّة » : فهو بأن تنسى أذيَّة من نالك بأذى ؛ ليصفو قلبك له ، ولا تستوحش منه .

قلت : وهنا نسيان آخر أيضًا ، وهو من الفتوة ؛ وهو نسيان إحسانك إلى من أحسنت إليه ، حتى كأنه لم يصدر منك ، وهذا النسيان أكمل من الأول ، وفيه قيل :

ينسى صنائعه والله يُظهرها إن الجميلَ إذا أخفيتَه ظهرا »[(١)]

«الدرجة الثانية: أن تُقرِّب مَن يقصيك ، وتكرم من يؤذيك ، وتعتذر إلى من يجني عليك ؛ سماحةً لا كظمًا ، ومودَّةً لا مصابرةً » .

قال ابن القيم : « هذه الدرجة أعلى مما قبلها وأصعب ؛ فإن الأولى تتضمن ترك المقابلة والتغافل ، وهذه تتضمن الإحسان إلى من أساء إليك ، ومعاملته بضدِّ ما عاملك به ؛ فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خِطَّتين ؛ فخطتُك : الإحسان ، وخطته : الإساءة . وفي مثلها قال القائل :

إذا مرضنا أتيناكم نعودُكُمُ وتُذنبونَ فنأتيكُم ونعتَذِرُ

ومن أراد فَهْم هذه الدرجة كما ينبغي ، فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ مع الناس ، يجدها هذه بعينها ، ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحدٍ سواه ، ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة » .

ابن تيمية مِن سادات الفتيان : « وددتُ أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه » :

قال ابن القيم : « وما رأيتُ أحدًا قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - وكان بعض أصحابه الأكابر يقول : وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه .

وما رأيته يدعو على أحدٍ منهم قط ، وكان يدعو لهم .

وجئتُ يومًا مبشِّرًا له بموت أكبر أعدائه وأشدِّهم عداوة وأذى له ، فنهرني وتنكَّر لي واسترجع ، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزَّاهم ، وقال : إني لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتُكم

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٤٤ - ٣٤٥ .

فيه . ونحو هذا من الكلام ، فسرُّوا به ودعوا له ، وعظموا هذه الحال منه ، فرحمه الله ورضي عنه . وهذا مفهوم » .

الاعتذار إلى مَن يجني عليك :

قال ابن القيم : « وأما « الاعتذار إلى من يجني عليك » : فإنه غير مفهوم في بادئ الرأي ؛ إذ لم يصدُر منك جناية توجبُ اعتذارًا ، وغايتك : أنك لا تؤاخذه ، فهل تعتذر إليه من تَرْك المؤاخذة ومعنى هذا : أنك تُنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه ، والجاني خليقٌ بالعذر .

والذي يُشهدك هذا المشهد ، وأنك تعلم أنه إنما سُلِّط عليك بذنب ، كما قال تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبتْ أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ [الشورى : ٣٠] . فإذا علمتَ أنك بدأتَ بالجناية فانتقم الله منك على يده ؛ كنت في الحقيقة أولى بالاعتذار .

والذي يُهَوِّنُ عليك هذا كلَّه ، مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدمة ، فعليك بها ؛ فإن فيها كنوز المعرفة والبِرِّ .

وقوله : « سماحة لا كظمًا ، ومودةً لا مصابرةً » :

يعني : اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحة وطيبة نفس وانشراح صدر ، لا عن كظمٍ وضيقٍ ومصابرةٍ ؛ فإن ذلك دليل على أن هذا ليس في خُلُقِك ، وإنما هو تكلُّف يوشك أن يزول ، ويظهر حكم الخلق صريحًا؛ فتُفتَضح . وليس المقصود إلا إصلاح الباطن والسر والقلب .

وهذا الذي قاله الشيخ لا يمكن إلا بعد العبور على جِسْر المصابرة والكظم ؛ فإذا تمكن منه أفضى به إلى هذه المنزلة بعون الله ، والله أعلم » .

« الدرجةُ الثالثةُ : أن لا تتعلَّق في السير بدليل ، ولا تشوب إجابتك بعوض ، ولا تقف في شهودك على رسم » :

قال ابن القيم : هذه ثلاثة أمور اشتملت عليها هذه الدرجة :

أمّا عدم تعلُّقه في السير بدليل : فقد بيَّن مراده به في آخر الباب ، إذ يقول : « وفي علم الخصوص : مَن طلب نور الحقيقة على قدم الاستدلال ، لم يحلَّ له دعوى الفُتُوَّة أبدًا ». وهذا موضع عظيم يحتاج إلى تبيين وتقدير .

والمراد : أن السائر إلى الله يسير على قدم اليقين ، وطريق البصيرة والمشاهدة ؛ فوقوفه مع الدليل : دليل على أنه لم يَشُمَّ رائحة اليقين . والمراد بهذا : أن المعرفة عندهم ضرورية لا استدلالية ، وهذا هو الصواب ؛ ولهذا لم تدع الرسلُ قط الأممَ إلى الإقرار بالصانع سبحانه وتعالى ، وإنما دعَوْهم إلى عبادته وتوحيده ، وخاطبوهم خطاب من لا شبهة عنده قط في الإقرار بالله تعالى ، ولا هو محتاج إلى الاستدلال عليه ؛ ولهذا : ﴿ **قالت رُسُلُهم أفي الله شكٌّ فاطرِ السموات والأرض** ﴾ . وكيف يصحُّ الاستدلال على مدلول هو أظهر من دليله ؟ حتى قال بعضهم : كيف أطلب الدليل على من هو دليلٌ على كلِّ شيء ؟ فتقيُّد السائر بالدليل وتوقُّفه عليه ، دليلٌ على عدم يقينه . بل إنما يتقيَّد بالدليل الموصِّل له إلى المطلوب بعد معرفته به ؛ فإنه يحتاج – بعد معرفته – إلى دليل يوصِّله إليه ، ويدلُّه على طريق الوصول إليه ، وهذا الدليل هو الرسول ﷺ ، فهو موقوفٌ عليه يتقيَّد به ، ولا يخطو خطوة إلا وراءه .

وأيضًا فالقوم يشيرون إلى الكشف ومشاهدة الحقيقة ، وهذا لا يمكن طلبه بالدليل أصلًا . ولا يقال : ما الدليل على حصول هذا ؟ وإنما يحصُل بالسلوك في منازل السير ، وقطعها منزلة منزلة ، حتى يصل إلى المطلوب . فوصوله إليه بالسير لا بالاستدلال ، بخلاف وصول المستدل ؛ فإنه إنما يصل إلى العلم ، ومطلوب القوم وراءه . والعلم منزلة من منازلهم – كما سيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى – ولهذا يسمُّون أصحاب الاستدلال : أصحاب القال . وأصحاب الكشف : أصحاب الحال . والقوم عاملون على الكشف الذي يحصل بنور العيان ، لا على العلم الذي يُنال بالاستدلال والبرهان .

وهذا موضع غلط واشتباه ؛ فإنَّ الدليل في هذا المقام شرط ، وكذلك العلم ، وهو باب لا بد من دخوله إلى المطلوب ، ولا يوصل إلى المطلوب إلا من بابه ، كما قال تعالى : ﴿ وَأْتُوا البيوت من أبوابها ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

ثم إنه يُخافُ على مَن لا يقف مع الدليل ما هو أعظم الأمور وأشدّها خطرًا ، وهو الانقطاع عن الطلب بالكلية ، والوصول إلى مجرَّد الخيال والمحال ؛ فمن خرج عن الدليل ضلَّ سواء السبيل .

فإن قيل : تعلُّقه في المسير بالدليل ، يفرِّق عليه عزمَه وقلبه ؛ فإن الدليل يفرِّق والمدلول يجمع . فالسالك يقصد الجمعية على المدلول ، فما له ولتفرقة الدليل ؟ .

قيل: هذه هي البلية التي لأجلها أعرضَ مَنْ أعرضَ مِن السالكين عن العلم ونهى عنه ، وجُعلت علَّة في الطريق ، ووقع هذا في زمن الشيوخ القدماء العارفين فأنكروه غاية الإنكار ، وتبرَّءُوا منه ومِن قائله ، وأوصَوْا بالعلم ، وأخبروا أن طريقهم مقيَّدةٌ بالعلم ؛ لا يفلح فيها مَن لم يتقيَّد بالعلم . والجنيد كان من أشدّ الناس مبالغة في الوصية بالعلم ، وحثًّا لأصحابه عليه .

والتفرُّق في الدليل خيرٌ من الجمعية على الوهم والخيال ؛ فإنه لا يعرف كون الجمعية حقًّا إلا بالدليل والعلم . فالدليل والعلم ضروريان للصادق ، لا يُستغنَى عنهما .

نعم،يقينُه ونور بصيرته وكشفه ، يغنيه عن كثير من الأدلة التي يتكلَّفها المتكلِّفون ، وأرباب القال ؛ فإنه مشغول عنها بما هو أهم منها ، وهو الغاية المطلوبة .

مثالـه : أن المتكلِّم يُفني زمانـه في تقـرير حـدوث العالم ، وإثبـات وجود الصانع . وذلك أمرٌ مفروغ منه عند السالك الصادق صاحب اليقين ؛ فالذي يطلبه هـذا بالاستدلال – الذي هو عرضة الشُّبَه والأسئلة والإيـرادات

التي لا نهاية لها - هو كشفٌ ويقين للسالك . فتقيُّده في سلوكه بحال هذا المتكلم انقطاعٌ ، وخروجٌ عن الفتوة . وهذا حقٌّ لا يُنازع فيه عارف ، فترى المتكلِّم يبحث في الزمان والمكان، والجواهر والأعراض، والأكوان ، وهِمَّته مقصورة عليها لا يعدوها ليصل منها إلى المكوِّن وعبوديته . والسالك قد جاوزها إلى جمع القلب على المكوِّن وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته ، لا يلتفتُ إلى غيره ، ولا يشتغل قلبه بسواه .

فالمتكلِّم متفرِّق مشتغل في معرفة حقيقة الزمان والمكان ، والعارف قد شح بالزمان أن يذهب ضائعًا في غير السير إلى ربِّ الزمان والمكان .

وبالجملة : فصاحبُ هذه الدرجة لا يتعلَّق في سيره بدليل ، ولا يمكنه السير إلا خلف الدليل ، وكلاهما يجتمع في حقِّه . فهو لا يفتقر إلى دليل على وجود المطلوب . ولا يستغني طرفة عين عن دليل يوصِّله إلى المطلوب . فسَيْر الصادق على البصيرة واليقين والكشف ، لا على النظر والاستدلال .

وأما قوله : « ولا تشوب إجابتك بعوض » :

أي : تكون إجابتك لداعي الحق خالصة ، إجابة محبة ورغبة ، وطلب للمحبوب ذاته ، غير مشوبة بطلب غيره من الحظوظ والأعواض ؛ فإنه متى حصل لك؛ حصل لك كلُّ عوض وكلُّ حظٍّ به وكل قسم. كما في الأثر الإلهي: « ابن آدم ، اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كلَّ شيء ، وإن فُتُّك فاتك كلُّ شيء ، وأنا أحبُّ إليك من كلِّ شيء » .

فمن أعرض عن طلب ما سوى الله ، ولم يَشُب طلبه له بعوض ، بل كان حُبًّا له ، وإرادة خالصة لوجهه ؛ فهو في الحقيقة الذي يفوز بالأعواض والأقسام والحظوظ كلِّها . فإنه لمَّا لم يجعلها غاية طلبه ، توفَّرت عليه في حصولها ، وهو محمودٌ مشكورٌ مقرَّب ، ولو كانت هي مطلوبة لنقصت عليه بحسب اشتغاله بطلبها وإرادتها عن طلب الرب تعالى لذاته وإرادته .

فهذا قلبه ممتلئ بها والحاصل له منها نَزْرٌ يسير ، والعارف ليس قلبه متعلِّقًا بها وقد حصلت له كلها ؛ فالزهد فيها لا يُفيتكها ، بل هو عينُ حصولها . والزهد في الله هو الذي يُفيتكه ويُفيتك الحظوظ . وإذا كان لك أربعة عبيد ؛ أحدهم : يريدك ولا يريد منك ، بل إرادته مقصورة عليك وعلى مرضاتك . والثاني : يريد منك ولا يريدك ، بل إرادته مقصورة على حظوظه منك . والثالث : يريدك ويريد منك . والرابع : لا يريدك ولا يريد منك ، بل هو متعلِّق القلب ببعض عبيدك ؛ فله يريد ، ومنه يريد – فإنَّ آثر العبيد عندك ، وأحبَّهم إليك ، وأقربهم منك منزلة ، والمخصوص من إكرامك وعطائك بما لا يناله العبيد الثلاثة ؛ هو الأول . هكذا نحن عند الله سواء .

وأمّا قوله : « ولا تقف في شهودك على رسم » :

فيعني : أن لا يكون منك نظر إلى السوى عند الشهود ، كما تقدَّم مرارًا . وهذا عند القوم غير مكتسب ؛ فإن الشهود إذا صحَّ محا الرسوم ضرورة في نظر الشاهد ، فلا حاجة إلى أن يشرط عليه عدم الوقوف عليها . والشهود الصحيح ماحٍ لها بالذات ، لكن أوله قد لا يستغني عن الكسب ، ونهايته لا تقف على كسْب .

نفيسة :

قال : « واعلم أنَّ مَن أحوج عدوَّه إلى شفاعة ، ولم يخجل من المعذرة إليه ؛ لم يشمَّ رائحة الفتوة » .

يعني أن العدوَّ متى علم أنك متألِّم من جهة ما نالك من الأذى منه ، احتاج إلى أن يعتذر إليك . ويُشَفِّع إليك شافعًا يزيل ما في قلبك منه . فالفتوة كلُّ الفتوة : أن لا تحوجه إلى الشفاعة ، بأن لا يظهر له منك عتْب ولا تغيُّر عما كان له منك قبل معاداته ، ولا تطوي عنه بِشْرك ولا بِرَّك . وإذا لم تخجل

أنت من قيامه بين يديك مقام المعتذر ، لم يكن لك في الفتوة نصيب .

ولا تستعظم هذا الخُلُق ، فإن للفتيان ما هو أكبر منه . ولا تستصعبه فإنه موجود في كثير من الشطار والعشراء ، الذين ليس لهم في حال المعرفة ولا في لسانها نصيب ، فأنت أيها العارف أولى به .

قال : « وفي علم الخصوص : مَن طلب نور الحقيقة على قدم الاستدلال ؛ لم يحلّ له دعوى الفتوة أبدًا » .

كأنه يقول : إذا لم تحوج عدوك إلى العذر والشفاعة ، ولم تكلّفه طلب الاستدلال على صحة عذره ؛ فكيف تحوج وليَّك وحبيبك إلى أن يقيم لك الدليل على التوحيد والمعرفة ، ولا تشير إليه حتى يقيم لك دليلًا على وجوده ووحدانيته ، وقدرته ومشيئته ؟ فأين هذا من درجة الفتوة ؟! وهل هذا إلا خلاف الفتوة من كل وجه؟!

ولو أن رجلا دعاك إلى داره ، فقلت للرسول : لا آتي معك حتى تقيم لي الدليل على وجود من أرسلك ، وأنه مطاع ، وأنه أهل أن يُغشى بابه ؛ لكنتَ في دعوى الفتوة زنيما . فكيف بمن وجوده ، ووحدانيته ، وقدرته وربوبيته وإلهيته ؛ أظهر من كل دليل تطلبه ؟ فما من دليل يستدل به ، إلا ووحدانية الله وكماله أظهر منه ؛ فإقرار الفِطَر بالرب سبحانه خالق العالم لم يوقفها عليه موقف ، ولم تحتج فيه إلى نظر واستدلال : ﴿ **أفي الله شكٌّ فاطر السموات والأرض** ﴾ [إبراهيم : ١٠] . فأبعدُ الناس من درجة الفتوة : طالب الدليل على ذلك .

وليس يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتـاج النهـار إلـى دليـل

ومن الفُتُوَّة العفو مع الإحسان ، وهاك أمثلة :

صفية بنت حُيي أمّ المؤمنين رضي الله عنها :

قال أبو عمر بن عبد البر : روينا أنَّ جاريةً لصفيَّة أتت عمر بن الخطاب

فقالت : إن صفية تُحبُّ السبت ، وتصل اليهود . فبعث عمر يسألها فقالت : أما السبت فلم أُحبَّه منذ أبدلني الله به الجمعة ، وأمَّا اليهود فإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها . ثم قالت للجارية : ما حملكِ على ما صنعتِ ؟ قالت : الشيطان . قالت : فاذهبي فأنت حرَّة(١) .

عبد الله بن عون رحمه الله :

عن بكَّار بن محمد السيريني ، قال : وكان – فيما حدثني بعضُ أصحابنا– لابن عون ناقة يغزو عليها ويحجّ، فكان بها معجبًا، قال: فأمر غلامًا له يستقي عليها ، فجاء بها وقد ضربها على وجهها ، فسالت عينُها على خدِّها ، فقلنا : إن كان من ابن عون شيءٌ فاليوم . قال : فلم يلبث أن نزل فلما نظر إلى الناقة قال : سبحان الله ! أفلا غير الوجه ، بارك الله فيك، اخرج عني، اشهدوا أنَّه حرٌّ(٢) .

أحمد بن حنبل إمام أهل السُّنَّة :

قال الإمام أحمد : كلُّ من ذكرني ففي حلٍّ ، إلا مبتدعًا . وقد جعلت أبا إسحاق – يعني : المعتصم – في حلٍّ ؛ قد رأيتُ الله يقول : ﴿ **وليعفوا وليصفحوا ألا تحبُّونَ أن يغفرَ الله لكم** ﴾ . وأمر النبي ﷺ أبا بكر بالعفو في قصة مسطح . قال أبو عبد الله : وما ينفعُك أن يعذِّب الله أخاك المسلم في سببك(٣) .

وهذه صورٌ من عُلُوِّ الهِمَّة في المواساة ، وهي من الفُتُوَّة روحها :

---

(١) السير ٢/٢٣٣ ، والاستيعاب ١٣/٦٥ .
(٢) السير ٦/٣٧١ .
(٣) السير ١١/٤٦١ .

أبو بَرْزة الأسلمي رضي الله عنه :

قيل : كانت لأبي بَرْزة الأسلمي جَفنة من ثريد غدوةً ، وجفنةٌ عشيةً للأرامل واليتامى والمساكين .

حكيم بن حزام رضي الله عنه :

قال شعبة : لمّا تُوفِّي الزبير لقي حكيم عبدَ الله بنَ الزبير فقال : كم ترك أخي من الدَّيْن ؟ قال : ألف ألف . قال : عليَّ خمسمائة ألف[(١)] .

سعيد بن العاص رحمه الله :

قال ابن عيينة : « كان سعيد بن العاص إذا قصده سائل وليس عنده شيءٌ قال : اكتب عليَّ سجلًّا بمسألتك إلى الميسرة » .

رحمه الله،فهو من قوم إذا أقبل عليهم السائل يفرحون به ، ويقولون : مرحبًا بمن جاء يحملُ أزوادنا إلى الآخرة بغير أجرة ، ويُقلُّ عنا ما يشغلنا عن عبادة ربِّنا سبحانه وتعالى .

وذكر عبد الأعلى بن حماد أن سعيد بن العاص استسقى من بيت فسقوه ، واتفق أن صاحب المنزل أراد بيعه لدَيْنٍ عليه ، فأدَّى عنه أربعة آلاف دينار[(٢)] .

زيد بن أسلم رحمه الله :

قال أبو الأعرج : لقد رأيتُنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيهًا ، أدنى خصلة فينا التواسي بما في أيدينا ، وما رأيتُ في مجلسه محاربيْن ولا متنازعيْن في حديث لا ينفعُنا[(٣)] .

---

(١) انظر ترجمته في السير ٣/٤٤ - ٥١ .

(٢) انظر السير ٣/٤٤٤ -٤٤٩ .

(٣) السير ٥/٣١٦ - ٣١٧ .

بقي بن مخلد رحمه الله :

مشى رحمه الله مع ضعيف في مظلمة إلى « إشبيلية » ، ومشى مع آخر إلى « إلبيرة » ، ومع امرأة ضعيفة إلى « جيّان »[(١)] .

القاضي الخياط : أبو عبد الله محمد بن علي المروزي :

عُرف بالخياط ؛ لأنه كان يخيط على الأيتام والمساكين حِسْبَةً .

« قال الحاكم : سمعت أبي يقول : كان القاضي محمد بن علي المروزي طول أيامه يسكن دار ابن حمدون بحذاء دارنا، وكنت أعرفه يخيط - بالليل ، وإذا تفرَّغ بالنهار - للأيتام والضعفاء ، ويعدُّها صَدَقَةً »[(٢)] .

ابن أبي ذهل :

« قال الحاكم : صحبته حَضرًا وسفرًا ، فما رأيتُ أحسن وضوءًا ولا صلاةً منه ، ولا رأيتُ في مشايخنا أحسنَ تضرُّعًا وابتهالًا منه ، قيل لي : إن عُشْر غلَّته تبلغ ألف حمل . وحدثني أبو أحمد الكاتب أن النسخة بأسامي من يمونهم تزيد على خمسة آلاف بيت ، وقد عُرضت عليه ولايات جليلة فأبى »[(٣)] .

الإمام أحمد الرفاعي رحمه الله :

أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ، والحافظ الذهبي في السير (٢١/٧٨ - ٨٠) .

كان رحمه الله يجمعُ الحطب ويجيء به إلى بيوت الأرامل، ويملأ لهم بالجرَّة .

* * *

(١) السير ١٣/٢٨٥ - ٢٩٦ .
(٢) السير ١٤/٥٦٤ - ٥٦٥ .
(٣) السير ١٦/٣٨١ - ٣٨٢ .

ومن الفُتُوَّة : التَّذمُّم للصاحب والأخ :

« عن الأعمش ، أن سعد بن عبيدة خرج عليه جُعْل مائتي درهم ، فحُبِس بها ، فمرّ عليه عمارة بن عمير فسأل ، فأخبروه ، فعمد إلى مكاتبٍ له ، فصالحه على مائتي درهم يعجِّلها ، فأعطاها، فأُخْرج و لم يعلمه، فلمَّا خرج قال : من أخرجني ؟ قالوا : عمارة .

وقال العلاء بن المسيب : كان خيثمة يحمل صُررًا ، وكان موسرًا ، فيجلس في المسجد فإذا رأى رجلًا من أصحابه في ثيابه رثاثة ، اعترض له فأعطاه .

وقال سفيان بن عيينة : سمعتُ مساورًا الورَّاق يقول : ما كنتُ لأقول لرجل: إني أحبُّك في الله عز وجل، فأمنعه شيئًا من الدنيا. وحُدِّثت عن ضمرة ابن ربيعة ، عن عمرو بن عبد الرحمن ، قال : جاءت يزيدَ بن عبد الملك بن مروان غلَّةٌ من عَمَلته ، فجعل يصررها ويبعث بها إلى إخوانه ، فقال : إني أستحيي من الله عز وجل أن أسأل الجنة لأخ من إخواني ، وأبخل عنه بدينارٍ أو درهم .

وعن أبي منصور ، عن إبراهيم أنه انتهى معه إلى زقاقٍ ، فقال له إبراهيم : تقدَّم . فأبى أن يتقدَّم ، فتقدَّم إبراهيم ، ثم قال : لو كنتُ أعلمُ أنك أكبر مني بيوم ما تقدَّمتُك .

وقال أبو إياس : إذا اصطحب الرجلان فتقدَّم أحدُهما صاحبَه ، فقد أساء الصحبة .

وعن مالك بن مغول ، عن طلحة قال : أخذت معه في زقاق ، فقال طلحة : لو كنت أعلمُ أنك أكبر مني بيوم ، ما تقدَّمتُك .

وقال عبد الله بن قيس : من حق الصاحب على صاحبه ، إذا بالت دابَّته أن يقف له .

وقال محمد بن مناذر : كنتُ أمشي مع الخليل بن أحمد فانقطع شِسْعي ،

فخلع نعله ، فقلت : ما تصنع ؟ قال : أواسيك في الحفاء .

وقال بكر بن عبد الله : إذا كنتَ مع صاحبٍ لك فتخلَّف يبول ، فلم تقم عليه حتى يقضي بوله ، فلستَ له بصاحب . وإذا ما انقطع شِسْعُه فقام يصلحه ، فلم تقم عليه ، فلستَ له بصاحب .

وقال الحسن بن كثير : شكوتُ إلى محمد بن علي الحاجة وجفاء إخواني ، فقال : بئس الأخ ، أخ يرعاك غنيًّا ويقطعك فقيرًا . ثم أمر غلامه فأخرج كيسًا فيه سبعمائة درهم ، فقال : استنفق هذه ، فإذا نفدت فأعلمني .

وقال الفضل بن دلهم : كان الحسن إذا فقد الرجل من إخوانه أتى منزله ؛ فإن كان غائبًا وصل أهله وعياله ، وإن كان شاهدًا سأله عن أمره وحاله ، ثم دعا بعضَ ولده من الأصاغر فأعطاهم الدراهم ووهب لهم ، وقال : أبا فلان ، إن الصبيان يفرحون بهذا .

وقال عبَّاد بن الوليد القرشي : كان الحسن إذا فقد الرجل من إخوانه ، أتاه فسلَّم عليه فسأله عن حاله ، فإذا خرج من عنده دعا الخادم فأعطاها صرَّةً فيها دراهم فقال : ادفعيها إلى مولاتِك وقولي : استنفقيها ، ولا تُعلمي سيِّدك بها .

وعن جميل بن مُرَّة قال : مسَّتنا حاجة شديدة ، فكان مورق العجلي يأتينا بالصُّرَّة فيقول : امسكوا لي هذه عندكم . ثم يمضي غير بعيد فيقول : إن احتجتُم إليها فأنفقوها .

وقال سفيان : قيل لمحمد بن المنكدر : ما بقي ممَّا تستلذ ؟ قال : الإفضال على الإخوان .

وقال بسطام التيمي : كان حمّاد بن أبي سليمان يزورني ، ويقيم عندي سائر نهاره ولا يطعم شيئًا ، فإذا أراد أن ينصرف قال : انظر الذي تحت الوسادة ، فمُرهم ينتفعون به . قال : فأجد الدراهم الكثيرة .

وعن أبي الرباب أن زبيدًا قدم من سفر ، فأهدى له طلحة سلال خبيص ، فجمع عليها إخوانه فأكلوا ، وكساهم ثوبًا ثوبًا .

وعن سلام بن النجاشي قال : لقي الحسنُ بن أبي الحسن البصري بعضَ إخوانه ، فلمّا أراد أن يفارقَه خلع عمامته فألبسه إياها ، وقال : إذا أتيتَ أهلك فبعها واستنفق ثمنها .

وعن فضالة الشحَّام قال : كان الحسن إذا دخل عليه إخوانه أتاهم بما يكون عنده ، ولربما قال لبعضهم : أخرج السلة من تحت السرير . فيخرجها فإذا فيها رطب ، فيقول : ادّخرتُه لكم .

وعن زياد بن أبي زياد قال : ما دخلت على عبد الرحمن بن أبي ليلى قط ، إلّا حدّثني بحديثٍ حسن ، وأطعمني طعامًا طيِّبًا .

وعن ضمرة ، عن ابن شوذب قال : كان أبان بن أبي عيَّاش يدعو إخوانه فيصنع لهم الطعام ، ويُجيزهم بالدراهم .

وعن غسَّان بن المفضل قال : كُنت أرى بشر بن منصور إذا زاره الرجل من إخوانه ، قام معه حتى يأخذ بركابه . قال : وفعل ذلك بي كثيرًا .

وعن يونس ، عن الحسن قال : إنْ كان الرجل ليخلف أخاه في أهله بعد موته أربعين سنة »[1] .

عمرو بن قيس الملائي : يخلف منصور بن المُعْتمر في النفقة على أهله بعد موته :

« قال هُريم بن سفيان : كان عمرو بن قيس المُلائيُّ يمرُّ بنا في كل جمعة ، ومعه هديَّة قد حملها ، يأتي بها منزل منصور بن المُعْتمر قال : وذلك بعد موت منصور بما شاء الله ، فلم يزل على ذلك حتى مات . قال : فبلغني أن أهله كانت تعاهدهم بنحو من ذلك بعدما مات عمرو .

---

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص ٧١ –٧٨ .

وعن بسطام التيمي قال : رأيت طلحة بن مصرِّف يخرج من زقاقٍ ضيِّق في التيم ، فقلتُ : من أين يجيء طلحة ؟ قالوا : يأتي أمَّ عمارة بن عمير يبرها بالنفقة والكسوة والصِّلة . قال : وذاك بعد موت عمارة ببضع عشرة سنة . قال : وكانت أمُّ عمارة أعجمية .

قال السري السقطي رحمه الله تعالى : « ذهب المعروف ، وبقيت التجارة ؛ يعطي أحدهم لأخيه الشيء لأجل أن يعطيه نظيره » .

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول : « لقد أدركنا الناس وأحدهم يدخل دار أخيه وهو غائب ، فيرى السَّلة مملوءة فاكهة فيأخذها يأكل منها ويفرق منها بغير إذن ، فإذا جاء أخوه وأُخبِر ، فرح بذلك » .

عبد الله بن عون والحسن البصري :

« قال معاذ بن معاذ : سمعت ابن عون يقول : ما بقي أحد أبطن بالحسن منا ، والله لقد أتيتُ منزله في يوم حار ، وليس هو في منزله ، فنمتُ على سريره ، فلقد انتبهتُ وإنه ليروِّحني .

وكان لمحمد بن سيرين - رحمه الله تعالى - بغل مربوط في دهليزه فكان كلُّ من احتاج إلى ركوبه أخذه وركبه من غير استئذان ؛ لما يعلمون من طيب نفسه بذلك .

ودخل جماعة من إخوان سفيان الثوري دارَه وهو غائب ، فأخذوا ما يأكلون ، وجلسوا يأكلون ويتحدَّثون في صلاح سفيان ، فبينما هم كذلك إذ أقبل سفيان ، فوجدهم على تلك الحالة فبكى ، فقالوا له : ما يُبكيك ؟ قال : كيف لا أبكي وقد ذكرتموني بأحوال السلف الصالح ، وعاملتموني بأخلاق الصالحين ، ولست منهم ؟!

وكان بقية بن الوليد - رحمه الله - يدخل دار صديقه في غيبته ، ويأخذ القدر من على النار ، ويضعه على باب الدار ، فيأكل منه ويفرِّق على الفقراء والمساكين ، فإذا جاء أخوه فرح بذلك ، وقال : جزاك الله من أخ صالح خيرًا ،

قدَّمت لنا ليوم معادنا .

وقد كان جعفر بن محمد رضي الله عنهما يقول : بئس الأخ من لا يتجرأ أخوه أن يفتح كيسه في غيبته ويأخذ منه ما يحتاج إليه بغير إذنه »[1] .

قال الشعراني في « تنبيه المغترِّين » (٨٩) : « كان عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – يشترط على من يريد أن يصحبه في السفر ، أن يكون عبد الله هو الذي ينفق عليه ، وأن يكون خادمًا ومؤذنًا .

وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول : عجبًا للرجل اللئيم ؛ يبخل بالدنيا على أصدقائه ، ويسخى بالجنة لأعدائه !! » .

وعن سلمى مولاة أبي جعفر محمد بن علي قالت : كان يدخل عليه إخوانه ، فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطيِّب ، ويكسوهم الثياب الحسنة ، ويهب لهم الدراهم . قالت : فأقول له : بعض ما تصنع ؟! فيقول : يا سلمى ، ما نؤمِّل في الدنيا بعد المعارف والإخوان ؟!

وعن حماد بن أبي حنيفة ، قال : كان أبو جعفر محمد بن علي يدعو نفرًا من إخوانه كل جمعة ؛ فيطعمهم الطعام الطيِّب ، ويُطيِّبهم ، ويُجمرهم ، ويروحون إلى المسجد من منزله .

وعن منصور قال : قال رجل للحسن : يا أبا سعيد ، الرجل يشتري الشاة فيصنعها ويدعو عليها نفرًا من إخوانه ؟ قال : وأين أولٰئك ؟ ذهب أولٰئك .

وعن مجاهد قال : صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه ، فكان هو الذي يخدمني[2] .

مواقف أعطر من المسك ، وأغرب من الخيال :

« قال ابن عمر رضي الله عنهما : لقد رأيتنا وما أحدنا بأحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم .

---

(١) تنبيه المغترين للشعراني صـ ٩٢ .

(٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا صـ ٧٨ – ٧٩ .

وقال الحسن : كنا نعدّ البخيل الذي يُقْرِض أخاه !! .

وقال : ليس من المروءة أن يربح الرجل على صديقه »(١) .

ولبيت النبوة القَدَحُ المُعَلّى في ذلك :

« قال أبو جعفر الباقر لأصحابه : هل يُدخِل أحدكم يده في كُمِّ صاحبه ، فيأخذ منه ما يريد ؟ قالوا : لا . قال : فلستم بإخوان .

وقد كان بعضهم يتلطَّف في إيصال البرِّ إلى إخوانه ؛ فيأتي بالصُّرَّة فيها الأربعمائة والخمسمائة فيودعها أحدهم ، ثم يلقاه بعد فيقول : انتفعوا بها فهي لكم .

وكان الرجل إذا أراد شَيْن أخيه ، طلب حاجته من غيره .

وجاء رجل من السلف إلى بيت صديق له ، فخرج إليه فقال : ما جاء بك ؟ قال : على أربعمائة درهم . فدخل الدار فوزنها ، ثم خرج فأعطاه ، ثم عاد إلى الدار باكيا ، فقالت زوجته : هلَّا تعلَّلت عليه ، إذا كان إعطاؤه يشقّ عليك ؟ فقال : إنما أبكي لأني لم أتفقَّد حاله ، فاحتاج أن يقول لي ذلك !! »(٢) .

وعند عيسى التمَّار وفتح الموصلي أطيبُ الطِّيب :

« عن رباح بن الجرَّاح قال : جاء فتح الموصلي إلى منزل صديق له ، يقال له : عيسى التمَّار . فلم يجده في المنزل ، فقال للخادم : أخرجي لي كيسَ أخي . فأخرجته ، ففتحه فأخذ منه درهمين ، وجاء عيسى فأخبرته الخادم ، فقال : إن كنتِ صادقةً فأنت حُرَّة . فنظر فإذا هي صادقة ، فعُتِقت »(٣) .

أهكذا يُؤاخي الأكابر ؟!

« قال أبو سليمان الداراني : كان لي أخ في الله عز وجل ، فقلت له يومًا : أعطني دراهم . فقال : كم تريد ؟ فسقط من عيني ، وخرجت أُخُوَّتُه من قلبي بقوله : كم تريد »(٤) .

(١،٢) التبصرة لابن الجوزي ٢ / ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٣،٤) التبصرة ٢/ ٣٠٢ - ٣٠٣ .

فداء الأخ بالنفس :

وإذا علت الهمم ، وقع فداء الأخ بالنفس .

« عن محمد بن داود قال : سمعت أبا بكر القرطبي ، وأبا عمرو الآدميّ يقـولان :- وكانا يتآخيان في الله تعالى - خرجنا من بغداد نريد الكوفة ، فلمَّا سِرْنا في بعض الطريق ، إذا نحن بِسبعَيْن رابضيْن على الطريق ، فقال أبو بكر لأبي عمرو : أنا أكبر منك سنًّا فدعني أتقدَّمك ، فإن كان حادثة اشتغلا بي عنك ، وجُزْت أنت . فقال له أبو عمرو : نفسي ما تسامحني بهذا ، ولكن نكون جميعًا في مكانٍ واحد ، فإن كانت حادثة كنا جميعًا . فجازا جميعًا بين السبعيْن ، فلم يتحرَّكا ومرَّا سالمَيْن »[(١)] .

ومن الفتوة : التذمم للجار :

« قال الحسن : كان الرجل في الجاهلية يقول : والله ، لا يُؤذَى كلب جاري . هذا في الجاهلية فكيف في الإسلام !!

عن داود بن أبي عبد الرحمن جار مالك بن دينار - وكان ثقة - قال : كان لبعض جيران مالك بن دينار كلب ضعيف ، فكان مالك يُخرج له كل يوم طعامًا فَيُلقيه إليه .

وعن هشام قال : كان حسان بن أبي سنان بن ثابت ، تدخل العَنْزُ إلى منزله فتأخذ الشيء ، فإذا طُرِدت قال لهم : لا تطردوا عَنْزَ جاري ، دعوها تأخذ حاجتها .

وقال عبيد الله بن الشميط : جاءت امرأة إلى الحسن تشكو الحاجة ، فقالت : إني جارتك . قال : كم بيني وبينك ؟ قالت : سبع دور . أو قالت : عشر . فنظر تحت الفراش فإذا ستة دراهم أو سبعة ، فأعطاها إياها ، وقال : كدنا نهلك .

---

(١) التبصرة ٢ / ٣٠٢ - ٣٠٣ .

وعن القعقاع بن عمرو قال : صعِد الأحنف بن قيس فوق بيته ، فأشرف على جاره، فقال: سَوْءَة ! سَوْءَة ! دخلت على جاري بغير إذن ، لا صعدتُ فوق هذا البيت أبدًا »[(١)] .

لله درُّك أبا حمزة السُّكري :

« قال عباس الدوري : كان أبو حمزة من الثقات ، وكان إذا مرض عنده من قد رحل إليه ينظر إلى ما يحتاج إليه من الكفاية ، فيأمر بالقيام به ، ولم يكن يبيع السكر ، وإنما سُمِّي السُّكري لحلاوةِ لكلامه .

وعن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق قال : أراد جار لأبي حمزة السكري أن يبيع داره ، فقيل له : بكم ؟ قال : بألفين ثمن الدار ، وبألفين جوار أبي حمزة السكري ، فبلغ ذلك أبا حمزة فوجَّه إليه بأربعة آلاف وقال : لا تبع دارك »[(٢)] .

لله درُّك ودرُّ من قال فيك : أبو حمزة السكري هو الجماعة .

والمكافأة بالصنائع من الفتوة :

« عن عبد الرحمن بن عبد الله - أحد بني عدي بن كعب - قال : أقبل سعيدُ بن العاص يومًا يمشي وحده في المسجد ، فقام إليه رجل من قريش فمشى عن يمينه ، فلما بلغا دار سعيد ، التفت إليه سعيد فقال : ما حاجتك ؟ قال : لا حاجة لي ، رأيتُك تمشي وحدك فوصلتُك . فقال سعيد لقهرمانه - أبي كعب -: ماذا لنا عندك ؟ قال : ثلاثون ألْفًا . قال : ادفعها إليه .

وعن إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز قال : خرجتْ لأبي جائزته ، فأمرني أن أكتب خاصته وأهل بيته ففعلتُ ، فقال لي : تذكَّر ، هل بقي أحدٌ أغفلناه ؟

---

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا صـ ٨٠ - ٨٧ .
(٢) السير ٧ / ٣٨٥ - ٣٨٧ .

قلت : لا . قال : بلى ، رجل لقيني فسلم عليَّ سلامًا جميلًا ، صفته كذا وكذا ، اكتب له عشرة دنانير .

وعن محمد بن الصمّة المُهلّب قال : خرج أبو عيينة بن المُهلَّب ذات يوم ، فتبعه مروان بن الحكم الأُسَيِّدي بكوز ماء ، فلمَّا فرغ من وضوئه التفت ، فإذا هو برجل قائم ، قال : ما حاجتك ؟ قال : جئتُك بكوزٍ من ماء . قال : سبحان الله ! فأمر له بثلاثمائة جَريب »[1] .

قال ابن رجب في « لطائف المعارف » : « كان كثير من السلف يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم؛ اغتنامًا لأجر ذلك؛ منهم: عامر بن عبد قيس، وعمرو بن عتبة بن فرقد ، مع اجتهادهما في العبادة في أنفسهما ، وكذلك كان إبراهيم بن أدهم يشترط على أصحابه في السفر ، الخدمة والأذان .

وكان رجل من الصالحين يصحب إخوانه في سفر الجهاد وغيره ، فيشترط عليهم أن يخدمهم ، فكان إذا رأى رجلًا يريد أن يغسل ثوبه ، قال له : هذا من شرطي . فيغسله ، وإذا رأى من يريد أن يغسل رأسه ، قال : هذا من شرطي . فيغسله ، فلمَّا مات نظروا في يده ، فإذا فيها مكتوب : « من أهل الجنة » . فنظروا إليها ، فإذا هي كتابة بين الجلد واللحم .

وكان ابن المبارك يُطعم أصحابه في الأسفار أطايب الطعام وهو صائم ، وكان إذا أراد الحج من بلده ، مرَّ وجمع أصحابه وقال : من يريد منكم الحج ؟ فيأخذ منهم نفقاتهم ، فيضعها عنده في صندوق ويقفل عليه ، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة ، ويطعمهم أطيب الطعام ، ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتُّحف ، ثم يرجع بهم إلى بلده ، فإذا وصلوا صنع لهم طعامًا ثم جمعهم عليه ، ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم فردَّ إلى كل واحد نفقته »[2] .

---

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا صـ ٩٠ - ٩١ .

(٢) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي صـ ٢٥٩ ، ٢٦٠ . طبع مؤسسة الريان ، ودار ابن حزم .

ونختم هذا الفصل بأريج وشذا من بستان إبراهيم بن أدهم :

« كلُّك لأخيك إلا ما حرَّمه الله ورسوله .. » ، « ولن تكتمل الصحبة حتى تقول لأخيك : يا أنا » .

خرج إبراهيم بن أدهم– رحمه الله– في سفر ومعه ثلاثة نفر، فدخلوا مسجدًا في بعض المفاوز ، والبرد شديد ، وليس للمسجد باب ، فلمّا ناموا قام إبراهيم ، فوقف على الباب إلى الصباح ، فقيل له : لِمَ لَمْ تنم ؟ فقال : خشيت أن يصيبكم البرد ، فقمت مقام الباب[1] .

وخبر إبراهيم بن أدهم نُهديه إلى شباب الحركة الإسلامية قائلين: « ما أُكِلتُ إلَّا يوم أُكِل الثور الأبيض » فكم فَرَّقتنا النَّعرات المُنتنة ... وقد جمعنا الإسلام .

يا مَنْ تنهشُ في أحشائي
يا مَنْ مِني يا مَنْ جزءًا من أجزائي
يا مَنْ تبدو للجهَّال كأنَّك دائي
إني أعلم أنك حتمًا فيك شفائي
إنك مني ... أنت كأني لستُ أُرائي
أنت كأنّي حين شقائي
حين جهلتُ طريق إلٰهي
من عند الألف إلى الياء
حين تصوَّرتُ الدنيا
حِسِّي وغذائي وكسائي
إنك مني .. أنت كأنِّي لستُ أُرائي
إنك مسلم .. تشهد أنَّ إلٰهك واحدْ

---

(١) التبصرة لابن الجوزي ٢/ ٣٠١ – ٣٠٢ .

إنك فيها من شركائي
لكنك دومًا تطعنني .. من خلفي وفي كَعْب حذائي
حين أراك تقوم بهذا
يغرقني خجلي وحيائي
ابغ العِزَّةَ عند إلهك
ليس العزّ دمي وبكائي
وغدًا من قوَّاك يُميتُكْ
إن أنتَ أهملتَ ندائي
يا من تَنْهشُ في أحشائي
يــا أنــا

* * *

الفصل الثالث عشر

عُلُوُّ الهِمَّـة
في
المُـــروءَة

تلَذُّ له المروءةُ وهْي تُؤذي ... ومَن يعشقْ يلَذُّ له الغرامُ

[المتنبي]

« لو علمتُ أنَّ الماء البارد يثْلمُ مروءتي ، لَمَا شربتُه ، ولو كنتُ اليوم ممَّن يقول الشعر ، لَرَثيتُ المروءة » . [الشافعي]

□ عُلوُّ الهمَّة في المروءة □

« المروءة سجيَّة جُبلت عليها النفوس الزكيَّة ، وشِيَمٌ طُبعت عليها الهمم العليّة ، وضعُفَت عنها الطباع الدنيَّة ، فلم تُطِقْ حمْلَ أشراطها السنيَّة » .

« اعلمْ أنَّ من شواهد الفضل ودلائل الكرم : المروءة التي هي حِلْية النفوس ، وزينة الهمم . فالمروءة : مراعاة الأحوال إلى أن تكون على أفضلها ، حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ، ولا يتوجَّه إليها ذمٌّ باستحقاق »(١) .

و « (المروءة): فعولة من لفظ المرء ، كالفتوَّة من الفتى ، والإنسانية من الإنسان . ولهذا كان حقيقتها : اتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوانَ البهيمَ ، والشيطانَ الرجيمَ . فإن في النفس ثلاثة دواعٍ متجاذبة :

داعٍ يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشيطان ؛ من الكبر ، والحسد ، والعلوِّ ، والبغي ، والشر ، والأذى ، والفساد ، والغشِّ .

وداعٍ يدعوها إلى أخلاق الحيوان ، وهو داعي الشهوة .

وداعٍ يدعوها إلى أخلاق المَلَك ؛ من الإحسان ، والنصح ، والبر ، والعلم ، والطاعة .

فحقيقة المروءة : بُغْضُ ذَيْنَكِ الداعيْين ، وإجابة الداعي الثالث . وقلَّة المروءة وعدمها : هو الاسترسال مع ذينك الداعيين ، والتوجُّه لدعوتهما أين كانت .

فالإنسانية ، والمروءة ، والفتوّة : كلها في عصيان الداعيْين ، وإجابة الداعي الثالث . كما قال بعض السلف : خلق الله الملائكة عقولًا بلا شهوة ، وخلق البهائم شهوة بلا عقول ، وخلَق ابن آدم وركَّب فيه العقل والشهوة

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي صـ ٣٩٢ .

فمَن غلب عقلُه شهوتَه ، الْتحق بالملائكة . ومن غلبتْ شهوتُه عقلَه ، الْتحق بالبهائم .

ولهذا قيل في حدِّ المروءة : إنها غلَبَة العقل للشهوة .

وقال الفقهاء في حدِّها : هي استعمال ما يُجمل العبد ويُزيِّنه ، وترْك ما يُدنِّسه ويَشينه .

وقيل : المروءة استعمال كلّ خلُق حسن ، واجتناب كلِّ خُلق قبيح .

وحقيقة « المروءة » تجنُّبٌ للدنايا والرذائل ؛ من الأقوال ، والأخلاق والأعمال .

فمروءة اللسان : حلاوته وطِيبه ولِينه ، واجتناء الثمار منه بسهولة ويُسْر .

ومروءة الخُلق : سَعَتُه وبسْطه للحبيب والبغيض .

ومروءة المال : الإصابة ببذله مواقعه المحمودة عقلًا وعرفًا وشرعًا .

ومروءة الجاه : بذله للمحتاج إليه .

ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه . فهذه مروءة البذْل .

وأما مروءة الترْك : فترْك الخصام ، والمعاتبة ، والمطالبة والمماراة ، والإغضاء عن عيْب ما يأخذه من حقِّك . وترْك الاستقصاء في طلبه ، والتغافل عن عَثَرَات الناس ، وإشعارهم أنَّك لا تعلم منهم عثرة ، والتوقير للكبير ، وحفظ حُرْمة النظير ، ورعاية أدب الصغير »[(١)] .

في صحيح مسلم : من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » .

قال النووي في « شرح صحيح مسلم » (١٥ / ١٣٥) : « معناه : أن أصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا ، فهم

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٥١ - ٣٥٣ .

خيار الناس » .

وقال ﷺ : « أقيلوا ذوي الهيئات عثراتِهم ، إلّا الحدود »(١) .

قال الشافعي : « وذوو الهيئات الذين يُقالون عَثَراتهم : الذين ليسوا يُعرفون بالشرِّ ، فيزلُّ أحدهُم الزَّلة » . وهم أهل المروءات .

رُفِع إلى عمر بن الخطاب رجل في جُرْم ؛ فأراد أن يُعاقبه ، فأُخْبِر أن له مروءة ؛ فقال : «استوهبوه من صاحبه» . كذا في « بهجة المجالس » (٢/٦٤٣).

قالوا عن المروءة :

قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن : « للسَّفر مروءة ، وللحضَر مروءة ؛ فأما مروءة السفر : فبذل الزاد ، وقلَّة الخلاف على الأصحاب ، وكثرة المزاح في غير مساخط الله . وأما المروءة في الحضر : فالإدمان إلى المساجد ، وتلاوة القرآن ، وكثرة الإخوان في الله عز وجل »(٢) .

وفي رواية أخرى عنه : « فأمَّا التي في السفر : فبذْل الزاد ، وحسن الخُلق ، ومداعبة الرفيق . وأما التي في الحضر : فتلاوة القرآن ، ولزوم المساجد ، وعفاف الفرجْ »(٣) .

لله درُّك من إمام !!...

« كان أبو اللَّيْث الطرسوسي يُعزّى ، فقيل له : ما شأنه ؟ قالوا : فاتتْه صلاة الجماعة »(٤) .

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود والطحاوي في « مشكل الآثار » وأحمد ، وأبو نعيم ، وابن عدي والبيهقي وصحَّحه الألباني من حديث عائشة في السلسلة الصحيحة (رقم ٦٣٨) .

(٢) روضة العقلاء لابن حبان صـ ٢٣٢ ، والتمهيد لابن عبد البر ٢٣ / ١٧٨ .

(٣) بهجة المجالس لابن عبد البر ٢ / ٦٤٥ .

(٤) تاريخ واسط صـ ١٧٤ لبحشل .

« وعن نعيم بن حمَّاد ؛ قال : جاء ضمام بن إسماعيل إلى المسجد ، وقد صلَّى الناس وفاتته الصلاة ، فجعل على نفسه ألَّا يخرج من المسجد حتى يلقى الله . قال : فجعلَه بيته حتى مات »[١] .

وسُئل سفيان الثوري عن المروءة : ما هي ؟ قال : « الإنصاف من نفسك والتفضُّل : قال الله تعالى : ﴿**إنَّ الله يأمُرُ بالعدْل**﴾ وهو الإنصاف ، ﴿**والإحسان**﴾ وهو التفضُّل ، ولا يتمُّ الأمر إلَّا بهما ؛ ألا تراه لو أعطى جميع ما يملك و لم يُنصف من نفسه ، لم تكن له مروءة ؟! لأنه لا يريد أن يُعطي شيئًا إلا أن يأخذ من صاحبه مثله ، وليس مع هذا مروءة »[٢] . ونحوه عن سفيان بن عيينة .

وقيل لسفيان بن عُيينة : قد استنبطت من القرآن كلَّ شيء ، فأين المروءة فيه ؟ فقال : في قوله تعالى : ﴿**خُذ العفوَ وأمُرْ بالعُرْف وأعرِضْ عنِ الجاهلين**﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، ففيه المروءة ، وحُسْن الأدب ، ومكارم الأخلاق ، فجمع في قوله: ﴿**خُذِ العفوَ**﴾ صلَة القاطعين ، والعفو عن المذنبين ، والرفْق بالمؤمنين ، وغير ذلك من أخلاق المطيعين . ودخل في قوله : ﴿ **وأمُرْ بالعُرْف** ﴾ : صلةُ الأرحام ، وتقوى الله في الحلال والحرام ، وغضُّ الأبصار ، والاستعداد لدار القرار . ودخل في قوله ﴿**وأعرِضْ عن الجاهلين**﴾ : الحضُّ على التخلُّق بالحلْم ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتنزُّه عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجهَلة والأغبياء ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة ، والأفعال الرشيدة .

وقال الله عز وجل حكاية عن قوم قارون : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبَك من الدنيا وأحسنْ كما أحسَنَ الله إليك ولا تبغ الفساد**

---

(١) العلل لأحمد بن حنبل رقم ٥٠٣٣ .

(٢) مكارم الأخلاق للخرائطي رقم ١٦٧ .

في الأرض .. ﴾ الآية . [القصص : ٧٧] ، وفيها عيْن المروءة وحقيقتها[(١)] .

وعن عمرو بن عثمان المكي قال : «المروءة : التغافل عن زَلَل الإخوان» .

قال الشعبي : « تَعامَل الناسُ بالدِّين زمانًا طويلًا ، حتى ذهب الدينُ ، ثم تعاشروا بالمروءة حتى ذهبت المروءة ، ثم تعاشروا بالحياء ، ثم تعاشروا بالرغبة والرهْبَة ، وأظنُّه سيأتي بعد ذلك ما هو شرٌّ منه »[(٢)] .

وقال إبراهيم النخعي : «من المروءة أن يُرىٰ في ثوب الرجل وشفته مداد»!

وقال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين : « كمال المروءة : الفقه في الدين ، والصبر على النوائب ، وحسن تدبير المعيشة »[(٣)] .

وقال علي بن أبي طالب : مروءة الرجل حيث يضع نفسه .

وقال ميمون بن ميمون : أول المروءة:طلاقة الوجه ، والثاني:التودُّد ، والثالث : قضاء الحوائج .

وقال سَلم بن قتيبة : « المروءة الصبر على الرجال » . أي الصبر على المكاره في معاشرتهم وقضاء مآربهم .

وقال سَلْم أيضًا : « لا تتمُّ مروءة الرجل حتى يصبر على مناجاة الشيوخ الدُّرْد[(٤)] » .

وقال ابن سلام : حدُّ المروءة : رعْيُ مساعي البِرِّ ، ودفْع دواعي الضرّ ، والطهارة من جميع الأدناس ، والتخلُّص من عوارض الالتباس ؛ حتى لا يتعلق بحاملها لوْم ، ولا يلحق به ذمّ ، وما من شيء يَحْمل على صلاح الدين والدنيا ، ويبعث على شرف الممات والمحيا ؛ إلَّا وهو داخل تحت المروءة .

---

(١) عيْن الأدب والسياسة ، وزيْن الحسب والرياسة . لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل صـ ١٣٢ - ١٣٣ .
(٢) آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي رقم ٨٢ ، والحلية ٤ / ٣١٢ .
(٣) الإلماع للقاضي عياض صـ ١٧٣ .
(٤) الدرْد : مفردها أدرد ، وهو مَن ذهبت أسنانُه .

وقالوا : المروءة : إنصاف الرجل مَنْ هو دُونه ، والسموُّ إلى مَن هو فوقه ، والجزاء بما أُتي إليه .

قال ابن العربي : ضبطُها مما عسُر على العلماء .. والضابط: أن لا يأتي أحدٌ منكم ما يعتذر منه ، مما يبخسه عن مرتبته عند أهل الفضل .

وقال بعض العلماء: اتقِ مصارعَ الدنيا بالتمسُّك بحبْل المروءة ، واتقِ مصارع الآخرة بالتعلُّق بحبْل التقوى ؛ تفُزْ بخير الداريْن ، وتحلَّ أرفع المنزلتيْن .

وقال بعضهم : إذا طلب رجلان أمرًا ظفِر به أفضلهما مروءةً ، فإذا استويا في المروءة ؛ فأمضاهما رأيًا وأشدُّهما ساعدًا .

إذا المرءُ أعيتْهُ المروءة ناشِئًا ... فمطْلَبُها كهْـلًا عليهِ شـديدُ

وقال الأحنف :

فلوْ مُدَّ سَرْوي بمالٍ كثيرٍ ... لَجُدتُ وكـنتُ لـه باذِلَا

فإنَّ المـروءة لا تُستطاعُ ... إذا لم يكنْ مالُها فاضـلَا

وقال أبو بكر الإسماعيلي :

وإذا جلستَ وكان مثلُك قائمًا ... فمِن المروءةِ أن تقوم وإنْ أبَى

وإذا اتكأتَ وكان مثلُك جالسًا ... فمِن المروءةِ أن تُزيلَ المتَّكا

وإذا ركبتَ وكان مثلك ماشيًا ... فمن المروءة أنْ مشيتَ كما مشىٰ

وقال الشاعر :

كفىٰ حَزَنًا أنَّ المروءة عُطِّلَتْ ... وأنَّ ذوي الألبابِ في الناس ضُيَّعُ

وأنَّ ملوكًا ليسَ يحظىٰ لديهمُ ... مِنَ الناسِ إلَّا مَن يغنِّي ويُصفَعُ

وقال أمير الشعراء :

إني لَتُطربني الخـلالُ كريمـةً ... طَرَبَ الغـريبِ بأوبةٍ وتلاقي

وتهُزّني ذكرىٰ المُروءةِ والندىٰ ... بينَ الشمائلِ هـزَّةَ المشتـاقِ

وقال الشاعر :

مررتُ علىٰ المُروءةِ وهْيَ تبكي ... فقلتُ عـلامَ تنتحبُ الفتـاةُ

فقالتْ كيفَ لا أبكي وأهلي جميعًا دونَ خَلْق الله ماتــوا

وقال الشاعر :

تعــالَ إلينا فالمروءَاتُ أقْفَرَتْ ومَوْطنُ آبائي زجاجٌ مُكَسَّرٌ

وقال الشاعر :

وأستحيي المــــروءةَ أن تراني قتلتُ منافسي جلدًا وقهْــرًا

« سُئل الفضيل عن الرجل الكامل التامِّ المروءة ، فقال : الكامل : مَن برّ والديْه ، ووصل رحمه ، وأكرم إخوانه ، وحسّن خُلُقه ، وأحرز دِينَه ، وأصلح ماله،وأنفق من فضله ، وحسُن لسانه ، ولزم بيته .

وقال الشاعر :

وإذا الفتىٰ جمــعَ المــروءة والتُّـقىٰ وحوىٰ مع الأدب الحياء فقدْ كمُلْ»[(١)]

قال جعفر بن محمد : لا دين لمن لا مروءة له . .

وقال بعض البلغاء : مِن شرائط المروءة : أن يتعفَّف عن الحرام ، ويتصلَّف[(٢)] عن الآثام ، وينصف في الحكم ، ويكفَّ عن الظلم ، ولا يطمع فيما لا يستحقُّ ، ولا يستطيل على مَن لا يسترقُّ ، ولا يُعين قويًّا على ضعيف ، ولا يُؤْثر دَنِيًّا على شريف ، ولا يُسِرُّ ما يُعقِبُه الوزْر والإثم ، ولا يفعل ما يقبِّح الذكْرَ والاسم .

العقل والمروءة :

« وسُئِل بعض الحكماء عن الفرْق بين العقل والمروءة ، فقال : العقل يأمرك بالأنفع ، والمروءة تأمرك بالأجمل والأرفع . ولن تجد الأخلاق – على ما وصفنا – من جدِّ المروءة منطبعة ، ولا عن المراعاة مستغنية ، وإنما المراعاة هي المروءة ، لا ما انطبعتَ عليه من فضائل الأخلاق ؛ لأن غرور الهوى ونازع الشهوة يصرِفان النفسَ أن تركَب الأفضل من خلائقها، والأجمل من طرائقها، وإن سلِمْتَ منها، وبعيد أن تَسْلَم

(١) بهجة المجالس لابن عبد البر ١ / ٦٤٤ .

(٢) يترفَّع .

إلَّا لمن استكمل شرف الأخلاق طبعًا ، واستغنى عن تهذيبها تكلفا وتطبُّعًا»[١].

« **من أولئك الذين ينقادون للمروءة ؟** » :

« من حقوق المروءة وشروطها ، ما لا يُتوصَّل إليه إلا بالمعاناة ، ولا يُوقَفُ عليه إلا بالتفقُّد والمراعاة ..

فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها هي المروءة ، وإذا كانت كذلك ، فليس ينقاد لها مع ثِقَل كلفِها إلَّا مَن تسهَّلت عليه المشاقُّ رغبة في الحمْد ، وهانتْ عليه الملاذُّ حذَرًا من الذّم . ولذلك قيل : سيد القوم أشقاهم . وقال أبو تمام الطائي :

والحمدُ شَهْدٌ لا يُرى مُشْتَارُهُ ... يَجنيه إلَّا مِنْ نَقِيعِ الحَنْظَلِ
غُلٌّ لحامِلِهِ ويَحْسَبُه الذي ... لم يُوهِ عاتِقَهُ خفيفَ المَحْمَلِ

وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله :

لولَا المشقةُ سادَ الناسُ كلُّهمُ ... الجودُ يُفقرُ والإقدامُ قتَّالُ

وله أيضًا :

وإذا كانت النفوسُ كبارًا ... تعبتْ في مرادِها الأجسامُ »[٢]

« قال ابن عائشة القرشي : « لولا أنَّ المروءة متصعَّب محلُّها ؛ لَمَا ترَك اللئامُ للكرامِ منها بيتة ليلةٍ »[٣] .

هامٌّ :

دواعي طَلَب المروءة : علوُّ الهمَّة وشرَف النفْس :

والداعي إلى استسهال ذلك شيئان :

أحدهما : علو الهمة ، والثاني : شرف النفس .

(١،٢) أدب الدنيا والدين صـ ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، والمشتار : الذي يجمع العسل .
(٣) عيْن الأدب والسياسة صـ ١٣٢ .

أما علوُّ الهمَّة : فلأنه باعث على التقدُّم ، وداع إلى التخصيص ، أنفَةً من خمول الضّعة ، واستنكارًا لمهانة النقْص !!

ولذلك قال النبي ﷺ : « إن الله يحبُّ معالي الأمور وأشرافها ، ويكره سفسافها » .

ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه قال : لا تصْغُرنَّ همُكم ، فإني لم أرَ أقعدَ عن المكرُمَات مِن صِغَرِ الهمم .

وقال بعض الحكماء : الهمَّة راية الجِدِّ .

وقال بعض البلغاء : علوُّ الهمم بذرُ النِّعَم .

وقال بعض العلماء : إذا طلب رجلان أمرًا ، ظفِرَ به أعظمُهما مروءة .

وقال بعض العلماء : مَن ترَك الْتماس المعالي بسوء الرجاء ، لم يَنلْ جُسيمًا .

وأما شرف النفس : فإنَّ به يكون قبول التأديب ، واستقرار التقويم والتهذيب ؛ لأن النفس ربَّما جمحتْ عن الأفضل وهي به عارفة ، ونفرت عن التأديب وهي له مستحسِنة ؛ لأنها عليه غير مطبوعة ، وله غير ملائمة ، فتصير منه أنفر ، ولضدِّه الملائم آثر . وقد قيل : ما أكثر مَن يعرف الحق ولا يطيعه !!

وإذا شرُفَتِ النفس كانت للآداب طالبة ، وفي الفضائل راغبة ، فإذا مازَجَهَا صارت طبعًا ملائمًا ، فنما واستقرَّ .

فأما من مُنِي[١] بخُلُوِّ الهمة ، وسُلِب شرفَ النفس ، فقد صار عُرضةً لأمر أعوزتْه آلته ، وأفسدتْه جهالته ، فصار كضرير يروم تعلُّم الكتابة ، وأخرس يُريد الخُطْبة ، فلا يزيده الاجتهاد إلا عجزًا ، والطلبُ إلَّا عوَزًا .

قيل لبعض الحكماء : مَن أسوأُ الناس حالًا ؟ قال : مَنْ بعدت همَّته ، واتسعت أمنيته ، وقصُرت آلتهُ ، وقلّتْ قدرته .

وقال بعض الحكماء : تجنَّبوا المُنَى ؛ فإنها تذهب ببهجة ما خُوِّلتم ،

---

(١) مُنِيَ : أُصيب .

وتستصغرون بها نعمة الله عليكم .

وقيل في منثور الحكم : المُنَى من بضائع النوْكَى ، فإن صادف بهمَّته حظًّا نال به أملًا ، كان فيما ناله كالمغتصِب ، وفيما وصل إليه كالمتغلِّب ؛ إذ ليس في الحظوظ تقدير لحقٍّ ولا تمييز لمستحَقٍّ ، وإنما هي كالسحاب قد يُمسك عن منابت الأشجار إلى مغاوص البحار ، وينزل حيث صادف من خبيثٍ وطيِّب ؛ فإن صادف أرضًا طيبة نفع ، وإن صادف أرضًا خبيثة ضرَّ ، كذلك الحظُّ ؛ إن صادف نفسًا شريفة نفَع ، وكان نعمة عامَّة ؛ وإن صادف نفسًا دنيَّةً ضرَّ ، وكان نقمة طامَّة .

لا قيمةَ للشرف مع الخُمُول :

فأمَّا شرف النفس إذا تجرَّد عن علوِّ الهمَّة ، فإن الفضل به عاطل ، والقدْر به خامل ، وهو كالقوة في الجَلْد الكَسِل ، والجبان الفشِل ، تضيع قوته بكَسَله ، وجلَدُه بفشله . وقد قيل في منثور الحِكَم : مَن دام كسلُه ، خاب أملُه . وقال بعض الحكماء : نكَحَ العجز التواني فخرج منهما الندامة ، ونكح الشؤْمُ الكسلَ فخرج منهما الحرمان .

وقال بعض الشعراء :

إذا أنتَ لم تعرفْ لنفسك حقَّها ... هوانًا بها كانت على الناسِ أهونَا
فنفسك أكرِمْها وإن ضاقَ مسكنٌ ... عليكَ لها فاطلبْ لنفسِكَ مسكنَا
وإيَّـاك والسكـنَى بمنزل ذلَّــةٍ ... يُعدُّ مسيئًا فيهِ مَن كان محسِـنَا

« وشرف النفس مع صغر الهمَّة أولى من الهمة مع دناءة النفس ؛ لأنَّ من علَتْ همته مع دناءة نفسه ، كان متعدِّيًا إلى طلب ما لا يستحقُّه ، ومتخطِّيًا إلى الْتماس ما لا يستوجبه ، ومَن شرفَتْ نفسه مع صِغر همته ، فهو تارك لما يستحقّ ، ومقصرٌ عمَّا يجب له ، وفضلُ ما بين الأمْرَيْن ظاهر ، وإن كان لكل واحد منهما من الذمِّ نصيب .

وقد قيل لبعض الحكماء : ما أصعبُ شيء على الإنسان ؟ قال : أن يعرف نفسه ، ويكتم الأسرار .

فإذا اجتمع الأمران ، واقترن بشرف النفس علوُّ الهمة ، كان الفضل بها ظاهرًا ، والأدب بهما وافرًا ، ومشاقُّ الحمد بينهما مسهلة ، وشروط المروءة بينهما متينة . وقد قال الحُصين بن المنذر الرقّاشي :

إنَّ المروءة ليسَ يُدركها امرؤٌ ورِثَ المكارمَ عن أبٍ فأضاعها
أمرَتْهُ نفسٌ بالدناءةِ والخنَا ونهتْه عن سُبُل العلا فأطاعها
فإذا أصابَ مِنَ المكارمِ خُلَّةً يَبني الكريمُ بها المكارمَ باعَهَا»[1]

نعم ..

فإذا أصاب مِن الأمور عظيمةً يبني الكريمُ بها المروءة باعَها

قال الحسين بن أحمد البغدادي :

ليسَ الكريمُ بمَن يُدَنِّسُ عِرضَهُ ويرى مُروءَتَهُ تكون بمَن مضى
حتى يَشيدَ بناءَه ببَنائِهِ ويَزينَ صالحَ ما أتوه بما أتى

وقال : « ما رأيتُ أحدًا أخسر صفقةً ، ولا أظهرَ حسْرةً ، ولا أخيَبَ قصدًا ولا أقلَّ رشدًا ، ولا أحمقَ شعارًا ، ولا أدنسَ دِثارًا – من المفتخر بالآباء الكرام ، وأخلاقِهم الجِسَام ، مع تعرِّيه عن سلوك أمثالهم ، وقصْد أشباههم ، متوهِّمًا أنهم ارتفعوا بمَن قبلهم ، وسادوا بمَن تقدَّمهم ، وهَيْهات ، أنَّى يسُود المرءُ على الحقيقة إلا بنفسِه ؟! وأنَّى ينبل في الداريْن إلَّا بكدِّه ؟! » .

عالي الهمَّة يعلَمُ حقوقَ المروءَة ويرعاها :

حقوقُ المروءة وشروطها[2] **:**

واعلمْ أن حقوق المروءة أكثر مِن أن تُحصى ، وأخفى من أن تُظهر ؛

---

(١) أدب الدنيا والدين صـ ٣٩٥ – ٣٩٦ .

(٢) تلخيصًا من « أدب الدنيا والدين » .

لأنَّ منها ما يقوم في الوهْم حِسًّا ، ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدْسًا(١) ، ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل ، فلذلك أَعْوَزَ(٢) استيفاءُ شروطها ، إلا جملًا يتنبَّه الفاضل لها ليقظته، ويستدلُّ العاقل عليها بفطرته. وإنما نذكر هنا الأَشْهَر من قواعدها وأصولها ، والأظهر من شروطها وحقوقها ، محصورًا في تقسيمٍ جامع . وهو ينقسم قسميْن :

أحدهما : شروط المروءة في نفسه : وهي : العفة ، والنزاهة ، والصيانة .

والثاني : شروط المروءة في غيره : المعاونة (المؤازرة) ، والمياسرة ، والإفضال .

شروط المروءة في النفس :

فأما شروطها في نفْسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه ، فيكون بثلاثة أمور ، وهي العفَّة ، والنزاهة ، والصيانة .

(١) **العفَّة** :

فأما العفَّة فنوعان : أحدهُما : العفَّة عن المحارم ، والثاني : العفَّة عن المآثم.

(أ) **فأمَّا العفَّة عن المحارم** : فنوعان :

أحدهما : ضبْط الفرْج عن الحرام . **والثاني** : كفُّ اللسان عن الأَعراض .

(ب) **وأما العفَّة عن المآثم** : فنوعان :

أحدهما : الكفُّ عن المجاهرة بالظلم ، **والثاني** : زجْر النفس عن الإسرار بخيانة .

(٢) **النَّزاهَة** :

وأما النزاهة فنوعان :

---

(١) تخمينًا .

(٢) انعدم .

أحدهما : النزاهة عن المطامع الدنيَّة .

والثاني : النزاهة عن مواقف الرِّيبة .

ومَن كانت الدنيا مناهُ وهمُّهُ سَبَتْهُ المُنى واستعبدَتْهُ المطامِعُ

وليس لمن كان المال عنده أجلّ ، ونفسُه عليه أقلَّ : إصغاءٌ لتأنيب ولا قبولٌ لتأديب .

وحسْمُ هذه المطامع شيئان : اليأسُ والقناعة .

أما النزاهة عن مواقف الريبة ، فهذا رسول الله ﷺ ، وهو أبعد خلْق الله من الرِّيب ، وأصونُهم من التهَم .. وقَفَ مع صفية أم المؤمنين - زوجته - ذات ليلة على باب المسجد يحادثها ، وكان معتكِفًا ، فمرَّ به رجلان من الأنصار ، فلمَّا رأيَاه أسرعا ، فقال لهما : «على رِسْلِكُما[1]؛ إنها صفية» . فقالا: سبحان الله !! أَوَفيك شكٌّ يا رسول الله ؟! فقال : « مَـهْ[2] ؛ إنِ الشيطان يجري من أحدِكم مجرىٰ لحْمِه ودَمه ، فخشيتُ أن يقذف في قلبيْكما سوءًا » .

فكيف مَن تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظُّنون ؟ فهل يعرى في مواقف الريب من قادِح محقّق ، ولائم مصدّق ؟! فإذا استعمل الحزْم ، وغلّب الحذَر ، وترك مواقف الريب ، ومظانَّ التهم ؛ لم يختلجْ في نزاهته شكٌّ ، ولم يقدح في عِرضه إفكٌ .

(٣) **الصِّيانة** :

نوعان :

(أ) **أحدهما** : صيانة النفس بالْتماس كفايتها وتقدير مادَّتها .

(ب) **والثاني** : صيانتها عن تحمُّل المِنَن ، والاسترسال في الاستعانة بهم .

---

(١) على رِسْلكما : تمهَّلا .

(٢) مَهْ : اسم فِعْل بمعنى : اكْفُفْ .

أما الْتمـاس الكفـاية: فلأنَّ المحتاج إلى الناس كَلٌّ مُهْتَضَم ، وذليل مستثْقل ، وعليه بطلب كفايته ، وسدِّ خلته ، وعليه في طلبه ثلاثة شروط :

أحدها : استطابته من الوجوه المباحة .

والثاني : طلبه من أحسن جهاته ، التي لا يلحقه فيها غضٌّ ، ولا يتدنَّسُ له بها عِرْضٌ ، فإنَّ المال يُراد لصيانةِ الأعراض ، لا لابتذالها ، ولِعزِّ النفوس لا لإذلالها .

والثالث : أن يَتأنَّى في تقدير مادَّته وتدبير كفايته ؛ فإنَّ يسيرَ المال مع حسن التقدير وإصابة التدبير : أجدى نفعًا وأحسن موقعًا ، من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير .

قال محمد بن عليٍّ بن الحسين : الكمال في ثلاثة : العفَّة في الدين ، والصبر على النوائب ، وحسن التدبير في المعيشة .

وقد كان ذوو الهمم العَلِيَّة والنفوس الأبيَّة ، يرون ما وصل إلى الإنسان كسْبًا أفضل ممَّا وصل إليه إرْثًا ؛ لأنه في الإرث في جدوىٰ غيره، وبالكسب مُجْدٍ إلى غيره ، وفرْقُ ما بينهما في الفضْل ظاهر . قال كشاجم :

لا أَستلذُّ العيْشَ لم أَدْأَبْ لهُ ... طلبًا وسعيًا في الهواجر والغَلَسْ
وأرى حرامًا أنْ يُواتيني الغِنىٰ ... حتى يحاولَ بالعـناءِ ويُلتمَسْ
فاصْرِفْ نوالك عن أخيك موفَّرًا ... فالليْثُ ليسَ يَسيغُ إلا ما افترسْ

فإن كان ممَّن مُنِيَ بعلوِّ الهمم ، وتحرّكتْ فيه أريحيَّة الكرم ، وآثر أن يكون رأسًا مُقدَّمًا ، وأن يكون في النفوس معظمًا ومفخمًا ، فالكفاية لا تقلُّه حتى يكون مالُه فاضلًا ونائلهُ فائضًا ؛ فقد قيل لبعض العرب : ما المروءة فيكم ؟ قال : طعام مأكول ، ونائل مبذول ، وبِشْرٌ مقبول .

وأمَّا صيانتها عن تحمُّل المِنَنِ : فلأنَّ المنَّة استرقاقُ الأحرار ، فإن استطعتَ ألَّا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافْعَلْ ، ولا تكنْ عبدَ غيرك وقد جعلَكَ الله حرًّا .

شروط مُروءةِ المَرْء في غيْره ثلاثة : المؤازَرَة ، والمُياسَرَة ، والإفضال :

(٤) المؤازرة (المعاونة) :

بالجاه ، والمال ، والبدَن .

أما المؤازرة فنوعان :

(أ) **أحدهما** : الإسعاف بالجاه .

(ب) **والثاني** : الإسعاف في النوائب .

أما الإسعاف بالجاه : فهو ألطف الصنائع موقعًا ، وربما كان أعظم من المال نفعًا ؛ قال بعض البلغاء : من علامَة الإقبال : اصطناع الرجال .

وقال بعض الأدباء : بذْلُ الجاه أحد الحباءيْن[1] .

والجاه هو الظلُّ الذي يلجأ إليه المضطرون ، فإنْ أوْطَأَهُ[2] ، اتَّسعَ بكثرة الأنصار والشيِّع ، وإن قبضَه ، انقطع بنُفُور الغاشية والتَّبع ؛ فهو بالبذل ينمو ويزيد ، وبالكفِّ ينقص ويَبيد ، ومَن بخِل بجاهه ، أضاعه بالشحِّ ، وبدَّده بالبخل ، وحرَم نفسه غنيمة مكنتِهِ ، وفرصةَ قدرتِهِ ، فلم يُعقبه إلَّا ندمًا على فائت ، ومقتًا يستحكم في النفوس ، فاصنع الخير عند إمكانك ، يبق لك حمدُه عند زواله ، وأحْسِنْ والدولةُ لك ، يُحسن لك والدولة عليك ، واجعلْ زمانَ رخائكَ عُدَّة لزمانِ بلائك .

وعلى مَن أُسعِدَ بجاهه ثلاثة حقوق :

١ - أن يستسهل المعونة مسرورًا ، ولا يستثقلها كارهًا .

٢ - مجانبة الاستطالة ، وترْك الامتنان ، فأضيقُ الناسِ طريقًا وأقلُّهم صَدِيقًا ؛ مَن عاشر الناسَ بعُبوس وجهه ، واستطال عليهم بنفسه .

---

(١) الحباءيْن : العطاءيْن .
(٢) مهَّده وسهَّله .

٣ - ألَّا يقرن بمشكورِ سعْيِه تقريعًا بذنب ، ولا توبيخًا على هفوةٍ .

الإسعاف في النوائب والمسارعة بالعطاء :

نوعان : واجب ، وتبرُّع .

فأما الواجب : فما اختُصَّ بثلاثة أصناف ، وهم : الأهل والإخوان والجيران .

أما الأهل : فلمُمَاسَّة الرَّحم وتعاطُف النَّسَب . وقد قيل : لم يَسُدْ من احتاج أهلُه إلى غيْره . قال حسان بن ثابت :

وإن امْرَأً نَالَ المُنَى لم ينلْ بِهِ قريبًا ولا ذا حاجةٍ لَزهيدُ

وأما الإخوان : فلمُسْتَحكم الوُدِّ ومتأكَّد العهْد . سُئل الأحنف بن قيْس عن المروءة ، فقال : صدْق اللسان ، ومواساة الإخوان ، وذكْر الله في كلِّ مكان .

ورأى بعض الحكماء رجلَيْن يصطحبان لا يفترقان ، فسأل عنهما .. فقيل : هما صديقان . فقال : ما بال أحدهما فقير والآخر غنيٌّ ؟!

وأما الجار : فلدُنوِّ داره ، واتصال مزاره . ومَن أَحسَنَ إلى جاره ، فقد دلَّ على حسن نِجاره[(١)] .

فيجب في حقوق المروءة ، وشروط الكَرم في هؤلاء الثلاثة : تحمُّل أثقالهم ، وإسعافهم في نوائبهم ، ولا فسْحة لذي مروءة عند ظهور المكْنة أن يَكِلَهم إلى غيره ، أو يُلْجِئَهم إلى سؤاله ، ولْيكن السائلُ عنهم كرَمَ نفسه ؛ فإنهم عيالُ كَرَمِه ، وأضياف مروءته ، فكما أنه لا يحسن أن يُلجئ عياله وأضيافه إلى الطلب والرغبة ، فهكذا مَن عالَه كرمُه ، وأضافته مروءته . وقال بعض الشعراء :

حقٌّ على السيِّدِ المرجوِّ نائلُهُ والمستجار به في العُرْبِ والعَجَمِ

---

(١) حسْن أصله .

أَلَّا يُنيل الأقاصِي صوْبَ[(١)] راحَتِهِ حتى يَخُصَّ بِهِ الأدنى مِنَ الخدَمِ
إنَّ الفراتَ إذا جاشتْ غوارِبُهُ[(٢)] روّى السواحلَ ثمَّ امتدَّ في الأُممِ

وأما التبرُّع : ففيمن عدا هؤلاء الثلاثة من البعداء الذين لا يُدْلون بنَسب ، ولا يتعلَّقون بسبب ، فإن تبرَّع بفضلِ الكرم وفائض المروءة ، فنهض في حوادثهم ، وتكفَّل بنوائبهم ؛ فقد زاد على شروط المروءة ، وتجاوَزَها إلى شروط الرياسة . وقيل لبعض الحكماء : أيُّ شيء مِن أفعال الناس يُشبه أفعال الإله ؟ قال : الإحسان إلى الناس .

وإن كفَّ تشاغلًا بما لزَم فلا لوْم ، ما لم يلجأ إليه مضطرٌّ ؛ لأن القيام بالكلِّ مُعْوِز ، والتكفُّل بالجميع متعذِّر ، فهذا حكم المؤازرة .

(٥) المُيَاسَرة :

فأما المياسرة فنوعان :

أحدهما : العفْوُ عن الزلَّات .

والثاني : المسامحة في الحقوق .

فأمَّا العفو عن الهفَوات :

فلأنه لا مُبَرَّأً من سهْو وزَلَلٍ ، ولا سليم من نقصٍ أو خللٍ ، ومَن رام سليمًا من هفْوَة ، والْتمسَ بريئا من نبْوَة ، فقد تعدَّى على الدهر بشَطَطِهِ ، وخادَعَ نفسه بغلَطِهِ ، وكان من وجود بُغْيته بعيدًا ، وصار باقتراحه فردًا وحيدًا .

وقد قالت الحكماء : لا صديقَ لمن أراد صديقًا لا عيْب فيه .

وقيل لأحدهم : هل مِن أَحد لا عيْبَ فيه ؟ قال : مَن لا موتَ له .

وقال بعض الأدباء : ثلاث خصال لا تجتمع إلَّا في كريم : حسْن المحْضر ، واحتمال الزلّة ، وقلَّة الملال . وقال ابن الرومي :

(١) الصوب : المطر ، والمراد به العطاء .
(٢) الغوارب : جمع غارب ، وهي الأمواج العالية .

فعذرُك مبسوطٌ لذنبٍ مقدَّمٍ   وَوُدُّكَ مقبولٌ بأهلٍ ومرحبِ
ولو بلَّغَتْني عنْكَ أُذني أقمتُها   لديَّ مقامَ الكاشحِ(١) المتكذِّبِ
فلستُ بتقليبِ اللسانِ مُصارِمًا   خليـلًا إذا ما القلبُ لم يتقلَّبِ

وإذا كان الإغضاء حتْمًا ، والصفحُ كرَمًا ، ترتَّب بحسب الهفوة وتنزَّلَ بقدْر الذنب .

والهفواتُ نوعان : صغائر ، وكبائر .

فالصغائر : مغفورة ، والنفوس بها معذورة ؛ لأنَّ الناس مع أطوارهم المختلفة، وأخلاقهم المتفاضلة لا يسْلمون منها، فكان الوجد فيها مطَّرَحًا، والعتبُ مستقبَحًا .

وأما الكبائر فنوعان :

الأول : أن يهفو بها خاطيًا ، ويزلَّ بها ساهيًا ، فالحَرَج فيها مرفوع ، والعتْب عليها موضوع ؛ لأن هفوة الخاطئ هدَر ، ولوْمه هذَر . وقال بعض الحكماء : لا تقطع أخاك إلا بعد عجْز الحِيلة عن استصلاحه .

وقال الأحنف بن قيس : حقُّ الصَّدِيق أن تحمِلَ له ثلاثًا : ظُلْم الغضَب ، وظلم الدَّالَّة(٢) ، وظلْم الهفوة .

وقيل : التثبُّت نصْفُ العفو . وقال بعض الحكماء : لا يفسدك الظنُّ على صديقٍ أصلحك اليقينُ له .

والثاني: أن يعتمد ما اجترم من كبائره ، ويقصد ما اجترح من سيئاته ... ولا يخلو فيما أتاه من أربع أحوال :

فالحال الأولى : أن يكون موتورًا ، قد قابل على تِرَةٍ ، وكافأ على مساءة ، فاللائمة على مَن وتره عائدة ، وإلى البادئ بها راجعة ؛ لأن المكافئ أعذر ، وإن

---

(١) العدو المتبغض .
(٢) الدالَّة : ما تدلُّ به على صديقك – يُقال : له عَليّ دالة ؛ أي فضل ومنزلة .

كان الصفح أجمل ، والإغضاء عن هذا أوجب . وإن لم تكن المكافأة ذنبًا . ومَنْ كنتَ السببَ لبلائه ، وجَبَ عليك التلطُّف له في علاجه من دائه .

والحال الثانية : أن يكون عدوًّا قد استحكمتْ شَحْناؤه ، واستوعرتْ سرَّاؤه ، واستخشنتْ ضرَّاؤه ، فهو يتربَّص بدوائر السوء انتهاز فُرَصه ، ويتجرَّع لمهانة العجْز مرارة غُصَصِه ، فإذا ظفِر بنائبةٍ ساعدَها ، وإذا شاهد نعمة عاندها ، فالبعد منه حَذَرًا أسلمُ ، والكفُّ عنه متاركةً أغنم ؛ فإنه لا يُسْلَم من عواقب شرِّه ، ولا يُفْلَت من غوائل مكْره . وقد قالت الحكماء : لا تعرضنَّ لعدوِّك في دوْلَته ، فإذا زالتْ كُفِيتَ شرَّه . وقال لقمان لابنه : يا بنيَّ ، كذَب مَن قال : إن الشرَّ بالشرِّ يُطفأ . فإن كان صادقًا فليوقِدْ نارَيْن ، ولْينظرْ : هل تُطفِئُ إحداهُما الأخرى ؟ وإنما يطفئُ الخيرُ الشرَّ ، كما يطفئ الماءُ النارَ . وقال جعفر ابن محمد : كفاك من الله نصرًا أن ترىٰ عدوَّك يعصي الله فيك . وقال بعض الحكماء : بالسيرة العادلة يُقْهر المعادي . وقال البحتري :

وأُقسمُ لا أُجزيكَ بالشرِّ مثلَهُ   كفىٰ بالذي جازيتَني لكَ جازِيَا

والحال الثالثة : أن يكون لئيمَ الطبْع ، خبيثَ الأصل ، قد أغراه لؤم الطبْعِ على سُوءِ الاعتقاد ، وبعثَهُ خبيثُ الأصل على إيثار الفساد ، فهو لا يستقبح الشرَّ ، ولا يكفُّ عن المكروه ... فهذه الحال أعظم ؛ لأنَّ الإضرار بها أعمُّ ، ولا سلامة من مثله إلَّا بالبعد والانقباض ، ولا خلاصَ منه إلا بالصفْح والإعراض ؛ فإنه كالسَّبُع الضاري في سَوَارِحِ الغنَم، وكالنار المتأجِّجَة في يابس الحَطَب ، لا يَقْربها إلَّا تالِف ، ولا يدنو منها إلا هالِك .

أخي : أعداؤك داؤك ، وفي البُعْد عنهم شِفاؤك . وقيل : شرف الكريم تغافله عن اللئيم .

والحال الرابعة : أن يكون صديقًا قد استحدث نَبْوة وتغيُّرًا ، أو أخًا قد استجدَّ جَفْوةً وتنكُّرًا ، فأبدى صفحةَ عقوقِه ، واطَّرح لازِم حقوقه ، وعدَل

عن بِرِّ الإخاءِ إلى جفْوة الأعداء . فهذا قد يعرض في المودَّات المستقيمة ، كما تعرِض الأمراض في الأجسام السليمة ، فإن عُولجتْ أَقلعتْ ، وإن أُهمِلَتْ أَسقَمَتْ ثم أتلفتْ . ولذلك قالت الحكماء : دواء المودَّة كثْرة التعاهُد .

ولا تكنْ كامرئ قابلَ على الجفوة ، وعاقب على الهفوة ، واطَّرَحَ سالف الحقوق ، وقابَلَ العقوقَ بالعقوق ، فلا بالفضل أخَذَ ، ولا إلى العفو أخلد . وقد علم أنَّ نفسه قد تطغىٰ عليه فتُرديه ، وأنَّ جسمَه قد يسقم عليه فيؤلمه ويُؤْذيه ، وهما أخصُّ به وأحنىٰ عليه من صديق قد تميَّز بذاته ، وانفصل بأدواته ، فيريد من غيره لنفسه ما لا يجده من نفسه لنفسه . هذا عيْن المحال ومحْضُ الجهل .

فلا تتخذ عدوًّا واحدًا والواحد كثير ، واتخذْ ألفَ صديقٍ والألفُ قليل .

واعلمْ أن العفو والعقوبة بمنزلة الجود والبخل ، فتمسَّكْ بأيِّهما شئتَ .

فإذا كان الأمر على ما وصفتُ ، فمِن حقوقِ الصفح : الكشْفُ عن سبب الهفوة ، ليعرفَ الداء فيعالجه ، ولا يخلو حال السبب من أن يكون لمَلَلٍ أو زلَلٍ ؛ فإن كان لملَلٍ ، فمودَّاتُ المَلُول ظلُّ الغمام ، وحلْم النيام ، ورغبتك فيمن يزهد فيك ذلٌّ ، وَزهْدُك فيمن يرغب فيك صِغَرُ هِمة .

وإن كان لسبب لُوحِظَتْ أسبابه ؛ فإن كان لها مدخل في التأويل ، وشبهة تؤول إلى جميل ، حمَله على أجمل تأويل ، وصرَفه إلى أحسن جهَةٍ .

مرَّ على خالد بن صفوان صديقان له ، فعرَّج عليه أحدهما ، وطواه الآخر ، فقيل له في ذلك ، فقال : نعم ، عرَّج علينا هذا بفضله ، وطوانا هذا بثقته بنا .

فإن لم يكن لزلله في التأويل مدخل ، نظر حالَه بعد زلله ، فإن ظهر ندمُه ، وبان خجَلُه ؛ فالندم توبة والخجل إنابة ، ولا ذنب لتائب ، ولا لوم على مُنيب ، ولا يُكَلَّف عذرًا عمَّا سلف ، فيلجأ إلى ذلِّ التحريف ، أو خجل التعنيف .

قال بعض الحكماء : شفيع المذنب إقرارُه ، وتوبتُه اعتذاره .

ومَن لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ، ومَن لم يُحسن إلى التائب قبُحت إساءته ، والكريم من أوسع بالمغفرة ، إذا ضاقت بالذنب المعذرة .

وإنْ عجَّل العذر قبل توبته ، وقدّم التنصُّل قبل إنابته ؛ فالعذْرُ توبة ، والتنصُّل إنابة ، فلا يكشف عن باطن عذْره ، ولا يُعنِّف بظاهر عذره . وشافِعُ المذنب خضوعه إلى عذْره .

اقبلْ معاذيرَ مَن يأتيكَ معتذِرًا ... إنْ بَرَّ عندكَ فيما قالَ أو فَجَرا

فقدْ أطاعَكَ مَنْ يُرضيكَ ظاهِرُهُ ... وقدْ أجلَّكَ مَن يَعصِيكَ مُستَتِرَا

وإن ترَك نفسه في زلَلِه ، ولم يتداركْه بعذْرِه وتنصُّله ، فلا ينفكُّ حاله عن أمور ثلاثة :

أحدها : أن يكون قد كفَّ عن سيِّئ عمله ، وأقلع عن سالف زَلله ، فالكفُّ إحدى التوبتيْن ، والإقلاع أحد العذرَيْن ، فكنْ أنت المعتذر عنه بصفحك ، والمتنصِّل له بفضلك ، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : المحسن على المسيء أمير .

والثاني : أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلله ، غيرَ تارك ولا متجاوز ، فوقوف المرض أحد البرأيْن ، وكفُّه عن الزيادة إحدى الحُسْنَيَيْن ، وقد استبقى بالوقوف عن التجاوُز أحدَ شِطْريه ، فعوِّلْ به على صلاح شطره الآخر ، وإيَّاك وإرجاءَه ؛ فإنَّ الإرجاء يُفسد شطر صلاحه ، والتلافي يُصلح شطرَ فساده ، فإنَّ مَن سَقم مِن جسمه ما لم يعالجه ، سرى السقم إلى صحته ، وإن عالجه سرَتْ الصحة إلى سَقَمِه .

والثالث : أن يتجاوز مع الأوقات ، فيزيد فيه على مرور الأيام . فهذا هو الداء العضال ، فإن أمكن استدراكه وتأتَّى استصلاحه - وذلك باستنزاله عنه إن علا ، وبإرغابه إن دنا ، وبعتابه إن ساوى - فذاك ، وإلَّا فآخرُ الداء العياءِ : الكَيُّ . ومن بلغت به الأعذار إلى غايتها ، فلا لائمةَ عليه .

المسامحة في الحقوق :

لأن الاستيفاء موحش ، والاستقصاء منفِّر ، ومَنْ أراد كلَّ حقّ من النفوس المستصعبة بشحٍّ أو طمَع ، لم يصل إليه إلا بالمنافرة والمشاقَّة . والألْيَق لأمور المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة ، وتألُّفها بالمقاربة والمساهلة ، فمَن عاشر إخوانه بالمسامحة دامت له مودَّاتُهم .

وإذا أخذت عفو القلوب زكا رِيعُك ، وإن استقصَيْتَ أكديتَ .

والمسامحة نوعان : (أ) في عقود . (ب) في حقوق .

فأما العقود : فهو أن يكون فيها سهْلَ المناجَزَة ، قليلَ المحاجَزَة ، مأمونَ الغيْبَة ، بعيدًا من المكر والخديعة .

حكى ابن عوْن : أنَّ عمر بن عبد الله اشترى للحسن البصري إزارًا بستة دراهم ونصف ، فأعطى التاجرَ سبعة دراهم ، فقال : ثمنه ستة دراهم ونصف . فقال : إني اشتريتُه لرجل لا يقاسم أخاه درْهمًا .

وأما الحقوق : فتتنوَّع المسامحة فيها نوعيْن :

أحدهما : في الأحوال . **والثاني** : في الأموال .

فأما المسامحة في الأحوال : فهي اطِّراح المنازعة في الرتب ، وترْك المنافسة في التقدُّم ؛ فإن مشاحَّة النفوس فيها أعظم ، والعناد عليها أكثر ، فإنْ سامح فيها ولم ينافس ، كان مع أخذه بأفضلِ الأخلاق ، واستعماله لأحسن الآداب : أوقعَ في النفوس من إفضاله برغائب الأموال ، ثم هو أزيد في رتبته ، وأبلغ في تقدُّمه ، وإن شاحَّ فيها ونازَع ، كان مع ارتكابه لأخشنِ الأخلاق ، واستعماله لأهجنِ[1] الآداب : أنكى في النفوس من حدِّ السيْف وطعْن السنان ، ثم هو أخفض للمرتبة ، وأمنع من التقدُّم .

---

(١) أهجن : أقبح .

وأما المسَامحة في الأموال : فتتنوَّع ثلاثة أنواع :

(أ) **مسامحة إسقاطٍ لعُدْم**[1] .

(ب) **ومسامحة تخفيف لعجز** .

(جـ) **ومسامحة إنكار لعُسْرة** .

وهي مع اختلاف أسبابها تفضُّل مأثور ، وتألُّف مشكور .

وإذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده ، وينفذُ فيه تصرُّفه ؛ كان أولى أن يجود بما خرج عن يده فطاب نفسًا بفراقه ، وقد تصل المسامحة في الحقوق إلى من لا يقبل البرَّ ويأبَىٰ الصلة ، فيكون أحسن موقعًا وأزكىٰ محلًّا .

(٦) **الإفْضَال** :

وأما الإفضال فنوعان : إفضال اصطناع . وإفضال استكفاف ودفاع .

فأما إفضال الاصطناع : فنوعان :

أحدهما : ما أسداه جودًا في شكور .

والثاني : ما تألَّف به نَبْوةَ نفورٍ . وكلاهما من شروط المروءة ؛ لما فيها من ظهور الاصطناع ، وتكاثُر الأشياع والأتباع .. ومَن قلَّت صنائعه في الشاكرين ، وأعرض عن تألُّف المنافِرين ؛ كان فردًا مهجورًا ، وتابعًا محقورًا ، ولا مروءة لمتروكٍ مُطَّرَح ، ولا قدْرَ لمحقور مهتَضَم . وقال عمر بن عبد العزيز : ما طاوعني الناس على شيء أردتُه من الحق ، حتى بسطتُ لهم طرَفًا من الدنيا .

وقال بعض الحكماء : أقلُّ ما يجب للمنعم بحق نعمته ألَّا يتوصَّل بها إلى معصيته .

قال بعض الأعراب :

من جمعَ المالَ و لم يَجُدْ بِهِ   وجمَّعَ المالَ لعام جدبِهِ
هانَ على الناسِ هوانَ كلْبِهِ

---

(١) فقر .

فإن ضاقتْ به الحال عن الاصطناع بماله ، فقد عدِم من آلة المكارم عمادَها ، وفَقَدَ من شروط المروءة سنادَها ، فليؤاسِ بنفسه مؤاساة المسعف ، ولْيسعدْ بها إسعاد المتألّف .

قال المتنبي :

لا خيْلَ عندكَ تُهديها ولا مالُ فلْيُسعدِ النطقُ إنْ لم يُسعدِ الحالُ

وأما إفضال الاستكفاف : فلأن ذا الفضل لا يعدِم حاسدَ نعمة ، ومعاندَ فضيلة ، يعترِيه الجهل بإظهار عناده ، ويبعثه اللُّؤْم على البِذَاء بسَفَهِه ، فإن غفل عن استكفاف السفهاء ، وأعرض عن استدفاع أهل البذاء ، صار عِرْضه هدفًا للمثالب ، وحاله عُرْضةً للنوائب ، وإذا استكفَّ السفيهَ ، واستدفعَ البذيءَ ، صان عرضَهُ ، وحمى نعمتَه .

قالت عائشة رضي الله عنها : « ذُبُّوا بأموالكم عن أعراضكم » .

ولاستكفاف السفهاء بالإفضال شرطان :

أحدهما : أن يُخفيَه ، حتى لا تنتشر فيه مطامعُ السفهاء ، فيعمدون إلى اجتدائه بسببه ، وإلى ماله بثلْبه .

والثاني : أن يتطلب له في المجاملة وجهًا ، ويجعل في الإفضال عليه سببًا ؛ لئلَّا يرى أنه على السَّفَهِ واستدامةِ البذاء .

واعلمْ أنك ما حييتَ ملحوظُ المحاسن ، محفوظُ المساوئ ، ثم مِن بعد ذلك حديثٌ منتشِرٌ ، لا يراقبك صديق ، ولا يحامي عنك شقيق ... فكنْ أحسن حديث يُنشَر ، يكن سعيُك في الناسِ مشكورًا ، وأجرُك عند الله مذخورًا .

ونختم حقوق المروءة وشروطَها ، بما ثبت عن الشافعي رحمه الله ؛ قال : «للمروءة أربعةُ أركان : حُسْن الخلُق ، والسخاء ، والتواضع ، والشكر»[1] .

---

(١) توالي التأسيس لابن حجر صـ ٧٢ .

عالي الهِمَّة بعيدٌ كلَّ البعدِ عن الخصال التي تخْرِمُ المروءة :

والخصال التي تخرِم المروءة كثيرة ، وعالي الهمة يأبى أن يلْطَخ نفسه بأيِّ خصلة منها ، ولذا تجده أبعدَ الناس عنها . وهذه الخصال أتت متفرِّقة في بطون الكتب ، ولقد تعِب في جمْعها رجل من أهل الحديث ، وتلميذ نجيب من تلامذة محدِّث الدنيا الشيخ الألباني ... ألا وهو الشيخ الحبيب إلى القلوب : « مشهور حسن آل سلمان» في كتابه القيِّم : «المروءة وخوارمها» .. مدّ الله في عمره .. وجعله من سادات الربَّانيِّين . وهذه الخصال نلخصها هنا . وباقتراف الفرد لخصلة منها تُثْلَم مروءَتُه ، وتسقط عدالته . وهذه الخصال هي :

(١) اتباع الهوىٰ :

قال ابن القيم : «إن أغزر الناس مروءة أشدُّهم مخالفة لهواه . قال معاوية : المروءة ترْك الشهوات وعصيان الهوى ؛ فاتباع الهوى يُزمن المروءة ، ومخالفته تُنعشها » .

وقال قبل ذلك : « والهوى يُعمي صاحبه من ملاحظتها ، والمروءة والدين والعقل ينهىٰ عن لذَّة تُعقِبُ ألمًا ، وشهوةٍ تُورث ندَمًا ، فكلّ منهما يقول للنفس إذا أرادت ذلك : لا تفعلي . والطاعة لمن غلب » .

ثم قال : « ومَن لا دين له ؛ يُؤْثر ما يهواه ، وإن أدّاه إلى هلاكه في الآخرة ، لضعْف ناهي الدين ، ومن لا مروءة له ؛ يُؤْثر ما يهواه ، وإن ثُلِمَ مروءته أو عُدِمَها ؛ لضعف ناهي المروءة ؛ فأين هـذا من قول الشافعي رحمه الله تعالى : لو علمتُ أن الماءَ البارِدَ يثْلَمُ مروءتي ، لما شربتُه ؟! »[(١)] .

قال عمرو بن العاص : اللَّذة طَرْحُ المروءة .

قال الجاحظ : « وقد صدَق عمرٌو ؛ ما تكون الزّماتة والوقار إلّا بحمْل على النفس شديد ، ورياضة متعِبَة »[(٢)] .

---

(١) روضة المحبين لابن القيم صـ ٤٢٢ ، ٤٢٨ .

(٢) رسائل الجاحظ ١ / ١٤٦ .

(٢) أخْذُ العِوَض على إطعامِ وسُقيا الأسير .

(٣) أخذ العِوَض على تعليم القرآن والتحديث من غير حاجة :

قال ابن الصلاح : « أخْذ العوض على التحديث شبيه بأخْذ الأجرة على تعليم القرآن ونحوه ، غير أن هذا من حيث العرْف خَرْمٌ للمروءة ، والظنُّ يُساء بفاعله إلا أن يقترن ذلك بعذرٍ ينفي ذلك عنه »(١) .

والمشارطة على أخْذ الأجرة على الحديث أبلغ في الدناءة من الأكل على الطريق ، وهو جارٍ مجرى اشتراط الأجرة على صلاة النافلة .

(٤) أخذ نثار العرْس بفضل قوّة أو بفضل قلّة حياء(٢) .

(٥) إخراجُ الريح بصوت وهو يقدر على خلافه :

وفي حديث عبد الله بن زَمْعة عند البخاري : أنه سمع النبي ﷺ يخطب ... وفيه : ثم وعظهم في ضَحِكِهم من الضرْطة ، وقال : « لِمَ يضحكُ أحدُكم ممَّا يفعل ؟! » .

وعدّه ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢/٣٥٣) من خوارم المروءة .

(٦) إخراجُ اليديْن من تحت الجبَّة بين الناس لغير حاجة :

في حديث المغيرة بن شعبة في « صحيح مسلم » : « خرج رسول الله ﷺ ليقضي حاجته ، فلمَّا رجع تلقَّيتُه بالإدواة ؛ فصببتُ عليه ، فغسل يديه ثم غسل وجهه ، ثم ذهب ليغسل ذراعيْه فضاقت الجبّة ، فأخرجهما من تحت الجبّة » .

قال النووي في « شرح صحيح مسلم » (٣ /١٦٩) : « فيه جواز مثل هذا للحاجة وفي الخلوة ، وأما بين الناس ؛ فينبغي أن لا يُفعل لغير حاجة ؛ لأن فيه إخلالًا بالمروءة .

---

(١) علوم الحديث لابن الصلاح صـ ٢٣٥ ، ومحاسن الاصطلاح للبلقيني صـ ٢٣٥ ، وتوضيح الأفكار للصنعاني ٢ / ٢٥٤ .

(٢) أومأ القليوبي إلى أنه من الخوارم في « حاشيته على شرح المحلَّى على المنهاج » ٣/٢٩٩.

(٧) إدامة تأخير الصلاة[1] .

(٨) إدامة ترْك تسبيحات الصلاة[2] .

(٩) الادِّهانُ عند العطَّار :

عن ابن سيرين قال : « ثلاثة ليست من المروءة : الأكل في الأسواق ، والادِّهان عند العطار ، والنظر في مرآة الحجَّام »[3] .

(١٠) استخدام الضيف :

« قال رجاء بن حَيْوة : سمرتُ عند عمر بن عبد العزيز ذاتَ ليلة ، فعشا السراج ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، ألَا أنبِّه هذا الغلام يُصلِحه ؟ فقال : لا ، دعْه ينام ؛ لا أحب أن أجمع عليه عملَيْن . فقلتُ : أفلا أقوم أُصلحه ؟ فقال : لا ، ليس من المروءة استخدامُ الضيف . ثم قام بنفسه فأصلحه وصبَّ فيه زيْتًا ، ثم جاء وقال : قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز ، وجلستُ وأنا عمر بن عبد العزيز »[4] .

(١١) الاستخفافُ بالناس والتشهير[5] **بهم ، وخاصَّة العلماء والدُّعاة :**

جاء في « عيون الأخبار » : « قد استدللتَ على كثرة عيوبك بما تُكثر من عيْب الناس ؛ لأن الطالب للعُيُوب إنما يطلبها بقدْر ما فيه منها »[6] .

والمبالغة والتهويل في نقد الغير غفلة عن عيْب النفس .

(١،٢) بغية المسترشدين صـ ٢٨٢ .

(٣) روضة العقلاء لابن حبان صـ ٢٣٣ ، و « الظرف والظرفاء » للوشّاء صـ ٨٧ .

(٤) « الإمتاع والمؤانسة » لأبي حيَّان التوحيدي ٢/٦٨، وابن كثير في « البداية والنهاية » (٩ / ٢١١) .

(٥) التحرير لابن الهمام ٣ / ٤٦ ، والرسائل الزينية لابن نجيم ٢٥٦ ، والعتر في منهج النقد ٨٠ .

(٦) عيون الأخبار ٢ / ٤ .

قال ابن القيم : « من قواعد الشرْع والحكمة أيضًا : أنَّ مَن كثرت حسناته وعظُمتْ ، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر ؛ فإنه يُحتمل منه ما لا يُحتمل لغيره،ويُعفىٰ عنه ما لا يعفىٰ عن غيره ؛ فإنَّ المعصية خبَثٌ ، والماء إذا بلغ قُلتيْنِ لم يحملِ الخبث ، بخلاف الماء القليل ، فإنه لا يحتمل أدنى خبثٍ»(١).

(١٢) الاستمناء أو جَلْد عَمِيرة(٢) :

قال ابن العربي : « قال بعض العلماء : إنه – أي الاستمناء – كالفاعل بنفسه ، وهي معصية أحدثها الشيطان ، وأجراها بين الناس ، صارت قِيلةً ، ويا ليتها لم تُقل ،ولو قام الدليل على جوازها ، لكان ذو المروءة يُعرض عنها لدناءتها » . ثم قال : « ... ولكنَّ الاستمناء ضعيف في الدليل ، عارٌ بالرجل الدنيء ، فكيف بالرجل الكبير ؟! »(٣) .

وقال الشوكاني عن الاستمناء : « لا شكَّ أن في هذا العمل هجنة ، وخِسَّة ، وسقوط نفس ، وضياع حِشْمة ، وضعْف هِمَّة »(٤) .

والاستمناء حرام عند جمهور العلماء .

فإن كان الاستمناء بيد الحليلة ؛ فجائز بإجماع .

وإن كان بيد أجنبية ، أو أُدخل الأجنبيُّ أصبعه في فرج امرأة ؛ فحرام اتفاقًا .

فإن فعله الرجل للتلَذُّذ واستبدله بالزوجة والأَمَة ؛ فحرام .

---

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ١٧٦ .

(٢) في القاموس المحيط صـ ٥٧٢ : « وأبو عمير : كنية الذَّكَر ، وجَلْد عَمِيرة : كناية عن الاستمناء باليد » ، وأفاد الزبيدي في « التاج » أنَّ عميرة مستعار للكفّ .

(٣) أحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي ٣ / ١٣١٠ .

(٤) بلوغ المنى في حكم الاستمنى للشوكاني . تحقيق : مشهور حسن آل سلمان صـ ٨٤ .

فإن فعَله ليكسر حِدَّة شهوته ، وشِدَّة شَبَقِهِ فحسْب ؛ فحرام . فإن كان هذا الفعل لدفْع مضرَّة الزنى أو اللواط التي باتت - أو كادت - متحقِّقة في حقّه ؛ فهو مباح بعد أن يجرّب الصيامَ ويجاهد نفسه .

(١٣) اعتياد البوْل قائمًا بلا ضرورة ، أو في الماء :

عدَّ السخاوي في « فتح المغيث » (١ / ٢٩١) : من خوارم المروءة : « البول قائمًا - يعني في الطريق - وبحيث يراه الناس، وفي الماء الراكد».

(١٤) الإعلان بالفسْق :

قال السرخسي : « ولا مروءة لمن يكون معلِنًا بفسْقٍ شرعًا » .

(١٥) إفساد المال .

(١٦) إكثار المضايقة في اليسير الذي لا يُستَقْصَىٰ فيه .

(١٧) الأكْل في الطريق والأسواق :

بات عليُّ بن المديني عند عبد الله بن داود - الخريبي - بالخُرَيبة ، فدخل حانوت بقّال يتعشَّى ؛ فقال له عبد الله : « لو صبرتَ ليلةً واحدة كنتَ تموت ؟! أين الدِّين ؟! أين المروءة ؟! ما لك مروءة ، ولا فيك خير ؟! »[(١)].

وعدّه من الخوارم : ابنُ سيرين ، والسرخسي ، والفخْر الرازي ، والغزالي ، وابن عقيل ، والمجد ابن تيمية ، والعيني ، والنووي ، وزكريا الأنصاري ، والآمدي ، والسخاوي ، والشيرازي[(٢)] .

والأكل في الأسواق والطرقات يكون من خوارم المروءة بالشروط التالية :

---

(١) تاريخ دمشق : ترجمة عبد الله بن داود الخريبي .

(٢) انظر:أصول السرخسي ١ / ٣٥٠ ، المحصول للرازي ٤ / ٣٩٩ ، المستصفىٰ للغزالي ١ / ١٥٧،المحرر ٢ / ٢٦٨ للمجد ابن تيمية ، روضة الطالبين ١١/٢٣٢ ، فتح الباقي لزكريا الأنصاري ١ / ٢٩٤ ، فتح المغيث للسخاوي ١ / ٢٩١ ، شرح اللمع للشيرازي ٢ / ٦٣١ .

أولًا : أن يكون بمرأًى من الناس ، أمَّا إذا أكَلَه في السوق وهو خالٍ من الناس كالليـل مثلًا ، أو أكله مستترًا في داخل الدكّان ؛ فلا يقدح ذلك في المروءة .

ثانيًا : أن يكون الأكل كثيرًا بأن يضع مائدة في السوق ، فلو أكل قليلًا فلا يقدح ، والكثرة والقِلَّة يحدِّدها العُرْف .

ثالثًا : أن يكون الشخص من غير أهل السوق ، فإن كان من أهل السوق ، أو ممَّنِ اعتاد الأكْل هناك ، فإنه لا يقدح في المروءة .

رابعًا : أن يكون الشخص مختارًا أكْلَه ، فلو أكل مضطرًّا أو لعُذر - كغَلَبة جُوع ، أو إرضاءً لصديق - فلا تقدح في مروءته .

وأكْل العِلْك « اللبان » للرجال ، ما لم يكن للتداوي ؛ لما فيه من التشبُّه بالنساء ، وكذا في حقِّ النساء إن كان عند الرجال الأجانب .

(١٨) **الأكْل من موضع يد صاحبه ومِن غير ما يليه** :

أخرج مسلم في « صحيحه » ؛ عن عمرو بن أبي سلمة قال : كنتُ غلامًا في حِجْر رسول الله ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصَّحْفة ، فقال لي : « يا غلام ، سمِّ الله ، وكُلْ بيمينك ، وكُلْ مما يليك » .

قال النووي في « شرحه » (١٣ / ١٩٣) : « لأنَّ أكْله من موضع يد صاحبه سوءُ عِشْرة وتَرْكُ مروءة » .

(١٩) **الألْعاب** :

قرَّر ابن قدامة في « المغني » (١٢/٣٧-٣٨) : أن الأصل في اللعب : الإباحة ، وما كان فيه دناءة يترفع عنها ذوو المروءات ؛ مَنع الشهادة إذا فعَله ظاهرًا وتكرَّر منه .

ونحوه عند الدردير في « الشرح الصغير » (٥ / ٢٨) ؛ فقال في معْرِض حديثه عمَّا يُخلُّ بالمروءة : « وكذا سائر اللعب ، إلَّا ما استثناه الشارع ؛

كالمسابقة ، واللَّعِب مع الزوجة والطفل ، إذا لم يَكْثُر . والكلام في اللعب بما ذُكر إنما هو إذا أدمن ذلك .

قال الأبهري في الفرق بين الإدمان وعدمه : إن الإنسان لا يَسْلَم من يسير اللهو .

كان عروة بن الزبير يقول لولده : يا بَنِيَّ ، العبوا ؛ فإن المروءة لا تكون إلَّا بعد اللعب »[1] .

(٢٠) المداومة على إنشاد الشعر والتكسُّب به :

«فلا تُقبل شهادةُ شاعرٍ مُفْرِطٍ بالمدح بإعطاء ، أو بالذمِّ بعَدَمِه ، ولا مُشَبِّب بمدْحِ خمرٍ أو بمرد أو بامرأة معينة محرَّمة ، ويُفسَّق بذلك »[2] .

(٢١) البول على قارِعة الطريق المسلوكة وفي الأماكن العامَّة :

قال ابن الهمام : « ومثله الذي يكشف عورته ليستنجي من جانب بركة والناس حُضُور »[3] .

وعدّه من خوارم المروءة : السرخسيُّ والرازي والغزالي ، وابن الإخوة والقاضي عياض والسبكي .

(٢٢) التَّجَشُّؤ بصوتٍ مزعجٍ ما وجد إلى خلافه سبيلًا :

في الحديث الحسَن : أن رجلًا تجشَّأ عند النبي ﷺ ، فقال : « كُفَّ عنَّا جشاءَك ؛ فإن أكثرهم شِبَعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة » .

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١ / ٤١٢ .

(٢) انظر : مغني المحتاج للخطيب الشربيني ٤/٤٣٢، وحاشية الروض المربع ٣/٤٢٥ ، وروضة الطالبين ١١/٢٣٠ .

(٣) انظر:فتح القدير لابن همام ٧/٤١٤ ، وبُغية الرائد للقاضي عياض صـ ٤٠ ، ومعالم القربة لابن الإخوة صـ ٣١٤ ، والمستصفى ١ / ١٥٧ ، والمحصول ٤ / ٣٩٩ ، وأصول السرخسي ١ / ٣٥٠ .

وعدَّه ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢ / ٣٥٣) من خوارم المروءة .

(٢٣) تحديث الناس بمُباضَعَة وجِمَاع الزوجة :

عدَّه ابن قدامة في « المغني » ، ومجد الدين ابن تيمية ، وابن النجار في « منتهى الإرادات »،من خوارم المروءة .

قال ابن نُجيم:« وذِكْر ما يجري من امرأته في الخلوة ومهازلتها ، حيث يسمع غيره » .

(٢٤) التحيَّة العسكرية :

قال الشيخ حمُّود التويجري : «وإذا عُلِمَ فضل السلام، وأنه تحية المسلمين في الداريْن ، فليُعلَمْ أيضًا أنه لا أسْفهَ رأيًا ممَّن رَغِب عن ذلك ، واستبدل عنه بإشارات الإفرنج ، وضرْبهم بالأرجل شبه البغال والحمير إذا أحسّت بشيء يدبُّ على أرجلها ... بل ضرب الشُّرَط بأرجلهم أفحشُ وأنكرُ من ضرب البغال والحمير بأرجلها ، وكفى بالتحية العسكرية مهزأة ومنقصة عند كلِّ عاقل سليم مِن أمراض المدنية الإفرنجية وأدناسها »[(١)] .

(٢٥) تركُ الزاني يزني ، وتمكينه من ذلك :

لا يليق بذوي المروءات . قاله ابن العربي .

(٢٦) ترْك الوتر :

قال أحمد بن حنبل : « مَن ترك الوتر عمدًا ؛ فهو رجلُ سوءٍ ،ولا ينبغي أن تُقبَل له شهادة » .

(٢٧) التصريح بأقوال الخنَا وما يُسْتَبْشَع في الملأ من غير حاجة ولا ضرورة :

من قوادح المروءة - كما قال الدردير في « الشرح الصغير » -: « الهزْلُ

---

(١) الإيضاح والتبيين للشيخ حمود التويجري صـ ١٦٩ .

الخارج عن عُرْف أهل الكمال ، من المجون والدعابة »[١] .

وعرَّفه الدسوقي بقوله : «قوله بأن لا يُبالي بما يقع منه من الهزْل ؛ أي كإخراج الصوت من فِيه ، وكالنطق بألفاظ الخنا في الملأ : مما يُستبْشع النطق به »[٢] .

والتصريح بما يُستحيا من التلفُّظ به من أنواع الرَّفث في القول ، من أجل الحاجة الملجئة لذلك : مشروع[٣] ، وما عدا ذلك:من خوارم المروءات .

(٢٨) تعاطي الإنسان ما لا يحسنه ، ودعواه معرفة ما لا يعرفه :

قال ابن الوزير عنه : «من عادات السفهاء ، ومَن لا حياء له ولا مروءة»[٤] .

(٢٩) تقبيل الرجل زوجَه عند الناس :

أو وضع يده على موضع الاستمتاع منها من صَدْر ونحوه .

روى الخطيب البغدادي في ترجمة : « القاضي أبي بكر موسى بن إسحاق الخطمي » ، قال : « تقدَّمت امرأة ، فادَّعى وليُّها على زوجها خمسمائة دينار مهرًا ، فأنكر ، فقال القاضي : شهودك . قال : قد أحضرتُهم . فاستدعى بعضَ الشهود أنْ ينظر المرأة ليشيرَ إليها في شهادته ، فقام الشاهد ، وقالوا للمرأة : قومي . فقال الزوْج : تفعل ماذا ؟ قال الوكيل : ينظرون إلى امرأتك وهي مُسْفرة لتصحَّ عندهم معرفتُها . فقال الزوج : فإني أُشهد القاضي أنَّ لها عليَّ هذا المهْر الذي تدَّعيه ، ولا تُسْفر عن وجهها . فرُدَّت المرأة ، وأُخبرت بما كان من زوجها . فقالت المرأة : فإني أشهد القاضي أني قد وهبتُ له هذا المهْر ، وأبرأْتُه منه في الدنيا والآخرة . فقال القاضي : يُكتب هذا في مكارم الأخلاق »[٥] .

---

(١) الشرح الصغير للدردير ٥ / ٢٨ .
(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير ٤ / ١٦٦ .
(٣) انظر فتح الباري ١٢ / ١٢٥ .
(٤) الروض الباسم لابن الوزير ١ / ١٥٨ ، طبع : دار الإفتاء .
(٥) تاريخ بغداد ١٣ / ٥٣ .

(٣٠) تكتيفُ اليديْن على الدُّبر :

قال الشيخ حمُّود التويجري : « وهذا الفعل السخيف من أفعال الإفرنج وأضرابهم من أعداء الله تعالى ، كما حدّثنا بذلك مَن خالطهم كثيرًا ، ورأى ذلك منهم ، وقد تلقَّى ذلك عنهم كثير من سفهاء المسلمين » . ثم قال عنه : « إنه فعْل مُستَقْبَح عند ذوي المروءات والشيَم ، وكيف لا يكون ذلك قبيحًا بالرجل أن يضع يدهَ على دُبُره ثم يمشي بين الناس ، وهو على ذلك الوضع المسْتَهْجَن المزْرِي بالصبيان الصغار ، فضلًا عن الرجال الكبار .

فينبغي للعاقل أن يسمو إلى معالي الأمور التي تجمِّله وتُزيِّنه ، ويبعد عن سفاسف الأمور التي تدنِّسه وتَشينه . والله الموفِّق »[(١)] .

(٣١) تكرُّر حضورِ وليمةٍ غيرِ نحوِ سلطانٍ ، بلا طلب ولا ضرورة ، ولا استحلال صاحبها ؛ لالتقاط العشار :

قال ابن قدامة : « ولا تُقبَل شهادة الطفيلي ، وهو الذي يأتي طعام الناس من غير دعوة ، وبهذا قال الشافعي ، ولا نعلم فيه مخالِفًا ».وعلَّل ذلك بقوله : « لأنه يأكل محرَّمًا ، ويفعل ما فيه سَفَهٌ ودَنَاءة وذَهابُ مروءة ، فإن لم يتكرَّر هذا منه ، لم تُرَدَّ شهادته ؛ لأنه من الصغائر »[(٢)] .

(٣٢) التوسُّع في المأكل والمشرب والرفاهية ، بحيث يقع بسببه قصور في الطاعات أو النفقة على مَن يَعُول :

---

(١) الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين.للشيخ التويجري صـ ١٨٧ ، ١٨٩ .

(٢) المغني ٤٩/١٢ ، والطفيلي : نسبة إلى رجل يُقال له : « الطفيل » من بني عبد الله من غطَفان ، أكثر من الإتيان إلى الولائم من غير دعوة ؛ فسُمِّي « طفيلي العرائس » فضرب به المثل في الطمع ، والطفيْلي هو أيضًا في اللغة الإمَّعة ، وهو أيضًا الوارش ، وهو الذي يدخل على القوم في طعام لم يُدْعَ إليه .

نومُ الغداةِ وشرْبٌ بالعشيَّاتِ موكّلانِ بتهْديمِ المروءَاتِ

(٣٣) الجَشَع عند الأكل ، سواء كان وحدَه أو بين الناس :

عدّه ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/٢٥٣) من خوارم المروءة .

(٣٤) جعْلُ النفسِ مسخرة ، بحيث يُضْحك به في كلامه أو لباسه :

عدّه ابن الإخوة في « معالم القربة » من خوارم المروءة . وعدّ الرازي ، والغزالي في « المستصفى » ، والآمدي في « الإحكام » ، مما يقدح في المروءة : إفراط المزاح[1] .

وذهب القاضي أبو بكر الطرطوشي إلى أن من خوارمها : الحكاية المضحكة . نقل ذلك القاضي عياض في « بغية الرائد » صـ ٢٣٩ – ٢٤١ .

قال ابن قدامة في « المغني » (١٢ / ٣٣) مع « الشرح الكبير » : « وأما المروءة ؛ فاجتناب الأمور الدنيئة المزرية به » . ثم مثَّل عليه بقوله : « أو يتمسْخَر بما يضحك الناس به » .

وقال ابن مفلح : « وكذا مثَّل غيرُ واحد من الأصحاب – أي على الخوارم – بحكاية ما يضحك منه الناس ، ونارنجيات وتعزيم »[2] .

وذكره صاحب « العباب » من الأحناف ، فعدَّ من جُملة الخوارم : « وجعْل نفسِه ضحْكَةً » ، و « إكثار حكايات مضحكة » . نقله ابن نجيم في « الرسائل الزينية »[3] .

وعدّ المجد ابن تيمية في « المحرر » ، وابن النجار في « منتهى الإرادات »

---

(١) انظر : معالم القربة صـ ٣١٤ ، والمحصول ٤ / ٣٩٩ ، والمستصفى ١ / ١٥٧ ، والإحكام ٢ / ١٠٩ .

(٢) النكت والفوائد السنية لابن مفلح ٢ / ٢٦٨ .

(٣) انظر:الرسائل الزينية ، لابن نجيم صـ ٢٥٧ ، وروضة الطالبين ١١ / ٢٣٢ ، وفتح الباقي لزكريا الأنصاري ١ / ٢٩٤ .

(٢ / ٦٦١) ، وابن ضويان في « منار السبيل » (٢ / ٤٨٨) ، والبهوتي في « الروض المرْبع » (٤٨٤) من الخوارم : المُتَمَسْخِر .

قال العنقري في « حاشيته » : هو الذي يأتي بما يُضحك الناس ؛ من قول أو فعْل .

قال الشيخ تقي الدين : « وتحرُم محاكاة الناس للضحك ، ويعزَّر هو ومن يأمره ؛ لأنه أذى »[(١)] .

يُعلم بهذا أن (المهرِّجين) و (الممثِّلين) ، ولا سيما على (المسارح) فيما يسمَّى بـ (الكوميديا) : مخرومو المروءة ، وكذا من يقومون بإصدار «النِّكات» و «المضحكات» في مجامع الناس العامَّة في «السيرك» وغيره ، بمناسبة أو دونها .

(٣٥) **الجلوسُ على الطرقات** :

ذكرَه ضمْن المباحات القادحة في المروءات : أبو القاضي بن الطيب ، نقله عنه القاضي عياض في « بغية الرائد » (٤١) .

قال عبد الملك بن عُمير : « إن من مروءة الرجل جلوسَه ببابه »[(٢)] .

والجلوس في الطرقات وفي حوانيت الناس للحديث ، ليس من المروءة .

وفي ترجمة أبي الجوزاء الربعي : أنه « لم يجلس على دكاكينَ قطُّ »[(٣)] .

(٣٦) **الحِرْص** :

عدَّه الوشاء من خوارم المروءة[(٤)] .

(٣٧) **الحَسَد** :

أعداء المروءة بنو عمِّ السوء ؛ إنْ رأَوْا خيْرًا ستروه ، وإنْ رأَوْا شرًّا أذاعوه .

---

(١) حاشية الروض المربع ٣ / ٤٢٤ .
(٢) عيون الأخبار ١ / ٤١٢ .
(٣) طبقات ابن سعد ٧ / ٢٢٤ .
(٤) الظرف والظرفاء للوشاء صـ ٩٤ .

(٣٨) حَلق اللِّحْية :

عدَّها ابن عابدين من خوارم المروءة في « العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية »[(١)] .

(٣٩) حمْلُ الفلوس في الكُمِّ :

قال الصحابي الجليل ، طلحة بن عبيد الله : « جلوسُ الرجل ببابه من المروءة ، وليس من المروءة حمْل الكِيس في الكُمِّ »[(٢)] .

(٤٠) حمْلُ المتاع بُخلًا بأجْرة حمَّال يحملُه له :

عدَّه ابن الإخوة في « معالم القربة » من خوارم المروءة[(٣)] ، ونقل ابن نجيم في « الرسائل الزينية » عن « العباب » : أنَّ من خوارم المروءة « ... كابتذال رجل معتبرٍ نفسَه ، بنقل الماء والطعام إلى بيته شُحًّا ، لا تواضعًا واقتداءً بالسَّلَف ، مِن ترْك التكَلُّف » .

(٤١) الخروجُ عن مستوى الجلوس بلا عُذر :

عدّه ابن النجَّار من الخوارم[(٤)] .

(٤٢) خِضابُ اللحية بالسَّوَاد :

عن ابن عباس مرفوعًا : « يكون قوم يخضِبون بالسَّوَاد كحواصل الحمام ، لا يريحون رائحة الجنة »[(٥)] .

---

(١) العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية لابن عابدين ١ / ٣٢٩ ، وانظر نهاية المحتاج ٨ / ٢٩٩ .

(٢) بهجة المجالس لابن عبد البر ٢ / ٦٤٤ ، الآداب الشرعية لابن مفلح ٢ / ٢٣٢ .

(٣) انظر : معالم القربة صـ ٣١٤ ، والرسائل الزينية لابن نجيم صـ ٢٥٧ .

(٤) منتهى الإرادات لابن النجار ٢ / ٦٦٢ .

(٥) إسناده صحيح : رواه أحمد ، وقال الساعاتي في « الفتح الرباني » (١٧ / ٣١٩) : إسناده صحيح . وهو عند أبي داود والنسائي بلفظ : « يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام ، لا يريحون من رائحة الجنة » . صححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٨٠٠٩) .

وعدَّه السخاوي في « فتح المغيث » من خوارم المروءة .

(٤٣) دخول الحمَّام بغيْر مِئزَر ، وكشْفُ عورته فيه :

عدَّه المجد ابن تيمية في « المحرَّر » من الخوارم ، وعبارته : « أو يدخل الحمَّام بغيْر مِئْزرٍ » .

وقال بهاء الدين المقدسي : « ولا تجوز شهادة مَن لا مروءة له : كالمُسَخِّرة ، وكاشِف عوْرته للناظرين في الحمَّام »(١) .

(٤٤) ذكْر الأهل بالسُّخْفِ من غير حاجة :

قال النووي في « روضة الطالبين » (١١ / ٢٢٩) : « والصحيح أن تُرَدَّ شهادتُه إذا ذكَر جاريته أو زوجته بما حقُّه الإخفاء ؛ لسقوط مروءته » .

وفي « مغني المحتاج » (٤ / ٤٣١) : « ولو شبَّبَ بزوْجته أو أَمَتِه ممَّا حقُّه الإخفاء ، رُدَّتْ شهادتُه لسقوط مروءته ، وكذا لو وصف زوجته أو أمَته بأعضائها الباطنة » .

وذكره أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي من ضمن ما يُسقط المروءة .

(٤٥) الربْح على الإخوان والأصدقاء :

قال أبو قلابة : « ليس من المروءة أن يربح الرجل على صديقه » .

(٤٦) الرَّطَانة بالأعجمية من غير حاجة أو ضرورة :

ثبت في الحديث : « لا تتعلموا رطانة الأعاجم »(٢) .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « ما تكلَّم رجل بالفارسية إلا خبَّ ، ولا خبَّ إلَّا نقصت مروءته »(٣) .

---

(١) العدة شرح العمدة لبهاء الدين المقدسي صـ ٦٥٢ .

(٢) إسناده صحيح : رواه عبد الرازق في مصنَّفه ، والبيهقي في السنن الكبرى ، وقال ابن كثير في « مسند الفاروق » (٢ / ٤٩٤) : إسناده صحيح .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٩ / ١١ ، وتاريخ جرجان للسهمي صـ ٤٢٦ .
وخبَّ : أي صار خدّاعًا .

وقال رضي الله عنه : تعلَّموا العربية ؛ فإنها تزيد في المروءة[١] .

قال ابن تيمية: «أما اعتياد الخطاب بغير اللغة العربية ، حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله، أو لأهل الدار، أو للرجل مع صاحبه، أو لأهل السوق ؛ أو للأمراء ، أو لأهل الديوان ، أو لأهل الفقه – فلا ريب أن هذا مكروه ؛ فإنه من التشبُّه بالأعاجم » .

وقال الأصمعي : « ثلاثة تَحكُمُ لهم بالمروءة حتى يُعرَفوا : رجل رأيتَه راكبًا ، أو سمعتَه يعرب ، أو شممتَ منه رائحة طيِّبة . وثلاثة تَحكُمُ عليهم بالدناءة حتى يُعرفوا : رجل شممت منه رائحة نبيذٍ في مَحفَلٍ ، أو سمعتَه يتكلم في مصر عربي بالفارسية ، أو رأيتَه على ظهر الطريق تَنَازَع في القدَر »[٢] .

(٤٧) الرقْصُ والغِناءُ والصفْقُ بالأَكُفِّ :

قال السيوطي : «ومِن ذلك ما أُحدِثَ من السماع والرقْص والوَجْد ، وفاعل ذلك ساقِطُ المروءة ، مردود الشهادة ، عاصٍ لله ورسوله ، وهو محظور»[٣].

قال النووي في مبحث ردِّ الشهادة : «ومَن لا مروءة له كالرّقاص»[٤].

سئل الروذباري عمَّن يسمع الملاهي ويقول : هي حلال لي ؛ لأني قد وصلتُ إلى رتبة لا يُؤثِّر فيه اختلاف الأحوال ؟ قال : نعم ، قد وصل ، ولكن إلى سَقَر »[٥] .

ونقل عن ابن عبد السلام قوله في الرقص والتصفيق : « خِفَّة ورعونة مشبهة لرعونة الإناث ، لا يفعلهما إلا أرعنُ أو متصنِّعٌ كذَّاب »[٦] .

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب ، وأنساب الأشراف للبلاذري صـ ٩٩ .
(٢) عيون الأخبار (١ / ٤١٢ – ٤١٣) .
(٣) الأمر بالاتِّباع للسيوطي صـ ٩٩ ، تحقيق : مشهور حسن آل سلمان .
(٤) المجموع للنووي (٢٠ / ٢٥٠) .
(٥) الحلية ١٠ / ٣٥٦ ، والسير ١٤ / ٥٣٦ .
(٦) الإيضاح والتبيين للتويجري صـ ١٨٠ – ١٨٦ .

وذكر الشاطبي صعْق الصوفية ، فقال : « هذه اللّعب القبيحة المسقِطَة للأدب والمروءة »(١) .

(٤٨) الزنا :

قال الشيرازي : « ثم يَعفُّ فرجه عن مقارفة الزنا ، وذلك أصل العفاف ، وتمام المروءة ، وحصانة الدين »(٢) .

(٤٩) سُرْعة المشي بانْزعاجٍ واضطراب :

عدّه النخعي من الخوارم :

« وقد كان رسول الله ﷺ إذا مشى كأنما يهوي في صَبَبٍ ، وكان ﷺ إذا مشى تقلَّع »(٣) .

قال ابن القيم : « التقلُّع : الارتفاع من الأرض بجملته ، كحال المنحطّ من الصبب ، وهي مشية أولي العزم والهمَّة والشجاعة ، وهي أعدل المشيات ، وأروحها للأعضاء ، وأبعدها عن مشية الهَوج والمهانة والتماوُت »(٤) .

(٥٠) سؤال الناس :

قال ابن قدامة في « المغني » (١٢/٤٩) فيمن كان أكثر عمره سائلًا ، أو يَكثُر ذلك منه ، فينبغي أن تُردَّ شهادته ؛ لأن ذلك دناءة وسقوط مروءة .

وقبيح بالعبد المريد أن يتعرَّض لسؤال العبيد ، وهو يجد عند مولاه كلَّ ما يريد .

وفي الصحيحين : عن رسول الله ﷺ : « واليدُ العليا خير من اليد السفلى » .

---

(١) الاعتصام للشاطبي ١ / ٣٥٣ - ٣٥٤ ، ط : ابن عفان .
(٢) المنهج المسلوك في سياسة الملوك للشيرازي صـ ٣٣٥ .
(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى عن علي ، والحديث صحيح صحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٧٨٤ .
(٤) زاد المعاد ١ / ١٦٧ .

واليد العليا هي المنفقة ، والسفلى : هي السائلة .

والدَّيْن من المسألة ؛ فلا يجوز إلّا للحاجة والاضطرار .

وسؤال الناس ظلْم للنفس .

قال ابن القيم : « وأما ظلمه لنفسه ؛ فإنه أراق ماءَ وجهه ، وذلّ لغيْر خالقه ، وأنزل نفسه أدنى المنزلتيْن ، ورضي لها بأبخسِ الحالتيْن ، ورضي بإسقاط شرف نفسه ، وعزَّة تعفُّفه ، وراحة قناعته ، وباع صبره ورضاه ، وتوكُّله وقناعته بما قُسم له ، واستغناءه عن الناس بسؤالهم ، وهذا عيْن ظلمه لنفسه ؛ إذ وضعها في غير موضعها ، وأخمل شرفها ، ووضع قدْرها ، وأذهب عِزَّها ، وصغَّرها وحقَّرها ، ورضي أن تكون نفسه تحت نفس المسئول ويدُه تحت يده ، ولولا الضرورة لم يُبَحْ ذلك في الشرع »[1] .

وفي صحيح مسلم: عن عوْف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه؛ قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة - أو ثمانية، أو سبعة - فقال : « ألا تُبايعون رسول الله ﷺ ؟ » وكنا حديثي عهد ببيعة ، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله . ثم قال : « ألا تبايعون رسول الله - ﷺ - ؟ » . فبسطنا أيدينا وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك ؟ فقال : « أنْ تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، والصلوات الخمس » وأسرّ كلمة خفيّة : « ولا تسألوا الناس شيئًا » . قال: ولقد رأيتُ بعضَ أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدًا أن يناوله إياه.

قال سعيد بن المسيب : « مَن لزِم المسجد، وقبل كلَّ ما يُعطىٰ ، فقد ألْحَف في المسألة» .

ولله درُّ السريِّ السَّقطي حين قال : « جعلوا مسجدَ الجامع حوانيتَ ليس لها أبواب » . يعني يتعرَّضون بذلك للسؤال .

قال الغزالي : « وسخاء النفس بما في أيدي الناس أكبر من سخائها بالبذل

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٣٢ - ٢٣٣ .

ومروءة القناعة ، والرضا أكبر من مروءة العطاء ، وأكبر من ذلك كلِّه : السخاءُ بالحكمة »[(١)] .

وقال ابن القيم : « سؤال الناس : عيْب ونقص في الرجل ، وذلَّة تنافي المروءة إلا في العلم ؛ فإنه عيْن كماله ومروءته وعزّه . كما قال بعض أهل العلم : خير خصال الرجل : السؤال عن العلم »[(٢)] .

(٥١) سُوء العشْرة مع الأهل أو الجيران أو المعامِلين ، والتضييق في التافِهِ اليسير الذي لا يُستقْصىٰ فيه :

عدَّه النووي في « روضة الطالبين » (١١/٢٣٢ – ٢٣٣) من خوارم المروءة ، وذكر في « شرح صحيح مسلم » (١٥ / ٢١٤) عند حديث أم زرع : أنَّ حسْن عشرة الزوجة من المروءة وكرم الخلق .

(٥٢) شتْمُ الناسِ أو الدَّوَابِّ :

قال ابن الهمام : قال نصير بن يحيى : « من يشتمْ أهلَه ومماليكَه كثيرًا في كلِّ ساعة لا تُقبل شهادته ، وإن كان أحيانًا تُقبَل »[(٣)] . وكذا الشتّام للحيوان ، كدابتّه .

وقد كان « أبو الجوزاء الربعي لا يلعن شيئًا قطُّ ، ولم يأكل شيئًا لُعِن قطُّ . قال : حتى إنه كان ليرشو الخادم في الشهر الدرهمَ والدرهمْين ، حتى لا يلعن الطعام إذا أصابها حرُّ التنور »[(٤)] .

قال القاضي عياض : « أفتى مالك لبعض الشعراء بما لا يُوافقه ، فقال : يا أبا عبد الله ، أتظنُّ الأمير لم يكن يعرف هذا القضاء الذي قضيتَه ؟! بلى ،

---

(١) روضة الطالبين وعمدة السالكين للغزالي صـ ١١٧ .

(٢) مفتاح دار السعادة ١ / ١٦٨ .

(٣) فتح القدير لابن الهمام (٧ / ٤١٥) .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٧ / ٢٢٣ .

وإنما أرسلنا إليك لتُصلح بيننا فلم تفعل ، بالله لأقطعنَّ جلدك هجاء . فقال له مالك : يا هذا ، أتدري ما وصفت به نفسك ؟ وصفْتَها بالسَّفه والدناءة ، وهما اللذان لا يعجز عنهما أحد ، فإن استطعت ، فأتِ غيرهما مما تنقطع دونه الرقابُ ، من الكرم والمروءة »[١] .

(٥٣) شرْب الدُّخان والجلوس على القهاوي « بيوت القهوات » :

قال عنه الشبراملسي : « يخلُّ بالمروءة » . ويجتمع الأسافل والأراذل هذه الأيام في القهاوي ، ولا يدخلها مَن كان ذا مروءة وخلُق ودين . كما قال القاسمي[٢] .

أمَّا القهوة في حدِّ ذاتها فهي حلال . أما جلوس الرجل على مصاطبها[٣] : فهو من خوارم المروءة .

واحذرْ دخولك للقهواتِ إنّ بها | جلَّ الفواحشِ مِنْ كذبٍ وغيباتِ
كمْ قهوةٍ أصبحتْ للَّهوِ جامعةً | وكمْ بلايا بها لأهلِ الدِّياناتِ
كمحنةٍ شغلتْهمْ عن بُيوتِهمُ | وعن صلاةٍ وأولادٍ وطاعاتِ

(٥٤) الشرب مِن سقايةِ سُوقٍ بلا غَلَبَة جُوع وعطش :

قاله صاحب «العباب» من الحنفية ، ونقله ابن نجيم في «الرسائل الزينية» .

إلا أن يكون سوقيًّا أو غَلَبَهُ العطش ، وكذا قال النووي في « روضة الطالبين » .

ويرحم الله الشافعي ؛ حيث قال لابنه عثمان : « والله ؛ لو أعلم أنَّ الماء البارد يثْلَم مروءتي ، ما شربتُ إلا حارًّا »[٤] .

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض ١ / ١٩٠ .

(٢) حاشية الشبراملسي على نهاية المحتاج (٢٩٩/٨) ، و «قاموس الصناعات الشامية» للقاسمي صـ ٣٩٨ .

(٣) المصطبة : مكان اجتماع الغرباء ، كما قاله الكفوي في « الكليات » ٨٢٨ .

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ١٨٨/٢، وآداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم الرازي.

وعند البيهقي في مناقبه : « والله الذي لا إله إلا هو ، لو علمتُ أن شرب الماء البارِد يُنقص من مروءتي ما شربتُه ، ولو كنتُ اليوم ممَّن يقول الشعر لَرثيتُ المروءة »(١) .

قيل لعبد الملك بن مروان : كان مصعب بن الزبير يَشرب الطلا ؟ فقال : لو علم مصعب أن الماء يُفسد مروءته ما شربه .

(٥٥) صُحْبة الأراذل :

ذكَره الفخر الرازي في « المحصول » ، والغزالي في « المستصفى » ، والصنعاني في « توضيح الأفكار » .

« سأل ربيعة الإمام مالكًا : مَن السفَلَةُ يا مالك ؟ قال : الذي يأكل بدينه . قال لي : فمَن سَفَلَةُ السَّفَلة ؟ قلتُ : الذي يأكل غيرُه بدينه »(٢) .

(٥٦) عدم الإفضال بالماء والطعام ، والمساعدة بالنفس والجاه :

عدَّه السخاوي في « فتح المغيث » من خوارم المروءة .

وقديمًا قالوا : كان الرجل إذا أراد أن يَشين جارَه طلب الحاجة إلى غيره .

« وقال أعرابي : منَ قَبِل صِلَتَك ، فقد باعك مروءتك »(٣) .

(٥٧) القَهْقَهَة :

عدَّها ابن عقيل في « الفنون » من خوارم المروءة ، ونقلها عنه ابن مفلح في « النكت والفوائد السنية » .

(٥٨) كثرة الالتفات في الطريق :

قال إبراهيم النخعي : «ليس من المروءة كثرة الالتفات في الطريق»(٤).

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢ / ١٨٧ .
(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض ١ / ١٢٩ .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٦٥ .
(٤) بهجة المجالس لابن عبد البر ٢/٦٤٤، الآداب الشرعية لابن مفلح (٤١٢/١).

(٥٩) كشفُ العوْرة إذا خلا من غير حاجة :

عدَّه ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣٥٣/٢) ، والسخاوي في « فتح المغيث » (٢٩١/١) ؛ من خوارم المروءة .

قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٣٢/٤) : «وأما كشف الرجل عورته في حال الخلْوة بحيث لا يراه آدمي ؛ فإن كان لحاجة جاز ، وإن كان لغير حاجة ؛ ففيه خلافُ العلماء في كراهته وتحريمه ، والأصحّ عندنا أنه حرام».

وإن جاز للرجل الاغتسال عريانًا في الخلوة ، فالتسترُّ أفضل ، والله أحقُّ أن يُستَحْيا منه .

(٦٠) كشفُ ما جرت العادة بتغطيته من بدنه ؛ كصدره ، وظهره وبطنه :

عدَّه ابن قدامة ، وابن مفلح ، وابن النجار ، وابن ضويان : من خوارم المروءة[1] .

(٦١) الكلامُ ممَّا يُعتَذَر منه :

صحَّ نهيُ النبي ﷺ عن هذه الخَصلة ، وعدَّه عمرو بن العاص من الخوارم .

(٦٢) اللَّعبُ بالأُرجوحة للكبار :

عدَّه ابن النجار في « منتهى الإرادات » (٦٦١/٢) من الخوارم ؛ قال : « واللاعبُ بكلِّ ما فيه دناءة حتى في أُرجوحة » .

قال ابن عقيل في « الفنون » : « الأُرجوحة والتعلُّق عليها والترجيح فيها مكروه ، نهى عنه السلف ، وقيل : إنها لعبة الشيطان ، فلا تُقبَل شهادة المُدمِن لها » .

(١) انظر المغني (٣٣/١٢) ، النكت والفوائد السنية لابن مفلح ٢٦٨/٢ ، ومنتهى الإرادات لابن النجار ٦٦٢/٢ ، منار السبيل لابن ضويان ٤٨٩/٢ .

وعند الخطابي في «معالم السنن» (١٢٥/٤) : مشروعية اتخاذ الأرجوحة للجواري الصغار .

(٦٣) اللَّعِبُ بالحَمَام :

رأى النبي ﷺ رجلًا يتبع حمامًا ، فقال : «شيطانٌ يتْبَع شيطانة»[1].

عدَّ اللعبَ بالحمامِ من خوارم المروءة : ابنُ الهمامُ وابن نجيم ، وابن قدامة ، والنووي ، والمجد ابن تيمية ، وابنُ النجار ، وأحمد الدردير .

قال ابن قدامة في المغني (٣٧/١٢) : « واللاعبُ بالحمام يُطيِّرها : لا شهادة له ، وهذا قول أصحاب الرأي ، وكان شريح لا يُجيز شهادة صاحب حَمَام ولا حمَّام ؛ وذلك لأنه سَفَه ودناءة وقلَّة مروءة » .

(٦٤) اللَّعب بالسيجة ، والطَّاب ، والنرْد ، والدمينو ، و (الكوتشينة) ، وغيرها .

(٦٥) اللِّعب بالشطرَنْج :

عدَّه النووي ، والشربيني ، والحطَّاب ، وأحمد الدردير ، والآبي؛من قوادح المروءة[2] .

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية في مواطن كثيرة من « مجموع الفتاوى » وابن القيم في « الفروسية » إلى تحريمه .

(٦٦) المتزيي بزيٍّ يُسخر منه :

ذكَرَه ابن النجار ، والبهوتي ، وابن ضويان من خوارم المروءة[3] .

---

(١) إسناده حسن : أخرجه أبو داود ، والبخاري في الأدب المفرد ، وأحمد في السنن ، وابن ماجه .

(٢) انظر : روضة الطالبين ٢٢٥/١١، ٢٣٠، ٢٣٣، ومغني المحتاج للشربيني ٤٣٢/٤ ومواهب الجليل للحطاب ١٥٣/٦، وجواهر الإكليل للآبي ٢٣٣/٢ .

(٣) منتهى الإرادات لابن النجار ٦٦١/٢، والروض المربع للبهوتي صـ ٤٨٤ ، ومنار السبيل لابن ضويان ٤٨٩/٢ .

ومَن أبشع وأشنع وأقبح ما يُلبس من لباس : « بابا نويل » ؛ فهو بالإضافة إلى أنه زِيٌّ يُسخر منه ، فهو لباس له علاقة بعقيدة النصارىٰ .

(٦٧) المجون :

قال الحطاب في « مواهب الجليل » (٦/١٥٢) : « الماجِن هو القليل المروءة الذي يُكثِرُ الدعابة والهزل في أكثر الأوقات » .

وفي « المبسوط » : «المجون نوعُ جنون» ، وعدّه من الخوارم : الشيرازي في « شرح اللمع » .

(٦٨) محاسبة الابن - أو مَن يعول - في النفقة في الحجِّ ونحوه ، والتقتير في باب الخير .

(٦٩) مخاطبة المرأة أو الجارية أو غيرهما بحضْرة الناس بالخطاب الفاحش :

عدّه ابن قدامة في «المغني» وابن النجار في «منتهى الإرادات» من خوارم المروءة .

(٧٠) المخاطرة بالنفْس كالملاكمة من حيث الاحتراف والممارسة .

(٧١) مخالطة تارك الصلاة ومرتكب باقي الكبائر :

يُعدُّ المخالِطُ مخرومَ المروءة ، ولا تُقْبل له شهادة إذا كان له قدرة على تغيير المنكر أو البعد عنه ، وإلَّا فلا .

(٧٢) المداومة على ترْك السُّنَن الراتبة ومستحبَّات الصلاة لتهاون مرتكبها بالدين ، وإشعاره بقلَّة مبالاته بالمهمات :

ومحلُّ هذا - كما قال الأذرعي - في الحاضر ، أما من يُديم السفر كالملَّاح والمُكَاري وبعضُ التجار، فلا . كذا في « مغني المحتاج » (٤/٤٣٣) ، ونحوه في « روضة الطالبين » (١١/٢٣٣-٢٣٤) .

(٧٣) مدُّ الرِّجْليْن في مَجمعِ الناسِ من غير حاجة وضرورة وعُذْر :

عدّه الطرطوشي ، وابن قدامة ، وابن الهمام ، والبهوتي ، وابن النجار ،

ومجد الدين ابن تيمية ، وابن عقيل ، وابن ضويان ، والنووي ، وابن نجيم ، من خوارم المروءة إذا كان بحضرة مَن يحتشمه .

(٧٤) المزاح معَ السفهاء واللِّئام :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عُمَّاله : امنعوا الناسَ من المزاح ؛ فإنه يُذهب المروءة ويُوغر الصدْر .

(٧٥) مشارَطة أجْر الحجَّام :

عدَّه محمد بن الحسن من الخوارم ، نقله عنه أبو الليث السمرقندي[1] .

(٧٦) المشي عُريانًا :

عدَّه ابن جُزَيّ في « القوانين الفقهية » من خوارم المروءة .

(٧٧) المشي في السوق بالسراويل وحده :

عدّه ابن الهمام في « فتح القدير » (٤١٤/٧) ، وابن نجيم في « الرسائل الزينية » من خوارم المروءة .

وقد عمَّت البلوىٰ في هذه الأيام بلُبْس البنطال .

(٧٨) مُصارعة الثيران وصِراع الديكة :

وفي « مغني المحتاج » (٣١٢/٤) ، و « مجموع الفتاوى » (٢٥٣/٣٢) تنصيصٌ على حرمة المناقرة بين الديوك ، والنطاح بين الكباش .

وذكر الدردير في « الشرح الصغير » (٢٨/٥) ؛ أنَّ مِن خوارم المروءة : اللَّعِبُ بتُيوس الغنم .

وذكر ابن مفلح في « النكت والفوائد » (٢٦٨/٢) ، أن مِن خوارم المروءة : « تحريشُ البهائم والجوارح » .

(١) انظر « بستان العارفين » لأبي الليث السمرقندي صـ ٣٠ .

(٧٩) مُصارَعة النساء .

(٨٠) المماكسة في البيْع والشراء :

عدَّه ابن خلدون في « مقدمته » من الخوارم ؛ قال : « خُلُق المماكسة بعيدة عن المروءة التي تتخلَّق بها الملوك والأشراف »[(١)] .

« كان الحسن البصري رحمه الله إذا اشترىٰ السلْعَة بدرهم يَنقُصُ دانقًا كمَّله درهمًا ، أو بتسعة ونصف كمَّلها عشرة ، مروءةً وكرمًا » . قال : « وقال عبد الأعلىٰ السمسار : قال الحسن : يا عبدَ الأعلى ، أمَا يبيع أحدكم الثوب لأخيه فينْقُص درهميْن أو ثلاثة ؟ قلت : لا والله ، ولا دانق واحد . فقال الحسن : إن هذه الأخلاق ، فما بقي من المروءة إذن ؟ قال : وكان الحسن يقول : لا دين إلَّا بمروءة »[(٢)] .

(٨١) منع العارية والماعون ، ومنْع إعارة المتاع من غير ضرورة :

نقله الشوكاني عن « الكشاف » (٤ / ٢٣٧) ، قال في إعارة المتاع والعارية : « تكون واجبة عند الاضطرار ، وقبيح في غير الضرورة؛ مروءة».

(٨٢) مَن يصفع غيرَه أو مَن يمكِّنه من قَفاه فيصفَعه :

عدّه البهوتي والعنقري من الخوارم[(٣)] . قال البهوتي : «لا شهادة لمصافع»[(٤)] .

وقال ابن النجار : « لا تُقبل شهادة لمصافع »[(٥)] .

(٨٣) المنازَعَة على قارعة الطريق :

عدَّه الأصمعي من الأعمال الدنيئة .

(١) مقدمة ابن خلدون صـ ٣٩٥ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٩ / ٢٨١ .
(٣) حاشية الروض المربع للعنقري ٣ / ٤٢٤ .
(٤) الروض المربع للبهوتي صـ ٤٨٤ .
(٥) منتهى الإرادات لابن النجار ٢ / ٦٦١ .

(٨٤) المُناهدة[١] مع الابن في السَّفَر :

عدَّه الموصلي في « الاختيار » (١٤٨/٢) من خوارم المروءة .

(٨٥) نتْفُ اللّحية عَبَثًا ، ونتْفُ الإبط والأنف عند الناس :

نقل ابن نُجيم عن صاحب « العباب » أنه من خوارم المروءة .

وعدَّه باعلوي في « بغية المسترشدين » من الخوارم ، فقال : « ونتْف إبطٍ وأنف ، وتكرُّر نتْف لحيةٍ عَبَثًا وغيرها »[٢] .

وقال السخاوي في الخوارم : « وما قبح من الفعل الذي يلهو به ويُستقبح بمعرَّته ؛ كنتف اللحية »[٣] .

(٨٦) نظَرُ الرجل في بيت الحائك .

(٨٧) النظر في مرآة الحجَّام :

عدَّ هذه الخصلة من الخوارم ابنُ سيرين .

قال محمد بن الحسن الشيباني : « ثلاثة أشياء من الدناءة : مشارطة أجر الحجَّام ، والنظر في مرآة الحجَّامين ، واستقراض الخبز موازَنة »[٤] .

(٨٨) النفْخُ في الطعام والشراب :

أفاد القاضي عياض في « الشفا » أنه من خوارم المروءة[٥] .

(٨٩) النومُ بيْنَ جالسَيْن :

عدّه ابن النجار والبهوتي من خوارم المروءة[٦] .

---

(١) المناهدة والتناهُد : إخراجُ كلِّ واحد من الرِّفقة نفقةً على قدر نفقةِ صاحبه ، كما في اللسان ٣ / ٤٣٠ .

(٢) بغية المسترشدين لباعلوي صـ ٢٨٢ .

(٣) فتح المغيث ١ / ٢٩١ .

(٤) بستان العارفين لأبي الليث السمرقندي صـ ٣٠ .

(٥) الشفاء للقاضي عياض ٢٧٧/١ – ط : الفارابي .

(٦) منتهى الإرادات (٦٦٢/٢) لابن النجار ، والروض المربع للبهوتي صـ ٤٨٤ .

(٩٠) النومُ بعدَ الفجْر :

سُئل مسعر بن كدام عن المروءة، فقال: التفقُّه في الدين ، ولُزوم المسجد إلى أن تطلع الشمس .

(٩١) المشْيُ أمام الناس مكشوفَ الرأس :

اعتبره غير واحد من الفقهاء من خوارم المروءة ، ويتحصل من مجموع كلامهم أنَّ هذا الفعل يُسقِط المروءة بالشروط التالية :

١ - أن يكون الشخص غير مُحرم بنُسك : حجّ أو عُمرة .

٢ - أن يكون أمام الناس[١] .

٣ - أن يكون بلا عذر من مرض أو عمل يقتضي ذلك .

٤ - أن يكون ممن لا يليق بمثله ، وهذا يختلف بالنسبة للأعمار ومكانة الشخص الاجتماعية[٢] .

٥ - أن يكون في موضعٍ يُعدُّ فعلُه خِفَّة وسوء أدبٍ وقلَّة حياء[٣] .

٦ - أن يكون الفاعل رجلًا .

قال الشيخ حسنين محمد مخلوف : « لم ينقل إلينا ولا عُرِف عنه ﷺ أنه جلس بين أصحابه ، أو مشى في الطريق ، أو خطب ، أو استقبل الوُفود ، أو غزا ؛ وهو حاسرُ الرأس دون عمامة أو قَلَنْسُوة ، ومَنِ ادعى شيئًا من ذلك فعليه البرهان »[٤] .

قال أبو بكر بن العربي : إن العمائم سُنَّة المرسَلِين .

---

(١) فتح المغيث ٢٩١/١ ، النكت والفوائد السنية ٤٦٨/٢ .

(٢) معالم القربة صـ ٢١٥، وبغية الرائد للقاضي عياض صـ ٤١، وروضة الطالبين ٢٣٢/١١، والرسائل الزينية لابن نجيم صـ ٢٥٧ .

(٣) فتح القدير ٤١٤/٧ ، والرسائل الزينية ٢٥٦ .

(٤) الأدلة الشرعية في مسائل فقهية للشيخ حسنين محمد مخلوف ، صـ٣٤ وما بعدها .

قال الشيخ مشهور حسن آل سلمان : « هديُ السلف الصالح : الحرصُ على غطاء الرأس ، ولم يثبتْ عن واحد منهم أنه كان يسيرُ حاسرًا . وخير الهدي هدي محمد ﷺ ؛ فقد لبس العمامة والقلنسوة، فهذا هديه فاحرص عليه »[(١)] .

« ولبس العمامة عادة عربية قديمة ، وسنة نبوية قويمة .. وتقليد إسلامي متوارَث ، وعنوان على المروءة والشرف ، فإذا كان مطلوبًا من المسلم أن يحافظ على هذه العادة والسنة في عامَّة الأحوال ، لا جرم يكون المحافظة عليها في الصلاة آكد وألزم ؛ لتأكُّد الأدب فيها مع الله تعالى أكثر من غيرها . ولا شكَّ أن النبي ﷺ لا يختار لنفسه من الأحوال والأفعال والصفات والهيئات إلَّا أشرفها وأفضلها وأعزها وأكرمها . وبعد أن عُرف عنه لُبسها في سلْمه وحربه ، وفي مجلسه وعلى منبره أن يدعها في صلاته ، ولو جازت الصلاة بدونها ؛ لأن الجواز مرتبة ، والكمال والتأدُّب مرتبة أعلى وأعظم،وللرسول أرفع المراتب وأجلها » .

فينبغي أن يُعلم أنَّ مناطَ الأفضلية تغطيةُ الرأس بأي غطاء متعارَفٍ ، لما في كشْفها من سوء الأدب ، وإن كانت الصلاة جائزة ، سواءً أكانت الرأس مغطَّاة أم مكشوفة ؛ فمَن صلَّى مغطَّى الرأس فقد فعَل الأكمل ، ومن صلَّى عاري الرأس ؛ جازت صلاته ولكن مع القصور عن مزية الكمال . والله أعلم .

لطيفة :

ذكَر ابن عبد البر في «التمهيد» في غسْل النبي ﷺ عند موته، قال: «ورُوي من وجه آخر أنَّ العباس كان بالباب لم يحضر الغسل ، يقول : لم يمنعْني أن أحضره إلَّا أني كنتُ أراه ﷺ يستحيي أن يراني أراه حاسرًا .

---

(١) المروءة وخوارمها للشيخ مشهور بن حسن آل سلمان صـ ١٧٠ – طبع : دار ابن عفان .

وصلوات الله وسلامه عليه ، ورضي الله عن جميع صحابته وأزواجه وسلم تسليمًا »[١] .

اكتمال وُجوه المروءة في الأنبياء عليهم السلام :

إن «للمروءة وُجوهًا وآدابًا لا يحصرها عدد ولا حساب ، وقلَّما اجتمعت شروطها قطُّ في إنسان ، ولا اكتملت وجوهُها في بَشَر ، فإنْ كان ؛ ففي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم دون سائرهم ، وأما الناس فيها ؛ فعلى مراتب بقدر ما أحرز كلُّ واحد منهم من خصالها ، واحتوى عليها من خلالها »[٢] .

قال القاضي عياض عن رسول الله ﷺ : « ومن مروءته ﷺ : نهيُه عن النفْخ في الطعام والشراب ، والأمر بالأكْل مما يلي ، والأمر بالسواك ... واستعمال خصال الفطرة »[٣] .

بل كان ﷺ هو المروءة .. كما كان خلقه القرآن ...

والأنبياء عليهم السلام لا يفعلون شيئًا يتضمَّن نقْصَ المروءة .

ممَّا يُعين على المروءة : الزوجة الصالحة ، ومجالسة أهل المروءات :

قال مسلمة بن عبد الملك : « ما أعان على مروءة المرء كالمرأة الصالحة ،

قال الشاعر :

إذا لم يكَنْ في منزلِ المرءِ حُرَّةٌ مدبِّرةٌ ضاعتْ مروءةُ دارهِ

وقال آخر : « مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلب صدأ الذنوب ، ومجالسة ذوي المروءات تدلُّ على مكارم الأخلاق ، ومجالسة العلماء تُذكي القلوب»[٤].

---

(١) انتهى التلخيص لخصال خوارم المروءة من الكتاب القيم : « المروءة وخوارمها » من صـ ٨٣ - ١٨٢ .

(٢) عين الأدب والسياسة صـ ١٣٢ .

(٣) الشفا ١ / ٢٧٧ .

(٤) روضة العقلاء صـ ٢٣٤ .

ومكارم الأخلاق لا توجد إلا في ذوي المروءات ، ولذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «كرم المؤمن تقواه ، ودينه حَسَبه ، ومروءته خلقه» .

وقال ابن عبد البر : «لا تكاد ترى حَسَن الخلق إلا ذا مروءة وصبر»(١) .

وقال معاوية بن أبي سفيان : « آفة المروءة إخوان السوء » .

أَمْحِضْ مودتك الكَريمَ فإنَّما يرىٰ ذوي الأحساب كُلَّ كريمِ
وإخاءُ أشرافِ الرجالِ مروءة والموت خيرٌ مِنْ إخاءِ لئيمِ

درجات المروءة :

قال ابن القيم : « وهي على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : مروءة المرءِ معَ نفْسِه :

وهي أن يحملها قَسْرًا على ما يُجَمّل ويزيِّن ، وترْك ما يدنِّس ويَشين ، ليصير لها ملَكَة في العلانية . فمَن أَراد شيئًا في سرِّه وخلْوته : ملكه في جهره وعلانيته ، فلا يكشف عوْرتَه في الخلوة ، ولا يتجشَّأ بصوتٍ مزعج ما وجَد إلى خلافه سبيلًا ، ولا يُخرِج الريحَ بصوتٍ وهو يقدِر على خلافه ، ولا يَجْشَعْ وَيَنْهَم عند أكْله وحده .

وبالجملة : فلا يفعلْ خاليًا ما يستحي مِن فعْله في الملأ، إلَّا ما لا يحظُره الشرع والعقل ، ولا يكون إلَّا في الخلوة ؛ كالجماع والتخلي ونحو ذلك .

الدرجة الثانية : المروءة مع الخلْق :

بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء ، والخُلق الجميل ، ولا يُظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه ، ولْيتَّخذِ الناسَ مرآة لنفسه . فكل ما كرهه ونفر عنه ؛ من قول أو فعل أو خُلق ، فليجتنبْه . وما أحبَّه من ذلك واستحسنه فليفعلْه .

---

(١) الاستذكار لابن عبد البر ١٤ / ٢٥٣ .

وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكلِّ من خالطه وصاحبه من كامل وناقص ، سيئ الخلُق وحَسَنِه ، وعديم المروءة وغزيرها .

وكثير من الناس : يتعلَّم المروءة ، ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها ، كما رُوي عن بعض الأكابر : أنه كان له مملوك سيئ الخلُق ، فَظٌّ غليظ ، لا يُناسبه ، فسئل عن ذلك ؟ فقال : أدرس عليه مكارم الأخلاق .

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضدِّ أخلاقه ، ويكون بتمرين النفْس على مصاحبته ومعاشرته ، والصبر عليه .

الدرجة الثالثة : المروءة مع الحقِّ سبحانه :

بالاستحياء مِن نظره إليك ، واطلاعه عليك في كل لحظة ونَفَس ، وإصلاح عيوب نفْسك جهدَ الإمكان ؛ فإنه قد اشتراها منك ، وأنت ساعٍ في تسليم المبيع ، وتقاضي الثمن ، وليس من المروءة : تسليمه على ما فيه من العيوب ، وتقاضي الثمن كاملًا ، أو رؤية مِنَّتِهِ في هذا الإصلاح ، وأنه هو المتولي له لا أنت ، فيُغنيك الحياء منه عن رسوم الطبيعة ، والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلى عيب غيرك ، وشهودُ الحقيقة عن رؤية فعْلك وصلاحك .

وكل ما تقدَّم في منزلة «الخلق» و «الفُتوَّة»، فإنه بعيْنه في هذه المسألة»[١] .

جَنَّة المروءات في أفعال العباد والسَّادَات :

الأحنف بن قيس :

قال ابن المبارك : قِيل للأحنف : بِمَ سُوِّدْتَ ؟ قال : لو عاب الناس الماء لم أشربْه[٢] .

قال الأحنف : مَن أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه ما لا يعلمون .

وعنه سئل : ما المروءة ؟ قال : كتمان السرِّ ، والبعد عن الشرِّ .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ .

وعنه : الكامل مَن عُدَّت سقطاته[١] .

وقيل : كان الأحنف إذا أتاه رجل ، وسَّع له ، فإن لم يكن له سَعة ، أراه كأنه يوسّع له[٢] .

وعنه - أي الأحنف - قال : جنبُّوا مجالسنا ذكْر النساء والطعام ، إني أُبغِض الرجل يكون وصَّافًا لفرجه وبطنه[٣] .

مُورّق العجلي :

عن جميل بن مرّة قال : كان مورق رحمه الله يجيئنا فيقول : أمسكوا لنا هذه الصرَّة ، فإن احتجتم فأنفقوها . فيكون آخرَ عهده بها[٤] .

عمر بن عبد العزيز :

عن عبد العزيز بن عمر قال : قال لي رجاء بن حَيْوة : ما أكملَ مروءة أبيك !! سَمَرتُ عنده ، فعشا السراجُ ، وإلى جانبه وصيفٌ نائمٌ . قلتُ : ألا أنبهه ؟ قال : لا ، دعْه . قلت : أنا أقوم . قال : لا ، ليس من مروءة الرجل استخدامُه ضيفه . فقام إلى بطةِ الزيت وأصلح السراج ، ثم رجع وقال : قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعتُ وأنا عمر بن عبد العزيز[٥] .

الخليل بن أحمد الفراهيدي :

قال أيُّوب بن المتوكِّل : كان الخليل إذا أفاد إنسانًا شيئًا لم يُرِه بأنه أفاده ، وإنِ استفاد مِن أحد شيئًا ، أراه بأنه استفاد منه[٦] .

عبد الله بن المبارك :

عن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق : سمعت أبي قال : كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو ، فيقولون : نصحبك .

(١،٢،٣) سير أعلام النبلاء ٤ / ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ .
(٤) السير ٤ / ٣٥٤ .
(٥) السير ٥ / ١٣٦ .
(٦) السير ٧ / ٤٣١ .

فيقول : هاتوا نفقاتكم . فيأخذ نفقاتِهم فيجعلها في صندوق ويقفل عليها ، ثم يكتري لهم، ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم ويُطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلوى ، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زِيٍّ وأكمل مروءة ، حتى يصِلُوا إلى مدينة الرسول ﷺ ، فيقول لكل واحد : ما أمَرَك عيالُك أن تشتري لهم من المدينة من طُرَفها ؟ فيقول : كذا وكذا . فيشتري لهم ، ثم يُخرجهم إلى مكة ، فإذا قضوا حجَّهم قال لكل واحد منهم : ما أمرك عيالُك أن تشتري لهم من متاعِ مكة ؟ فيقول : كذا وكذا . فيشتري لهم ، ثم يخرجهم من مكة ، فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو ، فيجصِّص بُيوتهم وأبوابهم ، فإذا كان بعد ثلاثة أيام ، عمل لهم وليمة وكساهم فإذا أكلوا وسُرُّوا ، دعا بالصندوق ، ففتحه ودفع إلى كلِّ رجلٍ منهم صُرَّته عليها اسمُه[1] .

الشافعي :

قال الربيع : كان الشافعي مـارًّا بالحذائين فسقط سوطهُ ، فوثب غـلام ومسحه بكمِّه وناوله ، فأعطاه سبعة دنانير[2] .

أحمد بن مهدي ؛ ومروءته التي لا تصوِّرها في علوِّها كُلُّ الكلمات :

قال أحمد بن مهدي : جاءتني امرأة ببغداد ليلةً ، فذكرتْ أنها من بنات الناس وأنها امتُحِنت بمحنة . وأسألك بالله أن تسترني ؛ فقد أُكرهت على نفسي وأنا حُبْلَى ، وقلت أنك زوجي فلا تفضحني ، فنكَّبتُ عنها ومضيتُ ، فلم أشعر حتى جاء إمام المحلَّةِ والجيران يهنّئوني بالولد الميمون ، فأظهرتُ التهليل ، ووزنتُ في اليوم الثاني للإمام دينارين ، وقلت : أعطِها نفقة ؛ فقد فارقتُها .

(١) السير ٨ / ٣٨٥ - ٣٨٦ .
(٢) تاريخ ابن عساكر ٢/١٣/١٥ ، والسير ١٠ / ٣٧ .

وكنت أعطيها في كلِّ شهر دينارين ، حتى أتى على ذلك سنتان ، فمات الطفل ، وجاءني الناس يعزُّونني ، فكنت أُظهر لهم التسليم والرضا،فجاءتْني بعد أيام بالدنانير ، فردَّتْها ودعت لي ، فقلتُ : هذا الذهب كان صلةً للولد ، وقد ورثتيه ، وهو لك(١) .

محمد بن جرير الطبري :

كان ربَّما أُهدىٰ إليه بعضُ أصدقائه الشيء فيقبله ويكافئه أضعافًا ، لِعِظمِ مروءته(٢) .

عن يحيىٰ بن منده ؛ قال : سمعتُ أبي يقول : أفطرنا في رمضان ليلةً شديدة الحرِّ فكنَّا نأكل ونشرب ، وكان أخي عبد الرحمن يأكل ولا يشرب ، فخرجتُ وقلتُ : إن من عادة أخي أنه يأكل ليلة ولا يشرب ، ويشرب ليلة أخرى ولا يأكل . قال : فما شرب تلك الليلة ، والليلة الآتية كان يشرب ولا يأكل ألبتة ، فلمَّا كان في الليلة الثالثة قال : يا أخي لا تلعب بعد هذا ؛ فإني ما اشتهيتُ أن أكذبك(٣) .

وأخيرًا :

إذا كانت المروءة تقتضي الإعراض عن كثير من اللذات ، فإن في المروءة نفسها لذَّة تفوق كلَّ نعيم الحياة . إن المروءة غاية سامية ، وراحة ولذَّة تُنسي المرء وتعوضه عن كلِّ مشقَّة ، ولا يبقى معها للتعب بقيَّة ؛ قال المتنبي :

تَلَذُّ له المروءةُ وهي تُؤْذِي ... ومَن يعشقْ يَلَذُّ لهُ الغرامُ

ولذَّة المروءة في شعور النفس ببلوغها كمال الرجوليَّة أو قربه منها ، ولا ينهض بها إلَّا ذو صبر كريم ؛ قال أبو عبد الله الكاتب : « الصبر على حقوق

(١) السير ١٢ / ٥٩٨ ، والوافي بالوفيات ٨ / ١٩٩ .
(٢) السير ١٤ / ٢٧٢ .
(٣) السير ١٨ / ٣٥٣ .

المروءة أشدُّ من الصبر على ألم الحاجة » .

ولله درُّ مَن قال : « ذو المروءة يُكْرَم وإن كان معدِمًا ؛ كالأسد يُهاب وإن كان رابضًا ، ومن لا مروءة له ، يُهان وإن كان موسِرًا ؛ كالكلب يُهان وإن طُوِّق وحُلِّي بالذهب » .

* * *

الفصل الرابع عشر

عُلُوُّ الهِمَّـة

في

الصَّمْتِ وحِفْظِ اللِّسَـان

« عليكَ بحسْن الخُلُق وطولِ الصمتِ ، فوالذي نفسي بيده ، ما تجمَّل الخلائق بمثلهما » .

□ عُلوُّ الهِمَّة في الصَّمْت وحِفْظ اللِّسَان □

اعلمْ - رحمنا الله وإيَّاك - « أنَّ اللسان من نِعَم الله العظيمة ولطائف صنْعه الغريبة ؛ فإنه صغيرٌ جِرْمُه ، عظيمٌ طاعتُهُ وجُرْمُه ؛ إذْ لا يستَبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللِّسان ، وهما غاية الطاعة والعصيان ، ثم إنه ما من موجود أو معدوم ، خالق أو مخلوق ، متخيَّل أو معلوم ، مظنون أو موهوم ، إلَّا واللسان يتناوله ويتعرَّض له بإثبات أو نفي ، فإن كلَّ ما يتناوله العِلْم يُعْرِب عنه اللسان ، إمَّا بحق أو باطل ، ولا شيء إلَّا والعلم متناوِل له ، وهذه خاصيَّة لا توجد في سائر الأعضاء ؛ فإن العيْن لا تصل إلى غير الألوان والصُّوَر ، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات ، واليد لا تصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء .

واللسان رحْبُ المَيْدان ، ليس له مَرَدٌّ ، ولا لمجاله منتهى وحدّ ، له في الخير مجال رحْب ، وله في الشرِّ ذيْل سحب ، فمَن أطلق عَذْبة اللسان ، وأهمله مرخيَّ العَنان ، سلك به الشيطان في كلِّ ميْدان ، وساقه إلى شفا جُرُفٍ هارٍ ، إلى أن يَضطره إلى البوار ، ولا يكبُّ الناسَ في النار على مناخِرهم إلا حصائد ألسنتهم ، ولا ينجو من شرِّ اللسان إلَّا مَن قيَّده بلجام الشرع ، فلا يُطلقُه إلَّا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ، ويكفُّه عن كلِّ ما يخشى غائِلَتَه في عاجله وآجله . وعِلْم ما يُحمَدُ فيه إطلاق اللسان أو يُذَمُّ : غامِض عزيز ، والعمل بمقتضاه على مَن عرفه ثقيل عسير . وأعصى الأعضاء على الإنسانِ اللِّسانُ ، وقد تساهل الخلْق في الاحتراز عن آفاته وغوائله ، والحذَرِ من مصائده وحبائله ، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان »(١) .

قال الله تعالى : ﴿ **قد أفلحَ المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللَّغو معرضون** ﴾ [المؤمنون : ١ - ٣] .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣ / ١١٨ .

وقال تعالى : ﴿ وإذا مرُّوا باللَّغو مرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] .

مِلاكُ الخَيْر: كفُّ اللسان:

عن معاذ رضي الله عنه قال: كنتُ مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحتُ يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلتُ: يا رسول الله، أخبرني بعملٍ يُدخلُني الجنة ويُباعدني من النار؟ قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه لَيسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه؛ تعبدُ الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت». ثم قال: «ألا أدلُّك على أبواب الخير؟ الصومُ جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل». قال: ثم تلا: ﴿**تتجافى جُنوبهم عن المضاجع**﴾ حتى بلغ ﴿**يعملون**﴾ ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟» قلتُ: بلى يا رسول الله. قال: «رأس الأمر الإسلام، وعمودُه الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». ثم قال: «ألَا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلتُ: بلىٰ يا نبيَّ الله. فأخذ بلسانه وقال: «كفَّ عليك هذا». فقلتُ: يا نبيَّ الله، وإنَّا لَمُؤَاخذون بما نتكلَّم به؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّك[١] يا معاذ؛ وهل يكبُّ الناس في النارِ على وجوههم- أو على مناخرهم- إلَّا حصائدُ ألسنتهم»[٢].

أطايبُ الكلام تُورث سكنَى أعالي الجنان ، وهي من رضوان الله تعالى :

عن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة غُرَفًا يُرىٰ ظاهرُها من باطنها ، وباطنُها من ظاهِرها ، أعدَّها الله تعالى لمن أطعم الطعام ، وألَانَ الكلام ، وتابَع

(١) فقدتْكَ ، وفي « النهاية » : « ويجوز أن يكون مِن الألفاظ التي تجري على ألسنة العرب ، ولا يُراد بها الدعاء ، كقولهم : تَرِبَتْ يداك ، وقاتَلَكَ الله » .
هذا وإن كان دعاءً ؛ فهو طهور وزكاة ، وقربة له من الله تعالى يوم القيامة ؛ كما في حديث مسلم : « فأيّما أحد دعوتُ عليه من أمتي بدعوة ليسَ لها بأَهْل ؛ أن يجعلها له طهورًا وزكاة وقربة يقرِّبه بها منه يوم القيامة » .

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وصحَّحه الألباني في إرواء الغليل برقم (٤١٣)، وصحيح سنن الترمذي برقم (٢١١٠)، وصحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٢٠٩).

الصيام ، وصلَّى بالليل والناسُ نِيام »[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَطِبِ الكلام ، وأَفْشِ السلامَ ، وصِلِ الأرحام ، وصلِّ بالليل والناس نيام ، ثم ادخلِ الجَنَّة بسلام »[٢] .

وقال ﷺ : « إن الرجل لَيتكلَّم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت ، يكتُبُ الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة من سُخط الله ، ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها سُخطه إلى يوم يلقاه »[٣] .

وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلتُ : يا رسول الله ، حدِّثني بأمرٍ أعتصمُ به قال : « قلْ : ربيَ الله . ثم استَقِمْ » . قلت : يا رسول الله ، ما أخوفُ ما تخاف عليّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : « هذا »[٤] .

ومِن عُلوِّ الهِمَّة طُول الصَّمْتِ إلَّا عن خيْر :

قال رسول الله ﷺ : «عليك بُحسْن الخُلُق ، وطول الصمْت ، فوالذي نفسي بيده ، ما تجمَّل الخلائق بمِثْلِهما »[٥] .

---

(١) حسن : رواه أحمد ، وابن حبان ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي مالك الأشعري ، والترمذي عن علي ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١١٩ .

(٢) صحيح : رواه ابن حبان ، وأبو نعيم في الحلية ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٣٠ ، والصحيحة رقم ٥٦٩ ، ١٤٦٦ .

(٣) صحيح : أخرجه مالك ، والترمذي ، وابن ماجه ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة برقم ٨٨٨ .

(٤) صحيح : رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

(٥) حسن : أخرجه أبو يعلى عن أنس ، وابن أبي الدنيا ، والبزار ، والطبراني في الأوسط ، والبيهقي في شعب الإيمان أيضًا عن أنس ، وأبو الشيخ عن أبي ذرٍّ وأبي الدرداء ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٩٢٧ .

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قلتُ : يا رسول الله ، أيُّ المسلمين أفضل ؟ قال : « مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده». متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلِم مَن سَلمَ المسلمون من لسانه ويده » . رواه البخاري ومسلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألتُ رسول الله ﷺ ، فقلتُ : يا رسول الله ، أيُّ الأعمال أفضل ؟ قال : « الصلاة على ميقاتها » . قلت : ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : « أن يسلم المسلمون مِن لسانك »(١) .

وعن البَرَاء بن عازب رضي الله عنه قال : جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، علِّمني عملًا يُدخلني الجنَّة . قال : « إنْ كنتَ أقصرتَ الخُطبة لقد أعرضتَ المسألة ؛ أَعْتِق النسمة ، وفُكَّ الرقبة ، فإن لم تُطِقْ ذلك ، فأطعمِ الجائع ، واسقِ الظمآن ، وأْمُرْ بالمعروف ، وإنْه عن المنكر ، فإن لم تُطِقْ ذلك ، فكُفَّ لسانك إلَّا عن خير »(٢) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قلتُ : يا رسول الله ، ما النجاة ؟ قال : « أمسِكْ عليكَ لسانَك ، وَلْيَسَعْكَ بيتُك ، وابْكِ على خطيئتك »(٣) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبُه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جارُهُ بوائقَه »(٤) .

وعن معاذ بن جبَل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنك

---

(١) إسناده صحيح : رواه الطبراني ، وصدْرُه في الصحيحين ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

(٢) صحيح : رواه أحمد وغيره ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد والترمذي ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة ، رقم (٨٩٠) .

(٤) صحيح : رواه أحمد وغيره ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

لن تزال سالمًا ما سكتَّ ، فإذا تكلَّمتَ كُتِبَ لك أو عليك »[١] .

وعن معاذٍ رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، أوصِني . قال : « اعبدِ الله كأنَّك تراه ، واعددْ نفسَك في الموتى ، وإنْ شئْتَ ، أنْبأْتُكَ بما هو أمْلَك بك من هذا كله » . قال : « هذا » . وأشار بيده إلى لسانه[٢] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أصبح ابنُ آدم فإن الأعضاء كلها تُكفِّر اللسانَ ؛ فتقول : اتَّقِ الله فينا ، فإنما نحن بك ، فإنِ استقمتَ استقمْنا ، وإن اعوجَجْتَ اعوجَجْنا »[٣] .

وأخرج البخاري عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن يضمنُ لي ما بين لَحْيَيْه[٤] وما بين رِجليه ، أضمنُ له الجنة ؟ » .

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « ليس شيء من الجسد إلَّا يشكو ذَرَبَ اللسانِ[٥] على حِدَّته »[٦] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « مَن صمَتَ نجا »[٧] .

---

(١) صحيح : صحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيِّد ، كما قال المنذري .
(٣) صحيح : أخرجه الترمذي ، ورواه الترمذي موقوفًا على عمَّار بن زيد ، وقال : هذا أصحُّ . وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب .
(٤) هو اللسان . واللَّحيان : العظمَان اللذانِ يَنْبُت عليهما الأسنان ، وما بين رجلَيْه : أي الفرْج .
(٥) ذَرَبُ اللسان : حِدّته ، يُقال:ذرَب لسانُ الرجل يذرَب إذا فسد ، وقيل : الذَّرِبُ اللسان : هو الحادُّ اللسان .
(٦) وفي رواية : «ليس شيء من الجسد إلّا يشكو إلى الله اللّسانَ على حِدّته». رواه أبو يعلىٰ في مسنده ، وابن السني في عمل اليوم والليلة ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٥٣٥.
(٧) صحيح : رواه أحمد والترمذي ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٥٣٥ ، وصحيح الجامع رقم ٦٢٤٣ .

وصح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « والذي لا إله غيره ؛ ما على ظهْر الأرض من شيء أحوج إلى طول سجنٍ من لسان » .

وعن أسلم ؛ أن عمر رضي الله عنه دخل يومًا على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يجبذُ لسانه ، فقال عمر : مَه ، غفر الله لك . فقال له أبو بكر : إن هذا أوْرَدَني بِشرٍّ الموارد .

أقسَامُ الكَلام :

« ويدلُّك على فضْل الصَّمْت أمْرٌ ، وهو أن الكلام أربعة أقسام :

١ - قسم هو ضَرَرٌ محْض . ٢ - وقسم هو نفع محْض .

٣ - وقسم هو ضَرَرٌ ومنفعة . ٤ - وقسم ليس فيه ضررٌ ولا منفعة .

أمَّا الذي هو ضرر محْض فلا بدَّ من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر .

وأمَّا ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فُضُول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عيْن الخسران ، فلا يبقى إلا القسم الرابع ؛ فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي رُبع ، وهذا الربع فيه خطَرٌ ؛ إذ يمتزجُ بما فيه إثمٌ ؛ من دقيق الرياء والتصنُّع والغيبة وتزْكِيَة النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجًا يخفى دركُه ، فيكون الإنسان به مخاطِرًا .

ومَن عرَف دقائق آفاتِ اللسان ، عَلِمَ قطْعًا أن ما ذكره ﷺ هو فصلُ الخطاب ؛ حيث قال: «مَن صمَت نجا». فلقد أُوتي - والله - جواهرَ الحِكَم، وجوامِعَ الكَلِم، ولا يعرِفُ ما تحت آحاد كلماتِه من بحار المعاني إلا خواصُّ العلماء »[(١)].

الصمتُ يُتعَلّم : وهاكَ أمثلةً من حياة الطيّبين :

مورّق العجْلي :

قال رحمه الله : تعلَّمتُ الصمتَ في عشر سنين ، وما قلتُ شيئًا قطُّ

(١) الإحياء ٣/١٢١ .

إذا غضبتُ ، أندمُ عليه إذا زال غضبي[(١)] .

« قيل : أقام المنصور بن المعتزِّ لَمْ يتكلَّم بكلمةٍ بعد العشاء الآخرة ، أربعين سنة »[(٢)] .

إبراهيمُ بن أدهم :

قال أبو إسحاق الفزاري : كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يُطيل السكوت ، فإذا تكلَّم ربَّما انبسط . قال : فأطال ذات يومٍ السكوت ، فقلتُ : لو تكلَّمتَ ؟ فقال : الكلام على أربعة وُجوه : فمِن الكلام كلامٌ ترجو منفعته ، وتخشىٰ عاقبته ، والفضل في هذا : السلامة منه . ومن الكلام كلامٌ لا ترجو منفعته ولا تخشىٰ عاقبته، فأَقلُّ ما لك في تَرْكه خِفَّة المُؤْنَة على بدنك ولسانك. ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته وتأمن عاقبته ، فهذا قد كفِيَ العاقلُ مُؤْنته . ومن الكلام كلام ترجو منفعته وتأمن عاقبته ، فهذا الذي يجب عليك نشرهُ . قال خلف بن تميم : فقلتُ لأبي إسحاق : أرَاهُ قد أُسقط ثلاثة أرباع الكلام ؟ قال : نعم[(٣)] .

عن أمِّ حبيبة زوج النبي ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ :« كل كلام ابن آدم عليه لا له ، إلَّا أمرٌ بمعروف ، أو نهيٌ عن منكر ، أو ذكْر الله »[(٤)].

وقال محمد بن النضر الحارثي: كان يُقال: كثرة الكلام تذهب بالوقار.

وعن بكر بن ماعز ، عن الربيع بن خُثيم رحمه الله قال : يا بكر بن ماعز ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٥٣/٤ - ٣٥٥ .

(٢) الإحياء ١٢١/٣ .

(٣) الصمت وحفْظُ اللسان لابن أبي الدنيا- تحقيق : د . محمد أحمد عاشور ، ص٥٠- دار الاعتصام .

(٤) صحيح : رواه الترمذي وابن ماجه وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ، وصحيح الترمذي ، وصحيح ابن ماجه .

اخزنْ عليك لسانك ، إلّا مما لك ولا عليك .

الربيعُ بن خُثيْم : لا يتكلَّم بكلامِ الدنيا عشرين سنة :

قال إبراهيم التيْمي : أَخْبَرَني مَن صحِبَ الربيع بن خُثيم عشرين سنة ، فلم يتكلَّم بكلام لا يصعد(١) .

وعن أبي حيَّان التيمي ، عن أبيه قال : ما سمعتُ الربيع بن خثيم يذكر شيئًا مِن أمر الدنيا قطُّ .

قال الغزالي : « قيل : ما تكلَّم الربيع بن خُثيم بكلامِ الدنيا عشرينَ سنة ، وكان إذا أصبح وضَع دواة وقِرطاسًا وقلمًا ، فكلُّ ما تكلَّم به كتَبَه ، ثم يحاسب نفسه عند المساء »(٢) .

إبراهيم التيمي : لا يَخوض في شيء من أمْر الدنيا :

قال العوَّام بن حوشب : ما رأيتُ إبراهيم التيمي رافعًا رأسه إلى السماء في الصلاة ولا في غيرها ، ولا سمعتُه قطُّ يخوض في شيء من أمر الدنيا(٣) .

« وعن أبي عبيدٍ قال : ما رأيتُ رجلًا قطُّ أشدَّ تحفُّظًا في مَنْطقهِ من عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه .

وقال رجل من « تيْم الله » ، وكان قد جالَس الشعبي وإبراهيم ، قال : ما رأيتُ أحدًا أمْلَكَ للسانه من طلحة بن مُصرِّف .

وقال ميمون بن سياه : ما تكلَّمتُ بكلمة منذ عشرين سنة ، لم أتدبرها قبل أن أتكلَّم بها ، إلَّا ندمتُ عليها ، إلّا ما كان من ذكْر الله .

---

(١) الصمت لابن أبي الدنيا ص٥٠ .

(٢) الإحياء ٣/١٢١ .

(٣) الصمت وحفظ اللسان ص٢١٩ .

وقال كعب : قلَّة المنطق حُكم عظيم ، فعليكم بالصمتِ ؛ فإنه رعةٌ حَسَنة ، وقلَّة وزر ، وخِفَّة من الذنوب »[١] .

عبد الملك بن أبجر :

قال عنه الثوري : هو من الأبرار . وعدَّه في خمسة بالكوفة يزدادون كلَّ يوم خيرًا .

« قال الصلت بن بسطام التيمي : قال لي أبي : الزمْ عبدَ الملك بنَ أبجر ، فتعلَّمْ من توقِّيهِ للكلام ، فما أعلمُ بالكوفة أشدَّ تحفظًا للسانه منه .

وقال أبو خالد الأحمر عن مِسعر بن كِدام : لم يكن في أترابه أطول صمْتًا منه . يعني مسعرًا .

وقال سفيان بن عيينة : طول الصمت مفتاح العبادة .

وقال أرطأة بن المنذر : تعلَّم رجلٌ الصمتَ أربعين سنة ، بحصاة يضعها في فِيهِ ، لا ينزعها إلَّا عند طعام أو شراب أو نوْم .

وقال الفُضَيل بنُ عياض : كان بعضُ أصحابنا يَحْفَظ كلامه من الجمعة إلى الجمعة .

وعن حسَّان بن عطية قال : كان شدَّاد بن أوس في سفر ، فنزل منزلًا ، فقال لغلامه : ائْتنا بالسُّفرة نعبثُ بها ، فأنكرتُ عليه ، فقال : ما تكلَّمتُ بكلمة منذ أسلمتُ إلَّا وأنا أُخطِمُها وأزمها ، إلَّا كلِمَتي هذه ، فلا تحفظوها عليّ .

وقال جارٌ لضيغم بن مالك : ما سمعتُ أبا مالك يذكر من الشّعْر إلَّا

---

(١) الصمت ص٢٢٠ - ٢٢١ ، ورعة : مأخوذة من الورَع وهو الكفُّ عن القبْح وسوءِ الأدب .

بيتًا واحدًا :

قَدْ يَخْزن الوَرِعُ التقيّ لسانَهُ حذَرَ الكلامِ وإنه لمُفَوَّهُ »(١)

« قال مالك بن دينار : لو كُلِّف الناس الصحف ، لأَقلُّوا المنطق .

وقال الحسن بن حُيي بن صالح : إني لأَعرف رجلًا يَعُدُّ كلامه . وكانوا يرون أنه هو .

وقال محارب : صحبنا القاسم بن عبد الرحمن ، فغَلَبَنا بطول الصمت ، وسخاء النفس ، وكثرة الصلاة .

وعن الأعمش ، عن إبراهيمَ قال : كانوا يجلسون ، فأطولهم سكوتًا : أفضَلُهم في أنفسهم .

وقال فضيل بن عِياض رحمه الله : ما حجّ ، ولا رباطٌ ، ولا اجتهاد ، أشدَّ من حبس اللسان ، ولو أصبحتَ يُهِمُّكَ لسانُك ، أصبحتَ في غمٍّ شديد .

وقال رحمه الله : سجْن اللِّسانِ سجن المؤمن ، وليس أحد أشدَّ غمًّا ممَّن سجَن لسانه .

وعن عمر بن عبد العزيز قال : إذا رأيتم الرجل يُطيل الصمْتَ ويهرب من الناس ، فاقتربوا منه ؛ فإنه يُلَقَّن الحكمة .

وقيل لداود المديني - من أهل مرو -: لِمَ لا تتكلَّم ؟ فسكت طويلًا ، ثم رفع رأسه ، كأنه غائب ، فقيل له : ألا تتكلم ؟ قال : أنتظر رسولَ ربِّ العالمين ، وأنا مفكِّر في الجواب ، فالذي يكون مشغولًا بذلك كيف يقدر أن يتكلَّم ؟!

وقال رجلٌ لعبد الله بن المبارك - رحمه الله -: ربَّما أردتُ أنْ أتَكَلَّمَ بكلام حسن ، أو أُحدِّث بحديث فأسكتُ ، أريد أن أُعوِّد نفسي السكوت . قال : تُؤْجَر في ذلك وتَشْرُف به »(٢).

---

(١) الصمت ص٢٢٠ - ٢٢٥ .

(٢) الصمت وحفظ اللسان لابن أبي الدنيا ص٢٨١، ٢٨٣، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٠٢، ٣٠٣ .

وقال عبد الله بن أبي زكريا : « عالجتُ الصمتَ عشرين سنة ، فلم أقدر منه على ما أريد »(١) .

« وعن مسلم بن زياد قال : كان عبد الله بن أبي زكريا ، لا يكاد أن يتكلَّم ، حتى يُسْأل ، وكان من أَبشِّ الناس وأكثرهم تبسُّمًا .

وعن الوليد بن سليمان بن السائب : كان عبد الله بن أبي زكريا إذا خاض جلساؤه في غير ذِكْر الله ، رأيته كالساهي ، فإذا خاضوا في ذِكْر الله ، كان أحسن الناس استماعًا »(٢) .

قال الحكماء : الصمتُ على خمْس : على علْمٍ ، وحِلْمٍ ، وعِيٍّ ، وجهلٍ ، وعظيمة !!

وقال سعيد بن عبد العزيز : كان عبد الرحمن أخو أبي مخرمة يمكث أربعة أشهر لا يُكلم الناسَ ، وإذا أرادَ حاجَةً كتب إلى أهلِهِ : افعلوا كذا وكذا(٣) .

وعن خاقان بن عبد الله قال : سمعتُ ابن المبارك ، وسُئِل عن قوْل لقمان لابنه : « إنْ كانَ الكلامُ مِن فضَّة ، فإنَّ الصمتَ مِن ذَهَب ؟ » ، فقال عبد الله : لو كان الكلام بطاعة الله من فضة ؛ فإن الصمت عن معصية الله من ذهب .

عبد الله بن عَـوْن :

قال خارجة بن مصعب : « صحبتُ ابن عوْن ثنتي عشرة سنة ، فما رأيتُه تكلَّم بكلمة كتبَها عليه الكِرَامُ الكاتِبون »(٤) .

وعند الذهبي في السير (٦/٣٦٦) : قال خارجة بن مصعب : صحبتُ

---

(١) الحلية ٥/١٤٩ .
(٢) الصمت ص٣٠٥ .
(٣) الصمت ص٣٠٨ .
(٤) الصمْت وحفظ اللسان ص٣١٢ .

ابن عون أربعًا وعشرين سنة ، فما أعلم أنَّ الملائكة كتبتْ عليه خطيئة .

وعن سلام بن أبي مطيع قال : كان ابن عون أملكَهم للسانه .

كَفُّ اللِّسانِ عنْ حصائده وآفَاتِهِ من أفضل الجهاد :

عن عبد الله بن مسعود قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « أكثر خطايا ابن آدم في لسانه »(١) .

وعن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : « المجاهدُ مَن جاهَد نفسه في طاعة الله »(٢) .

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد أنْ تجاهد نفسك وهواكَ في ذات الله عزَّ وجلَّ »(٣) .

وقال ﷺ : « أفضل المؤمنين إسلامًا : مَن سلم المسلمون من لسانه ويده ، وأفضل المؤمنين إيمانًا : أحسنهم خُلُقًا ، وأفضل المهاجرين : من هجَر ما نهىٰ الله تعالى عنه ، وأفضل الجهاد : مَن جاهد نفسه في ذات الله عز وجل »(٤) .

واللسان مَجْمَع الأهواء ، وجهاده من أشقِّ الجهاد ، وجهاد النفس أصعب من جهاد البدَن ؛ لأن البدَن مأمور ، والنَّفْس أمَّارة بالسوء .

---

(١) صحيح : جزء من حديث أخرجه الطبراني وابن عساكر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٣٤ .

(٢) جزء من حديث صحيح أخرجه أحمد وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٤٩ .

(٣) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية والديلمي ، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٤٩٦ .

(٤) صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير وابن نصر نحوه في « الصلاة » وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٤٩١ .

قال محمد بن واسع لمالك بن دينار : يا أبا يحيىٰ ، حفظ اللسان أشدُّ على الناس مِن حفظِ الدينار والدِّرهم .

عَالي الهِمَّة مُطهِّرٌ لسانه عن حصادِه وآفاتِه :

وعالي الهمَّة في حفظ لسانه .. يعرف آفاتِ اللِّسان جليلَها ودقائقها .. يعرف حصادَ الألسُن فيطهِّر لسانَه منه .. ويُباعد لسانه عنها بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب .

عالي الهِمَّة لا يتكلَّم فيما لا يَعنيه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مِن حُسْن إسلام المرء تَرْكُهُ ما لا يَعنيه »[(١)] .

« وقال الأوزاعي : « كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أمَّا بعد ؛ فإنَّ مَن أَكْثَر ذِكْرَ الموت ، رضي من الدنيا باليَسير ، ومَن عَدَّ كلامه مِن عمله قَلَّ كلامُه إلّا فيما يَعنيه » .

فقد يتكلَّم المرْءُ فيما هو مباح لا ضرر عليه فيه ، ولا على مسلم أصلًا ، إلَّا أنه يتكلَّم بما هو مستغنٍ عنه ولا حاجة به إليه ، فهو بهذا مضيِّع به زمانَه ، وهو محاسبٌ على عَمَل لسانه ، ومستبدلٌ الذي هو أدنىٰ بالذي هو خيْر ؛ لأنه لو صرف زمان الكلام إلى الفكر ، ربَّما كان ينفتح له من نفحاتِ رحمة الله عند الفكر ما يعظِّم جَدْواه ، ولو هلّل الله سبحانَه وذكَرَهُ وسبّحه ، لَكان خيرًا له ، فكم من كلمة يبني بها قصرًا في الجنة ، واللِّسان شبَكة يقدر أن يقتنص

(١) صحيح : رواه الترمذي . وابن ماجة عن أبي هريرة ، وأحمد ، والطبراني في الكبير عن الحسين بن علي ، والحاكم في الكنىٰ ، عن أبي بكر الشيرازي وعن أبي ذرٍّ ، والحاكم في تاريخه عن علي ، والطبراني في الصغير عن زيد بن ثابت ، وابن عساكر عن الحارث بن هشام ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٧٨٧ .

بها الحُورَ العِين ، فإهماله ذلك وتضْييعهُ : خُسْرانٌ مُبين ، ومَن قَدَر على أن يأخذ كَنْزًا مِن الكنوز فأخذ مكانه مدرًا لا ينتفع بها، كان خاسِرًا خُسْرانًا مبينًا.

وحدُّ الكلام فيما لا يَعنيك : أن تتكلَّم بكلامٍ لو سكتَّ عنه ، لمْ تأثم ولم تستضرّ به في حالٍ ولا مآلٍ .

مثاله : أن تجلس مع قوم ، فتذكر لهم أسفارك وما رأيتَ فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنتَه من الأطعمة والثياب ، فأنت إذا بالَغتَ في الجهاد حتى لا يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ، ولا تزكية نفس - فأنت مع ذلك مضيِّع لزمانك ، وأنّى تسلَمُ من الآفات ؟! .

ومِن جملتها : أن تسأل غيرك عما لا يعنيك ؛ فأنت بالسؤال مضيِّع وقتَكَ ، وقد ألجأْتَ صاحبَك بالجواب إلى التضييع ، هذا إذا كان الشيء مما يتطرّق إلى السؤال عنه آفة ، وأكثر الأسئلة فيها آفات ؛ فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلًا ، فتقول له : هل أنت صائم ؟ فإن قال : نعم . كان مظهِرًا لعبادته ، فيدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخلْ سقطتْ عبادتُهُ من ديوان السِّرِّ ، وعبادة السرِّ تفضُل عبادة الجهْر بدرجات . وإن قال : لا . كان كاذِبًا ، وإن سكَتَ كان مستحقرًا لك وتأذَّيْتَ به ، وإنِ احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتَعَبٍ فيه ، فقد عرّضْتَه بالسؤال : إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته »[(١)] .

«عن مجاهد قال: سمعتُ ابن عباس يقول: خمسٌ؛ لهنَّ أحسن من الدُّهم المُوقَفَة : لا تتكلَّم فيما لا يَعنيك ، فإنه فضْلٌ ، ولا آمَنُ عليك الوزر . ولا تتكلَّمْ فيما يَعْنيك حتى تجد له موضعًا ؛ فإنه رُبَّ متكلِّمٍ في أمرٍ يَعنيه ، قد وضَعَه في غير موْضعه فيعنت . ولا تمارِ حليمًا ولا سفيهًا ؛ فإن الحليم يَقْليك ،

---

(١) الإحياء ص١٢٢ ، ١٢٣ .

وإن السفيه يُؤذيك . واذكرْ أخاك إذا تغيَّبَ عنك بما تحبُّ أن يذكُرَكَ به ، واعْفِهِ عمَّا تحبُّ أن يَعفيَك منه . واعملْ عمل رجلٍ يرىٰ أنه مُجازًىٰ بالإحسان ، مأخوذ بالإجرام »(١) .

وقال مُوَرِّق العجْلي : « أمرٌ أنا أَطلُبه منذ عشر سنين ، لم أقدر عليه ، ولستُ بتاركٍ طلَبَه .. قالوا : ما هو يا أبا المعتمِر ؟ قال : الصَّمْتُ عمَّا لا يَعنيني »(٢) .

« وقال أبو جعفر محمد بن علي : كفىٰ عيبًا أن يُبصِرَ العبدُ من الناس ، ما يعمىٰ عليه من نفسه ، وأن يُؤذي جليسَه فيما لا يَعنيه .

وعن زيد بن أسلم قال : دُخِل علىٰ ابن أبي دُجانة وهو مريض ، ووجهه يتهلَّل ، فقال : ما من عملي شيءٌ أوثق في نفسي من اثنتين : لم أتكلَّم فيما لا يَعنيني ، وكان قلبي للمسلمين سليمًا »(٣) .

وعالي الهِمَّة لا يَخوضُ في فُضولِ الكلام :

قال تعالى : ﴿ **لا خيرَ في كثيرٍ من نجْواهم إلَّا مَن أمَرَ بصدَقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين الناس** ... ﴾ [النساء : ١١٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « طوبىٰ لمن أمسَكَ الفضلَ من لسانه ، وأنفق الفضل من ماله »(٤) .

---

(١) الصمت وحفظ اللسان ص٧٥ .

(٢) الزهد لأحمد ص٣٠٥ ، وأبو نعيم في الحلية ٢/٢٣٥ بلفظ : « أن أقولَ ما لا يعنيني » . والصمت ص٧٧ .

(٣) الصمت صـ ٧٥ ، ٧٧ .

(٤) حسن : أخرجه البغوي وابن قانع في معجمي الصحابة ، والبيهقي من حديث ركْب المصريِّ ، وقال البغوي : لا أدري : أسمع من النبي ﷺ أم لا . وقال ابن منده : مجهول لا نعرف له صحبه . وقال ابن عبد البر : إنه حديث حسن .

وفضول الكلام مذموم ، وهذا يتناول الخوْضَ فيما لا يَعني ، والزيادة فيما يعنى على قدْر الحاجة ، فإنَّ مَن يعنيه أمرٌ يُمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ومهما تأدَّى مقصوده بكلمةٍ واحدةٍ فذكر كلمتين فالثانية فضول ، أي فضْل عن الحاجة ، وهو أيضًا مذموم ، وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر .

وقال عطاء بن أبي رباح لمحمَّد بن سُوقة وجماعة : « يا بَنِي أخي ، إنَّ مَن كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ، ما عدا كتاب الله ، أن تقرأه ، أو تأمر بمعروف ، أو تنهى عن منكر ، أو تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بدَّ لك منها ، أتنكرون : ﴿ **وإنَّ عليكم لحافظين كِرامًا كاتبين** ﴾ [الانفطار : ١٠ ، ١١] ، ﴿ ... **عن اليمين وعن الشمال قَعيدٌ * ما يلفِظ من قول إلَّا لديه رقيب عتيد** ﴾ [ق : ١٧ - ١٨] ؟! أمَا يستحي أحدكم ، أنه لو نشرتْ عليه صحيفته التي أملى صدرَ نهاره ، كان أكثر ما فيها ، ليس من أمْر دينه ، ولا دُنياه » .

وقد مرَّ بنا حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عنه بلال بن الحارث : « إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة .... » الحديث . وكان علقمة يقول : كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث رضي الله عنه .

وعن الحسن قال : « يا ابن آدم ، بُسطَتْ لك صحيفة ، ووُكِّل بك ملَكَانِ كريمانِ يكتبانِ عمَلَكَ ، فأكْثِرْ ما شئتَ أو أقِلَّ » .

وكان رحمه الله يقول : « من كثر ماله كثرت ذُنُوبه ، ومن كثر كلامه كثر كَذِبُه ، ومن ساءَ خلقُه عَذَّب نفسه » .

وكان طاووس يعتذر مِن طول السكوت ، ويقول : إني جَرَّبتُ لساني فوجدتُه لئيمًا راضِعًا[1].

---

(١) قال ابن الأعرابي : الراضِع والرضيع : الخسيس من الأعراب ، الذي إذا نزل به الضيف رضَع بفيه شاته ؛ لئلَّا يسمعه الضيف فيطلب اللبن .

وعن الشعبي قال : ما من خطيب يخطب ، إلّا عُرِضَتْ عليه خطبتُه يوم القيامة .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنه لَيمنَعُني من كثير الكلام ، مخافَةُ المباهاة .

وكان الربيع بن خُثيم يقول : لا خير في الكلام إلّا في تسْع : تهليل ، وتكبير ، وتسبيح ، وتحميد ، وسؤالك من الخير ، وتعوُّذُك من الشرِّ ، وأمرُك بالمعروف ، ونهيك عن المنكر ، وقراءتك للقرآن .

وقال إبراهيم التيمي : المؤمنُ إذا أراد أن يتكلَّم نظر ، فإن كان كلامه له تكلَّم ، وإلّا أمسك عنه ، والفاجر إنما لسانه رِسْلًا رِسْلًا[1] .

عالي الهِمَّة لا يخوض في الباطل :

قال الله تعالى حكاية عن أهل النار : ﴿ وكنَّا نخوضُ مع الخائضين ﴾ [المدثر : ٤٥] .

وقال تعالى : ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره إنكم إذًا مثلُهم ... ﴾ الآية [النساء : ١٤٠] .

وقال ﷺ : « إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة يُضحِكُ بها جلساءَه يهوي بها أبعد من الثريَّا »[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل لَيَتَكَلَّم بالكلمة لا يرى بها بأسًا ،يهوي بها سبعين خريفًا في النار »[3].

---

(١) أي : كان الكلام على لسانه سهلًا ومتهاونًا فيه .

(٢) سنده حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة ، وحسَّن سنده العراقي في تخريج الإحياء .

(٣) أخرجه الشيخان والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل »[(١)] .

« والخوض في الباطل هو الكلام في المعاصي؛ كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفُسَّاق ؛ فإنَّ كلَّ ذلك مما لا يحِلُّ الكلام فيه وهو حرام . وأنواع الباطل لا يمكن حصرُها لكثرتها وتفنُّنها ، وفي هذا الجنس تقعُ كلمات يَهلك بها صاحبها وهو يستحقرها . ويدخل فيه الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وما جرىٰ من قتال الصحابة ، على وجه يُوهم الطعْن في بعضهم .

قال ابن سيرين : كان رجلٌ من الأنصار يمُرُّ بمجلسٍ لهم فيقول لهم : توضَّئوا ؛ فإن بعضَ ما تقولون شرٌّ من الحَدَث »[(٢)] .

وعالي الهِمَّة أبعدُ الناسِ عنِ المِرَاء والجِدَال :

عن أبي أُمَامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنة لمن ترَك المِرَاءَ وإن كان مُحِقًّا ، وببيتٍ في وسَطِ الجنة لمن ترَك الكذِب وإن كان مازِحًا ، وببيتٍ في أعلىٰ الجنة لمن حَسُن خُلُقه »[(٣)] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما ضلَّ قوم بعد هدًى كانوا عليه ، إلا أُوتوا الجدَل »[(٤)].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني موقوفًا على ابن مسعود بسندٍ صحيح ، كما قال العراقي في تخريج الإحياء .

(٢) الإحياء ٣/١٢٥ .

(٣) صحيح : رواه أبو داود والضياء عن أبي أمامة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٤٧٧ ، وصحَّحه في السلسلة الصحيحة رقم ٢٧٣ .

(٤) حسن : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي أمامة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٠٩ .

وقال ﷺ : « المراءُ في القرآنِ كُفْرٌ »[١] .

وقال أبو الدرداء : كفىٰ بكَ إثمًا أن لا تزال مماريًا .

وقال عمر بن عبد العزيز : من جعل دينَه عُرْضَةً للخصومات أكثر التنقُّل .

وحدُّ المراء هو : كلُّ اعتراضٍ على كلام الغيْر بإظهار خلَلٍ فيه ؛ إمَّا في اللفظ ، وإمَّا في المعنىٰ ، وإمَّا في قصْد المتكلِّم ، وترْك المراء بترْك الإنكار والاعتراض ، فكلُّ كلام سمعتَه ؛ فإنْ كان حقًّا فصدق به ، وإن كان باطلًا أو كَذِبًا ولم يكن متعلِّقًا بأمور الدين ، فاسكُتْ عنه .

وأمَّا المجادَلة ؛ فعبارة عن قصد إفحام الغيْر وتعجيزه وتنقيصه .

قال أبو حنيفة لداود الطائي : لِمَ آثرتَ الانزواءَ ؟ قال : لأجاهد نفسي بترْك الجدال . فقال : احضرِ المجالس واستمع ما يُقال ، ولا تتكلّم . قال : ففعلتُ ذلك ، فما رأيتُ مجاهدة أشدَّ عليَّ منها .

وعن محمد بن واسع قال : رأيتُ صفوانَ بنَ مُحرِز في المسجد ، وقريبًا منه ناس يتجادلون ، فرأيتُه قام فنفض ثيابه ، وقال : إنما أنتم جَرَبٌ ، إنما أنتم جَرَب .

وقال عمر بن عبد العزيز : إذا سمعتَ المراء فاقصدْ .

وسمع الربيع بن خثيم رجلًا يُلاحي رجلًا ، فقال : مَهْ !! لا تَلفِظْ إلّا بخير ، ولا تقلْ لأخيك إلَّا ما تحبُّ أن تسمعه من غيرك ؛ فإن العبد مسئول عن لفظه محصًى عليه ذلك كلِّه ؛ ﴿ **أحصاه الله ونسُوه** ﴾ [المجادلة : ٦] .

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « خرجتُ لأخبرَكم بليلةِ القدْر ، فتلاحىٰ فلانٌ وفلانٌ فُرفعتْ ، وعسى أن

---

(١) رواه أبو داود وابن حبان والحاكم ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب وصحيح الجامع رقم ٦٥٦٣ .

يكون خيرًا لكم ، فالتمسُوها في التاسعة والسابعة والخامسة » . رواه البخاري .

وعالي الهِمَّة لا يخاصِمُ :

والخصومة وراء الجدال والمراء ، وهي لجاجٌ في الكلام ليُستوفَىٰ به مالٌ أو حقٌّ مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداءً وتارة يكون اعتراضًا ، والمراء لا يكون إلّا باعتراضٍ على كلام سبَق .

قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « إن أبغضَ الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ » . رواه البخاري .

وقال أبو جعفر محمد بن علي : إياكم والخصومة ؛ فإنها تمْحقُ الدين .

وقال رحمه الله : لا تجالسوا أصحاب الخصومات ؛ فإنهم يخوضون في آياتِ الله .

وعن فضيل ؛ قال إبراهيم : ما خاصمتَ ؟ قلتُ : لا .. قال : قطٌّ ؟ قلتُ : قطٌّ .

وأقلُّ ما يفوته في الخصومة طيبُ الكلام ، والله تعالى يقول : ﴿ **وقولوا للناس حُسْنًا** ﴾ .

قال ابن عباس : لو قال لي فرعون خيرًا ، لَرددتُ عليه .

والكلام اللَّيِّن يغسل الضغائن المستكنَّة في الجوارح .

قال بعض الحكماء : كلُّ كلام لا يُسخِطُ ربَّك إلا أنك تُرضي به جليسَك ، فلا تكنْ به عليه بخيلًا ؛ فإنه لعلَّه يعوِّضك منه ثواب المحسنين[١] .

وعالي الهِمَّة أبعدُ الناس عن التقعُّرِ في الكلامِ والتشدُّق فيه وتكلُّف السَّجْع :

عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « هلَك المتنطِّعون » .

---

(١) الصمت وحفظ اللسان ص٩٧ ، ٩٩ .

قالها ثلاثًا . رواه مسلم .

والمتنطِّعون هُمُ المبالغون في الأمور ، المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم . وقال رسول الله ﷺ : « سيكون قومٌ يأكلون بألسنتهم ، كما تأكل البقرةِ من الأرض »(١).

وقال ﷺ : « إن الله عز وجل يُبغِض البليغَ من الرجال ، الذي يتخلَّل بلسانه تخلَّل البقرة بلسانها »(٢) .

وعن جابر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أحبِّكم إليَّ وأقربكم منّي مجلسًا يومَ القيامة ؛ أحاسنكم أخلاقًا ، وإن أبغضكم إليَّ ، وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة ؛ الثرثارون والمتشدِّقون والمتفيهقون » . قالوا : قد علمنا الثرثارون والمتشدِّقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبِّرون » .

وقال ﷺ : « إن من شرار أمتي الذين غُذُّوا بالنعيم ، الذين يطلبون ألوانَ الطعامِ وألوان الثياب ، يتشدَّقون بالكلام »(٣).

وعَالي الهِمَّة ليسَ بالفاحِش ولا بالبذيّ :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ليس المؤمن بالطعَّان ، ولا باللَّعَّان ، ولا بالفاحش ، ولا بالبذيّ »(٤).

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما كان الفحش في شيء إلا شانه ، وما كان الحياء في شيء إلا زانه »(٥).

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد ، والترمذي وغيرهما ، وهو في الصحيحة برقم ٤٢٠ .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي وغيرهما ، وهو في الصحيحة برقم ٤٢١ .

(٣) أخرجه أحمد في « الزهد » ، وابن أبي الدنيا ، والبيهقي في الشعب من حديث فاطمة ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة برقم ١٨٩١ .

(٤) رواه البخاري والترمذي والحاكم وابن حبان .

(٥) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، والبخاري في الأدب ، وابن =

وعن أنس رضي الله عنه قال : « ما مسستُ ديباجًا ولا حريرًا ، ألين من كفِّ رسول الله ﷺ ، ولا شممتُ رائحة قطُّ ، أطيبَ من رائحة رسول الله ﷺ ، ولقد خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي قطُّ : أفٍّ ، ولا قال لشيء فعلْتُه : لِمَ فعلْتَه ؟ ولا لشيء لمْ أفعلْه : ألا فعلْت كذا !! » . متفق عليه .

وعند الترمذي : « وكان رسول الله ﷺ مِن أحسن الناس خُلُقًا ، وما مسستُ خزًّا قطُّ ولا حريرًا ولا شيئًا ، كان ألْيَن من كفِّ رسول الله ﷺ ، ولا شممتُ مِسْكًا قطُّ ولا عطْرًا ، كان أطيب من عَرَقِ رسول الله ﷺ » .

وعن أبي عبد الله الجدلي قال : سألتُ عائشة عن خلُق رسول الله ﷺ ، فقالت : « لم يكن فاحشًا ولا متفحِّشًا ، ولا صَخَّابًا في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح »(١) .

لم يكن فاحشًا : أي ذا فحش . ولا متفحِّشًا : أي متكلِّفًا فيه ومتعمِّدًا .

قال القاضي : نفَتْ عنه تولِّي الفحش والتفوُّه به ، طبْعًا وتكلُّفًا .

وقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله تعالى يُبغض الفاحِشَ المتفحِّش »(٢).

عن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه قال : كنتُ عند النبي ﷺ قاعدًا وأبي أمامي ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الفُحْشَ والتفحُّش ليسَا من الإسلام في شيء ، وإنَّ أحسنَ الناس إسلامًا أحاسِنُهم أخلاقًا »(٣).

= حبان عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٣١ .

(١) صحيح : رواه الترمذي في سننه وفي الشمائل ، والطيالسي ، وابن حبان ، وأحمد ، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم ١٦٤٠ .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن أسامة بن زيد ، وأحمد وابن حبان عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٧٣ ، والإرواء ٢١٩٢ .

(٣) إسناده صحيح : رواه أحمد في مسنده ٥/٨٩ ، وابن أبي الدنيا في الصمت ، =

وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوإ الداء : اللسانُ البذيء ، والخلُق الدنيء .

فهذه مذمَّة الفُحْش .

فأمَّا حدُّه وحقيقتُه : فهو التعبير عن الأمور المستقبَحَة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلّق به ؛ فإن لأهل الفساد عباراتٍ صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشَوْن عنها ، بل يُكنون عنها ويدلُّون عليها بالرموز ، فيذكرون ما يقاربها ويتعلَّق بها .

قال ابن عباس : إن الله حَيِيٌّ كريم يعفو ويكنو ؛ كنىٰ باللمس عن الجماع .

فالمسيس واللَّمْس والدخول والصُّحْبة : كناياتٌ عن الوقاع ، وليست بفاحشة . وليس يختصُّ هذا بالوقاع ، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط ، أولى من لفظ التغوُّط والخراء ، فإن هذا أيضًا ممَّا يخفىٰ ، وكلُّ ما يخفىٰ يُستحيًا منه ، فلا ينبغي أن تُذكر ألفاظه الصريحة ؛ فإنه فُحْش .

وكذلك يُستحسَن في العادة الكناية عن النساء ، فلا يُقال : قالت زوجتك كذا ، بل يُقال : قيل في الحجرة ، أو مِن وراء الستْر ، أو قالت أمُّ الأولاد ؛ فالتلطُّف في هذه الألفاظ محمود ، والتصريح فيها يُفضي إلى الفحْش .

وكذلك مَن به عيوب يُستحيا منها ، فلا ينبغي أن يُعبّر عنها بصريح لفظها ، كالبَرَص والقرع والبواسير ، بل يُقال : العارض الذي يشكوه ، وما يجري مجراه ، فالتصريح بذلك داخل في الفُحْش ، وجميع ذلك من آفات اللسان .

= وقال العراقي في تخريج الإحياء : إسناده صحيح .

«قال العلاء بن هارون: كان عمر بن عبد العزيز يتحفّظ في منطقه ، فخرج تحتَ إبطِهِ خُراجٌ ، فأتيناه نسأله لنرىٰ ما يقول ؟ فقال : مِن أين خرج ؟ فقال : من باطن اليد »[1] .

وعالي الهِمَّة أبعدُ الخلْقِ عنِ السَّبِّ واللَّعْنِ :

أمَّا السَّبُّ :

قال رسول الله ﷺ : « مَن سبَّ أصحابي ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[2] .

وقال تعالى : ﴿ **والذين يُؤْذون المؤمنين والمؤمناتِ بغير ما اكتسبوا فقدِ احتملوا بُهتانًا وإثمًا مبينًا** ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سباب المسلم فُسوق وقتالُه كفر » . متفق عليه .

وفي الحديث: «... وإنِ امرؤٌ سبَّكَ بما يعلم فيك ، فلا تسبَّه بما تعلم فيه ، فإن أجرَه لك ، ووَباله على مَن قاله »[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أُتي النبي ﷺ برجلٍ قد شَرِب[4] قال : « اضربوه » . قال أبو هريرة : فمنَّا الضارِب بيده ، والضارب بنعْله ، والضارب بثوْبه ، فلمَّا انصرفَ ، قال بعضُ القوم : أخزاك الله . قال : « لا تقولوا هذا ، لا تُعينوا الشيطانَ عليه » . رواه البخاري .

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أربىٰ

---

(١) الإحياء ص١٣١ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني ، وأبو نعيم في الحلية ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٢٣٤٠ .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد ، وصحَّحه الألباني كما في السلسلة الصحيحة برقم ١٣٥٢ .

(٤) أي الخمر .

الرِّبَا : شتْمُ الأعراض »(١) .

وعن البراء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الربا اثنان وسبعون بابًا ، أدناها مثل إتيان الرجل أمَّه ، وإنَّ أربى الربا استطالةُ الرجل في عِرض أخيه »(٢) .

انظرْ إلى أدنى الرِّبا وأعلاه .. واتقِ اللهَ .. ما عسى يكون الأكبر إذا كان الأدنى بمثل هذه الصورة المستقْذَرة ؟!!.

وقال ﷺ : « سابُّ المسلم كالمُشْرِف على الهَلَكَة »(٣).

وقال ﷺ : « لا تُؤذوا مسلمًا بشتْم كافر »(٤).

وقال ﷺ : « لا تسبُّوا الأموات ؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدَّموا »(٥).

وقال ﷺ : « المستبَّان شيطانان ، يتهاتران ويتكاذبان »(٦).

بل ولسان عالي الهمَّة مطهَّر عن السبِّ مطلقًا ؛ سبِّ الدَّابَّة ، وسبِّ الرِّيح ، وسبِّ الديك ، وسبِّ الدهر ، وسبِّ الحُمَّى ، بل وسبِّ الشيطان ،

(١) صحيح : رواه الهيثم بن كليب عن سعيد بن زيد ، ورواه عبد الرزاق في الجامع ، والبيهقي في الشعب عن عمرو بن عثمان مرسلًا ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٨٥ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٤٣٣ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ١٨٧١ ، وصحيح الجامع رقم ٣٥٣١ .

(٣) حسن: رواه البزار عن ابن عمرو، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٨٦.

(٤) صحيح: رواه الحاكم والبيهقي في السنن عن سعيد بن زيد، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧١٩١.

(٥) رواه أحمد والبخاري والنسائي عن عائشة .

(٦) صحيح : رواه أحمد والبخاري في الأدب عن عياض بن حمار، وصحَّحه الألباني في « الإيمان » لأبي عبيد، وصحيح الجامع رقم ٦٦٩٦ .

وسبِّ آلهة الزُّور .

عن عمران بن الحُصين رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، وامرأة من الأنصار على ناقة ، فضجِرتْ فلعنتْها ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : « خذوا ما عليها ودعوها ؛ فإنها ملعونة » . قال عمران : فكأني أراها الآن تمشي في الناس ، ما يَعرِض لها أحدٌ . رواه مسلم .

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : بينما جارية على ناقة عليها بعض متاع القوم ، إذْ بُصَرتْ بالنبي ﷺ وتضايق بهم الجبل ، فقالت : حَلْ[١]، اللهمَّ الْعَنْها . فقال النبي ﷺ : « لا تصاحبْنا ناقةٌ عليها لعنة » . رواه مسلم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الريح من روح الله ، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبُّوها ، واسألوا اللهَ خيرَها ، واستعيذوا بالله من شرِّها »[٢] .

وعن زيد بن خالد رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبُّوا الديك ؛ فإنه يُوقظ للصلاة »[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تَسبُّوا الدهرَ ، فإن اللهَ هو الدهر »[٤]. رواه مسلم .

---

(١) حَلْ : كلمة تُقال لزجْر الإبل .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود ، وابن ماجه ، وهو في الكلم الطيب برقم ١٥٣ ، صحَّحه الألباني .

(٣) صحيح : رواه أبو داود ، وإسناده صحيح ، صحَّحه الألباني في المشكاة برقم ٤١٣٦ .

(٤) قال النووي في شرح مسلم : « أي : لا تسبُّوا فاعل النوازل ؛ فإنكم إذا سببتم فاعِلَها ، وقَع السبُّ على الله تعالى ؛ لأنه هو فاعلها ومنزِّلها ، وأما الدهر الذي هو =

وعن جابر رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ دخل على أمِّ السائب - أو أم المسيَّب - فقال : « ما لك يا أمَّ السائب - أو يا أمَّ المسيب - تزفزفين[(١)]؟ ». قالت : الحُمَّى ، لا بارك اللهُ فيها . فقال : « لا تسبِّي الحُمَّى ؛ فإنها تُذهب خطايا بني آدم كما يُذهِب الكِيرُ خبَثَ الحديد »[(٢)] .

وقال رسول الله ﷺ : « لا تسبُّوا الشيطان ، وتعوَّذوا بالله من شرِّه »[(٣)].

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولا تسبُّوا الذينَ يدعونَ مِنْ دُون اللهِ فيسبُّوا اللهَ عَدْوًا بغيْر علْمٍ** ... ﴾ الآية [الأنعام : ١٠٨] .

وثبت عن علي رضي الله عنه ؛ أنه سُئل عن قول الرجل للرجل : « يا فاسق » ، « يا خبيث » ، قال : « هُنَّ فواحشُ ، فيهنَّ تعزير ، وليس فيهنَّ حدٌّ »[(٤)] .

وأمَّا اللَّعْنُ :

فقد قال رسول الله ﷺ : « إني لم أُبعَثْ لعَّانًا »[(٥)] .

وقال ﷺ : « إني لم أُبعثْ لعَّانًا ، وإنما بُعِثْتُ رحمة »[(٦)].

= الزمان فلا فعل له ، بل هو مخلوق من جمْلَة خلْق الله ، ومعنى : « فإن اللهَ هو الدهر » : أي فاعل النوازل والحوادث ، وخالق الكائنات . والله أعلم » .

(١) تزفزفين : أي ترتعدين .

(٢) رواه مسلم ، والبخاري في « الأدب المفرد » .

(٣) صحيح : رواه المخلص ، والديلمي ، وتمَّام في فوائده ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٢٤٢٢ ، وصحيح الجامع رقم ٧١٩٥ .

(٤) أخرجه البيهقي ، انظر : إرواء الغليل رقم ٢٣٩٣ .

(٥) صحيح: رواه الطبراني في الكبير عن كريز بن أسامة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٠١.

(٦) صحيح:رواه مسلم، والبخاري في الأدب عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « لا يكون المؤمن لعَّانًا »(١) .

وقال ﷺ : « أوصيك أن لا تكون لعَّانًا »(٢) .

وقال ﷺ : « لعْنُ المؤمنِ كقتْله »(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لِصدِّيق أن يكون لعَّانًا » . رواه مسلم .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبدَ إذا لعَن شيئًا صعِدت اللّعْنة إلى السماء ، فتُغْلَق أبواب السماء دُونها ، ثم تهبط إلى الأرض ، فتُغلَق أبوابُها دونها ، ثم تأخذ يمينًا وشمالًا ، فإذا لم تجدْ مَسَاغًا ؛ رجَعتْ إلى الذي لُعِن ؛ فإن كان لذلك أهلًا ، وإلّا رجعتْ إلى قائلها »(٤) .

« واللعْن : إما لحيوان أو جماد أو إنسان ، وكلُّ ذلك مذموم .

والصفات المقتضِية للَّعن ثلاثة : الكفر ، والبدعة ، والفِسْق . وللّعن في كلِّ واحدة ثلاث مراتب :

الأولى : اللَّعْنُ بالوصف الأعمِّ ؛ كقولك : لعنةُ الله على الكافرين والمبتدعين والفَسَقَة .

الثانية : اللعْنُ بأوصاف أخصَّ منه ؛ كقولك : لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس . وعلى القدَرِيَّة والخوارج والرافضة ، أو على الزُّناة والظَّلَمة

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والبخاري في الأدب عن ابن عمر، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٧٧٤ .

(٢) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في التاريخ، والطبراني في الكبير عن جرموز بن أوس وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٤٢ .

(٣) جزءٌ من حديثٍ ، متفق عليه ، عن ثابت بن الضحَّاك .

(٤) صحيح : رواه أبو داود ، وروى أحمد نحوه ، وصحَّحه الألباني في « صحيح سنن أبي داود » برقم ٤٠٩٩ .

وآكِلي الربا . وكل ذلك جائز .

الثالثة : اللعْنُ للشخْص المعيَّن ؛ وهذا فيه خطَرٌ ؛ كقولك : زيدٌ لَعَنَهُ الله ، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع .

والتفصيل فيه أنَّ كلَّ شخصٍ ثبتتْ لعنتهُ شرعًا فتجوز لعنته ، كقولك : فرعون لعنه الله ، وأبو جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر ، وعُرف ذلك شرعًا . وأما شخصٌ بعينه في زماننا ؛ كقولك : زيد لعنه الله - وهو يهودي مثلًا - فهذا فيه خطرٌ ؛ لأنه ربما يُسْلِمُ فيموت مقرَّبًا عند الله ، فكيف يُحكم بكونه ملعونًا ؟!

فإن قلتَ : يُلعن لكونه كافرًا في الحال ، كما يُقال للمسلم : رحمه الله ؛ لكونه مسلمًا في الحال ، وإن كان يُتصوَّر أن يرتدَّ .

فاعلمْ أن معنى قولنا : رحمه الله ؛ أي ثبَّته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة ، وعلى الطاعة ، ولا يمكن أن يُقال : ثبّت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة ؛ فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر ، بل الجائز أن يُقال : لعنه الله إن مات على الكفر ، ولا لعنه الله إن مات على الإسلام . وذلك غيب لا يدرىٰ، والمطلق متردِّدٌ بيْنَ الجهتيْن، ففيه خطر، وليس في ترك اللَّعْن خطر . وإذا عرفت هذا في الكافر ، فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى ، فلعْن الأعيان فيه خطر ؛ لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلَّا مَن أعْلَمَ به رسول الله ﷺ ، فإنه يجوز أن يَعلم مَن يموت على الكفر ، ولذلك عيَّن قومًا باللعن ، فكان يقول في دعائه على قريش : « اللهمَّ عليك بأبي جهل بن هشام وعُتبة ابن ربيعة »[١] . وذكر جماعةً قتلوا على الكفر ، حتى إنّ مَن لم يعلمْ عاقبته كان يلعنه ، فنُهِيَ عنه ؛ إذ إنَّه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في

(١) متفق عليه ، من حديث ابن مسعود .

قنوته شهرًا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ **ليسَ لك مِن الأمرِ شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنَّهم ظالمون** ﴾[(١)] . يعني أنهم ربما يُسْلِمون ، فمِن أين تعلم أنهم ملعونون ؟!

كذلك مَن بان لنا موته على الكفر جاز لعنه، وجاز ذمُّه إن لم يكنْ فيه أذًى على مسلم، فإن كان؛ لم يَجُزْ ... شَرِب نعمانُ الخمرَ فحُدَّ مرَّاتٍ في مجلس رسول الله ﷺ ، فقال بعض الصحابة : لعنه الله ، ما أكثر ما يُؤتَى به !! فقال ﷺ : « لا تكن عوْنًا للشيطان على أخيك » . فنهاه عن ذلك[(٢)] ، وهذا يدلُّ على أن لعْن فاسق بعينه غير جائز .

وعلى الجملة : ففي لعن الأشخاص خطرٌ فلْيُجتنَبْ ، ولا خطرَ في السكوتِ عن لعْنِ إبليسَ مثلًا ، فضلًا عن غيره .

والمؤمن ليس بلعَّان، فلا ينبغي أن يُطِلق اللسان باللعنةِ إلَّا على من مات على الكفر أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم ، دون الأشخاص المعيَّنين .

---

(١) حديث : أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرًا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ ليسَ لك مِن الأمر شيء ﴾ أخرجه الشيخان من حديث أنس : دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحابَ بئر معونة ثلاثينَ صباحًا .. الحديث . وفي رواية لهما : « قنتَ شهرًا يدعو علىٰ رعلٍ وذكوان .. » .. الحديث . ولهما من حديث أبي هريرة : « وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ، يكبِّر ويرفع رأسَه ... : « اللهمَّ الْعَنْ لحيان ورعلا .. » الحديث . وفيه : « ثم بلغنا أنه ترَك ذلك لما أنزل الله ﴿ ليس لكَ من الأمْرِ شيء ﴾ » . لفظ مسلم .

(٢) للبخاري من حديث عمر : أن رجلًا على عهد رسول الله ﷺ كان اسمُه عبد الله ، وكان يلقَّب : حمارًا ، وكان يُضحك رسول الله ﷺ ، وكان قد جلده في الشراب ، فأُتي به يومًا ، فأمر به فجُلِدَ ، فقال رجل مِن القوم : اللهم الْعنْه ؛ ما أكثر ما يُؤْتى به !! فقال النبي ﷺ : « لا تلعنوه ، فوالله ما علمتُ إلَّا أنه يحبُّ الله ورسوله » .

قال مكي بن إبراهيم : كُنا عند ابن عون ، فذكروا بلال بن أبي بردة ، فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه ، وابن عون ساكت ، فقالوا : يا ابن عون ، إنما نذكره لِمَا ارتكب منك . فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة : لا إله إلا الله ، ولعَنَ الله فلانًا ؛ فلَأَنْ يخرُجَ مِن صحيفتي : لا إله إلا الله ، أحبُّ إلي مِن أن يخرجَ منها : لعَنَ الله فلانًا .

ويقرب مِنَ اللَّعْن : الدعاءُ على الإنسان بالشرِّ ، حتى الدعاء على الظالم ، كقوْل الإنسان مثلًا : لا صحّح الله جسْمَه ، ولا سلّمه . وما يجري مجراه ؛ فإن ذلك مذموم [(١)] .

وعَالي الهِمَّة يندُر منه المزَاحُ ، ويتَّبعُ هديَ رسول الله ﷺ فيه :

لقد كان رسول الله ﷺ يمزح ، لكنَّه لا يقول إلّا حقًّا ، ولا ينطق إلّا صدقًا ، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله ، إنك تُداعبُنا ؟ قال : « نعم ، غير أني لا أقول إلا حقًّا » [(٢)] .

ولكنْ هذا على سبيل الندرة ، فقد كان النبي ﷺ كما وصفه جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه : « كان طويلَ الصمْتِ ، قليلَ الضَّحِك » [(٣)] .

وكثرة المزاح والإفراط فيه تؤدِّي إلى كثرة الضحك ، وقد قال ﷺ : « لا تُكثِرِ الضَّحك ؛ فإن كثْرة الضحِكِ تُميت القلبَ » [(٤)] .

---

(١) الإحياء ٣ / ١٣٢ - ١٣٥ .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » ، وصحَّحه الألباني في مختصر الشمائل المحمدية برقم ٢٠٢ .

(٣) حسن : رواه أحمد في مسنده عن جابر بن سمرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٦٩٨ .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٥٠٦ .

أما المزاح الكثير ، فلا وألف لا ؛ فقد شاب عليه الناس ، وكأنهم قد رضعوه في المهد ، وفي مصائب الأمَّة ما يُغني عنه .

«فإن قلت: قد نُقِل المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه، فكيف يُنهىٰ عنه ؟

فأقول : إن قَدَرْتَ على ما قدَر عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه ، وهو أن تمزح ولا تقول إلَّا حقًّا ، ولا تُؤذي قلبًا ، ولا تفرّط فيه ، وتقتصر فيه أحيانًا على الندور - فلا حَرَجَ عليك ، ولكن مِن الغلَطِ العظيم أَنْ يتَّخذ الإنسان المزاحَ حرفَةً يواظب عليه ويُفرِطُ فيه ، ثم يتمسَّك بفعْل رسول الله ﷺ ، وهو كمن يدور نهارَه مع الزُّنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ، ويتمسَّك بأن رسول الله ﷺ أذِنَ لعائشة في النظر إلى رقْص الزنوج في يوم عيد ، وهو خطأ ؛ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، ومِن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار ، فلا ينبغي أن يغفل عن هذا »[1] .

قال خالد بن صفوان : المُزاح سِباب النَّوْكَىٰ . قال : وكان يُقال لكل شيء بذْر ، وبذْرُ العداوة المزاحُ .

وعن محمد بن المنكدر قال : قالت لي أمي : لا تمازِحِ الصبيان ، فتهونَ عليهم .

وقال الأحنف بن قيْس : مَن كثر كلامه وضحِكُه ومزاحه ، قلَّت هيبتُه .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : مَن مَزح ، استُخِفَّ به .

وصدَق رسول الله ﷺ ؛ إذ يقول : « لو تعلمون ما أعلم لَبكيْتُم كثيرًا ولَضحِكتم قليلًا »[2] .

---

(١) الإحياء ٣ / ١٣٨ .

(٢) متفق عليه من حديث أنس وعائشة .

وعَالي الهِمَّةِ متطهِّرٌ تمامًا عن بقيَّةِ حصائد الألسُن[١]:

عالي الهمَّة لا يقْرَب هذه الحصائد ويطهِّر لسانه عنها . ومِن هذه الحصائد :

١ - اليمينُ الكاذبة عمْدًا . ٢ - شهادة الزور . ٣ - القذف .

٤ - عدَمُ السِتْر على المسلم . ٥ - البهتان والافتراء :

فلقد نظر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يومًا إلى الكعبة ، فقال : ما أعظَمَكِ وأعظَمَ حُرْمَتَكِ ، والمؤمنُ أعظمُ حرمةً منك .

٦ - الكذب . ٧ - النميمة . ٨ - الغيبة :

قال خُصيف ، وعبد الكريم بن مالك : أدركْنَا السَّلَف ، وهم لا يرون العبادةَ في الصوْم ولا في الصلاة ، ولكن في الكفِّ عن أعراض الناس .

وقال الحسن : والله لَلْغِيبةُ أسرعُ في دين المؤمن من الأَكَلَة في جَسَدِه .

وقال عون بن عبد الله : ما أحسب أحدًا تفرَّغ لعيوب الناس ، إلَّا من غفلة غفلَها عن نفسه .

وكان سيِّدُ القرَّاء ميمون بن سياه لا يغتابُ ، ولا يدع أحدًا عنده يغتاب ؛ ينهاه ، فإذا انتهى وإلَّا قام[٢] .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلتُ للنبي - ﷺ -: حسبُك من صفية - زوج النبي ﷺ - كذا وكذا - تعني أنها قصيرة - فقال النبي ﷺ : « لقد قلتِ كلمةً لو مُزجتْ بماءِ البحرِ لَمَزَجَتْه »[٣].

---

(١) وقد أوردها وأحسَن وأطَالَ وأطيَبَ : الشيخ حُسين العوايشة ، التلميذ النجيب لمُحدِّث العصر شيخِنا الألباني ، في كتابه القيم : « حصائد الألسن » فلْتُراجَعْ.

(٢) الصمت لابن أبي الدنيا صـ ١٣٨ .

(٣) صحيح : أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما ، وصحَّحه الألباني في تخريج أحاديث =

٩ - إفشاء السِّرّ . ١٠ - النفاق العملي لا الاعتقادي :

وهو أن يشابه عملُ المسلم عمَلَ المنافقين من غير استحلال له ، وما في ظاهره من نفاق ليس في باطنه ؛ إذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصَم فجَر ، وإذا وعد أخلف .

لما حضرتْ عبدَ الله بن عمر الوفاة قال : إنه كان خطب إليّ ابنتي رجلٌ من قريش ، وقد كان مني شبهُ الوعْد ؛ فوالله ؛ لا ألقى الله بثُلثِ النفاق ؛ أشهدكم أني قد زوَّجته ابنتي .

١١ - السخرية والاستهزاء والتنابُز بالألقاب :

« قال عمرو بن شرحبيل:لو رأيتُ رجلًا يرضع عنْزًا فضحكت منه ، لَخَشِيتُ أن أصنع مثلَ الذي صنَع » .

وعن عبد الله بن مسعود : البلاء موكّل بالقوْل ، لو سخِرتُ من كلْبٍ ، لَخشيت أن أحوَّل كلبًا[1] .

قال ﷺ: « ما أحب أني حكيتُ إنسانًا ، وأن لي كذا وكذا »[2] .

قال المناوي : « (ما أحبُّ أني حكيْتُ إنسانًا) : أي فعلتُ مثل فعْله ، أو قلتُ مِثل قوله ، منقصًا له . يقال : حكاه وحاكاه . قال الطيبي : وأكثر ما تُستعمل المحاكاة في القبيح » .

١٢ - مقاطعة الكلام :

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إذ قلتَ

= الحلال والحرام ، برقم ٤٢٧ .

(١) القرطبي ٩ / ٦١٤٥ .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود والترمذي عن عائشة ، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود ، رقم ٤٠٨٠ .

للناسِ : أنصتوا . وهم يتكلَّمون ؛ فقد ألغيتَ على نفسك »[1] .

قال الألباني: «وفي هذا الحديث تحذير من الإخلال بأدب رفيع من آداب الحديث والمجالسة ، وهو أن لا يقطَعَ على الناس كلامهم ، بل يُنصِتَ هو حتى ينتهي كلامهم » .

١٣ – الغناء .

١٤ – أن يتحلَّى أو يتشبَّع بما لم يُعْطَ :

قال تعالى : ﴿ **لا تحسبَنَّ الذين يفرحون بما أتوا ويُحبُّون أن يُحمَدُوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازةٍ من العذاب ولهمْ عذاب أليمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٨٨] .

وفي حديث أسماء : قال رسول الله ﷺ : « المتشبِّع بما لم يُعطَ ، كلابس ثَوبَي زُورٍ »[2] .

والتشبُّع بما لم يُعْطَ في أمور الآخرة أشدُّ ذنبًا وأكثر إثمًا ، كالإفتاء بغير علْمٍ ، ليظهِرَ أنه عالم وأن علمه غزير .

١٥ – أن يخطب على خطبة أخيه حتى يَذَر . **١٦** – البيْعُ على بيْع أخيه . **١٧** – طلب الولاية ؛ فنِعْمَ المرضِعَة وبئستِ الفاطمة . **١٨** – التعيير والتوبيخ . **١٩** – الدعاء على النفس والأولاد والأموال . **٢٠** – الخيانة في النصيحة . **٢١** – احتقار المسلمين . **٢٢** – قوْل العبد : هذا من أهل الجنة ، وهذا من أهل النار ؛ والتألِّي على الله تعالى . **٢٣** – الطعْن في الأنساب . **٢٤** – الفخْر بالأنساب . **٢٥** – أن يدّعي المرءُ إلى غير أبيه أو ينتمي إلى غير

---

(١) رواه أحمد ، وسنده صحيح على شرط الشيخين ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة برقم ١٧٠ .

(٢) متفق عليه .

مواليه . **٢٦** - الاستغفار للمشركين والكفار . **٢٧** - الفجور عند الخِصام. **٢٨** - القول : إني بريء من الإسلام. **٢٩** - المَنّ بالعطية . **٣٠** - الهزل بالنكاح والطلاق والرجْعة والعِتْق . **٣١** - سبُّ الأموات . **٣٢** - النياحة على الميِّت . **٣٣** - القول : تعالَ أقامِرْك . **٣٤** - القيل والقال. **٣٥** - البؤس والتَّباؤس. **٣٦** - مخاطبة المنافق بسيِّد ونحوه . **٣٧** - المدْحُ في الوجْه . **٣٨** - التزكِيَة . **٣٩** - العوْدة في الصدَقة . **٤٠** - لفظة « لو » . **٤١** - الحَلِف في البيْع .

٤٢ - التحدُّث بتلعُّب الشيطان في المنام :

قال ﷺ : « لا يحدِّثنَّ أحدُكم بتلعُّب الشيطان به في منامه »[١] .

٤٣ - قول : تَعِسَ الشيْطانُ . **٤٤** - التحلُّم كاذبًا . **٤٥** - النذر في معصية الله . **٤٦** - قول : خَبُثَتْ نفسي . **٤٧** - تسمية العنبِ كَرْمًا . **٤٨** - التكلُّم والإمام يخطب الجمعة . **٤٩** - نشْدُ الضالة والبيْعُ في المسجد . **٥٠** - قول : شاهنشاه ، للسلطان .

هذه بعضُ حصائد الألسن التي يبتعد عنها عالي الهمَّة ، ويطهِّر لسانَه منها ، فضلًا عن :

٥١ - الفتوى بغيْر علْم . **٥٢** - والنذْر لغير الله تعالى . **٥٣** - دعاء غير الله تعالى . **٥٤** - الاستسقاء بالأنواء . **٥٥** - كفْر النعمة . **٥٦** - سؤال الكُهَّان والعرَّافين . **٥٧** - الحَلِف بغير الله . **٥٨** - الاستعاذة بغير الله . **٥٩** - قول : ما شاء الله وشاء فلان . **٦٠** - الحَلِف بالله كاذبًا . **٦١** - إنكارُ اسم من أسماء الله تعالى . **٦٢** - إنكار القدَر . **٦٣** - القول بالبدع[٢].

---

(١) رواه مسلم .

(٢) انظر إلى : حصاد الألسن لحسين العوايشة - طبع : دار ابن عفان .

٦٤ - الخَوْض في علْم الكلام وصفات الله على طريقة المتكلِّمين .

ورحم الله الجُنَيْد حيث قال : « إنكارُ العيبِ حيثُ يستحيلُ العيْبُ : عيبٌ » .

فطريقة أهل السنة في الإثبات والنفي في الأسماء والصفات ، هي طريقة الذين جاءوا بكمال الأدب مع الله عز وجل .

* * *

الفصل الخامس عشر
عُلُــوُّ الهمَّــة
فــي
الإخبـــــات

«أمَا والله لو رآك محمد ﷺ يا ربيع؛ لفرح بك».
قالها ابن مسعود للربيع بن خثيم
سيِّد المخبتين في التابعين

□ عُلُوُّ الهمَّة في الإخبات □

قال الله تعالى : ﴿ **وبشِّر المخبتين** ﴾ [الحج : ٣٤] . ثم كشف عن معناهم . فقال : ﴿ **الذين إذا ذُكر اللهُ وَجِلَت قلوبُهم والصابرينَ على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وممَّا رزقناهم ينفقون** ﴾ [الحج : ٣٥] . وقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أُولٰئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ [هود : ٢٣] .

كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى الربيع بن خثيم - رحمه الله - يقول له : ﴿ **وبشِّر المخبتين** ﴾ . وكان رضي الله عنه يقول له أيضًا : « أمَا والله لو رآك محمدٌ ﷺ يا ربيع ؛ لفرح بك » .

« و (الْخَبْت) في أصل اللغة : المكان المنخفض من الأرض . وبه فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظ : ﴿ **المخبتين** ﴾ وقالا : هم المتواضعون . وقال مجاهد : المخبت : المطمئن إلى الله عز وجل . قال : والخبت : المكان المطمئن من الأرض . وقال الأخفش : الخاشعون . وقال إبراهيم النخعي : المصَلُّون المخلصون . وقال الكلبي : هم الرقيقة قلوبهم . وقال عمرو بن أوس : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظُلموا لم ينتصروا .

وهذه الأقوال تدور على معنيين : التواضع ، والسكون إلى الله عز وجل . ولذلك عُدِّي بإلى ؛ تضمينًا لمعنى الطمأنينة ، والإنابة والسكون إلى الله .

قال صاحب المنازل : « هو من أول مقامات الطمأنينة » ؛ كالسكينة ، واليقين ، والثقة بالله ونحوها . فالإخبات : مقدمتها ومبدؤها .

قال : « وهو ورود المأمَنِ من الرجوع والتردُّد » .

لما كان « الإخبات » أول مقام يتخلَّص فيه السالك من التردُّد - الذي

هو نوع غفلة وإعراض - والسالك مسافر إلى ربِّه ، سائر إليه على مدى أنفاسه ، لا ينتهي مسيره إليه ما دام نَفَسُه يصحبه - شَبَّه حصول الإخبات له بالماء العذب الذي يَرِدُه المسافر على ظمأ وحاجة في أول مناهله ؛ فيرويه مورده ، ويزيل عنه خواطر تردُّده في إتمام سفره ، أو رجوعه إلى وطنه لمشقة السفر . فإذا ورد ذلك الماء زال عنه التردُّد ، وخاطِرُ الرجوع . كذلك السالك إذا ورد مورد « الإخبات » تخلَّص من التردُّد والرجوع ، ونزل أول منازل الطمأنينة بسفره ، وجَدَّ في السير .

درجات الإخبات :

قال شيخ الإسلام الهروي : وهو على ثلاث درجات :

« **الدرجة الأولى : أن تستغرق العصمةُ الشهوةَ ، وتستدرك الإرادةُ الغفلةَ ، ويستهوي الطلبُ السلوةَ** » :

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » - شارحًا هذه الدرجة -: المريد السالك ؛ تعرض له غفلةٌ عن مراده ، تُضعِف إرادته . وشهوةٌ تُعارض إرادته ، فتصده عن مراده . ورجوعٌ عن مراده ، وسلوة عنه .

فهذه الدرجة من الإخبات تحميه عن هذه الثلاثة ؛ **فتستغرق عصمتُه شهوتَه** : و « العصمة » : هي الحماية والحفظ . و « الشهوة » : الميل إلى مطالب النفس . والاستغراق للشيء : الاحتواء عليه والإحاطة به .

يقول : تغلب عصمتُه شهوتَه وتقهرها ، وتستوفي جميعَ أجزائها ؛ فإذا استوفت العصمة جميع أجزاء الشهوة ، فذلك دليلٌ على إخباته ودخوله في مقام الطمأنينة ، ونزوله أول منازلها ، وخلاصه في هذا المنزل من تردُّد الخواطر بين الإقبال والإدبار ، والرجوع والعزم ، إلى الاستقامة والعزمِ الجازم ، والجدُّ في السير . وذلك علامة السكينة .

وتستدرك إرادتُه غفلته : و « الإرادة » عند القوم : هي اسم لأول منازل القاصدين إلى الله . و « المريد » : هو الذي خرج من وطن طبعه ونفسه ، وأخذ في السفر إلى الله ، والدار الآخرة . فإذا نزل في منزل « الإخبات » أحاطت إرادته بغفلته فاستدركها ، واستدرك بها فارطها .

وأمّا استهواء طلبه لسلوته : فهو قهْر محبته لسلوته ، وغلبتها له ؛ بحيث تهوي السلوة وتسقط ، كالذي يهوي في بئر . وهذا علامة المحبة الصادقة : أن تقهر فيه وارد السلوة ، وتدفنها في هُوَّة لا تحيا بعدها أبدًا .

فالحاصل : أن عصمته وحمايته تقهر شهوته ، وإرادته تقهر غفلته ، ومحبته تقهر سلوته .

« الدرجة الثانية : أن لا ينقض إرادتَه سببٌ ، ولا يُوحش قلبَه عارضٌ ، ولا يقطع عليه الطريق فتنةٌ » :

قال شيخ الإسلام ابن القيم : هذه ثلاثة أمور أخرى تعرض لصادق الإرادة : سبب يعرض له ينقض عزمه وإرادته . ووحشة تعرض له في طريق طلبه ، ولا سيما عند تفرُّده . وفتنة تخرج عليه ، تقصد قطْع الطريق عليه .

فإذا تمكَّن من منزل « الإخبات » اندفعت عنه هذه الآفات ؛ لأن إرادته إذا قويت ، وَجَدَّ به السير ؛ لم ينقضها سبب من أسباب التخلُّف .

و « **النقض** » : هو الرجوع عن إرادته ، والعدول عن جهة سفره .

ولا يوحش أنسه بالله في طريقه عارض من العوارض الشواغل للقلب ، والجواذب له عمن هو متوجِّه إليه .

و « **العارض** » : هو المخالف . كالشيء الذي يعترضك في طريقك ، فيجيء في عرضها . ومن أقوى هذه العوارض عارض وحشة التفرُّد ، فلا يلتفت إليه ، كما قال بعض الصادقين : انفرادك في طريق طلبك ؛ دليل على صدق الطلب . وقال آخر : لا تستوحش في طريقك من قِلَّة السالكين ، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين.

وأما « **الفتنة** » **التي تقطع عليه الطريق** : فهي الواردات التي ترد على القلوب ، تمنعها من مطالعة الحق وقصده . فإذا تمكَّن من منزل « الإخبات » وصحَّة الإرادة والطلب ، لم يطمع فيه عارض الفتنة .

وهذه العزائم لا تصحُّ إلا لمن أشرق على قلبه أنوارُ آثارِ الأسماء والصفات ، وتجلَّت عليه معانيها ، وكافَحَ قلبَه حقيقةُ اليقين بها .

وقد قيل : من أخذ العلم من عين العلم ثبت ، ومن أخذه من جريانه أخذته أمواج الشُّبَه ومالت به العبارات ، واختلفت عليه الأقوال .

قال : « **الدرجة الثالثة : أن يستوي عنده المدح والذم ، وتدوم لائِمتُه لنفسه ، ويعمَى عن نقصان الخلق عن درجته** » :

اعلم أنه متى استقرَّت قدم العبد في منزلة « الإخبات » ، وتمكَّن فيها ؛ ارتفعت هِمَّته ، وعَلَت نفسه عن خطفات المدح والذم ؛ فلا يفرح بمدح الناس ، ولا يحزن لذمِّهم . هذا وصف من خرج عن حظِّ نفسه ، وتأهَّل للفناء في عبودية ربِّه ، وصار قلبه مَطْرَحًا لأشعة أنوار الأسماء والصفات ، وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه .

والوقوف عند مدْح الناس وذمهم علامة انقطاع القلب وخلُوِّه من الله وأنه لم تباشره روح محبَّته ومعرفته ، ولم يَذُق حلاوة التعلُّق به والطمأنينة إليه .

وأما قوله : « **وأن تدوم لائمته لنفسه** » : فهو أن صاحب هذا المنزل لا يرضى عن نفسه ، وهو مُبغِضٌ لها مُتمنٍّ لمفارقتها .

والمراد بالنفس عند القوم : ما كان معلولًا من أوصاف العبد ، مذمومًا من أخلاقه وأفعاله . سواء كان ذلك كَسْبيًّا أو خَلْقيًّا ؛ فهو شديد اللائمة لها . وهذا أحد التأويلَيْن في قوله تعالى : ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾ [القيامة : ٢] . قال سعيد بن جبير وعكرمة : تلوم على الخير والشر ، ولا تصبر على السـرَّاء ،

ولا على الضرَّاء .

وقال قتادة : اللوامة : هي الفاجرة .

وقال مجاهد : تندم على ما فات ، وتقول : لو فعلتُ ، ولو لم أفعل .

وقال الفراء : ليس من نفس بَرَّةٍ ولا فاجرةٍ إلا وهي تلوم نفسها ؛ إن كانت عملت خيرًا قالت : هَلَّا زدت ؟ وإن عملت شرًّا قالت : ليتني لم أفعل .

وقال الحسن : هي النفس المؤمنة ، إن المؤمن - والله - ما تراه إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلمة كذا ؟ ما أردتُ بأكلة كذا ؟ ما أردت بكذا ؟ ما أردتُ بكذا ؟ ، وإن الفاجر يمضي قُدُمًا قُدُمًا ، ولا يُحاسب نفْسه ولا يُعاتبها .

وقال مقاتل : هي النفس الكافرة ، تلوم نفسها في الآخرة على ما فرَّطت في أمر الله في الدنيا .

والقصد : أنَّ مَن بذل نفسه لله بصِدْقٍ كره بقاءه معها ؛ لأنه يريد أن يتقبلَها مَنْ بُذِلت له ، ولأنه قد قَرَّبها له قُربانًا . ومَن قَرَّب قُرْبانًا فَتُقُبِّل منه ، ليس كمن رُدَّ عليه قربانه ؛ فبقاء نفسه معه دليل على أنه لم يُتقبَّل قربانه .

وأيضًا فإنه من قواعد القوم المجمَع عليها بينهم ، التي اتفقت كلمة أولهم وآخرهم ، ومحقِّهم ومُبْطِلِهم عليها : أن النفس حجابٌ بين العبد وبين الله ، وأنه لا يصل إلى الله حتى يقطع هذا الحجاب ، كما قال أبو يزيد : رأيتُ ربَّ العِزَّة في المنام ، فقلت : يا رب ، كيف الطريق إليك ؟ فقال : خَلِّ نفسك وتعال .

فالنفس جبل عظيم شاقٌّ في طريق السير إلى الله عز وجل ، وكلُّ سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل ، فلا بد أن ينتهي إليه ، ولكن منهم من هو شاق عليه ، ومنهم من هو سَهل عليه ، وإنه ليسير على مَن يسَّره الله عليه .

وفي ذلك الجبل أوديةٌ وشعوب ، وعقباتٌ ووهود ، وشوكٌ وعوسج ، وعُلَّيقٌ وشِبْرِق ، ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين ولا سيما أهل الليل

المدلجين ؛ فإذا لم يكن معهم عُدَدُ الإيمان ، ومصابيح اليقين تتَّقد بزيت الإخبات ؛ وإلَّا تعلَّقت بهم تلك الموانع ، وتشبَّثت بهم تلك القواطع ، وحالت بينهم وبين السير ؛ فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم ، لمَّا عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته . والشيطان على قُلّة ذلك الجبل ، يحذِّر الناس من صعوده وارتفاعه ، ويخوِّفهم منه . فيتَّفق مشقة الصعود ، وقعود ذلك المخوِّف على قُلّته ، وضعْف عزيمة السائر ونيَّته ؛ فيتولد من ذلك : الانقطاع والرجوع . والمعصوم مَن عصمه الله .

وكلّما رقي السائر في ذلك الجبل ؛ اشتدَّ به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه ، فإذا قطعه وبلغ قُلَّته ؛ انقلبت تلك المخاوف كلّهن أمانًا . وحينئذ يَسهُل السير ، وتزول عنه عوارض الطريق ومشقَّة عقباتها ، ويرى طريقًا واسعًا . آمنًا يُفضي به إلى المنازل والمناهل ، وعليه الأعلام ، وفيه الإقامات قد أُعدَّت لركْب الرحمن .

فبين العبد وبين السعادة والفلاح : قُوَّة عزيمة ، وصبر ساعة ، وشجاعة نفس، وثبات قلب. والفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قال ابن القيم : وقوله : « ويعمى عن نقصان الخلق عن درجته » :

يعني أنه وإن كان أعلى ممَّن هو دونه من الناقصين عن درجته ، إلَّا أنه لاشتغاله بالله ، وامتلاء قلبه من محبَّته ومعرفته ، والإقبال عليه ؛ يشتغل به عن ملاحظة حال غيره ، وعن شهود النسبة بين حاله وأحوال الناس ، ويرى اشتغاله بذلك والتفاته إليه نزولًا عن مقامه ، وانحطاطًا عن درجته ، ورجوعًا على عقبيه .

فإن هجم عليه ذلك بغير استدعاء واختيار ، فليُداوِهِ بشهود المِنَّة ، وخوْف المكر ، وعدم علمه بالعاقبة التي يوافي عليها . والله المستعان »[1] .

(١) مدارج السالكين ٢/٣ - ٨ .

الفصل السادس عشر

عُلُـــوُّ الهِمَّــةِ

فـــي

التَّـــوَاضُــعِ

« إنَّكم لَتَغْفِلون أفضل العبادة : التواضع »

[أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها]

« لنْ يبلغَ العبدُ ذُرى الإيمان حتى يكون التواضعُ أحبَّ إليه من الشَّرَف »

[معاذ بن جبل رضي الله عنه]

□ عُلُوُّ الهِـمَّة في التـواضُـع □

اعلم يا أخي أنَّ الكِبْر والعُجْب داءَانِ مُهْلكان ، والمتكبِّر والمعجب سقيمان مريضان ، وهما عند الله ممقوتان بغيضان .

والله عـز وجلَّ الجبار المتكبِّر العلي الذي لا يَضَعُه عـن مجْدِه واضِـع ، الجبّار الـذي كلُّ جبَّار له ذليل خاضع ، وكل متكبِّر في جَنـاب عِزِّه ، مسكين متواضع ، هو القهَّار الذي لا يدفعه عن مراده دافع ، الغني الذي ليس له شريك ولا مُنازِع ، القادر الذي بَهَر أبصار الخلائق جلالُه وبهاؤه ، وقهَر العرْش المجيد استواؤه واستعلاؤه ، وحصر ألسنَ الأنبياءِ وصفُه وثناؤه ، وارتفع عن حدِّ قدرتِهم إحصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجْز عن وصف كنْهِ جلاله ملائكتُه وأنبياؤه ، وكسر ظهورَ الأكاسرة عزُّه وعلاؤه ، وقصر أيديَ القياصرة عظمتُه وكبرياؤه ، فالعظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه ، ومَن نازعه فيهما قصَمَه بداءِ الموت ، فأعجز دواؤه .

وقد أمر الله نبيه ﷺ بالتواضُع لمن آمن به من المؤمنين ؛ فقال عز وجل : ﴿ واخفضْ جَناحَك لِمَنِ اتَّبعك من المؤمنين ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

قال أبو حيان : « من اتبعك مؤمنًا فتواضَعْ له »[(١)] .

وقال الإمام القرطبي : « أي ألِنْ جانبك لمن آمن بك ، وتواضع لهم »[(٢)] .

» ورسولنا ﷺ كان يقول : « اللهمَّ أحْيني مسكينًا ، وأمتْني مسكينًا

---

(١) تفسير البحر المحيط ٤٦/٧ .

(٢) تفسير القرطبي صـ ٣٦٧٣ – طبعة : الشعب .

واحشرني في زمرة المساكين »[(١)] . تنويهًا بشرَف هذا المقام وفضله »[(٢)] .

قال ابن الأثير : « أراد به التواضع والإخبات ، وأن لا يكون من الجبَّارين المتكبِّرين »[(٣)] .

قال ابن تيمية : « فالمسكين المحمود هو المتواضع الخاشع لله ، ليس المراد بالمسكنة عدم المال ، بل قد يكون الرجل فقيرًا من المال وهو جبَّار .. فالمسْكَنة خُلُق في النفس ، وهو التواضُع والخشوع ، واللِّين ضدُّ الكبر ، كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جبَّارًا شقيًّا﴾ » [مريم: ٣٢][(٤)] .

وقال السبكي مخبرًا عن والده : « وكان رحمه الله يقول في قوله ﷺ : « اللهم أحيني مسكينًا » : إن المراد به استكانةُ القلب »[(٥)] .

فمن استكان قلبُه لله عز وجل وانكسَر له ، وتواضع لجلاله وكبريائه ، وعظمته وخشيته ، ومحبته ومهابته – جبره الله .

---

(١) حسن : أخرجه الترمذي ، والبيهقي في سننه والشُّعَب عن أنس ، وأخرجه ابن ماجه وعبد بن حُميد في مسنده ، والرافعي في « تاريخ قزوين » ، والخطيب في تاريخه ، وأبو بكر بن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري ، والطبراني في « الدعاء » ، وابن عدي في الكامل ، وأخرجه تمَّام في « فوائده » ، عن عبادة بن الصامت، والشيرازي في « الألقاب » عن ابن عباس .
وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٣٠٨ ، ثم رجع عن تصحيحه واكتفى بتحسينه فقط في إرواء الغليل ٣/٣٦٣ .
وحسَّنه تلميذه النجيب علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي في « التعليقة الأمنية » ، في طُرق حديث : « اللهم أحيني مسكينًا » – مكتبة : ابن القيم . المدينة المنورة .

(٢) الخشوع في الصلاة لابن رجب صـ١٠ .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/٣٨٥ .

(٤) مجموع الفتاوى ١٨/٣٨٢ .

(٥) طبقات الشافعية ٣/١٣٤ .

ومدَحَ اللهُ عبادَه عبادَ الرحمن ، وجعل أول صفاتهم التواضع ؛ فقال تعالى : ﴿ **وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

قال ابن القيم في « المدارج » (٣٢٧/٢) : « أي سكينة ووقارًا متواضعين ، غير أشِرِين ولا مرحين ولا متكبِّرين . قال الحسن : علماء حلماء . وقال محمد ابن الحنفية : أصحاب وقار وعفَّة لا يسفهون ، وإن سُفِه عليهم حلموا .

والهَوْن - بالفتح - في اللغة : الرفْق واللِّين ، والهُون - بالضّم -: الهَوَان . فالمفتوح منه : صفة أهل الإيمان ، والمضموم : صفة أهل الكفران . وجزاؤهم من الله النيران » .

قال ابن كثير في تفسيره عن هذه الآية : « أي بسكينة ووقار ، من غير جبرية ولا استكبار » .

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي : « ذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ، ونعوتهم أفضل النعوت ، فوصفهم بأنهم ﴿ **يمشون على الأرض هونًا** ﴾ أي ساكنين متواضعين لله وللخلق ، فهذا وصْف لهم بالوقار والسكينة ، والتواضع لله ولعباده »[١] .

والتواضع علامة حبِّ الله للعبد :

قال تعالى : ﴿ **يأيُّها الذين آمنوا مَن يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه أذلّة على المؤمنين أعزَّة على الكافرين** ... ﴾ الآية [المائدة : ٥٤] .

قال ابن كثير: «هذه صفات المؤمنين الكُمَّل؛ أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليِّه ، متعزِّزًا على خصمه وعدوِّه »[٢] .

---

(١) تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ٤٩٣/٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ٧٣/٢ .

وقال ابن القيم : « لما كان الذلُّ منهم ذُلَّ رحمة وعطف وشفقة وإخبات ، عدّاه بأداة « على » تضمينًا لمعاني هذه الأفعال ؛ فإنه لم يُرد به ذل الهوان الذي صاحِبُه ذليل، وإنما هو ذلُّ اللِّين والانقياد الذي صاحبُه ذلول، فالمؤْمن ذَلُولٌ، كما في الحديث: «المؤمن كالجمل الذَّلُول، والمنافق والفاسق ذليل». وأربعة يعشقهم الذلُّ أشدَّ العشْق : الكذَّاب ، والنمَّام ، والبخيل ، والجبَّار .

وقوله : ﴿ **أعزَّة على الكافرين** ﴾ : هو مِن عزَّة القوة والمنَعَة والغَلَبَة . قال عطاء رضي الله عنه: «لِلْمؤمنين كالوالِدِ لولده، وعلى الكافرين كالسَّبُع على فريسته » . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ **أشدَّاء على الكفار رحماءُ بينهم** ﴾ .

وهذا عكس حال مَنْ قيل فيهم :

كِبْرًا علينا وجُبنًا عن عدوِّكُمُ ... لَبِئستِ الخَلَّتانِ : الكِبْرُ والجُبْنُ »[(١)]

والعلو كلُّ العلوِّ في الداريْن للمتواضعين ؛ قال تعالى : ﴿ **تلك الدارُ الآخرةُ نجعلها للذين لا يريدون عُلوًّا في الأرضِ ولا فسادًا والعاقبةُ للمتقين** ﴾ [القصص : ٨٣] .

قال ابن كثير : « يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، ﴿**الذين لا يريدون عُلوًّا في الأرض**﴾ أي ترفُّعًا على خلْق الله، وتعاظُمًا عليهم، وتجبرًا عليهم، ولا فسادًا فيهم»[(٢)] .

وقد وردت أحاديثُ عَطِرة في التواضع في السنة المطهَّرة :

فقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله أوحى إلي: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد »[(٣)] .

(١) مدارج السالكين ٢/٣٢٧ - ٣٢٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٠٢ .
(٣) أخرجه مسلم وابن ماجه وأبو داود وأبو نعيم عن عياض بن حمار .

وقال ﷺ : « إنَّ الله تعالى أوحى إليَّ : أن تواضعوا ، ولا يبغي بعضُكم على بعض »[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما مِن آدميّ إلّا في رأسه حَكَمَة[٢] بيد مَلَك ، فإذا تواضع قيل للمَلَك : ارفعْ حَكَمته . وإذا تكبّر قيل للملك : دعْ حَكَمته »[٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما استكبَر مَن أكَلَ معه خادمُه، وركب الحمارَ بالأسواق، واعتقل[٤] الشاةَ فحلبها »[٥] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلّا عِزًّا ، وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله » . رواه مسلم .

قال النووي: (« وما تواضع أحدٌ لله إلَّا رفعه الله » : فيه وجهان :

أحدهما : يرفعه الله في الدنيا ، ويُثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس ، ويُجلُّ مكانَه .

والثاني : أن المراد ثوابه في الآخرة ، ورَفعُه فيها بتواضعه في الدنيا)[٦].

---

(١) حسن : أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، وابن ماجه عن أنس ، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٥٧٠ ، وصحيح الجامع رقم ١٧٢٢ .

(٢) الحَكَمَة : الحديدة في اللجام تكون على أنف الفرس وحَنَكِه ؛ تمنعه عن مخالفة راكبه .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، والبزار عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٥٣٥ ، وصحيح الجامع رقم ٥٥٥١ .

(٤) أي : حلبها .

(٥) حسن : رواه البخاري في الأدب المفرد ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والديلمي عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم ٢٢١٨ ؛ وصحيح الجامع رقم ٥٤٠٣ .

(٦) شرح مسلم للنووي ١٦/١٤٣ .

قال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه : وجدْنا الكَرَمَ في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع .

وقال عروة بن الورْد : التواضُع أحد مصائد الشرف ، وكلُّ نعمة محسودٌ عليها صاحبها إلّا التواضع .

وقال إبراهيم بن شيبان : الشرف في التواضع ،والعزُّ في التقوى ، والحرية في القناعة .

وقال مصعب بن الزبير : التواضع مصايد الشرف .

درجاتُ التواضُع :

قال شيخ الإسلام الهروي : وهو على ثلاث درجات :

« **الدرجة الأولى : التواضعُ للدِّين : وهو أنْ لا يُعارضَ بمعقولٍ منقولًا ، ولا يتهم للدِّين دليلًا ، ولا يرى إلى الخلاف سبيلًا** » :

قال ابن القيم : « **التواضع للدين** » : هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ ، والاستسلام له ، والإذعان . وذلك بثلاثة أشياء :

● **الأول** : أن لا يعارض شيئًا مما جاء به بشيءٍ من المعارضات الأربعة السارية في العالم ؛ المسمَّاة بـ : المعقول ، والقياس ، والذوق ، والسياسة .

فالأول : للمنحرفين أهل الكِبْر من المتكلّمين ، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة ، وقالوا : إذا تعارَض العقل والنقل ؛ قدَّمنا العقل وعزلْنا النقل ؛ إما عزْلَ تفويض ، وإما عَزْل تأويل .

والثاني : للمتكبِّرين من المنتسبين إلى الفقه ؛ قالوا : إذا تعارض القياس والرأي والنصوص ؛ قدَّمنا القياس على النصِّ ، ولم نلتفتْ إليه .

والثالث: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوُّف والزهد . فإذا تعارض عندهم الذوْق والأمر ؛ قدموا الذوْق والحال ، ولم يعبئوا بالأمر .

والرابع : للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين . إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة ؛ قدّموا السياسة ، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة .

فهؤلاء الأربعة : هم أهل الكبر . والتواضع : التخلّص من ذلك كلّه .

● **الثاني** : أن لا يتهم دليلًا مِن أدلّة الدين ، بحيث يظنّه فاسد الدلالة ، أو ناقص الدلالة أو قاصرها ، أو أنَّ غيره كان أولى منه . ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهمْ فهْمَه ، وليْعلمْ أن الآفة منه ، والبلية فيه ، كما قيل :

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا … وآفتُه مِنَ الفهمِ السقيمِ
ولكنْ تأخذُ الأذهانُ منه … على قدْرِ القرائحِ والفهومِ

وهكذا الواقع في الواقع حقيقة: أنه ما اتهم أحدٌ دليلًا للدِّين إلّا وكان المتهِم هو الفاسد الذهْن، المأفون في عقله وذِهنه . فالآفة من الذهن العليل ، لا في نفس الدليل .

وإذا رأيتَ من أدلّة الدين ما يشكُل عليك، وينبو فهمُك عنه ، فاعلمْ أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك ، وأن تحته كَنْزًا مِن كُنوز العلم ، ولم تُؤْتَ مفتاحه بعدُ . هذا في حقِّ نفسك .

وأما بالنسبة إلى غيرك : فاتهمْ آراء الرجال على نصوص الوحي ، ولْيكنْ ردُّها أيسرَ شيءٍ عليك للنصوص ، فما لم تفعلْ ذلك فلستَ على شيءٍ . ولو .. ولو .. وهذا لا خلاف فيه بين العلماء .

قال الشافعي - قدّس الله روحه -: أجمع المسلمون على أن مَنِ استبانت له سنة رسول الله ﷺ ؛ لم يحِلَّ له أن يدَعَها لقول أحد .

● **الثالث** : أن لا يجد إلى خلاف النصِّ سبيلًا ألبتة ؛ لا بباطنه ولا بلسانه ، ولا بفعله ولا بحاله . بل إذا أحسَّ بشيءٍ من الخلاف : فهو كخلاف الْمُقْدِمِ على الزنا وَشُرْب الخمر وقتْل النفس ، بل هذا الخلاف أعظم عند الله

من ذلك ، وهو داعٍ إلى النفاق ، وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم.

واعلمْ أن المخالف للنصِّ لقول متبوعه وشيخه وَمُقَلَّده ، أو لرأيه ومعقوله وذوْقه وسياسته ؛ إن كان عند الله معذورًا - ولا والله ما هو بمعذور - فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولى بالعُذْر عند الله ، ورسوله ، وملائكته ، والمؤمنين من عباده .

فواعجبًا إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذْر مَن خالفها تقليدًا ، أو تأويلًا ، أو لغير ذلك !! فكيف ضاق عن عذْر مَن خالف أقوالهم ، وأقوال شيوخهم لأجل موافقة النصوص ؟! وكيف نصبوا له الحبائل، وبغوه الغوائل ، ورموه بالعظائم ، وجعلوه أسوأ حالًا من أرباب الجرائم ، فرموه بدائهم وانسلُّوا منه لِوَاذًا ، وقذفوه بمصابهم وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذًا لهم ومعاذًا ؟! والله أعلم .

قال : « ولا يصحُّ ذلك إلا بأن يعلم أن النجاة في البصيرة والاستقامة بعد الثقة ، وأن البينة وراء الحجَّة » .

يقول : إنَّ ما ذكرناه من التواضع للدين : بهذه الأمور الثلاثة :

الأول : علْمُه أن النجاة من الشقاء والضلال ، إنما هي في البصيرة ؛ فمن لا بصيرة له : فهو مِن أهل الضلال في الدنيا والشقاء في الآخرة .

والبصيرة نور يجعلُه الله في عيْن القلب ، يفرِّق به العبد بين الحقِّ والباطل ، ونسبته إلى القلب : كنسبة ضوء العيْن إلى العيْن .

وهذه « البصيرة » وهبية وكسبية ؛ فمن أدار النظر في أعلام الحقِّ وأدلَّته ، وتجرَّد لله من هواه ؛ استنارت بصيرته ، ورُزق فرقانًا يفرِّق به بين الحق والباطل .

الثاني : أنْ يعلم أنَّ الاستقامة إنما تكون بعد الثقة ؛ أي لا يتصوَّر حصول الاستقامة في القول والعمل والحال ، إلّا بعد الثقة بصحَّة ما معه مِن العلم . وأنه

مُقتبَس من مشكاة النبوة . ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة .

الثالث : أن يعلم أن البينة وراء الحجَّة ؛ و « البينة » مراده بها : استبانة الحقِّ وظهوره ، وهذا إنما يكون بعد الحجة إذا قامتْ استبان الحق وظهر واتضح .

وفيه معنًى آخر ، وهو : أن العبد إذا قبل حجَّة الله بمحْض الإيمان والتسليم والانقياد ؛ كان هذا القبول هو سبب تبيُّنها وظهورها وانكشافها لقلبه . فلا يصبر على بينة ربِّه إلَّا بعد قبول حُجَّته .

وفيه معنًى آخر أيضًا : أنه لا يتبيّن له عيب عمله مِن صحَّته إلَّا بعد العلم الذي هو حجَّة الله على العبد ، فإذا عرف الحجَّة اتضح له بها ما كان مشْكَلًا عليه من علومه ، وما كان معيبًا من أعماله .

وفيه معنًى آخر أيضًا : وهو أن يكون « وراء » بمعنى أمام ؛ والمعنى : أن الحجَّة إنما تحصل للعبد بعد تبينها ، فإذا لم تتبيَّن له لم تكن له حجَّة ؛ يعني فلا يقنع من الحجة بمجرَّد حصولها بلا تبيُّن؛ فإن التبيُّن أمام الحجة. والله أعلم .

الدرجة الثانية : « أنْ ترضي بما رضيَ الحقُّ به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا ، وأن لا تردَّ على عدوِّك حقًّا ، وأن تقبلَ من المعتذِر معاذيره » :

قال شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله : « يقول : إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا ، أفلا ترضى أنت به أخًا ؟! فعدم رضاك به أخًا - وقد رضيه سيِّدك الذي أنت عبدُه ، عبدًا لنفسه - عيْنُ الكِبْر . وأيُّ قبيح أقبح من تكبُّر العبد على عبد مثله ، لا يرضى بأُخوته ، وسيده راض بعبوديته ؟!

فيجيء من هذا : أن المتكبِّر غيرُ راضٍ بعبودية سيِّده ؛ إذ عبوديته تُوجب رضاه بأُخوَّة عبدِه ، وهذا شأن عبيد الملوك ؛ فإنهم يرون بعضهم خُشْداشيةَ بعضٍ ، ومَن ترفَّع منهم عن ذلك ؛ لم يكن مِن عبيد أستاذهم .

قوله : « وأن لا تردَّ على عدوِّك حقًّا » : أي لا تصحّ لك درجة « التواضع » حتى تَقبلَ الحق ممَّن تحبُّ وممَّن تُبغض ، فتقبله من عدوِّك كما تقبله من وليِّك ، وإذا لم تردَّ عليه حقّه ، فكيف تمنعه حقًّا له قِبَلَك ؟! بل حقيقة «التواضع»: أنه إذا جاءك قَبِلْتَه منه، وإذا كان له عليك حقٌّ أدَّيتَه إليه، فلا تمنعك عداوته من قبول حقِّه، ولا من إتيانه إياه .

وأمَّا « قبولك من المعتذر معاذيره » : فمعناه : أن من أساء إليك ، ثم جاء يعتذر من إساءته ؛ فإن « التواضُع » يوجب عليك قبول معذرته ، حقًّا كانت أو باطلًا ، وتكِلُ سريرته إلى الله تعالى ، كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلَّفوا عنه في الغزو، فلمَّا قَدِم جاءوا يعتذرون إليه ؛ فقبل أعذارهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى .

وعلامة الكرم والتواضع : أنك إذا رأيتَ الخلَلَ في عذْره لا تُوقفْه عليه ولا تحاجَّه ، وقل : يمكن أن يكون الأمرُ كما تقول . ولو قضي شيءٌ لَكَان ، والمقدور لا مدفع له . ونحو ذلك » .

الدرجة الثالثة : « أن تَّضعَ للحقِّ ، فتنزل عن رأيك وعوائدك في الخدمة ، ورؤية حقِّك في الصحْبة ، وعن رَسْمك في المشاهدة » :

قال ابن القيم رحمه الله : « يقول : « التواضع » بأن تخدم الحقَّ سبحانه وتعبده بما أمرك به ، على مقتضى أمره لا على ما تراه من رأيك ، ولا يكون الباعث لك داعي العادة ، كما هو باعث مَن لا بصيرة له ، غير أنه اعتاد أمرًا فجرى عليه ، ولو اعتاد ضدَّه لكان كذلك .

وحاصلُه : أنه لا يكون باعثه على العبودية مجرَّد رأي ، وموافقة هوى ، ومحبة وعادة . بل الباعث مجرَّد الأمر ، والرأيُ والمحبَّة والهوى والعوائد : منفذة تابعة ، لا أنها مطاعة باعثة . وهذه نكتة لا يتنبَّه لها إلَّا أهلُ البصائر .

وأما : « نزوله عن رؤية حقِّه في الصحبة » : فمعناه : أن لا يرىٰ لنفسه حقًا على الله لأجل عمله ؛ فإن صحبته مع الله : بالعبودية والفقر المحْض ، والذل والانكسار. فمتى رأى لنفسه عليه حقًا فسدت الصحبة، وصارت معلولة وخِيف منها المقت ، ولا ينافي هذا ما أحقَّه سبحانه على نفسه ، من إثابة عابديه وإكرامهم ؛ فإنَ ذلك حقٌّ أحقَّه على نفسه بمحْض كرمه وبرِّه وجوده وإحسانه ، لا باستحقاق العبيد ، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم .

فعليك بالفرقان في هذا الموضع الذي هو مفترَق الطرق . والناس فيه ثلاث فرق : فرقة رأت أن العبد أقلّ وأعجز من أن يُوجب على ربِّه حقًّا . فقالت : لا يجب على الله شيء ألبتة . وأنكرت وجوبَ ما أوجب على نفسه .

وفرقة رأت أنه سبحانه أوجب على نفسه أمورًا لعبده ، فظنَّت أن العبد أوجبها عليه بأعماله ، وأن أعماله كانت سببًا لهذا الإيجاب . والفرقتان غالطتان .

والفرقة الثالثة : أهل الهدى والصواب ، قالت : لا يستوجب العبد على الله بسعْيه نجاة ولا فلاحًا . ولا يُدخل أحدًا عملُه الجنة أبدًا ، ولا يُنجيه من النار . والله تعالى – بفضله وكرمه ، ومحض جوده وإحسانه – أكد إحسانه وجوده وبرَّه بأنْ أوجب لعبده عليه سبحانه حقًّا بمقتضى الوعد ؛ فإن وعْد الكريم إيجاب ، ولو بـ « عسىٰ ، ولعلَّ » .

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : « عسى » : من الله واجب .
ووعْد اللئيم خلْف ، ولو اقترن به العهد والحلف .

والمقصود : أن عدم رؤية العبد لنفسه حقًّا على الله ، لا ينافي ما أوجبه الله على نفسه ، وجعله حقًّا لعبده ، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : « يا معاذ ، أتدري ما حقُّ الله على العباد ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . قال:« حقه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا . يا معاذ ، أتدري ما حقُّ

العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » . قلتُ : الله ورسوله أعلم . قال : « حقُّهم عليه أن لا يعذبهم بالنار » .

فالربُّ سبحانه ما لأحدٍ عليه حقٌّ . ولا يضيع لديه سعي ، كما قيل :

ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبُ كلا ولا سعْي لديهِ ضائِعُ
إن عُذِّبوا فبعدْله أو نُعموا فبفضله وهو الكريمُ الواسِعُ

وأما قوله : « وتنزل عن رسْمك في المشاهدة » :

أي من جملة التواضع للحق : فَناؤك عن نفسك ؛ فإن رسْمه هي نفسه ، والنزول عنها : فَناؤه عنها حين شهوده الحضرة ، وهذا النزول يصحُّ أن يُقال : كسبيٌّ باعتبار ، وإن كان عند القوم غير كسبي ؛ لأنه يحصل عند التجلي ، والتجلي نور ، والنور يقهر الظلمة ويبطلها ، والرسم عند القوم ظلمة ، فهي تنفر من النور بالذات ، فصار النزول عن الرسْم حين التجلى ذاتيًّا .

ووجه كونه كسبيًّا : أنه نتيجة المقامات الكسبية ، ونتيجة الكسبي : كسبيّ .

وثمرته ، وإن حصلت ضرورة بالذات : لم يمتنع أن يُطلق عليها : كونها كسبية باعتبار السبب . والله أعلم » .

عُلُوُّ همَّة سيِّدِ ولدِ آدمَ ﷺ في التواضع :

لقد كان رسول الله ﷺ أشدَّ الناس تواضعًا ؛ ويَبرز ذلك واضحًا جليًّا في :

تواضُعه مع ربِّه عزَّ وجل :

لقد اختار رسول الله ﷺ أن يكون عبدًا رسولًا عن أن يكون مِلِكًا نبيًّا ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جلس جبريل إلى النبي ﷺ ، فنظر إلى السماء فإذا مَلَك ينزِل ، فقال جبريل : إن هذا المَلَكَ ما نزل منذ يوم خُلِق قبل الساعةِ ، فلمّا نزل قال : يا محمد ، أرسَلني إليك ربُّك قال : أفمَلِكًا نبيًّا

يجعلك ، أو عبدًا رسولًا ؟ قال جبريل : تواضَعْ لربِّك يا محمد . قال : « بل عبدًا رسولًا »(١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، لو شئتُ لسارتْ معي جبال الذهب ، جاءني مَلَكٌ ، إنَّ حُجْزته لتُساوي الكعبةَ ، فقال : إن ربَّك يقرأ عليك السلام ويقول : إنْ شئتَ نبيًّا عبدًا ، وإن شئتَ نبيًّا ملِكًا . فنظرت إلى جبريل عليه السلام ، فأشار إليَّ أن ضعْ نفسك . قال : فقلتُ : نبيًّا عبدًا . قالت : وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا، يقول : آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد »(٢) .

تواضعه ﷺ مع الناس :

عن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ « كان يمرُّ على الصبيان فيسلِّم عليهم »(٣) .

وعن جرير رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ : « كان يمرُّ بنساءٍ فيسلِّم عليهنَّ »(٤) .

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : « كانت الأَمَة تأخذ بيده ﷺ ، فتنطلق به حيث شاءت »(٥) .

---

(١) صحيح : قال الهيثمي في المجمع ١٩/٩ : « رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأوَّلَيْن رجال الصحيح ، ورواه أبو يعلى بإسناد حسن » .

(٢) صحيح لغيره : رواه البغوي في شرح السنة .

(٣) رواه البخاري ومسلم والدارمي .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن جرير ، وأخرجه ابن السني ، والطبراني في الكبير ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود والترمذي عن أسماء الأنصارية وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٨٩١) .

(٥) رواه البخاري .

وعن أنس رضي الله عنه : أنَّ امرأةً جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له : إن لي إليك حاجة . فقال : « يا أُمَّ فلان ، اجلسي في أي طُرُق المدينة شئْتِ ، أجلسْ إليك »[(١)] .

وفي رواية لمسلم : « فخلا معها في بعض الطريق حتى فرغت من حاجتها » .

وعن سهل بن حنيف قال : «كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاءَ المسلمين ويزورهم ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنائزهم »[(٢)] .

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : « كان ﷺ يُردِف خلفه ، ويضع طعامه على الأرض ، ويُجيب دعوة المملوك ويركب الحمار »[(٣)] .

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال : كان ﷺ يركب الحمار ، ويخصف النعل ويرقع القميص ، ويلبس الصوف ، ويقول : « مَن رغِب عن سنتي فليس مني »[(٤)] .

عن الحسن البصري رحمه الله أنه ذُكر رسول الله ﷺ فقال : « لا والله ، ما كانت تُغلق دونه الأبواب ، ولا يقوم دونه الحجاب ، ولا يُغدى عليه بالجِفان ، ولا يروح عليه بها ، ولكنه كان بارزًا ، من أراد أن يلقى نبيَّ الله لقيَه ، وكان يجلس بالأرض ، ويُوضع طعامُه بالأرض ، يلبس الغليظ ، ويركب الحمار ، ويُردِف عبدَه ويَعلِف دابَّته بيده »[(٥)] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) صحيح : رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٢١١٢ .

(٣) صحيح : رواه الحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١٢٥ .

(٤) حسن : أخرجه ابن عساكر عن أبي أيوب ، وأخرجه أبو الشيخ ، والسهمي وابن سعد عن الحسن البصري مرسلًا ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٨٢٢ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٢١٣ .

(٥) صفة الصفوة ١/١٦٨ - ١٦٩ .

وعن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ « كان يزور الأنصار ، ويسلِّم على صبيانهم ، ويمسح رؤوسهم »(١) .

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال : إنْ كان رسول الله ﷺ لَيُخالطنا حتى يقول لأخٍ لي صغير : « يا أبا عُمير ، ما فعَل النُّغَيْر ؟ »(٢) .

وفي رواية البخاري : كان أحسن الناس خلقًا ، وكان لي أخٌ يُقال له : أبو عُمير، وهو فطيم، كان إذا جاءَنا قال: « يا أبا عُمير ، ما فعل النُّغَيْر ؟ » . لنُغر كان يلعب به .

وعن أنس رضي الله عنه قال : لم يكن شخص أحبَّ إليهم من رسول الله ﷺ ، قال : وكانوا إذا رأوه لم يقوموا ؛ لما يعلمون من كراهته لذلك(٣) .

وعن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ « كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه ، قام معه فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه ، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ، ناوله إياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه ، وإذا لقي أحدًا من أصحابه فتناول أذنه ، ناوله إياها ، ثم لم ينزعْها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه »(٤) .

وعن ابن أبي أوفى رضي الله عنه ، أنه ﷺ « كان يُكثر الذكر ، ويُقلُّ اللَّغْوَ ، ويُطيل الصلاة ويقصر الخطبة ، وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد ، حتى يقضي له حاجته »(٥) .

---

(١) صحيح : أخرجه النسائي ، والطحاوي ، وأبو نعيم في الحلية ، والخطيب في تاريخه ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١٢٧٨ ، وصحيح الجامع رقم ٤٨٢٣ .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي واللفظ له ، وأبو عمير : أخٌ لأمٍّ لأنس ، وهو ابن أبي طلحة. النُّغَيْر: تصغير النُّغَر، بضمِّ النون وفتح الغين، وهو عصفور صغير .

(٣) صحيح : رواه الترمذي والبخاري في الأدب المفرد .

(٤) حسن : أخرجه ابن سعد وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٦٥٦ .

(٥) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن ابن أبي أوفى ، والحاكم عن أبي سعيد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٨٨١ .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُطروني كما أطرتِ النصارى عيسى بن مريم ؛ إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله»[١] .

وعن أنس أنَّ رجلًا قال : يا محمد أَيَا سيدنا وابنَ سيدنا ، وخيْرنا وابنَ خيرنا ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أيُّها الناس ، عليكم بتقواكم ، ولا يستهوينَّكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، أنا عبد الله ورسوله ، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله »[٢] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يتخلَّف في المسير ، فيزجي الضعيف ، ويردف ، ويدعو لهم »[٣] .

وعن أبي رفاعة تميم بن أُسيد رضي الله عنه ، قال : انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب ، فقلتُ : يا رسول الله ، رجل غريب جاءَ يسأل عن دينه ، لا يدري ما دينه ؟ فأقبَلَ عليَّ رسول الله ﷺ وترَك خطبته ، حتى انتهى إليّ ، فأُتي بكرسيٍّ حسبتُ قوائمه حديدًا ، فقعد عليه ، وجعل يعلِّمني ممَّا علَّمه الله ، ثم أتى خطبته فأتمَّ آخرها[٤] .

تواضعه معَ أهلِه وبيته :

عن الأسود بن يزيد قال: «سُئِلَتْ عائشة: وما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ؛ بدء الخلق ، باب قوله تعالى : ﴿ **واذكرْ في الكتاب مريم** ﴾ .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ١٥٧٢ : إسناده على شرط مسلم .

(٣) صحيح : رواه أبو داود والحاكم ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١٢٠ .

(٤) رواه مسلم .

قالت : كان يكون في مهنة أهله ، فإذا حضرتِ الصلاة ، قام إلى الصلاة »[(١)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه ، أدَمًا حَشْوه ليفٌ »[(٢)] .

وعن أبي موسى رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ، ويلبس الصوف ، ويعتقل الشاة ، ويأتي مراعاة الضيف[(٣)] .

وعن ثابت قال : أخرَجَ إلينا أنس بن مالك قدَحَ خشبٍ غليظًا مُضبّبًا بحديد ، فقال : يا ثابت ، هذا قدَحُ رسول الله ﷺ[(٤)] .

وعن أنس قال : إنَّ خيّاطًا بالمدينة دعا النبي ﷺ لطعامه . قال : فإذا خبز شعيرٍ بإهالةٍ سنخة ، وإذا فيها قرْعٌ . قال : فرأيتُ النبي ﷺ يُعجبه القرْع . قال أنس : لم يزل يُعجبني القرْعُ منذ رأيتُ رسول الله ﷺ يُعجبه[(٥)] .

وعن عمرو بن حريث قال : رأيتُ رسول الله ﷺ يصلي في نعليْن مخصوفتين[(٦)] .

وعن أنس قال : كان ﷺ يُؤتى بالتمر فيه دُود ، فيفتّشه ، يُخرج السُّوسَ منه[(٧)] .

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) رواه مسلم .

(٣) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، وصحّحه ووافقه الذهبي ، وتابعه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥/١٥٥ .

(٤) صحيح : رواه الترمذي في الشمائل ، وصحّحه الألباني رقم ١٦٧٦ .

(٥) سنده صحيح : رواه أحمد . والإهالة : هي مما يؤتدم به من الادِّهان . والسنخة : المتغيِّرة الرائحة .

(٦) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي في الشمائل ، واللفظ له . والنعلان المخصوفتان : أي المخروزتان أو المرقّعتان .

(٧) صحيح : رواه أبو داود وابن ماجه مختصرًا ، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١١٣ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلتُ: يا رسول الله ، الوضوءُ من جرٍّ جديد مُخمَّر ؛ أحبُّ إليك أم من المطاهر ؟ قال : « لا ، بل من المطاهر ؛ إنَّ دين الله يسْرٌ ، الحنيفيّة السَّمْحة » .

قال[١] : كان يبعث إلى المطاهر ، فيؤتى بالماءِ فيشربه ، يرجو بركة أيـدي المسلمين[٢] .

وعن عبَّاد بن تميم ، عن عمِّه ؛ أنه رأى النبي ﷺ مستلقيًا في المسجد واضعًا إحدى رجليْه على الأخرى[٣] .

وعن أنسٍ : أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا أكل طعامًا ، لعقَ أصابعه الثلاث[٤] .

وعنه أيضًا قال : ما علمتُ النبي ﷺ أكل على سُكُرُّجة قطّ ، ولا خُبز له مرقّق قط ، ولا أكَل على خِوان قطُّ .

قيل لقتادة : فعلامَ كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر[٥] .

---

(١) أي : ابن عمر .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية ، وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١١٨ . والمطاهر ، جمع المطهرة : كلُّ إناء يتطهَّر منه ؛ كالإبريق والركوة وغيرها .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي في الشمائل واللفظ له .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه البخاري . قال الشيخ الألباني : « الخوان - بكسْر الخاء ويُضمُّ -: وهو مرتفع يهيَّأ ليُؤْكَل الطعام عليه . والسكرجة بضم السين والكاف والراء المشدَّدة المضمومة : هي إناء صغير يُوضع فيه الشيء القليل المشهي للأكل ؛ كالسلطة والمخلل . والسُّفر : جمع سفرة ، وهي أخصُّ من المائدة ، وهي ما يمدُّ ويُبْسط ليُؤكل عليه ، سواء كان من الجلد أو الثياب » . اهـ . من : مختصر الشمائل المحمدية صـ ٨٨ .

تواضع موسى عليه السلام :

قال أبو سليمان الداراني : « إن الله عز وجل اطَّلع على قلوب الآدميِّين ، فلم يجد أشدَّ تواضعًا من قلب موسى عليه السلام ، فخصَّه من بينهم بالكلام »[١] .

تواضعُ الصِّدِّيق رضي اللهُ عنه[٢] :

قال الصديق رضي الله عنه : وددتُ أني شعرةٌ في جنْب عبد مؤمن[٣] .

قال هذا رضي الله عنه وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « في « المسند » مِن وجهيْن عن النبي ﷺ : أن النبي ﷺ وُزِن بالأُمَّة فرَجَحَ ، ثم وُزِن أبو بكر بالأمّة فرجَحَ ، ثم وُزن عمر بالأُمة فرجح »!!![٤]

هذا الصديق العظيم الذي كان يحلب للضعفاء أغنامهم .

تواضع الفاروق رضي الله عنه :

عن حزام بن هشام ، عن أبيه ، قال : رأيتُ عمر بن الخطاب رضي اللهُ عنه مرَّ على امرأةٍ وهي تعصد عصِيدة لها، فقال: ليسَ هكذا يُعْصد. ثم أخذ المسوط فقال : هكذا . فأَرَاها[٥] .

عن أسلَمَ ، قال : « قدِم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشامَ على بعير ، فجعلوا يحدِّثون بينهم ، فقال عمر : تطمح أبصارهم إلى مراكبَ مَن لا خَلاق له !! »[٦] .

---

(١) إحياء علوم الدين .
(٢) سيأتي في علو همَّة الخلفاء والملوك .
(٣) الزهد لأحمد صـ١٠٨ .
(٤) الإيمان لابن تيمية – الطبعة الثانية ، المكتب الإسلامي .
(٥) طبقات ابن سعد ، وحياة الصحابة للكاندهلوي ٢/٥٥٠ .
(٦) أخرجه ابن عساكر وابن المبارك .

يعيب عليهم أمنيتهم مراكب المتكبِّرين .

وعن محمد بن عمر المخزومي، عن أبيه قال: نادى عمر بن الخطاب: الصلاةُ جامعة . فلمَّا اجتمع الناس وكثروا صعِد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيِّه ﷺ ثم قال: أيُّها الناس، لقد رأيتُني أرعى على خالاتٍ لي من بني مخزوم ، فيقبضْنَ لي القبضة من التمر والزبيب فأظلّ يومي وأيّ يوم . ثم نزل ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين ، ما زلت على أن قمِئْتَ[1] نفْسَك ؟! فقال : ويْحَك يا ابن عوْف !! إني خلوتُ فحدَّثتْني نفسي ، فقالت : أنت أمير المؤمنين ؛ فمن ذا أفضل منك ؟! فأردتُ أن أعرِّفها نفْسها[2] .

وعن الحسن قال : خرج عمر بن الخطاب في يوم حارٍّ واضعًا رداءَه على رأسه ، فمرَّ به غلام على حمار ، فقال : يا غلام ، احملني معك . فوثب الغلام عن الحمار ، وقال اركبْ يا أمير المؤمنين . قال : لا ، اركبْ وأركبُ أنا خلفك . تريد تحملني على المكان الوطيء ، وتركبُ أنت على الموضع الخَشِن !! فركب خلف الغلام ، فدخل المدينة ، وهو خلفه والناس ينظرون إليه[3] .

« وعن أبي محذورة قال : كنت جالسًا عند عمر رضي الله عنه ، إذ جاء صفوان بن أُمَيَّة بجَفْنَة يحملها نفرٌ في عباءة، فوضعوها بين يدي عمر، فدعا عمر ناسًا مساكينَ وأرِقَّاء من أرقَّاء الناس حوْله ، فأكلوا معه ، ثم قال عند ذلك : فعَلَ الله بقوم - أو قال : لحى[4] الله قومًا - يرغبون عن أرقائهم أن

---

(١) قمئْتَ : أي : عِبْت .

(٢) طبقات ابن سعد (٢٩٣/٣) .

(٣) حياة الصحابة ٥٥١/٢ .

(٤) أي : قبحهم الله ولعنهم .

يأكلوا معهم !! فقال صفوان : أمَا واللهِ ، ما نرغب عنهم ، ولكنَّا نستأثر عليهم ، لا نجد - واللهِ - من الطعام الطيِّب ما نأكل ونُطعمهم »[١] .

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما : « رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتِقِه قربة ماء ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، لا ينبغي لك هذا . فقال : لمَّا أتاني الوفود سامعين مطيعين ، دخلتْ نفسي نخوةٌ ، فأردتُ أن أكسرها »[٢] .

وعن سنان بن سلمة الهُذلي قال : خرجتُ مع الغلمان ونحن نلتقط البلح ، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه معه الدِّرَّة، فلمَّا رآه الغِلمانُ تفرَّقوا في النَّخْل. قال : وقمتُ وفي إزاري شيءٌ قد لقطتُه ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، هذا ما تُلقي الريح . قال : فنظر إليه في إزاري فلم يضربني ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، الغلمان الآن بين يديَّ ، وسيأخذون ما معي . قال : كلا ، امشِ . قال : فجاء معي إلى أهلي[٣] .

وقسَّم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم حُلَلًا ، فبعث إلى معاذ حُلَّة ثمينة ، فباعها ، واشترى بثمنها ستة أعبد وأعتقهم ، فبلغ ذلك عمر ، فبعث إليه بعد ذلك حُلَّة دونها ، فعاتبه معاذ ، فقال عمر : لأنك بعت الأولى . فقال معاذ : وما عليك ؟! ادفع لي نصيبي ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك . فقال عمر رضي الله عنه : رأسي بين يديْك ، وقد يُرفق الشابُّ بالشيخ[٤] .

---

(١) صحيح الإسناد : رواه البخاري في الأدب المفرد ، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد صـ٩٣ : صحيح الإسناد .
(٢) مدارج السالكين ٢/٣٣٠ .
(٣) حياة الصحابة ٢/٥٥١ .
(٤) مدارج السالكين ٢/٣٣٠ .

لله درُّك يا ابن الخطاب !! فكل حياتك مواقف تعجزُ عن وصفها الكلمات .

تواضعُ ذي النورَيْن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه :

عن ميمون بن مهران قال : أخبَرَني الهمداني أنه رأى عثمان بن عفان رضي الله عنه على بغلة ، وخلفه عليها غلامه نائل وهو خليفة[١] .

وقال أيضًا : رأيتُ عثمان نائمًا في المسجد في مِلحفة ، ليس حوْلَه أحد وهو أمير المؤمنين .

تواضع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

عن عمرو بن قيْس : أن عليًّا رضي الله عنه رُئِيَ عليه إزار مرقوع ، فعُوتِب في لبوسه ، فقال : يقتدي به المؤمن ، ويخشع له القلب[٢] .

تواضع عبد الرحمن بن عوْف رضي الله عنه :

عن سعد بن الحسن التميمي ، قال : كان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرَف مِن بين عبيده . يعني : من التواضع في الزِّيِّ .

رضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ الذين علموا فعمِلوا .. علموا قول رسولهم ﷺ : « البذاذةُ من الإيمان »[٣] . والبذاذةُ: اللباسُ دون اللباس والتواضع ، ورَثَاثة الثياب في الملبس والمفرش . وقد قال ﷺ : « مَن ترك اللباس تواضعًا لله ، وهو يقدر عليه ؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ،

---

(١) الزهد لأحمد صـ١١٧ .

(٢) إسناده صحيح : أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ، وهنَّاد بن السريّ في الزهد ، وابن سعد في الطبقات ، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول .

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود وابن ماجه، والبخاري في تاريخه ، والطبراني في المعجم الكبير ، والحاكم في المستدرك وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وصحَّحه الألباني .

حتى يخيِّره من أي حُللِ الإيمان شاء يلبسها »(١) .

ولله درُّ القائل :

لَيسَ الجمالُ بمِئْزَرٍ   فاعلمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدَا
إنَّ الجمالَ معادِنٌ   ومحاسنٌ أَوْرثنَ مجْدَا

عن نبي الله عيسى بن مريم قال : جوْدةُ الثياب خُيَلاءُ القلب .

«وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرَّة، فكان يحمل حُزْمةَ الحطب على ظهره ويقول : طرِّقوا للأمير .

وركِب زيد بن ثابت مرة ، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مَهْ يا ابن عمِّ رسول الله !! فقال : هكذا أُمِرْنا أن نفعل بكبرائنا . فقال: أَرني يدَكَ ، فأخرجها إليه فقبلها، فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ .

ومرَّ الحسن على صبيانَ معهم كِسرُ خُبز ، فاستضافوه فنزل ، فأكل معهم ثم حملهم إلى منزله ، فأطعمهم وكساهم ، وقال : اليدُ لهم . لأنهم لا يجدون شيئًا غير ما أطعموني ، ونحن نجدُ أكثر منه .

ويُذكر أن أبا ذرٍّ رضي الله عنه عَيّر بلالًا رضي الله عنه بسواده، ثم ندِم ، فألقى بنفسه ، فحلف : لا رفعت رأسي حتى يطأ بلالٌ خَدِّي بقدمه . فلم يرفع رأسه حتى فعَل بلال »(٢) .

عن فُضيل بن عياض قال : رئي على سلْمَان جُبَّةٌ من صوف ، فقيل له : لو لبِستَ ألْيَنَ من هذا ؟ قال : إنما أنا عبد ، ألبسُ كما يلبَسُ العبد ، فإذا عُتِقْتُ لبستُ ثيابًا لا تبْلَى حواشيها(٣) .

(١) حسن : رواه الترمذي ، والحاكم في المستدرك عن معاذ بن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٢١ .
(٢) مدارج السالكين ٢/٣٣٠ .
(٣) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا صـ١٧١ - طبع : دار الاعتصام .

وعن سلامة العجلي قال : جاء ابن أُختٍ لي من البادية ، يُقال له : قدامة ، فقال لي : أحبُّ أن ألقى سلمان الفارسي رضي الله عنه فأُسلِّم عليه ، فخرجنا إليه فوجدناه بالمدائن وهو يومئذ على عشرين ألفًا ، ووجدناه على سرير يسفُّ خوصًا ، فسلَّمنا عليه ، قلتُ : يا أبا عبد الله ، هذا ابن أخت لي قدِم عليَّ من البادية فأَحَبَّ أن يسلِّم عليك . قال : وعليه السلام ورحمة الله . قلتُ : يزعم أنه يحبُّك . قال : أحبَّه الله[1] .

وعن هريم قال : رأيتُ سلمان الفارسيَّ على حمارٍ عري ، وعليه قميص سنبلاني قصير ضيِّق الأسفل ، وكان رجلًا طويلَ الساق كثير الشَّعْر ، وقد ارتفع القميص حتى بلغ قريبًا من ركبتَيْه . قال : ورأيتُ الصبيان يحضرون خلفه ، فقلتُ : ألا تَنَحَّون عن الأمير ؟ فقال : دعهمْ ؛ فإنما الخير والشرُّ فيما بعد اليوم[2] .

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه مرَّ في السوق وعليه حزمة من حطب ، فقيل له : ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عن هذا ؟ قال : أردتُ أن أدفع الكِبْرَ ؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة مَن في قلبه خردلة من كِبْرْ »[3] .

وفي الصحيح من حديث (احتجاج الجنة والنار) : « أنَّ النار قالت : ما لي لا يدخلني إلّا الجبّارون والمتكبِّرون ؟! وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟! » .

---

(١) حياة الصحابة ٢/٥٥٥ . ويسفُّ خوصًا : أي ينسج سَعف النخل .
انظر التواضع وأثره في حياة الأُمَّة لسيف النصر علي عيسى - مكتبة الحرمين .

(٢) حياة الصحابة ٢/٥٥٧ .

(٣) إسناده حسن : رواه الطبراني .

قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بمن تحرُم عليه النار غدًا ؟ على كلِّ هيِّن ليِّن ، قريبٍ سهل »(١) .

الصحابي الجليل عمَّار بن ياسر رضي الله عنه :

قال عبد الله بن أبي الهذيل : رأيتُ عمارًا اشترى قتًّا(٢) بدرهم ، وحَمله على ظهره وهو أمير الكوفة .

صاحب السرِّ : حذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

عن ابن سيرين: أن عمر كتب في عهد حذيفة على المدائن : « اسمعوا له وأطيعوا ، وأعطوه ما سألكم » . فخرج من عند عمر على حمار مُوكَف ، تحته زاده ؛ فلمَّا قدم استقبله الدهاقينُ وبيده رغيف ، وعَرْق من لحم(٣) .

وعن أبي رافع قال : كان مروان ربما استخلف أبا هريرة على المدينة ، فيركب حمارًا ببرذعة ، وفي رأسه خُلْبة من ليف ، فيسير ، فيلقى الرجل ؛ فيقول : الطريق ؛ قد جاء الأمير .

تواضعُ التابِعينَ ومَن بَعْدَهم :

قال طاووس : إني لأغسل ثوبيَّ هذيْن فأنكر نفسي .

وقال شيخ من همدان : بعثني قومي في الجاهلية بخَيْل أهدَوْها لذي الكلاع ،

---

(١) صحيح : رواه أبو يعلى عن جابر ، ورواه الترمذي ، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وأخرجه أحمد ، وابن حبان ، والطبراني في الأوسط ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٠٦ .

(٢) القت : الفصفصة ، وهي الرطبة من علف الدوابِّ . انظر الترجمة في السير ١/٤٠٦ - ٤٢٨ .

(٣) انظر السير ٢/٣٦١ - ٣٦٩ . وموكف : أي قد وضع عليه الإكاف ، وهو بمنزلة السرج للحصان . والدهاقين : رؤساء القرى أو التجار .

فأقمتُ ببابه سَنَة لا أصلُ إليه ، ثم أشرفَ إشرافةً على الناس من غرْفة له ، فخرُّوا له سجودًا ، ثم جلس فلقيتُه بالخيل فقبلها ، ثم لقد رأيتُه بحمْص - وقد أسلم - يحمل الدرهم اللحم ، فيبتدره قومُه فيأخذونه منه فيأبى تواضعًا ، وقال :

أفٍّ لذي الدنيا إذا كانتْ كذا ... أنا منها كلَّ يومٍ في أذَى
ولقد كنتُ إذا ما قيلَ مَنْ ... أنعم الناسِ معاشًا قيلَ ذا
ثم بُدِّلتُ بعيشٍ شقوة ... حبَّذا هذا شقاء حبَّذَا

وذو الكلاع رحمه الله هو أسميفيع بن ناكور ، أبو شراحبيل ، أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره . أعتق أربعة آلاف ، سأله عمر في بيعهنَّ فأبى ، فقال : لأني أذنبتُ ذنبًا عظيمًا ، فعسى أن يكون ذلك كفَّارةً ، وذلك أني تواريتُ مرة ثم أشرفتُ فسجَدَ لي مائة ألف . وشهد رحمه الله وقعة اليرموك وفتح دمشق .

وعن طريف قال : رأيتُ الربيع بن خُثيم يحمل عرقة إلى بيت عمته[١] .

وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال : رأيتُ أمَّ الدرداء مع نساء المساكين جالسةً ببيت المقدس .

وعن حمَّاد بن زيد قال: ما رأيتُ محمد بن واسع إلَّا وكأنه يبكي، وكان يجلس مع المساكين والبكَّائين[٢] .

ورأى ابنُ واسع رحمه الله ابنًا له يمشي مشية منكرة ، فقال : « تدري بكم شريتُ أُمَّكَ ؟ بثلاثمائة درهم ، وأبوك - لا كثَّر اللهُ في المسلمين مثله - أنا ،

(١) العَرَقة : هي القفَّة المنسوجة بالخوص .
(٢) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا صـ١٥١ .

وأنت تمشي هذه المشية[١] ؟!

وبلغ عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن ابنًا له اشترى خاتمًا بألف درهم ، فكتب إليه عمر : بلغني أنك اشتريتَ فصًّا بألف درهم ، فإذا أتاك كتابي ، فبع الخاتم وأشبع به ألف بطنٍ ، واتخذ خاتمًا بدرهمَيْن ، واجعل فصَّهُ حديدًا صينيًّا ، واكتبْ عليه : « رحم الله ، امرَأً عرف قدْرَ نفسه » .

وقال رجاء بن حيوة : قوّمت ثياب عمر بن العزيز رضي الله عنه – وهو يخطب – باثني عشر درهمًا ، وكانت قباء وعمامة وقميصًا وسراويل ورداء وخُفَّيْن وقلنسوة .

ودخل على عمر بن العزيز واحد من أقربائه فهَالَهُ ما رأى ؛ لقد رآه لائذًا بركْنِ شمسٍ عن داره ، متدثرًا بإزار ، فحسِبَه مريضًا فسأله : ما الخطب يا أمير المؤمنين ؟ فأجابه عمر : لا شيء .. إني أنتظر ثيابي حتى تجفَّ ، فعاد الزائر يسأل الخليفة : وما ثيابك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : قميص ورداء وإزار . قال الزائر : ألا تتخذ قميصًا آخر ورداءً أو إزارًا ؟ فأجابه : قد كان لي ذلك ثم تمزقت . قال : ألا تتخذ سواها ؟ فيطرق عمر ، ويجهش بالبكاء ، ويردِّد قول الله تعالى : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلوًّا في الأرض ولا فسادًا والعاقبةُ للمتقين** ﴾ [القصص : ٨٣] .

الإمامُ القدوةُ مفتي دمشق سعيد بن عبد العزيز :

قال عبد الله بن زيد : كنَّا نجلس إلى مكحول ، ومعنا سعيد بن عبد العزيز ، فكان يسقي الماء في مجلس مكحول[٢] .

(١) مدارج السالكين ٢/٣٣١ .
(٢) السير ٨/٣٢ – ٣٨ .

وقال ابن جابر : أقبَل يزيد بن عبد الملك إلى مجلس مكحول ، فهممنا أن نوسِّع له ، فقال : دعوه يتعلَّم التواضع .

تواضعُ إمامِ أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل رحمه الله :

« وعن المروزي قال : لم أرَ الفقير في مجلس أعزَّ منه في مجلس أبي عبد الله ؛ كان مائلًا إليهم مقصِرًا عن أهل الدنيا ، وكانَ فيه حلم ، ولم يكن بالعجول ، وكان كثير التواضع ، تعلوه السكينة والوقار ، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يُسأل ، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدَّر ، يقعد حيث انتهى به المجلس »[(١)] .

وكان رحمه الله ربما خرج إلى البقَّال ، فيشتري الجُزْرة الحطب والشيء فيحمله بيده .

«قال محمد بن طارق البغدادي: كنتُ جالسًا إلى جنْب أحمد بن حنبل ، فقلتُ : يا أبا عبد الله ، أستمدّ من محبرتك ؟ فنظر إليّ وقال : لم يبلغ ورعي وورعك هذا . وتبسّم .

وقال يحيى بن معين : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل !! صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيءٍ ممَّا كان فيه مِن الصلاح والخير .

وكان الإمام أحمد رحمه الله يقول : نحن قوم مساكين .

وقال إسماعيل بن إسحاق الثقفي : قلت لأبي عبد الله أولَ ما رأيتُه : يا أبا عبد الله ، ائْذنْ لي أن أُقبِّل رأسك . فقال : لم أبلغْ أنا ذاك .

وقال أبو بكر المروذي : قلتُ لأبي عبد الله : الرجل يُقال له في وجهه : أحيَيْتَ السنة ؟ قال : هذا فساد لقلب الرجل .

---

(١) ترجمة الإمام أحمد من : تاريخ الإسلام صـ٣١ .

وقال خراسانيٌّ للإمام أحمد : الحمد لله الذي رأيتك . فقال له : اقعدْ ، أيُّ شيءٍ ذا ؟! من أنا ؟!

وقال أحمد بن الحسين بن حسَّان : دخلنا على أبي عبد الله ، فقال له شيخ من أهل خراسان : يا أبا عبد الله ، الله الله ؛ فإن الناس يحتاجون إليك ، قد ذهب الناس ؛ فإن كان الحديث لا يمكن ، فمسائل ؛ فإن الناس مضطرون إليك . فقال أبو عبد الله : إلَيَّ أنا ؟ واغتمَّ من قوله وتنفَّس صعداء ، ورأيتُ في وجهه أَثر الغمِّ .

وقيل لأبي عبد الله : جزاك الله عن الإسلام خيرًا . فقال : لا ، بل جزى الله الإسلام عني خيرًا . ثم قال : ومَن أنا ؟! وما أنا ؟

ودُفع إلى أبي عبد الله كتاب من رجل يسأله أن يدعو الله له ، فقال : فإذا دعونا لهذا نحن ؛ مَن يدعو لنا ؟!

وقال محمد بن أحمد بن واصل : سمعتُ أبا عبد الله غيرَ مرة يقول : مَن أنا حتى تجيئون إلّي ؟! من أنا حتى تجيئون إلّي ؟! اذهبوا اطلبوا الحديث .

وقال أبو بكر المروذي : سمعتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل وذكَر أخلاق الورعين ، فقال : أسأل الله أن لا يمقتنا ، أين نحن من هؤلاء ؟!

وقلتُ لأبي عبد الله : ما أكثر الداعين لك !! فتغرغرتْ عينُه وقال : أخاف أن يكون هذا استدراجًا ، أسأل الله أن يجعلنا خيرًا ممَّا يظنون ويغفر لنا ما لا يعلمون .

قلتُ لأبي عبد الله : إن بعض المحدِّثين قال لي : أبو عبد الله لم يزهد في الدراهم وحْدَها ؛ قد زهد في الناس . فقال أبو عبد الله : ومَن أنا حتى أزهد في الناس ؟! الناس يريدون يزهدون فيَّ .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : رأيتُ أبي إذا جاءه الشيخ والحدَث من قريش أو غيرهم من الأشراف ، لا يخرج من باب المسجد حتى يُخرجهم ،

فيكونوا هم يتقدمونه ، ثم يخرج بعدهم .

وقال أحمد بن علي الأبار : سمعتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل ، وسأله رجل : حلفتُ بيمينٍ ما أرى أيّ شيء هي ؟ فقال : ليتَ أنك إذا دريتَ دريتُ أنا .

وقال أبو عثمان الشافعي لأبي عبد الله أحمد بن حنبل : لا يزال الناس بخير ما منَّ الله عليهم ببقائك . وكلام من هذا النحو كثير ، فقال له : لا تقلْ هذا يا أبا عثمان ؛ لا تقلْ هذا يا أبا عثمان ، ومَن أنا في الناس ؟!

وقال علي بن عبد الصمد الطيالسي : مسحتُ يدي على أحمد بن حنبل ، ثم مسحتُ يدي على بدني وهو ينظر ، فغضب غضبًا شديدًا ، وجعل ينفض يدَه ويقول : عمَّن أخذتم هذا ؟! وأنكره إنكارًا شديدًا .

وقال خطاب : وسألته عن شيء من الورَع ، فرأيتهُ قد أظهر الاغتمام ، وتبيَّن عليه في وجهه؛ إزراءً على نفسه، واغتمامًا بأمره، حتى شقَّ عليّ، فقلتُ لرجل كان معي حين خرجنا : ما أراه ينتفع بنفسه أيامًا ؛ جدَّدنا عليه غمًّا »[١] .

بهذا صار مالكٌ مالكًا :

قال مالك بن دينار : لو أنَّ مناديًا ينادي بباب المسجد : ليخرجْ شرّكم رجلًا . واللهِ ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلّا رجلًا بفضل قوّة أو سعْي . قال : فلمّا بلغ ابنَ المبارك قولُه ، قال : بهذا صارَ مالكٌ مالكًا .

وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلزلة وريح حمراء ، فذهبتُ إلى محمد بن مقاتل ، فقلتُ : يا أبا عبد الله ، أنت إمامنا فادعُ اللهَ عزَّ وجلّ لنا .

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي صـ٣٣٤ - ٣٤٧ .

فبكى ثم قال : ليتني لم أكن سببَ هلاككم . قال : فرأيتُ النبي ﷺ في النوم ، فقال : « إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل » .

وقال المغيرة : كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبة الأمير ، وكان يقول : إن زمانًا صرتُ فيه فقيهَ الكوفة لَزَمَان سوءٍ .

الإمام القدوة العابد أحمد الرفاعي :

جاء في ترجمته في « السير » (٢١/٧٧ - ٨٠) : كان رحمه الله يجمع الحطب ، ويجيء به إلى بيوت الأرامل ، ويملأ لهم بالجرَّة .

أُحضر بين يديْه طبقُ تمرٍ ، فبقي ينقِّي لنفسه الحشَفَ يأكله ، ويقول : أنا أحقُّ بالدُّون ؛ فإني مثله دون .

وكان رحمه الله يقول : أقرب الطريق : الانكسار والذل والافتقار ؛ تعظّم أمْرَ الله ، وتشفق على خلْق الله ، وتقتدي بسنة رسول الله ﷺ .

مِن مظاهر التواضع وصفات المتواضعين :

كراهيتهم مشي الناسِ خلفهم :

عن شعيبِ بن محمد بن عبد الله بن عمرو، عن أبيه قال: ما رئي رسول الله ﷺ يأكل متكئًا ولا يطأ عقبه رجلانِ[١] .

قال أبو الدرداء : لا يزال العبد يزداد من الله بعدًا ما مُشي خلفه .

سار قوم خلفَ عبد الله بن مسعود ، فنظر إليهم غاضبًا وقال لهم : ارجعوا ؛ فإنها فتنةٌ للمتبوع ، وذلَّة للتابع .

ومن صفات المتواضعين : زيارتُهم لغيرهم :

قدم سفيان الثوري « الرملة » ، فبعث إليه إبراهيم بن أدهم : أن تعال فحدِّثْنا .

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا في : التواضع والخمول ، وأبو الشيخ في : أخلاق النبي ، والبيهقي في : الزهد .

فجاء سفيان ، فقيل له : يا أبا إسحاق ، تبعث إليه بمثل هذا ؟! فقال : أردتُ أن أنظر كيفَ تواضعه .

ولا يستنكفون من جلوس غيرهم إلى جوارهم :

قال ابن وهب : جلستُ إلى عبد العزيز بن أبي روّاد فمسّ فخِذي فخِذَه ، فنحَّيتُ نفسي عنه ، فأخذ ثيابي فجرَّني إلى نفسه وقال لي : لِمَ تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة ، وإني لا أعرف رجلًا منكم شرًّا مني ؟!

ومن صفاتهم : عدم أَنَفَتِهم من حْمل أمتعتهم الخاصَّة :

قال علي رضي الله عنه : لا يُنقِص الرجل الكامل من كماله ما حَمل مِن شيء إلى عياله .

وعن الأصبغ بن نباتة قال : كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلّقًا لحمًا في يده اليسرى ، وفي يده اليمنى الدِّرَّة ، يدور في الأسواق حتى دخل رَحْلَه .

ومن صفاتهم : جلوسهم إلى المساكين :

عن مسعر قال : مرَّ الحسين بن علي رضي الله عنه على مساكين وقد بسطوا كساءً وبين أيديهم كِسَرٌ ، فقالوا : هلمَّ يا أبا عبد الله ، فحوَّل وِرْكَهُ وقرأ ﴿ إنه لا يحبُّ المستكبرين ﴾ [النحل : ٢٣] ، فأكل معهم ، ثم قال : قد أجبتُكم فأجيبوني . فقال للرباب - يعني امرأته -: أَخْرِجي ما كنتِ تدَّخرين(١) .

ومن التواضع : معرفة قدْر النفس ، وأن لا تجعل لنفسِكَ قدرًا مع العلماء الربانيين :

« فلا ينظر الشابُّ المبتدئ إلى نفسه على أنه نِدٌّ لهذا العالِم أو ذاك ويقول :

---

(١) التواضع والخمول صـ١٥١ .

هم رجال ونحن رجال .. بل - والله - حالنا وحالهم كما يقول القائل : العلماء نسور في السحاب ونحن نحبو أُغَيْلِمة على التراب .

ولربما رأيت طويْلِبَ علمٍ لا يحفظ من القرآن إلَّا اليسير ، ولا يكاد يحفظ حديثًا من البخاري أو مسلم بحروفه ، فضلًا عن سَنَدِه ومعناه .. ومع هذا يقف أمام جهابذة العلماء وكأنه أبو حنيفة أو الشافعي !! وهِجِّيراهُ أن يقول : أرى . وأنا . وقلتُ . وعندي ...!!

يقولونَ هذا عندنا غيرُ جائز ومَنْ أنتُمُ حتى يكونَ لكمْ عِندُ

ومن التواضع : أن يتواضع المرءُ مع أقرانه :

فربما استعلى الإنسان على قرينه ، وربما فرِح بالنيْل منه ، والحطِّ من قدْره وشأنه ، وعيِّبه بما ليس فيه ، أو تضخيم ما فيه ، وقد يظهر ذلك بمظهر النصيحة والتقويم وإبداء الملاحظات ، ولو سمَّى الأمور بأسمائها الحقيقية ، لَقال : الغيْرة .

والعجب أنْ يَغار الداعية من اجتماع ألفٍ أو ألفيْن في مجلس علْمٍ أو دعوة ، لكنَّه لا ينفعل لو سمع أن حفلًا غنائيًا أو مباراة رياضية حضَرَها عشرون أو ثلاثون ألفًا . وهذا والله من البُؤْس ، حتى لو كنتَ لا ترضى من أخيك بعض الأمر ، يَكفيك أن يدعو إلى الله ، ويعلِّم الناس الدين ، وهو على الجادَّة إجمالًا .

ومَن ذا الذي تُرضَى سجاياهُ كلُّها كفى المرءَ نُبْلًا أن تُعدَّ معايبُهْ

ومن التواضع : التواضع مع من هو دونك :

فإذا وجدتَ أحدًا أصغر منك سنًّا ، أو أقلّ منك قدرًا فلا تحقرْه ؛ فقد يكون أسلمَ منك قلبًا ، أو أقلَّ منك ذنبًا ، أو أعظم منك إلى الله قرْبًا ، حتى لو رأيتَ إنسانًا فاسقًا وأنت يظهر عليك الصلاح ، فلا تستكبرْ عليه ، واحمدِ الله

على أن نجّاك ممَّا ابتلاه به ، وتذكَّرْ أنه ربما يكون في عملك رياء أو عجب يُحبطه ، وقد يكون عند هذا المذنب مِن الندم والانكسار والخوف من خطيئته ، ما يكون سببًا في غفران ذنبه .

ومن التواضع :

أن لا يعظم في عينيك عملك ؛ إن عملتَ خيرًا ، أو تقرَّبتَ إلى الله بطاعة ، فإنَّ العمل قد لا يُقبل، و ﴿**إنما يتقبَّل الله مِن المتقين** ..﴾ [المائدة : ٢٧] . ولهذا قال بعض السلف : لو أعلم أن الله قبل مني تسبيحة لَتمنيتُ أن أموتَ الآن »[(١)] .

ومن التواضع :

« أن يتواضع بالاحتمال إذا سُبَّ وأوذي وأُخذَ حقّه ؛ فذلك هو الأصل »[(٢)] .

ومن التواضع : أن لا يتوق من مجالسة المرْضى والمعلولين كِبْرًا منه وترفُّعًا :

فعن جابر بن عبد الله قال : أخذ رسول الله ﷺ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصْعَة ، وقال : « كُلْ باسمِ اللهِ ، ثقةً بالله ، وتوكُّلًا على الله »[(٣)] .

ومن التواضع: إجابة الدعوة ، ولو إلى أيسرِ شيءٍ :

كان ﷺ يعود المرضى، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد .

---

(١) من أخلاق الداعية لسلمان فهد العودة صـ٣٣ - ٣٦ بتصرُّف يسير .
(٢) إحياء علوم الدين ٣/٣٧٦ .
(٣) إسناده حسن : أخرجه الترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجه وابن حبان ، والبغوي في شرح السنة ، وابن أبي الدنيا في : التواضع والخمول .

قال ﷺ : « لو دُعيتُ إلى ذراع - أو كُراع - لَأجبتُ ، ولو أُهديَ إليَّ ذراعٌ - أو كراع - لَقَبلتُ »(١) .

أقوالٌ عَطِرةٌ في التواضع :

سُئِل الفضيل عن التواضع ، فقال : يخضع للحق ، وينقاد له ، ويقبله ممَّن قاله . قال الفضيل : « لو سمعته من صبيٍّ قبلتُه منه ، ولو سمعتُه من أجهل الناس ، قبلتُه منه » .

وقيل : التواضع أن لا ترى لنفسِك قيمة ؛ فَمَنَ رأى لنفْسِهِ قيمة فليس له في التواضع نصيب .

وهذا مذهب الفضيل وغيره .

وقال الجنيد بن محمد : هو خفْض الجناح ، ولِين الجانب .

وقال أبو يزيد البسطامي : هو أن لا يرى لنفسه مقامًا ولا حالًا ، ولا يرى في الخلْق شرًّا منه .

وقال ابن عطاء : هو قبول الحقِّ ممن كان . والعزُّ في التواضع . فمَن طلبه في الكبر فهو كتطلُّب الماء من النار .

وقال حمدون القصَّار : التواضُع أن لا ترى لأحدٍ إلى نفسك حاجة ، لا في الدين ولا في الدنيا .

قال صاحب « المنازل » شيخ الإسلام الهروي : « التواضع : أن يتواضع العبد لصوْلة الحقِّ » .

قال ابن القيم : « يعني : أن يتلقَّى سلطان الحق بالخضوع له ، والذلِّ ، والانقياد ، والدخول تحت رِقِّه ، بحيث يكون الحقُّ متصرِّفًا فيه تصرُّف المالك في مملوكه . فبهذا يحصل للعبد خُلُق التواضع ؛ ولهذا فسر النبي ﷺ الكِبْرَ بضدِّه ، فقال : « الكِبْرُ بَطْر الحقِّ ، وغَمْص الناس » . فبطر الحق : رَدُّه وجَحْده ،

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة .

والدفع في صدره ، كدفع الصائل . و غمص الناس : احتقارهم ، وازدراؤهم . ومتى احتقرهم وازدراهم ؛ دفَع حقوقهم ، وجحدها ، واستهان بها .

ولمَّا كان لصاحب الحق مقال وصوْلة ؛ كانت النفوس المتكبِّرة لا تُقِرُّ له بالصولة على تلك الصَّوْلة التي فيها ، ولا سيما النفوس المبطلة ، فتصول على صولة الحق بكِبْرها وباطلها . فكان حقيقة التواضع : خضوع العبد لصولة الحق ، وانقياده لها ، فلا يقابلها بصولته عليها »[(١)] .

وقال يوسف بن أسباط: يجزئ قليل الورع مِن كثير العمل ، ويجزئ قليل التواضع من كثير الاجتهاد .

رأسُ التواضع :

قال ابن المبارك : رأسُ التواضع أن تضعَ نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا ، حتى تُعْلِمَه أنْ ليس لك بدنياك عليه فضل ، وأن ترفع نفسَك عمَّن هو فوقك في نعمة الدنيا حتى تعلِمَهُ أنه ليس له بدنياه عليك فضل[(٢)] .

قال يحيى بن كثير : رأس التواضع ثلاث : أن ترضى بالدُّون من شرف المجلس ، وأن تبدأ من لقيتَه بالسلام ، وأن تكره المدحة ، والسمعة ، والرياء بالبِرِّ .

قال يحيى بن أبي العاص لعبد الملك بن مروان : أي الرجال أفضل ؟ قال : مَن تواضع عن رِفْعةٍ ، وزهد على قدْرة، وترك النصرة على قومه .

المتواضع في شَرَفِهِ يُكتب من خالص الله عزَّ وجل :

دخل ابن السمَّاك على هارون الرشيد، فقال: يا أمير المؤمنين، والله لَتواضُعُك

(١) مدارج السالكين ٢/٣٣٣ .
(٢) التواضع والخمول صـ١٤٢ .

في شَرَفك أشرفُ لك من شرفك . فقال : ما أحسن ما قلتَ !! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن امرأً آتاه الله عز وجلّ جمالًا في خَلقه وموضعًا في حسَبه ، وبسَطَ له في ذات يده ؛ فعفَّ في جماله ، وواسى في ماله ، وتواضَعَ في حَسَبه - كُتب في ديوان الله عز وجل من خالص الله عز وجل . قال : فدعا هارون بدواة وقرطاسٍ وكتَب هذا الكلام بيده[1] .

فطوبى للمتواضعين في الدنيا !! هم أصحاب المنار يوم القيامة .

وقالوا : « إن الزرْع يَنبُت في السهل ولا ينبُتُ على الصَّفَا ، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ، ولا تعمل في قلب المتكبر ، ألا ترون أنَّ مَن شمخ برأسه إلى السقف شجَّه ، ومَن طأطأ أظلَّه وأكنَّه ؟! » .

فهذا مثَلٌ ضربه للمتكبرين وكيف أنهم يُحرمون الحكمة .

خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع ؛ فقال لهم الحسن : أتدرون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلمًا إلَّا رأيت له عليك فضلًا .

وقال زياد النمري : الزاهد بغيْر تواضع كالشجرة التي لا تثمر .

وقال الشبلي : ذلِّي عطَّل ذلَّ اليهود .

ويقال : مَن يرى لنفسه قيمة ، فليس له من التواضع نصيب .

وقال أبو سليمان : لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه .

وقال أيضًا : لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ، ما قدروا عليه .

وقال أبو يزيد : ما دام العبد يظن أنَّ في الخلْق من هو شرٌّ منه فهو متكبِّر

---

(١) التواضع والخمول صـ١٤٤ - ١٤٥ .

فقيل له : فمتى يكون متواضعًا ؟ قال : إذا لم يرَ لنفسه مقامًا ولا حالًا .

وقالـوا : ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقـراء ، رغبـةً منهم في ثواب الله !! وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء ثقةً منهم بالله عزَّ وجلَّ .

وقال يحيى بن معاذ : التكبُّر على ذي التكبُّر عليك بماله : تواضعٌ .

وقال مقدام العلماء معاذ بن جبل رضي الله عنه : « لن يبلغ العبد ذُرى الإيمـان حتى يكون التواضع أحبَّ إليه من الشرف ، وما قلَّ مـن الـدنيا أحبَّ إليه مما كثر ، ويكون مَن أحبَّ وأبغضَ في الحقِّ سواء ، يحكمُ للناس كما يحكم لنفسه »[(١)] .

وقال عبد الله بن عمر : « رأسُ التواضع أن ترضى بأدون المجالس ، لا لحظ نفـسٍ ، فقد يجلس أحدهم عند النعال ومعه من الكِبْر ما الله بـه عليـم ، وما حمله على مجلسه ذلك إلّا ليُقال : إنه متواضع » .

وكـان يقـول : مِن علامة تواضعك أن تكره ذكْرَك بالـبر والتقـوى بين الناس .

وقالوا : الشرِيف إذا تنسَّك تواضع ، والسفيه إذا تَنسَّك تعاظم .

وقالـت الحكماء : ثلاثة من أحسن الأشياء : جُود لغير ثـواب ، ونصَبٌ لغيْر دنيا ، وتواضع لغير مذلَّة .

وقـال ذو النون المصري : علامة السعادة ثلاث : متى ما زِيدَ في عمره نقص مِن حرْصه، ومتى ما زيد في ماله زيد في سخائه، ومتى ما زيد في قدره زِيدَ في تواضعه .

وقال أبو حاتم البستي : التواضع يرفع المرء قدرًا ، ويعظم له خطرًا ،

---

(١) الزهد لابن المبارك صـ٥٢ .

ويزيده نُبلًا .

ولله درُّ الشاعر إذ يقول :

تواضع تكنْ كالنجم ِ لاحَ لناظرٍ — على صفحَاتِ المـاءِ وهْـوَ رفيـعُ
ولا تكُ كالدُّخـانِ يعلـو بنفسـهِ — إلـى طبقـاتِ الجـوِّ وهْـوَ وضيـعُ

وقال الشاعر :

تواضعْ إذا ما نلْتَ في الناسِ رفعةً — فـإنَّ رفيـعَ القـوم ِ مَـن يتـواضـعُ

وقال يوسف بن أسباط :

وكفى بمُلْتِمِسِ التواضع ِ رِفْعةً — وكفـى بمُلْتِمِسِ العلوِّ سِفـالًا

وقال الشاعر :

وأحسنُ مقرونيْنِ في عيْنِ ناظرٍ — جلالةُ قَدْرٍ في خمولِ تواضعِ

وقال الشاعر :

تواضع إذا ما كان قدرُك عاليًا — فإنَّ اتضاعَ المرءِ مِن شيَمِ العقلِ

وقال الشاعر :

إنَّ التواضعَ مِن خصالِ المتقي — وبهِ التقيُّ إلى المعالي يـرتقي

وفي الصحيح الموقوف على عائشة رضي الله عنها ، قالـت : « إنـكم لتغفلون أفضلَ العبادة : التواضع » .

فللَّه درُّها ودرُّ أبيها !!

ونختم بما صحَّ عن رسولنا ﷺ ؛ حيث قال : « انتسبَ رجلانِ على عهدِ موسى ؛ فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان – حتى عدَّ تسعةً – فمن أنت لا أُمَّ لـك ؟ قال : أنا فلان بن فلان بن الإسلام . فأوحى الله إلـى موسى : أن

قل لهذيْن المنتسبَيْن : أمَّا أنت أيُّها المنتسب إلى تسعةٍ في النار ، فأنت عاشرهم في النار . وأما أنتَ أيُّها المنتسب إلى اثنين في الجنة ، فأنت ثالثهما في الجنة »[1] .

* * *

(١) صحيح : رواه النسائي ، والبيهقي في الشعب ، والضياء وأحمد ، والطبراني في الكبير عن أبيّ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٠٤ ، والصحيحة رقم ١٢٧٠ .

الفصل السابع عشر

عُلُوُّ الهِمَّة
في
الشُّكر

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف وقوع الشكر إلّا بفضله ... وإن طالتِ الأيامُ واتّصل العمرُ

« محمود الورَّاق »

أَوْليتني نِعَمًا أبوحُ بِشكْرِها ... وكفيتني كلَّ الأمور بأسْرِها
فلأشكرنَّك ما حييتُ وإنْ أمُتْ ... فلتشكرَنَّك أعظُمي في قبرِها

□ عُلُوُّ الهِمَّة في الشُّكـر □

يا مَن عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة ، قد رُفع لك علم فشمّرْ إليه فقد أمكن التشمير ، واجعل سيْرَك بين مطالعةِ منَّته ومشاهدة عيْب النفس والعمل والتقصير ، فما أبقى مشهد النعمة والذنب للعارف من حسنة،يقول : هذه مُنجيتي من عذاب السعير . ما المعوَّل إلّا على عفوه ومغفرته ؛ فكلُّ أحدٍ إليها فقير . أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي .

ما تساوي أعمالك – لو سَلِمَتْ ممَّا يُبطلها – أدنى نَعِمه عليك ، وأنت مُرتهن بشكرها من حين أرسل بها إليك ، فهل رعيتها بالله حقَّ رعايتها وهي في تصريفك وطوْع يديك ؟! فتعلَّق بِحَبْل الرجاء ، وادخل من باب العمل الصالح ؛ إنه غفور شكور .

نهج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها ، وعرَّفه طُرُق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها ، وحذَّره من وبال معصيته وأشهده على نفسه وعلى غيره شؤمها وعقابها ، وقال : إن أطعت فبفضلي وأنا أشكر ، وإن عصيت فبقضائي وأنا أغفر ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

أزاح عن العبد العلل ، وأمره أن يستعيذ مِن العجز والكسل ، ووعده أن يشكر له القليل من العمل ، ويغفر له الكثير من الزَّلل ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفور شكور** ﴾ .

أعطاه ما يُشكر عليه ، ثم يشكُرُه على إحسانه إلى نفسه لا على إحسانه إليه ، ووعده على إحسانه لنفسه أن يُحسن جزاءَه ويقرِّبه لديه ، وأن يغفر له خطاياه إذ تاب منها ولا يفضحَه بين يديه ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها ، وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها ، وخرقت السَّبْعَ الطِّباق دعواتُ التائبين والسائلين فسمِعَها ، ووسع الخلائق عفوُه ومغفرتُه ورزقُه ؛ فما من دابة في الأرض إلّا على الله رزقُها ويعلمُ مستقرَّها ومستودَعَها ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

يجودُ على عبيده بالنوافل قبل السؤال ، ويُعطي سائله ومؤمِّله فوق ما تعلَّقت به منهم الآمال ، ويغفر لمن تاب إليه ولو بلغت ذنوبُه عدد الأمواج والحصى والتراب والرمال ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها ، وأفرحُ بتوبة التائب من الفاقد لراحلته - التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة - إذا وجدها ، وأشكرُ للقليل من جميع خلقه ؛ فمَن تقرَّب إليه بمثقال ذرَّة من الخير شكرها وحمدها ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

تعرَّف إلى عباده بأسمائه وأوصافه ، وتحبَّب إليهم بحلمه وآلائه ، ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه ؛ ﴿ **إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾.

السعادةُ كلُّها في طاعته ، والأرباحُ كلُّها في معاملته ، والمِحَن والبلايا كلُّها في معصيته ومخالفته ، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

أفاض على خلقه النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وضمن الكتاب الذي كتبه : أنَّ رحمته تغلب غضبه ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكورٌ** ﴾ .

يُطاع فيشكر وطاعته من توفيقه وفضله ، ويُعصى فيحلُم ومعصية العبد من ظلمه وجهله ، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له ، حتى كأنه لم يكن قطُّ من أهله ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكور** ﴾ .

الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عددٍ ولا حسبان ، والسيئة عنده بواحدة ومصيرها إلى العفو والغفران ، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمان ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكور** ﴾ .

بابه الكريم مناخ الآمال ومحطُّ الأوزار ، وسماء عطاه لا تقلع عن الغيث بل هي مدرار ، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة سحَّاء الليل والنهار ؛ ﴿ **إن ربَّنا لغفورٌ شكور** ﴾ .

الله عز وجل هو الشكور على الحقيقة :

« والله عز وجل أولى بصفة الشكر من كلِّ شكور ، بل هو الشكور على الحقيقة ؛ فإنه يعطي العبد ويوفِّقه لما يشكره عليه ، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقلّه أن يشكره ، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعافٍ مضاعفة ، ويشكر عبده بقوله بأن يُثني عليه بين ملائكته وفي مَلَئه ، ويُلقي له الشكر بين عباده ويشكره بفعله ، فإذا ترك له شيئًا أعطاه أفضل منه ، وإذا بذل له شيئًا ردَّه عليه أضعافًا مضاعفة ، وهو الذي وفَّقه للترك والبذل وشكره على هذا وذاك .

ولمَّا عقر نبيُّه سليمان الخيل غضبًا له إذ شغلتْه عن ذكره ، فأراد أن لا تشغله مرة أخرى ؛ أعاضه عنها متْن الريح. ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته ؛ أعاضهم عنها أن ملَّكهم الدنيا وفتحها عليهم .

ولمَّا احتمل يوسف الصديق ضيق السجن ؛ شكر له ذلك بأن مكَّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء .

ولمَّا بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزَّقها أعداؤه ؛ شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيرًا خضرًا أقرَّ أرواحهم فيها ؛ تَرِدُ أنهارَ الجنة ، وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث ، فيردُّها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه .

ولما بذل رُسُلُه أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبُّوهم ؛ أعاضهم من ذلك بأن صلَّى عليهم هو وملائكته ، وجعل لهم أطيب الثناء في سماواته وبين خلقه ، فأخلصهم بخالصةٍ ذكرى الدار .

ومن شكره سبحانه : أنه يجازي عدوَّه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا ، ويخفِّف به عنه يوم القيامة ؛ فلا يُضيِّع عليه ما يعمله من الإحسان ، وهو من أبغض خلقه إليه !!

ومن شكره : أنه غفر للمرأة البغيّ بسقْيها كلبًا كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى ، وغفر لآخر بتنحيته غصْن شوكٍ عن طريق المسلمين .

فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه ، والمخلوق إنما يشكرُ من أحسن إليه . وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يُحسن به إلى نفسه ، وشكره على قليله بالأضعاف المضاعفة التي لا نسبة لإحسان العبد إليها . فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر . فمَن أحقُّ باسم الشكور منه سبحانه ؟!

ومن شكره سبحانه : أنه يُخرج العبد من النار بأدنى ذرَّة من خير ، ولا يُضيِّع عليه هذا القدْر .

ومن شكره سبحانه : أن العبد من عباده يقوم له مقامًا يُرضيه بين الناس ؛ فيشكر له ، ويُنَوِّه بذكره ، ويُخبر به ملائكته وعباده المؤمنين . كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام ، وأثنى عليه ، ونوَّه بذكره بين عباده . وكذلك شكره لصاحب يسّ مقامه ودعوته إليه ، فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك »[١].

---

(١) عُدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص٢٧٩ - ٢٨٠ .

فمن علم أن الربّ شكور تنوَّع في معاملته ، ومن عرف أنه واسع المغفرة تعلّق بأذيال مغفرته ، ومَن تعلَّق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تُدخله عليه ، ومن سار إليه بأسمائه الحسنىٰ وصل إليه ، ومن أحبَّه أَحبَّ أسماءه وصفاته وكانت آثر شيء لديه .

ولمَّا كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة ؛ كان أحبَّ خلْقه إليه من اتَّصف بصفة الشكر .

فهلُمُّوا إلى سيِّدكم ومولاكم ؛ فحياة القلوب في معرفته ومَحَبَّته . وكمال الجوارح في التقرُّب إليه بطاعته ، والقيام بخدمته . والألسنة بذكره ، والثناء عليه بأوصاف مدحته . فأهل شكره أهل زيادته ، وأهل ذكره أهل مُجالسته ، وأهل طاعته أهل كرامته ، وأهل معصيته لا يُقنِّطهم من رحمته ؛ إن تابوا فهو حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم ؛ يبتليهم بأنواع المصائب ؛ ليُكفِّرَ عنهم الخطايا ويُطهرهم من المعائب .

فالحمد لله ربِّ العالمين ، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه ، كما يحبُّ ربُّنا ويرضى ، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله ، حَمدًا يملأُ السموات والأرض وما بينهما، وما شاء ربُّنا من شيءٍ بعد بمجامع حمده كلِّها، ما علمنا منها وما لم نعلم ، على نعمه كلِّها ، ما علمنا منه وما لم نعلم ، وعدد ما حمد الحامدون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، وعدد ما جرى به قلمه ، وأحصاه كتابه ، وأحاط به علمه .

فضـــل الشكـــر :

منزلة الشكر من أعلى المنازل ، وهي فوق منزلة « الرضا » وزيادة ، وأيُّ مقام أرفع من الشكر ، الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان ، حتى المحبة والرضا والتوكُّل ؟! فإنَّ الشكر لا يصحُّ إلا بعد حصولها . وتالله ليس لخواصِّ

أولياء الله وأهل القُرْب منه سبيلٌ أرفع من الشكر ولا أعلى .

فقد قرن الله تعالى ذكره بالشكر مع أنه قال : ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾. وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر ، فقال تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان ، فقال تعالى : ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم** ... ﴾ الآية . [النساء : ١٤٧] .

وأخبر بقلّة أهله في العالمين ، الدالّة على أنهم هم خواصُّه ، كما قال تعالى : ﴿ **وقليلٌ من عبادِيَ الشكور** ﴾ [سبأ : ١٣] .

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنَّته عليهم من بين عباده ، فقال : ﴿ **وكذلك فتنَّا بعضَهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم مِن بيننا أليس الله بأعلمَ بالشاكرين** ﴾ [الأنعام : ٥٣] .

وقسَّم الناس إلى شكورٍ وكَفُورٍ ، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله ، وأحبُّ الأشياء إليه الشكر وأهله ، قال تعالى: ﴿**إنَّا هديناه السَّبيلَ إمَّا شاكرًا وإمَّا كفورًا** ﴾. [الدهر : ٣] .

وقال نبيُّه سليمان : ﴿ **هذا من فضل ربِّي لِيَبْلُوَني أأشكرُ أم أكفر ومَن شكر فإنما يشكرُ لنفسه ومَن كفر فإن ربِّي غنيٌّ كريمٌ** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وإذ تأذَّن ربُّكم لئن شكرتُم لأزيدنكم ولئن كفرتُم إن عذابي لشديد** ﴾. [إبراهيم : ٧] . وقال تعالى : ﴿ **إنْ تكفروا فإنَّ الله غنيٌّ عنكم ولا يرضىٰ لعباده الكفر وإنْ تشكروا يرضَهُ لكم** ﴾. [الزمر : ٧] .

وقد قطع الله بالمزيد مع الشكر وأطلق و لم يستثن فقال تعالى : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنّكم** ﴾ [إبراهيم : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ **وسنجزي الشاكرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٥] ، وقال تعالى: ﴿**وسيجزي الله الشاكرين**﴾[آل عمران : ١٤٤] ،

واستثنى في خمسة أشياء ؛ في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة ، فقال تعالى : ﴿ **فسوف يُغنيكُم اللهُ من فضله إن شاء** ﴾ . [التوبة : ٢٨] ، وقال : ﴿ **فيكشفُ ما تدعونَ إليه إن شاء** ﴾ . [الأنعام : ٤١] ، وقال تعالى : ﴿ **ويرزقُ من يشاء بغير حساب** ﴾ . [آل عمران : ٣٧]، وقال تعالى : ﴿ **ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾. [النساء : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ **ويتوبُ اللهُ على مَن يشاء** ﴾. [التوبة : ١٥] .

وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ، فقال تعالى : ﴿ **وقالوا الحمدُ لله الذي صدقنا وعده** ﴾. [الزمر : ٧٤] ، وقال : ﴿ **وآخر دَعْواهم أن الحمدُ لله ربِّ العالمين** ﴾ [يونس : ١٠] .

ولما عرف إبليس اللعين قَدْر مقام الشكر ، وأنه من أجَلِّ المقامات وأعلاها ؛ جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال: ﴿ **ثم لآتينهم منْ بين أَيْديهم ومنْ خلْفهم وعنْ أَيْمانهم وعنْ شمائلهم ولا تَجِدُ أَكْثرهمْ شاكرين** ﴾[الأعراف:١٧].

وقد أخبر سبحانه أنما يعبده مَن شكره ، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته ، فقال : ﴿ **واشكروا لله إن كنتم إيَّاه تعبدون** ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

وأوَّل وصيَّةٍ وصَّى بها الإنسان بعد ما عقل عنه : الشكر له وللوالدين ، فقال : ﴿ **ووصَّينا الإنسان بوالدَيْه حملته أُمُّه وهنًا على وهْنٍ وفِصالُه في عامينِ أنِ اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير** ﴾. [لقمان : ١٤] .

وأخبر أن رضاه في شكره ، فقال تعالى : ﴿ **وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾ .

والشكر هو الغاية من خَلْق الله وأمره ، بل هو الغاية التي خلق عبيدَه لأجلها ؛ ﴿ **واللهُ أخرجكم من بطون أُمَّهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلَّكم تشكرون** ﴾ [النحل : ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿ **ولقد نصركمُ اللهُ ببدرٍ وأنتم أذلَّة فاتَّقوا اللهَ لعلَّكم تشكرون** ﴾. [آل عمران: ١٢٣].

وأخبر سبحانه بأنه غاية إرساله الرسول ، فقال تعالى : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليكم آياتِنا ويزكِّيكم ويعلِّمُكم الكتاب والحكمة ويعلِّمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ .

وأخبر رسوله ﷺ أن القلب الشاكر خير ما اكتنز الناس ، فقال ﷺ : « قلبٌ شاكر ، ولسانٌ ذاكر ، وزوجةٌ صالحة تُعينُك على أمر دنياك ودينك - خير ما اكتنز الناس »[١].

قواعد الشكر وأركانه :

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢/٢٤٤) : « الشكر مبنيٌّ على خمس قواعد :

خضوعُ الشاكر للمشكور . وحبُّه له . واعترافُه بنعمته . وثناؤه عليه بها . وأن لا يستعملها فيما يكره .

فهذه الخمس هي أساس الشكر ، وبناؤه عليها ؛ فمتى عُدِم منها واحدة ، اختلَّ من قواعد الشكر قاعدة . وكلُّ من تكلَّم في الشكر وحَدّه ، فكلامه إليها يرجع ، وعليها يدور » .

١ - أما معرفتها :

فهو إحضارها في الذهن ، ومشاهدتها ، وتمييزها .

فمعرفتُها : تحصيلها ذهنًا كما حصلت له خارجًا ؛ إذ كثير من الناس تُحسن إليه وهو لا يدري ، فلا يصحُّ من هذا الشكر .

(١) صحيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة ، وأخرجه الترمذي ، وابن ماجه عن ثوبان ، وعبد الرزاق في الجامع ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٢٨٥) .

٢ - وقبولها :

هو تلقِّيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها ، وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه . قال الجنيد : « الشكر : أن لا ترى نفسك أهلًا للنعمة » .
وهذا معنى قول حمدون – وما ألطفه –:وشكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليًّا.

٣ - الثناء بها على المنعم :

نوعان : عامٌّ وخاصٌّ .

فالعام : وصفه بالجود والكرم والبر والإحسان وسعة العطاء .

والخاصُّ : التحدُّث بنعمته ، والإخبار بوصولها إليه من جهته ، والدعوة إلى الله ، وتبليغ رسالته ، وتعليم الأمة ، كما قال تعالى : ﴿ **وأما بنعمة ربِّك فحدِّث** ﴾ . [الضحى : ١١] .

قال ﷺ : « التحدُّث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، ومَن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير »(١).

ومِن الرَّزيَّة أن شكريَ صامتٌ عمَّا فعلتَ وأن برّك ناطقُ
وأرى الصنيعةَ منك ثم أُسِرُّها إني إذًا لندىٰ الكريم لسارقُ

الشكر علمٌ وحالٌ وعمل :

قال الغزالي : « الشكر ينتظم من علم وحال وعمل ؛ فالعلم هو الأصل ، فيورث الحال ، والحال يورث العمل .

فأمّا العلم : فهو معرفة النعمة من المنعم .

والحال : هو الفرح الحاصل بإنعامه .

والعمل : هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ، ويتعلَّق ذلك العمل

---

(١) حسن : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن النعمان بن بشير ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٠١٤) ، والسلسلة الصحيحة رقم (٦٦٧) .

بالقلب وبالجوارح واللسان .

الأصل الأول : التقديس والتوحيد والعلم بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة ، وبذات المنعِم عزَّ وجلَّ :

فكمال القدرة والانفراد بالنعم كلِّها لله ، فهو وحده المنْعِم .

قال موسى عليه السلام : إلهي خلقت آدم بيدك ، وفعلتَ وفعلتَ ، فكيف شكَرك ؟ فقال الله عز وجل : علم أنَّ كلّ ذلك مني ، فكانت معرفته شُكرًا .

فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف بأن الكلَّ منه ، فإن خالَجك ريب في هذا ، لم تكن عارفًا لا بالنعمة ولا بالمنعم ؛ فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره ، فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح ، وبنقصان فرحك ينقص عملك .

الأصل الثاني : الحال المستمدَّة من العلم ، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع :

وأعلى الفرح أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى ، من حيث إنَّه يقدر بها على التوصُّل إلى القرب منه والنزول في جواره والنظر إلى وجهه ، لا أن يفرح بالنعمة من حيث إنها نعمة فقط ولا حظَّ له في الملك، ولا من يفرح بالنعمة لكونها تدلُّ على عناية المِلك به ، فكم من فرْق بين مَن يريد المِلك للفرس ، ومَن يريد الفرس للملك . وكم من فرق بين مَن يريد الله ليُنْعِم عليه ، وبين من يريد نِعم الله ليصل بها إليه .

الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح . وهذا العمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح :

أمّا بالقلب : فقصد الخير وإضماره لكافة الخلْق . وأما باللسان : فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالَّة عليه . وأما بالجوارح : فاستعمال نعم الله

في طاعته ، والتوقِّي من الاستعانة بها على معصيته »[١].

الشكر يتعلَّق بالقلب واللسان والجوارح ؛ فالقلب للمعرفة والمحبة ، واللسان للحمد والثناء . والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور ، وكفِّها عن معاصيه .

أفادتكم النعماء مني ثلاثةً   يدي ولساني والضمير المحجَّبا

الكمال في الشكر : أن تشهد النعمة والمنعم :

قال بعضهم : الشكر:الفناء برؤية المنعم عن رؤية نِعَمِه .

وقال آخرون : بل أن لا تحجبه رؤية نعمه ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها . وهذا أكمل .

قال ابن القيم : « والكمال أن تشهد النعمة والمنعم ؛ لأن شكره بحسب شهود النعمة ، فكلما كان أتم كان الشكر أكمل . والله يحبُّ من عبده أن يشهد نعمه ، ويعترف له بها ، ويُثني عليه بها ، ويحبّه عليها ، لا أن يفنى عنها ، ويغيب عن شهودها » .

شُكْر الخاصة وشُكْر العامة :

قال إبراهيم الخواص رحمه الله « شكْر العامة على المطعم والملبس والمشرب ، وشكْر الخاصة على واردات القلوب »[٢].

قال ابن القيم : « شكْر العامة : على المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان ، وشكر الخاصة على التوحيد والإيمان وقوت القلوب » .

وقال أبو عثمان : شكْر العامة على المطعم والملبس ، وشكر الخواصِّ على ما يرد على قلوبهم من المعاني .

---

(١) إحياء علوم الدين بتصرُّف يسير ٤/٨٦ - ٨٩ .

(٢) إحياء علوم الدين ٤/٨٩ .

الفرق بين الحمد والشكر :

قال ابن القيم : « تكلَّم الناس في الفرق بين « الحمد » و « الشكر » أيهما أعلى وأفضل ؟ والفرق بينهما : أن « الشكر » أعمُّ من جهة أنواعه وأسبابه ، وأخصُّ من جهة متعلّقاته . و « الحمد » أعمّ من جهة المتعلّقات ، وأخصّ من جهة الأسباب .

ومعنى هذا : أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة ، وباللسان ثناءً واعترافًا ، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا . ومتعلقه : النعم ، دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه . وهو المحمود عليها ، كما هو محمود على إحسانه وعدله . والشكر يكون على الإحسان والنعم ؛ فكلُّ ما يتعلَّق به الشكر يتعلّق به الحمد من غير عكس ، وكلُّ ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ؛ فإن الشكر يقع بالجوارح ، والحمد يقع بالقلب واللسان »(١) .

وقال رحمه الله : « الشكر أخصُّ بالأفعال ، والحمد أخصُّ بالأقوال ، وسبب الحمد أعمُّ من سبب الشكر ، ومتعلّق الشكر وما به الشكر أعمُّ مما به الحمد ، فما يُحمد الربُّ تعالى عليه أعمُّ مما يُشكر عليه ؛ فإنه يُحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونِعمه ، ويُشكر على نِعَمه . وما يُحمد به أخصُّ ممّا يشكر به ؛ فإنه يُشكر بالقلب واللسان والجوارح ، ويُحمد بالقلب واللسان »(٢) .

الشّكر على الشكر أتمُّ من الشكر :

قال ابن القيم : « يُقال : الشكر على الشكر أتم من الشكر ؛ وذلك أن

---

(١) مدارج السالكين ٢/٢٤٦ .

(٢) عُدَّة الصابرين ص١٤٥ .

ترى شكرك بتوفيقه ، وذلك التوفيق من أجلِّ النعم عليك . تشكر على النعم ، ثم تشكره على الشكر » .

الاعتراف بالعجز عن الشكر : شكر :

قال داود عليه السلام : يا رب ، كيف أشكرك ؟ وشكري لك نعمة عليَّ من عندك تستوجب بها شكرًا . فقال : الآن شكرتني يا داود[1].

والاعتراف بالعجز عن الشكر بيانه من وجوه :

الأول : أن شكر النعمة مشروط بمعرفة تلك النعمة ، ومعرفة نعم الله تعالى غير حاصلة ؛ يقول الله تعالى : ﴿ **وإنْ تَعُدّوا نعمةَ اللهِ لا تحصوها** ﴾. [النحل : ١٨]،فإذا كانت معرفة النعم غير حاصلة ؛ كان الشكر غير ممكن ، وعجز الإنسان عن شكره .

الثاني : شُكْرُ النعمة مخلوق من المنْعِم ، وذلك الشكر أعظم قدرًا من تلك النعمة ، فكيف يُعقَل شكر نعمته من غير نعمته .

الثالث : أن الله يُعطي على هذا الشكر نعمة زائدة ، فإن وقع هذا الشكر في مقابلة النعمة السابقة ؛ بقيت النعمة اللاحقة بلا شكر . وإن وقع الشكر في مقابلة اللاحقة ؛ بقيت النعمة السابقة بلا شكر . وعلى التقديرين لا يفي شكر العبد بنعمة الرب .

الرابع : أن الله يُعطيك مع استغنائه عنك ، وأنتَ تشكره مع افتقارك إليه ، فكيف يقع هذا الشكر الصادر عن الحاجة والضرورة في مقابلة الإنعام الذي هو محض التفضُّل والإحسان .

ولله درُّ محمود الورَّاق إذ يقول :

إذا كان شكري نعمةَ اللهِ نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجب الشكْرُ

---

(١) مدارج السالكين ٢/٢٤٥ .

فكيف وقوع الشكر إلّا بفضْله   وإنْ طالت الأيام واتَّصل العمْرُ
إذا مسَّ بالسرَّاء عمَّ سرورها   وإن مسَّ بالضرَّاء أعقبها الأجْرُ
وما منهما إلّا له فيه مِنَّةٌ   تضيق بها الأوهامُ والبرُّ والبحْرُ

وقال الشاعر أحمد مخيمر :

لك الحمدُ إذْ أنت الشكور على الذي   تجودُ به والشكر أولى به العبدُ
وشكْرُك للخير الذي أنت صانع   وجلّ بنا ما يصنع الصمدُ الفردُ

درجات الشكر :

قال شيخ الإسلام الهروي : وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الشكر على المحابِّ :

قال ابن القيم : « إذا علمتَ حقيقة « الشكر » ، وأن جزء حقيقته الاستعانة بنعم المنعِم على طاعته ومرضاته ؛ علمتَ اختصاص أهل الإسلام بهذه الدرجة ، وأن حقيقة الشكر على المحابِّ ليست لغيرهم .

نعم لغيرهم منها بعض أركانها وأجزائها ؛ كالاعتراف بالنعمة ، والثناء على المنعم بها . فإن جميع الخلق في نعم الله ، وكلّ من أقر بالله ربًّا ، وتفرُّده بالخلق والإحسان ، فإنه يضيف نعمته إليه . لكن الشأن في تمام حقيقة الشكر ، وهو الاستعانة بها على مرضاته . وقد كتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية رضي الله عنه : « إن أقلَّ ما يجبُ للمنعِم على مَن أنعم عليه ، أن لا يجعل ما أنعم عليه سبيلًا إلى معصيته » .

وقد عُرف مراد الشيخ ، وهو أن هذا الشكر مشترك ، وهو الاعتراف بنعمه سبحانه ، والثناء عليه بها ، والإحسان إلى خلقه منها . وهذا بلا شكٍّ يُوجب حفظها عليهم والمزيد منها . فهذا الجزء من الشكر مشترك ، وقد تكون ثمرته في الدنيا بعاجل الثواب . وفي الآخرة بتخفيف العقاب ؛ فإن النار دركات

في العقوبة مختلفة »[١] .

الدرجة الثانية : الشكر في المكاره :

قال الهروي : « الدرجة الثانية : الشكر في المكاره . وهذا ممّن تستوي عنده الحالات ؛ إظهارًا للرضا . وممّن يُميِّز بين الأحوال ؛ لكظْم الغيظ ، وسَتْر الشكوى ، ورعاية الأدب ، وسلوك مسلك العلم . وهذا الشاكر أول مَن يُدعَى إلى الجنة » .

قال ابن القيم : « يعني أن الشكر على المكاره أشدُّ وأصعب من الشكر على المحابِّ ؛ ولهذا كان فوقه في الدرجة ، ولا يكون إلا من أحد رجلين :

إمَّا رجل لا يُميِّز بين الحالات ، بل يستوي عنده المكروه والمحبوب ؛ فشكْر هذا إظهارٌ منه للرضا بما نزل به ، وهذا مقام الرضا .

الرجل الثاني : مَن يُميِّز بين الأحوال ؛ فهو لا يحبُّ المكروه ، ولا يرضى بنزوله به . فإذا نزل به مكروه شكر الله تعالى عليه ، فكان شكره كظْمًا للغيظ الذي أصابه ، وستْرًا للشكوى ، ورعايةً منه للأدب ، وسلوكًا لمسلك العلم . فإن العلم والأدب يأمران بشكر الله على السرَّاء والضرَّاء . فهو يسلك بهذا الشكر مسلك العلم ؛ لأنه شاكر لله شكر من رضي بقضائه ، كحال الذي قبله . فالذي قبله أرفع منه .

وإنما كان هذا الشاكر أول مَن يُدعى إلى الجنة ؛ لأنه قابل المكاره التي يُقابلها أكثر الناس بالجزع والسخط ، وأوساطهم بالصبر ، وخاصَّتهم بالرضا - فقابلها هو بأعلى من ذلك كلِّه ، وهو الشكر ، فكان أسبقهم دخولًا إلى الجنة ، وأول مَن يُدعى منهم إليها .

(١) مدارج السالكين ٢/٢٥٣ .

وقسَّم أهلَ هذه الدرجة إلى قسمين : سابقين ، ومُقَرَّبين . بحسب انقسامهم إلى مَن يستوي عنده الحالات من المكروه والمحبوب ، فلا يؤثر أحدهما على الآخر ، بل قد فني بإيثاره ما يرضى له به ربُّه عما يرضاه هو لنفسه . وإلى مَن يُؤثر المحبوب ، ولكن إذا نزل به المكروه قابله بالشكر »[1] .

قال الثوري : كان يُقال : ليس بفقيه مَن لم يعدَّ البلاء نعمة ، والرخاء مصيبة .

الدرجة الثالثة : أن لا يشهد العبد إلا المنعم :

قال الهروي : « فإذا شهد المنعم عبودية ؛ استعظم منه النعمة . وإذا شهده حبًّا ، استحلى منه الشدة . وإذا شهده تفريدًا ؛ لم يشهد منه نعمة ولا شدَّة » .

قال ابن القيم : « هذه الدرجة يستغرق صاحبها بشهود المنعم عن النعمة . فلا يتَّسع شهوده للمنعِم ولغيره .

وقسَّم أصحابها إلى ثلاثة أقسام ؛ أصحاب شهود العبودية ، وأصحاب شهود الحب ، وأصحاب شهود التفريد . وجعل لكل منهم حكْمًا هو أولى به .

فأما شهوده العبودية: فهو مشاهدة العبد للسيد بحقيقة العبودية والملك له ؛ فإن العبيد إذا حضروا بين يدي سيدهم فإنهم ينسون ما هم فيه من الجاه والقرب الذي اختُصُّوا به عن غيرهم باستغراقهم في أدب العبودية وحقها ، وملاحظتهم لسيدهم ؛ خوفًا أن يشير إليهم بأمر فيجدهم غافلين عن ملاحظته . وهذا أمر يعرفه من شاهد أحوال الملوك وخواصّهم .

فهذا هو شهود العبد للمنعِم بوصف عبوديته له ، واستغراقه عن الإحسان

---

(١) مدارج السالكين ٢/٢٥٤ .

بما حصل له منه من القرب الذي تميَّز به عن غيره .

فصاحب هذا المشهد : إذا أنعم عليه سيِّده في هذه الحال – مع قيامه في مقام العبودية – يُوجب عليه أن يستصغر نفسه في حضرة سيده غاية الاستصغار ، مع امتلاء قلبه من محبَّته . فأيّ إحسان ناله منه في هذه الحالة رآه عظيمًا . والواقع شاهد بهذا في حال المحبِّ الكامل المحبَّة ، المستغرق في مشاهدة محبوبه إذا ناوله شيئًا يسيرًا ؛ فإنه يراه في ذلك المقام عظيمًا جدًّا ، ولا يراه غيره كذلك .

القسم الثاني : يشهد الحق شهود محبة غالبة قاهرة له ، مستغرق في شهوده كذلك ؛ فإنه يستحلي في هذه الحال الشدة منه ؛ لأن المحبَّ يستحلي فعْل المحبوب به :

وأقلُّ ما في هذا المشهد : أن يَخِفَّ عليه حمل الشدائد ، إن لم تسمح نفسه باستحلائها . وفي هذا من الحكايات المعروفة عند الناس ما يغني عن ذكرها؛ كحال الذي كان يُضرب بالسياط ولا يتحرَّك، حتى ضُرب آخر سوط، فصاح صياحًا شديدًا ، فقيل له في ذلك ، فقال : العين التي كانت تنظر إليَّ وقْت الضرب كانت تمنعني من الإحساس بالألم ، فلما فقدتُها وجدتُ ألم الضرب .

وهذه الحال عارضة ليست بلازمة ، فإن الطبيعة تأبى استحلاء المنافي كاستحلاء الموافق .

نعم قد يقوى سلطان المحبة حتى يستحلي المحبُّ ما يستمِرُّه غيره ، ويستخف ما يستثقله غيره ، ويأنس بما يستوحش منه الخَلْقُ ، ويستوحش مما يأنس به ، ويستلين ما يستوعره . وقوة هذا وضعفه بحسب قهْر سلطان المحبة ، وغلبته على قلب المحب .

القسم الثالث : أن يشهده تفريدًا ؛ فإنه لا يشهد معه نعمةً ولا شدَّة :

يقول : إن شهود التفريد يفني الرسم . وهذه حال الفناء المستغرَقِ فيه ، الذي لا يشهد نعمة ولا بليَّة ؛ فإنه يغيب بمشهوده عن شهوده له ، ويفنى به عنه . فكيف يشهد معه نعمة أو بلية ؟ كما قال بعضهم في هذا : من كانت مواهبه لا تتعدَّى يديه ، فلا واهب ولا موهوب .

وذلك مقام الجمع عندهم ، وبعضهم يُحرِّم العبارة عنه .

وحقيقته : اصطلام يرفع إحساس صاحبه برسمه فضلًا عن رسم غيره ؛ لاستغراقه في مشهوده وغيبته به عما سواه . وهذا هو مطلوب القوم .

وقد عرفت أن فوقه مقامًا أعلى منه ، وأرفع وأجلّ ؛ وهو أن يصطلم بمراده عن غيره ، فيكون في حال مشاهدته واستغراقه مُنَفِّذًا لمراسيمه ومراده ، ملاحظًا لما يلاحظ محبوبه من المرادات والأوامر .

فتأمل الآن عبدين بين يدي ملك من ملوك الدنيا ، وهما على موقف واحد بين يديه ، أحدهما مشغول بمشاهدته ؛ فإن استغراقه في ملاحظة الملك ليس فيه مُتَّسع إلى ملاحظة شيءٍ من أمور الملك ألبتة. وآخر مشغول بملاحظة حركاتِ الملك وكلماته، وأيش أمره ولحظاته وخواطره ؛ ليرتِّب على كل من ذلك ما هو مرادٌ للملك .

وتأمل قصة بعض الملوك الذي كان له غلام يخصُّه بإقباله عليه وإكرامه ، والحظوة عنده من بين سائر غلمانه - ولم يكن الغلام أكثرهم قيمة ، ولا أحسنهم صورة - فقالوا له في ذلك ، فأراد السلطان أن يُبَيِّن لهم فضْل الغلام في الخدمة على غيره ، فيومًا من الأيام كان راكبًا في بعض شئونه ، ومعه الحشم ، وبالبعد منه جَبلٌ عليه ثلج ، فنظر السلطان إلى ذلك الثلج وأطرق ، فركض الغلام فرسه ، ولم يعلم القوم لماذا ركض ، فلم يلبث أن جاء ومعه شيءٌ من الثلج ، فقال السلطان : ما أدراك أني أريد الثلج ؟ فقال الغلام : لأنك نظرت

إليه ، ونظر الملوك إلى شيء لا يكون عن غير قصْد . فقال السلطان : إنما أخصه بإكرامي وإقبالي ؛ لأن لكلٍّ واحد منكم شغلًا ، وشغله مراعاة لحظاتي ، ومراقبة أحوالي . يعني في تحصيل مرادي .

وسمعتُ بعض الشيوخ يقول : لو قال ملِك لغلامين له بين يديه ، مستغرقيْن في مشاهدته والإقبال عليه : اذهبا إلى بلاد عدوٍّي ، فأوصلا إليهم هذه الكتب ، وطالِعاني بأحوالهم ، وافعلا كيت وكيت . فأحدهما : مضى من ساعته لوجهه ، وبادر ما أمره به ، والآخر قال : أنا لا أدع مشاهدتك ، والاستغراق فيك ، ودوام النظر إليك ، ولا أشتغل بغيرك . لكان هذا جديرًا بمقْت الملك له ، وبغضه إياه ، وسقوطه من عينه ؛ إذ هو واقف مع مجرَّد حظِّه من الملِك ، لا مع مراد الملك منه . بخلاف صاحبه الأول .

وسمعتُه أيضًا يقول : لو أن شخصيْن ادَّعيا محبَّة محبوب ، فحضرا بين يديه ، فأقبل أحدهما على مشاهدته والنظر إليه فقط ، وأقبل الآخر على استقراء مراداته ومراضيه وأوامره ليمتثِلَها ، فقال لهما : ما تريدان ؟ فقال أحدهما : أريد دوام مشاهدتك ، والاستغراق في جمالك . وقال الآخر : أريد تنفيذ أوامرك ، وتحصيل مراضيك ؛ فمرادي منك ما تريدُه أنت مني ، لا ما أريده أنا منك . والآخر قال : مرادي منك تمتُّعي بمشاهدتك – أكانا عنده سواء ؟ . فمن هو الآن صاحب المحبَّة المعلولة المدخولة ، الناقصة النفسانية ، وصاحب المحبة الصحيحة الصادقة الكاملة ؟ أهذا أم هذا ؟.

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية – قدَّس الله روحه – يحكي عن بعض العارفين أنه قال : الناس يعبدون الله ، والصوفية يعبدون أنفسهم .

أراد هذا المعنى المتقدِّم ، وأنهم واقفون مع مرادهم من الله ، لا مع مراد الله منهم . وهذا عين عبادة النفس . فليتأمل اللبيب هذا الموضع حقَّ التأمُّل ؛ فإنه

محكٌّ وميزان ، والله المستعان »[1] .

عُلُوُّ همَّة نوح عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ ذريَّة من حملنا مع نوح إنه كان عبدًا شكورًا ﴾. [الإسراء : ٣] .

قال ابن القيم في « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » (ص١١٣) : « قد أثنى الله سبحانه وتعالى على أوّل رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر ، وفي تخصيص نوح هاهنا بالذِّكر وخطاب العباد بأنهم ذريَّته ؛ إشارة إلى الاقتداء به فإنه أبوهم الثاني ؛ فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلًا إلا من ذريَّته ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا ذريَّته هم الباقين ﴾. [الصافات : ٧٧] فأمر الذريَّة أن يتشبَّهوا بأبيهم في الشكر ، فإنه كان عبدًا شكورًا .

عن مجاهد ، في قوله تعالى : ﴿ إنه كان عبدًا شكورًا ﴾؛ قال : لم يأكل شيئًا إلا حمد الله عليه ، ولم يشرب شرابًا قط إلا حمِدَ الله عليه ، ولم يبطش بشيءٍ قط إلا حمد الله عليه ؛ فأثنى الله عليه أنه كان عبدًا شكورًا .

وقال محمد بن كعب : « كان نوح إذا أكل قال : الحمد لله ، وإذا شرب قال : الحمد لله ، وإذا لبس قال : الحمد لله ، وإذا ركب قال : الحمد لله ؛ فسمَّاه الله عبدًا شكورًا » .

فصلواتُ ربِّي وسلامه على مَن حدَّث بنعمة ربِّه عليه ، دعوة إليه وتبليغًا لرسالته ألف سنة إلا خمسين عامًا .. فما أعظم شكره .

إبراهيم الخليل عليه السلام : الشاكر لأنعم ربِّه :

قال ابن القيم : « أثنى الله سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال : ﴿ إن إبراهيم كان أمَّة قانتًا لله حنيفًا ولم يكُ من المشركين شاكرًا لأنْعُمه اجتباه

(١) مدارج السالكين ٢/٢٥٥ - ٢٥٨ .

وهداه إلى صراطٍ مستقيم ﴾. [النحل : ١٢١] ، فأخبر عنه سبحانه بأنه أمّة ، أي قدوة يُؤتم به في الخير ، وأنه قانتٌ لله ، والقانت : هو المطيع المقيم على طاعته . والحنيف : هو المقبل على الله ، المعرض عما سواه . ثم ختم له هذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه ، فجعل الشكر غاية خليله »[1] .

موسىٰ عليه السلام : من سادات الشاكرين :

قال ابن القيم : « أمر الله عبده موسى أن يتلقَّى ما آتاه من النبوَّة والرسالة والتكليم بالشكر ، فقال تعالى : ﴿ **يا موسى إني اصطفيتُك على الناسِ برسالاتي وبكلامي فخُذ ما آتيتك وكُن من الشاكرين** ﴾. [الأعراف : ١١٤] .

عن أبي الجلد قال : قرأتُ في مسألة موسى عليه السلام أنه قال : « يا رب ، كيف لي أن أشكرك وأصغر نعمةٍ وضعتها عندي من نعمك ، لا يُجازي بها عملي كلّه . قال : فأتاه الوحي : أن يا موسى ، الآن شكرتني »[2].

داود عليه السلام :

عن أبي الجلد قال : قرأت في مسألة داود عليه السلام ربَّه أنه قال : « أي ربِّ ، كيف لي أن أشكرك ، وإني لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك . قال : فأتاه الوحي : أن يا داود ، أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني ؟ قال : بلى يا رب . قال : فإني أرضى بذاك منك شكرًا »[3] .

« قال ثابت البناني: كان داود عليه السلام قد جزَّأ ساعات الليل والنهار على أهله ، فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلِّي

---

(١) عُدَّة الصابرين ص١١٣ – ١١٤ .
(٢) الشكر لابن أبي الدنيا ص١٧ . دار ابن كثير .
(٣) الشكر لابن أبي الدنيا ص٦٧ .

فيها ، قال . فعمَّهم تبارك وتعالى في هذه الآية ﴿ **اعملوا آل داود شكرًا وقليلٌ مِن عبادي الشكور** ﴾. [سبأ : ١٣] [(١)] .

وعن سعيد بن عبد العزيز قال : « كان من دعاء داود : سبحان مستخرج الشكر بالعطاء ، ومستخرج الدعاء بالبلاء »[(٢)] .

وعن الحسن قال : قال نبي الله داود : « إلهي لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبّحانك الليل والنهار والدهر ، ما وفَّيتُ حقَّ نعمةٍ واحدة »[(٣)] .

سليمان بن داود عليه السلام :

هذا النبي الصالح ابن النبي الصالح ، عليهما السلام ، ما شغله الملك - الذي ما آتاه أحدًا من العالمين قبله ولا بعده - عن الشكر والتحدُّث بنعم الله عليه .

قال تعالى : ﴿ **وورث سليمان داود وقال يأيُّها الناسُ عُلِّمنا منطِقَ الطير وأُوتينا من كلِّ شيءٍ إن هذا لهو الفضلُ المبين وحُشِر لسليمانَ جنودُه من الجنِّ والإنس والطير فهم يُوزعون حتى إذا أتَوْا على وادي النمل قالت نملةٌ يأيها النملُ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنَّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسَّم ضاحكًا من قولها وقال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين** ﴾.
[النمل : ١٦ - ١٩].

ولما حُمل إليه عرش بلقيس قال : ﴿ **هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكرُ لنفسه ومن كفر فإنَّ ربي غنيٌّ كريم** ﴾.
[النمل : ٤٠].

---

(١)،(٢) عُدَّة الصابرين ص١٢٠ .
(٣) عُدَّة الصابرين ص١٢١ .

سيِّد الشاكرين : رسول الله ﷺ :

قال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ **بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾. فكان ﷺ سيِّد الشاكرين .

عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى قام حتى تفطَّر رجلاه . قالت عائشة : يا رسول الله ، أتصنع هذا وقد غُفِر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ؟ فقال : « يا عائشة ، أفلا أكون عبدًا شكورًا »[١]؟!

وعن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ صلَّى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : أَتكلَّف هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ؟! فقال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا »[٢].

وعند البخاري : أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه ، فقالت عائشة : لم تصنع هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « أفلا أحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا » .

وكان من دعائه ﷺ : « ربِّ ، أعنِّي ولا تُعِن عليّ ، وانصرني ولا تنصر عليَّ ، وامكر لي ولا تمكر عليّ ، واهدني ويسِّر هداي إليّ ، وانصرني على من بغى عليّ .

اللهم اجعلني لك شاكرًا ، لك ذاكرًا ، لك راهبًا ، لك مطواعًا ، إليك مخبتًا ، إليك أوَّاهًا منيبًا .

ربِّ تقبَّل توبتي ، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبِّت حُجَّتي ، واهد قلبي ، وسدِّد لساني ، واسلل سخيمة قلبي »[٣].

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم واللفظ له .
(٢) رواه البخاري ، ومسلم واللفظ له ، والترمذي ، والنسائي .
(٣) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي ، وابن ماجه والحاكم وابن =

وفي رواية : « اجعلني لك شكّارا » .

وانظر إلى وصيته لمن يحبُّه :

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، إني والله لأحبُّك ، أوصيك يا معاذ : لا تدعنَّ في دُبُر كلِّ صلاةٍ أن تقول : اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »[(١)].

عن أبي هريرة قال : دعا رجل من الأنصار - من أهل قباء - النبيَّ ﷺ ، فانطلقنا معه ، فلما طَعِمَ وغسل يده - أو قال : يديه - قال : « الحمد لله الذي يُطعِم ولا يُطْعَم ، مَنَّ علينا فهدانا ، وأطعمنا وسقانا ، وكل بلاءٍ حسنٍ أبلانا . الحمد لله غير مودِّع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذي أطعم الطعام ، وسقى من الشراب ، وكسا من العُرْي ، وهدى من الضلالة ، وبصَّر من العَمَى ، وفضَّل على كثير ممن خلقه تفضيلا ، الحمد لله ربِّ العالمين »[(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفُجاءة نقمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وجميع سخطك »[(٣)].

= أبي عاصم عن ابن عباس ، وصحَّحه الحاكم والذهبي ، والألباني في صحيح الجامع رقم (٣٤٧٩) .

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم في المستدرك وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٨٤٦) .

(٢) حسن : رواه ابن أبي الدنيا في الشكر ، وابن السني ، وخرجه الحافظ من طرق وحسَّنه كما قال ابن علان في الفتوحات الربَّانيَّة على الأذكار النوويّة (٥/٢٣٠) .

(٣) رواه مسلم .

الصديق يسأل تمام النعمة :

قال عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون : حدَّثني من أُصدِّقه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقول في دعائه : « اللهم أسألك تمام النعمة في الأشياء كلِّها، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا ، والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع مُيسَّر الأمور كلِّها لا معسورها يا كريم »(١) .

عثمان ذو النورين النبيل :

« دُعي عثمان رضي الله عنه إلى قوم على ريبة فانطلق ليأخذهم فتفرَّقوا قبل أن يبلغهم ، فأعتق رقبة ؛ شكرًا لله أن لا يكون جرى على يديه خزي مسلم »(٢) .

لله درُّه .. ما أنبل هذا .. بل والله هذا هو النُّبل والشفافية ورقَّة القلب في أعظم مظاهرها .

علي بن أبي طالب :

كان علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده ، وقال : يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها(٣) .

وعن علي – رضي الله عنه – أنه قال لرجل من أهل همدان: «إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر متعلِّق بالمزيد ، وهما مقرونان في قرنٍ ؛ فلن ينقطع المزيد من الله عز وجل حتى ينقطع الشكر من العبد »(٤) .

---

(١) عُدَّة الصابرين ص١٢٦ .
(٢) عُدَّة الصابرين ص١٢٨ .
(٣) عُدَّة الصابرين ص١٢٢ .
(٤) الشكر لابن أبي الدنيا .

النجاشي وتواضعه شكرًا لربّه :

« ذكر عبد الله بن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه ، فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان جالس على التراب ، قال جعفر : فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ، فلمّا رأى ما في وجوهنا ، قال : إني أبشِّركم بما يسرُّكم ؛ إنه جاءني من نحو أرضكم عينٌ لي ، فأخبرني أن الله قد نصر نبيَّه ﷺ ، وأهلك عدوَّه . وأُسِرَ فلان وفلان ، وقُتِل فلان وفلان ؛ التقوْا بوادٍ يُقال له : بدر . كثير الأراك ، كأني أنظر إليه ، كنتُ أرعى به لسيدي ؛ رجل من بني ضمرة . فقال له جعفر : ما بالك جالسًا على التراب ، ليس تحتك بساط، وعليك هذه الأخلاق ؟! قال: إنَّا نجد فيما أنزل الله على عيسى ﷺ: أن حقًّا على عباد الله أن يُحْدِثوا لله تواضعًا عندما أحدث الله لهم من نِعَمِه ؛ فلمَّا أحدث الله لي نَصْرَ نبيِّه ، أحدثتُ لله هذا التواضع »[(١)] .

عمر بن عبد العزيز :

عن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز قال : ما قلَّب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله عز وجل بها عليه إلّا قال : اللهم إني أعوذ بك أن أُبدِّل نعمتك كفرًا ، أو أكفرها بعد معرفتها ، أو أنساها فلا أُثني بها[(٢)].

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : قيِّدُوا نعم الله عز وجل بالشكر لله تعالى .

علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه :

« كان علي بن الحسين – رضي الله عنه – بمنى ، فظهر من دعائه أن

(١) عُدَّة الصابرين ص١٢٩ .
(٢) عُدَّة الصابرين ص١١٨ .

قال : « كم من نعمة أنعمتَها عليَّ قلَّ لك عندها شكري ، وكم من بليَّةٍ ابتليتني بها قلَّ لك عندها صبري ؛ فيا مَن قلَّ شكْري عند نعمته فلم يحرمني ، ويا مَن قلَّ صبري عند بلائه فلم يخذُلني ، ويا مَن رآني على الذنوب العظام فلم يفضحني ولم يهتك ستري ، ويا ذا المعروف الذي لا ينقضي ، ويا ذا النعم التي لا تَحُولُ ولا تَزُول ؛ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ ، واغفر لنا وارحمنا » .

ولمَّا حُمَّ عباية بن كليب الكوفي – أبو غسَّان – بنيسابور ، قال : دعوتُ بهذا الدعاء ، فذهب عني »[١] .

الحسن البصري سيد عباد البصرة :

كان الحسن يقول – إذا ابتدأ حديثه –: « الحمد لله ، اللهم ربنا لك الحمد كما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلَّمتنا وأنقذتنا وفرَّجت عنا ، لك الحمد بالإسلام والقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة ؛ كبتَّ عدوَّنا ، وبسطتَّ رزقنا ، وأظهرت أُمّتنا ، وجمعتَ فُرْقتنا ، وأحسنتَ معافاتِنا ، ومن كلٍّ – والله – ما سألناك ربَّنا أعطيتنا ، فلك الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا . لك الحمد بكلِّ نعمة أنعمتَ بها علينا في قديمٍ أو حديث ، أو سرٍّ أو علانية ، أو خاصَّةٍ أو عامَّة ، أو حيٍّ أو ميِّت ، أو شاهدٍ أو غائب . لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيتَ »[٢]. وزاد في رواية ابن أبي الدنيا : « فلك الحمد كثيرًا كما تُنْعِمُ كثيرًا ؛ أعطيتَ خيرًا كثيرًا ، وصرفتَ شرًّا كبيرًا . فَلِوجْهك الجليل الباقي الدائم : الحمد ، الحمدُ لله ربِّ العالمين » .

وعن روح بن القاسم قال : تنسَّك رجلٌ فقال : لا آكل الخبيص ؛ لا

---

(١) الشكر لابن أبي الدنيا ص٨٥ ، ١٠٥ .
(٢) الشكر لابن أبي الدنيا ص١٤٦ ، وعُدَّة الصابرين ص١٢٢ .

أقومُ بشكره . فقال الحسن : هذا أحمق ، وهل يقومُ بشكر الماء البارد[(١)]؟

قال هشام بن سلمان : كنت قاعدًا عند الحسن وبكر بن عبد الله المزني ، فقال له الحسن : هات يا أبا عبد الله دعوات لإخوانك . فحمد الله وأثنى عليه ، وصلَّى على النبي ﷺ ، ثم قال : والله ما أدري أيّ النعمتين أفضل عليَّ وعليكم ؛ أنعْمةُ المسلك أم نعمة المخرج ، إذ أخرجه الله منَّا ؟! قال الحسن : لقد قلتَ عجبًا يا بكر ، إنها لمن نِعَمه العظام[(٢)] .

عن الحسن قال : يا لها من نعمة !! تُؤْكَلُ لذَّةً وتخرج سُرحًا[(٣)]؛ لقد كان مِلِك من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانه يأتي الحُبّ فيكتاز[(٤)] منه ، ثم يُجَرْجرُ قائمًا ، فيقول : يا ليتني مثلك . ما يشرب حتى يقطع عَيْفَة العطش ، فإذا شرب كان له في تلك الشربة موتات ، يا لها من نعمة !! تُؤْكَلُ لذَّةً ، وتخرجُ سُرُحًا .

عن الحسن قال : أكثروا ذكْر هذه النعمة ؛ فإن ذكرها شكرها .

وقال الحسن : من لا يرى لله عليه نعمة إلا في مطعمٍ أو مشربٍ أو لباس ، فقد قصر علْمُه وحضر عذابه[(٥)].

عن الحسن قال : إنَّ الله عز وجل لَيُمَتِّع بالنعمة بما شاء ، فإذا لم يُشكر ؛ قَلَبها عليهم عذابًا .

---

(١) عدة الصابرين ص١١٨ .

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا ص١٦١ ، ١٦٢ .

(٣) السرح: إدرار البول بعد احتباسه، وتخرج سرحًا أي سهلًا سريعًا. ويا لها من نعمة: يعني الشَّربة من الماء .

(٤) يكتاز أي يغترف بالكوز ، والحب : الجرة والخابية ، وكان بهذا الملك احتباس بول فتمنى حال غلامه .

(٥) عدة الصابرين ص١٣٩ .

أنتَ عندي أفْقَهُ من الحسن ، فالزَمْ ما أنت عليه :

عن إبراهيم بن عبد الله المديني قال : قيل للحسن : هاهنا رجلٌ لم نره قطّ جالسًا إلى أحد ، ولا رأينا أحدًا جالسًا إليه ، إنما هو أبدًا خلف ساريةٍ وحده ، فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبروني به . قال : فمرُّوا به ذات يوم ومعهم الحسن فأشاروا إليه ، فقالوا : ذلك الرجل الذي أخبرناك به . فقال : امضوا حتى آتيه . فلمّا جاءه قال : يا عبد الله ، أراك قد حُببَ إليك العزلة ، فما يمنعك من مخالطة الناس ؟ قال : ما أشغلني عن الناس !! قال : فتأتي ذا الرجل الذي يقال له : الحسن . فتجلسَ إليه . قال : ما أشغلني عن الحسن وعن الناس !! قال له الحسن: ما الذي شغلك – رحمك الله – عن الناس وعن الحسن ؟ قال : إني أُصبح وأمسي بين ذنبٍ ونعمة ؛ فرأيت أن أُشغل نفسي عن الناس بالاستغفار من الذنب وأشكر الله على النعمة . فقال له الحسن : أنت عندي يا عبد الله أفْقَه من الحسن فالزَمْ ما أنت عليه(١) .

بكـر بن عبد الله المُـزني :

« عن بكر بن عبد الله أنه قال : ما قال عبدٌ قطّ : الحمد لله . إلّا وجبت عليه نعمة بقوله: الحمد لله. قلت: فما جزاء تلك النعمة ؟ قال: جزاؤها أن يقول: الحمد لله. فجاءت نعمة أخرى، فلا تنفدُ نعم الله عز وجل » .

وكان رحمه الله يقول : يا ابن آدم ، إن أردتَ أن تعلمَ قدْر ما أنعم الله عليك ، فغمِّض عينيك .

الحمَّال فيها أفقهُ من بكـر المـزني :

« عن بكر بن عبد الله أنه لحقَ حمَّالًا عليه حِمْلُهُ وهو يقول : الحمد لله ،

---

(١) الشكر ص١٦٣ – ١٦٤ .

وأستغفر الله . قال : فانتظرتُهُ حتى وضع ما على ظهره ، وقلت له : أما تُحسن غير ذي . قال : بلى أحْسن خيرًا كثيرًا ؛ أقرأ كتابَ الله ، غير أنَّ العبدَ بين نعمةٍ وذنب ؛ فأحْمَدُ اللهَ على نعمائِه السابغة ، وأستغفر لذنوبي . فقلتُ : الحمَّال فيها أفْقَهُ من بكر »[١] .

يُونس بن عُبَيْد :

جاء رجل إلى يونس بن عُبَيْد ، يشكو ضيق حاله ، فقال له يُونس : أيَسُرُّك ببصرك هذا الذي تبصر به مائة ألف درهم ؟ قال الرجل : لا . قال : فبيديك مائة ألف ؟ قال الرجل : لا . قال : فبرجليك ؟ قال الرجل : لا . قال : فذكَّره نِعَم الله عزَّ وجلَّ . فقال يونس : أرى عندك مئين الألوف ، وأنت تشكو الحاجة[٢]؟! .

فضيل بن عياض وابن عيينة يتذكران النعَمَ إلى الصباح :

عن ابن أبي الحواري قال : جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلةً إلى الصباح يتذكران النعم ، فجعل سفيان يقول : أنعم الله علينا في كذا ، أنعم الله علينا في كذا ، فعل بنا كذا ، فعل بنا كذا[٣] .

أبو حازم - رحمه الله - وفِطْنته وعِلْمُه وشكره :

« قال رحمه الله : نعمةُ الله فيما زُوِيَ عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها ، إني رأيتُه أعطاها قومًا فهلكوا ، وكلّ نعمةٍ لا تقرب من الله فهي بليَّة ، وإذا رأيتَ اللهَ يُتابع عليك نِعَمه وأنتَ تعصيه فاحذَرْه »[٤] .

---

(١) الشكر .
(٢) عُدَّة الصابرين ص١٢٥ ، والشكر .
(٣) الشكر ، وعُدَّة الصابرين ص١٢٧ .
(٤) عُدَّة الصابرين ص١٢٧ .

« وقال رجل لأبي حازم : ما شكْرُ العينين يا أبا حازم ؟ قال : إن رأيتَ بهما خيرًا أعلنته ، وإن رأيت بهما شرًّا سترته . قال : فما شكْر الأذنين ؟ قال : إن سمعتَ بهما خيرًا وعيْته ، وإن سمعتَ بهما شرًّا أخفيته . قال : ما شكْرُ اليدين ؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لهما ، ولا تمنع حقًّا لله هو فيهما . قال : ما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله طعامًا وأعلاه علمًا . قال : ما شكر الفرج ؟ قال : كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غيرُ ملومين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فأولئك هم العادون** ﴾. [المؤمنون : ٧] . قال : فما شكر الرِّجْلين ؟ قال : إن رأيتَ حيًّا غبطته ؛ استعملتَ بهما عمله ، وإن رأيتَ ميّتًا مقتَّه ؛ كففتهما عن عمله وأنت شاكرٌ لله .

وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه ، فمثله كمثل رجل له كساء ، فأخذ بطرفه ولم يلبسه ، فلم ينفعه ذلك من الحرِّ والبرد والثلج والمطر»[1].

قال مطرّف بن عبد الله : لَأَنْ أُعافى فأشكُر ، أحبُّ إليَّ مِن أن أُبتلى فأصبر .

وعن محمد بن منصور الطوسي الإمام الحافظ أبي جعفر،سُئل : إذا أكلتُ وشبعت فما شكر تلك النعمة ؟ قال : أن تصلِّي حتى لا يبقى في جوفك منه شيء»[2] .

وكان المزني إذا فرغ من تبييض مسألة وأودَعَها مُختصرَه ، صلَّى لله ركعتين[3] .

(١) الشكر ص١٣٠ ، وعُدَّة الصابرين . ص١٢٨ - ١٢٩ .
(٢) السير ١٢/ ٢١٢ - ٢١٤ .
(٣) السير ١٢/ ٤٩٢ - ٤٩٧ .

قال عبد الرحمن بن زيد : الشكر يأخذ بحزم الحمد وأصله وفرعه . ينظر في نعم الله ؛ في بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجْليه وغير ذلك ، ليس من هذا شيءٌ إلّا فيه نعمة من الله ، حقٌّ على العبد أن يعمل في النعمة – التي هي في بدنه – لله في طاعته ونعمة أخرى في الرزق ، وحقّ عليه أن يعمل لله فيما أنعم عليه به من الرزق بطاعته. فمن عمل بهذا كان قد أخذ بحزم الشُّكر وأصله وفرعه[١] .

لله درُّ محمد بن واسع ... ما أفقهه وما أعظم شكره :

قال عبد العزيز بن أبي داود : رأيتُ في يد محمد بن واسع قُرْحَةً ، فكأنَّه رأى ما شقَّ عليّ منها ، فقال لي : أتدري ماذا لله عليّ في هذه القرحة من نعمة ، حين لم يجعلها في حَدَقتي ، ولا طَرَف لساني ، ولا على طَرَف ذكرتي . فهانت عليَّ قرحتُه[٢] .

جلساء الرحمٰن : أهل الشكر :

قال أبو سليمان الداراني : جلساء الرحمن يوم القيامة مَن جُعل فيه خصال الكرم والسخاء ، والحلم والرأفة ، والشكر والبِرّ ، والصبر[٣] .

أقلُّ نعمة لا تهتدي لشكرها العقول :

قال أحمد بن أبي الحواري : قالت لي مؤمنة المتعبِّدة[٤]: أنا في شيءٍ قد

(١) عُدَّة الصابرين ص١٣٩ ، والشكر ص١٦٠ .
(٢) الشكر ص١٤٠ ، وعُدَّة الصابرين ص١٣٤ .
(٣) الشكر ص١٥٩ ، وعُدَّة الصابرين ص١٣٨ .
(٤) هي مؤمنة بنت بُهلول : عابدة من عابدات بغداد ، كما جاء في أعلام النساء (٣/ ١٥١٢) .

شغل قلبي . قلت : ما هو ؟ قالت : أُريد أن أعرف نعمة الله عليَّ في طرفة عين ، أو أعرف تقصيري عن شكر النعمة عليّ في طرفة عين ؟! قلت لها : أنت تريدين ما لا تهتدي إليه عقولنا !! .

وقال أحمد بن أبي الحواري : قلتُ لأبي معاوية الأسود : يا أبا معاوية ، ما أعظم النعم علينا في التوحيد،نسألُ الله ألا يسلُبناه . قال : يحقّ على المنعِم أن يُتِمَّ على مَن أنعم عليه .

وقال يمان – أبو معاوية الأسود –: سمعتُ أخي سفيان الثوري يقول : ما كان الله لِيُنعم على عبد في الدنيا فيفضحه في الآخرة ، وحقّ على المنعم أن يتمَّ على مَن أنعم عليه[1] .

الشكر : أن لا تعصي اللهَ بنِعَمِه :

قال الجُنَيد : كنتُ بين يدي السريّ ألعب – وأنا ابن سبع سنين – وبينا جماعة يتكلَّمون في الشكر . فقال لي : يا غلام ، ما الشكر ؟ فقلتُ : أن لا تعصي الله بنعمه . فقال : يُوشك أن يكون حظُّك من الله لسانك . فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السريّ[2] .

شكْرُ الله على أعظم النعم : توحيده :

« عن مجاهد : ﴿ وأسبغ عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطنةً ﴾ . قال : لا إله إلا الله .

عن سفيان بن عيينة قال: ما أنعم الله عزَّ وجلَّ على العباد نعمة أفضل من أن عرَّفهم أن لا إله إلا الله . قال : وإن « لا إله إلا الله » لهم في الآخرة كالماء

---

(١) الشكر ص١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) عُدَّة الصابرين ص١٤٤ .

في الدنيا »[١] .

قال ابن القيم : « حبس السلطان رجلًا فأرسل إليه صاحبه : اشكر الله . فضُرب ، فأرسل إليه : اشكر الله . فجيء بمحبوس مجوسي مبطون ، فقيِّد وجعل حلقة من قيده في رجْله وحلقة في الرجل المذكور ، فكان المجوسي يقوم بالليل مرات ، فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفرغ ، فكتب إليه صاحبه : اشكر الله . فقال له : إلى متى تقول : اشكر الله ، وأيُّ بلاءٍ فوق هذا ؟ فقال: ولو وُضِع الزِّنَّار الذي في وسطه في وسطك، كما وُضِع القيد الذي في رِجْله في رجْلك ماذا كُنت تصنع ؟ فاشكر الله .

ودخل رجل على سهل بن عبد الله فقال : اللصُّ دخل داري وأخذ متاعي . فقال : اشكر الله ، فلو دخل اللصُّ قلبَك – وهو الشيطان – وأفسد عليك التوحيد ، ماذا كنت تصنع ؟ »[٢] .

تمام النعمة : أن تضع رِجْلًا في الجنة :

وسئل أبو بكر بن أبي مريم : ما تمام النعمة ؟ قال : أن تضع رِجْلًا على الصراط ورِجْلًا في الجنة[٣] .

شكْر الله على البعد عن المعصية :

قال سفيان بن عيينة : عمل رجل من أهل الكوفة بخُلُقٍ دنيء ، فأعتق جاريةً له ، إذْ عافاه الله من ذلك الخُلُق .

قال : وأُمْطِر أهل مكة مطرًا تهدَّمتْ منه البيوت ، فأعتق ابن أبي رَوّاد

---

(١) الشكر لابن أبي الدنيا .

(٢) عُدَّة الصابرين ص١٤٤ – ١٤٥ .

(٣) عُدَّة الصابرين ص١٣٨ .

جاريةً له ؛ شكرًا لله إذْ عافاه الله من ذلك(١) .

ومن دقيق النعم التي تستحقُّ الشكر :

قال شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية : « من دقيق نِعَم الله على العبد التي لا يكاد يفطن لها أنه يُغلق بابه، فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئًا من القوت ؛ ليعرِّفه نعمته عليه » .

« وقال سلام بن أبي مطيع : متى شئتَ أن ترى من النعمة عليك أكثر منها عليه ، رأيته .

قال سلّام : إنك والله إنْ أغلقتَ عليك بابك ، جاءك من يدقّ عليك بابك يسألك ، ليعرِّفك الله نعمته عليك .

وقال سلام : دخلتُ على مريض أعوده ، فإذا هو يئنُّ ، فقلتُ له : اذكر المطروحين في الطريق ، اذكر الذين لا مأوىٰ لهم ، ولا لهم مَن يخدمهم . قال : ثم دخلتُ عليه بعد ذلك فلم أسمعه يئنُّ . قال : وجعل يقول : اذكر المطروحين في الطريق ، اذكر من لا مأوى له ، ولا له مَن يخدمه »(٢) .

ربُّك المُحْسن قديمًا وحديثًا إليك ، فأحرىٰ أن تُدْئب نفسك في أداء شكره :

«عن عبد الله بن أبي نوح قال: قال لي رجل على بعض السواحل : كم عاملتَه تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحبُّ ؟ قلتُ : ما أُحْصي ذلك كثرةً . قال : فهل قصدتَ إليه في أمر كرْبك فخَذَلَك ؟ قلت : لا والله ، ولكنه أحسن إليَّ فأعانني . قال : فهلْ سألته شيئًا قط فأعطاك ؟ قلتُ : وهل منعني شيئًا سألته ؟ ما سألتُه شيئًا قطّ إلا أعطاني ، ولا استغثتُ به إلا أغاثني . قال : أرأيت

---

(١) الشكر ص١٥٧ .
(٢) الشكر ١٣٤ - ١٣٥ .

لو أن بعض بني آدم فعل بك هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك ؟ قلت : ما كنتُ أقدر له على مكافأة ولا جزاء . قال : فربُّك أحقُّ وأحرى أن تُدئِبَ نفسك له في أداء شكر نعمته عليك ، وهو المحسن قديمًا وحديثًا إليك ، واللهِ لَشكْره أيسرُ من مكافأة عباده ؛ إنه تبارك وتعالى رضي بالحمد من العباد شُكْرًا »[(١)] .

لله على أهل النار مِنَّة :

قال ابن شوذب:قال عبد الله – يعني ابن مسعود[(٢)] رضي الله عنه –: إن لله على أهل النار مِنَّة ؛ لو شاء أن يعذِّبهم بأشدّ من النار لعذَّبهم[(٣)] .

من نِعَم الله السابغة : أن يزوي الدنيا عنك :

قال صالح بن مسمار : نعمة الله عليّ فيما زُوي عني من الدنيا ؛ أفضل من نعمته فيما أعطاني[(٤)].

قال مسعر : كان عبد الأعلى التيمي يقول : أكْثِروا سؤال الله العافية ؛ فإن المُبْتلىٰ – وإن اشتدَّ بلاؤه – ليس بأحقّ بالدعاء من المُعافىٰ الذي لا يأمن البلاء ، وما المُبْتَلوْن اليوم إلّا من أهل العافية بالأمس ، وما المُبْتَلون بعد اليوم إلّا من أهل العافية اليوم ، إنه رُبَّ بلاءٍ قد أجهد في الدنيا وأجزى في الآخرة ، فما يؤمن مَن أطال المقام على معصية الله ، أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهد في الدنيا ، ويفضحه في الآخرة . ثم يقول عند ذلك : الحمد لله الذي إنْ نعدّ نِعَمَه لا نُحصيها ، وإن ندأب له عملًا لا نُخرمها ، وإن

(١) الشكر ص١٣٥ – ١٣٦ ، وعُدَّة الصابرين ١٣١ – ١٣٢ .
(٢) هذا قول ابن القيم ، وأظنُّه عبد الله بن القاسم يروي عن ابن المسيب ، ويروي عنه ابن شوذب . والله تعالى أعلم .
(٣) عُدَّة الصابرين ص١٣٨ .
(٤) الشكر ١٢٨ – ١٢٩ .

نعمر فيها لا نبليها .

قال عباءة بن كُليب : كتب إليّ ابن السمَّاك : أما بعد ، فإني كتبتُ إليك وأنا مسرورٌ مستورٌ ، وأنا بهما مغرورٌ ، ذنبٌ ستره عليّ فقد طابت النفس به كأنه مغفور ، ونِعَمٌ أبلاها فأنا بها مسرور ، كأني فيها على تأدية الحقوق ، فليت شعري ما عواقب هذه الأمور ؟! .

نعمتان لا أدري أَيَّتُهما أفضل ؟

قال يونس بن عُبيد : قال رجل لأبي تميمة : كيف أصبحتَ ؟ قال : أصبحتُ بين نعمتين لا أدري أيَّتهما أفضل ؛ ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيِّرني بها أحد ، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي[(١)] .

وكتب بعض الحكماء إلى أخ له : أما بعد يا أخي ، فقد أصبح بنا من نِعَم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه ، فما ندري أيها نشكر ؛ أجميل ما ظهر أم قبيح ما ستر ؟!! .

كان بعض العلماء يقول إذا تلا : ﴿ **وإن تَعُدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحصوها** ﴾ [إبراهيم : ٣٤] : سبحان مَن لم يجعل في أحد من معرفة نِعَمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها ، كما لم يجعل في أحد من إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدركه ؛ فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكرًا ، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيمانًا ، علمًا منه أن العباد لا يتجاوزون عن ذلك .

عالي الهمَّة يَجِدُّ في شكْر الشكور ولا يفْتُر :

قال القشيري : « من آداب من عرف أنه عز وجل الشكور أن يجِدَّ في شكره ولا يفتُر ، ويواظب على حمده ولا يقصر .

---

(١) الشكر ص١٢٨ ، وعُدَّة الصابرين ص١١٩ .

والشكر على أقسام : بالبدن : وهو أن لا تستعمل جوارحك في غير طاعته ، وشكْرٌ بالقلب : وهو ألّا تشغل قلبك بغير ذكره ومعرفته ، وشكْرٌ باللسان : وهو أن لا تستعمله في غير ثنائه ومدحه ، وشكْرٌ بالمال : وهو ألّا تنفقه في غير رضاه ومحبَّته »[(١)] .

من منازل الشكر :

« يقال : الشكر ثلاث منازل : لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإفضال عليه »[(٢)] .

قال الجنيد : « الشكر : أن لا ترى نفسك أهلًا للنِّعمة »[(٣)].

« قيل : خمسة أشياء ضائعة ؛ سراجٌ يُوقد في شمس ، ومطرٌ جَوْد في سبخة ، وحسناء تُزفّ إلى عِنِّين ، وطعامٌ استُجيد وقُدِّم إلى سكران ، ومعروف صُنع إلى مَن لا شكر له »[(٤)] .

وقال بعض الحكماء : « من أُعطي أربعًا ، لم يُمنع أربعًا : مَن أُعطي الشكر ؛ لم يُمنع المزيد . ومَن أُعطي التوبة ؛ لم يُمنع القبول . ومَن أُعطي الاستخارة ؛ لم يُمنع الخِيَرة . ومَن أُعطي المشورة ؛ لم يُمنع الصواب » .

عن معاذ أن رسول الله ﷺ أتى على رجل وهو يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمة . فقال : « يا ابن آدم ، وهل تدري ما تمام النعمة ؟ » . قال : يا رسول الله ، دعوةٌ دعوتُ بها أرجو بها خيرًا . فقال : « إن من تمام النعمة

---

(١) التحبير في التذكير للقشيري ص٥٨ ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/١٦٧ .
(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٦٦ .
(٤) عيون الأخبار ٣/١٦٩ .

فوزًا من النار ، ودخولًا إلى الجنة »[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا كان في سفر فبدا له الفجر قال : « سمع سامع بحمد الله ونعمته وحسن بلائه علينا ، ربنا صاحبنا فأفْضِل علينا ، عائذًا بالله من النار » . يقول ذلك ثلاث مرات ، ويرفع بها صوته[٢] .

وعن ابن غنام – عبد الله – عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يُصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحدٍ من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر ؛ إلّا أدّى شكر ذلك اليوم »[٣] .

علو همَّة الجن في الشكر :

قال رسول الله ﷺ للصحابة : « لمَّا قرأتُها – يعني سورة الرحمن – على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردودًا منكم ؛ كنتُ كلما أتيتُ على قوله : ﴿ **فبأي آلاء ربِّكما تُكذِّبان** ﴾ . قالوا : ولا بشيءٍ من نِعَمِك ربّنا نُكَذِّبُ ، فلك الحمد »[٤] .

---

(١) حسن : رواه أحمد في المسند ، والترمذي رقم (٣٥٢٤) في الدعوات باب رقم (٩٩) ، وحسَّنه عبد القادر الأرناؤوط في تخريج كتاب الشكر لابن أبي الدنيا ص١٤٣ .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، وصحَّحه ووافقه الذهبي ، ورواه مسلم في صحيحه دون قوله : « يقول ذلك ثلاث مرات ، يرفع بها صوته » . ورواه أبو داود في الأدب .

(٣) حديث حسن : أخرجه أبو داود ، وابن حبان في صحيحه ، والنسائي في الكبرى ، وابن السني في عمل اليوم والليلة ، وابن أبي الدنيا في الشكر واللفظ له ، وقال ابن علان في « الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية » ٣ / ١٠٧ : « قال الحافظ ابن حجر : حديث حسن » .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجه عن أنس ، ورواه ابن السني ، والخرائطي ، والضياء في المختارة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٥٦٣) .

قال الثوري : ما أنعم الله على عبد في حاجة أكثر من تضرُّعه إليه فيها .

وقال أبو حازم : نعم الله فيما زُوي عني من الدنيا ، أعظم من نعمته فيما أعطاني منها .

وقال ﷺ : « ما أنعم الله على عبْدٍ نعمة فقال : الحمد لله . إلّا كان الذي أعطي ، أفضل مما أخذ »[(١)] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما أنعم الله على عبد نعمة فحمد الله عليها ؛ إلَّا كان ذلك الحمد أفضل من تلك النعمة »[(٢)].

وعن عبد الله بن محصن قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن أصبح منكم آمنًا في سِرْبه ، معافًى في جسده ، عنده قوت يومه ؛ فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها »[(٣)].

عن أبي علي قال : كنتُ أسمع جارًا لي يقول في الليل : « اللهم خيرك إلَيَّ نازل، وشرِّي إليك صاعد، وكم من ملك كريم قد صعِد إليك بعملٍ قبيح . أنت مع غناكِ عني تتحبَّب إليَّ بالنعم ، وأنا مع فقري إليك وفاقتي أتمقَّتُ إليك بالمعاصي ، وأنت في ذلك تجيرني وتسترُني وترزقُني » .

عن أبي الحجراء قال : كنا ندخل على المغيرة - أبي محمد - فنقول :

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجه عن أنس ، ورواه ابن السني والخرائطي والضياء ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٥٦٣) .

(٢) حسن : رواه ابن السني ، والخرائطي ، والضياء عن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٥٦٢) .

(٣) حسن : رواه البخاري في الأدب المفرد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٠٤٢) .

كيف أصبحتَ يا أبا محمد ؟ قال : أصبحنا مُغْرَقين في النعم مقصِّرين في الشكر ، يتحبَّب إلينا ربُّنا عز وجل وهو غنيٌّ عنا ، ونتمقَّت إليه ونحن إليه محتاجون .

عن سفيان قال : كان يقال : ليس بفقيه مَن لم يعدَّ البلاء نعمة والرخاء مصيبة .

عن أبي يحيى الباهلي قال : قال لي سليمان التيمي : إن الله أنعمَ على العباد على قدره ، وكلَّفهم الشكرَ على قَدْرهم .

عن خالد بن معدان قال : « سمعتُ عبد الملك بن مروان يقول : ما قال عبدٌ كلمة أحبّ إليه ، وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول : الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا إلى الإسلام » .

أنشد أحمد بن موسى الثقفي :

وكم من مدخلٍ لو متُّ فيه ... لكنتُ به نكالًا في العشيرةْ
وُقِيتُ السوءَ والمكروهَ فيه ... ورُحتُ بنعمةٍ فيه سَتِيرَةْ
وكم من نعمةٍ لله تُمسي ... وتُصبح ليس تعرفها كبيرةْ

قال ابن المنكدر لأبي حازم : ما أكثر مَن يلقاني فيدعو لي بالخير ، ما أعرفُهم ، وما صنعتُ إليهم خيرًا قطّ !! فقال له أبو حازم : لا تَظنَّ أن ذلك من قِبَلك ، ولكن انظر إلى الذي جاءك من قِبَلِه فاشكُرْه . وقرأ ابن زيد : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سَيجعلُ لهم الرحمنُ وُدًّا** ﴾ . [مريم : ٩٦] .

مِن جميل الصبر وجليل الشكر :

دخل ابن عروة بن الزبير اصطبله ، فَرَفَسَتْهُ دابَّةٌ فقتلته ، فما سُمع من عروة في ذلك شيءٌ حتى قدم المدينة فقال : « اللهم إنه كان لي أطرافٌ أربعة

أخذت واحدًا وأبقيتَ لي ثلاثة فلك الحمد ، وكان لي بنون أربعة فأخذتَ واحدًا وأبقيتَ لي ثلاثة فلك الحمد ؛ وأيم الله لئن أخذتَ لقد أبقيت ، وإن ابتليتَ لطالما عافيتَ ، وأبقيت لنا فيك الأمل يا بَرُّ يا وصول » .

محارب بن دثار قاضي الكوفة عالي الهمَّة في الشكر :

عن عنبسة بن الأزهر قال : كان محارب بن دثار - قاضي أهل الكوفة - قريب الجوار مني ، فربما سمعتُه في بعض الليل يقول ويرفع صوته : « أنا الصغير الذي ربَّيته فلك الحمد ، وأنا الضعيف الذي قوَّيته فلك الحمد ، وأنا الفقير الذي أغنيتَه فلك الحمد ، وأنا الغريب الذي وصَّيته فلك الحمد ، وأنا الصُّعلوك الذي موَّلْته فلك الحمد ، وأنا العزب الذي زوَّجته فلك الحمد ، وأنا الساغب[1] الذي أسبغته فلك الحمد ، وأنا العاري الذي كسْوته فلك الحمد ، وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد ، وأنا الغائب الذي أدَّيته فلك الحمد ، وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد ، وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد ، وأنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد ، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد ؛ فلك الحمد ربَّنا ، حمدًا كثيرًا على حمدي لك »[2].

* * *

(١) الجائع .
(٢) الشكر ص١٦٦ .

الفصل الثامن عشر

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
المُرَاقَبَة

كأنَّ رقيبًا منكَ يرعىٰ خواطري وآخرَ يرعىٰ مُهْجَتي ولساني

« مَن تحقَّقَ في المراقبةِ ، خافَ علىٰ فواتِ حظِّهِ من ربِّه لا غير » .

[الجُنَيد]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في المُرَاقَبَةِ □

اعلمْ يا أخي أنَّ « (المـراقبة) دوامُ علْمِ العبد وتيقُّنه باطِّـلاع الحقِّ سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه ؛ فاستدامتُه لهذا العلم واليقين ، هي « المراقبة » ، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ، ناظِرٌ إليه ، سامع لقوله ، وهو مطَّلِع على عمله كلَّ وقت وكل لحظة ، وكل نَفَس وكلَّ طرْفةِ عيْن . والغافل عن هذا بمعزِل عن حال أهل البدايات ، فكيف بحال المريدين ؟! فكيف بحال العارفين ؟! »[1] .

« مَن حفِظ مع الله تعالى الأنفاس ، وراقَب اللهَ في عموم أحواله ، فيعلم أنَّه سبحانه عليه رقيب ، ومِن قلبه قريب ، يعلم أحواله ، ويرى أفعاله ، ويسمع أقواله ، ومن تغافَلَ عن هذه الجملة ، فهو بمعزِل عن بداية الوصلة ، فيكف عن حقائق القُرْبة ؟! »[2] .

قال تعالى : ﴿ وكانَ اللهُ على كلِّ شيءٍ رقيبًا ﴾. [الأحزاب : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ وهو معكمْ أيْنما كنتمْ ﴾. [الحديد : ٤] . وقال تعالى : ﴿ ألم يعلمْ بأنَّ اللهَ يرى ﴾. [العلق : ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ واصبرْ لحكمْ ربِّك فإنَّك بأعْيننا ... ﴾. الآية [الطور : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ واعلموا أنَّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحْذَروه ﴾. [البقرة : ٢٣٥] .

وفي حديث جبريل عليه السلام : أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان ؟ فقال : « أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ ، فإنْ لم تكن تراه ، فإنَّه يراك » .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٦٥ .
(٢) الرسالة القشيرية للقشيري ١/٤٠٥ .

« قال زيد بن أسلم : مرَّ ابن عمر براعٍ ، فقال : هل من جزْرةٍ ؟ فقال : ليس هاهنا ربُّها ، قال ابن عمر : تقول له : أكَلَها الذئبُ . قال : فرفع رأسه إلى السماء ، وقال : فأين الله ؟! فقال ابن عمر : أنا والله أحقُّ أن أقول : أين الله ؟! واشترى الراعي والغنم ، فأعتقه وأعطاه الغنم »[1] .

قال الجنيد : مَن تحقَّق في المراقبة ، خافَ على فوات حظِّه من ربِّه لا غير .

لله ما أحلاها من كلمة !!

وقال ذو النون : علامة المراقبة : إيثار ما أنزل الله ، وتعظيم ما عظَّم الله ، وتصغير ما صغَّر الله .

وقال الجريري : مَن لم يحكِّم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة ، لم يصلْ إلى الكشْف والمشاهَدة .

وقيل لأبي الحسين بن هنْد : متى يَهُشُّ الراعي غنمَهَ بعصا الرعاية عن مراتع الهَلَكَة ؟ فقال : إنْ علم أنَّ عليه رقيبًا .

وقيل : مَن راقب اللهَ في خواطره ، عصَمَه في حركات جوارحه .

وقيل : الرجاء يحرِّك إلى الطاعة ، والخوف يُبعد عن المعاصي ، والمراقبة تُؤدِّيك إلى طريق الحقائق .

وقيل : المراقبةُ مراعاة القلب لملاحظة الحقِّ مع كلِّ خطْرة وخطْوة .

وقال الجريري : أمْرُنا هذا مَبنيٌّ على فصلَيْن : أن تُلزِم نفسَك المراقبة لله ، وأن يكون العلْم على ظاهرك قائمًا .

وقال إبراهيم الخوَّاص : المراقبة خلوص السرِّ والعلانية لله عز وجل .

(١) إسناده جيد : رواه الذهبي في العلو ، وقال الألباني في مختصر العلو (١/١٢٧) : « إسناد جيد ؛ رجاله رجال الشيخَيْن ، غيرَ عبد الله بن الحارث الجمحي ، وهو الحاطبي ، صدوق كما في التقريب » .

وقيل : أفضل ما يُلزِم الإنسانُ نفسَه في هذه الطريق : المحاسبة والمراقبة ، وسياسة عمله بالعلم .

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري : إذا جلستَ للناسِ فكنْ واعظًا لقلبك ونفسك، ولا يغرنَّك اجتماعُهم عليك؛ فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله يراقب باطنك .

وأربابُ الطريق مُجمِعون على أنَّ مراقبة الله تعالى في الخواطر : سببٌ لحفظها في حركات الظواهر ؛ فمن راقب الله في سرِّه ، حفِظَه الله في حركاته في سرِّه وعلانيته .

قال المرتعش : المراقبة : مراعاة السرِّ بملاحظة الغيْب مع كلِّ لحظة ولفظة .

وسُئل ابن عطاء: ما أفضل الطاعات؟ فقال: مراقبة الحقِّ على دوام الأوقات.

وقال إبراهيم الخوّاص : المراعاة تُورث المراقبة ، والمراقبة تُورث خلوصَ السرِّ والعلانية لله تعالى .

وقال الواسطي : أفضل الطاعات حفظُ الأوقات ، وهو أن لا يطالع العبدُ غيرَ حدِّه ، ولا يراقب غيرَ ربِّه ، ولا يُقارن غير وقته .

« قال أبو سليمان الداراني : كيف يخفىٰ عليه ما في القلوب ، ولا يكون في القلوب إلّا ما يُلقي فيها ؟! أفيخفى عليه ما هو منه ؟!

وقال الحسن بن علي الدامغاني : عليكم بحفْظِ السرائر ؛ فإنه مطَّلِع على الضمائر .

قال الجُنيد : قال لي إبراهيم الآجُرِّي رحمه الله : يا غلام ، لأَنْ تردَّ من همِّكَ إلى الله ذرَّة ، خيرٌ لك ممَّا طلعت عليه الشمس »[1].

---

(١) اللُّمَع للطوسي ص٨٢ – طبع : دار الكتب الحديثة بمصر .

ولله درُّ إمام أَهْلِ السنةِ أحمد بن حنبل وهو يقول :

إذا ما خلوتَ الدهرَ يومًا فلا تَقُلْ خلوتُ ولكنْ قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ولا أنَّ ما تخفي عليه يغيبُ
لَهَوْنا عنِ الأيَّامِ (١) حتى تتابَعَتْ ذنوبٌ على آثارِهنَّ ذُنوبُ
فيا ليتَ أنَّ اللهَ يغفرُ ما مضى ويأذَنُ في توباتِنا فنتوبُ
إذا ما مضى القرنُ الذي أنتَ فيهم وخُلِّفتَ في قرْنٍ فأنتَ غريبُ (٢)

المَراقبةُ تعبُّدٌ بأسمائه الحُسْنَى :

اعلمْ يا أخي أنَّ المراقبة هي التعبُّد بأسمائه : « الرقيب ، الحفيظ ، السميع ، العليم الخبير، البصير، الشهيد، والمحصي»؛ فمن عقل هذه الأسماء وتعبَّد بمقتضاها، حصلتْ له المراقبة .

الرَّقيبُ :

فالله هو الرقيبُ ، يعْلَم أحوال عباده ، ويعدُّ أنفاسهم ، حفيظ لا يغفل ، وحاضِر لا يغيب ؛ قال تعالى في قول عيسى لربِّه : ﴿ **فلمَّا توفَّيتني كُنت أنتَ الرقيبَ عليهم وأنت على كلِّ شيءٍ شهيد** ﴾ [المائدة : ١١٧] .

« وقد ذكر الرازي أن أحد الشيوخ كان له جمع من التلاميذ ، وكان قد خَصَّ واحدًا منهم بمزيد من العناية ، فسألوه قائلين : ما السبب في ذلك ؟ فقال الشيخ : سأُبيِّنه لكم . وبعد حين أعطى كلَّ واحد من التلاميذ طائرًا ، وقال لكلِّ منهم : اذبحْ هذا الطائر حيثُ لا يراك أحد . فمضى كلٌّ منهم إلى جِهَة ، ثم رجع إلى شيخه وقد ذبح الطائر ، ما عدا ذلك التلميذ ، فقد رجع إلى شيخه والطائر في يده ، فسأله الشيخ : هل ذبحتَ هذا الطائر ؟ فأجابه تلميذه : أنت أمرتَني أن أذبح الطائر حيث لا يراني أحد ، ولم أجد موضعًا لا

(١) وفي رواية : لهونا عن الأعمال .
(٢) مناقب الإمام أحمد ص٢٦٥ ، ٢٦٦ .

يراني الله فيه . فالتفت الشيخ إلى بقيَّة التلاميذ وقال : من أجل هذا خصصتْه بمزيدٍ من العناية »[١] .

فالمراقبة أن يصير الغالِبُ على العبد ذكْره بقلبِه أنَّ الله مطلع عليه على الدوام ، فيخاف سطوات عقوبته في كلِّ نَفَس ، ويهابه في كلِّ وقت .

سُئِل بعضُهم : بِمَ يستعين الرجل على غضِّ بصَرِه عنِ المحظورات ؟ قال : بعلْمه أن رؤية الله تعالى سابقة على نظره ذلك المحظور .

ومن أدب المؤمن مع الرقيب : أن يعلم أنَّ الله رقيبُه وشاهده في كلِّ شيء ، ويعلم أن نفسه عدوَّة له ، وكذلك الشيطان اللعين ، وهما ينتهزان منه كلَّ فرصةٍ ليحملاه على الغفلة والمخالفة .

وغفْلَةُ قلْبِ المْرءِ بُعْدٌ وحَسْرَةٌ ... فما نالَ عُقْبىٰ ربِّه غافِلُ القلْبِ
لقدْ ذلَّ في يومِ القيامةِ غافلٌ ... تأخَّرَ في يومِ الجهادِ عنِ الركْبِ

ولله درُّ مَن قال :

فَرْوحي وريحاني إذا كنتَ حاضرًا ... وإنْ غبْتَ فالدنيا عليَّ محابسُ
إذا لم أنافسْ في هواكَ ولَمْ أغرْ ... لِحُبِّي ففيمَنْ ليْتَ شِعْري أُنافسُ

ومَن غَفَل عنِ اللهِ نَسِيَهُ · وهذا عيْن الطرْد والحِرْمان .

فكيفَ يصنعُ مَن أقصاهُ مالِكُهُ ... فليسَ ينفعُهُ طِبُّ الأطبَّاءِ
مَن غُصَّ داوَىٰ بشُرْب الماءِ غُصَّتَهُ ... فكيف يصنعُ مَن قدْ غُصَّ بالماءِ

ومن أدب المؤمن أن يراقب نفسه وحِسَّه ، ويتيقَّظ لأنفاسه ؛ قال عبد الله ابن المبارك لرجل : راقبِ اللهَ تعالى . فسأله عن تفسير ذلك ، فقال : كُنْ أبدًا كأنَّك ترىٰ اللهَ.

---

(١) له الأسماء الحسنى ١/٢٣٨ .

قال إسماعيل صبري :

اذكُرِ اللهَ ما خلوتَ كثيرًا … فهْوَ أزكى ما يكتُبُ المَلَكَانِ
واخْشَهُ إنْ لهوتَ فهْوَ رقيبٌ … وقريبٌ للقلبِ والشِّرْيانِ
هذِّبِ النفسَ لا تُطِعْ ما تمنَّتْ … وتمسَّكْ بشِرْعةِ القرآنِ
لا تقلْ إنْ خلوتَ إني وحيدٌ … فمعَ اللهِ أنتَ في كلِّ شانِ
إنَّ عيْنَ الإلٰهِ ما غابَ عنها … أيُّ حيٍّ في عالمِ الأكوانِ
ترقُبُ الخلْقَ في جلالٍ وحكمٍ … واقتدارٍ ورحمةٍ وحنانِ

سبحانه وتعالى :

رقيبٌ على كلِّ الوجودِ مهيمِنٌ … علٰى الفلكِ الدوَّارِ نجمًا وكوكبَا
رقيبٌ علٰى كلِّ النفوس وإنْ تَلُذْ … بصمْتٍ ولم تجهرْ بسرٍّ تغيبًّا
رقيبٌ تعالٰى مالكُ الملْكِ مبصرٌ … بِهِ كلّ شيءٍ ظاهرًا أو مُحجَّبًا

الحفيظ :

قال تعالى : ﴿ **وربُّك على كلِّ شيءٍ حفيظ** ﴾ [سبأ : ٢١].

وقال تعالى : ﴿ **إنَّ ربِّي على كلِّ شيءٍ حفيظ** ﴾ [هود : ٥٧].

فمن علم أنّ ربّه حفيظ ، حفظ جوارحه وقلبه ، وحفظ دينه عن سطوة الغضب ، وخلابة الشهوة ، وخداع النفس ، وغرور الشيطان . ومَن حفظ جوارحه ، حفِظَ الله عليه قلبه . ومَن حفِظ لله حقَّه ، حفظ الله له حقَّه .

العَلِيـم :

« ومَن علِم أنه سبحانه وتعالى عالم بكلِّ شيء حتى بخطرات الضمائر ، ووساوس الخاطر؛ فعليه أن يراقبه ويستحي منه ويكفَّ عن معاصيه، ولا يغترّ بجميل ستْره ، ويخشى بغتات قهْره ، ومفاجآت مكره ؛ قال تعالى : ﴿ **يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يستخفون مِنَ الله وهو معهم** ﴾. وقال تعالى : ﴿ **وأسرُّوا**

قولَكم أو اجْهَروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾. وقال تعالى : ﴿ ألا يعلمُ مَن خَلَقَ وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك : ١٤] » .

الشـهيـد :

هو العليم الحاضر ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً قل الله ﴾ [الأنعام : ١٩] . وقال تعالى : ﴿ وما تكون في شأنٍ وما تتلو منه مِن قرآنٍ ولا تعملون من عمل إلَّا كنَّا عليكم شهودًا إذْ تُفيضون فيه وما يَعزُبُ عن ربِّك مِن مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماءِ ولا أصغر مِن ذلك ولا أكبر إلّا في كتابٍ مبين ﴾ [يونس : ٦١] .

وإذا عَلِم أن الله تعالى شهيد يعلم أفعاله ، ويرى أحواله ؛ هان عليه ما يعانيه لرضاه . وأهل المعرفة لم يطلبوا مؤنِسًا سواه ، ولا طلبوا شيئًا غيره .

فإنْ تكلَّمتُ لـمْ ألفِـظْ بغيرِكـُمُ ... وإنْ سكتُّ فأنتمْ عِقْدُ إضْماري

السميعُ البَصِيرُ :

سبحانه يسمَعُ السرَّ والنجوىٰ ، ويُبصر ما تحت الثرى .

قال القشيري : « فمَن عرَف أنه بهذه الصفة : كان من أدبه دوامُ المراقبة ، ومطالبة النفس بدقيق المحاسَبة .

سمعتُ بعض الفقراء يقول : إن بعض الملوك كان له عبد يُقبِل عليه أكثر ممَّا يُقبل على أمثاله ، و لم يكن أحسن منهم صورة ، ولا أكثر منهم قيمة، فكانوا يتعجَّبون من ذلك ، فركِب الملك يومًا إلى الصحراء ومعه أصحابه وعبيده ، ونظر إلى جبل بعيدٍ عليه قطعة ثلْجٍ نظرةً واحدةً ، ثم أطرق ، فركض ذلك العبْدُ بفرسِهِ قبل أن يَنْظُرَ الملك إليه ، و لم يعلمِ الجماعة بشيءٍ ، وما لبث إلَّا ساعة حتى عاد ومعه شيء من الثلج ، فقال له الملك : وما أدراك أني أردتُ الثلج ؟ فقال الغلام : لأنك نظرتَ إليه ، ونظرُ الملوك إلى شيءٍ لا يكونُ عبثًا .

فقال الملك : إنما أخصُّه بإكرامي ونوالي ، وأقرِّبُه وأقدِّمه عليكم ؛ لأن لكلِّ أحدٍ منكم شغلًا ؛ إنكم مشغولون بأنفسكم ، وهو مشغول بمراقبة أحوالي .. شغله مراعاةُ لحَظَاتي ، ومراقبة أحوالي »(١).

قلبي يحبُّكَ لا يُومِي إلى أحدٍ تكـادُ همَّتهُ تلقاكَ بالخبَرِ

المُحْصِـي :

قال تعالى : ﴿ **إنَّا نحنُ نُحيي الموتى ونكتُبُ ما قدَّموا وآثارَهم وكلَّ شيءٍ أحصيْناه في إمامٍ مبين** ﴾ [يس : ١٢] . وقال تعالى : ﴿ **وكلّ شيءٍ أحصيْناه كتابًا** ﴾. [النبأ : ٢٩] .

« وحظُّ العبدِ من اسم « المحصي » : أنه متى علِم أن الربَّ تعالى يُحصي عليه الكلِّيَّات والجزئيَّات ، فهو أيضًا يُحصيها على نفسه ، ويراقب أنفاسه في الدخول والخروج »(٢) .

ومن « آداب مَن عَلِم أنه - سبحانه وتعالى - يُحصي أنفاسه ، ويرعى له حواسَّه ؛ أن يعلم أنه قريب وعليه رقيب ، ويعلم أنه يتكلَّف عدَّ نِعَمِه عليه ، مع علْمه أنه لا يُحصيها إلّا هـو ؛ كما قال تعالى : ﴿ **وإنْ تعُدُّوا نعمـة الله لا تُحصوها** ﴾ ، ليزجي وقته بذكْر إنعامه وشكْر أقسامه ، فيستوجب المزيد من مواهب إحسانه »(٣).

كلُّ معلومٍ ففي علْمِكَ كَانَا أنتَ مُحصيهِ زمـانًا ومكـانَا
أنتَ سبحانَك أدرَى بالـذي فيهِ ذرَّاتٌ دقـاقًـا وكَـيَانَا

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٠٦/١ ، والتحبير في التذكير ص٤٩ .
(٢) موسوعة : له الأسماء الحسنى للدكتور أحمد الشرباصي ٣١٠/١ - طبع : دار الجيل .
(٣) التحبير في التذكير للقشيري ص٧٣ - طبع : دار الكاتب العربي .

أنتَ محصيها وهادِيها إلى نشوةِ التسبيح قلبًا ولسانًا[١]

درجاتُ المراقبةِ عندَ الغزالي :

قال الغزالي رحمَه الله : « المراقبة حالةٌ للقلب يثمرها نوعٌ مِن المعرفة ، وتُثمر تلك الحالة أعمالًا في الجوارح وفي القلب :

أمَّا الحالة : فهي مراعاة القلب للرقيب ، واشتغاله به والْتفاتُه إليه ، وملاحظته إيَّاه وانصرافه إليه .

وأمَّا المعرفة التي تُثمِرُ هذه الحالة : فهي العلم بأنَّ الله مطَّلِع على الضمائر ، عالم بالسرائر ، رقيب على أعمال العباد ، قائم على كلِّ نفس بما كسبَتْ ، وأن سرَّ القلب في حقِّه مكشوف ، كما أن ظاهر البشْرة للخلْق مكشوف ؛ بل أشدُّ من ذلك .

فهذه المعرفة إذا صارت يقينًا – أعني أنها خلَتْ عن الشكِّ – ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرتْه ، فربَّ علمٍ لا شكَّ فيه لا يغلب على القلب ، كعلم الموت ، فإذا استولتْ على القلب استجرَّتِ القلبَ إلى مراعاة جانب الرقيب وصرْفِ همّه إليه ، والموقنون بهذه المعرفة هم المقرَّبون ، وهم ينقسمون إلى الصدِّيقين ، وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبتهم على درجتيْن :

الدرجة الأولى : مراقبةُ المقرَّبين مِنَ الصِّدِّيقين :

وهي مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرِقًا بملاحظة ذلك الجلال ، ومنكسِرًا تحتَ الهيْبة ، فلا يبقى فيه مُتَّسع للالتفات إلى الغيْر أصلًا ، وهذه مراقبة تتعطل فيها الجوارح عن التلفُّت إلى المباحات فضلًا عن المحظورات . وإذا تحرَّكت بالطاعات كانت كالمستعمَلة بها ، فلا تحتاج إلى تدبير

---

(١) موسوعة : له الأسماء الحسنى ص ٣١١ .

وتثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسدّد الرعية من مُلْك الراعي ، والقلب هو الراعي ، فإذا صار مستغرقًا بالمعبود صارت الجوارح مستعملةً جارية على السداد والاستقامة من غير تكلُّف ، وهذا هو الذي صار همُّه واحدًا ، فكفاه الله سائرَ الهموم »[1] .

وقد مرّ بك سابقًا أنَّ رسول الله ﷺ مِن شُغْله بالدعوة وبما قاله أهل الطائف ؛ انطلَق مهمومًا على وجهه ، فما أفاق إلّا بـ « قَرْن الثعالب » .

قال الغزالي : « ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخَلْق ، حتى لا يبصر مَن حضر عنده ، ولا تستبعد هذا ، فإنك تجد نظيرَ هذا في القلوب المعظَّمة لملوك الأرض ، حتى إن خدَم الملك قد لا يُحسُّون بما يجري عليهم في مجالس الملوك ؛ لشدَّة استغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلبُ بمُهمّ حقير من مهمَّات الدنيا ، فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي ، فربما يجاوز الموضع الذي قصدَه ، وينسىٰ الشغلَ الذي نهض له .

قيل لعبد الواحد بن زيد : هل تعرف في زمانك هذا رجلًا قد اشتغلَ بحاله عن الخَلْق ؟ فقال : ما أعرفُ إلَّا رجلًا سيدخل عليكم الساعة ! فما كان إلّا سريعًا حتى دخل عُتبةُ الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد : من أين جئت يا عتبة ؟ فقال : من موْضع كذا . وكان طريقه على السوق . فقال : مَن لقيتَ في الطريق ؟ فقال : ما رأيتُ أحدًا .

وحُكي عن بعضهم أنه قال : مررتُ بجماعة يترامَوْن وواحد جالسٌ بعيدًا منهم ، فتقدمتُ إليه ، فأردتُ أن أكلِّمه فقال : ذكْرُ الله تعالى أشهَىٰ . فقلتُ : وحدَك ؟! فقال: معي ربِّي ومَلَكَايَ. فقلتُ: مَنْ سَبَق من هؤلاء ؟ قال: مَن غفَر الله له . فقلتُ : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء ، وقام ومشى ، وقال :

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٤٢٢ – ٤٢٣ .

أكثرُ خلقِك شاغِل عنك .

فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى ، لا يتكلَّم إلَّا منه ولا يسمع إلا فيه » .

قومٌ تخلَّلهمْ زهْوٌ بسيِّدهمْ ... والعبدُ يزهو على مقدارِ مَوْلاهُ
تاهُوا بهِ عمَّن سواهُ لهُ ... يا حُسْنَ رؤيتِهِمْ في حُسْنِ ما تاهوا

يقول قائلهم :

وشُغلتُ عن فهْمِ الحديث سوىٰ ... ما كانَ عنكَ فإنَّه شغْلي
وأديمُ نحو محدِّثي عقلي ليرىٰ ... أنْ قد عقلتُ وعندكم عقلي

ويقول قائلهم :

لمّا علمتَ بأنَّ قلبيَ فارغٌ ... ممَّنْ سواك ملأتَه بهواكا
والقلْبُ فيكَ هيامُه وغرامُه ... والرّوحُ لا تنفكُّ عن ذكْراكا

ويقول قائلهم :

أُخلي فؤادي لهُ منْ كلِّ شائبةٍ ... إنْ عشتُ أو متُّ أعضائي توحِّدهُ

« قال أبو عبد الله بن خفيف : خرجتُ من مصر أريد « الرملة » للقاء أبي علي الرّوذباري ، فقال لي عيسى بن يونس المصري - المعروف بالزاهد -: إنَّ في « صُور » شابًّا وكهْلًا قد اجتمعا على حالِ المراقبة ، فلو نظرت إليهما نظرةً لعلّك تستفيد منهما ؟ فدخلتُ « صور » وأنا جائع عطشان ، فدخلتُ المسجد ، فإذا بشخصيْن قاعديْن مستقبلي القبلة ، فسلمتُ عليهما فما أجاباني ، فسلَّمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب ، فقلت : نشدتُكما بالله إلّا رددتُما عليَّ السلام فرفع الشابُّ رأسَه فنظر إليَّ وقال : يا ابن خفيف ، الدنيا قليل وما بقي من القليل إلَّا القليل ، فخُذْ من القليل للكثير . يا ابنَ خفيف ، ما أقلَّ شغْلكَ حتى تتفرَّغ إلى لقائنا !! قال : فأخذ بكلِّيّتي ، ثم طأطأ رأسه في المكان ، فبقيتُ عندهما حتى صلَّينا الظهر والعصر ،

فذهب جوعي وعطشي وعنائي ، فلمّا كان وقت العصْر قلتُ : عِظْني . فرفع رأسه إليّ وقال: يا ابن خفيف، نحن أصحاب المصائب، ليس لنا لسانُ العِظَة. يا ابن خفيف، عليك بصُحبة من يذكِّرُك بالله رؤيتُه، وتقع هيبتُه على قلبك، يعظك بلسان فعْله ولا يعظك بلسان قوله. والسلام. قُم عنا».

فهذه درجة المراقبين ، الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم ، فلم يبق فيهم متَّسع لغير ذلك .

الدرجة الثانية : مراقبة الوَرِعِين مِنْ أصحابِ اليَمين :

« وهم قومٌ غلب يقينُ اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم ، وعلى قلوبهم ، ولكن لم تَدْهشْهمْ ملاحظة الجلال ، بل بقيتْ قلوبُهُم على حدِّ الاعتدال ، متسعة للتلفُّت إلى الأحوال والأعمال ، إنها مع ممارسة الأعمال لا تخلُو عن المراقبة ؛ نعم ، غلب عليهم الحياءُ من الله ، فلا يُقدمون ولا يُحجمون إلَّا بعد التثبت فيه ، ويمتنعون عن كلِّ ما يُفْتَضَحُون به في القيامة ؛ فإنهم يرون اللهَ في الدنيا مطَّلِعًا عليهم ، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة »[(١)].

ابنُ عُمَر سيِّدٌ من ساداتِ المراقبين لله :

قال عروة بن الزبير : « خطبتُ إلى عبد الله بن عمر ابنته ونحن في الطواف ، فسكت ولم يجبْني بكلمة ، فقلتُ : لو رضي لَأَجابني ، والله لا أُراجعه فيها بكلمة أبدًا ، فقُدِّرَ له أن صَدَر إلى المدينة قبلي ، ثم قدِمتُ فدخلتُ مسجد الرسول ﷺ ، فسلَّمتُ عليه وأدَّيتُ إليه من حقِّه ما هو أهلُه ، فأتيتُه ورحَّب بي ، وقال : متى قدمتَ ؟ فقلتُ : هذا حينُ قدومي . فقال : أكنتَ ذكرتَ لي سَودَة بنت عبد الله ونحن في الطواف نتخايلُ اللهَ عز وجل بين أعيُننا ، وكنتَ قادرًا أن تلقاني في غير ذلك المَوْطن ؟ فقلتُ : كان أمرًا قُدِرَ . قال :

(١) إحياء علوم الدين ٤/٤٢٣ - ٤٢٤ .

فما رأيُك اليوم ؟ قلتُ : أحرَص ما كنتُ عليه قطُّ . فدعا ابنيْه سالمًا وعبدَ الله فزوَّجني »(١) .

قال الغزالي في الفرْق بين الدرجتيْن الأولى والثانية :

« وتعرف اختلاف الدرجتيْن بالمشاهدات ؛ فإنك في خَلْوتك قد تتعاطى أعمالًا ، فيحضرك صبيٌّ أو امرأة ، فتعلم أنه مطَّلِع عليك فتستحي منه ، فتُحسِن جلوسك وتراعي أحوالك ، لا عن إجلال وتعظيم بل عن حَيَاء ؛ فإنَّ مشاهدته وإنْ كانت لا تدهشك ولا تستغرقُك ، فإنها تهيج الحياء منك ، وقد يدخل عليك مَلِكٌ من الملوك أو كبيرٌ من الأكابر ، فيستغرقُك التعظيمُ حتى تترك كلَّ ما أنت فيه ؛ شغلًا به ، لا حياءً منه ، فهكذا تختلف مراتبُ العباد في مراقبة الله تعالى »(٢) .

مراقبة الوَرِعِين : مراقبةٌ قبلَ العمل ، ومراقبة في العمل :

قال الغزالي عن الدرجة الثانية من درجات المراقبة : « ومَن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته ، وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران : نظرٌ قبل العمل ، ونظر في العمل :

أمَّا قبلَ العَمَل :

فلينظرْ أن ما ظهر له وتحرَّك بفعْله خاطرُه : أهو لله خاصَّة أم هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان ؟ فيتوقَّف فيه ويتثبت ، حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله تعالى أمضاه ، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكفَّ عنه ، ثم لام نفسَه على رغبته فيه وهمّه به وميْله إليه ، وعرّفها سوءَ فعْلِها وسعيها

---

(١) حلية الأولياء ٣٠٨/١ .

(٢) إحياء علوم الدين ٤٢٤/٤ .

في فضيحتها ، وأنها عدوَّة نفسِها إنْ لم يتداركْها اللهُ بعصْمته ، وهذا التوقُّف في بداية الأمور إلى حدّ البيان واجبٌ محتوم ، لا محيصَ لأحد عنه .

قال الحسن : كان أحدهُم إذا أراد أن يتصدَّق بصدقة ، نظر وتثبَّت ؛ فإن كان لله أمضاه .

وقال الحسن : رحم اللهُ عبدًا وقف عند همِّه ؛ فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخَّر .

وقال محمد بن علي : إنَّ المؤمن وقَّافٌ متأنٍّ ، يقف عند همِّه ، ليس كحاطب ليْلٍ .

فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ، ولا يُخلِّص مِن هذا إلَّا العلمُ المتينُ ، والمعرفةُ الحقيقةُ بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان ، فمتى لم يعرفْ نفسَه وربَّه وعدوَّه إبليس ، ولم يعرف ما يوافق هواه ، ولم يميِّز بينه وبين ما يحبُّه الله ويرضاه في نيَّته وهِمَّته وفكرته وسكونه وحركته - فلا يسلمْ في هذه المراقبة .

فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسَه عند همِّه بالفعْل وسعْيه بالجارحة ، فيتوقَّف عن الهمِّ وعن السعْي ، حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيُمضيه ، أو لهوىٰ النفسِ فيتَّقيه ، ويزجر القلب عن الفكْر فيه والهمِّ به ، فإن الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تُدْفَع ، أَوْرثت الرغبة ، والرغبة تُورث الهمَّ ، والهمّ يُورث جزْمَ القصْد ، والقصد يُورث الفعْل ، والفعل يُورث البَوار والمقْت . ومعرفة آفات الأعمال قد اندرستْ في هذه الأعصار .

عند الشُّرُوعِ في العمل :

النظر الثاني للمراقبة : عند الشروع في العمل ؛ وذلك بتفقُّد كيفيَّة العمل ليقضي حقَّ الله فيه ، ويُحسن النيَّة في إتمامه ، ويكمل صورته ويتعاطاه على

أكمل ما يمكنه ، وهذا ملازم له في جميع أحواله ؛ فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون ، فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك ، قدَر على عبادة الله تعالى فيها بالنيَّة وحُسْن الفعْل ومراعاة الأدَب . فإن كان قاعدًا مثلًا فينبغي أنْ يستقبل القبلة ، ولا يجلس متربِّعًا ؛ إذْ لا يُجالِس الملوكَ كذلك ، وملكُ الملوك مطَّلع عليه ؛ قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : جلستُ مرَّة متربِّعًا ، فسمعت هاتفًا يقول : هكذا تجالس الملوك ؟! فلم أجلسْ بعد ذلك متربِّعًا .

فإذن ، لا يخلو العبد ؛ إمَّا أن يكون في طاعة ، أو في معصية ، أو في مباح .

فمراقبته في الطاعة : بالإخلاص ، والكمال ، ومراعاة الأدب ، وحراستها عن الآفات .

وإن كان في معصيته : فمراقبته بالتوبة ، والندم ، والإقلاع ، والحياء ، والاشتغال بالتفكُّر .

وإن كان في مباح : فمراقبته بمراعاة الأدب ، ثم بشُهود المْنعِم في النعم ، وبالشكر عليها .

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بليَّةٍ لا بدّ له من الصبر عليها ، ونعمة لا بدَّ له من الشكْر عليها ، وكل ذلك من المراقبة .

بل لا ينفكُّ العبد في كلِّ حالٍ من فرْضٍ لله تعالى عليه ؛ إمَّا فعْل يلزمه مباشرته ، أو محظور يلزمه ترْكه ، أو ندْب حثَّ عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله ، أو مباح فيه صلاحُ جسمه وقلبه ، وفيه عون له على طاعته . ولكل واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ ومَن يتعدَّ حدودَ اللهِ فقدْ ظلمَ نفسَه ﴾ [الطلاق : ١]. فينبغي أن يتفقَّد العبدُ نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة، فإذا كان فارغًا من الفرائض وقدرَ

على الفضائل ، فينبغي أن يلتمسَ أفضل الأعمال ليشتغل بها ، فإنَّ مَن فاته مزيدُ ربْح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تُنال بمزايا الفضائل ، فبذلك يأخذ العبدُ من دنياه لآخرته ؛ كما قال تعالى : ﴿ **ولا تنسَ نصيبَك مِنَ الدنيا** ﴾. [القصص : ٧٧]. وكلُّ ذلك إنما يمكن بصبْر ساعة واحدة ، وهي الساعة الراهنة ، فيكون ابنَ وقتِه كأنَّه في آخر أنفاسه ، فلعلَّه آخر أنفاسه وهو لا يدري ، ولا يطوِّل أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها .

وفي الساعة التي هو فيها مشغول بالجوارح ، بالطعام والشراب ، لا ينبغي أنْ يخلو عن عَمَلٍ هو أفضل الأعمال ، وهو الذكْر والفكْر ؛ فإن الطعام الذي يتناوله مثلًا فيه من الغجائب ما لو تفكَّر فيه وفطِن له ، كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح .

فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال »[1] .

درجاتٌ أخرىٰ للمراقبةِ عند شيْخ الإسلام الهَرَوي وابن القيم :

قال الهروي صاحب « المنازل » : المراقبة : دوامُ ملاحظةِ المقصود . وهي على ثلاث درجات :

الدرجة الأُولىٰ : مراقَبَةُ الحقِّ تعالىٰ في السَّيْر إليه علىٰ الدَّوَام ، بين تعظيمٍ مُذْهِلٍ ، ومداناةٍ حامِلةٍ ، وسرورٍ باعث :

قال ابن القيم : « قوله : (بيْن تعظيمٍ مذهِلٍ) : فهو امتلاءُ القلب من عظمة الله عز وجل ، بحيث يُذهِلُه ذلك عن تعظيم غيره ، وعن الالتفات إليه ، فلا ينسىٰ هذا التعظيم عند حضور قلبه مع الله ، بل يستصحبه دائمًا ؛ فإن الحضور مع الله يُوجب أُنسًا ومحبَّةً ، إن لم يقارنْهما تعظيم ، أورثاه خروجًا

(١) إحياء علوم الدين ٤/٤٢٤ - ٤٢٨ .

عن حدود العبودية ورُعونةً ، فكل حبّ لا يُقارنه تعظيم المحبوب : فهو سبب للبعد عنه ، والسقوط من عَيْنِهِ .

فقد تضمَّن كلامُه خمسةَ أمور : سيْرٌ إلى الله ، واستدامة هذا السيْر ، وحضور القلب معه ، وتعظيمه ، والذهول بعظمته عن غيره .

وأما قوله : (ومداناة حاملة) : فيريد دنوًا وقربًا حاملًا على هذه الأمور الخمسة ، وهذا الدنوُّ يحمله على التعظيم الذي يُذهله عن نفسه وعن غيره ؛ فإنه كلما ازداد قُربًا مِن الحقِّ ازداد له تعظيمًا وذُهولًا عن سواه ، وبعدًا عن الخلْق .

وأما (السرور الباعث) : فهو الفرحة والتعظيم ، واللَّذَّة التي يجدها في تلك المداناة ؛ فإن سرور القلب بالله وفرحه به ، وقرَّة العيْن به ؛ لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبتة ، وليس له نظير يُقاس به ، وهو حال من أحوال أهل الجنة ، حتى قال بعض العارفين : إنه لَتمرُّ بي أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنَّهم لَفي عيش طيِّب .

ولا ريب أنَّ هذا السرور يَبعثُه على دوام السيْر إلى الله عز وجل ، وبذْلِ الجهد في طلبه ، وابتغاء مرضاته ، ومَن لم يجد هذا السرور ، ولا شيئًا منه ، فَلْيَتَّهِمْ إيمانه وأعماله ؛ فإن للإيمان حلاوة ، مَن لم يَذُقْها فليرجعْ ، وليقتبسْ نورًا يجد به حلاوة الإيمان . وقد ذكر النبي ﷺ ذوْق طعم الإيمان ووَجْدَ حلاوته ؛ فذكر الذوْق والوجْد ، وعلَّقه بالإيمان ، فقال : « ذاق طعْمَ الإيمان مَن رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمَّد رسولًا » . وقال : « ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجدَ حلاوة الإيمان : مَن كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ومَن كان يحبُّ المرء لا يحبُّه إلا لله ، ومَن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يُلقَى في النار » .

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله رُوحه - يقول : إذا

لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا ، فاتهمْه ؛ فإن الرَّب تعالى شكور .
يعني أنه لا بدَّ أن يُثيب العامل على عمله في الدنيا ، مِن حلاوة يجدها في قلبه ، وقوَّة انشراح وقرَّة عين . فحيث لم يجد ذلك فعملُه مدخول .

والقصد : أن السرور بالله وقرْبِه ، وقرَّةِ العين به ، تبعث على الازدياد من طاعته ، وتحثُّ على الجدِّ في السيْر إليه »[1] .

الدرجة الثانية : مُراقَبَة نظَرِ الحقِّ برفْضِ المعارضة ، بالإعراض عن الاعتراضِ ، ونقْضِ رُعونة التعرُّض :

قال ابن القيم : « هذه مراقبة لمراقبة الله لك ، فهي مراقبة لصفة خاصَّة معيَّنة ، وهي تُوجب صيانة الباطن والظاهر ؛ فصيانة الظاهر : بحفظ الحركات الظاهرة ، وصيانة الباطن : بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة ، التي منها رفْض معارضة أمره وخبره فيتجرَّد الباطن من كلّ شهوة وإرادة تُعارِض أمره ، ومن كلّ إرادة تعارض إرادته . ومن كلّ شبهة تعارض خبره ، ومن كلّ محبَّة تزاحم محبته ، وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلّا مَن أتى اللهَ به ، وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين، وكل تجريد سوى هذا فناقِصٌ . وهذا تجريد أرباب العزائم .

ثم بَيَّن الشيخ سبب المعارضة ، وبماذا يرفضها العبد ؛ فقال : « بالإعْراض عن الاعتراض » ؛ فإن المعارضة تتولَّد من الاعتراض ، و « الاعتراض » ثلاثةُ أنواع سارية في الناس ، والمعصوم مَن عصمه اللهُ منها :

النوع الأول : الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشُّبه الباطلة ، التي يسمِّيها أربابها قواطع عقلية ، وهي في الحقيقة خيالات جهْلية ، ومُحالات ذِهنية ، اعترضوا بها على أسمائه وصفاته عز وجل، وحكموا بها عليه، ونفوا لأجْلها ما أثْبَتَهُ لنفسه، وأثبتَه له رسوله ﷺ ، وأثبتوا ما نفاه ، ووالَوْا بها أعداءه ، وعادَوا بها أولياءه ،

(١) مدارج السالكين ٢/٦٦ - ٦٨ .

وحرَّفوا بها الكَلِم عن مواضعه ، ونسوا بها نصيبًا كثيرًا مما ذُكِّروا به وتقطَّعوا لها أمرَهم بينهم زُبُرًا ، كلُّ حزبٍ بما لديهم فرِحون .

والعاصِم من هذا الاعتراض : التسليم المحْض للوحي ، فإذا سلم القلب له ؛ رأى صحة ما جاء به ، وأنه الحقُّ بصريح العقل والفِطرة ، فاجتمع له السمع والعقل والفطرة ، وهذا أكمل الإيمان . ليس كمَنِ الحربُ قائمٌ بين سمعه وعقله وفِطرته .

النوع الثاني : الاعتراضُ على شرْعه وأمره . وأهل هذا الاعتراض ثلاثة أنواع :

أحدها : المعترِضون عليه بآرائهم وأقيستهم ، المتضمِّنة تحليل ما حرَّم الله سبحانه وتعالى ، وتحريم ما أباحه ، وإسقاط ما أوجبه ، وإيجاب ما أسقطه ، وإبطال ما صحَّحه ، وتصحيح ما أبطله ، واعتبار ما ألغاه ، وإلغاء ما اعتبره ، وتقييد ما أطلقه ، وإطلاق ما قيَّده . وهذه هي الآراء والأقيسة التي اتفق السلف قاطبةً على ذمِّها والتحذير منها ، وصاحوا على أصحابها من أقطار الأرض ، وحذَّروا منهم ، ونفروا عنهم .

الثاني : الاعتراض على حقائق الإيمان والشرْع بالأذواق والمواجيد والخيالات ، والكشوفات الباطلة الشيطانية ، المتضمِّنة شرْعَ دينٍ لم يأذنْ به الله وإبطال دينه الذي شرعه على لسان رسوله ، والتعوّض عن حقائق الإيمان بخدَعِ الشيطان ، وحظوظ النفوس الجاهلة .

والعجب أنَّ أربابها يُنكرون على أهل الحظوظ ، وكلّ ما هم فيه فحظٌّ ، ولكن حَظُّهم متضمِّن مخالفة مراد الله ، والإعراض عن دينه ، واعتقاد أنه قربة إلى الله . فأين هذا من حظوظ أصحاب الشهوات ، المعترفين بذمِّها ، المستغفرين منها ، المقرِّين بنقصهم وعيْبهم ، وأنها منافية للدين ؟!.

وهؤلاء في حظوظهم اتخذوها دينًا ، وقدَّموها على شرْع الله ودينه ،

واغتالوا بها القلوب ، واقتطعوها عن طريق الله ، فتولَّد من معقول أولئك ، وآراء الآخرين وأقيستهم الباطلة ، وأذواق هؤلاء : خرابُ العالم ، وفساد الوجود ، وهدْمُ قواعد الدين . وتفاقَم الأمر وكاد ، لولا أن الله ضمن أنه لا يزال يقوم به مَن يحفظُه ، ويبيِّن معالمه ، ويحميه من كيْد مَن يكيد .

الثالث : الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة ، التي لأرباب الولايات التي قدَّسوها على حكم الله ورسوله ، وحكموا بها بين عباده ، وعطّلوا لها وبها شرعه وعدله وحدوده .

فقال الأوَّلون : إذا تعارَض العقل والنقل : قدَّمنا العقل .

وقال الآخرون : إذا تعارَض الأثرُ والقياس : قدَّمنا القياس .

وقال أصحاب الذوْق والكشْف والوجْد : إذا تعارض الذوْق والوجد والكشف وظاهر الشرع ؛ قدَّمنا الذوق والوجد والكشف .

وقال أصحاب السياسة : إذا تعارضتِ السياسة والشرع ، قدَّمنا السياسة . فجعلتْ كل طائفة قُبالةَ دينِ الله وشرعه طاغوتًا يتحاكمون إليه ؛ فهؤلاء يقولون : لكم النقل ، ولنا العقل . والآخرون يقولون : أنتم أصحاب آثار وأخبار ، ونحن أصحاب أقيسة وآراء وأفكار . وأولئك يقولون : أنتم أرباب الظاهر ، ونحن أهل الحقائق. والآخرون يقولون: لكم الشرع ، ولنا السياسة . فيا لها من بليَّة ، عَمَّتْ فأعْمَتْ ، ورزيّة رَمَتْ فأصْمَت ، وفتنةٍ دعت القلوب فأجابها كلُّ قلب مفتون ، وأهوية عصَفَت فصُمَّتْ منها الآذان ، وعميتْ منها العيون ، عُطِّلتْ لها - والله - معالم الأحكام ، كما نُفيتْ لها صفات ذي الجلال والإكرام ، واستند كلُّ قوم إلى ظلْمِ وظلماتِ آرائهم ، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم ، وصار لأجْلها الوحيُ عُرْضَةً لكلِّ تحريف وتأويل ، والدين وقْفًا على كل إفساد وتبديل .

النوع الثالث : الاعتراض على أفعاله وقضائه وقدَره . وهذا اعتراض

الجُهَّال . وهو ما بين جليّ وخفيّ ، وهو أنواع لا تُحصى ، وهو سارٍ في النفوس سريان الحمَّى في بدَن المحموم ، ولو تأمل العبد كلامه وأمنيته وإرادته وأحواله ، لَرَأى ذلك في قلبه عيانًا ، فكلُّ نفسٍ معترضة على قَدَر الله وقَسْمه وأفعاله ، إلّا نفْسًا قد اطمأنت إليه ، وعرفتْه حقَّ المعرفة التي يمكن وصول البشر إليها ، فتلك حظُّها التسليم والانقياد ، والرضا كل الرضاء .

وأما « نقْصُ رعونة التعرُّض » : فيشير به إلى معنى آخر ، لا تتمُّ المراقبة عنده إلّا بنقْضه ، وهو إحساس العبد بنفسه وخواطره وأفكاره حال المراقبة والحضور مع الله ؛ فإنَّ ذلك تعرُّض منه لحجاب الحقِّ له عن كمال الشهود ؛ لأن بقاء العبد مع مداركه وحواسِّه ومشاعره ، وأفكاره وخواطره ، عند الحضور والمشاهدة : هو تعرُّض للحجاب ، فينبغي أن تتخلَّص مراقبة نظر الحقِّ إليك من هذه الآفات . وذلك يحصل بالاستغراق في الذكر ، فتذْهَلُ به عن نفسك وعمَّا منك ، لتكون بذلك متهيئًا مستعدًّا للفناء عن وجودك ، وعن وجود كلِّ ما سوى المذكور سبحانه .

وهذا التهيُّؤ والاستعداد : لا يكون إلّا بنقْضِ تلك الرعونة ، والذكْرُ يُوجب الغيبة عن الحِسِّ ، فمن كان ذاكرًا لنظَرِ الحق إليه من إقباله عليه ، ثم أحسَّ بشيء من حديث نفسه وخواطره وأفكاره : فقد تعرَّض واستدعى عوالم نفسه ، واحتجاب المذكور عنه ؛ لأن حضْرة الحقِّ تعالى لا يكون فيها غيره .

وهذه الدرجة لا يقدِر عليها العبد إلا بمَلَكَة قويّة من الذكْر ، وجمع القلب فيه بكليَّته على الله عز وجل »[1] .

الدرجة الثالثة : مراقبة الأَزَلِ ، بمطالعة عيْن السَّبْق ، استقبالًا لعَلَم التوحيد:

قال ابن القيم : « قوله : (مراقبة الأزل) : أي شهود معنى الأزل ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/٦٨ - ٧٢ .

وهو القدم الذي لا أول له .

(بمطالعة عيْن السبْق) : أي بشهود سبق الحقِّ تعالى لكلّ ما سواه ؛ إذْ هو الأول الذي ليس قبله شيء فمتى طالَع العبد عيْن هذا السبق، شهِد معنى « الأزل » ، وعرف حقيقته ، فبدا له حينئذ عَلَمُ التوحيد ، فاستقبله كما يستقبل أعلام البلد ، وأعلام الجيش ، ورُفع له فشمَّرَ إليه . وهو شهود انفرادِ الحق بأزليَّته وحْدَه ، وأنه كان ولم يكن شيء غيره ألبتة ، وكل ما سواه فكائن بعد عدَمِه بتكوينه . فإذا عدِمت الكائناتُ من شهوده ، كما كانت معدومة في الأزل ؛ فطالعَ عيْن السبق ، وفني بشهودِ مَن لم يزلْ عن شهودِ مَن لم يكن ؛ فقدِ استقبل عَلَمَ التوحيد . ويشهد تنوُّع الأسماء والصفات ، وتعلُّقها بأنواع الكائنات وارتباطها بجميع الحادثات ، وإعطاء كلٍّ اسم منها وصفةٍ حقَّها ؛ من الشهود والعبودية ، والنظر إلى سَرَيان آثارها في الخلْق والأمر ، والعالم العلوي والسفلي ، والظاهر والباطن ، ودار الدنيا ودار الآخرة .

فهذا الشهود المتعلِّق بأسمائه وصفاته ، وتقدُّمِ علْمه بالأشياء ووقوعها في الأبد مطابقةً لعلْمه الأزلي ؛ فهذا الشهود يُعطي إيمانًا ومعرفةً ، وإثباتًا للعلْم والقدرة ، والفعل والقضاء والقدَر .

درجةٌ عاليةٌ رفيعةٌ شريفةٌ من المراقبة :

مراقبة مواقع رضا الربِّ ، ومساخِطِه في كلِّ حركةٍ ، والفناءُ عمَّا يُسخِطُه بما يحبُّ ، والتفرُّق له وبه وفيه ، ناظرًا إلى عيْن جمْع العبودية ، فانيًا عن مراده من ربِّه ، مهْمَا علا بمراد ربه منه . والله سبحانه وتعالى أعلم »[1].

* * *

(١) مدارج السالكين ٧٤/٢ .

أخي ، لله درُّ مَن قال :

كأنَّ رقيبًا منكَ يرعى خواطري ... وآخر يرعى مهْجَتي ولساني
فخاطبتُ موجودًا بغيرِ تكلُّمٍ ... ولاحظتُ مَوْجُودًا بغيرِ عِيانِ

وقالت ميمونة :

قلوبُ العارفين لها عُيُونٌ ... ترى ما لا يراهُ الناظرُونَا
وألسنةٌ بسرٍّ قد تناجي ... تغيبُ عن الكرامِ الكاتبينا
وأجنحةٌ تطير بغيْرِ ريشٍ ... إلى ملكوتِ ربِّ العالمينا
فتسقيها شرابَ الصدقِ صِرْفًا ... وتشربُ من كؤوس العارفينا

أخي :

« حالُ الكبراء من أهل المراقبة أنهم يُراقبون الله تعالى ، ويسألونه أن يراعيهم فيها؛ لأنه - عز وجل - قد خصَّ نجباءه وخاصَّته بألَّا يَكِلَهم في جميع أحوالهم إلى أحد ، وهو الذي يتولّى أمرهم ؛ فقال عز وجل : ﴿ **وهو يتولَّى الصالحين** ﴾ [الأعراف : ١٩٦] » .

« **مراقبة مخلوقٍ لمخلوقٍ ، فكيف مراقبةُ العبد لسيِّده ؟** » :

« قال أبو علي الدقَّاق : كان لبعض الأمراءِ وزير ، وكان بين يديْه يومًا ، فالتفت إلى بعض الغلمان الذين كانوا وُقوفًا ، لا لريبة ، ولكن لحركة أو صوتٍ أحسَّ به منهم ، فاتفق أن ذلك الأميرَ نظَر إلى هذا الوزير في تلك الحالة ، فخاف الوزير أن يتوهَّم الأمير أنه نظَرَ إليهم لريبةٍ ، فجعل ينظر إليه كذلك ، فبعد ذلك اليوم كان هذا الوزير يدخل على هذا الأمير أبدًا وهو ينظر إلى جانب ، حتى توهّم الأمير أنَّ ذلك خلْقةٌ وحَوَلٌ فيه .

فهذه مراقبة مخلوق لمخلوق ، فكيف مراقبة العبد لسيِّده ؟! » . انتهى .

أخي : « ما تطالعه بقلبك هباءٌ في جنْب ما تراقب في سِرِّك ، فراقِبِ الله

تعالى في سرِّك وعلانيتك » .

المراقبة تُوصلك إلى القُرْب :

والمراقبة تقتضي حالَ القرْب ، وحال القرْب لعبدٍ شاهَد بقلْبِه قُرْب الله منه ، فتقرَّب إلى الله تعالى بطاعته ، وجمعَ همَّه بيْن يدي اللهِ بدوامِ ذِكْره في علانيته وسرِّه .

قال عامر بن عبد قيس : ما نظرتُ إلى شيءٍ إلّا رأيتُ الله تعالى أقرب إليه منّي .

قال الجنيد : اعلمْ أنه عز وجل يقرب من قلوب عباده على حسبِ ما يرى من قرْب قلوبِ عباده منه ، فانظرْ ماذا يقرب من قلبك .

قيل للجنيد رحمه الله : قلْ : لا إله إلّا الله . فقال : ما نسيتُه فأذكره .

حاضرٌ في القلبِ يعمرهُ ... لستُ أنساهُ فأذكرُهُ
فهو مولاي ومعتمَدِي ... ونصيبي منه أوْفَرُهُ[1]

قال محمد بن علي الترمذي : « اجعلْ مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعلْ شكرَكَ لمن لا تنقطع نِعَمُه عنك ، واجعلْ طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعلْ خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه » .

ونختم بما ثبتَ من عصر الطيِّبين في زمن الفاروق رضي الله عنه : كان هناك رجل يؤمُّ قومًا ، فإذا قُضيتِ الصلاة ذكَّر نفسه ببعض أبياتٍ من الشعر ، فأتى الناس إلى عمر رضي الله عنه فقصُّوا له حكايته ، فقال : قلْها يا رجل ، فإنْ كانت حسنة رَدَّدتُها معك ، وإلّا زجرتُك . فقال :

وفؤادي كلَّما عاتبتُهُ ... في مدى الهجرانِ يبغي تَعَبي

---

(١) كتاب : نشأة التصوف الإسلامي للدكتور إبراهيم بسيوني ص٢٦٨ – طبْع : دار المعارف،نقلًا عن الرسالة القشيرية ص١٥٢ .

لا أراهُ الدهرَ إلّا لاهيًا في تماديهِ فقد برَّح بي
يا قرينَ السُّوءِ ما هذا الصبّا فني العمرُ كذا في اللَّعِبِ
نفسِ ما كنتِ ولا كان الهوىٰ راقبي اللهَ وخافي وارهبي

فقال الفاروق رضي الله عنه :

نفسِ ما كنتِ ولا كان الهوىٰ راقبي اللهَ وخافي وارهبي

* * *

الفصل التاسع عشر

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الحَيَاء[1]

« تركتُ الذنوبَ حياءً أربعينَ سنةً » .

[مقدّم الجيوش : الجرَّاح]

« العلمُ الأكْبَر : الهيْبة والحياء »

[ابنُ عطاء]

□ عُلُوُّ الهِمَّة في الحَيَاء □

اعلمْ – رحمك الله – أنه على حسَبِ حياة القلب ، يكون خُلق الحياء ، وقلَّة الحياء من موت القلب والروح ، فكلَّما كان القلب أحيا كان الحياء أتمَّ .

قال تعالى : ﴿ **ألم يعلمْ بأنَّ الله يرىٰ** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلمُ ما توسوس به نفْسُه ونحن أقرب إليه من حبْل الوريد** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **فلنقصَّنَّ عليهم بعلمٍ وما كنا غائبين** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وما تكون في شأنٍ وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلّا كنا عليكم شهودًا إذ تُفيضون فيه وما يَعْزُبُ عن ربِّك من مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسْمع سرَّهم ونجواهم بلىٰ ورسلُنا لديهم يكتبون** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **ألَا إنه بكلِّ شيءٍ محيط** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وكان اللهُ على كل شيءٍ رقيبًا** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **والله على كل شيءٍ شهيد** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **واللهُ بصير بما تعملون** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وأسِرُّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور** ﴾ . وقال تعالى : ﴿**ألا إنَّهم يَثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرُّون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور** ﴾ .وقال تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور** ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من فعَلَهنَّ فقد طَعِم طعْمَ الإيمان: مَن عَبَدَ الله وحده ، وأنه لا إله إلّا الله ، وأعطىٰ زكاة مالهِ طيِّبةً بها نفسه رافدة[1] عليه كل عام . ولا يُعطي الهَرِمَة ولا الدَّرِنة[2]، ولا المريضة ، ولا

(١) رافدة : فاعلة من الرفد ، وهو الإعانة أي تعينه نفْسُه على أداء الزكاة .
(٢) الدرنة : الجرباء .

الشَّرَط[١] اللئيمة[٢]، ولكنْ من وسط أموالكم ؛ فإن الله لم يسألكمْ خيره ، ولم يأمرْكم بشرِّه »[٣] .

زاد البيهقي في روايته : « وزكّى نفسَه » . فقال رجل : وما تزكية النفس ؟ فقال : « أن يعلم أنَّ الله عز وجل معه حيث كان » .

قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي : « يريد أن الله علْمُه محيط بكلِّ مكان ، والله على العرْش » .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « لا يجد عبدٌ صريحَ الإيمان حتَّى يعلم بأن الله تعالى يراه ، فلا يعمل سرًّا يُفْتضح به يوم القيامة » .

ولله درُّ الجنيد حين يقول : « الحياء : رؤية الآلاء ورؤية التقصير ، فيتولَّد بينهما حالة تسمَّى الحياء . وحقيقته : خلُقٌ يبعث على ترْك القبائح ، ويمنع من التفريط في حقِّ صاحب الحق » .

قال رسول الله ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحِ فاصنع ما شئتَ »[٤] .

وقال ﷺ : « آخر ما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحِ فاصنع ما شئتَ »[٥].

وقال ﷺ : « إن لكل دين خلقًا ، وإن خُلُقَ الإسلام ....

---

(١) الشرط : قال أبو عبيد : هو صغار المال وشراره . وقال الخطابي : رذالة المال .

(٢) اللئيمة : البخيلة باللبن .

(٣) صحيح : رواه أبو داود بسند فيه انقطاع ، ووصَلَه الطبراني في الصغير ، والبيهقي في السنن ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ١٠٤٦ .

(٤) رواه البخاري وأحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن مسعود ، وأحمد عن حذيفة .

(٥) صحيح : رواه ابن عساكر في تاريخه عن أبي مسعود البدري ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢ .

الحياء »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « الحياء خيرٌ كلُّه »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « الحياء لا يأتي إلَّا بخير »[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « الحياء من الإيمان »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « إن الحياء والإيمان قُرِنا جميعًا ، فإذا رُفِع أحدهما رُفِع الآخر »[٥] .

وقال رسول الله ﷺ : « الإيمانُ بضعٌ وستُّون شعبة ، والحياء شعبة مِن الإيمان »[٦] .

وقال رسول الله ﷺ : « الحياء من الإيمان ، والإيمان في الجنة ، والبذاء[٧] من الجفاء ، والجفاء في النار »[٨].

---

(١) حسن : رواه ابن ماجه عن أنس وابن عباس،وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٤٥ .

(٢) رواه مسلم وأبو داود عن عمران بن حصين .

(٣) رواه البخاري ومسلم عن عمران بن حصين .

(٤) رواه مسلم والترمذي عن ابن عمر .

(٥) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٩٩ .

(٦) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٧) البذاء : إظهار الفحْش من القول .

(٨) صحيح : رواه الترمذي والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة ، والبخاري في الأدب وابن ماجه والحاكم ، والبيهقي عن أبي بكرة ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي عن عمران بن حصين ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٩٤ .

وقال ﷺ : « الحياء والعِيُّ[1] شعبتان من الإيمان ، والبذاء والبيان[2] شعبتان من النفاق »[3] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما كان الفحْشُ في شيءٍ قطُّ إلَّا شانه ، ولا كان الحياء في شيء قطُّ إلَّا زانه »[4] .

اللهُ تعالىٰ حَيِيٌّ يُحبُّ الحياءَ :

عن سلمان رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الله حييٌّ كريم ، يستحيي أن يرفعَ الرجل إليه يديه أن يردَّهما صِفرًا خائبتين »[5] .

وعن يعلىٰ بن أُميَّة رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى حييٌّ ستِّيرٌ يحبُّ الحياء والسِّتْر ، فإذا اغتسَلَ أحدكم فلْيستترْ »[6].

قال شيخ الإسلام ابن القيم : « وأمَّا حياءُ الربِّ تعالى من عبده ، فذاك نوعٌ آخر ، لا تدركه الأفهام ، ولا تكيِّفه العقول ؛ فإنه حياءُ كَرم وبِرٍّ وجودٍ وجلالٍ ؛ فإنه تبارك وتعالى حَيِيٌّ كريم ، يستحيي من عبده ، إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صفرًا ، ويستحيي أن يعذّب ذا شيْبة شابت في ....

(١) العِي : سكوت اللسان خشية الوقوع فيما لا يحل .
(٢) فصاحته وإن كان بغير حقّ .
(٣) صحيح : رواه أحمد والترمذي ، والحاكم عن أبي أمامة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٩٦ .
(٤) صحيح : رواه أحمد ، والبخاري في الأدب ، والترمذي وابن ماجه عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٣١ .
(٥) صحيح : أخرجه أبو داود ، والترمذي ، وصحَّحه الألباني في:صحيح الترمذي ١٧٩/٣ ، وصحيح ابن ماجه ٣٣١/٢ ، وصحيح سنن أبي داود .
(٦) صحيح : أخرجه أبو داود ، والنسائي ، والبيهقي ، والإمام أحمد ، وصحَّحه الألباني في:الإرواء ٣٦٧/٧ ، وصحيح النسائي ٨٧/١ .

الإسلام »[١] .

قال المباركفوري : « قوله : (إنَّ الله حييٌّ) : فعيل من الحياء ، أي كثير الحياء ، ووصْفه تعالى بالحياء يُحمَل على مَا يليق له ، كسائر صفاته ، نؤمن بها ولا نُكيِّفها »[٢] .

فاللَّه عز وجل مع كمال غِناه عن الخلْق كلِّهم ، من كرمه يستحيي من هتْكِ العاصي ، وفضيحته ، وإحلال العقوبة به ، فيستره بما يقيِّض له من أسباب الستر ، ويعفو عنه ، ويغفر له ، ويتحبَّب إليه بالنعم ، ويستحيي ممن يمدُّ يديه إليه سائلًا متذلّلا أن يردَّهما خاليتيْن خائبتيْن .

قال المناوي : « قال التوربشتي : وإنما كان الله يحبُّ الحياء والسترْ ؛ لأنهما خصلْتان يُفضيان به – أي بالعبد – إلى التخلُّق بأخلاق الله »[٣] .

قال الإمام المحقِّق ابن قيِّم الجوزيَّة رحمه الله تعالى : « مَن وافق الله في صفةٍ من صفاته ، قادتْه تلك الصفة إليه بزمامها ، وأدخلتْه على ربِّه ، وأدْنَتْه وقرَّبتْه من رحمته ، وصيَّرتْه محبوبًا له ؛ فإنه سبحانه رحيم يحبُّ الرحماء ، كريم يحبُّ الكرماء ، عليمٌ يحبُّ العلماء ، قويٌّ يحبُّ المؤمن القويَّ ، وهو أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف ، حييٌّ يحب أهل الحياء ، جميل يحبّ أهل الجمال ، وترٌ يحبُّ أهل الوتر »[٤][٥] .

أقسامُ الحياءِ عشَرَةُ أوْجُه :

قال شيخ الاسلام ابن القيم: «وقد قُسِّم «الحياء» على عشرة أوجه :

---

(١) مدارج السالكين ٢/٢٦١ .
(٢) تحفة الأحوذي ٩/٥٤٤ .
(٣) فيض القدير ٢/٢٢٨ .
(٤) الجواب الكافي ص٧٧ .
(٥) الحياء خلُق الإسلام ص٢٠ – ٢٢ .

حياء جِناية . وحياء تقصير . وحياء إجلال . وحياء كرم . وحياء حشمة . وحياء استصغار للنفسِ واحتقارٍ لها . وحياء محبَّة . وحياء عبودية . وحياء شرفٍ وعزَّةٍ . وحياء المُسْتَحْيي مِن نفسه »(١) .

١ - حياءُ الجنايَة :

منه : حياء آدم عليه السلام لمَّا فرَّ هاربًا في الجنة ، قال الله تعالى : أفرارًا مني يا آدم ؟! قال : لا يا ربِّ ؛ بل حياءً منك .

ومنه حياء الأنبياءِ في عَرَصَات القيامة ، وليس عندهم ما يُزري بمراتبهم العالية السامية .

روى قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع اللهُ الناس يومَ القيامة ، فيهتمُّون لذلك ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربِّنا ، حتى يُريحنا من مكانِنا هذا ؟ قال : فيأتون آدم ، فيقولون : أنت آدم أبو الخلْق ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدُوا لك ، اشفعْ لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيقول : « لستُ هُناكم » . فيذكر خطيئته التي أصاب ، فستحيي ربَّه منها .. « ولكن ائتوا نوحًا : أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض » . قال : فيأتون نوحًا ، فيقول : « لستُ هناكم » . فيذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحيي ربَّه منها ... « ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلًا » . فيأتون إبراهيم ، فيقول : « لستُ هناكم » . وذكَر خطيئته التي أصاب ، فيستحيي ربَّه منها . « ولكن ائتوا موسىٰ الذي كلمه الله ، وأعطاه التوراة » . قال : فيأتون موسىٰ ، فيقول : « لستُ هناكم » . ويذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحيي ربَّه منها ... « ولكن ائتوا عيسىٰ روحَ الله وكلمته » . فيأتون عيسى روح الله وكلمته ، فيقول : « لستُ هناكم ، ولكن ائتوا محمدًا ؛

(١) مدارج السالكين ٢/٢٦١ ، والرسالة القشيرية ٢/٤٥٤ - ٤٥٩ .

عبدًا غفرَ الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر » . قال : قال رسول الله ﷺ : فيأتونني ، فأستأذن على ربِّي، فيُؤْذَن لي ، فإذا أنا رأيتُه وقعتُ ساجدًا، فيدعني ما شاء الله ، فيُقال : يا محمد ، ارفعْ ؛ قلْ يُسمَع ، سلْ تعطَهْ ، اشفع تشفَّع »[١] .

وعن محمد بن حاتم قال : قال **الفُضَيْل بن عياض** : لو خُيِّرتُ بين أن أُبعَثَ فأدخل الجنة ، وبين أن لا أُبعث ؛ لاخترتُ أن لا أُبْعث » . قيل لمحمد ابن حاتم : هذا من الحياء ؟ قال : نعم ، هذا من طريق الحياء مِن الله عز وجل .

وشهِد الفضيل رحمه الله الموقف الأشرف في عرفات ، فرفع رأسه إلى السماء ، وقد قبض على لحيته ، وهو يبكي بكاءَ الثكْلَى ، ويقول : « واسوأتاه منك ، وإن عفوتَ !! » .

يا خجلةَ العبدِ مِن إحسانِ سيِّدِهِ ... يا حسْرَةَ القلبِ من أَلْطافِ معناهُ
فكمْ أسأتُ وبالإحسانِ قابلني ... واخجلتي واحَيائي حينَ ألقاهُ
يا نفسُ كمْ بخفيِّ اللُّطف عامَلني ... وقد رآني على ما ليسَ يرضاهُ
يا نفسُ كمْ زلّةٍ زلّتْ بها قدمي ... وما أقالَ عِثاري ثَمَّ إلَّا هو
يا نفسُ توبي إلى مولاكِ واجتهدي ... وصابِري فيه إيقانًا برؤياهُ

الأسود بن يزيد :

ولمّا احتُضر الأسود بن يزيد بكى ، فقيل له : ما هذا الجزَعُ ؟ قال : ما لي لا أجزعُ ؟! ومن أحقُّ بذلك مني ؟! والله لو أُتيتُ بالمغفرةِ من الله عز وجل لأهمَّني الحياء منه مما قد صنعتُ ؛ إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه ، ولا يزالُ مستحييًا منه .

يا حسرةَ العاصينَ عند معادِهِمْ ... هذا وإنْ قدِموا علىٰ الجنَّاتِ

(١) رواه البخاري ومسلم .

لو لم يكنْ إلّا الحياء مِنَ الذي ستر القبيحَ فيا لها الحسـراتِ

قال الحسن : « لو لم نبكِ إلّا للحياء من ذلك المقام ، لكان ينبغي لنا أن نبكي فنُطيل البكاء » .

إمام أهلِ السنة أحمد بن حنبل :

دخل عليه أبو حامد الخلقاني فأنشده هذه الأبيات :

إذا مـا قـالَ لـي ربِّـي أمَـا استحْيَيـتَ تعصيني
وتُخفي الذنبَ مِن خَلْقي وبالعِصْيـانِ تـأتيـنـي
فمـا قـولـي لـهُ لـمَّا يُعـاتبنـي ويُقْصِينـي

فأمره أحمد بإعادتها ، فأعادها عليه ، فدخل أحمد داره ، وجعل يردِّدها ويبكي .

٢ - حياءُ التقصِير :

كحياء الملائكة الذين يسبِّحون الليل والنهار لا يفتُرون ، فإذا كان يوم القيامة قالوا : سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك .

٣ - حياءُ الإجْلال :

هو حياء المعرفة ، وعلى حسَب معرفة العبد بربِّه يكون حياؤه منه .

ومنه حياء عمرو بن العاص رضي الله عنه ؛ كان يقول : « والله ، إن كنتُ لأشدّ الناس حياءً من رسول الله ﷺ ، فما ملأتُ عينيَّ من رسول الله ﷺ ، ولا راجعتُه بما أُريد ، حتى لحِقَ بالله عز وجل ؛ حياءً منه »(١).

وفي رواية : « إنه لم يكن شخص أبغضَ إليَّ منه - يعني النبي ﷺ - فلمَّا أسلمتُ لم يكن شخصٌ أحبَّ إليَّ منه ، ولا أجلَّ في عينيَّ منه ، ولو سُئلت

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٢٠٤ .

أن أصِفَه لكم لما أطقتُ ، لأني لم أكن أملأ عيني إجلالًا له » .

أشتاقهُ فإذا بدَا أطرقتُ من إجلالِهِ
لا خيفةً بل هيْبةً وصيانةً لجمالهِ
الموتُ في إدبارِهِ والعيْشُ في إقبالهِ
وأصدُّ عنه إذا بدَا وأَرومُ طيْفَ خيالهِ

ومنه : حياءُ ابن عمر إجلالًا لكبار الصحابة ممَّن هم أسنُّ منه : فعن عبد الله ابن عمر ؛أن رسول الله ﷺ قال : « إن من الشجر شجرة لا يسقُط ورقُها ، وهي مَثَلُ المسلم ، حدِّثوني ما هي ؟ » فوقع الناس في شجر البادية ، ووقع في نفسي أنها النخلة . قال عبد الله : فاستحييتُ ، فقالوا : يا رسول الله ، أخبِرْنا بها . فقال رسول الله ﷺ : «هي النخلة » . قال عبد الله : فحدَّثتُ أبي بما وقع في نفسي ، فقال : لَأَنْ تكون قلتَها أحبُّ إليّ من أن يكون لي كذا وكذا[١] .

وكان الإمام الجليل سفيان الثوري رحمه الله شديدَ الحياء ، وقال الإمام ابن مهدي رحمه الله : « ما كنتُ أقدر أن أنظر إلى سفيان استحياءً وهيبةً منه » . ومع ذلك فكان في مواقع الحميَّة والغضب لدين الله عز وجل لا يعرف الاستحياء في الحق ، حتى قال يحيى بن أبي غنية : « ما رأيتُ رجلًا قطُّ أصفق وجهًا في الله عزَّ وجل[٢] من سفيان الثوري » .

وأنكر مرة على المهدي بعض الأمور ، واشتدَّ في الإنكار ، حتى قال له وزير المهدي : « شططتَ ؛ تكلِّم أمير المؤمنين بمثل هذا ؟! » . فقال له سفيان : « اسكتْ ، ما أهلك فرعونَ إلّا هامانُ » . فلمَّا ولَّى سفيان ، قال أبو عبيد الله : «يا أمير المؤمنين ، ائذنْ لي أضرب عنقه». فقال له: « اسكتْ ،

---

(١) رواه البخاري .
(٢) أصفق وجهًا : أي لا يجامل ولا يداري .

ما بقي على وجه الأرض من يُستحيا منه غير هذا » .

٤ - حياءُ الكَرَم :

كحياءِ النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب ، وطوَّلوا الجلوسَ عنده ، فقام واستَحْيا أن يقول لهم : انصرفوا ، فقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **ولا مستأنسينَ لحديثٍ** ﴾. [الأحزاب : ٥٣] .

٥ - حياءُ الحشْمَة :

كحياء عليِّ بن أبي طالب أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي ، لمكان ابنته منه : عن علي رضي الله عنه قال : كنتُ رجلًا مذَّاءً ، فأمرتُ المقداد أن يسأل النبي ﷺ فسأله ، فقال : « فيه الوضوء » . ولفظه في رواية أخرى : كنتُ رجلًا مذاءً ، فأمرتُ رجلًا أن يسأل النبي ﷺ - لمكان ابنته - فسأل ، فقال :« توضَّأ واغسلْ ذكَرَك »[(١)] .

٦ - حياء الاستحقار واستصغار النفس :

كحياء العبد من ربِّه عز وجل حين يسأله حوائجه ، احتقارًا لشأن نفسه، واستصغارًا لها . وفي أثَرٍ إسرائيلي: « أنَّ موسى عليه السلام قال : يا ربِّ إنه لَتَعْرِض لي الحاجة من الدنيا ، فأستحيي أن أسألك إياها يا ربِّ . فقال الله تعالى : سلْني ... حتى ملحَ عجينتك ، وعَلَف شاتك » .

وقد يكون لهذا النوع سببان :

أحدهما : استحقار السائل نفسه واستعظام ذنوبه وخطاياه .

الثاني : استعظام مسئولِه .

وكحال مَن قال : إني لأَستحيي أن أسأل ربي الدنيا وهو مالكها ،

---

(١) رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن خزيمة .

فكيف أسألها غير مالكها .

٧ - حياءُ المحبَّة :

هو حياء المحبّ من محبوبه ، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته ؛ هاجَ الحياء من قلبه وأحسَّ به في وجهه ولا يدري ما سببه ، وكذلك يعرض للمحبِّ عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له : روعةٌ شديدة . ولا ريب أن للمحبَّة سلطانًا قاهرًا للقلب أعظم من سلطان مَن يقهر البدَن ، فأين مَن يقهر قلبك وروحك إلى من يقهر بدنك ؟! ولذلك تعجبتِ الملوك والجبابرة من قهْرهم للخلْق وقهْرِ المحبوبِ لهم ، وذلّهم له ، فإذا فاجأ المحبوب محبَّه ، ورآه بغتةً ؛ أحسَّ القلب بهجوم سلطانه عليه ، فاعتراه روعة وخوف .

يقول الشاعر :

فما هو إلَّا أنْ أراها فجاءةً فأُبهَتُ حتى ما أكادُ أُجيبُ
وإني لَتَعْروني لِذِكْراك هِزَّةٌ لها بينَ جلْدي والعظامِ دَبيبُ

أو كما قال الشاعر :

فيعثرُ ما بينَ الكلامِ ورجْعِهِ لساني بِكُمْ حتَّى ينمَّ بحالي

٨ - حياءُ العبودية :

هو حياء ممتزَج من محبَّة وخوف ، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده ، وأن قدْرَه أعلى وأجلّ منها ، فعبوديته له تستوجب استحياءه منه، لا محالة .

٩ - حياء الشرَف والعِزَّة :

أما حياء الشرف والعزَّة : فَحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها ؛ من بذْلٍ أو عطاء وإحسان ؛ فإنه يستحيي - مع بذله - حياءَ شرفِ نفسٍ وعزة ؛ وهذا له سببان :

أحدهما : هذا . **والثاني** : استحياؤه من الآخِذ ، حتى كأنه هو الآخِذ السائل ؛ حتى إن بعض أهل الكرم لا تُطاوعه نفسه بمواجهته لمن يُعطيه حياءً منه ، وهذا يدخل في حياء التلوُّم ؛ لأنه يستحيي من خجلة الآخِذ .

١٠ - حياءُ المرءِ مِن نفسه :

وأما حياء المرء من نفسه : فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقْص ، وقناعتها بالدُّون ، فيجد نفسه مُستَحْيِيًا من نفسه حتى كأن له نفسيْن ، يستحيي بإحداهما من الأخرى ، وهذا أكمل ما يكون من الحياء ؛ فإن العبد إذا استْحيا من نفسه ، فهو بأن يستحيي من غيره أجدر[1] .

درجاتُ الحياءِ :

قال صاحب « المنازل » : « وهو على ثلاثِ درجات :

الدرجة الأولى : حياءٌ يتولَّد مِن علْمِ العبدِ بنَظَرِ الحقِّ إليه ؛ فيجذبه إلى تحمُّل هذه المجاهدة ، ويحمله على استقباحِ الجناية ، ويُسْكِتهُ عن الشكوى » :

قال ابن القيم في شرح هذه الدرجة : « يعني : أن العبد متي علم أن الربَّ تعالى ناظر إليه ، أورثه هذا العلم حياءً منه ، يجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة ؛ مثل العبد إذا عمل الشغل بين يدي سيِّده ؛ فإنه يكون نشيطًا فيه محتملًا لأعبائه ، ولا سيَّما مع الإحسان من سيده إليه ، ومحبته لسيده ؛ بخلاف ما إذا كان غائبًا عن سيده . والرب تعالى لا يغيب نظرُه عن عبده ، ولكن يغيب نظَرُ القلْب والتفاتُه إلى نظَرِه سبحانه إلى العبيد ؛ فإن القلب إذا غاب نظرُه ، وَقَلَّ التفاته إلى نظر الله تبارك وتعالى إليه ؛ تولَّد من ذلك قلة الحياء والقِحَة .

---

(١) انظر : مدارج السالكين ٢/٢٦١ - ٢٦٣ .

وكذلك يحمله على استقباح جنايته ، وهذا الاستقباح الحاصل بالحياء قدْرٌ زائد على استقباح ملاحظة الوعيد ، وهو فوقه .

وأرفع منه درجةً : الاستقباحُ الحاصل عن المحبَّة . فاستقباح المحبِّ أتمُّ من استقباح الخائف. ولذلك فإن هذا الحياء يكفُّ العبد أن يشتكي لغير الله ، فيكون قد شكا الله إلى خلقه ، ولا يمنع الشكوىٰ إليه سبحانه ؛ فإن الشكوى إليه سبحانه فقر وذلَّة ، وفاقة وعبودية، فالحياء منه في مثل ذلك لا يُنافيها »(١) .

« الدرجة الثانية : حياء يتولَّد مِن النظر في علْمِ القُرْب ، فيدعوه إلى رُكوب المحبَّة ، ويربطه بروح الأُنْس ، ويُكرِّهُ إليه ملابسة الخلْق » :

قال ابن القيم : « النظر في علم القرْب : تحقق القلب بالمعيَّة الخاصَّة مع الله ؛ فإن المعية نوعان :

عامَّة : وهي: معيَّة العلم والإحاطة ؛ كقوله تعالى : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ [الحديد : ٤] . وقوله : ﴿ **ما يكون من نجوىٰ ثلاثةٍ إلَّا هو رابعهم ولا خمسةٍ إلَّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلَّا هو معهم أينما كانوا** ﴾ . [المجادلة : ٧] .

وخاصّة : وهي معيَّة القرْب ؛ كقوله تعالى : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ [النحل : ١٣٨] . وقوله : ﴿ **إن الله مع الصابرين** ﴾ [البقرة : ١٥٣] . وقوله : ﴿ **وإن الله لَمَعَ المحسنين** ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

فهذه معيَّة قُرْبٍ تتضمن الموالاة والنصر والحِفظ ، وكلا المعنييْن مصاحبة منه للعبد ، لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة ، وهذه مصاحبة موالاة

(١) مدارج السالكين ٢/٢٦٤ - ٢٦٥ .

ونصر وإعانة . فـ « مع » في لغة العرب : تفيد الصحبة اللائقة ، لا تُشعر بامتزاج ولا اختلاط ، ولا مجاورة ولا مجانبة . فمن ظنَّ منها شيئًا من هذا فمن سُوءِ فهْمه أُتي .

وأما القرْب : فلا يقع في القرآن إلَّا خاصًّا ؛ وهو نوعان : قربه من داعيه بالإجابة . وقربه من عابده بالإثابة .

فالأول : كقوله تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الدَّاعِ إذا دعانِ** ﴾ [البقرة : ١٨٦]. ولهذا نزلت جوابًا للصحابة رضي الله عنهم . وقد سألوا رسول الله ﷺ : ربُّنا قريب فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

والثاني : قوله ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وأقرب ما يكون الربُّ من عبده : في جوف الليل » . فهذا قربه من أهل طاعته .

وفي الصحيح : عن أبي موسى رضي الله عنه ، قال : « كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فارتفعت أصواتنا بالتكبير ، فقال : « يا أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم ؛ إنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائبًا ، إن الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عُنق راحلته » .

فهذا قرب خاصٌّ بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد ، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الربِّ لخلْقه ، واستواءه على عرشه . بل يجامعه ويلازمه ؛ فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض ؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ، ولكنه نوع آخر ، والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جدًّا من محبوبٍ بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي ، ويجده أقرب إليه من جليسه . كما قيل :

ألا رُبَّ مَن يدنو ويزعُمُ أنَّهُ　　يحبُّك والنائي أحبُّ وأقربُ

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحبَّاؤه ، الذين هو عندهم

أولى بهم من أنفسهم ، وأحبُّ إليهم منها : يجدون نفوسَهم أقرب إليه ، وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة . والمحبُّون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومَن حولها . هذا مع عدم تأتِّي القرْب منها ، فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يشاء ، وهو مستوٍ على عرشه . وأهل الذوق لا يلتفتون في ذلك إلى شبهةِ معطِّل بعيد من الله ، خَليٍّ من محبَّته ومعرفته .

والقصد : أن هذا القرب يدعو صاحبه إلى ركوب المحبَّة ، وكلما ازداد حبًّا ازداد قربًا ، فالمحبَّة بين قربيْن : قرب قبلها ، وقرب بعدها . وبين معرفتين : معرفة قبلها حمَلَت عليها ، ودعَتْ إليها ، ودَلَّت عليها . ومعرفة بعدها ، هي من نتائجها وآثارها .

وأما ربطه بروح الأُنس : فهو تعلُّق قلبه بروح الأنس بالله ، تعلُّقًا لازمًا لا يفارقه ، بل يجعل بين القلب والأنس رابطة لازمة ، ولا ريب أن هذا يُكَرِّه إليه ملابسة الخلْق ، بل يجد الوحشة في ملابستهم بقدْر أُنسه بربِّه ، وقرَّة عيْنه بحبِّه وقربه منه ، فإنه ليس مع الله غيره ؛ فإن لابسهم لابسهم برسمه دون سِرِّه ورُوحه وقلبه ، فقلبه وروحه في ملإ ، وبدنه ورسْمه في ملإ .

« الدرجة الثالثة : حياءٌ يتولَّد من شُهود الحضْرة ، وهي التي لا تشوبها هيْبَة ، ولا تقارنها تفرِقة ، ولا يُوقف لها على غاية » :

قال ابن القيم : « شهود الحضرة : انجذاب الروح والقلب من الكائنات ، وعُكوفه على ربِّ البريَّات ؛ فهو في حضرة قرْبه مشاهدًا لها ، وإذا وصل القلبُ إليها غَشِيتْه الهيبةُ وزالت عنه التفرقة ؛ إذ ما مع الله سواه ، فلا يخطر بباله في تلك الحال سوى الله وحده ، وهذا مقام الجمعيَّة .

وأما قوله : « ولا يُوقف لها على غاية » : فيعني أن كلَّ مَن وصل إلى مطلوبه وظفر به ؛ وصل إلى الغاية ، إلّا صاحب هذا المشهد ؛ فإنه لا يقف

بحضرة الربوبية على غاية ، فإن ذلك مستحيل ، بل إذا شهد تلك الروابي ، ووقف على تلك الربوع ، وعايَن الحضرة التي هي غاية الغايات ، شارَفَ أمرًا لا غاية له ولا نهاية . والغايات والنهايات كلها إليه تنتهي ﴿ **وأن إلى ربك المنتهى** ﴾ [النجم : ٤٢] فانتهت إليه الغايات والنهايات . وليس له سبحانه غاية ولا نهاية ؛ لا في وجوده ، ولا في مزيد جوده ؛ إذ هو « الأول » الذي ليس قبله شيء ، و « الآخر » الذي ليس بعده شيء . ولا نهاية لحمده وعطائه ، بل كلما ازداد له العبد شكرًا زاده فضلًا ، وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة ، وكلّما ازداد منه قربًا لاحَ له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك .. وهكذا أبدًا لا يقف على غاية ولا نهاية . ولهذا جاء : « إن أهل الجنة في مزيد دائم بلا انتهاء » ؛ فإن نعيمهم متصل ممن لا نهاية لفضْلِه ولا لعطائه ، ولا لمزيده ولا لأوصافه . فتبارك الله ذو الجلال والإكرام ؛ ﴿ **إن هذا لرزقُنا ما له من نفَاد** ﴾ [ص : ٥٤] (يا عبادي ، لو أن أَوَّلَكُمْ وَآخِركم وإنسَكُم وَجِنَّكُمْ قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيتُ كل إنسان مسألته : ما نقص ذلك ممَّا عندي إلَّا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أُدخل البحر) »[(١)] .

عالي الهمَّة مَن استْحيا من الله ومن الملائكة ، ومن نفسه ومن الناس :

عالي الهمة من كمُل حياؤه باستحيائه من الله عز وجل ، ثم الملائكة ، والناس ، ونفسه .

الاستحياءُ من الله عز وجل :

من استحيا من الناس أن يروه بقبيح ، دَعَاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربِّه أشدَّ ، فلا يضيِّع فريضة ، ولا يرتكب خطيئة ، لعلمه بأنَّ الله يرى ،

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٦٥ - ٢٦٨ .

وأنه لا بدَّ أن يقرِّره يوم القيامة على ما عمله ، فيخجل ويستحي من ربه .

عن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه : « استحيوا مِن الله حقَّ الحياء » . قالوا : إنا نستحيي يا رسول الله . قال : « ليس ذاكم[1]، ولكن من استْحيا من الله حقَّ الحياء ؛ فليحفظِ الرأس وما وعى ، ولْيحفظِ البطنَ وما حوى ، وليذكرِ الموت والبِلى ، ومَن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا . فمَن فعَل ذلك قدِ استْحيا مِنَ الله حقَّ الحياء »[2].

يحفظ الرأس وما وعى : بجميع حواسِّه الظاهرة والباطنة ، فلا يستعملها إلا فيما يحلُّ .

ويحفظ البطن وما حوى : ما جمعه جوفه باتصاله به من القلب والفرْج واليديْن والرِّجليْن ، فلا يستعمل منها شيئًا في معصية الله عز وجل .

وليذكر الموت والبِلى : فمن ذكَر الموت هانَ عليه ما فاته من اللَّذّات العاجلة ، وأهمَّه ما يلزمه من طلب الآجلة ، وعمل على إجلال الله وتعظيمه .

ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا : فمَن أراد الله تعالى فليرفض جميع ما سواه ، استحياءً منه ، بحيث لا يرى إلا إيَّاه .

يا مَـن يُشـيرُ إليهـمُ المتكلِّـمُ   وإليـهـم يتـوجَّـه المتظلِّـمُ
وشغلتمُ كَلمي بكُمْ وجوارحي   وجوانحي أبـدًا تحـنُّ إليكُـمُ
وإذا نظرتُ فلسْتُ أنظر غيرَكم   وإذا سمعتُ فمنكـمُ أو عنكـمُ

---

(١) قال البيضاوي : « ليس حقّ الحياء من الله ما تحسبونه ، بل أن يحفظ نفسه بجميع جوارحه عمَّا لا يرضاه من فعْل وقول » .

(٢) حسن : رواه أحمد (١/ ٣٨٧) ، والترمذي (٢٥٨٨) ، وقال : « هذا حديث غريب » . والحاكم (٣٢٣/٤) ، وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وحسّنه الألباني في صحيح الترمذي ٢/ ٢٩٩ .

وإذا نطقتُ ففي صفاتِ جمالكمْ وإذا سألتُ الكائناتِ فعنكمُ
وإذا رَوِيتُ فمِنْ طَهُور شرابِكُمْ وبذكْرِكُـمْ في خَلْوتي أترنَّـمُ

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، عوراتنا ما نأتي منها وما نذرُ ؟ قال : « احفظْ عورتَك إلّا من زوجتك أو ما ملكتْ يمينُك » . قلت : يا رسول الله ، إذا كان القوم بعضهم في بعض ؟ قال : « إن استطعتَ أن لا يرينَّها أحد ، فلا تُرِيَنَّها أحدًا » . قلت : يا رسول الله ، إذا كان أحدنا خاليًا ؟ قال : « اللهُ أحقُّ أن يُستحيا منه من الناس »(١) .

فإذا حَرَّض ﷺ على الستر في الخلوة تأدُّبًا مع الله عز وجل واستحياءً منه وهو أمر مختَلَف في وجوبه أو استحبابه – فكيفَ ينبغي أن يكون حياء الإنسان منه تعالى إذا فقده حيث أمره ، أو رآه حيث نهاه ؟!

فعالي الهمَّة أبعد الناس عن الذنوب ، لتيقُّنه بنظر الله عز وجل من فوق عرشه إليه ، وعلْمه أنَّ أيَّ ذنبٍ يفعله الإنسان دائر بيْن أمريْن : كفر وانسلاخ من الدين ، إن لم يؤمن بنظر الله إليه واطلاعه عليه . أو قلَّة الحياء ، إن أقدم على الذنب وهو يعلم نظر الله إليه .

قال أحد عبَّاد السلف : « يا ربّ ، أتراك ترحم مَن لم تقرَّ عيناه بالمعاصي حتى علم أن لا عيْن تراه غيرك » . نعم « لِمَ جعلته أهون الناظرين إليك ؟! » .

وقال بلال بن سعد : « لا تنظر إلى صغَر الخطيئة ، ولكن انظر إلى كبرياء مَن واجهْته بها » .

خلا رجل بامرأة فأرادها على الفاحشة ، فقالت له : انظرْ هل يرانا مِن

---

(١) حسن : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي وحسّنه ، والحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي ، وحسَّنه الألباني في آداب الزفاف ص١١٢ . وهو محمول على الندْب والكمال ، وليس على ظاهره المفيد الوجوب . والله أعلم . اهـ . من : الحياء خلق الإسلام ص٤٩ .

أحد ؟ فقال لها : ما يرانا إلَّا الكواكب. فقالت له : فأين مكوكبها ؟! .

الاستحياءُ مِنَ الملائكة :

« الحياء من أخلاق الملائكة ، كما يبين عنه حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مرفوعًا : « ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة ؟! » . وعنها رضي الله عنها : أن جبريل عليه السلام امتنع من دخول بيت النبي ﷺ استحياءً منها ، فناداه بصوتٍ خَفِيٍّ ، وأجابه النبي ﷺ بصوت خفي ، ثم قال ﷺ : « ولم يكن لِيدخُل عليكِ ، وقد وضعتِ ثيابَكِ ، وظننتُ أن قد رَقَدتِ ، فكرهْتُ أن أوقظك .. »[1]. الحديث .

قال الإمام المحقِّق ابن قيم الجوزية رحمه الله : قال بعض الصحابة رضي الله عنهم : (إن معكم مَن لا يفارقكم ، فاستحيوا منهم ، وأكرموهم) . ولا ألأم ممَّن لا يستحيي من الكريم العظيم القدر ، ولا يُجِلُّه ولا يوقره ، وقد نبَّه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ﴿ **وإن عليكم لحافظين * كرامًا كاتبين * يعلمون ما تفعلون** ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢] . أي : استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام ، وأكرموهم ، وأجِلُّوهم أن يَرَوْا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه مَن هو مثلكم ، والملائكة تتأذَّى مما يتأذى منه بنو آدم ، فإذا كان ابن آدم يتأذَّى ممن يفجُر ويعصي بين يديه ، وإن كان قد يعمل مثل عمله ، فما الظنُّ بأذى الملائكة الكرام الكاتبين ؟! والله المستعان »[2][3]. اهـ .

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى في قوله تعالى : ﴿ **وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائق وشهيد** ﴾ [ق :٢١] ، قال : ما على أحدكم إذا خلا أن يقول : « اكتبْ ؛

---

(١) أصل الحديث أخرجه مسلم والنسائي وأحمد .

(٢، ٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص١٢٧ - ١٢٨ ، و « الحياء » للشيخ محمد إسماعيل ص٣٣ .

رحمك الله ».فيملي خيرًا ؟! .

وكان أحدهم إذا خلا يقول : أهلًا بملائكةِ ربي .. لا أعدمكم اليوم خيرًا ، خذوا على بركة الله ... ثم يبدأ في ذكره : سبحان الله ، والحمد لله ...

الاستحياء من النَّفْس :

من اسْتَحْيا من الناس ، ولم يستحي من نفسه ؛ فنفسه أَخَسُّ عنده من غيره ؛ لأنه يراها أحقرَ من أن يَستحيي منها . ومن اسْتَحْيا منها ، ولم يستحي من الله ، فلعدم معرفته بالله عز وجل ، فمِن ثَمَّ قال رسول الله ﷺ للرجل الذي استوصاه : « أُوصيك أن تستحييَ من الله كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك »[1] .

فحقُّ الإنسان إذا هَمَّ بقبيح أن يتصور أحدًا من نفسه كأنه يراه ، فالإنسان يستحيي ممن يكبرُ في نفسه ، ولذلك لا يستحيي من الحيوان ، ولا من الأطفال ، ولا من الذين لا يميِّزون ، ويستحيي من العالِم أكثر مما يستحيي من الجاهل ، ومن الجماعة أكثر مما يستحيي من الواحد ، وينبغي على الإنسان إذا كبرتْ عنده نفسُه ، أن يكون استحياؤه منها أكثر من استحيائه من غيره ، ومن ثَمَّ قال بعض السلف : « من عمل في السِّرِّ عملًا يَسْتَحْيي منه في العلانية ، فليس لنفسِهِ عنده قدْرٌ » .

---

(١) إسناده جيد : رواه أحمد في : الزهد ص٣٦ ، والخرائطي في مكارم الأخلاق ؛ من حديث سعيد بن يزيد ، وقال الألباني : « إسناده جيد ، رجاله كلهم ثقات . على خلاف في صحبة سعيد بن يزيد ، وهو ابن الأزور ، وقد أثبتها له أبو الخير هذا – يعني مرثد الراوي عن سعيد – وهو أدرى بها من غيره » . اهـ . من : الصحيحة رقم ٧٤١ .

الاستحياء من الناس :

الحياء من الناس خلُق حسَن جميل ، يمنع من المعايب ، ويشيع الخير والعفاف ، ويُعوّد النفس ركوب الخصال المحمودة .

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : « لا خير فيمن لا يستحيي من الناس » .

وقال بعضهم : « أَحْيِ حياءك بمجالسةِ مَن يُسْتَحْيَا منه » .

وقال مجاهد : « لو أن المسلم لم يصِبْ من أخيه إلّا أنَّ حياءَه منه يمنعه من المعاصي لَكفاه » .

فلا أحد من الفسقة إلا وهو يستحيي من عمل القبيح على أعين أهل الصلاح وذوي الهيئات والفضل أن يراه وهو فاعله ، والله مطَّلع على جميع أفعال خلقه ، فالعبد إذا استحيا من ربه استحياءه من رجل صالح من قومه ، تجنَّب جميع المعاصي ، فيا لها من وصية ما أبلغها ! وموعظة ما أجمعها !! .

وقد نصَّب النبي ﷺ هذا الحياء حَكَمًا على أفعال المرء ، وجعله ضابطًا وميزانًا ؛ فعَنْ النَّواس بن سمعان رضي الله عنه ، أنه سأل رسول الله ﷺ عن البرِّ والإثم ، فقال رسول الله ﷺ : « البِرُّ : حسن الخُلُق ، والإثم : ما حاك في صدرك[1] ، وكرِهتَ أن يطَّلِعَ عليه الناس »[2] .

وقال ﷺ : « ما كرهت أن يراه الناس ، فلا تفعلْه إذا خلوت »[3] .

وأعظم الناس قدْرًا عند عالي الهمَّة : رسول الله ﷺ ، فيستحي الرجل

(١) تحرّك فيه وتردَّد ، ولم ينشرح له الصدر .

(٢) أخرجه مسلم والترمذي وأحمد .

(٣) حسن : رواه ابن حبان في : روضة العقلاء ص٢٦ ، والضياء في : المختارة (١/ ٤٤٩) وغيرهما ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم (١٠٥٥) .

أن يفعل ما يَشين وهو ينتسب إلى من زيَّن البشرية ﷺ ، وإلَّا فالموعد الحوْض ... ويا له من موقف يقطع نياط القلوب الطاهرة قبل الوجوه .

عن جعفر الصائغ قال : « كان في جيران أبي عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل رجلٌ ممَّن يمارس المعاصي والقاذورات ، فجاء يومًا إلى مجلس أحمد يسلِّم عليه ، فكأنَّ أحمد لم يردّ عليه ردًّا تامًّا وانقبض منه ، فقال له : يا أبا عبد الله ، لِمَ تنقبض مني ؟! فإني قد انتقلتُ عمّا كنت تعهدني ، برؤيا رأيتُها . قال : وأيّ شيءٍ رأيتَ ؟ قال : رأيتُ النبي ﷺ في النوم كأنَّه على علوٍّ مِنَ الأرض وناسٌ كثير أسفلَ جلوسٌ . قال : فيقوم رجل رجل منهم إليه ، فيقول : ادعُ لي . فيدعو له ، حتى لم يبقَ مِن القوم غيري . قال : فأردتُ أن أقوم فاستحييتُ من قبيح ما كنتُ عليه ، قال لي : يا فلان ! لِمَ لا تقومُ إليّ فتسألني أن أدعوَ لك ؟ قال : قلتُ : يا رسول الله ، يقطعني الحياءُ لقبيح ما أنا عليه . فقال : إنْ كان يقطعك الحياء فقمْ فسلني أدعُ لك ؛ فإنك لا تسبّ أحدًا من أصحابي . قال : فقمتُ فدعا لي ، فانتبهتُ وقد بغَّضَ الله إليّ ما كنتُ عليه . قال : فقال لنا أبو عبد الله : يا جعفر ، يا فلان ، حدِّثوا بهذا واحفظوه ؛ فإنه ينفع »[١] .

وعالي الهمَّة يستحي من صالحي الأمة ، وله في حكايات التوابين إشارات :

قال أبو الفتح بن مخرق : « تعلَّق رجل بامرأة من بنات الشام ، فتعرّض لها وبيده سكِّين، لا يدنو منه أحد إلا عَقَرَه ، وكان الرجل شديدَ البدن ، فبينا الناس كذلك ، والمرأة تصيح من يده ، إذْ مرّ بشْرُ بن الحارث الحافي ، فدنا منه وحكَّ كَتِفه بكتف الرجل ، فوقع الرجل إلى الأرض ، ومضى بِشْرٌ ، فدنوْا

(١) كتاب التوابين لابن قدامة ص٢٦٤ - ٢٦٥ .

من الرجل وهو يرشح عرقًا كثيرًا ، ومضتِ المرأة بحالها ، فسألوه : ما حالك ؟ فقال : ما أدري ، ولكني حاكّني شيخٌ وقال : إن الله ناظر إليك وإلى ما تعمل ؛ فضعفتْ لقوله قدميَّ وهِبْتُهُ هيبة شديدة ، لا أدري مَن ذاك الرجل . فقالوا له : ذاك بشر بن الحارث . فقال : واسوءَتاه !! كيف ينظر إليّ بعد اليوم ؟! وحُمَّ الرجل من يومه ، ومات اليوم السابع »[(١)] .

نهايةُ الحياءِ وكمالُه أن لا تستحيي من الحقِّ :

قال سفيان بن عيينة رحمه الله : « إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر ، وعليه تعرض الأشياء ، على خُلُقه وسيرته وهدْيه ، فما وافقها فهو الحق ، وما خالفها فهو الباطل » .

وقال القرطبي رحمه الله : « قد كان المصطفى ﷺ يأخذ نفسه بالحياء ويأمر به ، ويحثُّ عليه ، ومع ذلك فلا يمنعه الحياء من حقٍّ يقوله ، أو أمر ديني يفعله ، تمسُّكًا بقوله : ﴿ واللهُ لا يستحيي من الحقِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] . وهذا هو نهاية الحياء وكماله ، وحُسْنه واعتداله ؛ فإن مَن فرطَ عليه الحياءُ حتى منعه من الحق ، فقد ترك الحياء من الخالق ، واسْتحْيا من الخلْق ، ومن كان هكذا حُرِم منافعَ الحياء ، واتصف بالنفاق والرياء . والحياء من الله هو الأصل والأساس ، فإن الله أحقُّ أن يُستَحْيا منه ، فليُحْفظ هذا الأصل ، فإنه نافع »[(٢)] .

« إن ترك الحياء في النصح والأمر والنهي الشرعيّين : من النعوت الإلهية ؛ قال تعالى : ﴿ والله لا يستحيي من الحق ﴾ . والذي يتهيَّب تقريع المبطلين لا يُعتبر حَييًّا ، ففي موقف الانتصار للحقّ ، وفضح العقائد الفاسدة ، والتهوين

(١) كتاب التوابين ص٢١٣ .
(٢) نقله عنه المناوي في فيض القدير ١/٤٨٧ .

من شأن الآلهة المزيَّفةِ؛قال تبارك وتعالى : ﴿ **يأيُّها الناسُ ضُرِبَ مثَلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لنْ يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإنْ يَسْلُبهم الذبابُ شيئًا لا يستنقذوه منه ضعُفَ الطالبُ والمطلوب** ﴾ [الحج : ٧٣] . وبعد أن حقَّر آلهتهم ، وفضح عجزها عن خلْق ذبابةٍ ، بل عن حماية نفسها إذا هاجمتْها ذبابة؛قال تبارك وتعالى : ﴿ **إنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها** ﴾ [البقرة : ٢٦].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يمنعنَّ رجلًا هيبةُ الناسِ أن يقولَ بحقٍّ إذا عَلِمَه ، أو شهده ، أو سمعه »(١) .

وقال عُبيد بن عمير : « آثروا الحياءَ من الله على الحياءِ مِن الناس » .

أبو أيوب الأنصاري وفهْمُه السليمُ لكمال الحياء :

عن سالم بن عبد الله قال : « أعرستُ في عهد أبي ، فآذن أبي الناس ، وكان أبو أيوب فيمن آذنَّا ، وقد ستروا بيتي بنجادٍ(٢) أخضر ، فأقبل أبو أيوب فدخل ، فرآني قائمًا ، واطَّلع فرأىٰ البيت مستترًا بنجادٍ أخضر ، فقال : يا عبد الله ، أتسترون الجُدُر ؟! قال أبي – واستْحيا –: غلبَنَا النساء أبا أيوب !! فقال : مَن كنتُ أخشى أن تغلبنَّه النساء ، فلم أكن أخشى عليك أن تغلبنَّك !! ثم قال : لا أطعم لكم طعامًا ، ولا أدخل لكم بيتًا . ثم خرج رحمه الله »(٣) .

---

(١) صحيح : أخرجه ابن ماجه والحاكم وأحمد ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٦٨ .

(٢) النجاد بكسر النون : جمع (نجْد) وهو ما يزيَّن به البيت من البُسطِ والوسائد والفُرُش .

(٣) آداب الزفاف للألباني ص٢٠١ .

وإلى هذا المقام – ترك الاستحياء من الحقِّ – قال الشاعر :

تَـرْكُ الحياءِ تحـقُّقٌ وتخلُّقٌ ... جاءتْ به الآياتُ في القرآنِ
فله النفاسـةُ والنزاهـةُ عندنا ... إذْ لا نخاف بمنزلِ العـدوانِ
فهوَ الكمالُ لمَن تحقَّقَ حالةَ الْـ ... إسلامِ والإيمانِ والإحسـانِ
هٰذي هيَ الدنيا وأنت إمامُها ... وعبيدُها بالنقصِ والرجـحَانِ

أمثلةٌ عَطِرة في عُلُوِّ الهمَّة في الحياء :

حياءُ كليمِ اللهِ موسىٰ عليه السلام :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسىٰ كان رجلًا حييًّا ستِّيرًا ، لا يُرَى من جلْده شيء ، استحياءً منه »[(١)].

وقد كان الحياء شريعة الأنبياء ؛ فعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنّ ممَّا أدرك الناس من كلام النبوة الأُولى : إذا لم تستحِ ، فاصنعْ ما شئتَ »[(٢)] .

حياءُ رَسـولِ الله ﷺ :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خِدْرها ، فإذا رأىٰ شيئا كِرهَهُ ، عرفناه في وجهه »[(٣)].

---

(١) رواه البخاري وأحمد والترمذي .

(٢) رواه البخاري ، والبغوي في : شرح السنة ، وعبد الرزاق .

(٣) رواه البخاري ومسلم . « والخِدر : ناحية البيت يُلْقىٰ عليه سِتْر ، فتكون فيه الجارية البكر ، والعذراءُ إذا كانت متربية في سِتْرها ؛ تكون أشدَّ حياءً ؛ لتستُّرها حتى عن النساء ، بخلاف الداخلة الخارجة . والمراد بالحديث : الحالة التي تعتريها عند دخول أحد عليها فيه » . اهـ . من رسالة : الحياء صـ : ٢٤ . للشيخ محمد إسماعيل المقدّم حفِظه الله .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « سألتِ امرأةٌ النبي ﷺ : كيف تغتسل من حيضتها ؟ قالت : فذكرتْ أنَّه علَّمها كيفَ تغتسل ، ثم تأخذ فِرْصَةً من مِسْك فتطهّر بها . قالت : كيف أتطهَّر بها ؟ قال : تطهَّري بها ، سبحان الله !! » . واستتر بيده على وجهه . قالت عائشة : واجتذبتُها إليّ ، وعرفتُ ما أراد النبي ﷺ ، فقلتُ : تتبَّعي بها أثَر الدم[(١)].

لقد « كان حياءُ رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه ، وكان إذا كرِه شيئًا لا يتكلَّم به ؛ لحيائه ﷺ ، بل يتغيّر وجهه ، فيفهم الصحابة رضي الله عنهم كراهته . فما أكرمَ خلُقه ﷺ !! »[(٢)].

أمّا حياؤه من ربّه :

فما رواه مالك بن صَعصعة رضي الله عنه : من تردُّد النبي ﷺ بين ربِّه وبين موسى عليه السلام وسؤاله ربَّه التخفيفَ حتى جعلها خمسًا ، فقال له موسى عليه السلام : « ارجع إلى ربِّك فاسأله التخفيفَ لأمتك » . قال : « سألتُ ربي حتى استحييتُ ، ولكن أرضى وأُسلِّم »[(٣)].

قال أبو دهبل الجمحي يمدح رسول الله ﷺ :

إنَّ البيوتَ معادنٌ فِنجارُهُ ... ذَهَبٌ وكُلُّ بُيوتِهِ ضَخْمُ
عَقِمَ النساءُ فلنْ يلدنَ شبيهَهُ ... إنَّ النساءَ بمثلِهِ عُقْمُ
مُتَهَلِّلٌ بـ «نَعَمْ» بـ «لا» متباعدٌ ... سِيَّان منهُ الوفْرُ والعُدْمُ
نَزْرُ الكلامِ من الحياءِ تخالُهُ ... سَقِمًا وليسَ بجسمِهِ سُقْمُ[(٤)]

(١) رواه مسلم .
(٢) الحياء للشيخ محمد إسماعيل المقدم ص٢٤ - ٢٥ ، دار الدعوة السلفية .
(٣) انظر : البخاري ٥/٦٦ ، وشرح النووي ٢/٢٠٩ - ٢١٥ .
(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام ٢/٥٢٤ - طبع : الهيئة العامة لقصور الثقافة .

حَيـاءُ الصَّحابة رضي الله عنهم :

حيـاءُ عثمان ذي النورين ، أميرُ البَررة وقتيل الفَجَرة ، رضي الله عنه :

لقد اختصَّ الله عز وجل عثمان بن عفان رضي الله عنه بمزية خاصَّة في هذا الخلُق الكريم .

عن عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي ، كاشفًا عن فخِذَيْه ، أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر ، فأذن له ، وهو على تلك الحال ، فتحدَّث ، ثم استأذن عمر فأذن له ، وهو كذلك، فتحدَّث، ثم استأذن عثمان ، فجلس رسول الله ﷺ ، وسوَّىٰ ثيابه[١]، فدخل فتحدَّث ، فلمَّا خرج قالت عائشة رضي الله عنها : دخل أبو بكر فلم تَهْتشَّ له ، ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتشَّ له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلستَ وسوَّيتَ ثيابك !! فقال : « ألا أستحي من رجل تستحِي منه الملائكة ؟! »[٢] وفي رواية : أنه قال ﷺ : « إن عثمان رجل حييٌّ ، وإني خشيتُ ، إن أذِنتُ له على تلك الحال ، أن لا يبلغ إليّ في حاجته » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : « الحياءُ من الإيمان، وأحْيَىٰ أمتي : عثمان »[٣] .

وذكر الحسن البصري عثمانَ رضي الله عنه وحياءَه ؛ فقال : « إنْ كان لَيكون في البيت ، والباب عليه مُغْلَق ، فما يضع عنه الثوْب ليفيض عليه الماء ، يمنعه الحياءُ أن يُقيم صُلْبه » .

---

(١) قال محمد – أحد الرواة –: ولا أقول : ذلك في يومٍ واحد .
(٢) رواه مسلم .
(٣) صحيح : رواه ابن عساكر ، وصحّحه الألباني في : الصحيحة رقم ١٨٢٨ .

الصِّدِّيق رضي الله عنه :

خطب الصديق في المسلمين فقال : « أيُّها الناس ، استحيُوا من الله ؟ فوالله ما خرجتُ لحاجة منذ بايعتُ رسولَ الله ﷺ أريد الغائط ، إلّا وأنا مُقَنِّع رأسي حياءً من الله »(١) .

الفاروق رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : « مَن قلَّ حياؤه قلَّ ورَعه ، ومَن قلّ ورعه مات قلبه » . وقال : « من استحيا استخفى ، ومَنِ استخفى اتقى ، ومن اتقى وُقي »(٢) .

أبو موسى الأشعري رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : « إني لأغتسل في البيت المظْلِم ، فما أقيم صلبي حتى آخذ ثوبي ، حياءً من ربي عز وجل » .

وعن قتادة قال : كان أبو موسى إذا اغتسل في بيت مظلم تجاذَب ، وحنى ظهْرَه ، حتى يأخذ ثوبه ، ولا ينتصب قائمًا .

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه إذا نام لبِسَ ثيابًا عند النوم مخافة أن تنكشِف عوْرته .

وعن عبادة بن نسي قال : رأى أبو موسى قومًا يقفون في الماء بغير أُزُر ، فقال : « لَأَنْ أموتَ ثم أُنشَرَ ، ثم أموت ثم أنشَرَ ، ثم أموتَ ثم أنشَرَ ؛ أحبُّ إليّ من أن أَفعل مثلَ هذا »(٣) .

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسْجد والنَّاسُ معه؛ إذْ أقبل ثلاثةُ نَفَرٍ ، فأقْبل اثْنان إلى رسول الله ﷺ

---

(١) ، (٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص٢٠ .
(٣) الحياء للشيخ محمد أحمد إسماعيل ص٢٩ .

وذهب واحد ، قال : فوقَفَا على رسول الله ﷺ ؛ فأمَّا أحدهما : فرأى فُرْجة في الحلْقة فجلس فيها ، وأما الآخر : فجلس خلفهم ، وأما الثالث : فأدبر ذاهبًا ، فلما فرَغ رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم : فأوى إلى الله فآواه ، وأما الآخر : فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر : فأعرض فأعرض الله عنه »(١).

قال أبو عبد الله الأنطاكي : أفضل الأعمال : تَرْك المعاصي الباطنة . فقيل له : ولِمَ ذلك ؟ قال : « لأنَّ الباطنة إذا تركَتْ كان صاحبها للمعاصي الظاهرة أَتْرَكَ » .

وكان أحد الزهاد يقول : « يا ويحي !! عاملتُ الناس بالأمانة ، وعاملتُ ربي بالخيانة ، فليتني عكستُ » . ثم يبكي .

محمد بن الفضل رحمه الله :

قال محمد بن الفضل : « ما خطوتُ أربعين سنة خطوةً لغير الله ، وأربعين سنة ما نظرتُ في شيء أستحسِنُه حياءً من الله » .

عامر بن عبد قيس رحمه الله :

قال الذهبي في « السير » (٤/١٧) : قال أبو عمران الجوني : قيل لعامر ابن عبد قيس : إنك تبيتُ خارجًا ، أمَا تخاف الأسد ؟ قال : إني لأستحيي من ربي أن أخاف شيئًا دونه .

وروى همَّام عن قتادة مثله .

أبو مسلم الخولاني رحمه الله :

قال أبو مسلم الخولاني : « من نعمة الله عليّ : أنني منذ ثلاثين سنة

---

(١) رواه البخاري وغيره .

ما فعلتُ شيئًا يُستحْيا منه ، إلَّا قربي من أهلي » .

محمد بن سِيرين رحمه الله :

وعن محمد بن سيرين أنه رحمه الله قال : « ما غشيتُ امرأةً قطُّ ؛ لا في يقظة ولا في نوم غيرَ أمِّ عبد الله ، وإني لَأَرىٰ المرأة في المنام ، فأعلم أنها لا تحلُّ لي ، فأصرف بصري » .

قال بعضهم : « ليتَ عقلي في اليقظة كعقل ابن سيرين في المنام » .

يَقَظاتُهُ ومنامُه شَرَعٌ ... كُلٌّ بكُلٍّ فهْوَ مشتَبِهُ
إنْ همَّ في حُلْمٍ بفاحشةٍ ... زجَرَتْهُ عِفّتُهُ فينتبِهُ

مقدّم الجيوشِ وفارسُ الكتائب : الجرَّاح :

أبو عقبة الجراح بن عبد الله ، الحَكَمي ، وكان بطلًا شجاعًا ، مهيبًا طُوالًا ، عابدًا قارئًا ، كبيرَ القدْر .

قال رحمه الله : « تركتُ الذنوب حياءً أربعين سنة ، ثم أدركني الوَرَع »(١).

والله لكأنه أولى الناس بقول ليلى الأَخْيَلِيَّة :

فتىً كانَ أحيا مِن فتاةٍ حَيِيَّةٍ ... وأشجعَ من لَيْثٍ بخفَّانَ(٢) خادِرِ

عمرو بن عُتْبة بن فرقد : مَثَلٌ رائع في عُلُوِّ الهمَّة في الحياء :

لله درُّه : « كان يخرج إلى العدو مع الناس فلا يتحارس الناس ؛ لكثرة صلاة عمرو .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) خفان : موضع قرب الكوفة ، وهي مأسدة . والأسد الخادر : المقيم في عرينه وهو خدره .

رأوه ليلةً يصلي ، فسمعوا زئير الأسد فهربوا ، وهو قائم يصلّي فلم ينصرف ، فقالوا له : أما خِفْتَ الأسد ؟ فقال : إني لأستحي من الله أن أخاف شيئًا سواه »[(١)] .

ابنةُ الرجلِ الصالحِ الذي استضاف موسى عليه السلام :

مثال عالٍ في الحياءِ والطُّهْر للمرأة المسلمة .. ابنة رجل صالح ، تنحدر من بيت كريم ينضحُ بالعفاف والطهارة ، والصيانة وحسن التربية ، وكفاها علوّ همّةٍ في حيائها أن أثنى عليها الله عز وجل ؛ قال تعالى : ﴿ **وجاءته إحداهما تمشي على استحياءٍ قالتْ إن أبي يدعوك ليَجزيكَ أجر ما سقيتَ لنا فلما جاءه وقصَّ عليه القصَصَ قال لا تخفْ نجوتَ من القوم الظالمين** ﴾ [القصص : ٣٥] .

قال عمر رضي الله عنه : « ليستْ بسلفع[(٢)] من النساء خرّاجة ولّاجة ، ولكن جاءت مستترة ، قد وضعت كُمَّ دِرْعها على وجهها استحياءً »[(٣)] .

وفي رواية : « جاءت تمشي على استحياء ، قائلةً بثوبها على وجهها ، ليست بسلْفَع من النساء خرَّاجة ولَّاجة »[(٤)] .

« تمشي على استحياء مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة حين تلقى

---

(١) الحلية ٤/١٥٦ ، ١٥٧ ، ورهبان الليل ١/٣٦٦ .

(٢) امرأة سلفع : سليطة جريئة قليلة الحياء .

(٣) أخرجه الفريابي ، وابن أبي شيبة في « المصنف » ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، عن عمر رضي الله عنه ، كما في : الدر المنثور ٥/١٢٤ .

(٤) صحيح : ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم ، وصححه في تفسير القرآن العظيم ٦/٢٣٨ .

الرجال .. « على استحياء » : في غير ما تبذُّل ولا تبرُّج ولا تبجُّح ، ولا إغواء ، جاءته لتُنهي إليه دعوة في أقصر لفظٍ وأخصره وأدلِّه »[١].

ولله درُّ القائل :

قصيرةُ ألفاظٍ قصيرةُ بيتِها ... ومَن حفِظَتْه في مغيبٍ ومشْهَدِ

مِثْلُها قليلات .. فالمرأة الصالحة الحييَّة كالغراب الأعْصَمِ لا تكاد توجد .

يعزُّ على مَن يطرِقُ البابَ لفظُهَا ... جوابًا فلا عَقدًا تراهُ ولا حلَّا

يُطيل وُقوفًا لا يُجابُ محرَّمٌ ... عليها كلامُ الأجنبي وإن قلَّا

حياءُ أمِّ أبيها فاطمةَ رضي الله عنها بنتِ رسول اللهِ ﷺ :

أتتْ فاطمة رضي الله عنها رسول الله ﷺ تسأله خادمًا ، فقال : « ما جاء بك يا بُنيّة ؟ » . فقالت : جئتُ أسلم عليك . واستحيَتْ ، حتى إذا كانت القابلة ، أتتْه فقالت مثلَ ذلك ... وفي بعض روايات هذه القصة : « أن رسول الله ﷺ جاءها وعليًّا ، وقد أخذا مضاجعهما ..» الحديث ، وفيه : « فجلس عند رأسها ، فأدخلتْ رأسَها في اللفاع ، حياءً من أبيها »[٢] .

وعن أنس رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ أتى فاطمة بعبدٍ قد وهبه لها ، قال : وعَلَى فاطمة رضي الله عنها ثوب ، إذا قنَّعتْ به رأسها ، لم يبلغ رجلَيْها ، وإذا غطَّتْ به رجليْها ، لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلامك »[٣].

(١) الظلال للشيخ سيد قطب تفسير سورة القصص : ٢٥ .
(٢) رواه البخاري .
(٣) صحيح : أخرجه أبو داود ، والبيهقي ، وصححه الألباني في « الإرواء » ٦/٢٠٦ .

والله لهي أولى الناس بقول مَن قال :

كأنَّ لها في الأرض نسيًا[١] تقصُّهُ[٢] علىٰ أمِّهـا وإنْ تحدثْـكَ تَبْلَـتِ

أي لا ترفع رأسها كأنها تطلب شيئًا في الأرض .

حياء الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما :

« عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : كنتُ أدخل البيت الذي دُفن فيه رسول الله ﷺ وأبي رضي الله عنه،واضعةً ثوبي ، وأقول : إنما هو زوجي وأبي . فلما دُفن عمر رضي الله عنه ، فوالله ما دخلتهُ إلّا مشدودةً عليّ ثيابي حياءً من عمر رضي الله عنه »[٣] .

لله درُّك أم المؤمنين !! حياءً حتى من الأموات .. هذا الحياء والله لا يكون إلا لأمِّ المؤمنين عائشة حبيبة رسول الله ﷺ .

فاطمةُ بنتُ عتبةَ رضي الله عنها :

جاءت فاطمة بنت عتبة رضي الله عنها تبايع رسول الله ﷺ ، فأخذ عليها : ﴿ **أن لا يشركْنَ بالله شيئًا ولا يسرقْنَ ولا يزنين** ﴾ [الممتحنة : ١٢]. فوضعت يدها على رأسها حياءً ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة رضي الله عنها : أقرّي أيتها المرأة ؛ فوالله ما بايعناه إلّا على هذا . قالت : فنعم إذن . فبايعها بالآية[٤].

(١) النّسْي : ما أضلّه أهلُه فيُطلب .

(٢) أي : تتبعه .

(٣) صحيح : رواه بنحوه الحاكم في : المستدرك ٤/٧ ، وصححه على شرط الشيخين ، وسكت عنه الذهبي .

(٤) رواه أحمد في : المسند ١٥١/٦ .

أقوالٌ عَطِرةٌ في الحياء :

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : الحياء رأس مكارم الأخلاق(١) .

« قال ابن عطاء : العلْم الأكبر : الهيْبة والحياء ؛ فإذا ذهبتِ الهيبة والحياء ، لم يبقَ فيه خير ؛ أي في القلب .

وقال ذو النون : الحياء وجود الهيْبة في القلب ، مع وحْشَةِ ما سبق منك إلى ربك تعالى .

وقال رحمه الله : الحُبُّ يُنطِق ، والحياء يُسكِت ، والخوف يُقلِق .

وقال أبو عثمان : من تكلم في الحياء ولا يستحي من الله عز وجل فيما يتكلّم به ؛ فهو مستَدْرَج .

وقال أبو العباس المؤدّب : قال السري : إنَّ الحياء والأنس يطرقان القلب ، فإن وجدا فيه الزهد والورع : حطَّا ، وإلَّا رَحَلَا .

وقال الجريري : تعامَلَ القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدِّين حتى رقَّ الدين ، ثم تعامَلَ القرنُ الثاني بالوفَاءِ حتى ذهب الوفاء ، ثم تعامَلَ القرن الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرغْبة والرهبة .

وقال يحيى بن معاذ : سبحان مَن يُذنبُ العبدُ فيستحي منه !!

وقال الفضيل : خمس من علامات الشقاء : القسْوة في القلب ، وجمود العيْن ، وقلّة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل .

وقالوا : الحياء ، ذَوَبان الحشا لاطِّلاع المولى .

وقال الواسطي : لم يَذُقْ لذَعاتِ الحياء مَن لا بَسَ خرْقَ حدٍّ أو نقْض عهدٍ .

---

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص١٦ ، وبهجة المجالس لابن عبد البر ٥٩٠/١ .

وقال أبو علي الدقَّاق : الحياءُ تَرْك الدعوىٰ بين يدي الله عز وجل .

وقال أبو بكر الوراق : ربما أصلّي لله تعالى ركعتين ، فأنصرف عنهما وأنا بمنزلة من ينصرف عن السرقة ؛ من الحياء »[١] .

أي بمنزلة السارق والزاني الذي يراه الناس .

قال الشاعر :

إنَّ الحياءَ من الإيمانِ جاءَ بـهِ ... لفـظُ النبي وخيـرٌ كلُّه فبـهِ
فليتصفْ كلُّ مَن يرىٰ مشاهدهُ ... وليسَ يعرفُ هذا غيرُ مُنْتبهِ
مستيقظٌ غيرُ نوّامٍ ولا كَسِلٍ ... مـراقــبٌ قلبـه لـدىٰ تقلُّبِهِ
إنَّ الحييَّ من اسماءِ اللهِ وقـدْ ... جاءَ التخلُّق بالأسماءِ فاحظ بِهِ

وقال أعرابيٌّ من طَيِّءٍ :

فلا وأبيكَ ما في العيش خيرٌ ... ولا الدنيا إذا ذهـب الحـياءُ
يعيشُ المرءُ مـا اسـتحيا بخيرٍ ... ويبقـىٰ العُـودُ ما بقي اللِّحـاءُ

وقال وهب بن منبّه : الإيمان عريان ، ولباسُه التقوى ، وزينتُه الحياء .

وقال الحسن : الحياءُ والتكرُّم خصلتان من خِصال الخير ، لم يكونا في عبد إلّا رفعه الله بهما .

وقال الشاعر :

إني لأسـترُ ما ذو العقل ساتِرُهُ ... مِن حاجةٍ وأُميتُ السرَّ كِتمانَا
وحاجةٍ دون أخرى قدْ سمحتُ بها ... جعلتُها للتي أخفيتُ عُنـوانَا
إني كأني أرىٰ مَن لا حياءَ لهُ ... ولا أمانة وسْطَ القومِ عُريانَا

وقالوا : كفى بالحياء على الخير دليلًا ، وعن السلامة مخبِرًا ، ومن الذمِّ مجيرًا .

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٥٤ - ٤٥٩ .

وقالوا : الحياء تمام الكرم ، وموطن الرضا ، وممهِّد الثناء ، وموفِّر العقل ، ومعظِّم القدْر ، وداع إلى الرغبة .

وقال الشاعر حبيب بن أوس :

إذا لم تخشَ عاقبة الليالي ... ولم تستحْي فاصنع ما تشاءُ
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ... ويبقى العودُ ما بقيَ اللِّحاءُ
وما في أنْ يعيشَ المرءُ خيرٌ ... إذا ما الوجهُ فارَقَهُ الحياءُ

وقال الشاعر :

إنَّا أناسٌ من سجيَّتِنا ... صدْقُ الحديثِ وَوأْيُنا[(١)] حتْمُ
لَبِسوا الحياءَ فإنْ نظرتَ حسبْتَهُمْ ... سَقِمُوا ولم يَمْسسْهُمُ سُقْمُ

وقال الشاعر طرفة بن العبد :

حياؤك فاحفظْهُ عليكَ فإنَّما ... يدلُّ على فضْلِ الكريمِ حياؤهُ
إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قلَّ حياؤُهُ ... ولا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤهُ

وقال آخر :

وربَّ قبيحةٍ ما حال بيني ... وبين رُكوبِها إلّا الحياءُ
إذا رُزِق الفتى وجهًا وِقاحًا ... تقلَّب في الأمورِ كما يشاءُ

وقال محمد بن حازم :

وإني ليُثنيني عن الجهلِ والخَنَا ... وشتْمِ ذوي القربى خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلامٌ وتقوى وأنَّني ... كريمٌ ومثلي قد يضرُّ وينفعُ[(٢)]

وقال الشاعر :

إيَّاكَ أنْ تزدري الرجالَ فما ... تعلمُ ما يجنُّهُ الصَّدَفُ

---

(١) وفي رواية : ووعدنا ؛ وهما بمعنًى واحد .
(٢) وذكرها صاحب الأغاني لأبي الأسود الدؤلي .

نفسُ الجوادِ الكريمِ باقيةٌ ... فيهِ وإن كانَ مَسَّهُ عَجَفُ[(١)]
والحرُّ حرٌّ وإن ألمَّ بِهِ الضُّرُّ ... وفيهِ الحياءُ والأَنَفُ[(٢)]

وقال الشاعر :

كريمٌ يَغُضُّ الطَرْفَ فضلُ حيائِهِ ... ويدنو وأطرافُ الرماحِ دواني

وقال العَرْجيُّ :

إذا حُرِمَ المَرْءُ الحياءَ فإنَّه ... بكلِّ قبيحٍ كانَ منهُ جديرُ
لهُ قِحَةٌ في كلِّ شيءٍ وسِرُّهُ ... مُباحٌ وخِدْناهُ خَنًا وغرورُ
يرىٰ الشَّتمَ مَدْحًا والدناءةَ رِفعةً ... وللسَّمْعِ منه في العظاتِ نُفورُ
وَوَجْهُ الحياءِ مُلْبَسٌ جلدَ رِقَّةٍ ... بغيضٌ إليه ما يَشِينُ كثيرُ
لهُ رغبةٌ في أمْرِهِ وتجرُّدٌ ... حليمٌ لدىٰ جهلِ الجهُولِ وقورُ
فَرَجٌّ الفتىٰ ما دامَ يَحيَا فإنَّهُ ... إلى خيرِ حالاتِ المنيبِ يصيرُ[(٣)]

و « في التفسير : ﴿ **ولباسُ التقوىٰ** ﴾ [الأعراف : ٢٦] قالوا : الحياء .
والحياء نظام الإيمان ، فإذا انحلَّ النظامُ ذهب ما فيه .

وقالوا: الوقار من الله عزَّ وجل، فمن رزقه الله الوقار فقد وسَمَه بسيماء الخير .

قال الحسن : أربعٌ مَن كنَّ فيه كانَ كاملًا ، ومَن تعلَّق بواحدة منهن كان من صالحي قومه : دِين يرشده ، وعقل يُسدِّده ، وحسَب يصونه ، وحياء يقوده .

قال الشاعر :

ما إنْ دعاني الهوىٰ لفاحشةٍ ... إلّا نهاني الحياءُ والكرَمُ

---

(١) العَجَف : ذهاب السمن ، وبقاءُ الهُزال من الجوع ، ويريد هنا أنَّ الهزال يُدركه من الجوع تعفُّفًا عن السؤال .
(٢) الأَنُف : كالأنَفَة ؛ وهما الحميَّة والإباء .
(٣) لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ ص٢٨٤ – ٢٨٧ . دار الكتب السلفية .

ولا إلى مَحْرَمٍ مددتُ يدي ولا مشتْ بي لريبةٍ قدَمُ

وقال أبو دُلفِ العِجلي :

إذا لم تَصُن عِرضًا ولم تَخْشَ خالقًا ولم تَرْعَ مخلوقًا فما شِئْتَ فاصنع

قال الأصمعي : سمعتُ أعرابيًّا يقول : مَن كساه الحياء ثوْبه ، خفي عنِ الناسِ عيبُه »[1].

أخي :

إنَّ الرقيبَ لَزيمٌ حيثُ كانَا لذاكَ يُحفظُ أعيانًا وأكوانَا
وليسَ يخفَى عليهِ من مُراقبِهِ شيءٌ وإنْ جلَّ ذاكَ الأمر أو هانَا

أخي :

فمَنْ راقب الحقَّ الرقيبَ بعينهِ فذاكَ الرقيبُ الحقُّ والمِثْلُ والكُفْءُ

قال حميد الطويل لسليمان بن علي : عِظني . فقال : « لئن كنتَ إذا عصيتَ خاليًا ظننتَ أنه يراك ؛ لقد اجترأتَ على أمْر عظيم . ولئن كنتَ ظننتَ أنه لا يراك فقد كفرتَ » .

وعن محمد بن واسع قال : كان لقمان عليه السلام يقول لابنه : « يا بني ، اتق الله ، ولا تُرِ الناسَ أنك تخشَى الله عز وجل ، ليُكرموك بذلك وقلبُك فاجر » .

وقال بلال بن سعد : لا تكنْ وليًّا لله عز وجل في العلانية وعدوَّه في السرِّ .

وقال فرقد : « إن المنافق ينظر ، فإذا لم يرَ أحدًا دخل مدخل السوء ، وإنما يراقب الناس ولا يراقبُ الله تعالى » .

وقال الشاعر :

مَن عامَلَ اللهَ بتقواهُ وكانَ في الخَلَواتِ يخشاهُ
سقاهُ كأسًا من لذيذ المنَى يغنيهِ عنْ لذَّاتِ دنياهُ

استوصَى رجل بعض السلف ، فقال : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ،

(١) بهجة المجالس ، وأنس المجالس لابن عبد البر ١/٥٨٩ - ٥٩٣ - مكتبة ابن تيمية .

وتذكَّر قوله عز وجل : ﴿ وهو الذي يتوفَّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ [الأنعام : ٦٠] .

أخي :

استح مِنَ اللهِ في خلَواتكَ ، ولا تكنْ الجرأةُ على محارم الله في الخَلْوةِ صفتَك :

عن أبي عامر الألهاني رضي الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « لأَعلمَنَّ أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال تِهامة بِيضا ، فيجعلُها اللهُ هباءً منثورًا » . قال ثوبانُ : يا رسول الله ، صِفْهم لنا ، جَلِّهمْ لنا ؛ ألّا نكون منهم ونحن لا نعلم . قال : « أمَا إنهم إخوانكم ، ومن جلْدتكم ، ويأْخذون من اللَّيلِ كما تأْخذون، ولكنَّهم أَقْوامٌ إذا خلوْا بمحارمِ اللهِ انتهكوها »[(١)].

وكَمْ ذي معاصٍ نالَ منهنَّ لذَّةً ... وماتَ فَخلَّاها وذَاقَ الدَّوَاهِيَا
تصرَّمُ لذاتُ المعاصي وتنقضي ... وتبقى تباعاتُ المعاصي كما هِيَا
فَيَاسَوْأتا واللهُ راءٍ وسامِعٌ ... لعبدٍ بعيْن اللهِ يَغشى المعاصِيَا[(٢)]

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « يا صاحب الذنب ، لا تأمننَّ من سوءِ عاقبته . ولَمَا يتبع الذنب أعظمُ من الذنب إذا عملتَه ؛ قلَّة حَيائكَ ممَّن على اليمين والشمال - وأنت على الذنب - أعظم من الذنب الذي عملته . وضَحِكُكَ - وأنت لا تدري ما الله صانعٌ بك - أعظم من الذنب . وفرحك بالذنب - إذا ظفرتَ به - أعظم من الذنب . وحزنك على الذنب - إذا فاتك - أعظم من الذنب إذا ظفرتَ به . وخوفك من الريح إذا حرَّكت ستْرَ بابك- وأنت على الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظَر الله إليك- أعظم من الذنب إذا

(١) صحيح : أخرجه ابن ماجه ، وصححه المنذري في الترغيب ، والبوصيري في الزوائد ٣/٣٠٦ .
(٢) الحياء خلق الإسلام ص٥٤ - ٥٦ .

عملته »[(١)] .

أخي :

قال ميمون بن مهران : علانية بغيْر سريرة : مثلُ كنيف مُزَخْرَف من خارجه ، ومن داخله النتن والخَبْثُ .

أخي :

كنْ مِن هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ **ولمَن خاف مقامَ ربِّه جنتان** ﴾ [الرحمٰن : ٤٦] .

قال مجاهد : هو الرجل يخلو بمعصية الله ، فيذكرُ مقامَ اللهِ فيدعُها فَرَقًا من الله .

وقال ابن الجوزي : « الرجل - واللهِ - مَن إذا خلا بما يُحبُّ من المحرّم وقدَرَ عليه ، وتقلقلَ عطَشًا إليه ؛ نظرَ إلى نظرِ الحقِّ إليه ، فاستْحيا من إجالة همِّه فيما يكرهه ، فذهب العطَشُ » .

ولله درُّ القائل :

وإذا خلوت بريبةٍ في ظلمةٍ والنفْسُ داعيةٌ إلى الطغيانِ
فاستْحي مِن نظرِ الإلٰهِ وقلْ لها إنَّ الذي خلَقَ الظلامَ يراني

* * *

(١) الحلية ١/٣٢٤ .

الفصل العشرون

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
التَّبَتُّلِ

﴿ واذكُرِ اسْمَ ربِّكَ وتَبَتَّلْ إليهِ تبْتيلًا ﴾ [المزمل : ٨]

□ عُلُوُّ الهمَّةِ في التبَتُّلِ □

قال الله تعالى : ﴿ واذكرِ اسمَ ربِّك وتَبَتَّلْ إليه تبتيلًا ﴾ [المزمل : ٨].

و « التبتل » : الانقطاع . وهو تفعُّل من البَتْل ، وهو القطْع . وسميت مريمُ « البتولَ » ؛ لانقطاعها عن الأزواج ، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها ، ففاقت نساء الزمان شرفًا وفضلًا ، وقُطعت منهنَّ . ومصدر « بتَّل » : « تبتُّلًا » ، كالتعلُّم والتفهُّم ، ولكن جاء على التفعيل – مصدر تفعَّل – لسرٍّ لطيف ؛ فإن في هذا الفعل إيذانًا بالتدريج والتكلُّف والتعمُّل والتكثُّر والمبالغة ، فأتى بالفعْل الدالِّ على أحدهما ، وبالمصدر الدالِّ على الآخر ، فكأنه قيل : بَتِّلْ نفسَك إلى الله تبتيلًا ، وتبتَّلْ إليه تبتُّلًا . ففُهِمَ المعنيان من الفعْل ومصدره ، وهذا كثير في القرآن . وهو من أحسن الاختصار والإيجاز .

قال صاحب « المنازل » : « التبتُّل : الانقطاع إلى الله بالكليَّة . وقوله عز وجل : ﴿ له دعوة الحقِّ ﴾ [الرعد : ١٤] أي : التجريد المحْض » .

ومراده بالتجريد المحض : التبتُّل عن ملاحظة الأعواض ؛ بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلّا لأجْل الأجْرة ؛ فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر ، بخلاف العبد ؛ فإنه يخدم بمقتضى عبوديته لا للأجرة ، فهو لا ينصرف عن باب سيِّده إلّا إذا كان آبِقًا ، والآبِق قد خرج من شرَف العبودية ، ولم يحصل له إطلاق الحرية ، فصار بذلك مركوسًا عند سيده وعند عبيده . وغاية شرف النفس : دخولُها تحت رِقِّ العبودية طوْعًا واختيارًا ومحبَّة ، لا كرهًا وقهرًا . كما قيل :

شرفُ النفوسِ دخولُها في رِقِّهِمْ   والعبدُ يحوي الفخرَ بالتمليكِ

والذي حَسَّن استشهاده بقوله : ﴿ له دعوة الحق ﴾ في هذا الموضع :

إرادةُ هذا المعنى ، وأنه تعالى صاحبُ دعوة الحقِّ لذاته وصفاته ، وإن لم يُوجب لداعيه بها ثوابًا ، فإنه يستحقُّها لذاته ؛ فهو أهل أن يُعبد وحدَه ، ويُدعىٰ وحدَه ، ويقصد ويُشكر ويُحْمد ، ويُحبّ ويُرجىٰ ويُخاف ، ويُتوكَّل عليه ويستعان به ، ويستجار به ويلجأ إليه ، ويُصمد إليه ، فتكون الدعوة الإلهية الحقُّ له وحده .

ومن قامَ بقلبِهِ هذا - معرفةً وذوْقًا وحالًا - صحَّ له مقام التبتُّل ، والتجريد المحْضِ . وقد فسَّر السلفُ « دعوة الحق » بالتوحيد والإخلاص فيه والصِّدْق . ومرادهم هذا المعنى .

فقال علي رضي الله عنه : دعوةُ الحق : التوحيد . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « شهادة أن لا إله إلا الله » . وقيل : الدعاء بالإخلاص . والدعاء الخالص لا يكون إلا لله . ودعوة الحقّ دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها .

دَرجاتُ التبتُّل :

قال شيخ الإسلام الهروي : « وهو على ثلاثِ درجات :

الدرجةُ الأولىٰ : تجريدُ الانقطاعِ عن الحظوظ واللُّحُوظِ إلى العالَم ، خوفًا أو رجاءً ، أو مبالاةً بحالٍ » :

قال شيخ الإسلام ابن القيِّم شارحًا : « قلتُ : « التبتُّل » يجمع أمرين : اتصالًا وانفصالًا ، لا يصح إلّا بهما :

فالانفصال : انقطاع قلبه عن حظوظ النفْس المزاحمة لمراد الربِّ منه ، وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله ، خوفًا منه أو رغبة فيه ، أو مبالاةً به أو فكرًا فيه بحيث يشغل قلبه عن الله .

والاتصال : لا يصحُّ إلّا بعد هذا الانفصال . وهو اتصالُ القلب بالله ،

وإقبالهُ عليه ، وإقامة وجهه له ، حُبًّا وخوفًا ورجاءً وإنابة وتوكُّلًا .

ثم ذكَر الشيخ ما يُعين على هذا التجريد ، وبأيِّ شيء يحصل . فقال : « بحسْم الرجاء بالرضا ، وقطْع الخوف بالتسليم ، ورفْض المبالاة بشهود الحقيقة » .

يقول : إن الذي يحسم مادَّة رجاء المخلوقين من قلبك : هو الرضا بحكم الله عز وجل وقَسْمه لك . فمن رضي بحكم الله وقَسْمه ؛ لم يبقَ لرجاء الخلْقِ في قلبه موضع .

والذي يحسم مادَّة الخوف: هو التسليم لله؛ فإن من سلَّم لله واستسلم له ، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له – لم يبقَ لخوْف المخلوقين في قلبه موضع أيضًا ؛ فإن نفْسَه التي يخاف عليها قد سلَّمها إلى وليِّها ومولاها ، وعلِم أنه لا يصيبها إلّا ما كُتب لها ، وأن ما كُتب لها لا بدّ أن يصيبها . فلا معنى للخوف من غير الله بوجه .

وفي التسليم أيضًا فائدة لطيفة : وهي أنه إذا سلَّمها اللهَ فقد أودعها عنده ، وأحرزها في حِرْزه ، وجعلها تحت كنَفِه . حيث لا تنالها يَدُ عَدوٍّ عادٍ ولا بَغْي بَاغٍ عاتٍ .

والذي يحسم مادَّة المبالاة بالناس : شهودُ الحقيقة : وهو رؤية الأشياء كلها من الله وبالله ، وفي قبضته وتحت قهْره وسلطانه . لا يتحرَّك منها شيء إلّا بحوْله وقوَّته ، ولا ينفع ولا يضرُّ إلَّا بإذنه ومشيئته . فما وجه المبالاة بالخلْق بعد هذا الشهود ؟! »[1].

(١) مدارج السالكين ٢/٣٠ – ٣١ .

« **الدرجة الثانية : تجريدُ الانقطاعِ عن التعريج على النفْس ؛ بمجانبة الهوى ، وتنسُّم رَوْح الأُنْسِ ، وشَيم برْقِ الكشْف** » :

قال ابن القيم : « الفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها : أنَّ الأولى انقطاعٌ عن الخلْق ، وهذه انقطاع عن النفس . وجعَلَه بثلاثة أشياء :

أولها : مجانبة الهوىٰ ومخالفته ، ونهي نفْسِهِ عنه ؛ لأنَّ اتباعه يصدُّ عن التبتُّل .

وثانيها :- وهو بعد مخالفة الهوى - تنسُّم رَوْح الأُنْس بالله ، والرَّوح للرُّوح كالرُّوح للبدن ، فهو رُوحها وراحتها . وإنما حصل له هذا الرَّوح لمَّا أعرض عن هواه ، فحينئذ تنسَّم روح الأنس بالله ، ووجد رائحته ؛ إذ النفس لا بدَّ لها من التعلُّق ، فلما انقطع تعلُّقها من هواها وجدَتْ رَوح الأُنس بالله ، وهَبَّت عليها نسماته ، فريَّحتْها وأحْيَتْها .

وثالثها : شَيْم برق الكْشف : وهو مطالعته واستشرافه والنظر إليه ، ليعلم به مواقع الغيْث ومساقط الرَّحمة .

وليس مراده بالكشْف هاهنا: الكشْف الجزئي السفلي، المشترك بين البَرِّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ، كالكشْف عن مخبآت الناس ومستورهم . وإنما هو الكشْف عن ثلاثة أشياء ، هنَّ منتهى كشفُ الصادقين أرباب البصائر :

أحدها : الكشف عن منازل السيْر .

والثاني : الكشف عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ومفسداتها .

والثالث : الكشْف عن معاني الأسماء والصفات ، وحقائق التوحيد والمعرفة .

وهذه الأبواب الثلاثة : هي مجامع علوم القوْم ، وعليها يحومون ، وحولها يدندنون ، وإليها يشمِّرون ، فمنهم مَن جُلّ كلامه ومعظمه : في السيْر وصفة

المنازل . ومنهم من جُلُّ كلامه : في الآفات والقواطع . ومنهم من جُلُّ كلامه : في التوحيد والمعرفة ، وحقائق الأسماء والصفات .

والصادق الذكي يأخذ من كلِّ منهم ما عنده من الحقِّ ، فيستعين به على مطلبه ، ولا يردُّ ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر ، ويهدره به . فالكمال المطلق لله رب العالمين ، وما من العباد إلّا له مقام معلوم »[١] .

« الدرجة الثالثة : تجريد الانقطاع إلى السبْق ؛ بتصحيح الاستقامة ، والاستغراق في قصْدِ الوصول ، والنظر إلى أوائل الجمع » :

قال ابن القيم : « لما جعل الدرجة الأولى انقطاعًا عن الخلْق ، والثانية انقطاعًا عن النفس ؛ جعل الثالثة طلبًا للسبْق ، وجعله بتصحيح الاستقامة : وهي الإعراض عما سوى الحقّ ولزوم الإقبال عليه ، والاشتغال بمحابه . ثم بالاستغراق في قصد الوصول : وهو أن يشغله طلب الوصول عن كلِّ شيء ، بحيث يستغرق همومه وعزائمه وإراداته وأوقاته. وإنما يكون ذلك بعد بُدُوّ برق الكشْف المذكور له .

وأما النظر إلى أوائل الجمع : فالجمع هو قيام الخلْق كلهم بالحقِّ وحده ، وقيامه عليهم بالربوبية والتدبير .

والنظر إلى أوائل ذلك : هو الالتفات إلى مقدماته وبداياته ، وهي العقبة التي يَنْحدر منها على وادي الفناء .

وقد قيل : إنها وقْفة تعترض القاطِع لأودية التفرقة قبل وصوله إلى الجمع . ومنها يُشرف عليه .

وهذه الوقفة تعترض كل طالب مُجدٍّ في طلبه ، فمنها يرجع على عقبه ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١ - ٣٢ .

أو يصل إلى مطلبه . كما قيل :

لا بدَّ للعاشـق من وقفـةٍ ما بين سلوانٍ وبينَ غرامِ
وعندهَا ينـقلُ أقـدامَـهُ إمَّا إلى خلْفٍ وإمَّا أمامِ

والذي يظهر لي من كلامه: أن أوائل الجمع: مباديه ولوائحه وبوارقه»[(١)].

قال ابن القيم بعد إيراده للثلاث درجات للهروي :

« الدرجة الرابعة: الانقطاع عن مراده من ربِّه، والفناءُ عنه إلى مراد ربِّه منه ، والفناءُ به » :

« وبعد هذا درجة رابعة ، وهي الانقطاع عن مراده من ربه ، والفناء عنه إلى مراد ربِّه منه ، والفناء به . فلا يريد منه ، بل يريد ما يريده ، منقطعًا به عن كل إرادة ، فينظر في أوائل الجمع في مراده الديني الأمري الذي يحبُّه ويرضاه »[(٢)] .

كلامٌ نفيسٌ لابن القيم في أنَّ كمال العبودية بإعطاء الجمْعِ والفرْقِ حقَّهما في « إيَّاك نعبُد » و « إياك نستعين » :

قال ابن القيم : « وأكثر أرباب السلوك عندهم « إياك نعبد » : فرق ، و « إياك نستعين » : جمع ، ثم منهم مَن يرى أن ترك الجمعْ : زندقة وكفر ، فهو يعرض عن الجمع إلى الفرق . ومنهم من يرى : أن مقام « التفرقة » ناقص مرغوب عنه، ويرى سوء حال أهله وتشتُّتهم، فيرغب عنه عاملًا على الجمع، يتوجه معه حيث توجَّهت ركائبُه . والمستقيمون منهم يقولون : لا بدَّ للعبد السالك من جمع وفرق ، وقيام العبودية بهما . فمن لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جَمْع له لا معرفة له ولا حال .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٢ - ٣٣ .
(٢) مدارج السالكين ٢/٣٣ .

فـ « إياك نعبد » : فرق ، و « إياك نستعين » : جمع .

والحقُّ أن كلًّا من مشهدَيْ « إياك نعبد » و « إياك نستعين » : متضمِّن للفرق والجمع ، وكمال العبودية بالقيام بهما في كل مشهد .

ففرْقُ « إياك نعبد » : تنوُّع ما يُعبد به ، وكثرة تعلُّقاته وضروبه .

وجمْعُه : توحيد المعبود بذلك كلِّه ، وإرادة وجهه وحده ، والفناء عن كلّ حظٍّ ومراد يُزاحم حقَّه ومراده .

فتضمَّن هذا المشهد فرقًا في جمْع ، وكثرةً في وحدة ، فصاحِبه يتنقّل في منازل العبودية من عبادة إلى عبادة ، ومعبوده واحد ؛ لا إله إلا هو .

وأما فرْقُ « إياك نستعين » : فشهود ما يستعين به عليه ، ومرتبته ومنزلته ، ومحلّه من النفْع والضرّ ، وبدايته وعاقبته ، واتصاله بل وانفصاله وما يترتب عليه من هذا الاتصال والانفصال .

ويشهد مع ذلك ، فقر المستعين وحاجته ونقْصه ، وضرورته إلى كمالاته التي يستعين ربَّه في تحصيلها ، وآفاته التي يستعين ربَّه في دفعها ، ويشهد حقيقة الاستعانة وكفاية المستعان به ، وهذا كلُّه فرْقٌ يُثمر عبودية هذا المشهد .

وأمَّا جمْعُه : فشهود تفرُّده سبحانه بالأفعال ، وصدور الكائنات بأسْرِها عن مشيئته ، وتصريفها بإرادته وحكمته .

فغيبته بهذا المشهد عما قبله من الفرق ؛ نقص في العبودية ، كما أن تفرُّقه في الذي قبله دون ملاحظته : نقصٌ أيضًا . والكمال : إعطاءُ الفرق والجمْع حقَّهما في هذا المشهد والمشهد الأول .

فتبيّن تضمُّن « إياك نعبد » و « إياك نستعين » للجمْع والفرق . والله المستعان »[1].

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٣ - ٣٤ .

أخي ، مَن صحَّ فراره إلى الله ، صحَّ قراره مع الله ، ومَن انقطع إلى الله أغناه عمَّن سواه .

هذه مريم البتول انقطعتْ إلى الله ؛ فآثرها الله على نساء العالمين ، وأجرى لها من الكرامة ما أجرى ؛ ﴿ **كلَّما دخل عليها زكريا المحرابَ وجد عندها رزقا** ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وهذه آسية انقطعتْ إلى الله وآثرته على المُلْك والجاه ، فآثرها الله بالقرْب منه في جنَّته ودار علاه .

أخي ، شتَّانَ بين عبدٍ منقطع إلى ربِّه يخدمه ، وآخرَ منقطع لخدمة الخلْق يعبدهم ، وكم بين عبدٍ منقطِعٍ عن الناس ، وبين عبد موصول به الوسواس !!

شتان بين عبد منقطِع بالشوْق إلى المولى ، وبين عبد منقطع بالهوىٰ معانِق للدنيا، هذه مقامات المقرَّبين بالحسنىٰ، وأضدادها مقامات المبعدين بالسوء .

* * *

الفصل الحادي والعشرون

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
الخُشُوعِ

« خشعَ سمْعي وبصري ، ومخِّي وعظمي وعَصَبي ،
وما استقلَّتْ بهِ قدمي ، للهِ ربِّ العالمين » .
[حديثٌ صحيحٌ]

« إنَّ أولَ ما يُرفعُ مِن الناسِ : الخشوعُ » .
[حديثٌ صحيح]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الخُشُوع □

اعلم – رحمنا الله وإياك – أن الخشوع قيامُ القلب بين يدي الربّ بالخضوع والذلِّ والجمعيَّة عليه ، ورقَّة القلب وسكونه وانكساره وحُرْقته .

والخشوع : خمود نيران الشهوة ، وسكون دُخَان الصدور ، وإشراق نور التعظيم في القلب ، واستحضار عظمة الله وهيبته وجلاله .

والخشوع قاسَمٌ مشترك بين الأخلاق والعقيدة والعمل ، يغذوها بخشية الله ، فتؤدِّي مقصودها في النفس والقلب معًا .

الخشوع معنًى شرعيّ وسلوكٌ سُنِّي ، فيه كلّ الانقياد لله ربِّ العالمين .

قال الجنيد : الخشوع تذلُّل القلوب لعلّام الغيوب .

والقلب أمير البدن ، فإذا خشَع القلب ، خشع السمع والبصر والوجه وسائر الأعضاء وما ينشأ عنها ، حتى الكلام .

الخشوع يقظة دائمة لخلَجَات القلب وخفقاته ولفتاته حتى لا يتبلد ، وحذَرٌ من هواجسه ووساوسه ، واحتياط من سهواته وغفَلاته ودفعاته ، خشية أن يزيغ وتعتريه القساوة .

والخشوعُ عِلمٌ نافع يُباشر القلب ، فيوجب له السكينة والخشية ، والإخبات والتواضعَ والانكسارَ لله ، وكلُّ أولئك رشْحٌ من فيْض الخشوع[١] .

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه ؛ أنَّ النبي ﷺ كان يقول : « اللهمَّ

---

(١) انظر رسالة : الخشوع وأثره في بناء الأمة . لسليم بن عيد الهلالة – دار ابن الجوزي . والخشوع في الصلاة ، لابن رجب الحنبلي . تعليق : علي حسن عبد الحميد – طبع : دار عمار .

إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا تُستجاب »(١) .

والخشوع أولُ علمٍ يُرفع مِن بين هذه الأمة :

عن شداد بن أوس : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول ما يُرفع من الناس : الخشوع »(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أول شيءٍ يُرفع من هذه الأمة الخشوع ، حتى لا ترى فيها خاشعًا »(٣) .

وقال حذيفة رضي الله عنه : « أول ما تفقدون من دينكم : الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم : الصلاة »(٤) .

وقد مدح الله في كتابه الخاشعين المنكسرين لعظمته ؛ فقال تعالى : **﴿ إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعوننَا رَغبًا ورَهَبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾** [الأنبياء : ٩٠] .

وقال تعالى : **﴿ إنَّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدِّقين والمتصدِّقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات**

---

(١) رواه مسلم .

(٢) صحيح : أخرجه الطبراني في الكبير ، والبخاري في خلْق أفعال العباد ، والنسائي في الكبرى ، والبيهقي في المدخل ، والحاكم وابن حبان ، والبزار والخطيب في اقتضاء العلم العمل ، والطبراني في الأوائل ، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٥٤٣ ، وصحيح الجامع رقم ٢٥٦٩ .

(٤) مدارج السالكين ١/٥٢١ .

والذاكرين الله كثيرًا والذكرات أعدَّ الله لهم مغفِرة وأجرًا عظيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

فأُولى المنازل التي يحطُّ فيها الخاشعون رِحالَهم : مغفرةٌ من الله تمحق السيئات وتُربي الحسنات والأجر العظيم ؛ قال تعالى : ﴿ **وإنَّ من أهل الكتاب لَمن يُؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أُنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا أولئك لهم أجرهم عند ربِّهم إن الله سريع الحساب** ﴾ [آل عمران: ١٩٩] .

وللخاشعين البشرى مِن ربِّهم :

قال تعالى : ﴿ **فإلٰهكم إله واحد فله أسلِموا وبشِّرِ المخبتين** ﴾ [الحج : ٣٤] .

ووصَفَ الله المؤمنين بالخشوع في أشرف عبادتهم وهي الصلاة ، وبيَّن أن الخشوعَ طريقُ الفلاح في الدنيا والآخرة ؛ يحُسُّه المؤمن بقلبه ، ويجد مصداقه في واقع حياته ، وعدٌ من الله بالفلاح الذي لا يخطر على قلب بَشَر . قال تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتِهم خاشعون** ﴾ [المؤمنون : ١ - ٢] .

ووصف الله الذين أوتوا العلم بالخشوع حين يسمعون كلامه ؛ فقال : ﴿ **إنَّ الذينَ أُوتوا العلْمَ مِن قبله إذا يُتلى عليهم يخرُّون للأذقان سُجَّدًا ويقولون سبحان ربِّنا إنْ كان وعدُ ربِّنا لمفعولًا ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩] .

والخشوع طريقٌ إلى أعالي الفردوس :

قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ [هود : ٢٣] . وقال تعالى : ﴿ **أولئك هم**

الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ [المؤمنون : ١٠ - ١١] .

والخشوع ثباتٌ على منهج الله :

قال تعالى : **﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحقُّ من ربِّك فيؤمنوا به فتُخبِتَ له قلوبُهم وإنّ الله لهادِ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾** [الحج : ٥٤] .

والقلب الخاشع بعيد عن الشيطان :

قال سهل : « مَن خشع قلبُه لم يقرْب منه الشيطان »(١) .

عِتابٌ من اللهِ تعالى واستبطاءٌ للصحابة ، يدلُّ على عِظم ِ منزلةِ الخشوع :

ولولا عظم منزلة الخشوع وعُلوّها ، لَمَا عاتَب الله الصحابة أفضلَ القرون ، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة السامية التي يريدها الله لهم بعد بضع سنين واستبطأهم .

قال تعالى: **﴿ألَمْ يأنِ للذينَ آمنوا أن تخشعَ قلوبهم لذكْر الله وما نزل من الحقِّ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلُ فطال عليهم الأمَدُ فقسَتْ قلوبهم وكثير منهم فاسقون اعلموا أنَّ الله يُحيي الأرضَ بعد موتها قد بيّنّا لكم الآياتِ لعلّكم تعقلون ﴾** [الحديد : ١٦ - ١٧] .

قال ابن مسعود : « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية **﴿ ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبهم لذكر الله ﴾** ، إلّا أربع سنين » . رواه مسلم .

إنّه عتاب للمؤمنين الذين لم يبلغوا قمّة الخشوع الذي يرضاه الله للعُصْبة المؤمنة الأولى التي حملتِ المنهج الرباني . عتاب لجيل القدوة الذي استوى على

---

(١) مدارج السالكين ١/٥٢٢ .

سوقه في أحضان النبي الأُسوة ﷺ .

« عتاب من المولى الكريم الرحيم ، واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله ، عتاب فيه الوُدُّ ، وفيه الحضُّ ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله ، والخشوع لذِكْره ، وتلقِّي ما نزل من الحقِّ بما يليق بجلال الحقِّ من الروْعة والخشية والطاعة والاستسلام .. إن هذا القلب البشري سريع التقلُّب ، سريع النسيان ، وهو يشفُّ ويُشرف فيَفيض بالنور ، ويرفُّ كالشعاع ، فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكُّرٍ تبلَّد وقسَا ، وانطمست إشراقاته ، وأظلم وأعْتَمَ . فلا بدَّ من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع ، ولا بدَّ من الطرْقِ عليه حتى يرفَّ ويشفَّ ، ولا بدَّ من اليقظة الدائمة كَيْ لا يصيبه التبلُّد والقسَاوة .

ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلّد ؛ فإنه يمكن أن تدبَّ فيه الحياة ، وأن يُشرق فيه النور ، وأن يخشع لذكْر الله ؛ فالله يحيي الأرض بعد موتها فتنبض بالحياة ، وتزخر بالنبْت والزهر ، وتمنح الأُكُل والثمار ، وكذلك القلوب حين يشاء الله ... »[1]، يحييها بعد قسوتها ، ويهدي الحيارى بعد ضلَّتها ، ويفرِّج الكروب بعد شدَّتها ، كما يُحيي الأرض الخاشعة المجدبة الهامدة بالغيْث الهتان الوابل .. والقرآن ربيعُ قلب المؤمن ، كما أن الغيث ربيعُ الأرض .

قال ابن عباس : « إن الله استبطأ قلوب المؤمنين ، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن »[2].

---

(١) الظلال ص٣٤٨٩ .

(٢) مدارج السالكين ١/٥٢٠ .

آيةُ الخشوعِ سببٌ في توْبةٍ وخشوع الجَبلَيْن : عبدِ الله بنِ المبارك ، والفُضَيل ابن عِياض :

قال القرطبي : « هذه الآية : ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبُهم لذكْر الله** ﴾ [الحديد : ١٦] . كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وابن المبارك رحمهما الله :

قال الحسن بن داهر : سُئل عبد الله بن المبارك عن بدْءِ زهْده ، قال : كنتُ يومًا مع إخواني في بستانٍ لنا ، وذلك حين حملتُ الثمار من ألوان الفواكه ، فأكلنا وشربنا حتى الليل ، فنِمْنا ، وكنتُ مُولَعًا بضرْب العُود والطنبور ، فقمتُ في بعضِ الليل ، فضربتُ بصوتٍ يُقال له : راشين السَّحَر ، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة ، والعودُ بيدي لا يجيبني إلى ما أريد ، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان - يعني العُود الذي بيده - ويقول : ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكْر الله وما نزل من الحق** ﴾ . قلتُ : بلىٰ والله . وكسرتُ العُود ، وصرفتُ مَنْ كان عندي ، فكان هذا أول زُهدي وتشميري .

وأمَّا الفضيل بن عياض : فكان سبب توبته أنه عَشق جارية فواعدته ليلًا ، فبينما هو يرتقي الجدران إليها ، إذْ سَمِع قارئًا يقرأ ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾. فرجع القهقرىٰ وهو يقول : بلىٰ والله قد آن ، فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة ، وبعضهم يقول لبعض : إن فُضيلًا يقطع الطريق . فقال الفضيل : أوّاه !! أراني بالليل أسعىٰ في معاصي الله ، وقومٌ من المسلمين يخافونني !! اللهمَّ إني قد تبتُ إليك ، وجعلتُ توبتي إليك جَوار بيتك الحرام »[(١)].

وفي رواية : أنه قال للقافلة : يا قوم ، أنا الفضيل ، جُوزوا ؛ والله لأجتهدنَّ

---

(١) القرطبي ٩/٦٤٢١ .

أن لا أعصي الله أبدًا . فرجع عمَّا كان عليه .

أما خشوع ابن المبارك : فهو أشهر من أن يُذكر ؛ كان إذا قرأ في كتابه «الرقائق» فكأنه بقرة منحورة ، من كثرة البكاء ، وكذا كان الفضيل في خشوعه .

قال سعد بن زنبور : « كنا على باب الفضيل بن عياض ، فاستأذنَّا عليه فلم يُؤْذن لنا ، فقيل لنا : إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن . قال : وكان معنا رجل مؤذِّن وكان صَيِّتًا[1] ، فقلنا له اقرأ : ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ ، ورفع بها صوته ، فأشرف علينا الفضيل ، وقد بكى حتى بلَّ لحيته بالدموع ، ومعه خِرْقَة ينشِّف بها الدموع من عينيه ، وأنشأ يقول :

بلغتُ الثمانينَ أو جُزتها ... فماذا أؤمِّلُ أو أنتظرْ
أتى لي ثمانون من مولدي ... وبعد الثمانينَ ما يُنتَظرْ
علَتْني السنونَ فأبليْنَني ... .

قال : ثم خنقتْه العَبرة ، وكان معنا علي بن خشرم فأتمَّه لنا ، فقال :

علَتْني السنونَ فأبلَيْنَني ... فرقّتْ عظامي وكلَّ البصرْ »[2]

الخشوعُ ينتظم جوارحَ العبدِ جميعًا :

كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة : « ... اللهمَّ لك ركعتُ ، وبك آمنتُ ، ولك أسلمتُ ، خشع لك سمعي وبصري ومخِّي وعظمي وعصبي ... » .

عالي الهِمَّة في الخشوع : مَنِ اجتمعتْ فيه هٰذه الصِّفاتِ :

١ - الخوْفُ مِنَ اللهِ :

قال تعالى : ﴿ **فإلٰهكم إلٰه واحد فله أسلِمُوا وبشِّرِ المخبتين الذين إذا**

---

(١) أي : شديد الصوت .
(٢) صفة الصفوة ٢/٢٣٩ .

ذُكِر الله وَجِلتْ قلوبُهم ... ﴾ الآية [الحج : ٣٤ - ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ اللهُ نزَّل أحسنَ الحديثِ كتابًا متشابهًا مثانيَ تقشعِرُّ منه جلودُ الذين يخشون ربَّهم ﴾ [الزمر : ٢٣] .

٢ - البكاءُ مِن خشيةِ الله :

قال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا به أو لا تؤمنوا إنَّ الذين أُوتوا العلْمَ مِن قبله إذا يُتلى عليهم يخرُّون للأذقان سُجَّدًا ويقولون سبحان ربِّنا إنْ كان وعْد ربِّنا لمفعولًا ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧] .

تهتزُّ المشاعر ، وتلين القلوب ، ولا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم من إحساسِ عظمةِ الله ، فإذا الدموعُ تنطلقُ مُعبّرةً عن ذلك التأثُّر الغامر ، الذي تعجْز الألفاظ عن تصويره .

٣ - الصبر على ما أصابهم .

٤ - إقام الصلاة .

٥ - إيتاء الزكاة .

قال تعالى : ﴿ وبشِّر المخبتين الذين إذا ذُكِر الله وجِلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وممَّا رزقناهم ينفقون ﴾ [الحج : ٣٤ - ٣٥].

٦ - اليقين بِلِقَاءِ الله والرُّجوعِ إليه :

قال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاةِ وإنها لَكَبيرةٌ إلّا على الخاشعين الذين يظنُّون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ [البقرة : ٤٥ - ٤٦] .

٧ - تعظيمُ شعائر الله :

لن يعظِّم شعائر الله إلا خاشع لله ؛ لا يخطو خطوة ولا يتحرَّك حركة

إلَّا وهو ينظر فيها إلى الله ؛ فإنه إنْ لم يكن يراه فإن الله يراه ، فيَجِيش قلبه فيها بتقواه ، ويتطلع فيها إلى وجهه ورضاه .

قال تعالى : ﴿ **وإنَّ من أهل الكتاب لمَن يُؤْمن بالله وما أنزل إليكم وما أُنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا أولئك لهم أجرهم عند ربِّهم إن الله سريع الحساب** ﴾ [آل عمران : ١٩٩] .

الخُشوعُ في الصَّلاة :

قد شرع الله لعباده من العبادات ما يظهر فيه خشوع الأبدان ، الناشئ عن خشوع القلب وذُلّه وانكساره ، ومن أعظم ذلك الصلاة ، حين تستشعر قلوبُ الصالحين رهبة المَوْقف في الصلاة بين يدي الله ، فتسكُن وتخشع ، فيسري الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات ، ويغشىٰ أرواحهم جلالُ اللهِ في حضْرته ، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل ، ولا تشتغل بسواه ، وهم مستغرقون في الشعور به ، مشغولون بنجواه ، ويتوارىٰ عن حِسِّهم كل ما حولهم وكل ما بهم ، فما يضمُّون جوانحهم على شائبة مع جلال الله .

قال ابن كثير في « تفسيره » (٥/٤٥٦) : « والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمَن فرَّغ قلبه لها ، واشتغلَ بها عمَّا عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذٍ تكون راحةً له وقُرَّةَ عيْن ؛ كما قال النبي ﷺ ؛ في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن أنس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حُبِّبَ إليَّ الطِّيبُ والنساءُ ، وجُعلتْ قرَّة عيني في الصلاة »[(١)] .

قال تعالى : ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ [المؤمنون : ٢] .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : خائفون ساكنون . وهو قول مجاهد والحسن وقتادة والزهري .

---

(١) صحيح .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الخشوعُ : خشوعُ القلب . وكذا قال إبراهيم النخعي .

قال ابن سيرين : كانوا يقولون : لا يجاوز بصرُه مصلَّاه » .

« وعن سعيد بن جُبير رحمه الله: ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ يعني : متواضعين ؛ لا يعرف مَن عن يمينه ولا مَنْ عن شماله ، ولا يلتفت ؛ من الخشوع لله عزَّ وجلَّ .

وعن مجاهد : ﴿ **وقُومُوا لله قانتين** ﴾ [البقرة : ٢٣٨] : قال : القنُوت : الركون والخشوع ، وغضُّ البصر وخفْض الصوت .

قال : وكان العلماء إذا قام أحدهم في الصلاة ، هابَ الرحمٰن عزّ وجلَّ عنْ أن يشِذَّ نظرُه أو يلتفت ، أو يقلِّب الحصىٰ أو يعبث بشيءٍ ، أو يُحدِّث نفسه من أمر الدنيا إلّا ناسيًا ، ما دام في صلاته .

وعن مجاهد رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ **سِيمَاهم في وُجوههم من أثر السجود** ﴾ [الفتح : ٢٩] ؛ قال : الخشوع في الصلاة »[(٢)].

ولله درُّ القائل :

أَلَا في الصلاةِ الخيرُ والفضلُ أجمعُ ... لأنَّ بها الآرابَ للهِ تخضعُ
وأوَّلُ فرْضٍ من شريعةِ ديننا ... وآخر ما يبقىٰ إذا الدين يُرفَعُ
فمَن قامَ للتكبيرِ لاقته رحمة ... وكان كعبدٍ بابَ مولاهُ يقْرَعُ
وصارَ لربِّ العرشِ حينَ صلاتِهِ ... نجيًّا فيا طُوباه لو كان يخشعُ

والخشوع واجب في الصلاة ، وهذا أرجح الأقوال :

قال القرطبي : « اختلف الناسُ في الخشوع : هل هو من فرائض الصلاة ، أو مِنْ فضائلها ومكمِّلاتها ؟ على قولَيْن ؛ والصحيح : الأول ، ومحلُّه القلب » .

---

(١) الخشوع في الصلاة لابن رجب ص٢٢ ، ٢٣ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : « قال الله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ [البقرة : ٤٥] . وقال تعالى : ﴿ **كبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾ [الشورى : ١٣] .

فقد دلَّ كتاب الله – عز وجل – على مَن كبُر عليه ما يحبُّه الله ، وأنه مذموم بذلك في الدين ، مسخوط منه ذلك . والذمُّ والسُّخط لا يكون إلّا لترْك واجب أو فعْل محرَّم . وإذا كان غير الخاشعين مذمومين ؛ دلَّ ذلك على وجوب الخشوع .

ويدلُّ على وجوب الخشوع في الصلاة : أن النبي ﷺ توعَّد تاركيه ؛ كالذي يرفع بصره إلى السماء ، فإنه حرَّكه ورفعه ، وهو ضدُّ حال الخاشع . عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بالُ أقوامٍ يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم ؟! » . فاشتدَّ قولهُ في ذلك ، فقال : « لينتهُنَّ عن ذلك أو لتخطَفَنَّ أبصارهم »[(١)] .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد ، وفيه ناس يُصلُّون رافعي أبصارهم إلى السماء ، فقال : « لينتهِيَنَّ رجالٌ يَشْخَصون أبصارهم إلى السماء، أو لا ترجع إليهم أبصارهم »[(٢)]. اهـ»[(٣)] باختصار.

وذهب إلى الوجوب أيضًا : الحافظُ العراقي في كتابه القيم « طرْح التثريب في شرح التقريب » ، في ردِّه على النووي[(٤)].

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه مسلم .
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/٥٥٣ – ٥٧٢ .
(٤) طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي ٢/٣٧٢ .

« لو ترك العبد واجبًا مِن واجبات الصلاة عمدًا ، لَأَبطَلها تَرْكُه . وغايتُه أن يكون بعضًا من أبعاضها ، بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المُعْتَق في الكفَّارة، فكيف إذا عدمت رُوحها ولبّها ومقصودها (الخشوع)، ؟! وصارت بمنزلة العبد الميِّت ؟! إذا لم يُعتدَّ بالعبد المقطوع اليد بعتْقِه تقرُّبًا إلى الله تعالى في كفَّارة واجبة ؛ فكيف يُعتدُّ بالعبد الميت ؟! .

وقال بعض السلف : الصلاة كجاريةٍ تهدَىٰ إلى مَلِك من الملوك ، فما الظنُّ بمَن يُهدي إليه جارية شلَّاء أو عوراء أو عمياء ، أو مقطوعة اليد والرجل أو مريضة ، أو دميمة أو قبيحة ، حتى يُهدي إليه جارية ميتة بلا روح ، وجارية قبيحة ، فكيف بالصلاة التي يُهديها العبد ، ويتقرَّب بها إلى ربه تعالى ؟! والله طيِّب لا يقبل إلّا طيِّبًا ؛ وليس من العمل الطيِّب : صلاة لا روح فيها ، كما أنه ليس من العِتْق الطيِّب : عتْق عبد لا روح فيه .

وتعطيلُ القلب عن عبودية الحضور والخشوع : تعطيلٌ لمَلِك الأعضاء عن عبوديته ، وعزْلٌ له منها . فماذا تعني طاعة الرعيَّة وعبوديتها ، وقد عُزِل مالكُها وتعطَّل ؟! »[1] .

وعالي الهِمَّة في خُشوعه في صلاته يظهر ذلك منه في أفعال الصلاة :

١ - وضْعُ اليمين على الشمال في حال القيام :

قال العلّامة ابن رجب الحنبلي : « وممَّا يظهر فيه الخشوع والذلُّ والانكسار من أفعال الصلاة : وضْع اليديْن إحداهما على الأخرى في حال القيام ، وقد رُوي عن الإمام أحمد رحمه الله : أنه سُئل عن المراد بذلك ، فقال : هو ذلٌّ بين يدَيْ عزيز .

(١) مدارج السالكين ١/٥٢٦ - ٥٢٧ .

قال علي بن محمد المصري الواعظ رحمه الله تعالى : ما سمعتُ في العلم بأحسن من هذا : عن أبي صالح السمَّان رحمه الله تعالى قال : يُبعَث الناس يوم القيامة هكذا . ووضع إحدى يديْه على الأخرى .

وملاحظة هذا المعنى في الصلاة يُوجب للمصلِّي أن يتذكَّر وُقوفَه بين يدي الله تعالى للحساب .

وكان ذو النون – رحمه الله تعالى – يقول في وصْف العُبَّاد : لو رأيتَ أحدَهم وقد قام إلى صلاته ، فلمّا وقف في محرابه[1]، واستفتح كلام سيده ؛ خطر على قلبه أن ذلك المقام هو المقام الذي يقوم الناس فيه لربِّ العالمين ، فانخلَع قلبه وذهل عقله »[2] .

٢ – إقبالُ المصلّي عالي الهِمَّة على الله – عز وجل – وعدم التفاته :

قال ابن رجب : (ومِن ذلك إقباله على الله عز وجلّ وعدم التفاته إلى غيره ؛ وهو نوعان :

أحدهما : عدم التفات قلبه إلى غير ما هو مباح له ، وتفريغ القلب للربّ عز وجل .

عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ؛ أنه قال في فضل الوضوء وثوابه ، ثم قال : « فإنْ هو قام وصلّى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ومجّده بالذي هو أهلُه ، وفرّغ قلبه لله ؛ انصرف من خطيئته كيوم ولدتْه

(١) قال الأخ علي حسن عبد الحميد الحلبي : « أي : موضع صلاته ، وليس المحراب المعروف اليوم ، وهو التجويف الذي يكون في الحائط ، فقد نصَّ العلماء على أنه بدْعة مُحدَثة ، وللإمام السيوطي رحمه الله رسالة : إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب » . اهـ . من : التعليق على « الخشوع في الصلاة » ص٢٤ .

(٢) الخشوع في الصلاة ص٢٣ – ٢٤ .

أُمُّه »[(١)] .

الثاني : عدم الالتفات بالنظر يمينًا وشمالًا ، وقصْر البصَر على موضع السجود ، وهو من لوازم خشوع القلب وعدم التفاته .

عن عائشة رضي الله عنها : سألتُ النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة ، فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد »[(٢)])[(٣)] .

قال ابن قيم الجوزية : « قوله في الحديث : « ... وآمركم بالصلاة ، فإذا صلَّيتم ، فلا تلتفتوا ؛ فإن الله ينصب وجهَهُ لوجه عبده في صلاته ، ما لم يلتفت »[(٤)]؛ والالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان :

أحدهما : التفات القلب عن الله – عز وجل – إلى غير الله تعالى .

والثاني : التفاتُ البصر .

وكلاهما منهيٌّ عنه .

ولا يزال الله مقبِلًا على عبده ما دام العبد مقبلًا على صلاته ، فإذا التفت بقلبه أو بصَره ؛ أعرض الله – تعالى – عنه ... ومَثَلُ مَن يلتفت في صلاته ببصره أو قلبه : مَثَلُ رجل قد استدعاه السلطان فأوقفه بين يديه ، وأقبل يُناديه ويخاطبه ، وهو في خلال ذلك يلتفتُ يمينًا وشمالًا ، وقد انصرف قلبه عن السلطان ، فلا يفهم ما يخاطبه به ؛ لأنَّ قلبَه ليس حاضرًا معه . فما ظنُّ هذا

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخاري .

(٣) الخشوع في الصلاة ص٢٤ .

(٤) صحيح . جزء من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ : « أن الله أمَر يحيىٰ ابن زكريا بخمس كلمات .... » الحديث . رواه أحمد والترمذي والطيالسي ، وهو صحيح .

الرجل أنْ يفعل به السلطان ؟! أفليس أقلّ المراتب في حقِّه أن ينصرف مِن بين يديه ممقوتًا مُبْعَدًا، قد سقط من عينيه ؟! فهذا المصلِّي لا يستوي والحاضر القلبِ ، المقبل على الله تعالى في صلاته ، الذي قد أشعر قلبه عظمةَ مَن هو واقف بين يديه ، فامتلأ قلبه من هيبته ، وذلَّتْ عنقه له ، واسْتَحْيا من ربِّه تعالى أن يُقبل على غيرِه أو يلتفت عنه . وبين صلاتيهما ؛ كما قال حسَّان ابن عطية : « إن الرجلَيْن ليكونان في الصلاة الواحدة ، وإن ما بينهما في الفضْل كما بين السماء والأرض » . وذلك أن أحدَهُما مقبلٌ بقلبه على الله - عز وجل - والآخر ساهٍ غافل .

فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله وبينه وبينه حجاب ؛ لم يكن إقبالًا ولا تقريبًا ، فما الظنُّ بالخالقِ عز وجل ؟! وإذا أقبل على الخالق - عز وجل - وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس ، والنفس مشغوفة بها ، ملأى منها - فكيف يكون ذلك إقبالًا وقد ألهتْه الوساوس والأفكار، وذهبتْ به كلَّ مذهب ؟!

فإن الصلاة إنما تكفِّر سَيئات مَن أدَّى حقَّها ، وأكمل خشوعها ، ووقَفَ بين يدي الله تعالى بقلبه وقالَبه . فهذا ، إذا انصرف منها ؛ وجد خِفَّة من نفسه ، وأحسَّ بأثقال قد وُضعت عنه ، فوجد نشاطًا وراحة ورَوْحًا ، حتى يتمنَّى أنه لم يكن خرج منها ؛ لأنها قرَّة عينيه ، ونعيم روحه ، وجنَّة قلبه ، ومستراحه في الدنيا ، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها ، فيستريح بها لا منها . فالمحبون يقولون : نصلِّي فنستريح بصلاتنا . كما قال إمامهم وقدوتُهم ونبيهم ﷺ : « يا بلال ، أرحْنا بالصلاة » ، ولم يقل : أرحنا منها . وقال ﷺ : « جُعلت قرّة عيني في الصلاة » . فمن جُعلت قرَّة عينه في الصلاة ؛ كيف تقرُّ عينه ﷺ بدونها ؟! وكيف يُطيق الصبر عنها ؟!

فصلاة هذا الحاضر بقلبه ، الذي قرَّة عينه في الصلاة ، هي التي تصعد

ولها نور وبرهان ، حتى يستقبل بها الرحمن عز وجل ...

والصلاة المقبولة أن يصلِّي العبد وقلبه متعلِّق بالله عز وجل، ذاكرًا لله عز وجل على الدوام . فأعمال هذا العبد تُعرَض على الله عز وجل حتى تقف قبالتَهُ ، فينظر الله عز وجل إليها ، فإذا نظر إليها ، رآها خالصةً لوجهه مرضيَّة ، وقد صدرت عن قلب سليم مخلص محبٍّ لله عز وجل متقرِّب إليه - أحبَّها ورضيها وقبلها .

وإثابته : رضا الله العمل لنفسه ، ورضاه عن معاملة عامِلِه ، وتقريبه منه ، وإعلاء درجته ومنزلته ؛ فهذا يُعطيه بغير حساب .

والناس في الصلاة على مراتبَ خمسة :

أحدها : مرتبة الظالم لنفسه ، المفرِّط ؛ وهو الذي انتقص من وضوئها ، ومواقيتها ، وحدودها وأركانها .

الثاني : مَن يحافظ على مواقيتها وحدودها ، وأركانها الظاهرة ووضوئها ، لكن قد ضيَّع مجاهدة نفسه في الوسوسة ، فذهب مع الوساوس والأفكار .

الثالث : مَن حافظ على حدودها وأركانها ، وجاهَد نفسه في دفع الوساوس والأفكار ، فهو مشغول بمجاهدة عدوِّه ؛ لئلَّا يسرق صلاته ؛ فهو في صلاة وجهاد .

الرابع : مَن إذا قام إلى الصلاة أكْمَل حقوقها ، وأركانها ، وحدودها ، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها ، لئلَّا يضيِّع شيئًا منها ، بل هَمُّه كلُّه مصروف إلى إقامتها كما ينبغي ، وإكمالها وإتمامها . قد استغرقَ قلبَهُ شأنُ الصلاة وعبوديةُ ربِّه - تبارك وتعالى - فيها .

الخامس : مَن إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ، ولكن مع هذا قد أخذ قلبَه ووضَعه بين يدي ربِّه عز وجل ، ناظرًا بقلبه إليه، مراقبًا له، ممتلئًا مِن محبَّته وعظمته ، كأنه يراه ويشاهده ، وقد اضمحلَّت تلك الوساوس

والخطرات ، وارتفعت حُجُبُها بينه وبين ربه . فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضلُ وأعظم ممَّا بين السماء والأرض . وهذا في صلاته مشغولٌ بربِّه عز وجل ، قرير العيْن به .

فالقسم الأول مُعاقَب ، والثاني محاسَب ، والثالث مكفَّرٌ عنه ، والرابع مثاب ، والخامس مقرَّب من ربه ؛ لأنَّ له نصيبًا ممن جُعلت قرَّة عينه في الصلاة . فمن قرَّت عينه بصلاته في الدنيا ، قرَّت عينه بقرْبه من ربه - عز وجل - في الآخرة ، وقرَّت عينه أيضًا به في الدنيا ، ومَن قرَّت عيْنه بالله ؛ قرَّت به كلُّ عيْن ومَن لم تقرَّ عينه بالله تعالى ، تقطَّعت نفسه على الدنيا حسرات »[١] .

٣ - الركوع :

ومن الهيئات التي يظهر فيها الخشوع : الركوع .

قال ابن رجب : « ومن ذلك : الركوع ؛ وهو ذلٌّ بظاهر الجسد . ولهذا كانت العرب تأنف منه ولا تفعله ؛ حين بايَع بعضُهم النبي ﷺ أن لا يَخِرّ إلَّا قائمًا[٢] ؛ يعني يسجد من غير ركوع ، كذلك فسَّره الإمام أحمد رحمه الله تعالى والمحقِّقون من العلماء .

وتمام الخضوع في الركوع : أن يخضع القلب لله ويذلَّ له ، فيتمّ بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله عز وجل ، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: «خشع لك سمعي وبصري ومخِّي وعظمي، وما استقلَّت به قدمي»[٣] . إشارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه، ومن أعظمها القلب

---

(١) الوابل الصيب لابن قيم الجوزية ص٢٥ - ٢٩ . بتصرُّف .

(٢) وهو حكيم بن حزام ؛ أخرجه النسائي عنه بسندٍ حسن ، والطبراني في الكبير ، والطحاوي في مشكل الآثار .

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم .

الذي هو مَلِك الجوارح ، والأعضاء كلها تبَع له ولخشوعه »[(١)] .

٤ - السُّجُود :

« ومن ذلك : السجود ؛ وهو أعظم ما يظهر فيه ذلُّ العبد لربه عز وجل؛ حيث جعل العبد أشرف أعضائه وأعزَّها عليه وأعلاها عليه حقيقةً - أوضعَ ما يُمكنه ، فيضعه في التراب مُتعفِّرًا ، ويتْبع ذلك انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله عز وجل »[(٢)] .

٥ - وصْفُ اللهِ بصفات الكمال ونُعوت الجلال :

« ومِن تمام خشوع العبد لله عز وجلَّ وتواضعه له في ركوعه وسجوده : أنه إذا ذلّ لربه بالركوع والسجود وصَفَ ربَّه حينئذٍ بصفات العِزِّ والكبرياء والعظمة والعلوّ ، فكأنه يقول : الذلُّ والتواضع وصْفي ، والعلوُّ والعظمة والكِبْرياء وصفُك »[(٣)] .

قال الحسن رحمه الله : « إذا قمتَ إلى الصلاة قانتًا ؛ فقمْ كما أمَرك الله ، وإيَّاك والسهوَ والالتفاتَ . إيَّاك أن ينظر الله إليك وتنظر إلى غيره ، وتسأل الله الجنة وتعوذ به من النار ، وقلبُك ساهٍ لا تدري ما تقولُ بلسانك »[(٤)] .

عالي الهمَّة الخاشِع في صلاته يذكر الموت فيها :

قال رسول الله ﷺ : « اذكرِ الموت في صلاتك ؛ فإن الرَّجل إذا ذكر الموت في صلاته ، لَحريٌّ أن يُحسن صلاته . وصلِّ صلاة رجل لا يظن أنه يصلي صلاة غيرها ، وإياك وكلَّ أمر يُعْتَذر منه »[(٥)].

---

(١)، (٢)، (٣) الخشوع في الصلاة ص٢٦ - ٢٨ .

(٤) الخشوع في الصلاة ص٢٩ .

(٥) إسناده حسن : أخرجه الديلمي في مسند الفردوس . عن أنس مرفوعًا .

وقال ﷺ : « إذا قمتَ في صلاتك ، فصلِّ صلاة مودِّعٍ ، ولا تتكلَّمْ بكلام تعتذر منه ، وأجْمِعِ اليأسَ عمَّا في أيدي الناس »[(١)].

سادات الخاشعين في صلواتهم :

مرّ بك من قبل في « علو الهمة في الصلاة » : صلاةُ سادات الخاشعين ، ومنهم : عبد الله بن الزبير ، وعامر بن عبد قيس ، وزاذان ، وعلي زيْن العابدين ، ومسلم بن يسار ، وإبراهيم التيمي ، وعاصم بن أبي النجود ، والأوزاعي ، ووكيع بن الجراح ، ويزيد بن هارون ، ويعقوب الحضرمي ، والبخاري ، ومحمد بن نصر المروزي . وغيرهم .

« كان خلف بن أيُّوب لا يطردِ الذباب عن وجهه في الصلاة ، فقيل له : كيف تصبر ؟ قال : بلغني أن الفُسَّاق يتصبَّرون تحتَ السِّياط ليُقال : فلان صبور ؛ وأنا بين يدَي ربي ، أفلا أصبر على ذباب يقع عليّ ؟! »[(٢)].

فيا مصيبتاه على ترْك الخشوع :

« قال حاتم الأصمُّ : فاتتني صلاة الجماعة ، فعزّاني أبو إسحاق البخاري وحده ، ولو مات لي ولد لعزّاني أكثر مِنْ عشرة آلاف ؛ لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا »[(٣)] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، وأحمد ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » عن أبي أيوب .
وللحديث شواهد تدل بمجموعها على ثبوته : حديث عبد الله بن عمر عند الضياء ، وحديث سعد بن أبي وقّاص عند الحاكم ، وحديث أنس السابق في « مسند الفردوس » .

(٢) المستطرف ١/٧ .

(٣) المستطرف ١/٨ .

الخشوع عند سَمَاع القرآن والعِلْم :

العلـم النافع هو ما باشر القلوب ، فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله والتواضع والانكسار، وإذا لم يباشر القلبَ ذلك العِلْمُ وإنما كان على اللسان، فهو حجَّة لله على ابن آدم تقوم على صاحبه وغيره ؛ كما قال ابن مسعود – رضي الله عنه –: أن أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم .

ولكن إذا وقع في القلب يرسخ فيه نفع صاحبه . وقال الحسن رحمه الله تعالى : العلم علمان : علم باللسان وعلم بالقلب ؛ فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجَّة الله على ابن آدم .

قال تعالى : ﴿ **إنما يخشَى اللهَ من عباده العلماءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ **أمَّن هو قانتٌ آناءَ الليل ساجدًا وقائمًا يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة ربِّه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكَّر أولو الألباب** ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ **فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلالٍ مبين اللهُ نزَّل أحسن الحديثِ كتابًا متشابهًا مثاني تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربَّهم ثم تلينُ جلودهم وقلوبهم إلى ذكْر الله** ... ﴾ الآية [الزمر : ٢٢ – ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لَرأيتَه خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله** ... ﴾ الآية [الحشر : ٢١] .

قال أبو عمران الجَوْني : والله ، لقد صرف إلينا ربُّنا في هذا القرآن ما لو صرفه إلى الجبال لمحاها ودحاها .

وكان مالك بن دينار رحمه الله يقرأ هذه الآية ثم يقول : أُقسم لكم ، لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صُدِّع قلبه .

وقال الحسن : يا ابن آدم ، إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة ، أو حدَّثْتَ

بها نفسك ؛ فاذكر عند ذلك ما حمّلك الله من كتابه ، ممَّا لو حملتْه الجبالُ الرواسي لخَشَعتْ وتصدَّعْت ، أما سمعتَه يقول : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن** ... ﴾ الآية [الحشر : ٢١] .

الخشُوع في الدعاء :

« من أنواع العبادات التي يظهر فيها الذلُّ والخضوع لله عز وجل : الدعاءُ ؛ قال تعالى : ﴿ **ادعوا ربكم تضرُّعًا وخُفية** ﴾ [الأعراف : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ **إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعوننا رغَبًا ورهَبًا وكانوا لنا خاشعين** ﴾ [الأنبياء : ٩٠] .

فمما يظهر فيه من الذلِّ : رفْعُ اليدين . وقد صحَّ عن النبي ﷺ رفعُ يديْه في الدعاء في مواطن كثيرة ، وأعظمها في الاستسقاء ؛ فإنه كان يرفع يديه حتى يُرى بَياضُ إبطيه .

وقد كان بعضُ الخائفين يجلس بالليل ساكنًا مُطرِقًا برأسه ، ويمدُّ يديْه كحال السائل ، وهذا من أبلغ صفات الذلِّ ، وإظهار المسكنة والافتقار .

ومنه : افتقار القلب في الدعاء وانكساره لله عز وجل ، واستشعاره شدَّة الفاقة إليه والحاجة لديه ، وعلى قدْر الحُرْقة والفاقة تكون إجابة الدعاء .

ومن ذلك : إظهار الذلّ باللسان في نفْس السؤال والدعاء ، والإلحاح فيه ؛ قال الأوزاعي رحمه الله تعالى : كان يُقال : أفضل الدعاء : الإلحاح على الله والتضرُّع إليه .

وقال طاووس رحمه الله تعالى : دخل علي بن الحسين رحمه الله تعالى ذاتَ ليلة الحُجرة فصلّى ، فسمعتُه يقول في سجوده : عبدُك بفنائك ، فقيرك بفنائك ، مسكينك بفنائك . قال طاووس : فحفظتُهنَّ ، فما دعوتُ بهنَّ في كرْب إلا فُرِّج عني .

وقال ابن باكَوَيْه رحمه الله تعالى : إن بعضَ العُبَّاد حجَّ ثمانين حَجَّة على

قدميْه ، فبينما هو في الطواف وهو يقول : يا حبيبي ؛ وإذا بهاتف يهتف : أليس ترضى أن تكون مسكينًا حتى تكون حبيبًا ؟ قال : فغُشي عليّ ، ثم كنتُ بعد ذلك أقول : مسكينُك ؛ وأنا تائب عن قولي : حبيبي .

فالدعاء تضرُّع وتذلُّل وخشوع وتمسكُن وانكسار .

ولله ما أحلى قوْل القائل : اسألك بعزِّك وذلِّي إلا رحمتَني . أسألك بقوَّتك وضعْفي ، وبغناك عني وفقْري إليك . هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك . عبيدك سواي كثير ، وليس لي سيِّد سواك . لا ملجأ ولا منجا منك إلّا إليك . أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضعِ الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعتْ لك رقبتُه ، ورَغِم لك أنفُه ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ لك قلبه .

يا من ألوذ به فيما أؤمِّلهُ ... ومَن أعوذ به ممَّا أحاذرهُ
لا يجبر الناسُ عظمًا أنتَ كاسِرُهُ ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره »[1]

هكذا يكون دعاءُ الخاشِع ، وإلَّا فكما قال سيد البشر ﷺ : « ادعوا الله وأنتم مُوقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله لا يستجيب دعاءً مِن قلبٍ غافل لاهٍ »[2] .

عالي الهِمَّة مَنِ استوفى دَرَجاتِ الخشوع :

وعالي الهمَّة مَن كملتْ فيه درَجات الخشوع واستوفاها ؛ وهي :

١ - وَجَلُ القلب :

إنها الارتعاشة التي تنتاب القلب الخاشع الموصول بالله ، فتغشاه جلالته ،

(١) مدارج السالكين ١/١٨٧ .

(٢) حسن بشواهده : رواه الترمذي ، والحاكم عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٤٥ ، والصحيحة رقم ٥٦٤ .

وتتمثَّل عظمة الله ومهابته إلى جانب تقصيره وذنبه . قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وَجِلت قلوبهم** ﴾ [الأنفال : ٢] . وقال تعالى : ﴿ **وبشِّر المخبتين الذين إذا ذكر الله وَجِلت قلوبهم** ﴾ [الحج : ٣٤ - ٣٥] .

٢ - قشعريرة الجلْد :

ثم تسري هذه الشحنة الإيمانية في الجسَد المؤمن ، فيقشعرُّ جلده ؛ قال تعالى : ﴿ **الله نُزَّل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

٣ - البكاء :

ثم تفيض أعينهم بالدمع ؛ قال تعالى : ﴿ **وإذا سمِعُوا ما أُنزِل إلى الرسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ... ﴾ الآية [المائدة : ٨٣] . وقال عز وجل : ﴿ **ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٩] .

٤ - لِينُ القلب والجلْد جميعًا :

ويتزوَّد الخاشع ببرد اليقين ، ويُحس بثلج الإيمان ؛ قال تعالى : ﴿ **اللهُ نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلينُ جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدىٰ الله يهدي به مَن يشاء ومَن يضلل الله فما له من هادٍ** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

٥ - السَّكِينة :

وهي الوقار والسكون الذي يُنزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدَّة المخاوف ، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ، ويُوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات . والسكينة إذا نزلت على القلب ؛ سكن بها وخشعت

إليها الجوارح ، واكتسبتِ الوقار ، ولذلك فهي تجمع قوة وروحًا ، يسكن إليه الخائف ، ويتسلّى به الحزين والضَّجِر ، فإذا باشرتْ قلبه ؛ سكّنتْ خوفه ، وسلّتْ حزنه ؛ فإنها لا حزن معها ، فهي سلوة المحزون ، ومُذهِبَةُ الهموم والغموم ، وكذلك أذهبتْ وَخْمَ ضجرِه ، وبعثت نشوة العزم .

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب .

كيوم الهجرة ؛ إذ هو وصاحبه في الغار ، والعدوُّ فوق رؤوسهم ، لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميْه ، رآهما ؛ قال تعالى : ﴿ **إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيَّده بجنودٍ لم تروها** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وكيوم الحديبية ؛ حين اضطربت قلوبهم من تحكُّم الكفَّار عليهم ، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس . وحسبك بضعْف عمر رضي الله عنه عن حملها – وهو عمر – حتى ثبَّته الله بالصدِّيق رضي الله عنه . قال تعالى : ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا** ﴾ [الفتح : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميَّة حميَّة الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ [الفتح : ٢٦] .

وكيوم حُنَيْن ؛ حين ولَّوا مدبرين من شدَّة بأس الكفار ، لا يلوي أحدٌ منهم على أحد ، قال تعالى : ﴿ **لقد نصركم الله في مواطنَ كثيرة ويوم حُنينٍ إذ أعجبتْكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحُبَتْ ثم ولَّيتم مُدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودًا لم تروها وعذَّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين** ﴾ [التوبة : ٢٥ – ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ **هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا**

إيمانًا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا ﴾ [الفتح : ٤] .

قال ابن عباس : كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة ، إلّا التي في سورة البقرة .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : رأيتُ النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق ، حتى وارىٰ الترابُ جلدةَ بطْنِه ، وهو يرتجز بكلمة عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه :

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلَّيْنا
فأنزلَنْ سكينةً علينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقيْنا
إنَّ الأُلىٰ قدْ بغوْا علينا ... وإن أرادوا فتنةً أبيْنا[1]

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة : « إني باعثٌ نبيًّا أُمّيًّا ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ، ولا صخَّاب في الأسواق ، ولا متزيِّن بالفحْش ، ولا قوّال للخنا . أُسدِّده لكل جميل ، وأهبُ له كلَّ خلُقٍ كريم ، ثم أجعل السكينة لباسَه ، والبرَّ شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة معقوله ، والصدقَ والوفاء طبيعته ، والعفوَ والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحقَّ شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملَّته ، و « أحمدَ » : اسمَه »[2] .

قال الهروي عن هذه السكينة : « هي التي نزلت على قلبِ النبي ﷺ وقلوب المؤمنين ، وهي شيءٌ يجمع قوَّةً ورُوحًا ، يسكن إليه الخائف ، ويتسلَّى به الحزين والضَّجِر ، ويسكن إليه العَصِيُّ والجريء والأبيُّ »[3] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) مدارج السالكين ٢/٥٠٤ .
(٣) مدارج السالكين ٢/٥٠٧ .

قال ابن القيم شارحًا : « هذا من عيون كلامه وغرره الذي تُثنَىٰ عليه الخناصر ، وتُعقد عليه القلوب ، وتظفر به عن ذوقٍ تامٍّ .

فذكر أن هذا الشيء الذي أنزله الله في قلب رسوله ﷺ وقلوب عباده المؤمنين ، يشتمل على ثلاثة معانٍ : النور ، والقوة ، والروح .

وذكر له ثلاث ثمرات : سكون الخائف إليه ، وتسلّي الحزين والضَّجِر به ، واستكانة صاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليه .

فبالروح الذي فيها : حياة القلب . وبالنور الذي فيها : استنارته وضياؤه وإشراقه . وبالقوة : ثباته وعزمه ونشاطه .

فالنور : يكشف له عن دلائل الإيمان وحقائق اليقين ، ويميز له بين الحقِّ والباطل ، والهدى والضلال ، والغيِّ والرشد ، والشك واليقين .

والحياة : تُوجب كمال يقظته وفِطنته ، وحضوره وانتباهه من سِنَة الغفلة ، وتأهُّبه للقائه .

والقوة : توجب له الصدق ، وصحَّة المعرفة ، وقهْر داعي الغيّ والعنَت ، وضبْط النفس عن جَزَعها وهلعها، واسترسالها في النقائص والعيوب. ولذلك ازداد بالسكينة إيمانًا مع إيمانه .

والإيمان : يُثمر له النور والحياة والقوة . وهذه الثلاثة تثمره أيضًا وتُوجب زيادته ، فهو محفوف بها قبلها وبعدها .

فبالنور : يكشف دلائل الإيمان . وبالحياة : ينتبه من سِنَة الغفلة ، ويصير يقظانًا . وبالقوة : يقهر الهوىٰ والنفس والشيطان » .

وتلكَ مواهبُ الرحمٰن ليستْ تُحصَّلُ باجتهادٍ أو بكسْبِ
ولكنْ لا غِنَىٰ عنْ بذْلِ جهدٍ بإخلاصٍ وجدّ لا بلعبِ
وفضْلُ اللهِ مبذولٌ ولكنْ بحكمتِهِ وعن ذا النصُّ يُنْبي

فما من حكمةِ الرحمٰن وضْعُ الْـ كواكبِ بينِ أحجارٍ وتُـرْبِ
فشكرًا للـذي أعطـاك منهُ فلو قَبِـلَ المَحَلُّ لَزَاد ربـي

سَكِينة الوقارِ والخُشوع :

أَنْزَلَها الله في قلـوب أهلها ونعتَهمْ بها . وهي ضياء تلك السكينة التي ذكرناها وثمرتُها،وعنها نشأت . ولما كان النور والحياة والقوة مما يُثمر الوقار ، كانت سكينة الوقار كالضياء لتلك السكينة ؛ إذ هو علامة حصولها ، ودليل عليها كدلالة الضياء على حامله .

قال الهروي عن سكينة الوقار : « وهي على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : سكينة الخشوع عند القيام للخدمة ؛ رعايةً وتعظيمًا وحضورًا » .

قال الإمام ابن قيـم الجـوزية : « يريد به الوقار والخشوع الذي يحصل لصاحب مقام الإحسان .

ولمّا كان الإيمان موجِبًا للخشوع وداعيًا إليه قال الله تعالى : ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكْر الله وما نزل من الحقِّ** ﴾ [الحديد : ١٦] ، دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان ؛ يعني : أمَا آنَ لهم أن يصلُوا إلى الإحسان بالإيمان ؟! وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكْره الذي أنزله إليهم .

وهذه ثلاثة أمور تحقِّق الخشوع في الخدمة ؛ وهي :

الأول : رعاية حقوقها الظاهرة والباطنة ؛ فليس يضيِّعها خشوع ولا وقار .

الثاني : تعظيم الخدمة وإجلالها ؛ وذلك تَبَعٌ لتعظيم المعبود وإجلاله ووقاره ؛ فعلى قدْر تعْظيمه في قلب العبد وإجلاله ووقاره ، يكون تعظيمه لخدمته وإجلاله ورعايته لها .

والثالث : الحضور : وهو إحضار القلب فيها ومشاهدة المعبود كأنه يراه .

فهذه الثلاثة تُثمر له « سكينة الوقار » . والله سبحانه أعلم »[(١)] .

٦ - الإخبات :

وقد أفردنا له فصلًا سابقًا .

٧ - الطمأنينة :

« وهي نهاية الإخبات ، ولذلك فهي سكونُ القلب والنفْس مع قوَّة الأمن الصحيح الذي لا يكون أمنَ غرور ؛ لأن الغرور قد ينزل القلب والنفْس ، ولكن هيهات أن تطمئنَّ به النفس أو يطمئنَّ به القلب ؛ لأنه سرعانَ ما يتركه ، ولكن الطمأنينة لا تفارق صاحبها ؛ لأنه في مقام الرجوع إلى الله ، حيث لا يبقى معه شيء من مخاوف الظنون والأوهام ، وكأنه ينظر إليه نظر العيْن ، فيأمن به اضطرابَ قلبه وقلق نفسه ؛ قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكْر الله ألَا بذكر الله تطمئنُّ القلوب** ﴾ [الرعد : ٢٨] . وقال جلَّ شأنه : ﴿ **يا أيَّتها النفسُ المطمئنَّة ارجعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً فادخلي في عبادي وادخلي جنَّتي** ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

وفي هذا دليل أن الطمأنينة طريق الرجوع إلى الله ؛ فإن النفس لا ترجع إلى ربِّها ، إلّا إذا كانت مطمئنة ، فهناك ترجع إليه ، وتدخل في عباده الآمِنِين الذين لا خوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون . وهكذا يتبيّن لك أيُّها العبد الخاشع الراجع إلى ربِّه ؛ أن الخشوع سبعُ درجات طباقًا ، مَنِ ارتقى فيها بسُلَّم الإخلاص ، وتوكَّأ على عصا الاتِّباع - ورَدَ مَعِينَ الفلاح »[(٢)] .

درجات الخشوع عند الهروي :

قال شيخ الإسلام الهروي : « وهو على ثلاث درجات :

---

(١) مدارج السالكين ٢/٥٠٩ - ٥١٠ بتصرف .

(٢) الخشوع لسليم الهلالي ص٦١ - دار ابن الجوزي .

الدرجة الأولى : التذلُّل للأمْر ،والاسْتسْلام للحكْم، والاتِّضاعُ لنظَرِ الحقِّ»:

قال شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية : « **التذلُّل للأمر** : تلقِّيه بذِلّةِ القبول ، والانقياد والامتثال ، ومواطأة الظاهر الباطن ؛ معَ إظهارِ الضعْف ، والافتقار إلىٰ الهداية للأمر قبل الفعْل ، والإعانة عليه حالَ الفعْل ، وقبوله بعد الفعْل .

وأمّا الاستسلام للحكم : فيجوز أن يريد به : الحكم الديني الشرعي ؛ فيكون معناه : عدم معارضته برأي أو شهوةٍ . ويجوز أن يريد به : الاستسلام للحكم القدري ، وهو عدم تلقِّيه بالتسخُّط والكراهة والاعتراض .

والحق : أن « الخشوع » هو الاستسلام للحكمين ، وهو الانقياد بالمسكنة والذلّ لأمْر الله وقضائه .

وأمَّا الاتضاع لنظَر الحقِّ : فهو اتضاع القلب والجوارح ، وانكسارها لنظر الربِّ إليها ، واطِّلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح .

وهذا أحد التأويلَيْن في قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربِّه جنّتان** ﴾ [الرحمن : ٤٦] ، وقوله : ﴿ **وأمَّا مَن خاف مقامَ ربِّه ونهى النفْسَ عن الهوىٰ** ﴾ [النازعات : ٤٠] . وهو مقام الربِّ على عبيده بالاطلاع والقُدْرة والربوبية .

فخوفه من هذا المقام يُوجب له خشوع القلب لا محالة ، وكلَّما كان أشدَّ استحضارًا له ، كان أشدَّ خشوعًا . وإنما يفارق القلب إذا غفل عن اطِّلاع الله عليه ، ونظره إليه .

والتأويل الثاني : أنه مقام العبد بين يدي ربِّه عند لقائه .

فعلى الأول : يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل .

وعلى الثاني – وهو أليق بالآية –: يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف . والله أعلم »[1].

---

(١) مدارج السالكين ١/٥٢٢ – ٥٢٣ .

« الدرجة الثانية : ترقُّبُ آفات النفْس والعمَل ، ورُؤية فضْلِ كلِّ ذي فضْلٍ عليك » :

قال ابن القيم : « يريد : انتظار ظهور نقائص نفسك وعمَلِك وعيوبهما لك ؛ فإنه يجعل القلب خاشعًا لا محالة لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما ؛ من الكِبْر والعجب ، والرياء وضعْف الصدق ، وقلَّة اليقين وتشتُّت النيّة ، وعدم تجرُّد الباعث من الهوىٰ النفْساني ، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي ترضاه لربِّك ، وغير ذلك من عُيوب النفْس ومفسدات الأعمال .

وأما رؤية فضْل كلِّ ذي فضْل عليك : فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤدِّيها ، ولا ترىٰ أنَّ ما فعلوه : من حقوقك عليهم : فلا تعاوضهم عليها ؛ فإن هذا من رُعونات النفْس وحماقاتها. ولا تطالبهم بحقوق نفسك . وتعترف بفضل ذي الفضل منهم ، وتنسىٰ فضل نفسك .

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية – قدّس اللهُ روحه – يقول : العارفُ لا يرى له على أحدٍ حقًّا ، ولا يشهد له على غيره فضلًا ؛ ولذلك لا يعاتِب ، ولا يطالِب ، ولا يضارِب .

والخشوع سببٌ موصِّل إلى الفناء الحقِّ ، الفاضل لا المفضول » .

« الدرجة الثالثة : حفْظُ الحرمة عند المكاشَفة ، وتصفية الوقت من مراءاة الخلْقِ ، وتجريد رؤية الفضْل » :

قال ابن القيم : « **وأما حفْظ الحرْمة عند المكاشفة** : فهو ضبْط النفْس بالذلِّ والانكسار ، عن البسْطِ والإدلال ، الذي تقتضيه المكاشفة ؛ فإن المكاشفة تُوجب بسطًا ، ويخاف منه شطْح ، إن لم يصحبه خشوع يحفظ الحرمة .

وأمَّا تصفية الوقت من مراءاة الخلق : فلا يريد به أنه يصفِّي وقته عن

الرياء ؛ فإن أصحاب هذه الدرجة أجلُّ قدْرًا وأعلىٰ من ذلك .

وإنما المراد : أنه يُخفي أحوالَه عن الخلْق جُهْدَه ؛ كخشوعه وذلِّه وانكساره ؛ لئلّا يراها الناس فيُعْجبهُ اطّلاعُهم عليها ورؤيتهم لها ، فيفسَدُ عليه وقته وقلبه وحاله مع الله ، وكم قد اقتطع في هذه المفازة مِن سالِك ! والمعصوم من عصمه الله . فلا شيء أنفع للصادق من التحقُّق بالمسْكَنَة والفاقة والذل ، وأنه لا شيء ، وأنه ممن لم يصحَّ له بعْدُ الإسلامُ حتى يدعي الشرَفَ فيه .

ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه - من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره ، وكان يقول كثيرًا : ما لي شيء ، ولا مني شيء ، ولا فيَّ شيء . وكان كثيرًا ما يتمثَّل بهذا البيت :

أنا المكَدِّي وابن المكدّي ... وهكذا كان أبي وجدِّي

وكان إذا أُثنيَ عليه في وجهه يقول : والله ، إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كلَّ وقت ، وما أسلمتُ بعدُ إسلامًا جيِّدًا .

وبعث إليّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطِّه ، وعلى ظهرها أبياتٌ بخطِّه مِن نظْمه :

أنا الفقيرُ إلى ربِّ السماواتِ ... أنا المُسَيْكِينُ في مجموع حالاتي
أنا الظَّلومُ لنفسي وهْي ظالمتي ... والخير إنْ يأتِنا مِن عنده ياتي
لا أستطيعُ لنفسي جلْبَ منفعةٍ ... ولا عنِ النفسِ لي دفْعُ المضرَّاتِ
وليسَ لي دونَه مولى يدبِّرني ... ولا شفيعٌ إذا حاطتْ خطيئاتي
إلّا بإذنٍ مِنَ الرحمٰنِ خالقِنا ... إلى الشفيعِ كما قد جاء في الآياتِ
ولستُ أملِكُ شيئًا دُونه أبدًا ... ولا شريكٌ أنا في بعضِ ذرَّاتِ
ولا ظهيرَ له كي يستعينَ بهِ ... كما يكونُ لأربابِ الولاياتِ
والفقرُ لي وصْفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغِنىٰ أبدًا وصْفٌ له ذاتي

وهذه الحالُ حالُ الخلْقِ أجمعِهِمْ ... وكلّهم عنده عبدٌ له آتي
فَمَنْ بغَى مَطلبًا من غيرِ خالقِهِ ... فهُوَ الجهولُ الظلومُ المشرِكُ العاتي
والحمدُ للهِ مِلْءَ الكونِ أجمعِهِ ... ما كان منهُ وما منْ بعدُ قد ياتي

وأما تجريد رؤية الفضل : فهو أن لا يرىٰ الفضل والإحسان إلا من الله ، فهو المانُّ به بلا سبب منك ؛ ولا شفيع له تقدم إليه بالشفاعة ، ولا وسيلة سبقت منك توسَّلتَ بها إلى إحسانه .

والتجريد : هو تخليصُ شهود الفضْل لوليِّه ، حتى لا ينسبه إلى غيره ، وإلّا فهو في نفسه مجَرَّدٌ عن النسبة إلى سواه . وإنما الشأن في تجريده في الشهود ليطابق الشهود الحق في نفس الأمر . والله أعلم »(١) .

تفاوُتُ الخشوع في القلوب ، ولعالي الهِمَّة أعلاه :

«متى تكلَّف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه ، مع فراغ قلْبه من الخشوع وخُلوِّه منه- كان ذلك خشوع نفاق ، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه .

قال أبو الدرداء : استعيذوا بالله من خشوع النفاق . قالوا : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسَدَ خاشعًا والقلب ليسَ بخاشع .

ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعتْ له ، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع ؛ فمِنْ خاشعٍ لقوَّة مطالعته لقرْب الله مِن عبده ، واطِّلاعه على سرِّه وضميره ، المقتضي للاستحياء من الله ومراقبته في الحركات والسَّكَنات . ومِن خاشعٍ لمطالعته لكماله وجماله المُقتضي للاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته . ومِن خاشع لمطالعته شدَّةَ بطشِهِ وانتقامه وعقابه ، المقتضي للخوف منه . وهو سبحانه

(١) مدارج السالكين ١/٥٢٤ - ٥٢٥ .

جابر المنكسرةِ قلوبُهم من أجْلِه ، وهو سبحانه وتعالى يتقرَّب ممن يُناجيه في الصلاة ويعفِّر وجهه في التراب بالسجود ، كما يتقرب مِن عباده الداعين له ، السائلين له ، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار ، ويُجيب دعاءهم ، ويعطيم سؤالهم ، ولا جبرَ لانكسار العبد أعظم من القرْب والإجابة »[1] .

وَصْفُ الحسَنِ البصري للخاشعين :

قال الحسن البصري : « إن المؤمنين لمَّا جاءتهم هذه الدعوة من الله ؛ صدّقوا بها وأفضى يقينُها إلى قلوبهم ، وخشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم . وكنتُ والله إذا رأيتُهم ، رأيتُ قومًا كأنهم رأيَ عيْنٍ ، فوالله ما كانوا بأهل جدَلٍ ولا باطل ، ولا اطمأنوا إلا إلى كتاب الله ، ولا أظهروا ما ليس في قلوبهم ، ولكن جاءهم عن الله أمرٌ فصدّقوا به ، فنعتهم الله تعالى في القرآن أحسنَ نعْتٍ ، فقال : ﴿ **وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٣] . قال : حلماء لا يجهلون ، وإذا جُهل عليهم حَلموا . يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكَر ليلَهم ، خير ليل ؛ فقال : ﴿ **والذين يَبيتون لربِّهم سجّدًا وقيامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٤] ، تجري دموعهم على خدودهم فرَقًا من ربِّهم .

وقال رحمه الله : لأمرٍ ما سهِروا ليلَهم ، لأمرٍ ما خشعوا نهارهم ؛ قال : ﴿ **والذين يقولون ربَّنا اصرفْ عنَّا عذابَ جهنَّم إنَّ عذابها كان غرامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٥] . قال : وكلّ شيء يُصيب ابن آدم ثم يزول عنه فليس بغرام ، إنما الغرام الملازم له ما دامت السماوات والأرض . قال : صدق القومُ – والله الذي لا إله إلا هو – فعَمِلوا ، وأنتم تتمنّون ؛ فإياكم وهذه الأماني – رحمكم الله – فإن الله لم يُعطِ عبدًا بأمنيته خيرًا قطُّ في الدنيا والآخرة . وكان يقول :

---

(١) الخشوع في الصلاة ص١٣ – ١٤ .

يا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة »(١) .

علوُّ خشوعِ النجاشيِّ وأصحابِه يقودُهم إلى الإحسان وأعالي الجِنان :

قال الله تعالى : ﴿ **لَتجدنَّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ولَتجدنَّ أقربهم مودَّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارىٰ ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسين ورُهبانًا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترىٰ أعينَهم تفيضُ مِن الدمعِ مما عرفوا من الحقِّ يقولون ربَّنا آمنا فاكتبْنا مع الشاهدين وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقِّ ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القومِ الصالحين فأثابهم اللهُ بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاءُ المحسنين** ﴾ [المائدة : ٨٢ - ٨٥] .

عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه : ﴿ **وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترىٰ أعينهم تفيضُ من الدمع ممَّا عرفوا من الحقِّ يقولون ربَّنا آمنَّا فاكتبْنا مع الشاهدين** ﴾ .

عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أنهم كانوا كرابين - يعني فلّاحين - قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن ، آمنوا وفاضت أعينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لعلّكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم » . فقالوا : لن ننتقل عن ديننا .

﴿ **فاكتبْنا مع الشاهدين** ﴾ . قال ابن عباس : أي معَ محمد ﷺ ، وأمته هم الشاهدون ؛ يشهدون لنبيِّهم أنه قد بلّغ ، وللرُّسل أنهم قد بلّغوا . قال الحاكم : صحيح الإسناد ، و لم يخرِّجاه .

قال ابن كثير : « وهذا الصنف من النصارىٰ هم المذكورون في قوله : ﴿ **وإنَّ من أهل الكتاب لمَن يُؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين**

---

(١) الخشوع في الصلاة ص٢٠ - ٢١ .

لله ... ﴾ الآية [آل عمران : ١٩٩] . وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يُؤمنون وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا إنَّا كنا من قبله مسلمين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لا نبتغي الجاهلين** ﴾ [القصص : ٥٢ – ٥٥] . ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ **فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهار** ﴾ ، فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحقِّ ﴿ **جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ ؛ أي ساكنين فيها أبدًا لا يحولون ولا يزولون ؛ ﴿ **وذلك جزاء المحسنين** ﴾ : أي في اتباعهم الحقَّ وانقيادهم له حيث كان ، وأين كان ، ومع مَن كان »[1] .

« قال الطبري : عن سعيد بن جُبير : ﴿**ذلك بأنَّ منهم قسِّيسين ورهبانًا**﴾؛ قال : بعَث النجاشي إلى النبي ﷺ خمسين – أو سبعين – من خيارهم ، فجعلوا يبكون ، فقال : هم هؤلاء .

قال سعيد بن جُبير : هم رسل النجاشي ، الذين أرسل بإسلامه وإسلامِ قومه ، كانوا سبعين رجلًا ، اختارهم الخيِّرَ فالخيِّرَ ، فدخلوا على رسول الله ﷺ فقرأ عليهم:﴿ **يس والقرآن الحكيم** ﴾ ، فبكوْا وعرفوا الحق ، فأنزل الله فيهم:﴿ **ذلك بأنَّ منهم قسِّيسين ورُهبانًا وأنهم لا يستكبرون** ﴾ . وأنزل فيهم ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يُؤْتون أجرَهم مرتيْن بما صبروا** ﴾ .

فهم لا يعدون من المؤمنين ؛ لتواضُعهم للحقِّ إذا عرفوه ، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبيَّنوه ؛ لأنهم أهل دينٍ واجتهاد فيه ، ونصيحة لأنفسهم في ذات الله .

عن عروة بن الزبير ، في قوله تعالى : ﴿ **ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾ . قال : ذلك في النجاشي .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/١٥٩ .

قال ابن إسحاق : سألتُ الزهريَّ عن الآيات ﴿ **ذلك بأن منهم قسِّيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمِعُوا ما أُنزل إلى الرسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع ...** ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾ ؛ قال : ما زلت أسمع علماءنا يقولون : نزلت في النجاشي وأصحابه .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ **وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقِّ ونطمع أن يُدخلنا ربُّنا مع القوم الصالحين** ﴾ : أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى رسول الله محمد ﷺ من كتابه ، آمَنوا به ، وصدقوا كتابَ الله ، وقالوا : ما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونحن نطمع بإيماننا بذلك أن يُدخلنا ربُّنا مع القومِ الصالحين ... نطمع أن يدخلنا ربُّنا مع أهل طاعته مداخلهم من جنته يوم القيامة ، ويُلحق منازلنا بمنازلهم ، ودرجاتِنا بدرجاتهم في جنَّاته . فجزاهم الله بقولهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، خالدين فيها ، دائمًا فيها مُكْثُهم ، لا يخرجون منها ولا يحولون عنها ، وذلك جزاء المحسنين ، جزاءُ كلِّ محسن في قيله وفعْله . وإحسان المُحسِن في ذلك : أن يوحِّد الله توحيدًا خالصًا محْضًا لا شرْك فيه ، ويقرّ بأنبياء الله ، وما جاءت به من عند الله من الكتب ، ويؤدِّي فرائضه ، ويجتنب معاصيه ، فذلك كَمَالُ إحسان المحسنين الذين قال الله تعالى : ﴿**جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها**﴾ [آل عمران: ١٥] » (١) .

أورد القرطبي في تفسيره : « وهذه الآية نزلتْ في النجاشي وأصحابه ... لمّا كانت وقعة بدر وقتل اللهُ فيها صناديدَ الكفَّار ، قال كفّار قريش : إن ثأركم بأرض الحبشة ، فأهدوا إلى النجاشي ، وابعثوا له برجلَيْن من ذوي رأيكم ؛ يُعطيكم مَن عنده ، فتقتلونهم بمَن قُتل منكم ببَدر . فبعث كفار قريش عمرو

(١) تفسير الطبري ٥ / ٤ -٧ .

ابن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بهدايا ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك ، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أميّة الضمري وكتب معه إلى النجاشي ، فقدم على النجاشي ، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين ، وأرسل إلى الرهبان والقسّيسين فجمعهم ، ثم أمَرَ جعفر أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ سورة مريم ، فقاموا تفيض أعينهم من الدمع ؛ فهم الذين أنزل الله فيهم : ﴿ **ولَتجِدنَّ أقربهم مودَّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارىٰ** ﴾ وقرأ إلى ﴿ **الشاهدين** ﴾ » .

كلماتٌ للحياة ، يدبِّجها يراعُ فقيدِ الإسلام سيد قطب ، طيّب اللهُ ثراه ، وأعلىٰ في الجنة مثواه :

قال رحمه الله : « هذا مشهدٌ حيٌّ يرتسم لهذه الفئة من الناس ، إنهم إذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول من هذا القرآن ؛ اهتزَّت مشاعرهم ، ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع ، تعبيرًا عن التأثُّر العميق العنيف بالحقِّ الذي سمعوه ، والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاءً من التعبير إلّا الدمع الغزير ؛ وهي حالة معروفة في النفْس البشرية ، حين يبلغ بها التأثُّر درجة أعلى من أن يفي بها القول ، فيفيض الدمع ، ليؤدِّي ما لا يؤديه القول ، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثُّر العميق العنيف .

ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ، ولا يقفون موقفًا سلبيًّا من الحقّ الذي تأثَّروا به هذا التأثُّر عند سماع القرآن ، والشعور بالحقِّ الذي يحمله ، والإحساس بما له من سلطان .. إنهم لا يقفون موقف المتأثِّر الذي تفيض عيناه بالدمع ، ثم ينتهي أمْره مع هذا الحق ، إنما هم يتقدَّمون ليتخذوا من هذا الحقّ موقفًا إيجابيًّا صريحًا .. موقف القبول لهذا الحق ، والإيمان به ، والإذعان لسلطانه ، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قويَّة عميقة صريحة .

إنهم أولًا يُعلنون لربِّهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه ، ثم يَدْعُونه –

سبحانه - أن يضمَّهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق ، وأن يسلكهم في سلْك الأمة القائمة عليه في الأرض - الأمة المسلمة - التي تشهد لهذا الدين بأنه الحقّ ، وتؤدِّي هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها ، لإقرار هذا الحق في حياة البشر .

ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوِّق عن الإيمان بالله ؛ أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به ، ولا يأملوا - بهذا الإيمان - أن يقبلهم ربهم ويرفع مقامهم عنده ، فيدخلهم مع القوم الصالحين .

فهو موقف صريح قاطِع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله من الحق .. موقف الاستماع والمعرفة .. ثم التأثُّر الغامر ، والإيمان الجاهز ، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة .

لقد علم الله صِدْق قلوبهم وألسنتهم ، وصِدْق عزيمتهم على المُضي في الطريق ، وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه ؛ ولهذا الصفِّ المسلم الذي اختاروه ، واعتبارهم أن أداء هذه الشهادة - بكل تكاليفها في النفس والمال - مِنَّةٌ يمُنُّ الله بها على من يشاء من عباده ، واعتبارهم كذلك أنه لم يعدْ لهم طريق يسلكونه إلا هذا الطريق الذي أعلنوا المضي فيه، ورجاءهم في ربِّهم أَنْ يُدخِلَهم مع القوم الصالحين .. لقد علم الله منهم هذا كله ، فقبل منهم قولهم ، وكتب لهم الجنة جزاءً لهم ، وشهِد لهم سبحانه بأنهم محسنون ، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين ، والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام والله جل جلاله قد شهد لهذا الفريق من الناس أنه من المحسنين »[1].

* * *

(١) الظلال ٢/٩٦٢ - ٩٦٣ .

الفصل الثاني والعشرون

عُلُوُّ الهِمَّةِ في الأَدَب

« نحنُ إلى قليلٍ مِنَ الأدبِ أَحوجُ مِنَّا إلى كثيرٍ مِنَ العِلْم » .

[ابن المبارك]

« كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث ، تأدَّب وتعبَّد قبل ذلك بعشرين سنة » .

[سفيان الثوري]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الأَدَب □

« اعلم – رحمَكَ الله – أنَّ الأدب إن تطمّعت[١] به نجع ، وإن تعطَّرت به سطع ، وإن تردَّيْت به نفَع » . وأن مَنِ اكتسب أدبًا اكتسب نسبًا ، وأن الأدب سبب لمُلْكِ الأرب ، ولقطات الأدب قرضات الذهب ، وأن حُلِيَّ الرجال ما يُحسِنونه ، وحُلِيّ النساء ما يلبسونه .

فيا لائمي دعني أُغالي بقيمتي   فقيمةُ كلِّ الناسِ ما يُحسنونهُ

فذكِّ عقلك بالأدب ، كما تذكِّي النار بالحطب . واعلمْ أن الأدب أقرب الطرق إلى الله ، فلله طرائق بعَدَدِ الأنفاس ، وأقرب الطُّرُق إلى الله : طريق الذلِّ والانكسار ، وهما من خصال الأدب .

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم نارًا ﴾ [التحريم: ٦] .

قال ابن عباس : أدِّبوهم وعلِّموهم .

وهذه اللفظة مُؤْذِنة بالاجتماع ؛ فالأدب : اجتماع خصال الخير في العبد فهو كما قال محمد بن علي القصَّاب . أخلاق كريمة ، ظهرت في زمان كريم ، مع قوم كرام ومنه : المأدُبة ، وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس ، ولا يتكامل الأدب في العبد إلّا بتكامُل مكارم الأخلاق .

قال يوسف بن الحسين : بالأدب يُفهم العلم ، وبالعلم يصحُّ العمل ، وبالعمل تُنال الحكمة ، وبالحكمة يُقام الزهد ، وبالزهد تُترك الدنيا ، وبترك الدنيا يُرغب في الآخرة ، وبالرغبة في الآخرة تُنال الرتبة عند الله .

---

(١) رغبت في الشيء شهوة له .

قال أبو عثمان : إذا صحَّتِ المحبَّة ، تأكَّدت على المحبِّ ملازمة الأدب .

وقال ذو النون : إذا خرج المريد عن استعمال الأدب ، فإنه يرجع من حيث جاء .

واعلم يا أخي أنّ مَن لم يتأدَّب للوقت ، فوقتُه مقْتٌ .

قال الجنيد : مَن أعان نفسَه على هواها ، فقد أشرك في قتْل نفسه ؛ لأن العُبودة ملازمة الأدب ، والطغيان سوء الأدب .

فالْزَم الأدب ظاهرًا وباطنًا ، فما أساء أحدٌ الأدبَ ظاهرًا إلّا عُوقِب ظاهرًا ، وما أساء أحدٌ الأدب باطنًا إلّا عُوقب باطنًا .

ولله درُّ شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك حين يقول : أَدَبُ الخدمة أعزُّ من الخدمة . ويقول : طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدِّبون . ويقول : نحن إلى قليل من الأدب أحوجُ منَّا إلى كثير من العلم .

ولِمكانةِ الأدبِ ، تجدُ كتُبَ التراجم مشحونةً به والنصّ عليه :

قال مخلد بن الحسين – وذكَرَ عتبة الغلام وصاحبه يحيٰى الواسطي –: « كأنما ربَّتهم الأنبياء »[1].

وقال أبو عاصم : سمعتُ سفيان الثوري يقول : « كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث ، تأدَّب وتعبَّد قبل ذلك بعشرين سنة »[2].

« قيل : لمّا ورد أبو حفص العراق جاء إليه الجنيد ، فرأى أصحاب أبي حفص وُقوفًا على رأسه يأتمرون لأمره ، لا يُخطِئ أحد منهم ، فقال :

(١) الحلية ٦/٢٣٥ .
(٢) الحلية ٦/٢٦١ .

يا أبا حفص ، أدّبتَ أصحابك أدب الملوك . فقال : لا يا أبا القاسم ، ولكن حسن الأدب في الظاهر عنوانُ الأدب في الباطن .

قال أنس بن مالك : الأدب في العمل علامةُ قبول العمل .

وقال عبد الله بن المبارك : مَن تهاون بالأدب عُوقب بحرمان السنن ، ومن تهاون بالسنن عُوقب بحرمان الفرائض ، ومَنْ تهاون بالفرائض عُوقب بحرمان المعرفة .

وقال ابن عطاء : النفْس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، والنفس تجري بطباعها في ميدان المخالفة ، والعبد يردُّها بجهْده إلى حسن المطالبة ؛ فمَن أعرض عن الجهد ، فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية ، ومهما أعانها فهو شريكها .

ولله درُّ القائل في وصف عالي الهمة في الأدب :

إذا تَرقَّـتْ بـهِ عزائمُـهُ ... إلى الثريا رسا به الأدَبُ

قال شيخ الإسلام الهروي : « الأدب حفظُ الحدِّ بين الغلوِّ والجفاءِ ، بمعرفة ضَرَرِ العدوان » .

قال ابن القيِّم : « هذا من أحسن الحدود ؛ فإن الانحراف إلى أحدِ طرفي الغلوِّ والجفاء هو قلَّة الأدب ، والأدب : الوقوفُ في الوسط بين الطرَفيْن ، فلا يُقصِّر بحدود الشرع عن تمامها ، ولا يتجاوز بها ما جُعلت حدودًا له ؛ فكلاهما عُدوان ، والله لا يحبّ المعتدين ، والعدوان هو سُوء الأدب .

وقال بعض السَّلَف : دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه .

فإضاعة الأدب بالجفاء : كمَن لم يُكمل أعضاء الوضوء ومن لم يوفِّ الصلاةَ آدابها التي سنّها رسول الله ﷺ وفعَلها ، وهي قريب من مائة أدب ؛ ما بين واجب ومستحبّ .

وإضاعته بالغلوِّ : كالوسوسة في عقْد النية ورفْع الصوت بها ، والجهْر بالأذكار والدعوات التي شُرعت سِرًّا ، وتطويل ما السنةُ تخفيفُه وحذفه ؛ كالتشهُّد الأول والسلام الذي حذفُه سنَّة. وزيادة التطويل على ما فعَله رسول الله ﷺ ، لا على ما يظنُّه سُرَّاق الصلاة النقَّارون لها .. ويشتهونه ؛ فإن النبي ﷺ لم يكن ليأمر بأمر ويُخالفه ، وقد صانه الله من ذلك . وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمُّهم بالصافات ، ويأمرهم بالتخفيف وتُقامُ صلاةُ الظهر، فيذهب الذاهب إلى البقيع فيقضي حاجته ويأتي أهله ويتوضَّأ ويُدرك رسولَ الله ﷺ في الركعة الأولى . فهذا هو التخفيف الذي أمَر به لا نقْرَ الصلاة وسرقها ؛ فإن ذلك اختصار ، بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم ، ويُسمَّى به مصليًا ، وهو كأكل المضطر في المخمصة ما يسدُّ به رمَقَه ، فليته شبع على القول الآخر . وهو كجائع قُدِّم إليه طعام لذيذ جدًّا ، فأكل منه لقمةً أو لقمتيْن ، فماذا يُغنيان عنه ؟! ولكن لو أحسَّ بجوعه لَمَا قام من الطعام حتى يشبع منه ، وهو يقدر على ذلك . لكنَّ القلب شبعان من شيء آخر .

ومثال هذا التوسُّط في حقِّ الأنبياء عليهم السلام : ألا يغلو فيهم كما غلت النصارىٰ في المسيح ، ولا يجفو عنهم كما جَفَتِ اليهود ؛ فالنصارىٰ عبدوهم واليهود قتلوهم وكذَّبوهم . والأُمة الوسَط آمنوا بهم وعزَّروهم ونصروهم واتبعوا ما جاءوا به .

ومثال ذلك في حقوق الخلْق : ألّا يفرِّط في القيام بحقوقهم ، ولا يستغرق فيها ؛ بحيث يشتغل بها عن حقوق الله أو عن تكميلها أو عن مصلحة دينه وقلبه ، وألَّا يجفو عنها حتى يعطِّلها بالكلِّيَّة ؛ فإن الطرفيْن من العدوان الضارِّ .

وعلى هذا الحدِّ فحقيقة الأدب هي العدْل . والله أعلم »[1].

---

(١) مدارج السالكين ٢/٤٠٨ - ٤٠٩ . طبعة : دار الحديث .

صاحبُ الأدَبِ العالي مَنِ استكملَ درجاتِ الأدبِ وأنواعه :

اعلم يا أخي أن عالي الهمَّة في الأدب : مَنْ تحقَّقت فيه أنواع الأدب ، وبلغ الكمال فيها ، ومَن ترقَّى في درجات الأدب مِن درجة إلى أخرى .

أنــواع الأدب :

[والأدب ثلاثة أنواع: أ – أدب مع الله سبحانه . ب – وأدب مع رسـوله ﷺ . جـ – وأدب مع خلْقِه .

أ – الأدبُ مـعَ الله :

والأدب مع الله ثلاثة أنواع :

أحدها : صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصة .

الثاني : صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره .

الثالث : صيانة إرادته أن تتعلَّق بما يمقتك عليه .

قال أبو علي الدقَّاق : مَن صاحَب الملوكَ بغير أدب ، أسلمه الجهل إلى القتل .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : إذا ترك العارف أدبه مع معروفه ، فقد هلك مع الهالكين .

وقال أبو علي : ترْك الأدب يُوجب الطرد ، فمن أساء الأدب على البساط رُدّ إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب ردّ إلى سياسة الدوابِّ .

وقال يحيى بن معاذ : من تأدَّب بأدب الله ، صار من أهل محبَّة الله .

وسُئل الحسن البصري رحمه الله عن أنفع الأدب ، فقال : التفقُّه في الدين ، والزهد في الدنيا ، والمعرفة بما لله عليك .

وقال سهل : القوم استعانوا بالله على مراد الله ، وصبروا لله على آداب الله .

وقال أبو علي الدقَّاق : العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة ، ويصل بأدبه في طاعته

إلى الله .

وقال رحمه الله : رأيتُ مَن أراد أن يمدَّ يده في الصلاة إلى أنفه ، فقبض على يده .

وقال عبد الله بن المبارك : الأدبُ للعارف كالتوبة للمستأنف .

وقال أبو نصر السرّاج : الناس في الأدب على ثلاث طبقات :

أما أهل الدنيا : فأكبر آدابهم : في الفصاحة والبلاغة ، وحفظ العلوم ، وأسمار الملوك ، وأشعار العرب .

وأما أهل الدين : فأكثر آدابهم : في رياضة النفوس ، وتأديب الجوارح ، وحفظ الحدود ، وترك الشهوات .

وأما أهل الخصوصية : فأكبر آدابهم : في طهارة القلب ، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر ، وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب .

وقال ابن عطاء : الأدب : الوقوف مع المستَحْسنات.فقيل له : وما معناه ؟ فقال : أن تعامِله سبحانه بالأدب سِرًّا وعَلَنًا . ثم أنشد :

إذا نطقتْ جاءتْ بكلِّ ملاحَةٍ وإنْ سكتَتْ جاءتْ بكلِّ مليحِ

وقال سهل : من قهَر نفْسَه بالأدب ، فهو يعبد الله بالإخلاص .

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر الناس القول في « الأدب » ، ونحن نقول : إنه معرفة النفس ورُعُوناتها ، وتجنُّب تلك الرعونات .

وقال بعضهم : الانبساط بالقوْل مع الحقِّ ترْكٌ للأدب .

وقال أبو عثمان : إذا صحّتِ المحبَّة ، تأكَّدت على المحبِّ ملازمة الأدب .

الأنبياءُ أكملُ الناسِ أدبًا مع الله :

قال ابن القيِّم : وتأمَّلْ أحوالَ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله وخطابهم وسؤالهم كيفَ ؛ تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به .

أدبُ آدمَ عليه السلام :

قال آدم عليه السلام : ﴿ **ربَّنا ظلَمْنَا أنفُسنا وإنْ لم تغفرْ لنا وترحمنا لَنكونَنَّ من الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ٢٣]. و لم يقلْ : ربِّ قدرتَ عليَّ ، وقضيْتَ علي .

أدبُ الخليلِ عليه السلام :

قال الخليل عليه السلام : ﴿ **الذي خلَقَني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويَسقين وإذا مرضتُ فهو يشفين** ﴾ [الشعراء : ٧٨ - ٨٠] . و لم يقلْ: «وإذا أمرضني » ؛ حفظًا للأدب مع الله .

أدب أيُّوب عليه السلام :

قال أيُّوب عليه السلام : ﴿ **مسَّني الضُّرُّ وأنتَ أرحم الراحمين** ﴾ [الأنبياء : ٨٣] . و لم يقلْ : « فعافني واشفني » .

أدبُ يُوسُف عليه السلام :

قال يوسف عليه السلام لأبيه وإخوته : ﴿ **هذا تأويلُ رؤياي مِن قبلُ قد جعَلَها ربّي حقًّا وقد أحسن بي إذْ أخرجني من السجن** ﴾ [يوسف: ١٠٠]. و لم يقلْ : « أخْرجني من الجُبِّ » ؛ حفظًا للأدب مع إخوته ، وتفتيًّا عليهم ألّا يُخجِلَهم بما جرىٰ في الجُبِّ .

وقال : ﴿ **وجاء بكم من البدو** ﴾ . و لم يقلْ : « رفع عنكم جهْد الجوع والحاجة » ؛ أدبًا معهم . وأضاف ما جرىٰ إلى السبب و لم يُضفه إلى المباشِرِ ، الذي هو أقرب إليه منهم ؛ فقال : ﴿ **من بعد أن نزَغ الشيطان بيني وبين إخوتي** ﴾ . فأعطى الفُتُوَّةَ والكرَم والأدبَ حقَّه .

ولهذا لم يكن كال هذا الخُلُق إلّا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

أدبُ الخَضِرِ عليه السلام :

قال الخضر في السفينة : ﴿ **فأردتُ أن أَعيبها** ﴾ [الكهف : ٧٩] . ولم يقلْ : « فأراد ربُّك أن يعيبها » . وقال في الغلامَيْن : ﴿ **فأراد ربُّك أن يبلُغا أشدَّهما** ﴾ [الكهف : ٨٢] .

أدب موسىٰ عليه السلام :

قال موسى عليه السلام : ﴿ **ربِّ إني لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقير** ﴾ [القصص : ٢٤] . ولم يقل : « أطعمني » .

أدب عيسىٰ عليه السلام :

قال المسيح عليه السلام : ﴿ **إنْ كنتُ قلْتُه فقد علمتَه** ﴾ [المائدة : ١١٦] . ولم يقل : « لم أقله » ؛ وفرْقٌ بيْن الجوابيْن في حقيقة الأدب . ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسرِّه ؛ فقال : ﴿ **تعلمُ ما في نفسي** ﴾ . ثم برَّأ نفسه عن علْمه بغيْب ربِّه وما يختصُّ به سبحانه ، فقال : ﴿ **ولا أعلم ما في نفسك** ﴾. ثم أثنى على ربِّه ووصفه بتفرُّده بعلم الغيوب كلها ؛ فقال : ﴿ **إنك أنت علَّام الغيوب** ﴾ . ثم نفىٰ أن يكون قال لهم غير ما أمَرَه ربُّه به - وهو محْض التوحيد - فقال : ﴿ **ما قلتُ لهم إلّا ما أمرتني به أنِ اعبدوا اللّٰهَ ربِّي وربّكم** ﴾ . ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم ، وأنه بعدَ وفاته لا اطلاع له عليهم ، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم ، فقال : ﴿ **وكنتُ عليهم شهيدًا ما دمتُ فيهم فلمَّا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم** ﴾ .

ثم وصفه بأن شهادته سبحانه وتعالى فوق كل شهادة وأعمُّ ، فقال : ﴿ **وأنت على كل شيء شهيد** ﴾ . ثم قال : ﴿ **إنْ تعذِّبْهم فإنهم عبادك** ﴾ . وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام ، أي : شأنُ السيد رحمةُ عبيده

والإحسان إليهم ، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك ، فإذا عذَّبتَهم - مع كونهم عبيدك - فلولا أنهم عبيدُ سوءٍ من أبخس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له ؛ لم تعذبهم ؛ لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته فلماذا يعذِّب أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظمُ المحسنين إحسانًا : عبيدَه ؟! لولا فرْط عُتُوّهم وإباؤهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب .

وقد تقدَّم قوله : ﴿ **إنك أنت علّام الغيوب** ﴾ أي : هم عبادك وأنت أعلم بسرِّهم وعلانيتهم ؛ فإذا عذَّبتهم عذَّبتَهم على علْمٍ منك بما تعذِّبهم عليه ، فهم عبادك وأنت أعلم بما جَنَوْه واكتسبوه فليس في هذا استعطاف لهم كما يظنُّه الجُهَّال . ولا تفويض إلى محْض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة ، كما تظنُّه القدرية ، وإنما هو إقرار واعتراف ، وثناءٌ عليه سبحانه بحكمته وعدْله ، وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب . ثم قال : ﴿ **وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ولم يقل : « غفور رحيم » . وهذا من أبلغ الأدب مع الله سبحانه وتعالى ؛ فإنه قاله في وقتِ غَضَبِ الربِّ عليهم والأمر بهم إلى النار ، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة ، بل مقام براءة منهم ؛ فلو قال : « فإنك أنت الغفور الرحيم » ؛ لأشْعَرَ باستعطافه ربَّه على أعدائه الذين قد اشتدَّ غضبه عليهم . فالمقام مقام موافقة للربِّ في غضبه على مَن غضِب الربُّ عليهم ، فعدل عن ذكر الصفتين اللَّتين يسأل بهما عَطْفه ومغفرته ورحمته إلى ذكْر العزَّة والحكمة ، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم .

والمعنى : إن غفرتَ لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ، ليست عن عجْز عن الانتقام منهم ، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم ؛ وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجْزه عن الانتقام منه ، ولجهله بمقدار إساءته إليه ، والكمال هو مغفرة القادر العالم ، وهو العزيز الحكيم . وكان ذكْر هاتين الصفتين في

هذا المقام عيْنَ الأدب في الخطاب][(١)] .

سيِّد البَشَرِ ﷺ أكملُ الأنبياء أدبًا :

قال تعالى في وصف أدبه ﷺ : ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى** ﴾ أفق وضيء طليق مرفرف ، عاش فيه قلب رسولنا ﷺ وبصرُه .. لحظات خُصَّ بها القلب المصفَّى ، وأدب من بصر رسول الله ﷺ لم يتجاوز رتبته وكلّه شوْق ، فأعطاه الله ما لم يعط أحدًا غيره .

قال ابن القيم : « إن هذا وصْف لأدبه ﷺ في ذلك المقام ؛ إذْ لم يلتفتْ جانبًا ، ولا تجاوز ما رآه ، وهذا كمال الأدب . والإخلال به أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله ، أو يتطلّع أمام المنظور ، فالالتفات زيْغ ، والتطلُّع إلى ما أمام المنظور : طغيان ومجاوَزَة ؛ فكمالُ إقبال الناظر على المنظور : أن لا يصرف بصرَه عنه يمنة ولا يسرةً ، ولا يتجاوزه .

وهذا معنى ما حصَّلته عن شيْخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه .

وفي هذه الآية أسرار عجيبة ، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البَشَرَ ﷺ ؛ تواطأ هناك بصرُه وبصيرته ، وتوافَقَا وتصادقَا فيما شاهده بصرُه ، فالبصيرة مواطئة له ، وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حقٌّ مشهود بالبصر ، فتواطأ في حقِّه مشهد البصر والبصيرة .

ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ما كذب الفؤادُ ما رأى أفتمارونه على ما يرىٰ** ﴾ [النجم : ١١ – ١٢] أي ما كذب الفؤادُ ما رآه ببصره .

ولهذا قرأها أبو جعفر : « ما كذّب الفؤاد ما رأى » . بتشديد الذال ؛ أي : لم يكذِّب الفؤادُ البصر ، بل صدقَه وواطأه ؛ لصحة الفؤاد والبصر ، أو لاستقامة البصيرة والبصر ، وكوْن المرئيِّ المشاهَد بالبصر والبصيرة حقًّا .

(١) مدارج السالكين ٢/٣٧٦ – ٣٨١ . بتصرُّف .

وقرأ الجمهور ﴿ ما كَذَب الفؤاد ﴾ بالتخفيف ، وهو متعدٍّ وما رأى مفعوله ؛ أي ما كذّب قلبُه ما رأته عيناه ؛ بل واطأه ووافقه ، فلمواطأة قلبه لقالَبه ، وظاهره لباطنه ، وبصره لبصيرته ؛ لم يكذب الفؤادُ البصرَ ، و لم يتجاوز البصر حدَّه فيطغىٰ ، و لم يَمِلْ عن المَرْئيِّ فيزيغ ؛ بل اعتدل البصر نحو المرئي ، ما جاوزه ولا مال عنه ، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله والإعراض عمّا سواه ؛ فإنه أقبل على الله بِكُلِّيَّتِـهِ .

وللقلب زيْغ وطغيان ، كما للبصر زيْغ وطُغيان ، وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره ، فلم يزِغْ قلبه الْتفاتًا عن الله إلى غيره ، و لم يطغَ بمجاوزته ، وهذا غاية الكمال والأدب مع الله ، الذي لا يلحقه فيه سواه.فإن عادة النفوس إذا أُقيمتْ في مقام عالٍ رفيع : أن تتطلَّع إلى ما هو أعلى منه وفوقه ؛ ألا ترى أن موسىٰ ﷺ لمّا أُقيم في مقام التكليم والمناجاة طلبت نفسه الرؤية ؟! ونبينا ﷺ لمّا أُقيم في ذلك المقام ، وفّاه حقَّه ، فلم يلتفتْ بصرُه ولا قلبُه إلى غير ما أُقيم فيه ألبتة ؟! ولأجل هذا ما عاقَه عائق ، ولا وقف به مراد ، و لم تقفْ به دون كمال العبودية هِمَّة. ولهذا كان مركوبه في مَسراه يسبق خطوه الطرْفَ، فيضع قدمه عند منتهى طرْفه ، مُشـاكِلًا لحال راكبه وبُعْدِ شأوه ، الذي سبق العالم أجمع في سيْره ، فكان قدمُ البُراقِ لا يختلف عن موضع نظَرِه ، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخَّر عن محلِّ معرفته .

فلم يزلْ ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه ، وتكميل مراتب عبوديته له ، حتى خرَق حُجُب السموات ، وجاوز السبْعَ الطباق ، وجاوز سِدْرة المنتهى ، ووصل إلى محلٍّ من القرب سبَق به الأوَّلين والآخرين ، فانصبّتْ إليه هناك أقسامُ القرْب انصبابًا ، وانقشعت عنه سحائب الحجُبِ - ظاهرًا وباطنًا - حجابًا حجابًا ، وأُقيم مقامًا غبطَهُ به الأنبياءُ والمرسلون . فإذا كان في المعاد ، أقيم مقامًا من القرْب ثانيًا ، يغبطه به الأولون والآخرون . واستقام

هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله ، ما زاغ البصر عنه وما طغى ، فأقامه في هذا العالم على أقوم صراطٍ من الحقّ والهدى ، وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم ، فقال تعالى : ﴿ **يسٓ والقرآن الحكيم إنك لمن المرسَلِين على صراط مستقيم** ﴾ ، فإذا كان يوم المعاد ، أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته ،حتى يجوزوه إلى جنات النعيم ، وذلك فضْل الله يؤتيه مَنْ يشاء والله ذو الفضل العظيم »[١].

وكلّ الآداب تُتَلَقَّى من رسول الله ﷺ ؛ فإنه عليه السلام مَجْمعُ الآداب ظاهرًا وباطنًا .

قال ابن القيم : « الأدب مع الله : حُسْن الصحبة معه ، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضىٰ التعظيم والإجلال والحياء ، كحال مجالس الملوك ومصاحبهم »[٢] .

أدب الجريري :

قال الجريري : منذ عشرين سنة ما مددتُ رجلي في الخلوة ؛ فإن حُسْن الأدب مع الله أحسن وأولى .

عائشة المكِّيَّة تعظ أبا عُبيد القاسم بن سلام ، وتُوصيه بالأدب :

قال أبو عُبيد القاسم بن سلام : دخلتُ مكَّة ، فكنتُ ربما أقعد بحذاء الكعبة ، وربما كنتُ أستلقي وأمدُّ رجْلي ، فجاءتني عائشة المكِّيَّة ، فقالت لي : «يا أبا عُبَيد، يُقال : إنك من أهل العلم ؛ اقبلْ مني كلمة: لا تجالسْهُ إلا بأدب، وإلّا فيمحىٰ اسمُك من ديوان القرْب . قال أبو عبيد : وكانت من العارفات »[٣].

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٢ - ٣٨٤ .
(٢) مدارج السالكين ٢/٣٧٧ .
(٣) عوارف المعارف ص١٩٨ .

أدب السري السقطي :

« قال سريّ : صلَّيتُ وِرْدي ليلة من الليالي ومددتُ رِجْلي في المحراب ، فنودِيتُ : يا سري ، هكذا تجالس الملوك ؟ فضممتُ رجلي ثم قلتُ : وعِزَّتك ، لا مددتُ رُجلي أبدًا . قال الجنيد : فبقي سِتين سنة ما مدَّ رجلَه ليلًا ولا نهارًا .

وسُئِل السري رحمه الله عن مسألةٍ في الصبْر فجعل يتكلَّم فيها ، فدبَّ على رجله عقْرب ، فجعلتْ تضربه بإبرتها ، فقيل له : ألا تدفعها عن نفسك ؟! قال : أستحي من الله أن أتكلَّم في حالٍ ثم أخالف ما أعلم فيه » .

أدب مؤمني الجِنِّ :

قال مؤمنو الجنِّ : ﴿ **وأنا لا ندري أَشَرٌّ أُريد بمن في الأرض** ﴾ [الجن : ١٠] . ولم يقولوا : « أراده بهم ربهم » . ثم قالوا : ﴿ **أم أراد بهم ربُّهم رَشَدًا** ﴾[1] .

ومن الأدب مع الله : أمْرُ النبي ﷺ الرجلَ أن يستُر عورته وإن كان خاليًا لا يراه أحد ؛ أدبًا مع الله ؛ على حسب القرْب منه وتعظيمه وإجلاله ، وشدَّة الحياء منه ومعرفة وقاره .

قال بعضهم : الْزَمِ الأدب ظاهرًا وباطنًا ؛ فما أساء أحدٌ الأدب في الظاهر إلَّا عُوقب ظاهرًا ، وما أساء أحد الأدب باطنًا إلَّا عُوقب باطنًا .

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : مَن تهاون بالأدب ، عُوقب بحرمان السنن ، ومَن تهاون بالسنن عُوقب بحرمان الفرائض ، ومَن تهاون بالفرائض عُوقب بحرمان المعرفة .

وقيل : الأدب في العمل : علامة قبول العمل .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٠ .

قال ابن القيم : « وحقيقة الأدب » : استعمالُ الخلُق الجميل ، ولهذا كان الأدب : استخراج ما في الطبيعة من الكمال ، من القوة إلى الفعل .

ولقد خصّ الله بالفلاح مَن زكّى نفسه فنمّاها وعلّاها ، ورفعها بآدابه التي أدَّب بها رسله وأنبياءه وأولياءه .

« الأدب » هو الدِّين كُلُّه :

قال ابن القيم : « والأدب هو الدين كله ؛ فإنَّ سترْ العوْرة من الأدب ، والوضوء وغسْل الجَنَابة من الأدب ، والتطهُّر من الخَبَث من الأدب ، حتى يقف بين يدي الله طاهرًا ، ولهذا كانوا يستحبُّون أن يتجمّل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه ، وكان لبعض السلف حُلَّة بمبلغٍ عظيم من المال ، وكان يَلبسها وقتَ الصلاة ويقول : ربي أحقُّ مَن تجمَّلتُ له في صلاتي .

ومن الأدب :

« نهْيُ النبي ﷺ المصلي أن يرفع بصَرَه إلى السماء » . فسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه - يقول : هذا من كمال أدب الصلاة ؛ أن يقف العبد بين يدي ربِّه مطرقًا ، خافضًا طرْفه إلى الأرض، ولا يرفع بصرَه إلى فوق .

قال : والجهمية لمّا لم يفقهوا هذا الأدب ولا عرفوه ؛ ظنُّوا أن هذا دليل أنَّ الله ليس فوق سماواته على عرشه ، كما أخبر به عن نفسه واتفقت عليه رُسُله وجميعُ أهل السُّنَّة . قال : وهذا من جهلهم ، بل هذا دليل لمن عقَل عن الرسول ﷺ ، على نقيض قوْلهم ؛ إذ من الأدب مع الملوك : أنَّ الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض ، ولا يرفع بصرَه إليهم ، فما الظنُّ بملك الملوك سبحانه ؟! .

ومن الأدب مع الله :

أن لا يستقبل بيْته ولا يستدْبره عند قضاء الحاجة ؛ كما ثبت عن النبي ﷺ

في حديث أبي أيُّوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم ، رضي الله عنهم . والصحيحُ : أن هذا الأدب يعمّ الفضاء والبُنيان .

ومن الأدب مع الله : في الوقوف بين يديْه في الصلاة :

وضْع اليمنى على اليسرىٰ حالَ قيام القراءة ؛ ففي الموطَّأ عن سهل بن سعد : « أنه من السنة » و « كان الناس يُؤمَرون به » .

ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء ، فعظيمُ العظماء أحقُّ به .

ومنها : السكون في الصلاة ؛ وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ **والذين هُمْ على صلاتهم دائمون** ﴾ [المعارج : ٢٣] . فالدوام هو سكون الأطراف والطمأنينة .

وأدبه في استماع القراءة : أن يُلقي السمْعَ وهو شهيد .

وأدبه في الركوع : أن يستوي ، ويعظِّم الله تعالى ؛ حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه ، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه حتى يكون أقلَّ من الهباء .

والمقصود : أن الأدب مع الله تبارك وتعالى : هو القيام بدينه ، والتأدُّب بآدابه ظاهرًا وباطنًا .

ولا يستقيم لأحدٍ قطُّ الأدبُ مع الله ، إلَّا بثلاثة أشياء :

معرفته بأسمائه وصفاته .

ومعرفته بدينه وشرعه ، وما يحبُّ وما يكره .

ونفس مستعدَّة قابلة ليِّنة ، متهيئة لقبول الحقِّ عِلْمًا وعَمَلًا وحالًا والله المستعان »[1].

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٤ .

الأدب مع الرسول ﷺ :

«وأمّا الأدب مع الرسول ﷺ : فالقرآن مملوء به . فرأس الأدب معه : كمال التسليم له ، والانقياد لأمره ، وتلقِّي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن يحمِّله معارضة خيال باطل يسمِّيه معقولًا ، أو يحمِّله شبهةً أو شكًّا ، أو يقدِّم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم . فيوحِّده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان . كما وحّد المرسِل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذلِّ ، والإنابة والتوكُّل ؛ فلا يحاكم إلى غير الرسول ﷺ ، ولا يرضىٰ بحكْم غيره ، ولا يقف تنفيذَ أمره ، وتصديق خبره ؛ على عرْضِه على قوْل شيخه وإمامه ، وذوي مذهبه وطائفته ، ومَنْ يعظّمه ؛ فإن أذنوا له نفَّذَه وقبِل خبرَه ، وإذن فإنْ طلَبَ السلامة أعرَضَ عن أمْره وخبره وفوّضه إليهم ، وإلّا حرَّفه عن مواضعه ، وسمَّى تحريفَه تأويلًا وحمْلًا ، فقال : نؤوِّله ونحمله .

فلأَنْ يلقىٰ العبدُ ربَّه بكلِّ ذنب على الإطلاق - ما خلا الشرك بالله - خيرٌ له من أن يلقاه بهذه الحال .

فكمال التسليم والانقياد له هو أدبُ الخواصِّ معه ﷺ ، لا مخالفة أمره والشرك به ، ورفع الأصوات ، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم ، وعزل كلامه عن اليقين ، وأن يُستفاد منه معرفة الله، أو يُتلقى منه أحكامه . بل المعوّل في باب معرفة الله : على العقول المنهوكة المتحيِّرة المتناقضة ، وفي الأحكام : على تقليد الرجال وآرائها . والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبرُّكًا ، لا أن نتلقَّى منهما أصول الدين ولا فروعه . ومَن طلَب ذلك ورامه ، عاديناه وسعَيْنا في قطْع دابره ، واستئصال شأْفته ، ﴿ **بل قلوبهم في غمْرةٍ من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذابِ إذا هم يجأرون لا تجأروا اليومَ إنكم منَّا لا تُنصرون قد كانت آياتي تُتلىٰ عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرًا تهجرون أفلم يدبَّروا القولَ**

أم جاءهم ما لم يأتِ آباءهم الأولين أم لم يعرفوا رسولَهم فهم له منكرون أم يقولون به جِنَّة بل جاءهم بالحقِّ وأكثرهم للحقِّ كارهون ولو اتبع الحقُّ أهواءَهم لَفسدت السمواتُ والأرض ومَن فيهنَّ بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكْرهم معرضون أم تسألهم خرْجًا فخراج ربِّك خير وهو خير الرازقين وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لَناكبون ﴾ [المؤمنون : ٦٣ - ٧٤] . والناصح لنفسه ، العامل على نجاتها : يتدبّر هذه الآيات حق تدبُّرها ، ويتأمَّلها حقَّ تأمُّلها ، ويُنزلها على الواقع فيرىٰ العجَب ، ولا يظنُّها اختصَّت بقومٍ كانوا فبانوا ، « فالحديث لك ، واسمعي يا جارة » . والله المستعان .

ومِنَ الأدب مع الرسول ﷺ :

أن لا يتقدَّم بين يديه بأمر ولا نهي ، ولا إذن ولا تصرُّف ، حتى يأمر هو وينهىٰ ويأذن ؛ كما قال تعالى : ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسولِه**﴾ [الحجرات : ١] وهـذا باقٍ إلى يوم القيامة ولم يُنسخ ، فالتقدُّم بين يديْ سنته بعد وفاته : كالتقدُّم بين يديْه في حياته ، ولا فَرْق بينهما عند ذي عقل سليم .

ومن الأدب معه : أن لا تُرفع الأصوات فوق صوته ؛ فإنه سببٌ لحُبوط الأعمال ، فما الظنُّ برفْع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به ؟! أترى ذلك مُوجِبًا لقبول الأعمال ، ورفع الصوت فوق صوته مُوجبًا لحبوطها ؟!

ومن الأدب معه : أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره ؛ قال تعـالى : ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا** ... ﴾ الآية [النور : ٦٣] . وفيه قولان للمفسِّرين :

أحدهما : أنكم لا تدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضًا ، بل قولوا :

يا رسول الله . يا نبيَّ الله . فعلى هذا : المصدر مضاف إلى المفعول : أي دعاءَكم الرسول .

الثاني : أنَّ المعنى:لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا ؛ إن شاء أجاب وإن شاء ترَك ، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بدٌّ من إجابته ، و لم يسعْكم التخلُّف عنها ألبتة . فعلى هذا : المصدر مضاف إلى الفاعل ، أي دعاؤه إيَّاكم .

ومن الأدب معه : أنهم إذا كانوا معه على أمْرٍ جامع - من خطبة ، أو جهاد ، أو رباط - لم يذهب أحدٌ منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه ؛ كما قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذنوه** ﴾ [النور : ٦٢] فإذا كان هذا مذهبًا مقيَّدًا بحاجة عارضة ، لم يوسع لهم فيه إلّا بإذنه ؛ فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين ؛ أصوله وفروعه ، دقيقه وجليله ؟! هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه ؟ ﴿ **فاسْألوا أهلَ الذِّكْر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ [النحل : ٤٣] .

ومن الأدب معه : أن لا يُستشكل قوْلُه ، بل تُستشكل الآراء لقوله ، ولا يُعارض نصُّه بقياس ، بل تُهدر الأقيسة وتُلقى لنصوصه ، ولا يُحرَّف كلامه عن حقيقته لخيال يسمِّيه أصحابه معقولًا ؛ نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ، ولا يُوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحدٍ ، فكلُّ هذا من قلَّة الأدب معه ﷺ ، وهو عيْن الجرأة »[1] .

أدبُ الصِّـدِّيق رضـي اللهُ عنه :

«يتجلَّى في كلِّ موقف للصِّديق .. وأبرز ذلك: موقفه مع النبي ﷺ، لمّا مرض النبي ﷺ وأمَّ أبو بكر الناسَ في الصلاة ، فلمَّا أحسَّ بقدوم النبي ﷺ ما استطاع أن يتقدَّم بين يديْه أدبًا منه وقال : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة

(١) مدارج السالكين ٢/٣٨٧ - ٣٩٠ .

أن يتقدَّم بين يدي رسول الله ﷺ .

فانظر إلى أدب الصِّدِّيق كيف أورثه مقامه ، والإمامة بعدَه فكان ذلك التأخُّر إلى خلفه - وقد أومأ إليه أنِ اثبتْ في مكانك - جَمْزًا ، وسعْيًا إلى قُدَّام .

فبكلِّ خطوة إلى وراء مراحل إلى قدّام تنقطع فيها أعناق المَطِيِّ . والله أعلم »(١) .

أدب عمـر رضـي الله عنه :

« ورَد أنَّ عمر رضي الله عنه عمد إلى ميزاب للعباس على ممر الناس فقلَعَه ، فقال : أشهد أن رسول الله ﷺ هو الذي وضعه في مكانه . فأقسم عمر : لتصعدن علىٰ ظهري ولتضعنَّه موضعه »(٢) .

أدَبُ أبي أيُّـوب الأنصـاري :

عن أبي رهم ؛ أنَّ أبا أيوب حدَّثه أن رسول الله ﷺ نزل في بيتنا الأسفل ، وكنتُ في الغرفة ، فأهريق ماءٌ في الغرفة ، فقمتُ أنا وأمُّ أيُّوب بقطيفةٍ لنا نتتبَّعُ الماء ، ونزلتُ فقلتُ : يا رسول الله ، لا ينبغي أن نكون فوقك ، انتقل إلى الغرفة . فأمَرَ بمتاعه فنُقل ومتاعه قليل . قلت : يا رسول الله ، كنتَ ترسل بالطعام فأنظر فإذا رأيتُ أثر أصابعك ، وضعتُ فيه يدي(٣) .

أدبُ أمين الأُمَّة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه :

قال الصِّديق : « كنتُ أول من فاءَ يوم أحد ، فرأيتُ رجلًا يقاتل في

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩١ - ٣٩٢ .
(٢) السير ٢/٥٠١ ، وتهذيب ابن عساكر ٢/٣٩٨ .
(٣) إسناده صحيح : رواه أحمد والطبراني والحاكم ، والذهبي في السير ، وأخرجه بنحوه مسلم .

سبيل الله دونه ، وأراه قال : حميَّة . قال : فقلتُ : كنْ طلحة حيث فاتني ما فاتني . فقلتُ : يكون رجلًا من قومي أحبّ إليَّ . وبيني وبين المشركين رجلٌ لا أعرفه ، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطِف المشي خطْفًا لا أخطفه ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وقد كُسِرَتْ رباعيَّته ، وشُجَّ في وجهه ، وقد دخل في وجْنَته حلقتان من حلق المِغْفَر . قال رسول الله ﷺ : « عليكما صاحبَكما » يريد طلحة . وقد نزف ، فلم نلتفت إلى قوله . قال : وذهبتُ لأنزِعَ ذلك من وجهه ، فقال : أُقسم عليك بحقّي لمَا تركتَني . فتركتُه ، فكره تناولهما بيده ، فيؤذي رسول الله ﷺ ، فأزمَّ عليها بفيهِ ، فاستخرج إحدى الحلقتيْن ، ووقعت ثنْيته مع الحلقة ، وذهبتُ لأصنع ما صنع فقال : أقسمتُ عليك بحقّي لما تركتَني . قال : ففعل مثلما فعَل في المرة الأولى ، فوقعتْ ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة رضي الله عنه من أحسن الناس هتما »[1] .

فانظر - رحمك الله - كيف بلغ الأدب بأبي عُبيدة ؛ لا ينزع حلقتي المغفر بيده ؛ لئلَّا يؤذي رسول الله ﷺ ، بل يزمُّهما بفمه حتى سقطت ثنيتاه .

أدب طلحة الخير : طلحة بن عبيد الله :

يظهر ذلك جليًّا أثناء انسحاب رسول الله ﷺ من أُحد ؛ قال ابن إسحاق : نهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ليعلوها ، وكان قد بدَّن[2] وظاهَر بين دِرْعَين ، فلما ذهب لِينهض لم يستطع ، فجلس تحته طلحة ابن عبيد الله حتى استوى عليها .

(١) السير ١/٨ ، والبداية والنهاية ٥/٣١ .
(٢) ضعُف وأسنّ .

لقد أصاب العَرَجُ إحدى رِجْلَي طلحة رضي الله عنه ، أثناء دفاعه عن النبي ﷺ ، ولمّا حمل طلحة النبي ﷺ تكلَّف استقامة المشي أدبًا مع رسول الله ﷺ ، لئلّا يشقَّ على النبي ﷺ ، فاستوتْ رجلُه العرجاء لهذا التكلُّف ، فشُفي من العَرَج .

أدب صدِّيق الأنصار سعد بن معاذ رضي الله عنه :

لمّا وصل سيد الأوس سعد بن معاذ إلى مقرِّ قيادة النبي ﷺ في بني قريظة ؛ قال له النبي ﷺ : « احكمْ فيهم يا سعد » . فقال : إن رسول الله ﷺ أحقُّ بالحكم . فقال النبي ﷺ : « قد أمَرَك الله أن تحكم فيهم » .. غير أن سعدًا – وقد علم حرص قومه الأوْس على التساهُل في الحكم على حلفائهم اليهود – أحبَّ أن يستوثق من الجميع ، ويأخذ عليهم العهد – الأوس وبني قريظة – بأنَّ حكمه إذا صدر يكون غير قابل للنقْض أو النقاش . ووقف سعد ابن معاذ في المعسكر النبوي ، ووجّه حديثه إلى قومه الأوس خاصَّة ، وإلى مَنْ في المعسكر عامَّة قائلًا : عليكم بذلك – عهد الله وميثاقه – أن الحكم كما حكمتُ ؟ قالوا : نعم . ثم اتجه إلى النبي ﷺ وأشار إلى الناحية التي هو فيها ، ثم قال وهو مُعْرِض عن رسول الله ﷺ إجلالًا وإكبارًا : وعلى مَنْ هاهنا ؟ وأشار إلى الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام : « نعم »[1] . ثم أشار إلى بني قريظة المحجوزين جانبًا في المعسكر ؛ ليستوثق منهم قائلًا : أترضون بحكمي ؟ قالوا : نعم . فحكم أن تُقتل المقاتِلة ، وأن تُسبىٰ النساء والذُّرِّيَّة ، وأن تقسَّم أموالهم . ولمَّا نطق سعد بن معاذ بالحكم ، قال له النبي ﷺ : « حكمتَ فيهم بحكم اللهِ مِن فوق سبع سماوات » .

فانظر إلى أدب سعد أثناء الحكم ، وإشارته إلى خيمة رسول الله ﷺ

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٤٠) .

وهو معرض عنها ؛ إجلالًا لرسول الله ﷺ .

أدب خطيب الأنصار ثابت بن قيس رضي الله عنه :

انظر إلى أدب خطيب الأنصار ؛ ثابت بن قيس بن شِماس رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ ، لمّا نزل قوْل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ... ﴾ الآية [الحجرات : ٢] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمَه . فأتاه فوجده في بيته منكّسًا رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شرٌّ . كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار . فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ ، فأخبره أنه قال كذا وكذا . قال موسى بن أنس : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارةٍ عظيمةٍ فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لستَ من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة »[١].

وروى الإمام أحمد ، عن أنس رضي الله عنه : لمَّا نزلت هذه الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ... ﴾ الآية [الحجرات : ٢] . وكان ثابت بن قيس الشماس رفيعَ الصوت ، فقال : أنا الذي كنتُ أرفع صوتي على رسول الله ﷺ ، حبطَ عملي ، أنا من أهل النار . وجلس في أهله حزينًا ، ففقده رسول الله ﷺ ، فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : فقدَك رسول الله ﷺ ؛ ما لَكَ ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول ؛ حبط عملي ، أنا من أهل النار . فأتَوا النبي ﷺ ، فأخبروه بما قال ، فقال : « لا ، هو من أهل الجنة » .

قال أنس : فكنا نراه يمشي بين ظهرانينا ، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ،

---

(١) رواه البخاري .

فلما كان يوم اليمامة ، كان فينا بعضُ الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس بن شماس ، وقد تحنَّط ولبس كَفَنَه ، فقال : بئسما تعوّدون أقرانكم !! فقاتلهم حتى قُتل .

وروى البخاري عن ابن أبي مُليكة قال : كاد الخيِّران أن يهلِكَا ؛ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، رفعَا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجلٍ آخر - قال نافع بن عمر : لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلّا خلافي . قال : ما أردتُ [خلافك] . فارتفعتْ أصواتهما في ذلك، فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقوْل كجهْر بعضكم لبعض** ... ﴾ الآية . قال ابن الزبير : « فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية ، [حتى يستفهمه] . ولم يَذكرْ ذلك عن أبيه . يعني أبا بكر رضي الله عنه »[١].

ثم روى البخاري عن ابن أبي مُليكة : أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركْبٌ من بني تميم على النبي ﷺ ، فقال أبو بكر : أمِّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمِّر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردتَ إلى - أو إلّا - خلافي . فقال عمر : ما أردتُ خلافك . فتماريَا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزلت في ذلك : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ حتى انقضت الآية .

وعن أبي بكر الصديق قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾ ، قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلِّمك إلّا كأخي السِّرار[٢].

---

(١) انفرد به البخاري دون مسلم .

(٢) قال ابن كثير : « رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده ، وحُصين بن عمر هذا =

الأدب معَ الخَلْق :

« أمَّا الأدب مع الخلْق : فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم ، فلكلٍّ مرتبة أدب . والمراتب فيها أدَبٌ خاصٌّ :

فمع الوالدين : أدب خاصٌّ ، وللأب منهما أدب هو أخصُّ به .

ومع العالم : أدب آخر .

ومع السلطان : أدب يليق به .

وله مع الأقران : أدب يليق بهم .

ومع الأجانب : أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه .

ومع الضيف : أدب غير أدبه مع أهل بيته .

ولكل حال أدب : فللأكل آداب ، وللشرب آداب ، وللركوب والدخول ، والخروج والسفر ، والإقامة ، والنوم : آداب ، وللبول آداب ، وللكلام آداب ، وللسكوت والاستماع آداب[1] .

وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه ، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره ، فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثْل الأدب ، ولا استُجلب حرْمانُها بمثل قِلَّة الأدب .. فانظر إلى الأدب مع الوالدين : كيف نجَّى صاحبه من حبْس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة !! والإخلال به مع الأم - تأويلًا وإقبالًا على الصلاة - كيف امتحن صاحبَه بهدْم صومعته ، وضرْب الناس له ، ورميه

= وإن كان ضعيفًا . لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمٰن بن عوف ، وأبي هريرة ، بنحو ذلك . والله أعلم » . اهـ . من تفسير ابن كثير ٣٤٦/٧ .

والسِّرار : المسارَرة ؛ أي كصاحب السرار ، أو : كمَثَل المسارة لخفْض صوته .

(١) لي تحت الطبع مجلّد بعنوان : « حسن الطلب في بيان الأدب » يسَّر الله بمنِّه وفضْله إخراجَه قريبًا .

بالفاحشة !! وتأمَّلْ أحوال كلِّ شقيٍّ ومغترٍّ ومُدْبر : كيف تجد قلَّة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان !! »[1] .

عُلوُّ الهِـمَّة في الأدب مع الوالـديْن :

قال تعالى : ﴿ **وقضىٰ ربُّك ألّا تعبدوا إلا إياه وبالوالديْن إحسانًا إمَّا يبلغَنَّ عندك الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تقلْ لهما أفٍّ ولا تنهرْهما وقلْ لهما قولًا كريمًا واخفض لهما جَناحَ الذلِّ من الرحمة وقل رَبِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيرًا** ﴾ [الإسراء : ٢٣ - ٢٤] .

قال سعيد بن المسيب : « ﴿ **وقل لهـما قولًا كريمًا** ﴾ : قول العبد المتذلِّل للسيد الفظِّ . ﴿ **واخفضْ لهما جَناح الذلِّ من الرحمة** ﴾ : تعبير يَشف ويلطُف ، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان ، فهي الرحمة ترقُّ وتلطف ، حتى لَكَأنها الذُّلُّ الذي لا يرفع عينًا ، ولا يرفض أمرًا » .

نبيُّ الله إسـماعيل الأنمـوذج العالي لبرِّ الوالدين :

يقصُّ اللهُ علينا في القرآن الكريم موقف الذبيح مع أبيه خليل الرحمٰن إبراهيم عليهما السلام : ﴿ **فلمّا بلغ معه السعْيَ قال يا بُني إني أرىٰ في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترىٰ قال يا أبت افعلْ ما تُؤمر ستجدني إنْ شاء الله من الصابرين** ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

يا أبت .. يا أبت ، في مودَّة وقُربى ، وشبحُ السِّكِّين لا يُزعجه ولا يُفزعه ، ولا يُفقده رشدَه ، بل لا يفقده أدَبه ومودته !!

وحارثة بن النعـمان مَثَلٌ سَـامِقٌ للبِرِّ :

عن عائشة أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « دخلتُ

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٠ - ٣٩١ .

الجنة فسمعتُ قراءةً ، فقلتُ : مَنْ هذا ؟ فقيل : حارثة بن النعمان » ، فقال رسول الله ﷺ : « كذلكم البر . كذلكم البر » . وزاد عبد الرزاق في رواية : « وكان أبرَّ الناس بأُمِّه »(١) .

«وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبرَّ مَن كان في هذه الأُمّة بأُمِّهما : عثمان بن عفان ، وحارثة بن النعمان رضي الله عنهما ؛ أمَّا عثمان : فإنه قال : ما قدرتُ أتأمَّل وجْهَ أمي منذ أسلمتُ . وأمَّا حارثة : فكان يُطعمها بيده ، ولم يستفْهمها كلامًا قطُّ تأمُر به ، حتى يسأل مَنْ عندها بعد أن يخرج : ماذا قالتْ أمي ؟ »(٢) .

أبو هُرَيْرة لم يحجَّ حتى ماتت أُمُّه ؛ لصُحْبتها :

قال أبو هريرة : « إن أمي كانت مشركة ، وكنتُ أدعوها إلى الإسلام ، وكانت تأبى عليّ ، فدعوتُها يومًا فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيتُ رسول الله ﷺ وأنا أبكي ، فأخبرته ، وسألتُه أن يدعو لها ، فقال : « اللهمَّ اهْدِ أمَّ أبي هريرة » . فخرجتُ أعدو أبشِّرها ، فأتيتُ فإذا الباب مجاف ، وسمعتُ خضخضة الماء ، وسَمِعَتْ حِسِّي ، فقالت : كما أنت . ثم فتحتْ ، وقد لبستْ دِرْعَها ، وعجلتْ عن خمارها ، فقالت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . قال : فرجعت إلى رسول الله ، أبكي من الفرَح كما بكيتُ من الحزْن ، فأخبرته وقلت : ادعُ الله أن يحبِّبني وأمِّي إلى عباده المؤمنين . فقال : « اللهمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَك هذا وأُمَّه إلى عبادك المؤمنين ، وحبِّبْهم

---

(١) إسناده صحيح : رواه أحمد ، والبغوي في شرح السنة ، وعبد الرزاق في المصنف ، والحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ في الإصابة ٦١٨/١ : إسناده صحيح .

(٢) التبصرة ١٨٧/١ - ١٨٨ .

إليهما »[١] .

«ويشتدُّ الألم به من الجوع مرَّة ، فيخرج من بيته إلى المسجد ، لا يخرجه إلَّا الجوع ، فيجد نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فيقولون : يا أبا هريرة ، ما أخرجك هذه الساعة ؟ فيقول : ما أخرجني إلّا الجوع . فيقول أبو هريرة : فقمنا ، فدخلنا على رسول الله ﷺ فقال : « ما جاء بكم هذه الساعة ؟ ». فقلنا : يا رسول الله جاء بنا الجوع . قال : فدعا رسول الله ﷺ بطبق فيه تمر ، فأعطى كل رجل منا تمرتيْن ، فقال : « كُلُوا هاتين التمرتين ، واشربوا عليهما من الماء ، فإنهما ستجزيانكم يومكم هذا » . قال أبو هريرة : فأكلتُ تمرةً ، وخبَّأتُ الأخرى ؛ فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة ، لم رفعتَ هذه التمرة ؟ » . فقلتُ : رفعتُها لأُمِّي . فقال : « كلْها ، فإنّا سنعطيك لها تمرتيْن » . فأكلتُها فأعطاني لها تمرتيْن »[٢] .

وعن أبي مُرَّة : « أن أبا هريرة كان يستخلفه مروان ، وكان يكون بـ « ذي الحُلَيْفة » ، فكانت أمُّه في بيت ، وهو في آخر . قال : فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها ، فقال : السلام عليك يا أُمَّتاه ورحمة الله وبركاته . فتقول : وعليك يا بُني ورحمة الله وبركاته . فيقول : رحِمَكِ الله كما ربَّيْتني صغيرًا . فتقول : رحمك اللهُ كما بَرَرْتَني كبيرًا ، ثم إذا أراد أن يدخل ، صنع مثله »[٣].

«ولازَم أبو هريرة أُمَّه ، ولم يحجَّ حتى ماتت ؛ لصحبتها »[٤].

---

(١) حسن : أخرجه أحمد ، ومسلم في فضائل الصحابة ، وحسَّنه الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/٥٩٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/٥٩٢ - ٥٩٣ ، وطبقات ابن سعد .

(٣) الأدب المفرد للبخاري ، وأحمد في مسنده .

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخه ٤٧/٥١٦ - ٥١٧ ، كذا عزاه د . محمد عجاج الخطيب في كتابه : أبو هريرة راوية الإسلام . ص١٢٠ .

أُوَيْس القرني : يشهدُ له النبي ﷺ ببرّه لِأُمّه وأدَبِهِ معها :

قال رسول الله ﷺ : « إن خير التابعين رجلٌ يقال له : أُويس ، وله والدة هو بها بَرٌّ ، لو أقسم على الله لأبرّه ، وكان به بَيَاض ، فمُرُوه فليستغفر لكم »(١) .

وكان عمر رضي الله عنه إذا أتى أمدادُ اليمنِ ، يسألهم : فيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى على أُوَيس بن عامر . قال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم . قال : كان بك بَرَصٌ فبرأتَ منه ، إلّا موضع درهم ؟ قال : نعم . قال : ألك والدة ؟ قال : نعم . قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قَرَن ، كان به أثَرُ بَرَص فبرأ منه إلّا موضع درهم ، له والدة هو بارٌّ بها ، لو أقسم على الله لأبرَّه ، فإن استطعتَ أن يستغفر لك فافعلْ » فاستغفِرْ لي . فاستغفَرَ له ، فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة . قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال : أكون في غبراءِ الناس أحبُّ إليَّ .

لقد منع أويس من القدوم على النبي ﷺ برُّه بأمه . فهل فوق هذا أدب وبِرٌّ ؟! يمنعه البر من شَرف الصُّحْبة مع رسول الله ﷺ .

أبو حنيفةَ النعمانُ مَثَلٌ يُحتذَى في الأَدب مع الأُمِّ :

« كان رحمه الله بارًّا بوالديْه ، وكان يدعو لهما ويستغفر لهما مع شيخه حمَّاد ، وكان يتصدّق كلَّ شهر بعشرين دينارًا عن والديه »(٢) .

« قال أبو يوسف : كان أبو حنيفة يحمل والدته على حماره إلى مجلس عمر بن ذرٍّ ؛ كراهةَ أن يردّ قوْلها .

---

(١) رواه مسلم عن عمر .

(٢) أبو حنيفة النعمان للشيخ : وهبي غاوجي الألباني ص١٠٢ .

وقال أبو حنيفة : ربما ذهبتُ بها إلى مجلسه ، وربما أمرتْني أن أذهبَ إليه وأسأله عن مسألة ، فآتيه وأذكرها له ، وأقول له : إنَّ أمي أمَرتْني أن أسألك عنها . فيقول : وأنت تسألني عن هذا ؟ فأقول : هي أمرتْني . فيقول : قل لي : كيف هو - يعني الجواب - حتى أخبرك . فأخبره بالجواب ، ثم يخبرني به ، فآتيها وأخبرها عنه بما قال . ونظير ذلك : أنها استفتتْ عن شيء ، فأفتيتُها فلم تقبله ، وقالت : لا أقبلُ إلا بقول زُرعة القاصّ- أي الواعظ- فجاء بها إليه ، وقال له : إن أمِّي تستفتيك في كذا ، فقال : أنت أعلم وأفقه ، فأفْتِها . قال : أفتيتُها بكذا . فقال زرعة : القوْل ما قال أبو حنيفة . فرضيتْ وانصرفتْ »[(١)].

وعن يحيى بن عبد الحميد قال : كان الإمام يخرج كلَّ يوم من السجن فيُضْرَب ليدخلَ القضاء ، فيأبى ، فلمَّا ضُرِب رأسُه وأثَّر ذلك في وجهه بكىٰ ، فقيل له في ذلك ، فقال : إذا رأتْه أُمِّي بكتْ واغتمَّتْ ، وما عليَّ شيء أشدُّ من غمِّ أُمِّي .

« وعن يحيى الحماني ، عن أبيه قال : كان أبو حنيفة يُضرب على أن يليَ القضاء فيأبىٰ ، ولقد سمعتُه يبكي وقال : أبكي غمًّا على والدتي »[(٢)] .

« وكان **حُجْر بن عدي بن الأدبر** يلتمس فراش أمِّه بيده ، فيتَّهم غلظ يده ، فينقلب عليه على ظهره ، فإذا أمِن أن يكون عليه شيء أضْجَعَها .

وكان **ظبيان بن علي** مِن أبرِّ الناس بأمِّه ، فباتتْ ليلة وفي صدرها عليه شيء ، فقام على رجلَيْه قائمًا يكرهُ أن يوقظها ، ويكره أن يقعد .

(١) من أخلاق العلماء للشيخ محمد سليمان ص٧٩ .
(٢) مناقب الإمام أبي حنيفة للذهبي ص١٥ ، ١٦ .

ابن عـون :

نادت أمُّ عبد الله بن عون عبدَ الله فأجابها ، فعلا صوته على صوتها فأعتق رقبتيْن .

« قال بشر الحافي : الولد يقرب من أُمِّه بحيث يُسمِع أمّه : أفضل مِنَ الذي يضرب بسيفه في سبيل الله ، والنظر إليها أفضل من كل شيء .

وقال محمد بن مُحيْريز : من مشى بين يدي أبيه فقد عقّه ، إلّا أنْ يمشي فيُميط الأذى عن طريقه . ومَن دعا أباه باسمه أو بكُنْيته ، فقد عقَّه ، إلّا أن يقول يا أبت »[(١)] .

إني لها بَعيرُها المُذَلَّل :

« حدّث أبو بُردة بن أبي موسى الأشعري أن ابنَ عمر شهد رجلًا يمانيًّا يطوف بالبيت ، حمل أُمَّه وراء ظهرِهِ يقول :

إنـي لـها بعيـرُها المـذلَّـلْ إنْ أُذعِرتْ ركابُها لم أُذْعَرْ
اللهُ ربي ذو الجلالِ الأكبرْ
حملتُـها أكثـرَ مـمَّا حملـتْ فهل ترى جازيْتُها يا ابنَ عمرْ

ثم قال : يا ابن عمر ، أتراني جزيتُها ؟ قال : لا ، ولا بزفرة واحدة »[(٢)].

صورة طيبة من الأدب والبرِّ :

عن ابن عمر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « بينما ثلاثة نفر

---

(١) التبصرة لابن الجوزي ١/١٨٨ .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وابن المبارك في البر والصلة ، والبيهقي في شعب الإيمان . والزَّفْرة : المرة من الزفير ، وهو تردُّد النفَس حتى تختلف الأضلاع ، وهذا يعرض للمرأة عند الحمل .

يتماشَوْن ، أخذهم المطر ، فمالوا إلى غارٍ في الجبل ، فانحطتْ على فمِ غارهم صخرةٌ من الجبل ، فأطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالًا عملتموها لله صالحة ، فادعوا الله بها لعلَّه يفرِّجها . فقال أحدهم : اللهمَّ إنه كان لي والدان شيخان كبيران ، ولي صِبْيَة صغار كنتُ أرعىٰ عليهم ، فإذا رجعتُ عليهم فحلبتُ ، بدأتُ بوالدي أسقيهما قبل ولدي ، وإنه قد نأى بي الشجر[١]، فما أتيتُ حتى أمسيتُ ، فوجدتُهما قد ناما ، فحلبتُ كما كنت أحلب ، فجئتُ بالحِلاب ، فقمتُ عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما ، وأكره أن أبدأ بالصِبية قبلهما ، والصبية يتضاغَوْن[٢] عند قدمي ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ، فافرُجْ لنا فرجة نرى منها السماء . ففرّج اللهُ لهم حتى يروْن السماء ... »[٣] الحديث .

وأخــرى :

« كان الفضل بن يحيىٰ أبرَّ الناس بأبيه ، بلغ مِن برِّه إيّاه أنهما كانا في السجن ، وكان يحيىٰ لا يتوضأ إلا بماءٍ سُخن ، فمنعهما السجَّان من إدخال الحطب في ليلة باردة ، فلما نام يحيى ، قام الفضل إلى قمقمة وملأها ماءً ، ثم أدناه من المصباح ، ولم يزلْ قائمًا – وهو في يده – حتى أصبح »[٤] .

كَهْمسُ الدَّعَّاءُ وأدبُه العالي :

« عن أبي عبد الرحمٰن الحنفي قال : رأى كهمس بن الحسن عقربًا في

---

(١) نأى بي الشجر : بَعُد المرعىٰ .
(٢) يتضاغَوْن : يُصوِّتون باكين .
(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن حبان .
(٤) بر الوالدين للطرطوشي ص٧٨ .

البيت ، فأراد أن يقتلها ، أو يأخذها ، فسبقتْه إلى جُحْرِها ، فأدخل يده في الجُحْرِ يأخذها ، وجعلَتْ تضربه ، فقيل له : ما أردت إلى هذا ؟ لِمَ أدخلتَ يدك في جحرها تُخرجها ؟ قال : إني أحمد ؛ خفتُ أن تخرج من الجحْر فتجيء إلى أمي فتلدغها . وكان يمينه الذي يحلف به : إني أحمد وأحمد »(١).

وعن الحسن بن نوح قال : « كان كهمس يعمل في الجصّ كل يوم بِدَانِقيْن ، فإذا أمسى اشترى به فاكهة فأتى بها إلى أُمِّه »(٢) .

« وكان كهمس الدَّعَّاءُ يكسح البيت ، ويخدم أُمّه ، فأرسل إليه سليمان ابن علي الهاشمي بصُرَّةٍ ، وقال : اشترِ بها خادمًا لأُمِّك . لأنه كان مشغولًا بخدمتها ، وكان أبرَّ شيء بأمِّه ، وأراده على أن يقبلها فأبى ، فألقاها في البيت ومضى ، فأخذها كهمس ، وخرج يتبعه حتى دفعها إليه »(٣) .

« وكان عمرو بن عُبيد يأتي كهمسًا يسلّم عليه ، ويجلس عنده هو وأصحابه ، فقالت له أمه : إني أرى هذا وأصحابه وأكرههم، وما يعجبوني فلا تجالسْهم.قال : فجاء إليه عمرو وأصحابه فأشرف عليهم ، فقال : إن أمِّي قد كرهتك وأصحابك ، فلا تأتوني »(٤) .

محمد بن سيرين لا يكلِّم أُمّه إلّا وهو يتضرَّع :

كان محمد بن سيرين لا يكلِّم أمَّه إلا كما يكَلِّمُ الأمير الذي لا يُنتَصَف منه .

وعن بعض آل سيرين قال : ما رأيتُ محمد بن سيرين يكلِّم أمَّه قطُّ إلّا وهو يتضرّع .

وعن ابن عون قال : « دخل رجل على محمد بن سيرين وهو عند أمه ،

---

(١) حلية الأولياء ٦/٢١١ .

(٢) ، (٣) ،(٤) الحلية ٦/٢١٢ .

فقال : ما شأن محمد ، أيشتكي شيئًا ؟ قالوا : لا ، ولكن هكذا يكون إذا كان عند أمه »[١] .

وزيْن العابدين بلغ من أدبه مع أمه أنه لا يأكل معها في صحفة :

«وكان زيْنُ العابدين بن الحسين رضي الله عنهما كثير البرِّ بأمه ، حتى قيل له : إنك من أبرِّ الناس بأُمِّك ، ولسنا نراك تأكل معها في صحفة ؟ فقال : أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقتْ إليه عينها ، فأكون قد عقَقْتُها »[٢] .

وطلقُ بن حبيب لا يمشي فوق ظهر بيْته وأُمُّه تحته :

وكان طلق بن حبيب من العُبَّاد والعلماء ، وكان يُقبِّل رأس أمه ، وكان لا يمشي فوق ظهر بيتٍ وهي تحته ؛ إجلالًا لها[٣] .

ابنُ القاسم لله درُّه :

« حُكي عن ابن القاسم : أنه كان يُقرأ عليه « الموطأ » ؛ إذ قام قيامًا طويلًا ثم جلس ، فقيل له في ذلك ، فقال : نزلتْ أمي فسألَتْني حاجة فقامت ، فقمتُ لقيامها ، فلمَّا صعِدت جلستُ »[٤] .

حيْوة بن شريح يترُك الدرس لعَلَفِ الدجاج :

« وكان حَيْوَةُ بن شُرَيح - وهو أحد أئمة المسلمين - يقعد في حلقته يعلِّم الناس ، فتقول له أمُّه : قم يا حيوة ، فألقِ الشعير للدجاج ، فيقوم ، ويترك التعليم »[٥] .

---

(١) المرأة وحقوقها في الإسلام للشيخ مبشِّر الطرازي ٢/٢٧٣ .
(٢) عيون الأخبار ٣/٩٧ .
(٣ ، ٤) برّ الوالدين للطرطوشي ص٧٨ .
(٥) بر الوالدين للطرطوشي ص٧٩ .

الهُذَيْل وأمُّه حفصة بنت سيرين :

« وعن هشام بن حسان قال : كان الهُذَيْل بن حفصة يجمع الحطب في الصيف ، فيقشُرُه ، ويأخذ القصب فيفلقُه . قالت حفصة : وكنتُ أجد قِرَّة[(١)]، فكان إذا جاء الشتاء ، جاء بالكانون فيضعه خلفي وأنا في مصلّاي ، ثم يقعد فيُوقد بذلك الحطَب المقشَّر ، وذلك القصب المفلَّق وقودًا لا يؤذي دخانهُ ، ويُدفئني ، نمكث بذلك ما شاء الله . قالت : وعنده من يكفيه لو أراد ذلك . قالت : وربما أردتُ أنصرف إليه ، فأقول : يا بُني ، ارجع إلى أهلك . ثم أذكر ما يريد فأدعه »[(٢)].

قال هشام : « وكانت له لِقْحة[(٣)]، قالت حفصة : كان يبعث إليَّ بحَلْبةٍ بالغداة ، فأقول : يا بنيَّ ، إنك لَتعلم أني لا أشربه ، أنا صائمة . فيقول : يا أمَّ الهذيل ، إنَّ أطيب اللبن ما بات في ضروع الإبل ؛ اسقيه مَن شئت »[(٤)] .

محمد بن المُنْكدر :

« كان يضع خدَّه على الأرض ، ثم يقول لأُمِّه : قومي ضعي قدمك على خدِّي »[(٥)] .

« قال سعيد بن عامر : قال ابن المنكدر : بات أخي عمر يصلِّي وبتُّ أغمز قدم أمي ، وما أُحبُّ أن ليلتي ....

(١) القِرّة : ما أصابك من القُرِّ ، أي البرد .
(٢) صفة الصفوة ٤/٢٥ .
(٣) أي:ناقة حلوب غزيرة اللبن .
(٤) صفة الصفوة ٤/٢٥ – ٢٦ .
(٥) السير ٥/٣٥٦ .

بليلته »[١] .

منصـور بن المعتمـر :

« حدّثنا الأخنسي : سمعت أبا بكر يقول : كنتُ مع منصور جالسًا في منزله ، فتصيح به أُمّه - وكانت فظَّةً عليه - فتقول : يا منصور، يريدك ابن هُبيرة على القضاء فتأبى !! وهو واضعٌ لحيته على صدره ما يرفع طرْفه إليها »[٢] .

بـنـدار :

« قال عبد الله بن جعفر المروزي : سمعتُ بندار يقول : أردتُ الخروج - يعني الرحلة - فمنعتني أُمي ، فأطعتها فبُورك لي فيه »[٣].

جمع حديثَ البصْرة ولم يرحل ؛ بِرًّا بأُمِّه، ثم رحل بعدها[٤].

ومِسْعَر بن كِـدام في أدَبِه إمـامٌ :

« قال محمد بن سعد : كانت لمسعر بن كدام أُمٌّ عابدة ، فكان يحمل لها لِبْدًا ، ويمشي معها حتى يُدخلها المسجد ، فيبسط لها اللبد ، فتقوم فتصلِّي ، ويتقدَّم هو إلى مقدم المسجد فيصلِّي ، ثم يقعد ، ويجتمع إليه مَن يريد فيحدِّثهم ، ثم ينصرف إليها ، فيحمل لِبدَها وينصرف معها »[٥].

ذرُّ بن عمر بن ذرّ : ما ارتقى سقْفًا كان والدُه تحته :

« ولمّا مات ذرٌّ - وكان من الأولياء - قال أبوه عمر بن ذرّ : اللهم

---

(١) السير ٥/٣٥٩ .
(٢) السير ٥/٤٠٥ .
(٣) ، (٤) السير ١٢/١٤٥ ، تاريخ بغداد ٢/١٠٢ .
(٥) صفة الصفوة ٤/٢٥ - ٢٦ .

إني قد غفرتُ له ما قصَّر فيه من واجب حقِّي ، فاغفر له ما قصَّر فيه من واجب حقِّك . فقيل له : كيف كان عشرتُه معك ؟ قال : ما مشى معي قطُّ في ليل إلّا كان أمامي ، ولا مشى معي في نهار إلّا كان ورائي ، ولا ارتقى قطُّ سقْفًا كنتُ تحته »[١] .

عامر بن عبد الله بن الزبير : بعد موت أبيه يمكث عامًا لا يدعو إلا بالمغفرة له :

قال عامر بن عبد الله بن الزبير : « مات أبي ، فما سألتُ الله – حَوْلًا – إلّا العفوَ عنه »[٢] .

عُروة بن الزبيـر وبـرُّه :

كان رحمه الله يقول في صلاته وهو ساجد : اللهمَّ اغفرْ للزبير بن العوام ، وأسماء بنت أبي بكر . يعني : والديه رضي الله عنهما[٣].

وأبو يوسـف على الطـريق :

وكان أبو يوسف القاضي يقول عُقيْبَ صلاته : اللهمَّ اغفرْ لأبويّ ولأبي حنيفة[٤] .

الأبَّـــار :

« قال جعفر الخلدي : كان الأبار من أزهد الناس ؛ استأذن أُمَّه في الرحلة إلى قتيبة فلم تأذن له ، ثم ماتت فخرج إلى خُراسان ، ثم وصل إلى بلخ وقد مات قتيبة ، فكان يُعزُّونه على هذا ، فقال : هذا ثمرة العلم ؛ إني اخترتُ رضا

(١) بر الوالدين للطرطوشي ص٧٦ .
(٢) عيون الأخبار ٣/٩٨ .
(٣) بر الوالدين للطرطوشي ص٧٧ .
(٤) السابق .

الوالدة »[١].

الحافظ ابن عساكر صاحب « تاريخ دمشق » :

« قال ابن النجار : قرأتُ بخطِّ معمر بن الفاخر في « معجمه » : أخبرني أبو القاسم الحافظ إملاءً بمنى ، وكان من أحفظ مَن رأيتُ ، وكان شيخنا إسماعيل بن محمد الإمام يفضِّله على جميع من لاقيْناهم ، قدم أصبهان ونزل في داري ، وما رأيتُ شابًّا أحفظَ ولا أورع ولا أتقن منه ، وكان فقيهًا أديبًا سنيًّا ؛ سألتُه عن تأخره عن الرحلة إلى أصبهان ؛ قال : استأذنتُ أمي في الرحلة إليها فما أذِنَتْ »[٢].

أمثلةٌ عَطِرة في عُلُوِّ الهِمَّة في الأدب :

أدب الفاروق عمر رضي الله عنه :

« قال عمر : أبو بكر سيدنا أعتقَ بلالًا سيدنا »[٣].

« عن يحيى بن سعد قال : ذكر عمر فضل أبي بكر ، فجعل يصف مناقبه ... ثم قال : وهذا سيدنا بلال حَسَنَةٌ من حسناته »[٤].

« وعن عمر أنه لم يلقَ أسامة قط إلّا قال : السلام عليك أيُّها الأمير ورحمة الله . تُوفي رسول الله ﷺ وأنت عليَّ أمير »[٥].

« عن ابن أبي الهذيل قال : دعا عمر زيد بن صوحان ، فضَفَنَه على الرَّحْل كما تَضْفِنُون أمراءكم ، ثم التفتَ إلى الناس فقال : اصنعوا هذا بزيد

---

(١) السير ١٣/٤٤٣ ، تذكرة الحفاظ ٢/٦٣٩ .
(٢) السير ٢٠/٥٦٧ ، تذكرة الحفاظ ٤/١٣٣٣ .
(٣) السير ١/٣٥٩ .
(٤) السير ٢/٩٦ ، وابن سعد ٤/٢٠ .
(٥) السير ٣/٥٢٧ ، وطبقات ابن سعد ٦/١٢٤ .

وأصحابِ زيد »[١].

أدب معاذِ بن جبل :

عن معاذ قال : ما بذقت على يميني منذ أسلمتُ[٢] .

أدب العباس بن عبد المطَّلب :

عن أبي رزيق قال : قيل للعباس : أنت أكبر أو النبي ؟ قال : هو أكبر وأنا وُلِدْتُ قبلَه[٣] .

أدبُ عليٍّ رضي الله عنه :

عن صُهيْب مولى العباس ، قال : رأيتُ عليًّا يقبِّل يد العباس ورِجْله ويقول : يا عمّ ، ارضَ عني .

قال الذهبي في « السير » (٢/٩٤) : « إسناده حسن » .

أدبُ ابنِ عبَّاس :

« عن أبي سَلَمَة أن ابن عباس قام إلى زيد بن ثابت فأخذ له بركابه ، فقال تنحَّ يا ابن عمِّ رسول الله ﷺ . فقال : هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا »[٤] .

أدب عِمران بن حُصَيْن رضي الله عنه :

« عن عمران بن حُصين قال : ما مسستُ ذكري بيميني منذ بايعتُ رسول الله ﷺ »[٥].

---

(١) السير ١/٤٥٥ .

(٢) السير ٢/٨٠ ، ومجمع الزوائد ٩/٢٧٠ .

(٣) السير ٢/٩٧ .

(٤) السير ٢/٤٣٧ ؛ إسناده حسن : أخرجه ابن سعد ٢/٣٦٠ وصحَّحه الحاكم وأقرّه الذهبي .

(٥) السير ٢/٥٠٩ ؛ رجاله ثقات ، وصحّحه الحاكم وأقرّه الذهبي .

أدب عَدِيّ بن حاتِم رضي الله عنه :

عن مغيرة قال : خرج عدي وجرير البجلي وحنظلة الكاتب من الكوفة ، فنزلوا « قَرْقيسياء » وقالوا : لا نقيم ببلدٍ يُشتمُ فيها عثمان[١].

أدب ابنِ عُمَر رضي الله عنه :

عن مجاهد قال : ربَّما أخذَ ابن عمر لي بالرِّكَاب[٢].

أدب زرّ بن حبيش :

عن عاصم ، قال : كان أبو وائل عثمانيًّا ، وكان زرُّ بن حبيش عَلَوِيًّا ، وما رأيتُ واحدًا منهما قطُّ تكلَّم في صاحبه حتى ماتا ، وكان زرّ أكبر من أبي وائل ، فكانا إذا جلسا جميعًا لم يحدِّث أبو وائل مع زرٍّ . يعني يتأدّب معه لسِنِّه[٣] .

أدب أبي العالية :

عن أبي العالية قال : ما مسست ذَكَري بيميني منذ ستين أو سبعين سنة[٤] .

أدب سعيد بن المسيِّب :

قال سعيد : لا تقولوا : مُصيْحف . ولا مُسيْجد ؛ ما كان لله فهو عظيم ، حسن جميل[٥].

---

(١) السير ٣/١٦٥ ، تاريخ بغداد ١/١٩١ .
(٢) السير ٤/٤٥٢ .
(٣) السير ٤/١٦٨ .
(٤) السير ٤/٢١٠ ، الحلية ٢/٢١٩ .
(٥) السير ٤/٢٣٨ ، طبقات ابن سعد ٥/١٣٧ .

علي بن الحُسَيْن :

قيل : كان عليٌّ بن الحُسيْن إذا سار في المدينة على بغلته ، لم يقلْ لأحدٍ : الطريق . ويقول : هو مشترك ؛ ليس لي أن أُنحي عنه أحدًا(١).

أدبُ الحَسَن البصري :

قال سفيان بن عُيينة : إن الحسن البصري لمّا مات مسلم بن يسار ، قال : وامعلّماه(٢) .

أدب عطاء بن أبي ربَاح :

عن ابن جُريج ، عن عطاء قال : إن الرجل لَيحدِّثني بالحديث فأُنصِت له كأني لم أسمعْه ، وقد سمعتُه قبل أن يُولد(٣).

أدب عمر بن عبد العزيز :

عن أيُّوب قال : قيل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، لو أتيتَ المدينة ، فإنْ قضى الله موتًا، دُفِنتَ في موضع القبر الرابع مع رسول الله ﷺ. قال: والله لأَنْ يعذِّبني الله بغير النار، أحبُّ إلي من أن يعلم من قلبي أني أراني لذلك أهلًا(٤).

أدب أبي وائل :

قال عاصم بن أبي النجود : ما قدمتُ على أبي وائل من سَفَر إلا قبَّل كَفِّي(٥) .

---

(١) السير ٣٩٨/٤ .
(٢) السير ٥١٣/٤ ، وتاريخ ابن عساكر ٢٤٩/١٦أ .
(٣) السير ٨٦/٥ .
(٤) السير ١٤١/٥ ، وطبقات ابن سعد ٤٠٤/٥ .
(٥) السير ٢٥٧/٥ .

قتــادة :

قال قتادة : لقد كان يستحبُّ ألّا تقرأ الأحاديث التي عن رسول الله ﷺ إلّا على طهارة(١) .

الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة :

« قال أبو مصعب : كان مالك لا يُحدِّثُ إلّا وهو على طهارة ، إجلالًا للحديث »(٢) .

كان مالك بن أنس إمام دار الهجرة لا يركب دابَّة بالمدينة ، ويقول : أوقر أرضًا دُفِنَ فيها رسول الله ﷺ .

« قال أبو مصعب : كانوا يزدحمون على باب مالك حتى يقتتلوا من الزحام ، وكنا إذا كنا عنده لا يلتفت ذا إلى ذا قائلون برؤوسهم هكذا ، وكانت السلاطين تهابه ، وكان يقول : لا . ونعم . ولا يُقال له : مِن أين قلتَ ذا ؟ » .

« وقال ابن وهب : ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلَّمنا من علمه »(٣) .

قال ابن القاسم : قيل لمالك : لِمَ لمْ تأخذ عن عمرو بن دينار ؟ قال : أتيتُه ، فوجدتُه يأخذون عنه قيامًا ، فأجْللتُ حديث رسول الله ﷺ أن آخذه قائمًا(٤) .

الإمـام المبـارك : عبد الله بن المبـارك :

قال يحيى بن يحيى اللَّيْثي : كنا عند مالك فاستُؤذن لعبد الله بن المبارك

---

(١) السير ٥/٢٧٤ .
(٢) ، (٣) انظر ترجمة مالك في السير ٨/٤٨ - ١٣٥ .
(٤) السير ٨/٦٧ .

بالدخول فأُذن له ، فرأينا مالكًا تزحزح له في مجلسه ، ثم أقعده بلصقه ، وما رأيتُ مالكًا تزحزح لأحد في مجلسه غيره ، فكان القارئ يقرأ على مالك ، فربما مرّ بشيء فيسأله مالك : ما مذهبكم في هذا ؟ أو : ما عندكم في هذا ؟ فرأيتُ ابن المبارك يجاوبه ، ثم قام فخرج فأُعجِب مالك بأدبه ، ثم قال لنا مالك : هذا ابن المبارك فقيهُ خراسان .

وسُئل ابن المبارك بحضور سفيان بن عيينة فقال : إنَّا نُهينا أن نتكلَّم عند أكابرنا[١] .

قال حبيب الجلّاب : سألتُ ابن المبارك : ما خيرُ ما أعطي الإنسانُ ؟ قال : غريزةُ عقل . قلتُ : فإن لم يكن ؟ قال : حُسْن أدب . قلتُ : فإن لم يكن ؟ قال : أخٌ شفيق يستشيره . قلتُ : فإن لم يكن ؟ قال : صمتٌ طويل . قلتُ : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل[٢] .

« قال إسماعيل الخطبي : بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حمَّاد بن زيد ، فقال أصحاب الحديث لحمَّاد : سلْ أبا عبد الرحمن أنْ يحدثنا . فقال : يا أبا عبد الرحمن ، تحدِّثهم ؟ فإنهم قد سألوني . قال : سبحان الله يا أبا إسماعيل !! أحدِّث وأنت حاضر ؟! قال : أقسمتُ عليك لَتفعلنَّ . فقال : خذوا ؛ حدَّثنا أبو إسماعيل حمَّاد بن زيد ... فما حدّث بحرف إلا عن حمَّاد »[٣] .

سفيان بن عُيَيْنة شيخُ الحِجَاز :

قال إبراهيم بن الأشعث : رأيتُ سفيان ابن عُيينة يقبِّل يَدا الفضيل مرَّتيْن[٤] .

---

(١) السير ٨/٤٢٠ .
(٢) السير ٨/٣٩٧ .
(٣) السير ٨/٣٨٢ ، وتاريخ بغداد ١٠/١٥٥ .
(٤) السير ٨/٤٣٨ .

وقال موسى بن داود : كنتُ عند ابن عيينة ، فجاء حسين الجعفي ، فقام سفيان وقبّل يده[١] .

أدب الأوزاعي :

قال عطاء الخفاف : كنتُ عند الأوزاعي ، فأراد أن يكتب إلى أبي إسحاق الفزاري ، فقال لكاتبه : ابدأ به ؛ فإنه والله خير مني[٢] .

قال العباس بن الوليد : فما رأيتُ أبي يتعجَّب من شيء في الدنيا تعجُّبه من الأوزاعي ، فكان يقول : سبحانك تفعل ما تشاء !! كان الأوزاعي يتيمًا فقيرًا في حِجْر أُمِّه ، تنقله من بلد إلى بلد وقد جرىٰ حُكْمُك فيه أن بلَّغتَه حيث رأيتَه . يا بني ، عجزتِ الملوك أن تؤدِّب أنفسَها وأولادها أدبَ الأوزاعي في نفسه ، ما سمعتُ منه كلمةً قطُّ فاضلة إلّا احتاج مستمعُها إلى إثباتها عنه ، ولا رأيتُه ضاحكًا قطُّ حتى يُقهقه ، ولقد كان إذا أخذَ في ذكْر المعاد أقول في نفسي : أترى في المجلس قلبٌ لم يبكِ[٣] .

أدبُ سفيان الثوري مع الأوزاعي وابن أدهم :

قال عثمان بن عاصم : « رأيتُ سفيان الثوري بمكة آخِذًا بزمام ناقة الأوزاعي وهو يقول : كُفّوا عنا يا معشر الشباب حتى نُسَلّل الشيخ »[٤] .

وقال عثمان بن عاصم أيضًا : « رأيتُ شيخًا بين الصفا والمروة على ناقة

---

(١) السير ٩/٣٩٧ - ٤٠١ .
(٢) انظر السير ٨/٥٤٢ .
(٣) انظر السير ٧/١٠٧ - ١٣٤ .
(٤) الجرح والتعديل ١/٢٠٧ ، ونسلل : أي نخرجه من الزحام .

وشيخًا يقوده ، واجتمع أصحاب الحديث عليه ، فجعل الشيخ الذي يقود الشيخ يقول : يا معشر الشباب ، كفُّوا حتى نسلَّ الشيخ : فقلتُ : من هذا الراكب ؟ قالوا : هذا الأوزاعي . قلتُ : فمن هذا الذي يقوده ؟ قالوا : سفيان الثوري .

وقال رجل من ولد الأحنف بن قيس : بلغني أن سفيان الثوري بلغه مقدم الأوزاعي ، فخرج حتى لقيه بـ « ذي طوىٰ » . قال : فحلَّ سفيان رأس البعير ووضعه على رقبته ، فكان إذا مرَّ بجماعة قال : الطريق للشيخ .

وقال سلمة بن كلثوم : جاء سفيان الثوري فدخل على الأوزاعي ، فجلسا من الأولىٰ إلى العصر ، قد أطرق كل واحد منهما ؛ توقيرًا لصاحبه[(١)] .

وقال يحيى بن يمان : كان سفيان إذا قعد مع إبراهيم تحرَّز من الكلام[(٢)] .

أدب إبراهيم بن أدهم وعطفه على الأصاغر :

كان إبراهيم بن أدهم في الحصاد ، وكان يُطعم الأصحاب ، وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام ، وكان رحمه الله ربَّما يتأخَّر في بعض الأيام في العمل ؛ فقالوا ليلة : تعالَوا نأكل فطورَنا دُونه ، حتى يعود بعد هذا يُسرع ، فأفْطروا وناموا ، فرجع إبراهيم فوجدهم نيامًا ، فقال : مساكين ؛ لعلهم لم يكن لهم طعام . فعمد إلى شيء من الدقيق فعجنه ، فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعًا محاسنه على التراب ، فقالوا له في ذلك ، فقال : قلتُ : لعلَّكم لم تجدوا فطورًا فنمتم . فقالوا : انظروا بأي شيء عاملناه ، وبأي شَيْءٍ يعاملنا .

---

(١) الجرح والتعديل ١/٢٠٨ .

(٢) السير ٧/٣٩٣ .

أدب الشـافعي :

عُوتب رحمه الله على تواضعه للعلماء ، فقال :

أهين لهمْ نفسي فهـمْ يُكـرمونها ولنْ تُكرَمَ النَّفْسُ التي لا تُهينها[١]

وقال الشافعي رحمه الله : كنتُ أقلب الصفحة بين يدي مالك صفحًا رقيقًا ؛ هيبة له ؛ لئلَّا يسمع ورقها[٢] .

قال ابن جماعة الكناني : « ليعلم طالبُ العلم أنَّ ذلَّه لشيخه عزٌّ ، وأن خضوعه له فخرٌ ، وتواضعه له رِفعة ، وعلى طالب العلم أن ينظر شيخه بعين الإجلال ؛ فإنَّ ذلك أقرب إلى نفعِه به ، وكان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه تصدَّق بشيء ، وقال : اللهمَّ استر عيْب شيخي عني ، ولا تُذهب بركة علْمه مني »[٣] .

وكيـع بن الجرَّاح :

قال سَلْمُ بن جُنادة : جالَستُ وكيعًا سبع سنين ، فما رأيتُه بزق ، ولا مسَّ حصاةً ، ولا جلس مجلسًا فتحرَّك ، وما رأيتُه إلا مستقبلَ القبلة ، وما رأيتُه يحلف بالله[٤] .

يحيٰى بن يحيٰى بن كثير ؛ الإمام المالكي الكبير :

قال الذهبي : بلغَنَا أنَّ يحيٰى بن يحيٰى اللَّيْثي كان عند مالك بن أنس رحمه الله ، فمر على باب مالكٍ الفيلُ ، فخرج كلُّ مَن كان في مجلسه لرؤية الفيل ،

---

(١) فضل العلم لمحمد سعيد رسلان ص١٢٩ - ١٣٠ .
(٢) المجموع ٣٦/١ .
(٣) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة الكناني ص٨٧ .
(٤) انظر سير أعلام النبلاء ١٤٠/٩ - ١٦٨ .

سوى يحيى بن يحيى فلم يقمْ ، فأُعجب به مالك وسأله : مَن أنت ؟ وأين بلدك ؟ ثم لم يزلْ بعدُ مكْرِمًا له .

وعن يحيى بن يحيى قال : أخذتُ بركاب الليث ، فأراد غلامه أن يمنعني ، فقال الليث : دعْه . ثم قال لي : خدَمَكَ العلْمُ . قال : فلم تزلْ بي الأيام حتى رأيتُ ذلك[١] .

أدَبُ الربيع بن سليمان المرادي مع شيْخه الشافعي :

قال الربيع بن سليمان : والله ما اجترأتُ أن أشرب الماء ، والشافعي ينظر ؛ هيبةً له[٢] .

أدب إمام أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل :

لله درُّ من قال في إمام أهل السنة :

يَزينك إمَّا غابَ عنكَ فإنْ دنا ... رأيتَ له وجْهًا يسرُّك مُقْبِلَا
يُعَلِّمُ هذا الخلْقَ ما شذَّ عنهُمُ ... من الأدبِ المجهولِ كَهْفًا ومَعْقِلَا
وإخـوانُه الأدنَوْنَ كُـلُّ مُوفَّـقٍ ... بصيرٍ بأمْرِ الله يسمو على العلا[٣]

أمّا أدبه مع شيوخه : فقد كان فوق الوصف ، وكان ابن حنبل آية في الأدب .

« قال أحمد بن سعيد الرباطي : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول : أخذنا هذا العلمَ بالذُّلِّ ، فلا ندفعه إلا بالذُّلِّ[٤].

قال أحمد بن حنبل : لزمتُ هشيمًا أربع سنين - أو خمسًا - ما سألتُه

---

(١) السير ٥٢١/١٠ .
(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢٢٦/١ .
(٣) السير ٢٠١/١١ .
(٤) السير ٢٣١/١١ .

عن شيء إلَّا مرتين ؛ هيبةً له[١] .

« وقال عمرو الناقد : كنا عند وكيع ، وجاء أحمد بن حنبل فقعد ، وجعل يصف من تواضعه بين يديه ، قال عمرو : فقلت : يا أبا عبد الله ، إن الشيخ يُكرمك فما لك لا تتكلّم ؟ قال : وإن كان يكرمني ، فينبغي لي أن أجلَّه .

وقال قتيبة بن سعيد : قدمتُ بغداد وما كانت لي همّة إلا أن ألقىٰ أحمد ابن حنبل ، فإذا هو قد جاءني مع يحيىٰ بن معين فتذاكرنا ، فقام أحمد بن حنبل وجلس بين يديّ ، وقال : أَمْلِ عليَّ هذا . ثم تذاكرنا ، فقام أيضًا وجلس بين يديّ ، فقلتُ : يا أبا عبد الله ، اجلسْ مكانك . فقال : لا تشتغلْ بي ، إنما أريد أن آخذ العلم على وجهه .

وقال إسحاق الشهيد : كنتُ أرى يحيىٰ القطَّان يصلِّي العصر ، ثم يستند إلى أصل منارة مسجد ، فيقف بين يديْه : عليُّ بن المديني ، والشاذكوني ، وعمرو بن علي ، وأحمد بن حنبل ، ويحيىٰ بن معين ، وغيرهم ، يستمعون الحديث ، وهم قيام على أرجلهم ، إلى أن تحين صلاة المغرب ، لا يقول لأحد منهم : اجلسْ ؛ ولا يجلسون هيبةً وإعظامًا .

وقال خلف : جاءني أحمد بن حنبل يسمع حديث أبي عُوانة ، فاجتهدتُ أن أرفعه فأبى وقال : لا أجلس إلَّا بين يديك ، أُمِرْنا أن نتواضع لمن نتعلَّم منه[٢] .

قال الحسن بن إسماعيل : سمعتُ أبي يقول : كان يجتمع في مجلس أحمد زهاءَ خمسةِ آلافٍ أو يزيدون ، أقل من خمسمائة يكتبون ، والباقون يتعلَّمون

---

(١) السير ٨/٢٩٠ .
(٢) مناقب الإمام أحمد ٨٢ - ٨٣ .

منه حُسْن الأدب وحسن السَّمْت[١].

وقال إبراهيم الحربي : كان أحمد بن حنبل كأنه رجل قد وُفِّق للأدب ، وسُدِّد بالحلْم ، ومُلِئ بالعلم ، أتاه رجل يومًا فقال له : عندك كتاب زندقة ؟ فسكت ساعةً ثم قال له : إنما يُحرز المرء قبره[٢].

قال الميموني : قال لي أحمد : يا أبا الحسن ، إياك أن تتكلّم في مسألة ليس لك فيها إمام[٣] .

وقال أبو بكر بن المُطَّوِّعي : اختلفتُ إلى أبي عبد الله ثنتي عشرة سنة ، وهو يقرأ « المسند » على أولاده ، فما كتبتُ عنه حديثًا واحدًا ، إنما كنتُ أنظر إلى هدْيه وأخلاقه[٤].

وعن ابن المنادي ، عن جده أبي جعفر قال : كان أحمد من أحيا الناس وأكرمهم ، وأحسنهم عشرةً وأدبًا ، كثيرَ الإطراق ، لا يُسمَع منه إلا المذاكرة للحديث وذِكْر الصالحين في وقارٍ وسكون ولفظ حسن ، وإذا لقيه إنسان بشَّ به وأقبل عليه ، وكان يتواضع للشيوخ شديدًا ، وكانوا يعظِّمونه ، وكان يفعل بيحيى بن معين ما لم أره يعمل بغيره ، من التواضع والتكريم والتبجيل . كان يحيى أكبر منه بسبْعِ سنين[٥].

وقال حنبل : رأيتُ أبا عبد الله إذا أراد القيام ، قال لجلسائه : إذا شئتم .

« ومن آدابه : قال عبد الله بن أحمد : رأيتُ أبي يأخذ شعرةً من شعر

(١) مناقب الإمام أحمد ص٢٧١ .
(٢) مناقب الإمام أحمد ص ٢٨٧ .
(٣) السير ٢٩٦/١١ .
(٤) السير ١١ / ٣١٦ .
(٥) السير ٣١٧/١١ - ٣١٨ .

النبي ﷺ ، فيضعها على فيه ويقبّلها ، وأحسب أني رأيتُه يضعها على عينه ، ويغمسها في الماء ويشربه ، يستشفي به .

ورأيتُه أخذ قصعة النبي ﷺ ، فغسَلَها في حُبِّ الماء ثم شرب فيها .

قال الذهبي : قلتُ : أين المتنطِّع المنكر على أحمد ... أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع »[١] .

وقال الميموني : قال لي القاضي محمد بن محمد بن إدريس الشافعي : قال لي أحمد : أبوك أحد السِّتة الذين أدعو لهم سحَرًا[٢] .

وقال أحمد رحمه الله : « ما مسَّ أحدٌ بيده محبرة إلّا وللشافعي في عنقه مِنَّة » .

وقال رحمه الله : كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن ، فانظر : هل عن هذيْن من عِوَض ؟ .

قال ابن حنبل : « ما صلَّيتُ صلاةً منذ أربعين سنة ، إلّا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله .

قال المروزي : رأيتُ أبا عبد الله إذا كان في البيت ؛ عامّة جلوسه متربِّعًا خاشِعًا ، فإذا كان بَرًّا ، لم يتبيَّن منه شدَّة خشوع .

قال أبو زُرعة : كنتُ عند أحمد بن حنبل ، فذكر إبراهيم بن طهمان - وكان متَّكئًا من عِلَّة - فجلس وقال : لا ينبغي أن يُذكَر الصالحون فيُتَّكَأ »[٣] .

---

(١) السير ٢١٢/١١ .
(٢) السير ٢٢٧/١١ .
(٣) السير ٣٨١/٧ .

أدب يحيى بن سعيد القطّان :

انظرْ إلى أدبه مع إخوانه وأقرانه :

قال يحيى بن سعيد القطان رحمه الله: «ما صلَّيتُ صلاةً منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي؛ لِما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفَّقه للسداد فيه»[١].

الإمام مسلم بن الحجّاج وأدبُه مع شيخه البخاري :

قال محمد بن حمدون بن رستم : سمعتُ مسلم بن الحجاج ، وجاء إلى البخاري فقال : دعني أُقبِّل رجليْك يا أُستاذ الأُستاذِين ، وسيِّد المُحَدِّثين ، ويا طبيب الحديث في عِلَلِه .

أبو عُمر محمد بن يوسف القاضي وأدبه مع إبراهيم الحربي :

لمّا دخل شيخ الإسلام أبو إسحاق إبراهيم الحربي على إسماعيل القاضي ؛ بادَر أبو عمر محمد بن يوسف القاضي إلى نعْلِهِ ، فأخذها فمسحها من الغبار ، فدعا له ، وقال : أعزَّك الله في الدنيا والآخرة . فلمّا تُوفي أبو عمر ، رُئي في النوم ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : أعزَّني في الدنيا والآخرة بدعوة الرجل الصالح[٢] .

أدبُ العلماء مع شيخ الإسلام البوشنجي :

قال أبو زكريا العنبري : شهدتُ جنازة الحسين القبّاني ، فصلَّى بنا عليه أبو عبد الله البوشنجي ، فلمّا أرادوا الانصراف ؛ قُدِّمتْ دابَّة أبي عبد الله ، وأخذ أبو عمرو الخفاف بلجامه ، وأخذ إمام الأئمة بركابه ، وأبو بكر الجارودي ، وإبراهيم بن أبي طالب يُسوِّيان عليه ثيابه ، فلم يمنع واحدًا منهم

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٤٥ .

(٢) السير ١٣/٣٥٧ - ٣٥٨ .

ومضى»[١] .

وقال البوشنجي رحمه الله : مَن أراد العلم والفقه بغير أدب ؛ فقد اقتحم أن يكذب على الله ورسوله[٢] .

الحافظ السِّلَفي :

قال عنه عبد القادر الحافظ : كان أبو طاهر - السلفي - لا تبدو منه جفوة لأحد ، ويجلس للحديث فلا يشرب ماء ، ولا يبزق ولا يتكلّم ، ولا يتورَّك ، ولا تبدو له قدم وقد جاوز المائة[٣] .

أسدُ الشام ، الشيخ الزاهد العابد : عبد الله اليونيني :

حكى الشيخ عبد الصمد قال : والله مذ خدمتُ الشيخ عبد الله ، ما رأيتُه استند ولا سعلَ ولا بصَق[٤].

أبو علي الدقَّاق :

قال أبو القاسم القشيري : « كان الأستاذ أبو علي لا يستند إلى شيء ، فكان يومًا في مجمع ، فأردتُ أن أضع وسادةً خلف ظهْره ؛ لأني رأيتُه غيرَ مستند ، فتنحى عن الوسادة قليلًا ، فتوهَّمتُ أنه توقى الوسادة ؛ لأنه لم يكن عليها خِرْقة أو سَجَّادة ، فقال : لا أريد الاستناد . فتأمَّلتُ بعد ذلك أنه لا يستند إلى شيء أبدًا » .

أبو بكر الكتاني :

« قال أبو بكر الكتاني : صحبني رجلٌ وكان على قلبي ثقيلًا ، فوهبتُ

---

(١) السير ١٣/٥٨٢ - ٥٨٣ .
(٢) السير ١٣/٥٨٦ .
(٣) السير ٢١/٥ - ٣٩ .
(٤) السير ٢٢/١٠٢ - ١٠٣ .

له شيئًا بنيَّة أن يزول ثِقَلُه مِن قلبي فلم يَزُلْ ، فخلوتُ به يومًا وقلتُ له : ضعْ رِجْلَك على خدِّي فأبى ، فقلتُ له : لا بدَّ من ذلك ، ففعلَ ذلك فزال ما كنتُ أجده في باطني .

قال الرقي : قصدتُ من الشام إلى الحجاز حتى سألتُ الكتَّاني عن هذه الحكاية »[(١)] .

أبـو عبـد الله بن خفيف :

« ورد عليّ بن بندار على أبي عبد الله بن خفيف زائرًا ، فتماشَيَا فقال له أبو عبد الله : تقدَّمْ . فقال : بأيِّ عذر ؟ فقال : بأنك لقيتَ الجنيد وما لقيتُه »[(٢)] .

درجـات الأدب :

وعالي الهمَّة هو مَن استكمل درجات الأدب ، وترقَّى فيها درجة بعد درجة . وهذه الدرجات ذكَرَها شيخ الإسلام الهروي في « منازل السائرين » ، وشرحها ابن القيم في شرحه المبارك « مدارج السالكين » .

قال الهروي : « وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى :مَنْعُ الخوف أن يتعدَّى إلى اليأس ، وحبْسُ الرجاء أن يخرجَ إلى الأمْن ، وضبْطُ السرور أن يضاهئ الجرأة » :

قال ابن القيم : « يريد : أنه لا يدع الخوف يُفضي به إلى حدٍّ يُوقعه في القنوط ، واليأس من رحمة الله ، فإن هذا الخوف مذموم .

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : حدُّ الخوْف ما حجزك عن معاصي الله ، فما زاد على ذلك ، فهو غير محتاج إليه .

---

(١) ، (٢) عوارف المعارف للسهروردي ص٢٨٣ .

وهذا الخوف الموقع في الإياس : إساءة أدب على رحمة الله التي سبقتْ غضَبَه،وجهلٌ بها .

وأما حبْس الرجاء أن يخرج إلى الأمن : فهو أن لا يبلغ به الرجاء إلى حدٍّ يأمن معه العقوبة ؛ فإنه لا يأمن مكرَ الله إلّا القوم الخاسرون . وهذا إغراق في الطَرفِ الآخر . بل حدُّ الرجاء : ما طيَّب لك العبادة ، وحملك على السير ، فهو بمنزلة الرياح التي تُسيِّر السفينة ، فإذا انقطعتْ وقفتِ السفينة ، وإذا زادت ألقتْها إلى المهالك ، وإذا كانت بقدَرٍ أوصلتْها إلى البُغية .

وأمّا ضبْط السرور أن يخرج إلى مشابهة الجرأة : فلا يقدر عليه إلّا الأقوياء أرباب العزائم ، الذين لا تستفزُّهم السَّرَّاء فتغلب شكْرَهم ، ولا تُضعفهم الضرَّاء فتغلب صبرهم . كما قيل :

لا تغلب السراءُ منهمْ شُكرهُمْ كلَّا ولا الضرّاءُ صبْرَ الصابرِ

والنفس قرينة الشيطان ومصاحِبته ، وتشبهه في صفاته . ومواهب الربِّ تبارك وتعالى تنزل على القلب والرُّوح ، فالنفس تسترِقُ السمْع ، فإذا نزلت على القلب تلك المواهب ؛ وثَبَتْ لتأخذ قِسطًا منها ، وتصيّره من عُدَّتها وحواصلها ، فالمسترسِل معها ، الجاهل بها : يدَعُها تستوفي ذلك . فبينا هو في موهبة القلب والروح وعدَّةٍ وقوَّةٍ له ؛ إذ صار ذلك كلّه من حاصل النفس وآلتها وعددها ، فصالتْ به وطغت ؛ لأنها رأت غناها به . والإنسان يطغىٰ أن رآه استغنى بالمال ، فكيف بما هو أعظم خطرًا ، وأجلُّ قدْرًا من المال ، بما لا نسبة بينهما ؛ من علمٍ أو حال ، أو معرفة أو كشف ؟! فإذا صار ذلك من حاصلها ؛ انحرف العبد به - ولا بد - إلى طَرف مذموم ؛ من جرأة ، أو شطْح ، أو إدلال ، ونحو ذلك .

فوالله ِكم هاهنا من قتيل وسليب وجريح ، يقول : مِن أين أُتِيتُ ؟ ومن أين دُهِيتُ ؟ ومن أين أُصبتُ ؟ وأقلُّ ما يُعاقَب به من الحرمان بذلك : أن

يغلق عنه باب المزيد . ولهذا كان العارفون وأرباب البصائر إذا نالوا شيئًا من ذلك ؛ انحرفوا إلى طرَف الذلِّ والانكسار ومطالعة عيوب النفس ، واستدعَوْا حارس الخوف ، وحافظوا على الرباط بملازمة الثغْر بين القلب وبين النفس ، ونظروا إلى أقرب الخلْق من الله ، وأكرمهم عليه ، وأدناهم منه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهًا ، وقد دخل مكَّة يوم الفتح وذقْنُه تمسُّ قُربوسَ سَرْجِه ؛ انخفاضًا وانكسارًا ، وتواضعًا لربِّه تعالى في مثل تلك الحال ، التي عادة النفوس البشرية فيها : أن يملكَها سرورُها ، وفرحُها بالنصر والظفر والتأييد ، ويرفعها إلى عنان السماء .

فالرجل : مَن صان فتْحَهُ ونصيبَه من الله ، وواراه عن استرقاق نفسه ، وبخِلَ عليها به . والعاجز : مَن جاد لها به . فيا له من جُود ما أقبحه !! وسماحة ما أسْفَهَ صاحبها !! والله المستعان »[١] .

الدرجة الثانية : « الخروج من الخوف إلى ميدان القبْض ، والصُّعُود مِن الرجاء إلى ميدان البسْط ، ثم الترقِّي من السرور إلى ميدان المشاهدة » :

قال ابن القيم : « ذكَر في الدرجة الأولى : كيف يحفظ الحدّ بين المقامات ، حتى لا يتعدَّى إلى غلوٍّ أو جفاء ، وذلك سوء أدب .

فذكر مع الخوف : أن يخرجه إلى اليأس ، ومع الرجاء : أن يُخرجه إلى الأمن ، ومع السرور : أن يخرجه إلى الجرأة .

ثم ذكر في هذه الدرجة : أدبَ الترقِّي من هذه الثلاثة إلى ما يحفظه عليها ، ولا يضيِّعها بالكلِّيَّة . كما أنَّ في الدرجة الأولى : لا يبالغ به ، بل يكون خروجه من الخوْف إلى القبْض ؛ يعني : لا يزايل الخوْف بالكلِّية ، فإن قبضه لا يُؤْيسه ولا يقنطه ، ولا يحمله على مخالفة ولا بطالة .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٣ – ٣٩٥ .

وكذلك رجاؤه : لا يقعد به عن ميدان البسْط ، بل يكون بين القبْض والبسْط ، وهذه حال الكُمَّل ، وهي السيْر بين القبْض والبسط .

وسروره : لا يقعد به عن ترقِّيه إلى ميدان مشاهدته ، بل يرْقَى بسروره إلى المشاهدة ، ويرجع من رجائه إلى البسْط ، ومن خوْفه إلى القبْض .

ومقصوده : أن ينتقل من أشباحِ هذه الأحوال إلى أرواحها ؛ فإن الخوف شَبَحٌ والقبْض رُوحه ، والرجاء شبح والبسْط روحه ، والسرور شبح والمشاهدة روحه ، فيكون حظُّه من هذه الثلاثة : أرواحها وحقائقها ، لا صُوَرها ورسومها »[1] .

الدرجة الثالثة: «معرفة الأدب، ثم الفَناء عن التأدُّب بتأديب الحقِّ ، ثم الخلاص مِن شهود أعباءِ الأدب » :

قال ابن القيم : « قوله : « معرفة الأدب » : يعني لا بد من الاطِّلاع على حقيقته في كل درجة ، وإنما يكون ذلك في الدرجة الثالثة ، فإنه يُشرِف منها على الأدب في الدَّرجتين الأُولَيَيْن، فإذا عرفه وصار له حالًا؛ فإنه ينبغي له أن يفنَى عنه ، بأن يُغَلِّب عليه شهودَ مَن أقامه فيه ، فينسبَهُ إليه تعالى دون نفسه ، ويَفنَى عن رُؤية نفسه وقيامها بالأدب ؛ بشهود الفضل لمَن أقامها فيه ومِنَّته . فهذا هو الفناء عن التأدُّب بتأديب الحق »[2] .

فيا له من مقام ، يُجمّل العبادة ، وينظِّم كلَّ الحياة ، وتُوزَن به الأحوال والمقامات !!

* * *

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٥ - ٣٩٦ .
(٢) مدارج السالكين ٢/٣٩٦ .

الفصل الثالث والعشرون

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
طَلَبِ الجَنَّةِ

« مَن خاف أدلج ، ومَن أدلج بلغ المَنزِل ، ألا إنَّ سِلْعَة اللهِ غالية ، إلا إن سِلْعَة اللهِ : الجنة » .

[حديث صحيح]

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في طلبِ الجنَّة □

قال تعالى : ﴿ وفي ذلك فلْيتنافَسِ المتنافسون ﴾ .

مطلبٌ يستحقُّ المنافسة ، أُفقٌ يستحقُّ السباق ، وغايةٌ تستحقُّ الغلاب .

والذين يتنافسون في شيء من أشياء الأرض - مهما كبر وجلَّ وارتفع وعظم - إنما يتنافسون في حقير فانٍ قريب . والدنيا لا تزن عند الله جَنَاح بعوضة ، هزيلة زهيدة ، فهوّنْ من شأنها ، وارفع نفسَك عنها ... لَعِبٌ ولهوٌ وزينة وتفاخر وتكاثر .

فليس السباق إلى إحراز اللَّهْو واللعب والتفاخر والتكاثر : بسباقٍ يليق بمن شَبُّوا عن الطَّوْق ، وتركوا عالَم اللَّهْو واللَّعب للأطفال والصغار ، إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك المُلْك العريض ﴿ وجنةٍ عَرْضُها كعرضِ السماءِ والأرض ﴾ [الحديد : ٢١] .

مَن رضي بالحظِّ الخسيس مِن عاجل الدنيا ؛ بقي عن نفيس الآخرة .

إن الحياة للأرض حياة تليقُ بالديدان والزواحف ، والحشرات والهوامّ ، والوحوش والأنعام ، فأمّا الحياة الآخرة فهي الحياة اللائقة بذلك الإنسان الكريم على الله ، الذي خلقه فسوَّاه ، وأودع رُوحه الإيمان الذي ينزع به إلى السماء ، وإن استقرَّت على الأرض قدماه .

إن من شاء التفاوتَ الحقَّ ، والتفاضُلَ الضخم ؛ فهناك في الآخرة ، هنالك في الرقعة الفسيحة ، والآماد المتطاولة التي لا يعلم حدودها إلّا الله ، وفي ذلك فليتنافسِ المتنافسون ، لا في متاع الدنيا القليل الهزيل !! .

الآخرة ثقيلة في ميزان الله :

والتنافس في أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعًا ، بينما التنافس

في أمْر الدنيا ينحطُّ بهم جميعًا .

التنافس في الآخرة يرفع الأرواح إلى آفاقٍ أرفع وأطهر من المستنقع الآسِن .

إن مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف ، ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود ؛ فأين مجالٌ من مجال ؟ وأين غاية من غاية ؟ .

ألا إن السباق إلى هناك :

« فهلمَّ إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام ، بلا نصَبٍ ولا تعَبٍ ولا عناء ، بل من أقرب الطرق وأسهلها ، وذلك أنك في وقت بين وقتَيْن ، هو في الحقيقة عمرك ، وهو وقتك الحاضر ، بين ما مضى وما يُستقْبَل ؛ فالذي مضى تُصلحه بالتوبة والندم ، وهو عمل قلبٍ ، وما يُستَقبَل تُصلحه بالعزْم والتوبة »[(١)] .

إن مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام .. ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب .

أخي ، إيَّاك أن تكون ممن قال فيهم يحيى بن معاذ الرازي : « عملٌ كالسَّراب ، وقلب من التقوى خراب ، وذنوب بعَدَد الرَّمْل والتراب ، ثم تطمع في الكواعب الأتراب ؟! هيهات ؛ أنت سكران بغير شراب . ما أكملك لو بادرتَ أمَلَكَ ! ما أجلَّك لو بادرتَ أجلك ! ما أقواك لو خالفت هواك ! »[(٢)] .

يا هذا ، لقد أعظمتَ المَهْرَ وأسأت الخِطبة .

إنَّها الجنة :

التي حولها دندن رسول الله ﷺ وأنبياءُ الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١) الفوائد لابن القيم .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦/١٦٧ .

إنَّها الجنة :

بأنفاسها الرضية النديَّة ، تتجلى عليها طلْعة الرحمـٰن الجليلة البهيَّة .

إنها الجنة التي اشتاق إليها الصالحون مِن هذه الأمة :

فهذا (**عُمَيْر بن الحمام**) الصحابي الجليل ، في يوم بدر يسمع رسول الله ﷺ يقول : « قوموا إلى جنة عرضُها السموات والأرض » . يقول عمير ابن الحمام الأنصاري : يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : « نعم » . قال : بَخٍ بخٍ . فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قول بخٍ بخٍ ؟ » . قال : لا والله يا رسول الله ، إلَّا رجاء أن أكون من أهلها . قال : « فإنك من أهلها » . قال : فأخرج تمْرَاتٍ من قرنه فجعل يأكل منهنَّ ، ثم قال : لئنْ حَيِيتُ حتى آكل تمراتي هذه ؛ إنها لَحَياةٌ طويلة . قال : فرمىٰ ما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قُتل . رَحِمَه الله(١) .

وذكَر ابن جرير أن عُمَيرًا قاتل وهو يقول - رضي الله عنه -:

رَكْـضًا إلـى اللهِ بغيـرِ زادِ   إلّا التُّقَـى وعَـمَل المعَـادِ

وهذا سيد بني سَلَمَة (**عمرو بن الجموح**) رضي الله عنه ؛ « لمّا كان يوم أُحد قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى جنة عَرْضُها السموات والأرض أُعدَّت للمتقين » . فقام وهو أعرج ، فقال : والله لأقحزنَّ(٢) عليها في الجنة . فقاتل حتى قُتل »(٣) .

إنها الجنة :

فسلوا عنها السيِّد الشهيد (**جعفرَ الطَّيَّار**) رضي الله عنه :

الذي قال شوقًا إليها في يوم مُؤْتَة :

---

(١) رواه أحمد ومسلم .

(٢) أي : لأثِبَنَّ . والقحْز : الوَثْب .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/٢٥٣ .

يا حبَّذا الجنةُ واقْتِرابُها طيِّبةٌ وباردٌ شرابُها

إنها الجنة :

الجزاءُ الرفيعُ الخالص الفريد .. الجزاء الذي تتجلَّى فيه ظلال الرعاية الخاصَّة ، والإعزاز الذاتي ، والإكرام الإلـٰهي ، والحفاوة الربَّانيَّة بهذه النفوس ؛ ﴿ **فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرَّة أَعْيُنٍ جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ [السجدة : ١٧] ؛ تعبير عجيب يَشي بحفاوة الله سبحانه ، وتولِّيه بذاته العليَّة إعدادَ المذخور لهم عنده ؛ من الحفاوة والكرامة مما تَقَرُّ بِهِ العيون.. هذا المذخور الذي لا يطَّلع عليه أحد سواه ، والذي يظلُّ عنده خاصَّة مستورًا ، حتى يُكشَف لأصحابه عند يوم لقائه ، عند لُقياه ؛ وإنها لَصورة وضيئة لهذا اللقاء الحبيب الكريم في حضرة الله .

يا الله !! كم ذا يُفيض الله على عباده من كرمه !! وكم ذا يغمرهم سبحانه بفضله !! ومَن هم حتى يتولَّى اللهُ جلَّ جلاله إعدادَ ما يدَّخره لهم من جزاء ، في عناية ورعاية وودٍّ واحتفال ، لولا أنه فضل الكريم المنَّان !! فضل الله الكريم حتى يفتح أبواب رحمته الواسعة ، أبواب الجنان .

إنها الجنة :

التي غرَسَ غراسَها الرحمـٰن بيده ؛ فرحم الله أقوامًا عظَّموا مَن غرسَها ، وقدَروا قدْرَ الغرس .

وفي الحديث الصحيح : « قال : يا ربِّ ، أخبرني بأعلاهم منزلةً . قال : أولئك الذين أردتُ ، وسوف أُخبرك ؛ غرستُ كرامتهم بيدي وختمتُ عليها ... » . فقد أَخبر أنه غرَس جنَّتهم بيده سبحانه .

ومن حديث ابن عمر موقوفًا : « خلَق اللهُ أربعة أشياء بيده : العرش ،

والقلَم ، وعدْن ، وآدم عليه السلام »[1] .

إنها الجنة :

التي لا يُسأل بوجْهِ اللهِ العظيم غيرُها ، لكرامتها على الله .

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**أنسَ بن النضْر**) رضي الله عنه :

يقول لسعد بن معاذ : « واهًا لريح الجنة !! أجده دون أُحُد »[2].

وفي « أُسْد الغابة » : « أي سعد ، هذه الجنة وربِّ أنس ، أجد ريحها دون أُحد »[3] .

يا ابن النضر ، طال شوقكم إلى الجنة ، وطهَّرتْ منكم الأقوالَ والأعمالَ والأجساد ، فشَمَمْتُم عبير الجنة !! ونحن زُكمتْ أُنوفنا بعِطْر الكاسيات العاريات وبجيف الدنيا ، فلم تجد الجنة فيها موضعًا .

إنها الجنة :

خُذْني إلى بيتي أرِحْ خدِّي على عتباتِهِ
وأبوس مقبضَ بابِهِ
خذْني إلى وطنٍ أموتُ مشرَّدًا
إن لم أُكحِّلْ ناظري بتُرابِهِ

إنها الجنة :

دار كرامة الرحمـٰن ؛ فهل مِن مشمِّرٍ لها ؟

---

(١) رواه الدارمي في : الردّ على بشْر المريسي ، والبيهقي في : الأسماء والصفات ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد . ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

(٢) البداية والنهاية ٦/٣٣ .

(٣) أسد الغابة ١/١٥٥ .

نحـنُ اعتصرْنَا غيْمَ كلِّ خرائطِ الدنيا
وأشـعار الحنين إلى الوطنْ
لا ماؤها يروي ولا أشعارها تكوي
ولا تُنسي عـــدنْ

إنها الجنة :

فاعمل لها بقدْرِ مقامك فيها .

إنها الجنة :

فاعمل لها بقدْر شوقك إليها .

يقول ابن القيم : « لمّا علم الموفَّقون ما خُلقوا له وما أريد بإيجادهم ؛ رفعوا رؤوسهم ، فإذا علَمُ الجنة قد رُفع لهم فشمَّروا إليه ، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه ، ورأوا من أعظم الغبْن بيْعَ ما لا عيْن رأت ، ولا أُذن سمِعَتْ ، ولا خطر على قلب بَشَر ، في أبدٍ لا يزول ولا ينفد ، بصبابة عيْش إنما هو كأضغاث أحلام ، أو كطيْف زار في المنام ، مشوب بالنغص ، ممزوج بالغُصَص ، إن أضحَكَ قليلًا أبكَى كثيرًا ، وإن سرَّ يومًا أحْزَنَ شهورًا ؛ آلامه تزيد على لَذَّاته ، وأحزانه أضعاف مَسـرَّاته ، أوَّله مخاوِف ، وآخره مَتَالِف .. فيا عجبًا من سفيه في صورة حليم ، ومعتوه في مسلاخ عاقل ، آثرَ الحظَّ الفاني على الحظِّ الباقي النفيس . وباع جنة عَرْضها الأرض والسمٰوات ، بسجنٍ ضيِّق بين أرباب العاهات والبليَّات . ومساكن طيِّبة في جنات عدْن تجرى من تحتها الأنهار ؛ بأعطان ضيقةٍ آخرها الخراب والبوار . وأبكارًا عُرُبـًا أترابًا كأنهنَّ الياقـوت والمَرْجان، بِقَذِراتٍ دَنِسَاتٍ سيِّئات الأخلاق ، مُسَافِحاتٍ أو متَّخذاتِ أَخْدان . وحورًا مقصوراتٍ في الخيام ، بخبيثاتٍ مسيَّباتٍ بين الأنام . وأنهارًا من خمْرٍ لذَّةٍ للشاربين ، بشرابٍ نَجِسٍ مُذهِبٍ للعقل ، مُفسد

للدنيا والدين. ولَذَّة النظر إلى وجْه العزيز الرحيم، بالتمتُّع برؤية الوجْه القبيح الدميم. وسَمَاعَ الخطابِ من الرحمـٰن، بسماعِ المعازف والغناء والألحان. والجلوس على منابرِ اللؤْلؤ والياقوتِ والزَّبرجدِ يوم المزيد بالجلوس في مجالس الفسوق مع كلِّ شيطان مَرِيد. ونداء المنادي: يا أَهل الجنة، إنَّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا، وتحيَوْا فلا تموتوا، وتقيموا فلا تظعنوا، وتشِبُّوا فلا تهرموا؛ بغناء المغنِّين.

وقَفَ الهوىٰ بي حيثُ أنتَ فليسَ لي   متأخَّـرٌ عنـهُ ولا متقـدَّمُ
أجـدُ الملامـةَ في هـواكَ لـذيـذةً   حبًّا لـذكْـرِكَ فلْيَـلُمْني اللُّـوَّمُ

وإنما يظهر الغبْن الفاحش في هذا البيع يوم القيامة، وإنما يتبيَّن سَفَهُ بائعه يوم الحسرة والندامة؛ إذا حُشر المتقون إلى الرحمٰن وفدًا، وسيق المجرمون إلى جهنَّم وِرْدًا، ونادىٰ المنادي على رؤوس الأَشْهادِ: ليَعْلمنَّ أهْلُ الموقفِ مَنْ أَوْلى بالكرمِ مِنْ بين العباد. فلو توهَّم المتخلِّف عن هذه الرُّفْقَة ما أعدَّ الله لهم من الإكرام، وادَّخر لهم من الفضل والإنعام، وما أخفى لهم من قُرَّة أعْيُنٍ لم يقعْ على مثلِها بصَرٌ، ولا سمِعتْهُ أُذُنٌ ولا خطَر على قلب بشر- لعَلِمَ أيَّ بضاعةٍ أضاع، وأنَّه لا خيرَ له في حياته وهو معدود من سقَطِ المتاع، وعلِم أنَّ القوم قد توسَّطوا ملكًا كبيرًا لا تعتريه الآفات، ولا يلحقه الزوال، وفازوا بالنعيم المقيم في جوار الكبير المتعال: فهم في روضاتِ الجنَّة يتقلَّبون، وعلى أسِرَّتِها تحتَ الحِجال يجلسون، وعلى الفُرشِ التي بَطَائِنُها مِن إستبرقٍ يتَّكِئون، وبالحُور العِين يتنعَّمون، وبأنواع الثمار يتفكَّهُون، و ﴿**يطوف عليهم ولدان مخلَّدون بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من معين لا يُصدَّعون عنها ولا يُنزفون وفاكهة ممَّا يتخيَّرون ولَحْمِ طيْرٍ مما يشتهون وحُور عِينٍ كأمثال اللُّؤلؤ المكنون جزاءً بما كانوا يعملون**﴾.

﴿**يُطاف عليهم بصحافٍ من ذهَبٍ وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعْيُن وأنتمْ فيها خالدون**﴾.

تالله لقد نُودي عليها في سُوق الكَسَاد، فما قلَّب ولا استام إلّا أفرادٌ من العِبَاد، فواعجبًا لها كيفَ نام طالبُها، وكيف لم يسمحْ بمَهْرِها خاطبُها؟!

وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها ؟! وكيف قرَّ للمشتاقِ القَرَارُ دون معانقة أبكارها ؟! وكيف قرَّتْ دونها أعيُن المشتاقين ؟! وكيف صبرَتْ عنها أنفس الموقنين ؟! وكيف صدَفت عنها قلوبُ أكثرِ العالَمين ؟! وبأيِّ شيءٍ تعوَّضَتْ عنها نفوس المُعْرِضين ؟! »[1] .

قال رسول الله ﷺ : « مَن خاف أدلج ، ومَن أدلَجَ بلغَ المنزل ، ألَا إنَّ سِلْعَةَ الله غالية ، ألَا إن سلعة اللهِ الجنة »[2].

وفي الصحيح : « إن الله عز وجلَّ يقول لآدم عليه السلام : يا آدمُ ، اذهبْ فأخرج بعْثَ ذرِّيَّتك إلى النار؛ فيخرج من كلِّ ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعين » .

يا سلعة الرحمٰن ، هل ينالُك في عُلاك إلّا كلُّ عالي الهمة غير مُخلِدٍ إلى الأرض والحطامِ الفاني ؟!

يا سلْعَةَ الرحمٰن لستِ رخيصةً ... بلْ أنتِ غاليةٌ على الكَسْلانِ
يا سلعةَ الرحمٰنِ ليسَ ينالُها ... في الألْفِ إلّا واحدٌ لا اثنانِ
يا سلعةَ الرحمٰنِ ماذا كُفْؤُها ... إلّا أولو التقوىٰ مع الإيمانِ
يا سلعةَ الرحمٰنِ سُوقُكِ كاسِدٌ ... بين الأراذِلِ سفلةِ الحيوانِ
يا سلعةَ الرحمٰنِ أين المُشترِي ... فلقدْ عُرِضْتِ بأيْسرِ الأثمانِ
يا سلعةَ الرحمٰنِ هلْ منْ خاطبٍ ... فالمهرُ قبلَ الموتِ ذو إمكانِ
يا سلعةَ الرحمٰنِ كيف تَصبّرَ الْـ ... ـخُطّاب عنكِ وهمْ ذوو إيمانِ

---

(١) حادي الأرواح ص٦ - ٧ .

(٢) صحيح : رواه الترمذي ، والحاكم وصححه عن أبي هريرة ، ورواه عبد بن حُميد ، والعقيلي في « الضعفاء » وأبو نعيم ، والقضاعي ، والحاكم عن أُبيّ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٩٨ .

يا سلعةَ الرحمٰنِ لولا أنَّهـا حُجِبَتْ بكلِّ مكارِهِ الإنسـانِ
ما كان عنها قطُّ مِن متخلّفٍ وتعطَّلتْ دارُ الجزاءِ الثانـي
لكنَّها حُجِبَتْ بكلِّ كريهـةٍ لِيُصَدَّ عنها المُبطِلُ المتوانـي
وتنالُها الهممُ التي تسمو إلىٰ ربِّ العُلىٰ بمشيئةِ الرحمٰـنِ
فاتعبْ ليومِ معادِكَ الأدنى تجدْ راحاتِـهِ يـومَ المعـادِ الثانـي
وإذا أبتْ ذا الشان نفسُكَ فاتَّهِمْـ ـها ثمَّ راجِعْ مَطْلَعَ الإيمـان
فإذا رأيتَ الليلَ بَعْدُ وصبحَهُ ما انشـقَّ عنهُ عمـودُه لأَذَانِ
والناسُ قد صلّوا صلاةَ الصبحِ وانـ ـتظروا طلوعَ الشمسِ قُرْبَ زمانِ
فاعلمْ بأنَّ العيْنَ قد عَمِيَتْ فنا شِدْ ربَّك المعروفَ بالإحسانِ
واسْألْهُ إيمانًا يُباشرُ قلبَكَ الْـ ـمحجوبَ عنهُ لِتنظرَ العينانِ
واسأَلْهُ نورًا هاديًا يَهديكَ في طُرُقِ المسيرِ إليهِ كـلَّ أَوَانِ

إنها الجنَّة :

لله قومٌ نهضتْ بهم عزائمهم نحو الجنة فسَرَوْا إليها مدلجين ، لم ينزلوا بشيء من منازل الطريق مستريحين ، ولكنهم واصلوا السيْر إلى غايتهم مُعرضين عن هذا الخزف الخسيس مُؤْثرين عليه الذَهَبَ النَّفِيس، ساروا إليها تَحْدُوهم أشواقهم قاصدين إليها غير متعثِّرين ولا مُعْوجِّين ، ولا وانين ولا متخلِّفين ، حتى وصلوا إلى غايتهم سالمين .. ما ضرَّهم في الدنيا ما أصابهم ، جبرَ الله لهم بالجنة كلَّ مصيبة .

وأخو البصائرِ حاضـرٌ متيقظٌ متفـرِّدٌ عن زمـرةِ العُمْيـانِ
يسمو إلىٰ ذاكَ الرفيقِ الأرفعِ الْـ أعلى وخَلَّىٰ اللَّعبَ للصـبيـانِ
والناسُ كلُّهـمُ فصبيانٌ وإنْ بَلَغُوا سِوىٰ الأفراد والوجدانِ
وإذا رأىٰ ما يشتهيهِ قالَ مَوْ عِـدُكَ الجنانُ وجدَّ في الأثمانِ
وإذا أَبَتْ إلّا الجِمَاحَ أعاضَها بالعلْـمِ بعـدَ حقائقِ الإيمـانِ

تاللهِ ما عقلَ امرؤٌ قد باع ما ... يبقى بما هو مضمحلٌّ فانِ
هذا ويُفتي ثم يقضي حاكمًا ... بالحجرِ من سَفَهٍ لذا الإنسانِ
إذْ باعَ شيئًا قدْرُهُ فوقَ الذي ... يعتاضُه مِن هذه الأثمانِ
فمَن السَّفِيهُ حقيقةً إنْ كنتَ ذا ... عقلٍ وأنَّى العقلُ للسَّكْرانِ

إنها الجنة :

دار الموقنين بوعد الله .

تسعى بهم أعمالُهُمْ سَوْقًا إلى الـ ... ـدَّارَيْن سَوْقَ الخيلِ بالرُّكْبَانِ
صبروا قليلًا فاستراحوا دائمًا ... يا عِزَّةَ التوفيقِ للإنسانِ
حمدوا التُّقَى عند المماتِ كذا السُّرَى ... عندَ الصباحِ فحبَّذا الحَمْدانِ
وحَدَتْ بهمْ عزمَاتُهمْ نحوَ العُلا ... وسَرَوا فما نزلوا إلى نعمانِ
باعُوا الذي يفنى من الخزَف الخسيـ ... ـسِ بدائمٍ من خالصِ العقْيانِ
رُفِعَتْ لهم في السَّيْرِ أعلامُ السَّعَا ... دَةِ والهدى يا ذلَّةَ الحيرانِ
فتسابَقَ الأقوامُ وابْتَدروا لها ... كتسابُقِ الفرسانِ يومَ رهانِ
وأخو الهُوَيْنَى في الدِّيارِ مُخَلَّف ... مَعَ شكْلِهِ يا خيْبَةَ الكسلانِ

إنها الجنة :

فسلوا عنها الصحابيَّ الجليل (**حرام بن ملْحان**) رضي الله عنه :

عن أنس بن مالكٍ قال : لمّا طُعِن حرام بن ملحان - وكان خالَ أنسِ بن مالك - قال : فزْتُ وربِّ الكعبة . رواه البخاري .

وفي رواية : أنه نثَر الدمَ على رأسِه وقال : فزتُ وربِّ الكعبة .

إنها الجنة :

فسلُوا عنها الصحابيَ الجليل (**عامر بن فُهيرة التميمي**) :

« لمّا طَعن جبَّارُ بنُ سُلمى عامرَ بن فُهيرة يومَ بئر معونة ، فقال عامر :

فزتُ وربِّ الكعبة ، ورُفِع من رُمْحه ، فلم تُوجد جثته ، فأسلم جبّارٌ لذلك وحسن إسلامه »[(١)] .

«لمّا قتل عامر يومَ بئر معونة، وأُسر عمرو بن أمية، فقال له عامر بن الطفيل : من هذا ؟ وأشار إلى قتيلٍ ، فقال له عمرو بن أمية : هذا عامر بن فهيرة . فقال : لقد رأيتُه بعد ما قُتل رُفع إلى السماء ، حتى إني لَأَنظر إلى السماء بينه وبين الأرض »[(٢)] .

« وروى البخاري من طريق أبي أسامة ، عن هشام : أن عامر بن الطفيل سأل عمرو بن أمية عن ذلك »[(٣)] .

قال الزهري : بلغني أنهم التمسوا جسَدَ عامر بن فهيرة ، فلم يقدروا عليه .

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**سعد بن خيْثمة بن الحارث**) رضي الله عنه :

« استَهَمَ يومَ بدرٍ خيثمة بن الحارث وابنُه سعد ، فخرج سهمُ سعد ، فقال له أبوه : يا بُنيّ ، آثِرْني اليومَ . فقال له سعد : يا أبتِ ، لو كان غير الجنة ؛ فعلْتُ . فخرج سعد إلى بدرٍ فقُتِل بها . وما زال أبوه خيْثمة يتطلّع إلى الجنة حتى كان يوم أحد ، فقتل يومَ أحد »[(٤)].

---

(١) الإصابة في تراجم الصحابة لابن حجر العسقلاني ٢٢١/١ . رواها ابن إسحاق والواقدي ، ونقلها عنهما ابن حجر .
(٢) الحلية ١١٠/١ .
(٣) الإصابة ٢٤٧/٢ .
(٤) الإصابة ٢٤/٢ ، وقفات مع الأبرار للدكتور محمد لطفي الصباغ . ص٢٠٢ - المكتب الإسلامي .

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**عبد الله بن غالب**) رحمه الله :

رآه مالك بن دينار في إحدىٰ المعارك ، و « سمِعَه يقول - وقد تلاحمت الصفوف -: إني أرى ما ليس عليه صَبْرٌ .. روِّحوا بنا إلى الجنة ... ثم كَسَر جفن سيفه وتقدَّم فقاتلَ حتى قُتل »[(١)] .

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**كثير بن مُرَّة**) :

قال : « إن مِن المزيد في الجنة : أن تمرَّ السحابةُ بأهل الجنة فتقول : ماذا تريدون أن أُمطركم ؟ فلا يتمنَّون شيئًا إلا أُمطروا . قال كثير : لئن أشهدَني اللهُ ذلك ، لأقولَنَّ : أمطرينا جواريَ مزيَّنات » .

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**أبا سليمان الداراني**) :

قال لأحمد بن أبي الحواري: «بينما أنا ساجد إذ ذهب بي النوم، فإذا أنا بالحَوْراءِ قد ركضتْني برجلها، فقالت: يا حبيبي، أترقد عيناك والملكُ يقظان ينظر إلى المتهجدين في تهجُّدهم؟! بؤسًا لعيْن آثرت لذَّة نومٍ على مناجاة العزيز، قمْ فقد دنا الفراغ ولقي المحبُّون بعضهم بعضًا؛ فما هذا الرقاد؟! حبيبي وقرَّة عيني، أترقد عيناك وأنا أُربَّى لك في الخدور منذ كذا وكذا؟! فوثبْتُ فزِعًا وقد عَرَقْتُ استحياءً من توبيخها إياي، وإنَّ حلاوة مَنْطِقِها لَفي سمعي وقلبي»[(٢)].

وأنشدتْه شعرًا حفِظ منه:

أتطلبُ مثلي وعنّي تنامُ ... ونومُ المحبِّين عنا حرامُ
لأنَّا خُلقنا لكلِّ امرئ ... كثير الصلاةِ بَرَاهُ القيامُ

إنها الجنة:

فسلوا عنها (**عطاء السليمي**):

قال عطاء السليمي لمالك بن دينار: يا أبا يحيىٰ، شوِّقنا. قال: يا عطاء،

---

(١) الموعد الله لخالد محمد خالد ص١٢٤- مكتبة الزهراء.

(٢) صفة الصفوة ٤/٢٢٥ .

إن في الجنة حوراء يتباهى أهل الجنة بحُسْنها ، لولا أن الله كتب على أهل الجنة ألّا يموتوا ؛ لَمَاتوا من حُسْنها . فلم يزل عطاء كَمِدًا من قول مالك .

يا خاطب الحُورِ الحسانِ وطالِبًا لِوِصالهنَّ بجنة الحيوانِ
لو كنتَ تدري مَن خطبتَ ومَن طَلَبْـتَ بذلتَ ما تحوي من الأثمانِ
أو كنتَ تدري أين مسكنُها جعلْـتَ السَّعْيَ منك لها علىٰ الأجفانِ

إنها الجنة :

فسَلُوا عنها (**عبد الواحد بن زيد**) :

نام عبدُ الواحد بن زيد عن وِرْده، فإذا هو بجاريةٍ لم يَرَ أحسنَ منها وجهًا ، عليها ثيابُ حريرٍ خُضر: « وهي تقول : يا ابن زيد ، جِدّ في طلبي، فإني في طلبك . ثم جعلت تقول :

مَن يشتريني ومَنْ يكن سكني يأمنْ في ربحِهِ من الغبنِ

فقلتُ : يا جارية،ما ثمنك ؟ فأنشأت تقول :

تـودُّدٌ للهِ مع محبَّتِهِ وطولُ فكرٍ يُشابُ بالحزنِ

فقلتُ : لمن أنتِ يا جارية ؟ فقالت :

لمالكٍ لا يردُّ لي ثمنًا مِن خاطبٍ قد أتاه بالثَّمنِ»

فاخطب الحوراء من سيدها ومولاها ، وقدّم مهرها ما دمت ذا إمكان .

أتلهو بالكَرَىٰ عن طِيب عيشٍ مـعَ الخيراتِ في غُرَفِ الجنانِ
تعيشُ مُخلَّدًا لا موتَ فيهِ وتنعمُ في الجنان مع الحسانِ
تيقّظْ مِن منامك إنَّ خيرًا مِن النومِ التهجُّدُ بالقرانِ

إنها الجنة :

قال مجاهد : إن أدنى أهل الجنة منزلًا لَمَنْ يسيرُ في مُلكه ألفَ سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ؛ وأرفعهم الذي ينظر إلى ربِّه بالغداة والعَشِي[(١)] .

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٥٧٧ .

قال يحيى بن معاذ : ترْك الدنيا شديد ، وفوت الجنة أشدُّ ، وترْك الدنيا مهْرُ الآخرة .

وقال رحمه الله : في طلب الدنيا ذلُّ النفوس ، وفي طلب الآخرة عزُّ النفوس ، فيا عجبًا لمن يختار المذلّة في طلب ما يفنى ، ويترك العزَّ في طلبِ ما يبقى !! .

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**عمر بن عبد العزيز**) :

قال لرجاء بن حَيْوة : يا رجاء ، إن لي نفسًا توّاقة ، تاقت إلى فاطمة بنتِ عبد الملك فتزوجتُها ، وتاقتْ إلى الإمارة فوُلِّيتُها ، وتاقت إلى الخلافة فأدركتُها ، وقد تاقت إلى الجنة ، فأرجو أن أدركها ، إن شاء الله عز وجل(١) .

إنها الجنة : يُغشىٰ على الصالحين من خوْفِ فواتها :

وسلوا (**مالك بن دينار**) :

قال رجل لمالك بن دينار : « رأيتُ فيما يرى النائم مناديًا ينادي : الرحيلَ الرحيلَ . فما رأيتُ أحدًا يرتحل إلا محمد بن واسع ، فصاح مالك وغُشي عليه ، ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ [الواقعة : ١٠] » .

إنها الجنة : يموت الصالحون شوقًا إليها :

عن يزيد الرقاشي قال : بلغني أن نورًا سطع في الجنة ، لم يبقَ موضع في الجنة إلّا دخل من ذلك النور فيه : فقيل . ما هذا ؟ قال : حوراء ضحِكَت في وجْه زوجها . قال صالح المرِّي : فشهِقَ رجلٌ من ناحية المسجد ، فلم يزل

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٣٠١ ، وصفحات مشرقة من حياة السابقين لنذير محمد مكتبي – دار البشائر الإسلامية .

يشهق حتى مات .

أنا ما حسدت الكافرين وقد غَدَوا في أَنْعُـمٍ ومـواكـبٍ وقصـورِ
بلْ مِحنتي أنْ لا أرى في أمَّتي عملًا أقـدِّمه صَـدَاقَ الحُـورِ

ويومَ القيامة سيعلمُ الجمْع من أولى وأحقُّ بالخيِّرات الحسَان .. فكيف تغفلُ عنهنَّ ؟! مثِّل بفكْرِك أين يعشْنَ ، وما يأكلْن ، وما يشربنَ .

دَعِ المصوغاتِ من ماءٍ وطِينِ واشـغلْ هـواكَ بحُـورٍ عـينِ

إنها الجنة :

فسلوا عنها (**يحيىٰ بن معاذ**) الواعظ :

كان رحمه الله يقول : « لست أبكي علىٰ نفسي إن ماتت ، إنما أبكي على حاجتي إن فاتت »[(١)] .

« وقال رحمه الله : يا ابن آدم طلبتَ الدنيا طَلَبَ مَن لا بدَّ له منها ، وطلبت الآخرة طلب من لا حاجة له إليها ، والدنيا قد كفيتَها وإن لم تطلبها ، والآخرة بالطَّلَب منك تنالُها ، فاعقلْ شأنك .

وقال رحمه الله : لو سمع الخلْق صوتَ النياحة على الدنيا في الغيْب من ألسنة الفناء ؛ لتساقطتِ القلوب منهم حُزْنًا . ولو رأتِ العقول بعُيون الإيمان نزهةَ الجنة ؛ لَذابتِ النفوسُ شوْقًا . ولو أدركتِ القلوب كُنْه المحبَّة لخالقها ؛ لَانخلعتْ مفاصلها وَلَهًا ، ولَطارت الأرواح إليه من أبدانها دهشًا . سبحان من أغفل الخليقة عن كُنْه هذه الأشياء ، وألهاهم بالوصف عن هذه الأنباء !! .

وقال رحمه الله : الدنيا خراب ، وأخربُ منها قلبُ مَن يعمِّرها . والآخرة دار عمران ، وأعمر منها قلبُ مَن يطلبها »[(٢)] .

---

(١) السير ١٣/١٥ - ١٦ .
(٢) صفة الصفوة ٤/٩٣ - ٩٥ .

وقال : « سبحان من طيَّب الدنيا للعارفين بمعرفته ، وسبحان مَن طيَّب لهم الآخرة بمعذرته ، فتلذَّذوا أيَّام الحياة بالذكْر في مجالس معرفته ، وغدًا يتلذَّذون في رياض القدْس بشراب مغفرته ، فلهم في الدنيا زرْعُ ذِكْرٍ ، ولهم في الآخرة ربيعُ بِرٍّ . ساروا على المطايا مِن شكْره حتى وصلوا إلى العطايا من ذخره ؛ فإنه مَلِكٌ كريم »[(١)] .

وقال : سبحان من يبيع الحبيبةَ بالبغيضة !! يعني الدنيا . الجنة حبيبةُ المؤمن يبيعها منه بالبغيضة يعني الدنيا .

وقال : قد دعاك إلى دار السلام ؛ فانظر مِن أين تُجيبه ؟ أَمِنَ الدنيا أم مِنْ قبْرك ؟ إنك إن أجبتَه من دنياك دخلتَها ، وإن أجبتَه من قبرك مُنِعتَها .

وقال : إن كنتَ ذا قلبيْن ، فدونك اجعلْ أحدهما للدنيا وأحدهما للآخرة ، وإن كنتَ ذا قلب واحد فاجعلْه لأَوْلَى الدارَيْن بالنعيم والمقام ، والإبقاء والإنْعام

وقال : اعلموا أن القرآن قد ندبكم إلى وليمة الجنة ودعاكم إليها ؛ فأسرَعُ الناس إليها: أتركُهم لدنياه ، وأوجدهم لذَّةً لطعم تلك الوليمة : أشدُّهم تجويعًا لنفسه ومخالفةً لها .

وقال : « طوبى لعبدٍ أصبحتِ العبادةُ حرفَتَه ، والفقرُ منيتَه ، والعزْلة شهوتَه ، والآخرة هِمَّتَه ، وطَلَبُ العيْش بُلْغَتَه . وجعل الموت فكرتَه ، وشغل بالزهد نيّته ، وأمات بالذلِّ عزَّته ، وجعل إلى الربِّ حاجته . يذكر في الخلوَاتِ خطيئته ، وأرسل على الوجْنَةِ عَبْرته ، وشكا إلى الله غُربته ، وسأله بالتوبة رحمته . طوبى لمن كان ذلك صفتَه ، وعلى الذنوب ندامته ؛ جئّارٌ الليلَ والنهارَ ، وبكّاءٌ إلى الله بالأسحار ، يُناجي الرحمٰن ، ويطلب الجنان ويخاف ....

---

(١) الحلية ١٠/٥٧ - ٥٨ .

النيران »[١] .

قال عطاء بن ميسرة : إني لا أوصيكم بدنياكم ، أنتم بها مستوصون ، وأنتم عليها حُرَّاص ، وإنما أوصيكم بآخرتكم ، فجدُّوا في دار الفناء لدار البقاء .

وقال أحمد بن حرب : أحدنا يُؤْثِر الظلَّ على الشمس ، فما بالنا لا نُؤْثِر الجنة على النار .

إنها الجنة : فيها جوارُ الرحمٰن وأنبيائه :

﴿ **للذين أحسنوا الحسنىٰ وزيادة** ﴾ [يونس : ٢٦] . ﴿ **وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربِّها ناظرة** ﴾ [القيامة : ٢٢] . وانظر إلى مَن كمُلَتْ من النساء : آسية .. تقول : ﴿ **ربِّ ابنِ لي عندك بيتًا في الجنة** ﴾ [التحريم : ١١] قبل الدار طلبت الجار .

عبد الله بن أبي زكريا وشوقه إلى أهل الجنة :

« عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر : أن عبد الله بن أبي زكريا كان يقول : لو خُيِّرتُ بين أن أُعمر مائة سنة من ذي قبل في طاعة الله ، أو أنْ أُقبَضَ في يومي هذا أو في ساعتي هذه ؛ لَاخْترتُ أن أُقبض في يومي هذا أو في ساعتي هذه ؛ تشوُّقًا إلى الله وإلى رسوله ﷺ وإلى الصالحين من عباده »[٢] .

خالد بن معدان :

« عن عبدة بنت خالد بن معدان ، عن أبيها قالت : قلَّ ما كان خالد يأوي إلى فِراشِ مَقِيلِهِ ، إلّا وهو يذكر فيه شوقَه إلى رسول الله ﷺ ، وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار ، ثم يُسمِّيهم ويقول : هُمْ أصْلي وفَصْلي ، وإليهم يحنّ قلبي ، طال شوقي إليهم ، فعجِّلْ ربي قبضي إليك .. حتى يغلبه النوم وهو

---

(١) الحلية ١٠/٥٨ .

(١) روضة الزاهدين لعبد الملك الكليب ص٩٣ – مكتبة ابن تيمية .

في بعض ذلك »[١].

فاللهمَّ يا واهبَ المواهب ومجزلَ الرغائبِ ، نضِّرِ اللهمَّ بالكمالِ لديك بهجتَنا ، بالنظر إليك في دار رحمتك .

يا من منح الأصفياء منازل الحق ومدى الغايات ، أخلصْنا بكمال رغبتنا ، وبما لا يبلغه سؤالنا . اللهمَّ أورثنا الغُرَف وجوارَ النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين ، وحسُن أولئك رفيقًا .

قالت أمُّ البنين أختُ عمر بن عبد العزيز : البخيل كلّ البخيل : مَن بخِلَ عن نفسه بالجنَّة .

« وقال رجل لابن السمَّاك : عِظني . فقال : احذرْ أن تُقْدِم على جنة عَرْضها السمٰوات والأرض وليس لك فيها موضعُ قدَمٍ »[٢].

* * *

---

(١) روضة الزاهدين ص٩٤ .

(٢) مجموعة الأخلاق والحكم لابن أبي الدنيا ص١٨ .

الفصل الرابع والعشرون

عُلُوُّ الهِمَّةِ
في
حبِّ اللهِ والشَّوْقِ إليهِ

أَروحُ وقدْ ختمت علىٰ فؤادي بحبِّكَ أنْ يحلَّ بهِ سِواكَا
فلو أني استطعتُ غضضتُ طرْفي فلمْ أنظر بهِ حتى أراكَا
أُحبُّك لا ببعضي بل بكُلِّي وإن لم يُبقِ حبُّك لي حِراكَا

« أسألك بردَ العيْش بعد الموت ، وأسألك لذَّة النَّظرِ إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك » .

□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في حُبِّ اللهِ والشَّوْقِ إليه □

« المحبَّة هي المنزلة التي فيها تنافَسَ المتنافسون ، وإليها شخَصَ العاملون ، وإلى عَلَمِها شمَّر السابقون ، وعليها تفانى المحبُّون ، وبرَوْح نسيمها تّروح العابدون ؛ فهي قُوت القلوب وغذاء الأرواح وقرَّة العيون ، وهي الحياة التي مَن حُرِمها فهو من جملة الأموات ، والنور الذي مَن فقده فهو في بحار الظلمات ، والشفاء الذي مَن عُدِمه حَلَّتْ بقلبه جميعُ الأسقام ، واللَّذَّة التي من لم يظفر بها فعيْشه كله هموم وآلام . وهي روح الإيمان والأعمال ، والمقامات والأحوال ، التي متى خلتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه . تحمِل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلّا بشِقِّ الأنفس بالغيها ، وتوصِّلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها ، وتُبَوِّئُهُـم من مقاعد الصِّدْق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها . وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب ، وطريقهم الأقوم الذي يبلِّغهم إلى منازلهم الأولى من قريب .

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ؛ إذْ لهم من معيَّة محبوبهم أوفر نصيب .

وقد قضىٰ الله ، يوم قدّر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة ؛ أن المرء مع من أحبَّ ، فيالها من نعمة على المحِبِّين سابغة !!

تالله لقد سبق القوم السعاة ، وهم على ظهور الفرش نائمون ، وقد تقدَّموا الركْبَ بمراحل ، وهم في سيرهم واقفون .

مَـن لـي بمثْلِ سَيْرِك المدلَّلِ   تمشـي رويـدًا وتجي في الأوَّلِ

أجابوا منادي الشوْقَ إذ نادىٰ بهم : حيَّ على الفلاح . وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم ، وكان بذلُهم بالرضا والسماح ، وواصلوا إليه

المسير بالإدلاج والغدو والرواح .

تالله لقد حمدوا عند الوصول سُراهم ، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم . وإنما يحمَدُ القومُ السُّرَى عند الصباح .

أول نقدة من أثمان المحبَّة بذْلُ الروح ، فما للمفلِسِ الجبان البخيل وسوْمَها ؟!

بدَمِ المحبِّ يُباعُ وصْلُهُمُ فمنِ الذي يبتاعُ بالثمَنِ

تالله ما هزلت فيستامها المفلسون ، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المُعسِرون . لقد أقيمتْ للعرْض في سُوق مَن يزيد فلم يرضَ لها بثمن دون بذل النفوس ، فتأخَّر البطَّالون وقام المحبُّون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمنًا ؟ فدارتْ السلعة بينهم ووقعت في يد ﴿ **أذلّةٍ على المؤمنين أعزَّة على الكافرين** ﴾ [المائدة : ٥٤] . لمّا كثر المدَّعون للمحبَّة طُولبوا بإقامة بيِّنة على صحَّة الدعوى ، فلو يُعطى الناس بدعواهم ؛ لادَّعى الخليُّ حرْقَة الشجيّ . فتنوَّع المدَّعون في الشهود ، فقيل : لا تُقبل هذه الدعوى إلّا ببيِّنة ؛ ﴿ **قلْ إن كنتم تحبُّون الله فاتبعوني يحببْكم الله** ﴾ [آل عمران : ٣١] . فتأخر الخلْق كلهم ، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه ، فطُولبوا بعدالة البيِّنة بتزكية ﴿ **يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لوْمة لائم** ﴾ [المائدة : ٥٤] فتأخر أكثر المحبِّين ، وقام المجاهدون ، فقيل لهم : إن نفوس المحبِّين وأموالهم ليستْ لهم ، فهلمُّوا إلى بيعة ﴿ **إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة** ﴾ [التوبة : ١١١] . فلمّا عرفوا عظمة المشتري وفضل الثمن ، وجلالة من جرى على يديه عقْد التبايُع ؛ عرفوا قدْر السِّلْعة وأن لها شأنًا ، فرأوا من أعظم الغبْن أن يبيعوها لغيره بثمنٍ بَخْس ، فعقدوا معه بيْعة الرضوان بالتراضي من غير ثبوت خيار ، وقالوا : « والله لا نقيلك ولا نستقيلك » . فلمّا تمَّ العقْد وسلَّموا المبيع ، قيل لهم : مُذْ صارت نفوسكم وأموالكم لنا ؛ رددناها عليكم أوفرَ ما

كانت ﴿ ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون ﴾ [آل عمران : ١٦٩ - ١٧٠] .

وإذا غُرستْ شجرةُ المحبَّة في القلب ، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب ؛ أثمرتْ أنواع الثمار ، وآتت أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ، أصلها ثابت في قرار القلب ، وفرعها متصل بسدْرة المنتهى .

لا يزال سعي المحبِّ صاعدًا إلى حبيبه لا يحجُبُه دونه شيء ﴿ إليه يصعد الكلمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر : ١٠] »[(١)] .

قال الله تعالى : ﴿ قلْ إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتُكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ ومنَ الناسِ من يتخذ من دون اللهِ أندادًا يحبُّونهم كحبِّ اللهِ والذين آمنوا أشدُّ حبًّا لله ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا مَن يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي اللهُ بقومٍ يحبُّهم ويحبُّونهم أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لوْمة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وفي « الصحيحيْن » : عن أنسٍ ، عن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم ، حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

وفي « الصحيحين » أيضًا : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، والله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلّا من نفسي . فقال :

---

(١) مدارج السالكين ٣/٦ - ٩ .

« لا يا عمر ، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك » . فقال : والله لأنت أُحبُّ إليَّ من نفسي . فقال : « الآن يا عمر » .

ومعلوم أن محبة الرسول تابعة لمحبَّة الله عز وجل ، فما الظنُّ بمحبَّة الله عز وجل ؟! .

وقال تعالى : ﴿ **يأيـها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهـن الله أعلم بإيمانهـنَّ فإنْ علمتموهنَّ مؤمناتٍ فلا ترجعوهنَّ إلى الكفَّار** ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

قال ابن عباس في هذه الآية : كانت المرأة إذا أتتِ النبي ﷺ لتُسْلِم ؛ حلّفها بالله ما خرجت من بغض زوج إلّا حبًّا لله ورسوله .

« وفي الصحيحين » : عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله ، كما يكره أن يُقذف في النار » .

وعن معاذ – في حديث اختصام الملأ الأعلى – عن النبي ﷺ قال : « أتاني ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة ؛ يعني في المنام » فذكر الحديث ، وقال في آخره : « قال : سل . قلتُ : اللهمَّ إني أسألك فعْل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبَّ المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردتَ بقوم فتنةً فتوفَّني إليك غير مفتون ، وأسألك حبَّك ، وحبَّ مَن يحبُّك ، وحبَّ كلِّ عمل يقرِّبني إلى حبِّك » . فقال رسول الله ﷺ : « إنها حقٌّ فادرسوها ، ثم تعلموها »[١] .

---

(١) حديث صحيح : أخرجه أحمد ، والترمذي وقال : حسن صحيح . وخرَّجه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد . وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي رقم ٢٥٨٢ .

وفي « الصحيحين » : عن أنس : أن رجلًا سأل النبيَّ ﷺ ، قال : متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : « ما أعددتَ لها ؟ » . قال : ما أعددتُ لها من كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنِّي أحبُّ الله ورسوله . فقال رسول الله ﷺ : « أنت مَع من أحببتَ » .

وفي رواية للبخاري : فقلنا : ونحن كذلك ؟ قال : « نعم » . قال أنس : ففرِحْنا يومئذ فرحًا شديدًا .

وفي رواية لمسلم : قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشدَّ من قوله : « أنت مع من أحببتَ » .

قال أنس : فأنا أُحبُّ الله عز وجل ورسوله ﷺ ، وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

قال بعض العارفين : يكفي للمحبِّين شرفًا هذه المعيَّة .

وقال سمنون : « ذهب المحبُّون بشرف الدنيا والآخرة ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « المرءُ مع مَن أحبَّ »[(١)] . فهم مع الله في الدنيا والآخرة » .

الأسباب الجالِبة للمحبَّة المقوِّية لها :

« الأسباب الجالبة للمحبَّة والمقوِّية لها كثيرة ؛ منها :

الأول : قراءة القرآن بالتدبُّر والتفهُّم لمعانيه وما أريد به . قال رسول الله ﷺ : « مَن سرَّه أن يحبَّ الله ورسوله ، فليقرأ في المصحف »[(٢)] .

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائيّ عن أنس ، ورواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود .

(٢) حسن : رواه البيهقي في سننه ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن شاهين ، وابن عدي في « الكامل » عن ابن مسعود ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٦٥ .

الثاني : التقرُّب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ؛ فإنها توصِّله إلى درجة المحبوبيَّة بعد المحبَّة ؛ كما جاء في الحديث القدسي : « ... ولا يزال عبدي يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه » .

الثالث : دوام ذكْرِه على كلِّ حال ؛ باللسان والقلب والعمل والحال . فنصيبه من المحبَّة على قدْر نصيبه من الذِّكْر .

قال ذو النون : مَن شغل قلبَه ولسانَه بالذِّكْر ؛ قذف اللهُ في قلبه نور الاشتياق إليه . وقال إبراهيم بن الجُنيد : كان يُقال : من علامة المحبَّة لله : دوام الذكر بالقلب واللسان ؛ وقلّما ولع المرء بذكْر الله عز وجل إلّا أفاد منه حبَّ الله عز وجل .

وقال إبراهيم بن أدهم : أعلى الدرجات أن يكون ذكْر الله عندك أحلىٰ من العسَل ، وأشهىٰ من الماء العذْب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف .

وقال مالك بن دينار : ما تلذَّذ المتلذِّذون بمثل ذكْر الله عز وجل .

يا مـن يذكِّـرُني بعهْـدِ أحبَّتي ... طابَ الحديثُ بذكرهمْ ويطيبُ
أعِدِ الحديثَ عليَّ من جنباته ... إنَّ الحديثَ عن الحبيبِ حبيبُ
ملأَ الضلوعَ وفاضَ عنْ أجنابها ... قلبٌ إذا ذُكِرَ الحبيبُ يـذوبُ
ما زالَ يخفِقُ ضاربًا بجَناحِهِ ... يا ليتَ شعري هلْ تطيرُ قلوبُ؟!

وقال الشاعر :

خطراتُ ذكْري تستثيرُ مودَّتي ... وأحسُّ منها في القلوبِ دبيبَا
لا عضـوَ لي إلّا وفيهِ محبَّةٌ ... فكأنَّ أعضـائي خُلِقنَ قلوبَا

الرابع : إيثارُ محابّه على محابِّك عند غَلَبَات الهوىٰ ، والتسنُّم إلى محابّه وإن صعُب المرتقىٰ .

الخامس : مطالعة القلْب لأسمائه وصفاته ، ومشاهدتها ومعرفتها ، وتقلُّبه في

رياض هذه المعرفة ومباديها ، فمَن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبَّه لا محالة .

عن عائشة : أنَّ رسول الله ﷺ بعث رجلًا على سرية[١]، فكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ ﴿ **قُلْ هو الله أحد** ﴾ ، فلمَّا رجعوا ذكَروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « سلوه : لأيِّ شيء يَصنع ذلك ؟ » . فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمٰن ؛ فأنا أحبُّ أن أقرأ بها . فقال رسول الله ﷺ : « أخبِروه أن الله يحبُّه »[٢] .

السادس : مشاهدة برِّه وإحسانه وآلائه ، ونعمه الظاهرة والباطنة .

السابع – وهو من أعجبها –: انكسار القلب بين يدي الله تعالى ، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات .

قال الفضل الرقاشي : والله لو جُمع للعابدين جميعُ لذَّات الدنيا بحذافيرها ؛ لكانَ امتهانُ أنفسهم لله بطاعته ألذَّ وأحلى عندهم من ذلك .

الثامن : الخلوة به وقتَ النزول الإلٰهي ، لمناجاته وتلاوة كلامه . والوقوف بالقلب والتأدُّب بأدب العبودية بين يديه ، ثم ختْمُ ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع : مجالسة المحبِّين والصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما يُنتقى أطايبُ الثمر ، ولا تتكلّم إلّا إذا ترجَّحت مصلحة الكلام ، وعلمتَ أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك .

العاشر : مباعدة كلِّ سببٍ يحول بين القلب وبين الله عز وجل . فمن هذه الأسباب العشرة وصَل المحبُّون إلى منازل المحبَّة ، ودخلوا على الحبيب ... ومِلاك ذلك كلِّه أمران :

---

(١) السرية : هي القطعة من الجيش ، سُمِّيت سرية ؛ لأنها تسري في خُفْيَة .

(٢) متفق عليه .

١ - استعداد الروح لهذا الشأن :

بدمِ المحبِّ يُباعُ وصْلُهُمُ فمنِ الذي يبتاعُ بالثَّمَنِ

أو كما قالوا :

أنتَ القتيلُ بكلِّ من أحْبَبْتَهُ فاخترْ لنفسِكَ في الهوىٰ مَن تصطفي

٢ - وانفتاح عيْن البصيرة . وبالله التوفيق »[(١)].

الحادي عشر : قطْع علائق الدنيا ، وإخراج حبِّ غير الله من القلب ؛ فإن القلب مثل الإناء لا يتسع للخلِّ مثلًا ما لم يخرج منه الماء ؛ ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبيْن في جوفه** ﴾ [الأحزاب : ٤] وكمال الحبِّ في أن يحبَّ اللهَ عز وجل بكل قلبه ، وما دام يلتفت إلى غيره فزاويةٌ من قلبه مشغولة بغيره . فبقدر ما ينشغل بغير الله ينقص منه حبُّ الله .

الثاني عشر : قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها ؛ يجري مجرىٰ وضْع البذْر في الأرض بعد تنقيتها ، ثم يتولَّد من هذا البذر شجرة المحبَّة والمعرفة . ولا يُوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب ، إلا بالفكْر الصافي والذكر الدائم ، والجدِّ البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله ، وفي صفاته وفي ملكوتِ أسمائه وسائر مخلوقاته .

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى :

الأقوياء : ويكون أول معرفتهم بالله تعالى ، ثم به يعرفون غيره ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **أو لم يكفِ بربِّك أنه على كلِّ شيء شهيد** ﴾ [فصلت: ٥٣] ، وبقوله تعالى : ﴿ **شهِد الله أنه لا إله إلا هو** ﴾ [آل عمران : ١٨] . وقول الصالح : « عرفتُ ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفتُ ربي » .

---

(١) مدارج السالكين بتصرُّف ، ٣/١٧ - ١٨ .

والضعفاء : ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقّون منها إلى الفاعل . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحقُّ** ﴾ [فصلت : ٥٣] وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرآن ، عند الأمر بالتدبُّر والتفكُّر والاعتبار .

والمعرفة بحْرٌ لا ساحل له ، فلا جَرَم أنَّ تفاوت أهل المعرفة في الحب لا حصْرَ له .

قال بديل بن ميسرة : من عَرَف ربَّه أحبَّه ، ومن عَرَف الدنيا زهِد فيها .

وقال عبيد الله بن محمد التيمي : التفكُّر في نِعَم الله أفضل العبادة .

« وقال الحسن : أوصيكم بتقوىٰ الله عز وجل ، وإدمان التفكُّر ؛ فإنه مفتاح خِلال الخير كله ، وبه يخصُّ اللهُ كلَّ موفَّق . واعلموا أن خير ما ظفر به مدرك من تفكَّر بخالصة الله ، وشرب كأس حبِّه ، وإنّ أحباءَ اللهِ هُمُ الذين ظفروا بطيب الحياة ، وذاقوا لذَّة نعيمها ، بما وصلوا إليه من مناجاة حبيبهم ، وما وجدوا من حلاوة حبِّهِ في قلوبهم ، ولا سيما إذا خطر على بال أحدهم ذكْر مشافهته ، وكشْف ستور الحُجُب عنه في المقام الأمين ، والسرور الدائم ، وأراهم جلاله ، وأسمعهم لذَّة منطقه ، وردَّ عليهم جواب ما ناجَوه به أيّام حياتهم ، إذْ قلوبهم به مشغوفة ، وإذ مودَّتهم إليه معطوفة ، وإذْ هم له مُؤْثِرون ، وإليه منقطِعون ، فليُبْشِر المصفُّون له وُدَّهم ، بالمنظر العجيب بالحبيب ، فوالله ما أراه يحلُّ لعاقلٍ ولا يجمُل به أن يستوعبه حبُّ أحدٍ سوىٰ حبِّ الله عز وجل »(١) .

لو تفكَّر الإنسان في قول مخلوق لمخلوق :

وكنتُ أرى أنْ قدْ تناهىٰ بيَ الهوىٰ ... إلىٰ غـايـة مـا فـوْقَـها لـي مـطلَـبُ

---

(١) استنشاق نسيم الأُنس ص٥٦ .

فلمَّا تلاقيْنا وعاينْتُ حُسْنَها تيقَّنتُ أني إنما كنتُ ألعَبُ

فكيف بالخالق الملك ، الحقِّ العظيم ، الذي لا يُقدَّر حقّ قدره ، ولا يحيط خلْقه بِهِ عِلْمًا ، ولا يُحصون ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه .

أمَا يكفينا قولُ ربِّنا لملائكته الذين يلتمسون مجالس الذكر : « فكيف لو رأوني ؟ » . فيقولون : لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة ، وأشدَّ لك تمجيدًا وتحميدًا ، وأكثر لك تسبيحًا .

السبب الثالث عشر : معاملة الله بالصدق والإخلاص ومخالفة الهوىٰ .

قال بِشْر الحافي : قال فتح الموصلي : مَن أدام النظر بقلبه ، ورَّثه ذلك الفرح بالمحبوب . ومَن آثره على هواه ورّثه ذلك حبَّه إياه . ومَن اشتاق إليه وزهد فيما سواه ، ورعىٰ حقَّه وخافه بالغيب ، ورَّثه ذلك النظرَ إلى وجهه الكريم .

السري السقطي من سادات المحبِّين الصادقين :

انظر رحمك الله إلى صدْق السري السقطي مع الله ، وكيف ورَّثه ذلك الحبَّ لله . فقد كان للسري دكّان فاحترق السوق الذي فيه الدكَّان ، و لم يحترق دكانه ، فأُخبر بذلك ، فقال : الحمد لله . ثم تفكَّر في ذلك ، فرأى أنه قد سُرَّ بعطبِ الناس وسلامته ، فتصدَّق بما في دكَّانه ، فشكر اللهُ له ذلك ورقّاه إلى درجة المحبَّة .

سئل رحمه الله عن حاله فأنشد :

مَن لم يبِتْ والحبُّ حشوُ فؤادِه لم يدرِ كيفَ تفتُّتُ الأكبادِ

« وبلغ من أمره أنه لمّا مرض رفع ماؤه إلى الطبيب ، فلمّا رآه الطبيب ، قال : هذا عاشق.فصُعق حامِل الماء ، وغُشي عليه .

ونظروا إلى جسده مرة وكان سقيمًا مضنيًا ، فقال : لو شئتُ أن أقول :

هذا كله من محبته ؛ لَقلتُ »[١] .

درجـاتُ المـحبَّة :

قال الهروي : « وهي على ثلاث درجات :

المحبة الأولى: محبَّة تقطعُ الوساوس، وتَلِذُّ الخدمة، وتُسَلّي عن المصائب»:

قال ابن القيم : « إن الوسواس والمحبَّة متناقضان . فإنَّ المحبَّة تُوجب استيلاء ذكْر المحبوب على القلب . والوساوس تقتضي غيبته عنه ، حتى توسوس له نفسُه بغيره . فبيْن المحبَّة والوساوس تناقُضٌ شديد ، كما بين الذكْر والغفلة ، فعزيمة المحبة : تنفي تردُّد القلب بن المحبوب وغيره ، وذلك سبب الوساوس . وهيهات أن يجد المحبُّ الصادق فراغًا لوسواس الغيْر ، لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه . وهل الوسواس إلّا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى ؟ ومن أين يجتمع الحبُّ والوسواس ؟!

لا كـان مَن لسـواكَ فيهِ بقيَّةٌ   فيهـا يُقَسِّمُ فكرَهُ ويسـوسُ .

والمحبُّ يلتذُّ بخدمة محبوبه ، فيرتفع عن رؤية التعب الذي يراه الخليّ في أثناء الخدمة ، وهذا معلوم بالمشاهدة .

والمحبُّ يجد في لذَّة المحبة ما يُنسيه المصائب ، ولا يجد مِن مسِّها ما يجد غيره ، حتى كأنه قدِ اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلْق ، بل يقوى سلطان المحبَّة ، حتى يلتذّ المحبُّ بكثير من المصائب التي يُصيبه بها حبيبه أعظم من الْتذاذِ الخلي بحظوظه وشهواته ، والذوْق والوجود شاهد بذلك . والله أعلم »[٢].

قال الهروي : « وهي محبَّة تَنبتُ من مطالعة المنَّة ، وتثبت باتباع السنَّة ، وتنمو على الإجابة بالفاقة » .

---

(١) استنشاق نسيم الأُنس ص٥٥ .

(٢) مدارج السالكين ٣/٣٦ .

قال ابن القيم عنها: « تنشأ من مطالعة العبد منّة الله عليه ، ونعمه الباطنة والظاهرة ، فبقدْر مطالعته ذلك تكون قوة المحبة ؛ فإن القلوب مجبولة على حبِّ من أحسن إليها ، وبُغْضِ مَن أساء إليها ، وليس للعبد قطُّ إحسان إلّا من الله ، ولا إساءة إلّا من الشيطان .

ومن أعظم مطالعة منّة الله على عبده : تأهيلُه لمحبَّته ومعرفته ، وإرادة وجهه ومتابعة حبيبه . وأصل هذا : نورٌ يقذفه الله في قلب العبد ؛ فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته ، أشرقت ذاته ، فرأى فيه نفسه ، وما أُهِّلَتْ له من الكمالات والمحاسن ، فعلَتْ به همته ، وقويت عزيمته ، وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه، فرقيتْ الروح حينئذٍ بين الهيْبة والأنس إلى الحبيب الأول .

نقِّلْ فؤادَك حيثُ شئْتَ مِنَ الهوىٰ ... ما الحبُّ إلّا للحبيب الأوَّلِ
كَمْ منزلٍ في الأرضِ يألفهُ الفتىٰ ... وحنينُهُ أبدًا لأوّلِ منزلِ

وهذا النور كالشمس في قلوب المقرَّبين السابقين ، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين ، وكالنجم في قلوب عامَّة المؤمنين . وتفاوتهم فيه كتفاوت ما بين الزهرة والسُّهى .

وثبات هذه المحبة إنما يكون بمتابعة الرسول ﷺ في أعماله وأقواله وأخلاقه . فبحسب هذا الاتباع ؛ يكون منشأ هذه المحبَّة وثباتها وقوتها . وبحسب نقصانه يكون نقصانها . وهذا الاتباع يُوجب المحبَّة والمحبوبية معًا ، ولا يتمُّ الأمر إلا بهما . فليس الشأن في أن تحبَّ الله ، بل الشأن في أن يحبَّك اللهُ ، ولا يحبُّك الله إلّا إذا اتبعتَ حبيبه ظاهرًا وباطنًا ، وصدَّقته خبَرًا ، وأطعْتَه أمْرًا ، وأجبْته دعوة ، وآثرته طوْعًا ، وفنيت عن حكْمِ غيره بحكمه ، وعن محبَّة غيره من الخلْق بمحبَّته ، وعن طاعة غيره بطاعته ؛ وإن لم يكن ذلك فلا تتعنَّ ، وارجعْ من حيث شئتَ فالتمسْ نورًا ؛ فلستَ على

شيء . وتأمَّلْ قوله : ﴿ فاتبعوني يحبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] أي الشأن في أن الله يحبُّكم ، لا في أنكم تحبُّونه ، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب ﷺ .

« وتنمو على الإجابة بالفاقة » : أن يجيب الدَّاعي بموفور الأعمال ، وهو خالٍ منها كأنه لم يعملها ، بل يجيب دعوته بمجرَّد الإفلاس والفقر التامِّ ؛ فإن طريقة الفقر والفاقة تأبى أن يكون لصاحبها عمل أو حال أو مقام ، وإنما يدخل على ربه بالإفلاس المحْض والفاقة المجرّدة ، ولا ريب أن المحبَّة تنمو على هذا المشهد ، وهذه الإجابة . وما أعزّه من مقام ، وأعلاه من مشهد ، وما أنفعه للعبد ، وما أجلبَه للمحبَّة . والله المستعان »[(١)] .

« **الدرجة الثانية : محبَّة تبعثُ على إيثار الحقِّ على غيره ، وتُلهِج اللسانَ بذكْره ، وتُعَلِّقُ القلب بشهوده ، وهي محبَّة تظهر من مطالعة الصفات ، والنظر إلى الآيات ، والارتياض بالمقامات** » :

قال ابن القيم : « هذه الدرجة أعلى ممَّا قبلها ، باعتبار سببها وغايتها . فإنَّ سبب الأولى : مطالعة الإحسان والمنّة ، وسبب هذه : مطالعة الصفات ، وشهود معاني آياته المسموعة ، والنظر إلى آياته المشهودة ، وحصول الملكة في مقامات السلوك ، وهو الارتياض بالمقامات ، ولذلك كانت غايتها أعلى من غاية ما قبلها .

ولكمالها وقوتها فإنها تقتضي من المحبِّ أن يترك لأجل الحقِّ ما سواه ، فيؤْثِره على غيره ، ولا يُؤْثر غيره عليه ، ويجعل اللسان لهِجًا بذكْره ، فإن مَن أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره ، وتعلَّق القلب بشهوده لفرْطِ استيلائه على القلب وتعلُّقه به حتى كأنَّه لا يشاهد غيره .

---

(١) مدارج السالكين ٣/٣٦ - ٣٨ .

وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات بإثباتها أولًا ، ومعرفتها ثانيًا ، ونفي التحريف والتعطيل عن نصوصها ثالثًا ، ونفي التمثيل والتكييف عن معانيها رابعًا . فلا يصحُّ له مطالعة الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة ، إلّا بهذه الأمور الأربعة ، وكلما أكثر قلبُه من مطالعتها ، ومعرفة معانيها ، ازدادت محبَّته للموصوف بها . ولذلك كانت الجهميَّة قُطَّاع طريق المحبَّة ، بين المحبِّين وبينهم السيْفُ الأحمر .

وقوله : « النظر إلى الآيات » : أي نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة ، وفي آياته المسموعة ؛ وكلّ منهما داعٍ قويٌّ إلى محبَّته سبحانه ؛ لأنها أدلة على صفات كماله ، ونعوت جلاله ، وتوحيد ربوبيَّتِهِ وإلٰهيته ، وعلى حكمته وبرِّه ، وإحسانه ولطفه ، وجوده وكرمه ، وسَعة رحمته وسبوغ نعمته ، فإدامة النظر فيها داعٍ - لا محالة - إلى محبّته .

وكذلك الارتياض بالمقامات ؛ فإنَّ مَن كانت له رياضة ومَلَكَة في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان ؛ كانت محبته أقوى ؛ لأن محبَّة الله له أتمُّ . وإذا أحبَّ الله عبدًا أنشأ في قلبه محبته »[(١)] .

وتوحيد المحبة والبقاء أكمل من توحيد الفناء ، وأعلى مقامًا وأجلُّ مشهدًا ، وهو مقام الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وخواصّ المقرَّبين . ولسان المحبة أتمُّ ، ومقامها أكمل ، وحالها أشرف ، وصاحبها من أهل الصَّحْو لا السُّكْرِ ، والتمكين لا التلوين ، والبقاء لا الفناء ، ولسانه نائب عن كلِّ لسان ، وبيانه وافٍ بكل ذوق ، ومقامه أعلى من كل مقام ، فهو أمين على كل مَن دونه من أرباب المقامات ؛ لأنَّ مقامه أميرٌ على المقامات كلِّها .

أمينٌ أمينٌ عليه الندىٰ ... جوادٌ بخيلٌ بأنْ لا يجودا

---

(١) مدارج السالكين ٣/٣٨ - ٣٩ .

العبوديَّة مرتبةٌ عظيمةٌ من مراتبِ المحبَّة :

العبودية : مرتبة عظيمة من مراتب المحبَّة . قال ابن القيم رحمه الله : « حقيقة العبودية : الحبُّ التامُّ مع الذلِّ التامّ والخضوع للمحبوب . والعبد هو الذي ملك المحبوبُ رقّه ، فلم يبق له شيء من نفسه ألبتة ، بل كله عبدٌ لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا . وهذه هي حقيقة العبودية ، ومَن كمَّل ذلك فقد كمَّل مرتبتها . ولمَّا كمَّل سيد ولد آدم ﷺ هذه المرتبة ؛ وصفه الله بها في أشرف مقاماته :

مقام إنزال الكتاب عليه : ﴿ **تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده** ... ﴾ [الفرقان: ١] . وقال تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب** ... ﴾ [الكهف : ١] .

ومقام الإسراء : كقوله : ﴿ **سبحان الذي أسرىٰ بعبده** ... ﴾ الآية [الإسراء : ١] .

ومقام الدعوة : كقوله : ﴿ **وأنه لمّا قام عبد الله يدعوه** ... ﴾ الآية [الجن : ١٩] .

ومقام التحدي : كقوله : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزَّلْنا على عبدنا** .. ﴾ الآية [البقرة : ٢٣] .

وبذلك استحقَّ التقديمَ على الخلائق في الدنيا والآخرة . وكذلك يقول المسيح عليه السلام إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : « اذهبوا إلى محمد ؛ عبد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر » .

سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه - يقول : فحصلتْ له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى ، وكمال مغفرة الله له » . اهـ .

فلا طريق أقرب إلى الله من العبودية ، ولا حجابَ أغلظ من الدعوى ، ولا ينفع مع الإعجاب والكِبْر عمل واجتهاد ، ولا يضرُّ مع الذلِّ والافتقار بطالة

بعد عمل الفرائض . « ومَن أراد السعادة الأبديَّة فليلزمْ عتبة العبودية » كما قال ابن تيمية .

مرتبة الخُلَّةِ أعلى مقامات المحبَّة ، وهي للخليليْن محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم :

« الخلَّة » : هي المحبَّة التي تخلّلتْ روحَ المحبِّ وقلبَه ، حتى لم يبقَ فيه موضع لغير المحبوب ، كما قيل :

قدْ تخلّلْت مسلَكَ الروحِ مني وبِـذا سُـمِّي الخـليـلُ خلـيـلَا

وهذه المرتبة انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، كما صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «لو كنتُ متخذًا من أُمتي خليلًا دون ربي ، لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلًا ، ولكن الله اتخذ صاحبَكم خليلًا »[(١)] .

وقال ﷺ : « لو كنتُ متخذًا من أمتي خليلًا دون ربي ، لاتخذتُ أبا بكر خليلًا ، ولكن أخي وصاحبي »[(٢)] .

وقال ﷺ : « لو كنتُ متخذًا من أهل الأرض خليلًا ، لاتخذتُ ابنَ أبي قحافة خليلًا ، ولكن صاحبكم خليلُ الله »[(٣)] .

وقوله ﷺ : « إنَّ الله اتخذني خليلًا ، كما اتخذ إبراهيمَ خليلًا »[(٤)] .

ولهذه الخلَّة شأن عظيم ، وهي السرُّ الذي لأجله – واللهُ أعلم – أُمر الخليلُ بذبْح ولده وثمرة فؤاده وفلذة كبده ؛ لأنه لمّا سألَ الولدَ فأعطيه ، تعلَّقت به شعبة من قلبه ، و « الخلَّة » مَنصبٌ لا يقبل الشركة والقسمة ، فغار الخليل على خليله أن يكون في قلبه موضعٌ لغيره ، فأمره بذبْح الولد ، ليُخرِجَ

(١) رواه مسلم عن ابن مسعود .
(٢) رواه البخاري ، وأحمد في مسنده عن ابن الزبير ، والبخاري عن ابن عباس .
(٣) رواه مسلم عن ابن مسعود .
(٤) رواه مسلم والحاكم في المستدرك عن جندب بن سمرة .

المزاحِمَ من قلبه ، فلمَّا وطَّن نفسه على ذلك ، وعزم عليه عزمًا جازمًا حصل مقصود الأمر ، فلم يبقَ في إزهاق نفس الولد مصلحة ، فحال بينه وبينه ، وفداه بالذبْح العظيم ، وقيل له : ﴿ **يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ [الصافات : ١٠٤ - ١٠٥] نجزي مَن بادر إلى طاعتنا ، فنقرُّ عيْنَه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا ، وإبقاء الولد وسلامته ، ﴿ **إنَّ هذا لهوَ البلاءُ المبين** ﴾ .

وهذه الدعوة إنما دعا إليها بها خواصَّ خلْقه ، وأهل الألباب والبصائر منهم ، فما كلُّ أحدٍ يجيب داعيها ، ولا كل عين قريرة بها .

فما كلُّ عيْنٍ بالحبيبِ قريرةٌ ... ولا كلُّ مَن نُودي يُجيبُ المناديا
ومَن لا يُجبْ داعي هُداكَ فخلِّهِ ... يُجِبْ كلَّ مَن أضحىٰ إلى الغيِّ داعيا
وقلْ للعيونِ الرمْدِ إياكِ أنْ تريْ ... سنا الشمسِ فاستغشي ظلام اللياليا
وسامِحْ نفوسًا لم يهبْهَا لحُبِّهمْ ... ودعْها وما اختارت ولا تكُ جافيا
وقلْ للذي قد غاب يكفي عقوبةً ... مغيبُكَ عنْ ذا الشانِ لو كنتَ واعيا
وواللهِ لو أضحىٰ نصيبك وافرًا ... رحمتَ عدوًّا حاسِدًا لكَ قاليا
ألمْ ترَ آثارَ القطيعةِ قدْ بدتْ ... على حالِه فارحمْهُ إنْ كنتَ رائيا
خفافيشُ أعشاها النهارُ بضوْئِهِ ... ولاءمها قِطْعٌ من الليلِ باديا
فجالتْ وصالتْ فيه حتى إذا النها ... ر بدا استخفتْ وأعطتْ تواريا
فيا محنةَ الحسناءِ تهدىٰ إلى امرئ ... ضريرٍ وعِنِّينٍ من الوجْدِ خاليا
إذا ظُلْمةُ الليلِ انجلتْ بضيائها ... يعودُ لعيْنيه ظلامًا كما هيا
فضِنَّ بها إنْ كنتَ تعرفُ قدرها ... إلى أن ترىٰ كُفؤًا أتاك موافيا
فما مَهْرُها شيءٌ سوىٰ الروحِ أيُّها الْـ ... ـجبانُ تأخّرْ لستَ كُفْؤًا مساويا
فكنْ أبدًا حيثُ استقلَّتْ ركائبُ الْـ ... ـمَحَبَّة في ظهْرِ العزائمِ ساريا
وأدْلجْ ولا تخشَ الظلامَ فإنَّهُ ... سَيكفيكَ وجهُ الحِبِّ في الليل هاديا
وسُقْها بذكراهُ مطاياكَ إنهُ ... سيكفي المطايا طِيبُ ذكراهُ حادِيا

وعِدْها بُروحِ الوصْلِ تُعطيكَ سيرَها ... فما مَشِيتْ واستَبْقِ العظامَ البواليا
وأقدِمْ فإمَّا مُنيةٌ أو منيَّةٌ ... تريحكَ من عيْشٍ بِهِ لسْتَ راضيا
فما ثَمَّ إلّا الوصْلُ أو كَلَفٌ بهمْ ... وحسبُك فوْزًا ذاكَ إنْ كنتَ واعيا
ولمّا ادَّعيتُ الحبَّ قالتْ : كذبتَني ... فما لي أَرى الأعضاءَ منك كواسيا
فلا حبَّ حتى يلصقَ القلبُ بالحشا ... وتذبُل حتى لا تجيب المناديا
وتنحلَ حتى لا يبقِّي لكَ الهوىٰ ... سوىٰ مقلةٍ تبكي بها وتناجيا

نعمْ .. إمَّا أنْ تموتَ بدائك ، وإما أن تصل إلى دوائك .

أطيبُ الحياةِ أنْ تكونَ مُحِبًّا لله محبوبًا :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : مَن عادىٰ لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب ، وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضتُه عليه ، ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليّ بالنوافل حتى أُحبَّه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يُبصر به ، ويده التي يَبطِشُ بها ، ورِجْلَه التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذ بي لأُعيذنَّه ، وما تردَّدتُ عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته »[(١)] .

قال ابن القيم : « أطيب الحياة : حياة هذا العبد ؛ فإنه محبٌّ محبوب ، متقرِّب إلى ربه ، وربُّه قريب منه ، قد صار له حبيبَه لفرط استيلائه على قلبه ، ولهجه بذكْره ، وعكوف همته على مرضاته ، بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله ، وهذه آلات إدراكه وعمله وسعيه ؛ فإنْ سمِع سمِع بحبيبه ، وإنْ أبصرَ أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به .

فإن صعب عليك فهْمَ هذا المعنى ، وكوْن المحب الكامل المحبَّة يسمع

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » . كتاب الرقائق . باب التواضع .

ويبصر ويبطش ويمشي بمحبوبه ، وذاته غائبة عنه ؛ فاضربْ عنه صفْحًا ، وخلِّ هذا الشأن لأهله .

خـلِّ الهـوىٰ لأناس يُعرَفونَ بِهِ   قدْ كابَدُوا الحُبَّ حتى لانَ أصعَبُهُ

فإنّ السالِك إلى ربِّه لا تزال همَّته عاكفة على أمريْن : استفراغ القلب في صدق الحبِّ ، وبذْل الجهد في امتثال الأمر ، فلا يزال كذلك حتى يبدو على سرِّه شواهد معرفته ، وآثار صفاته وأسمائه ، ولكن يتوارى عنه ذلك أحيـانًا ، ويبدو أحيانًا ؛ يبدو مِنْ عيْن الجود ، ويتوارىٰ بحكـم الفتْـرة . والفترات أمرٌ لازم للعبد، فكل عامل له شرَّة، ولكل شرّة فتْرة، فأعلاها فترة وهي للأنبياء ، وفترة الحال الخاصّ للعارفين ، وفترة الهمّة للمريدين ، وفترة العمل للعابدين . وفي هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة ، والتعرُّفات الإلٰهية ، وتعريف قدر النعمة ، وتجديد الشوق إليها ، ومحض التواجد إليها وغير ذلك .

ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد حتى تستقرّ ، وينصبغ بها قلبه ، وتصير الفترة غير قاطعة له ، بل تكون نعمة عليه وراحة له ، وترويحا وتنفيسًا عنه .

فهمَّة المحـبِّ إذا تعلَّقت روحه بحبيبه ، عاكفًا على مـزيد محبَّته وأسباب قوتها ، فهو يعمل على هذا ، ثم يترقَّى منه إلى طلب محبَّة حبيبه له ، فيعمل على حصول ذلك ، ولا يعدم الطلب الأول ولا يفارقه ألبتة ، بل يندرج في هذا الطلب الثاني ، فتتعلَّق همَّته بالأمريْن جميعًا ؛ فإنه إنما يحصل له منزلة « كنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به » بهذا الأمر الثاني وهو كونه محبوبًا لحبيبه ؛ كما قال في الحديث : « فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه وبصره ... » إلخ . فهو يتقرّب إلى ربِّه حِفظًا لمحبته له ، واستدعاءً لمحبَّة ربِّه له .

فحينئذٍ يشدُّ مِئزر الجدِّ في طلب محبَّة حبيبه له ، بأنواع التقرُّب إليه ؛ فقلبه للمحبَّة والإنابة والتوكُّل والخوف والرجاء ، ولسانه للذكر وتلاوة كلام حبيبه ، وجوارحه للطاعات ؛ فهو لا يفتر عن التقرُّب من حبيبه .

وهذا هو السير المفضي إلى هذه الغاية التي لا تُنال إلا به . ولا يُتوصَّل إليـها إلّا مِن هـذا الباب وهـذه الطريق ، وحينئذ تُجمع له في سيره جميعُ متفرقات السلوك ؛ من الحضور ، والهيبة ، والمراقبة ، ونفي الخاطر ، وتخلية الباطن .

فإنَّ المحبَّ يشرع - أولًا - في التقربات بالأعمال الظاهرة ، وهي ظاهر التقرُّب ، ثم يترقَّى من ذلك إلى حال التقرُّب ، وهو الانجذاب إلى حبيبه بكلِّيَّته ، بروحه وقلبه ، وعقله وبدنه ، ثمَّ يترقّى من ذلك إلى حال الإحسان ، فيعبد الله كأنه يراه ، فيتقرَّب إليه حينئذٍ من باطنه بأعمال القلوب ؛ من المحبة والإنابة والتعظيم والإجلال والخشية ، فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذْل الروح ، والجود في محبَّة حبيبه بلا تكلف ، فيجود بروحه ونفسه ، ونَفَسه وإرادته ، وأعماله لحبيبه ، حالًا لا تكلُّفًا . فإذا وجد المحبُّ ذلك فقد ظفِر بحال التقرُّب وسرِّه وباطنه . وإنْ لم يجده فهو يتقرّب بلسانه وبدنه وظاهره فقط ، فليدُمْ على ذلك ، وليتكلَّفِ التقرُّب بالأذكار والأعمال على الدوام ، فعسَاه أن يحظَى بحال القرْب .

ووراء هذا « القرب الباطن » أمر آخر أيضًا ، وهو شيء لا يُعبَّر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلْق إلى الله ؛ رسول الله ﷺ عن هذا المعنى ؛ حيث يقول حاكيًا عن ربِّه تبارك وتعالى : « مَن تقرَّب منِّي شبرًا تقربتُ منه ذراعًا ، ومَن تقرّب مني ذراعًا تقربتُ منه باعًا ، ومَن أتاني يمشي أتيتُه هَرْولةً » . فيجد هذا المحب في باطنه ذوْق معنى هذا الحديث ذوقًا حقيقيًّا .

فذكر مِن مراتب القرْب ثلاثة ، ونبّه به على ما دونها وما فوقها ، فذكر

تقرُّب العبد إليه بالبِّر ، وتقرُّبه سبحانه إلى العبد ذراعًا ، فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرُّب انتقل منه إلى تقرُّب الذراع ، فيجد ذوق تقرُّبِ الربِّ إليه باعًا ، فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثاني ؛ أسرَع المشي حينئذٍ إلى ربّه ، فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولةً ، وهاهنا منتهىٰ الحديث . منبِّهًا على أنه إذا هرول عبده إليه كان قربُ حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه . فإمَّا أن يكون قد أمسَكَ عن ذلك لعظيمِ شاهدِ الجزاء ، أو لأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بَشَر ، أو إحالةً على المراتب المتقدِّمة . فكأنه قيل له : وقِسْ على هذا . فعلىٰ قدْر ما تبذل منك متقرِّبًا إلى ربِّك يتقرَّب إليك بأكثر منه . وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور في مراتبه ؛ أي : مَن تقرَّب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه ، وإرادته وأقواله وأعماله ؛ تقرَّب الربُّ منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرُّب عبده إليه .

ولله درُّ القائل :

ما زلتُ أنزلُ مِنْ ودادِكَ منزلًا تتحيَّرُ الألبابُ عنـدَ نـزولِـهِ

وليس القرْب في هذه المراتب كلِّها قرْبَ مسافة حِسِّيَّة ولا مُماسَّة ، بل هو قرب حقيقي ، والربُّ تعالى فوق سماواته على عرشه والعبد في الأرض ، وهذا الموضع هو سرُّ السلوك وحقيقة العبودية .

وملاك هذا الأمر : هو قصد التقرُّب أولًا ، ثم التقرُّب ثانيًا ، ثم حال القرْب ثالثًا وهو الانبعاث بالكليَّة إلى الحبيب .

وحقيقة هذا الانبعاث : أن تفنىٰ بمراده عن هواك ، وبما منه عن حظِّك ، بل يصير ذلك هو مجموع حظِّك ومرادك ، وقد عرفت أنَّ من تقرَّب إلى حبيبه بشيء جُوزي على ذلك بقرْبٍ هو أضعافه . وعرفتَ أن أعلى أنواع التقرُّب : تقرُّب العبدِ بجملته - بظاهره وباطنه - وبوجوده إلى حبيبه . فمن فعَل ذلك فقد تقرَّب بكلِّه ، ولم تبقَ منه بقيَّة لغير حبيبه ؛ كما قيل :

لا كان من لسـواك فيهِ بقيةٌ يجدُ السـبيلَ بها إليه العُـذَّلُ

وإذا كان المتقرَّب إليه بالأعمال يعطي أضعاف أضعافِ ما تُقُرِّب به ، فما الظنُّ بمن أُعطي حالَ التقرُّب وذوْقه ووجده ؟! فما الظنُّ بمن تقرّب إليه بروحه ، وجميع إرادته ، وهمته وأقواله وأعماله ؟! .

وهذه الحياة : هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة ، فمن فقدها ففقْده لحياته الطبيعيَّة أولى به .

هٰذي حياة الفتى فإن فُقِدتْ ففقْدُهُ للحياةِ أليقٌ بِهِ

فلا عيش إلا عيش المحبِّين الذين قرَّت أعينهم بحبيبهم ، وسكنت نفوسهم إليه ، واطمأنت قلوبهم به ، واستأنسوا بقرْبِهِ ، وتنعَّموا بحبِّه ، ففي القلب فاقة لا يسدُّها إلّا محبة الله والإقبال عليه والإنابة إليه ، ولا يلمُّ شعثهُ بغير ذلك ألبتة . ومن لم يظفر بذلك فحياتهُ كلها همومٌ وغمومٌ ، وآلامٌ وحسَرَات . فإنه إن كان ذا همة عالية تقطَّعت نفسه على الدنيا حسَرَات ؛ فإن همته لا ترضىٰ فيها بالدُّون ، وإن كان مهينًا خسيسًا فعيْشُه كعيْشِ أخسِّ الحيوانات . فلا تقرُّ العيون إلّا بمحبَّة الحبيب الأول .

أبو بكر الصِّدِّيق يسبقُ الأمَّة بحبِّه لله :

عن بكر المُزَني قال : ما فاق أبو بكر أصحابَ محمدٍ ﷺ بصوم ٍ ولا صلاةٍ ؛ ولكن بشيءٍ وقَرَ في قلبه .

قال إبراهيم : بلغني عن ابن علية أنه قال في عقيب هذا الحديث : الذي كان في قلبه الحبُّ لله عز وجل والنصيحة لخلقه[1] .

ابن عمر يسأل اللهَ حبَّه :

كان ابن عمر يدعو على الصفا والمروة وفي مناسكه : « اللهمَّ اجعلني

(١) استنشاق نسيم الأُنس ص١٣ لابن رجب الحنبلي – المكتب الإسلامي .

ممَّن يحبُّك ، ويحبُّ ملائكتك ، ويحبُّ رُسُلَك ، ويحبُّ عبادك الصالحين . اللهمَّ حبِّبني إليك وإلى ملائكتك ، وإلى رُسُلك وإلى عبادِك الصالحين »[(١)] .

حكيم بن حِزام سيِّدٌ شعارُه الحبُّ :

كان رضي الله عنه يطوف بالبيت ويقول : لا إله إلا الله ، نِعْمَ الرب ونِعْمَ الإله ، أحبُّه وأخشاه[(٢)] .

« وقال هرم بن حيَّان : المؤمن إذا عرف ربَّه عز وجل أحبَّه ، وإذا أحبَّه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعيْن الشهوة ، و لم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تُحسِّره في الدنيا وتروِّحه في الآخرة .

وقال أبو سليمان الداراني : إنَّ من خلْقِ الله خلْقًا ما يشغلهم الجِنانُ وما فيها من النعيم عنه ، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟! »[(٣)] .

العبَّاسُ يُوصي ابنَه حبْرَ القرآن بحبِّ الله :

« عن عبد الله بن إبراهيم القرشي قال : لما نزل بالعباس بن عبد المطلب الموت ، قال لابنه عبد الله : إني موصيك بحبِّ الله وحبِّ طاعته ، وخوف الله وخوف معصيته ، وإنك إذا كنتَ كذلك لم تكره الموت متى أتاك »[(٤)] .

سيروا إلى ربِّكم سيْرًا جميلًا :

قال خليد العصري : يا إخوتاه : هل منكم من أحد لا يحبُّ أن يلقىٰ حبيبه ؟ ألا فأحِبُّوا ربَّكم عز وجل وسيروا إليه سيرًا جميلًا ، لا مصعدًا ولا

(١) المصدر السابق ص٤١ .
(٢) استنشاق نسيم الأنس ص١٢٩ .
(٣) إحياء علوم الدين ٤/٣١٣ .
(٤) استنشاق نسيم الأنس ص١٢٨ .

مميلًا[(١)].

قال أبو سليمان الداراني : مَن كان اليوم مشغولًا بنفسه ، فهو غدًا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولًا بربِّه ، فهو غدًا مشغول بربه .

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني لغلامه : « يا غلام ، لا يكن همك ما تأكل وما تشرب وما تلبس ، وما تنكح وما تسكن وما تَجمع ، كل هذا همُّ النفس والطبع ، فأين همُّ القلب ؟! همُّك ما أهمَّك فليكنْ همّكَ ربّك عز وجلّ وما عنده » .

ولله درُّ القائل :

كانـتْ لقلبـيَ أهــواءٌ مـفـرَّقَـةٌ فاستجمعتْ مُذْ رآكَ القلبُ أهوائي
فصارَ يحسُدني مَن كنتُ أحسُدُهُ وصرتُ مولَى الورىٰ مُذْ صرتَ مولائي
تركـتُ للناسِ دنياهـمْ ولهـوَهُـمُ شُـغلًا بحبِّـك يـا دِينـي ودنيـائـي

وقال الشاعر :

أروحُ وقد ختمتَ على فؤادي بحبِّـكَ أنْ يحـلَّ بـه سـواكا
فلو أني استطعتُ غضضْتُ طرْفي فلـمْ أنـظـر بـه حتـى أراكـا
أُحبُّك لا ببعضـي بـل بكلِّـي وإن لم يُبقِ حبُّك لي حِـراكـا
وفي الأحـباب مختـصٌّ بوجْـدٍ وآخـر يـدَّعـي معهُ اشـتـراكـا
وكـلٌّ يـدَّعـي حبًّـا لـربـي وربي لا يُقـرُّ لهـم بـذاكـا
إذا اشـتبكـتْ دمـوعٌ في خـدودٍ تبيَّـنَ مَـن بكـىٰ ممَّن تباكـىٰ
فأمَّا مَن بكـىٰ فيذوبُ وجْدًا وينطقُ بالهـوىٰ مَن قد تباكـىٰ

(١) استنشاق نسيم الأنس ص١٢٧ ، حلية الأولياء ٢/٢٣٢ ، وصفة الصفوة ٣/ ٢٣٧ .

النفسُ المطمئنَّة هي المُحِبَّة لربِّها ، عندَ الحسَن البصري :

قال الحسن في قوله تعالى : ﴿ يأيَّتها النفسُ المطمئنة ﴾ [الفجر : ٢٧] : « النفس المؤمنة اطمأنت إلى الله واطمأنَّ إليها ، وأحبَّتْ لقاء اللهِ وأحبَّ لقاءَها ، ورضيتْ عن الله ورضي عنها ، فأمَر بقبْضِ روحها ، فغفر لها وأدخلها الجنة ، وجعلها من عباده الصالحين » .

هـمُ الأبـرار متصلَة بمحبَّة الرحمٰن :

وقال نعيم بن صبيح السعدي : همم الأبرار متصلة بمحبَّة الرحمٰن ، وقلوبهم تنظر إلى موضع العزِّ من الآخرة بنور أبصارهم .

طوبـى لقُلوبٍ ملأتْها محبَّة الله :

وقال مسمع بن عاصم : سمعتُ عابدًا من أهل البحرين يقول في جوف الليل : قرَّة عيني وسرور قلبي !! ما الذي أسقطني من عينك يا مانح العصم .. ثم صرخ وبكى ، ثم نادى : طوبى لقلوبٍ ملأتها خشيتُك ؛ واستولت عليها محبَّتك ، فمحبتك مانعة لها من كلِّ لذَّة غير مناجاتك والاجتهاد في خدمتك ، وخشيتك قاطعة لها عن سبيل كلِّ معصيةٍ خوفًا لحلول سُخْطك . ثم بكى وقال : يا إخوتاه ، ابكوا على فوْت خَيْر الآخرة ؛ حيث لا رجعة ولا حيلة .

ضيْغَمُ بنُ مالـكٍ المحبُّ الخائف :

قال ضيغم يومًا لمولًى له : « منعني - والله - حبُّ الله من الاشتغال بحبِّ غيره . ثم سقط مغشيًّا عليه »(١) .

« وكان رحمه الله يقول وهو ساجد : إلٰهي ، كيف عزَفَتْ قلوبُ الخليقة عنك ؟! وربما أصابتْه الفترة ، فإذا وجدَ ذلك اغتسَل ، ثم دخل بيتًا فأغلق بابه

---

(١) استنشاق نسيم الأنس ص١٣٣ .

وقال : إلٰهي ، إليك جئتُ .. فيعود إلى ما كان من الركوع والسجود .

قالت له أمه ذات يوم : ضيْغم .. قال : لبيكِ يا أماه . قالت : كيف فرحُك بالقدوم على الله ؟ فصاح صيحة لم يسمعوه صاحَ مثلَها قطُّ ، وسقط مغشيًّا عليه ، فجلسَتِ العجوز تبكي عند رأسه وتقول : بأبي أنت !! ما تستطيع أن نذكُر بين يديك شيئًا من أمرِ ربك »[1].

وكان كلاب بن جري العابد يقول في سجوده : وعزَّتِكَ ، لقد خالَطَ قلبي من محبَّتك ما يكلُّ لساني عمَّا أجد منه في نفسي .

دواءُ المحبِّين في الجبالِ لم يَنْبُت :

وقدِمتْ شعوانةُ العابدة وزوجها مكَّة ، فجَعَلا يطوفان ويصلِّيان ، فإذا كَلَّا وأعييا جلس وجلست خلفه ، فيقول في جلوسه : أنا العطشان من حبِّك ولا أُرْوَى . وتقول هي بالفارسية : يا سيدي ، أنبتَّ لكلِّ داءٍ دواءً في الجبال ، ودواءُ المحبِّين في الجبال لم ينبت .

ودخلوا على عابدٍ في البصرة وهو يجود بنفسه وهو يقول : أنا عطشانُ لم أروَ من حبِّ ربي ، وجائع لم أشبع من حبِّ ربي .

وفتح الموصلي من سادات المحبِّين :

وقال المعافى بن عمران : كلَّمتُ فتْحًا المَوْصلي في شيء ، فقال : لم تترك المحبَّة لله في قلوب أوليائه موضعًا لمحبة غيره .

عُتبةُ الغلام القائل : تُراكَ مولاي تعذِّب محبِّيك وأنت الحيُّ الكريم :

« قال سليم النحيف : رمقتُ عُتبة ذاتَ ليلة ، فما زاد ليلته تلك على

---

(١) صفة الصفوة ٣/٣٥٩ - ٣٦٠ .

هذه الكلمات : إنْ تعذِّبْني فإني لك محبٌّ ، وإن ترحمني فإني لك محبٌّ . فلم يزلْ يردِّدها ويبكي حتى طلع الفجر .

وقال محمد بن فهد المديني : كان عتبة يصلِّي هذا الليل الطويل ، فإذا فرغ رفَع رأسَه فقال : سيِّدي ، إن تعذِّبْني فإني أُحبُّك ، وإنْ تعفُ عني فإني أحبُّك .

وقال عنبسة الخوَّاص : بات عندي عُتبةُ ذات ليلة ، فبكى من السَّحَر بكاءً شديدًا ، فلمَّا أصبح قلتُ له : قد فزعتَ قلبي الليلة ببكائك ، ففيم ذاك يا أخي ؟ قال : يا عنبسة ، إني والله ذكرتُ يوم العرْض على الله . ثم مال ليسقط فاحتضنتُه ... فناديتُه:عتبة عتبة ، فأجابني بصوتٍ خَفيٍّ : قطَّع ذكْرُ يومِ العرْض على الله أوصالَ المحبِّين . قال : ويردِّده ، ثم جعل يحشرج البكاء ويردِّده حشرجةَ الموت ويقول : تُراك مولاي تعذِّب محبِّيك وأنت الحيُّ الكريم ؟! قال : فلمْ يزلْ يردِّدها حتى والله أبكاني .

وقال عُتبة رحمه الله : من سكن حبُّه قلبَه لم يجدْ حَرًّا ولا برْدًا . قال عبد الرحيم بن يحيىٰ الديبلي : يعني من سكن حبُّ الله قلبَه ، شغَله حتى لا يعرف الحرَّ من البرد ، ولا الحُلو من الحامض ، ولا الحارَّ من البارد .

وقال عتبة رحمه الله : مَن عرف الله أحبَّه ، ومن أحبَّ الله أطاعه ، ومن أطاع الله أكرمه ، ومَن أكرمه أسكنه في جواره ، ومن أسكنه في جواره فطوباه وطوباه ، وطوباه وطوباه . فلم يزل يقول : وطوباه.حتى خرَّ ساقِطًا مغشيًّا عليه .

وكان رحمه الله يقول : سبحان جبَّارِ السماءِ ، إن المحبَّ لفي عناء »[1] .

---

(١) حلية الأولياء ٦/٢٣٤ - ٢٣٦ .

يحيىٰ بن معاذ الرازي المحبُّ :

قال رحمه الله : « اللهمَّ لا تجعلنا ممن يدعو إليك بالأبدان ، ويهرب منك بالقلوب ، يا أكرم الأشياء علينا ، لا تجعلنا أهون الأشياء عليك » .

قال رحمه الله : « لو أدركتِ القلوب كنْه المحبَّة لخالقها ، لانخعلت مفاصلها وَلَهًا ، ولَطارت الأرواح إليه من أبدانها دهشًا . سبحان من أغفل الخليقَة عن كنْهِ هذه الأشياء ، وألهاهم بالوصف عن حقائق هذه الأنباء » .

وكان رحمه الله يقول : « يا من رجّاني في الطريق بنعمه ، وأشار لي في الورود إلى كرَمِه ، معرفتي بك دليلي عليك ، وحبِّي لك شفيعي إليك » .

وكان رحمه الله يقول : « هذا سروري بك خائفًا ، فكيف سروري بك آمنًا ؟! هذا سروري بك في المجالس ، فكيف سروري بك في تلك المجالس ؟! هذا سروري بك في دار الفناء ، فكيف سروري بك في دار البقاء ؟! » .

وانظر إلى هذا السيد المحبّ يحيىٰ بن معاذ ؛ كيف يستمطر الدمع حين يقول :

أموتُ بدائي لا يُصابُ دوائيا ... ولا فَرَجٌ ممَّا أرى في بلائيا
يقولونَ يحيىٰ جُنَّ من بعد صحَّةٍ ... ولا يعلم العُذّالُ ما في حشائيَا
إذا كان داء المرءِ حبّ مليكِهِ ... فمَن غيرَه يرجو طبيبًا مداويَا
ذروني وشأني لا تزيدوا كربتي ... وخلُّوا عناني نحو مولىٰ المواليا
ألا فاهجروني وارغبُوا في قطيعتي ... ولا تكشفوا عمَّا يجنُّ فؤاديا
كِلوني إلى المولى وكفُّوا ملامتي ... لآنسَ بالمولىٰ على كلِّ ما بيا

وقال رحمه الله : « عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟! ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبُّه ؟! وحبُّه يُذْهِش العقول فكيف وُدُّه ؟! ووُدُّه يُنسي ما دونه فكيف لطفه ؟!

وقال رحمه الله : مثقال خرْدلة من الحُبِّ أحبُّ إليَّ من عبادة سبعين سنة بلا حبٍّ .

وقال رحمه الله : إلٰهي ، إني مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك ، صغيرًا أخذتَني إليك ، وسربلتَني بمعرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتَني في الأحوال ، وقلّبْتني في الأعمال سترًا وتوبة وزهْدًا ، وشوقًا ورضًا وحبًّا ، تسقيني من حياضك ، وتهملني في رياضك ، ملازمًا لأمرك ، ومشغوفًا بقولك ، ولمَّا طَرَّ شاربي ولاح طائري ، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرًا ، وقد اعتدْتُ هذا منك صغيرًا ، فلي ما بقيتُ حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ؛ لأني محبٌّ ، وكلُّ محبّ بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف »[1] .

وكان رحمه الله يقول : إلٰهي ، ذنبي إلى نفسي فأنا معناه ، وحبِّي لك هو لك فأنت معناه ، والحبُّ أعتقده لك طائعًا ، والذنبُ آتيه مني كارهًا ، فهَبْ كراهة ذنبي لطواعية حبي إنك أرحم الراحمين[2] .

وكان رحمه الله يقول : واسوأتاه منك إذا شاهدتَني وهمَّتي تسبق إلى سواك ، أم كيف لا أضني في طلب رضاك !!

وقال رحمه الله ، قلب المحبِّ يهيم بالطيران ، وتكلمه لدغاتُ الشَّوْق والخفقان .

وقال رحمه الله : « لو لم يسكنهم ببلواهُ لَطارت بهم نُعَماه ، ولم يصل إليه من لم يرضَ بقسْمه ، ولم يعرفه من لم يتمتع بنعمه ، ولم يحبه مَنْ لم يتِهْ في كرمه .

(١) الإحياء ٤/٣١٣ .
(٢) حلية الأولياء ١٠/٥١ - ٥٢ .

وقال : حين خاطروا بالنفوس اقتربوا ، وهذا طعْم الخبَر فكيف طعْم النظر ؟!

وقال : أولياؤه أُسراءُ نِعَمه ، وأصفياؤه رهائنُ كرمه ، وأحبَّاؤه عبيد مِنَنِه ، فهم عبيد محبَّةٍ لا يُعتقون ، ورهائن كرَمٍ لا يُفكُّون ، وأسراء نعم لا يُطلَقُون .

وقال رحمه الله في وصف المحبّين : قوم على فرش من الذِّكْر ، في مجلس من الشَّوْق ، وبساتين من المناجاة ، بين رياض الأطراب ، وقُصور الهيْبة وفناء مجلس الأنس ، معانقي عرائس الحكمة بصدور الأفهام ، مناعي زفرات الوجد وجوه الآخرة بفنون الأفراح ، تعاطوا بينهم كأس حبِّه ، سقاهم فيها ، وغوّثهم على شرْبها فرقان الشجي ، تجري في الأكباد تُديم عليهم ذكْر الحبيب ، ويبلبلهم معها هيمان الوجود .

طرب الحبّ على الحـــبِّ مع الحبِّ يدومْ
عجبًا لمن رأيناهُ على الحبِّ يلومْ
حوْلَ حبِّ الله ما عشـتُ معَ الشوْقِ أحومْ
وبه أقعُدُ ما عشْـتُ حياتي وأقومْ

وقال أيضًا رحمه الله :

نفسُ المحبِّ إلى الحبيبِ تَطلَّعُ وفؤادُه مِن حبِّه يتقطَّعُ
عزَّ الحبيبُ إذا خلا في ليلِه بحبيبه يشكو إليه ويضرَعُ
ويقومُ في المحرابِ يشكو بثَّهُ والقلبُ منه إلى المحبَّةِ ينزعُ »[1]

سمنون بن حمزة الخوَّاص :

قال ابن رجب : « كان سمنون شديد المحبَّة . ويُقال : إنه تكلَّم يومًا في

(١) انظر ترجمة يحيى في الحلية ، ١٠/٥١ - ٧٠ .

المحبَّة فاصطفقتْ[١] قناديلُ المسجد حتى تكسَّرت ، وأنه تكلَّم يومًا فيها فجاء طائر يضرِبُ بمنقاره الأرض حتى مات »[٢] .

وكان رحمه الله يقول :

يا مَنْ فـؤادي عليهِ موقوفُ ... وكـلُّ همِّي إليهِ مصـروفُ
يا حسـرتي حسـرة أموتُ بها ... إنْ لـم يكنْ لـي لديـكَ معروفُ

وقال رحمه الله :

كأنَّ رقيبًا منكَ يرعىٰ خواطري ... وآخـر يرعىٰ ناظري ولسـانيا
فما خطرَتْ من ذكْرِ غيركَ خطرةٌ ... على القلبِ إلّا عـرَّجا بعنانيا[٣]

وقال :

لقدْ كانَ يسبي القلبَ في كلِّ ليلةٍ ... ثمانون بلْ تسعون نفْسًا وأرجحُ
يهيمُ بهـذا ثـمَّ يألـفُ غيـرَهُ ... ويسلُوهُمُ من فوْرِهِ حين يُصبحُ
وقد كان قلبي خاليًا[٤] قبلَ حُبِّكُمْ ... وكان بحبّ الخلْق يلهـو ويمـرحُ
فلمَّا دعا قلبي هـواك أجـابَـهُ ... فلسـتُ أراهُ عن حيائك يبـرحُ
حُرِمتُ منائي منك إن كنتُ كاذبًا ... وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرحُ
وإنْ كان شيءٌ في الوجود سـواكمُ ... يَقَرُّ بهِ القلـبُ الجريـحُ ويفـرحُ
إذا لعبتْ أيدي الهوىٰ بمُحبِّكـمْ ... فليسَ لهُ عنْ بابِكـمْ مُتَزَحْـزَحُ
فإنْ أدركتْهُ غـرْبةٌ عنْ ديارِكُـم ... فحبُّكمْ بينَ الحشَا لـيسَ يَبـرحُ
وكمْ مشترٍ في الخلْقِ قد سـامَ قلبُهُ ... فلـمْ يـرَهُ إلّا لـحبِّـك يَصـلـحُ
هوىٰ غيرِكُمْ نارٌ تلظَّىٰ ومَحْبَس ... وحُبُّكُمُ الفردوسُ بلْ هو أفسحُ

---

(١) أي : اضطربتْ .
(٢) استنشاق نسيم الأنس ١٣٤ - ١٣٥ .
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٢٣٥/٩ .
(٤) وفي أخرى : ضائعًا .

فيا ضيْم قلب قدْ تعلَّقَ غيرَكُمْ ويا رحمةً مما يجولُ ويكدحُ

« وقال له بعض الخلفاء : يا سمنون ، كيف وصلتَ إليه ؟ قال : ما وصلتُ حتى عملتُ ستَّة أشياء : أمَتُّ ما كان حيًّا وهو النفْس ، وأحييتُ ما كان ميتًا وهو القلب ، وشاهدتُ ما كان غائبًا وهو الآخرة ، وغيَّبتُ ما كان شاهدًا وهي الدنيا ، وأبقيتُ ما كان فانيًا وهو المراد ، وأفنيتُ ما كان باقيًا وهو الهوىٰ ، واستوحشتُ ممَّا تستأنسون ، وأنِسْتُ مما تستوحشون .

رُوحي إليك بكلِّها قدْ أَجْمعتْ لو أَنَّ فيك هلاكَها ما أَقْلعتْ
تبكي عليكَ بكُلِّها في كلِّها حتى يُقالَ مِنَ البكاءِ تقطّعتْ

وله أيضًا :

لطائفُ برِّك ما تنقضي وطاعاتُ خلْقِكَ ليستْ تضِي
تقاضَوْك بَرًّا فأَوفيتَهُمْ ولم يقتضُوا لكَ ما يقتضي
وما تُبصرُ العَيْنُ يا سيِّدي سوىٰ ما تحبُّ وما ترتضي

وقال :

حرامٌ على قلبٍ تحرمَ بالهوىٰ يكونُ لغيْرِ الحقِّ فيهِ نصيبُ
تفرَّدَ فيهِ فانفردتُ بحبِّهِ فصارَ عليَّ شاهد ورقيبُ

وقال :

بين المحبِّين سرٌّ ليسَ ينسبهُ قولٌ ولا قلمٌ في الخلْق يحكيهِ

وقال :

الحبُّ شيءٌ لطيفٌ ليسَ يُدركهُ عقلٌ لإدراكه عزٌّ وتدبيرُ
لكنَّه في مجاري السرِّ يعرفُهُ أهلُ الإشارةِ لا كيْفٌ وتقديرُ

وقال :

ألستَ لي عوضًا مني كفىٰ شرفًا فما وراءَكَ لي حظٌّ ومطلوب »[1]

---

(١) عقلاء المجانين للحسن بن حبيب النيسابوري ص١٠٩ - ١١١ . دار البصائر .

* لا تُخْدَعَنَّ فلِلْحبيبِ دلائلُ *

علاماتُ المحبِّ عالي الهمَّة :

وحتى لا يدَّعي الخلي حُرْقةَ الشجيّ ، فما أسهل الدعوىٰ وما أعزَّ المعنى ؛ فالمحبَّة شجرة طيبة أصلُها ثابتٌ وفرْعُها في السماء ، وثمارها تظهر في القلب واللّسان والجوارح .

قيل للبيضاءِ بنتِ الفضْل : هلْ للمحبِّ للهِ دلائلُ يُعرفُ بها ؟ فقالت : والمحبُّ للسيِّد لا يخفىٰ ، لو جهد المحبُّ للسيِّد أن يخفىٰ ما خَفِي . فقيل لها : صِفيه . قالت : لو رأيت المحبَّ لله – عز وجلَّ – لرأيت عجبًا ؛ من والهٍ ما يقرُّ على الأرض ، طائر مستوحِش ، أنْسُه في الوحدة ، قد مُنِع الراحة ، طعامه الحُبُّ عند الجُوع ، وشرابُه الحُبُّ عند الظمأ ، لا يملُّ من طول الخدمة لله تعالى .

قال أبو تراب النخشبي :

لا تُخْدَعَنَّ فللحبيبِ دلائلُ ... ولديهِ من تُحَفِ الحبيبِ وسائلُ
منها تنعُّمُهُ بمرِّ بلائِهِ ... وسروره في كلِّ ما هو فاعلُ
فالمنْعُ مِنهُ عطيَّةٌ مقبولةٌ ... والفقرُ إكرامٌ وبِرٌّ عاجلُ
ومِنَ الدلائل أنْ ترىٰ مِن عزمِهِ ... طوْعَ الحبيبِ وإنْ ألحَّ العاذِلُ
ومِن الدلائل أن يُرىٰ متبسِّمًا ... والقلبُ فيهِ مِنَ الحبيبِ بلابلُ
ومِن الدلائل أنْ يُرى متفهِّمًا ... لكلامِ مَن يحظىٰ لديهِ السائلُ
ومن الدلائل أنْ يُرىٰ متقشِّفًا ... متحفِّظًا من كلِّ ما هو قائلُ

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أنْ تراه مُشَمِّرًا ... في خِرقتيْن على شطوط الساحلِ
ومن الدلائل حزنُهُ ونحيبُه ... جوْفَ الظلامِ فما لهُ من عاذِلِ
ومن الدلائل أن تراهُ مسافِرًا ... نحوَ الجهادِ وكلِّ فعْلٍ فاضلِ

ومنَ الدلائلَ زهدُه فيما يرىٰ   من دار ذل والنعيم الزائلِ
ومن الدلائل أنْ تراهُ باكيًا   أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراهُ مُسَلّمًا   كلَّ الأمور إلى المليكِ العادلِ
ومن الدلائل أنْ تراهُ راضيًا   بمليكِهِ في كلِّ حكمٍ نازِلِ
ومن الدلائل ضحكُهُ بين الورَىٰ   والقلبُ محزونٌ كقلْبِ الثاكِلِ

« قال الله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا مَن يرتدَّ منكم عن دينه فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يحبُّهم ويحبُّونه أذلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل اللهِ ولا يخافون لوْمةَ لائمٍ ذلك فضْل اللهِ يُؤْتيهِ مَن يشاءُ واللهُ واسع عليم** ﴾ [المائدة : ٥٤].

وقال تعالى : ﴿ **قلْ إنْ كنتمْ تحبُّون اللهَ فاتبعوني يحببْكم اللهُ ويغفر لكم ذنوبَكم واللهُ غفور رحيم** ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فوصَفَ اللهُ سبحانه المحبِّين لهُ بخمسةِ أوصاف :

أحدها : الذلَّة على المؤمنين ، ولين الجانب ، وخفْضُ الجناح ، والرحمة والرأفة للمؤمنين. فالمحبُّ يذلُّ لمحبوبه ومحبوب محبوبه .

لِعَيْنٍ تفدَّىٰ ألفُ عينٍ وتتَّقىٰ   ويُكْرَمُ ألفٌ للحبيبِ المكرَّمِ

الثاني : العزَّة على الكافرين والشدَّة والغلْظَة عليهم ؛ سئلَ المرتعش : بِمَ تُنالُ المحبَّة ؟ قال : بموالاة أولياء اللهِ ، ومعاداة أعدائه .

الثالث : الجهادُ في سبيل الله ومجاهدة أعدائه باليد واللسان ؛ وذلك من تمام معاداة أعداء الله الذي تستلزمه المحبَّة . ودعاء الخلق إلى الله وردُّهم إليه .

قال إبراهيم بن أدهم : سمعت رجلَيْن من الزُّهَّاد يقول أحدهما للآخر : يا أخي ، ما ورث أهلُ المحبَّة من محبَّتهم ؟ قال : فأجابه الآخر : ورثوا النظر بنور الله ، والعطف على أهل معاصي الله . قال : فقلتُ له : كيف يعطفُ على

قوم قد خالفوا أمْر محبوبه ؟ فقال : مقتَ أعمالَهم ، وعطف عليهم ، ليزيلهم بالمواعظ عن فِعالهم ، وأشفق على أبدانهم من النار . لا يكون المؤمن مؤمنًا حقًّا حتى يرضى للناس ما يرضاه لنفسه .

الرابع : لا يخافون في الله لوْمة لائم ؛ والمراد أنهم يجتهدون فيما يَرضىٰ به الله من الأعمال ، ولا يبالون بلوْم مَن لامهم في شيء منه ، إذا كان فيه رضا ربِّهم .. ولله درُّ القائل :

وقفَ الهوىٰ بي حيث أنتَ فليس لي ... مُتَأَخَّرٌ عنه ولا مُتَقَدَّمُ
أجدُ الملامَة في هَواك لذيذةً ... حبًّا لذكْرك فلْيلمْني اللُّوَّمُ

الخامس : متابعة الرسول ﷺ وطاعته واتباعه في أمره ونهيه ، وليس الشأن أن تُحِبَّ إنما الشأن أن تُحَبَّ ، ولن يحبَّك الله حتى تتَّبعَ رسوله ﷺ .

وقال إبراهيم بن الجنيد : يُقال: علامة المحبِّ علىٰ صِدْق المحبَّة ستُّ خصال :

أحدُها : دوام الذكْر بقلْبِهِ بالسرور بمولاه .

والثانية : إيثاره محبَّة سيِّده على محبَّة نفسه .

والثالثة : الأنس به والاستثقال لكلِّ قاطع يقطعه عنه ، أو شاغل يشغله عنه .

والرابعة : الشوق إلى لقائه والنظر إلى وجهه .

والخامسة : الرضا عنه في كلِّ شدَّة وضُرٍّ ينزل به .

والسادسة : اتباع رسوله ﷺ .

قال سهل بن عبد الله التستري : من علامات حبِّ الله حبُّ القرآن ، وعلامة حبِّ الله وحبِّ القرآن حبُّ النبي ﷺ ، وعلامة حبِّ النبي ﷺ حبُّ السُّنَّة ، وعلامة حبِّ السنة حبُّ الآخرة ، ومن علامة حبِّ الآخرة بُغْضُ الدنيا ، وعلامة بُغْض الدنيا أنْ لا يأخذ منها إلا زادًا يبلِّغه الآخرة .

ومِن علامة المحبَّة : أنَّ مَن أحبَّ الله تعالى لم يكن شيء عنده آثر من هواه ، ومَن أحبَّ الدنيا لم يكن شيءٌ عنده آثر من هوىٰ نفسه . والمحبَّة منتهىٰ القرْبة والاجتهاد ، ولن يسأم المُحِبُّون من طُول اجتهادهم لله عز وجل ، يحبُّونه ويحبُّون ذِكْره ، ويُحبِّبونه إلى خلقه ، ويمشون بين عباده بالنصائح ، ويخافون عليهم من أعمالهم يوم تبدو الفضائح ، أولئك أولياء الله وأحبَّاؤه وأهل صفوته ، أولئك الذين لا راحة لهم دون لقائه .

والعمل على المحبَّة لا يدخله الفُتُور :

قال أحد العُبَّاد : إذا سَئِم البطَّالون من بطالتهم ، فلنْ يسأمَ محبُّوك من مناجاتك وذِكْرك .

وعن جعفر المحوبي قال : وَليُّ اللهِ المحبُّ لله لا يخلو قلبُه من ذكْر ربِّه ، ولا يسأم من خدمته ، فإذا أعرض أعرض عنه ، وإذا أقبل إلى الله أقبل عليه الله برأفته ورحمته .

وقال الفضيلُ بن عِياض : الحبُّ أفضل من الخوف ؛ ألا ترى إذا كان لك عبدان أحدهما يحبُّك والآخر يخافك ، فالذي يحبُّك منهما ينصحك شاهدًا كنتَ أو غائبًا ؛ بحبِّه لك . والذي يخافُك عسىٰ أن ينصحك إذا شهدتَ ؛ لمَا يخاف ، ويغشُّك إذا غبتَ ولم ينصحك .

وعن ابن زرارة قال : سمعتُ كلاب بن جري يقول لرجل من الطغاوة وهو يُوصيه بطرائق البرِّ ؛ فقال له فيما يقول :

وكنْ لربِّك ذا حبٍّ لتخدِمَهُ إنَّ المحبِّين للأحباب خُدَّامُ

قال : فصاح الطغاوي صيحة ، فخرَّ مغشيًا عليه .

وعن أبي عبد الرحمن المغازلي قال : لا يعطىٰ طريقَ المحبَّة غافلٌ ولا ساهٍ . المحبُّ لله عز وجلَّ طائرُ القلب ، كثيرُ الذِّكْر ، متسبِّبٌ إلى رضوانه بكلِّ سبيل يقدر عليه من الوسائل والنوافل ، ذوبًا ذوْبًا وشوْقًا شوْقًا .

وعن محمد بن النضر الحارثي قال : ما كاد يملُّ القربة إلى الله عز وجل محبٌّ لله عز وجل،ولا يكاد يسأم من ذلك .

وقال محمد بن نعيم الموصلي : إنَّ القلب الذي يحبُّ اللهَ عزَّ وجلَّ يحبُّ التعَبَ والنصب لله ، إنه لنْ ينال حبَّ الله بالراحة .

وقال بعض العارفين لرجل : أَفْشِ فعْلَ الخيرات ، وتوصَّلْ إلى الله بالحَسنات ؛ فإني لم أرَ شيئًا قطُّ أرضىٰ للسيِّد مما يحبُّ ؛ فبادِرْ في محبَّته يُسرع في محبتك . ثم بكى ، فقال له : زدني رحمك الله . قال : الصبر على محبَّة الله وإرادته رأسُ كلِّ برّ . أو قال : كلِّ خير .

واجتمع أحمد بن أبي الحواري وقاسم الجوعي ، وجماعة من الصالحين بعد صلاة العَتَمة ، وقد خرجوا من المسجد إلى بيت رجلٍ قد دعاهم إلى طعام صَنَعه لهم ، فأنشدهم رجلٌ قبل دخول الباب :

علامةُ صِدْقِ المستخصِّين بالحبِّ … بلوغُهُمُ المجهودَ في طاعةِ الرَّبِّ
وتحصيلُ طيبِ القوتِ مِن مُجْتنائهِ … وإنْ كانَ ذاكَ القوتُ في مُرتقى صعبِ

فلم يزلْ يردِّده وهم قيام حتى أذَّن مؤذِّن الفجر ، ورجعوا إلى المسجد ..

وقد رويت بيتين آخرين مع هذين البيتين ، وهما :

وإمساكُ سوءِ اللفظ عن وَلهِ جِنْسِهِم … وإن ظلموا فالعفو من ذاك بالخطْبِ
أولئكَ بالرحمٰنِ قرَّتْ عُيونُهُمْ … وحلُّوا مِنَ الإخلاصِ بالمنزلِ الرحْبِ

وقال مطر : اجتمعنا ليلةً على الساحِلِ ، ومعنا مسلم أبو عبد الله ؛ فقال رجل من الأزْد :

ما للمُحبِّ سوىٰ إرادةِ حُبِّهِ … إنَّ المُحِبَّ بكلِّ برٍّ يضْرَعُ

قال : فبكى مسلم حتى خشيتُ والله أن يموت .

وقال أحمد بن أبي الحواري : سمعتُ ابن عيينة يقول : لا تبلغون ذرْوَة هذا الأمر حتى لا يكون شيءٌ أحبَّ إليكم من الله عز وجل ، فمَن أحبَّ القرآن فقد أحبَّ الله عز وجل »[١] .

ومِنَ علاماتِ المحبِّ عالي الهمَّة : حبُّ لقاءِ الحبيبِ في دار السَّلام :

قال الثوري وبشر الحافي : لا يكره الموت إلا مريب ؛ لأنَّ الحبيبَ على كلِّ حالٍ لا يكره لقاءَ حبيبه .

وقال البويطي لبعضِ الزهَّاد : أتحبُّ الموتَ ؟ فكأنه توقّف ، فقال : لو كنتَ صادقًا لأحببتَه . وتلا قوله تعالى : ﴿ **فتمنَّوا الموت إن كنتم صادقين** ﴾ [البقرة: ٩٤]. فقال الرجل : فقد قال النبي ﷺ : « لا يتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ »[٢]. فقال : إنما قاله لِضرٍّ نزَل به ؛ لأن الرضا بقضاء الله أفضل من طلب الفرار منه .

قال ابن رجب : « هِمَمُ العارفين المحبِّين متعلّقة من الآخرة برؤية الله ، والنظر إلى وجهه في دار كرامته والقرب منه » .

وقال الحسن : لو علِمَ العابدون أنهم لا يرون ربَّهم يوم القيامة ، لمَاتوا .
وفي رواية : لذابتْ أنفسُهم .

وقال إبراهيم الصائغ : ما سرَّني أنَّ لي نصفَ الجنة بالرؤية . ثم تلا : ﴿ **كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومئذ لمَحجُوبون** ﴾ [المطففين : ١٥].

وقال عبد الله بن وهب : لو خُيِّرتُ بين دخول الجنة والنظر إلى ربي عزَّ وجل ؛ لَاخترتُ النظر إليه سبحانه وتعالى .

وقال غزوان الرقَّاشي : في قوله تعالى : ﴿ **ولَدَينا مزيد** ﴾ [ق : ٣٥]،

---

(١) استنشاق نسيم الأنس ص٥٧ - ٦٨ .
(٢) « لا يتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ لضرٍّ نزل به » . الحديث متفق عليه من حديث أنس .

قال : ما يسرُّني بحظِّي من المزيد الدنيا جميعُها .

وقال أبو سليمان الداراني : لو لم يكن لأهل المعرفة إلّا هذه الآية الواحدة؛ لَاكتفوا بها ﴿**وجوهٌ يومئذٍ ناضِرة إلى ربِّها ناظرة**﴾ [القيامة : ٢٣] .

وكان رحمه الله يقول : أهل المعرفة دعاؤهم غيرُ دعاء الناس ، وهِمَمُهم من الآخرة غير هِمَمِ الناس .

قال مسمع بن عاصم :

اجتمع بعض العُبّاد على امرأةٍ من بني عَديٍّ ، يُقال لها : أَمَةُ الجليل بنتُ عمرو ، وكانت منقطِعَة جدًّا من طول الاجتهاد ، فأتوها فقالت : ساعاتُ الوليِّ ساعاتُ شُغُل عن الدنيا ، ليس للوليِّ المستحقِّ في الدنيا من حاجة . ثم أقبلت على كلاب بن جري[1] فقالت : مَن حدَّثك أو أخبرك أنَّ وليَّه له همٌّ غيره ، فلا تصدِّقه .

قال مسمع : فما كنتُ أسمع إلّا التصارُخ من نواحي البيت .

وقال ضيْغم لكلاب : إن حبَّه شغَل قلوب مريديه عن التلذُّذ بمحبَّة غيره ، فليسَ لهم مع حبِّه لذَّة تداني محبَّته ، ولا يكون في الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجهه .. فسقط كلاب عند ذلك مغشيًّا عليه .

وكان عبد العزيز بن سليمان العابد يقول في كلامه : أنت أيُّها المحبُّ تزعم أن محبَّتك لله تحقيق ، أما والله لو كنتَ كذلك لضاقت عليك الأرض بما رحُبَتْ حتى تصل إلى رضا حبيبك ، وإلى النظر إلى وجهه في دار كبريائه وعِزِّه .

وقال حبيب الفارسي ليزيد الرقَّاشي : بأي شيءٍ تقرُّ عيون العابدين في

(١) انظر ترجمته في صفة الصفوة ٣/٣٨١ .

الدنيا ؟ وبأيِّ شيءٍ تقرُّ عيونهم في الآخرة ؟ فقال : أمَّا الذي تقرُّ عيونُهم به في الدنيا ، فما أعلم شيئًا أقرَّ لعيون العابدين من التهجُّد في ظلمة الليل . وأمَّا الذي تقرُّ أعينُهم به في الآخرة ، فما أعلم شيئًا من نعيم الجنان وسرورها ألذّ عند العابدين ، ولا أقرَّ لعيونهم ؛ من النظر إلى ذي الكبرياء العظيم ، إذا رُفِعَتْ تلك الحُجُب ، وتجلَّى لهم الكريم . فصاح حبيبٌ عند ذلك وخرَّ مغشيًّا عليه .

وقال ذو النون : ما طابت الدنيا إلا بذكْره ، ولا طابت الآخرة إلّا بعفوه ، ولا طابت الجنان إلا برؤيته .

قال محمد بن يحيىٰ الموصلي : سمعتُ نافعًا - وكان من عُبَّاد الجزيرة - يقول : ليتَ ربي جعل ثوابي من عملي نظرةً مني إليه ، ثمَّ يقول لي : يا نافع ، كُنْ ترابًا .

وحُرْمَةَ الـوُدِّ مـا لي عنكـمُ عِوَضُ ... وليـسَ لي في سواكمْ سادتي غَرَضُ
وقد شـرطتُ علي قومٍ صحبتهُمُ ... بأنَّ قلبي لكم مِنْ دونهم فَرَضُوا
ومن حديثي بكـمْ قالـوا به مرضٌ ... فقلتُ لا زال عـني ذلكَ المـرضُ

ومن علاماتِ المحبِّ : أن يكون مُؤْثِرًا ما أحبَّ اللهُ تعالى على ما يحبُّه ، في ظاهره وباطنه :

فيلزم مشاقَّ العمل ، ويجتنبُ اتباع الهوىٰ ، ويُعرض عن دَعة الكَسَل ، ولا يزال مواظبًا على طاعة الله ومتقرِّبا إليه بالنوافل ، وطالبًا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحبّ مزيد القرب في قلب محبوبه . والحبُّ إذا غلب قمع الهوى ، فلم يبقَ له تنعُّم بغيْر المحبوب .

قال ابن المبارك :

تعصي الإلهَ وأنت تُظهِرُ حُبَّهُ ... هذا لَعمري في الفعالِ بـديعُ
لـو كـانَ حبُّك صادِقًا لَأَطعْتَهُ ... إنَّ المحـبَّ لمـنْ يحـبُّ مُطيعُ

قال سهل : « علامة الحبِّ إيثارُه على نفسِك » . وليس كل من عمل بطاعة الله عزَّ وجل صار حبيبًا ، وإنما الحبيبُ مَن اجتنبَ المناهي .

قال الفضيل : إذا قيل لك : أتحبُّ الله تعالى ؟ فاسكت ، فإنك إن قلتَ : لا . كفرتَ ، وإن قلتَ : نعم.فليسَ وصفك وصْف المحبِّين فاحذرِ المقْتَ .

ومنها : أن يكون مستَهْتَرًا (مُولَعًا) بذكْر الله تعالى ، لا يفترُ عنه لسانُه ولا يخلو عنه قلبُه :

فمن أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره وذكْرِ ما يتعلَّق به .

قال أحمد بن أبي الحواري : سمعتُ ابن عيينة يقول : لا تبلغون ذروة هذا الأمر حتى لا يكون شيءٌ أحبَّ إليكم من الله عز وجل ، فمن أحبَّ القرآن فقد أحبَّ الله .

وقال عروة البارقي : حبُّ الله عز وجل : حبُّ القرآن ، وحبُّ رسول الله ﷺ : العمل بسُنَّته .

إنْ كنـتَ تـزعُـمُ حبِّي ... فلِـمْ هـجَـرتَ كتابـي
أمَا تـأمَّلْـتَ مـا فيـ ... ـهِ من لـذيـذِ خطابـي

بعيني مَن تلذَّذ بكلامي :

« قال أحمد بن أبي الحواري : دخلتُ على أبي سليمان فرأيتُه يبكي ، فقلتُ : ما يُبكيك ؟ قال : ويحك يا أحمد ! إذا جَنَّ الليل ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه ، افترش أهل المحبَّة أقدامَهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وأشرف الجليل جلَّ جلاله عليهم ، وقال : بعيني مَن تلذَّذ بكلامي ، واستروح إلى مناجاتي ، وإني مطلع عليهم في خَلَواتهم أسمع أنينَهم ، وأرى بكاءهم وحنينَهم . يا جبريل ، نادِ فيهم : ما هذا البكاءُ الذي أراه منكم ، هل أخبرَكم مخبِرٌ أنَّ حبيبًا يعذِّب أحبابه بالنار ، بل كيف يجمل أن أعذِّب قومًا إذا جنَّهم الليلُ تملَّقوني

فبي حلفتُ إذا وردوا القيامة عليَّ أن أُسفرَ لهم عن وجهي ، وأمنَحهم رياض قدْسي »(١) .

قال ذو النون : لو رأيت أحدهم وقد قام إلى صلاته وقراءته ، فلمَّا وقف في محرابه ، واستفتح كلام سيِّده ، خطر على قلبه أنَّ ذلك المقام هو المقام الذي يقوم الناسُ فيه لربِّ العالمين ، فانخلع قلبه ، وذهَل عقلُه ، فقلوبهم في ملكوت السماوات معلَّقة ، وأبدانهم بين يدي الخالق عارية ، وهمومهم بالفِكْر دائمة .

قال ذو النون في وصْف المحبِّين : يتلذَّذون بكلامِ الرحمٰن ، يَنوحون به على أنفسهمِ نَوْحَ الحمام ، فَرِحين في خَلَواتهم ، لا تفترُ لهم جارِحَةٌ في الخلوات ، ولا يستريحُ لهم قدم تحت ستور الظلُمَات .

ومن علامات المحبِّ عالي الهمَّة : أن يكون أُنسُهُ بالخلْوَة ومناجاته لله تعالى ومواظبته على التَهجُّد :

فأقل درجات الحبِّ:التلذُّذ بالخَلْوة بالحبيب والتنعُّم بمناجاته ، فمن ذاق من خالِص محبَّة الله ؛ شغله ذلك عن طلب الدنيا ، وأوحشه من جميع البَشَر .

قال مطرِّف بن أبي بكْر : المحبُّ لا يسأم من حديثِ حبيبه . وقيل لإبراهيم بن أدهم – وقد نزل من الجبل –: من أين أقبلتَ ؟ قال : من الأُنْس بالله . كانت ريحانةُ إذا قامتِ الليلَ تقول :

قام المحبُّ إلى المؤمَّل قومةً كادَ الفؤادُ من السرور يطيرُ

فلمَّا كان جوفُ الليل سمعتُها تقول أيضًا :

لا تأنسَنَّ بمَنْ توحِشكَ نظرتُهُ فتُمنَعَنَّ مِنَ التذكار في الظُّلَمِ
واجهدْ وكدَّ وكنْ في الليل ذا شجَنٍ يَسقيكَ كأسَ وِدادِ العزِّ والكرمِ

(١) استنشاق نسيم الأُنْس ص٨٧ – ٨٨ .

ثم تنادي : واحزناه ، واسلباه ، فقلتُ : ممَّ ذا ؟

وتقول :

ذهبَ الظلامُ بأُنْسهِ وبإلْفِهِ ليتَ الظلامَ بأُنْسِهِ يتجدَّدُ

وكانت عابدةٌ في عبد القيس متعبِّدة ؛ إذا جاء الليل تحزَّمت ثم قامت إلى المحراب ، وكانت تقول : المحبُّ لا يسأم مِن خدمة حبيبه .

قال مسلم بن يسار : ما تلذَّذَ المتلذِّذون بمِثْل الخلْوة بمناجاةِ الله عز وجل . عجبتُ للخليقَةِ كيف أَنِسَتْ بسواك !! بل عجبتُ للخليقة كيفَ استنارت قلوبُهم بذكْر سواك .

وكان أبو محمد حبيب العجمي يخلو في بيته ثم يقول : من لم تقرَّ عينه بك ، فلا قرَّتْ ، ومن لم يأنس بك ، فلا أَنِسَ .

قال عابد باليمن : سرور المؤمن ولذَّته في الخلْوة بمناجاة سيِّده عزَّ وجل .

وقال إبراهيم بن أدهم : اتخذِ اللهَ صاحبًا ، ودعِ الناسَ جانبًا .

وقال غزوان : إني أصبتُ راحة قلبي في مجالسة من لديه حاجتي .

وقيل : لعبد العزيز بن سليمان الراسبي سيِّد العابدين : ما بقي ممّا يُتلذَّذ به ؟ قال : سرداب أخلو بربِّي فيه .

وقال مسلم العابد : ما يجد المطيعون لله لِذَّة في الدنيا أحلىٰ من الخلْوة بمناجاة سيدهم ، ولا أحسب لهم من الآخرة من عظيم الثواب أكبرَ في صدورهم وألَذَّ في قلوبهم ؛ من النظر إلى الله عز وجل.ثم غُشِي عليه .

وقال الفضيل : طوبىٰ لمنِ استوحش من الناس ، وكان الله أنيسَه .

وقال أبو سليمان : لا أَنَّسَني الله عز وجلَّ إلّا به أبدًا .

وقال رجل لمعروفٍ الكَرْخي : أَوْصِنِي . قال : توكَّلْ على الله حتى يكون جليسَك وأنيسَك ومَوْضع شكواك .

قال ذو النون : إنَّ من علامات المحبِّين لله : تَرْكُ كلِّ ما يشغله عن الله ، حتى يكون الشغلُ بالله وحده . ثم قال : إنَّ من علامات المحبِّين لله أن لا يأنسوا بسواه ، ولا يستوحشوا معه . ثم قال : إذا سكن حبُّ الله القلبَ أَنِسَ بالله ؛ لأن الله أَجَلُّ في صدور العارفين من أن يُحبُّوا سواه .

وكانت رابعة العدوية تنشد هذيْن البيتيْن :

ولقدْ جعلتُكَ في الفؤادِ مُحَدِّثي ... وأبحتُ جسمي من أراد جلوسي

فالجسـمُ مني للجليـسِ مؤانِـسٌ ... وحبيبُ قلبي في الفؤادِ أنيسـي

فعجبًا لمن عرف الطريق إلى الله !! كيف يعيش مع غيره ؟!

ومن علامات المحبِّ : أن يتنعَّم بالطاعة ولا يستثقِلَها ويسـقطَ عنه تعبها :

كما قال ثابت البناني : كابدتُ الليلَ عشرين سنةً وتنعَّمتُ به عشرين سنة .

وقال الجُنيد : علامَة المحِبِّ دوامُ النشاط ، والدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه .

وقال بعض العلماء : والله ما اشتفى محبٌّ لله من طاعته ، ولو حلَّ بعظيم الوسائل .

قيل لبعض المحبِّين – وقد كان بذَلَ نفسه وماله حتى لم يبقَ له شيء–: ما كان سبب حالِك هذه في المحبَّة ؟ فقال : سمعتُ يومًا محبًّا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول : أنا والله أحبُّك بقلبي كلِّه ، وأنت معرِض عني بوجهك كلِّه ؟ فقال له المحبوب : إنْ كنتَ تحبُّني فأيش تنفق عليّ ؟ قال : يا سيدي ، أُمَلِّكُكَ ما أَمْلِكُ ، ثم أنفق عليك روحي حتى تهلِكَ . فقلت : هذا خَلْقٌ لِخَلْقٍ وعبدٌ لعبدٍ ، فكيف بعبيدٍ لمعبود ؟!

ومن علامات المحبِّ : أن يكون في حبِّه خائفًا متضائلًا تحت الهَيْبة والتعظيم :

ولخصوص المحبِّين مخاوف في مقام المحبَّة ليستْ لغيرهم ، وبعض مخاوفهم أشدُّ من بعض ، فأولها : خوف الإعراض ، وأشدُّ منه خوف الحِجَاب ، وأشدُّ منه خوف الإبعاد ، وهذا المعنى في سورة هود هو الذي شيّب سيِّدَ المحبِّين رسول الله ﷺ؛ إذْ سمع قوله تعالى: ﴿**أَلَا بُعْدًا لثمود**﴾، ﴿**أَلَا بعدًا لمدْينَ كما بعِدَث ثمود**﴾ . وإنما تعظُم هيْبَة البعْد وخوْفه في قلبِ من أَلِفَ القرْب وذاقه وتنعَّم به ، فحديث البعْد في حقِّ المبعدين يُشيِّبُ سماعُه أهلَ القرْب في القرب .

ثم خوف الوقوف وسلْب المزيد .

كُلُّ شـيءٍ لـكَ مغفـو ... رٌ سـوىٰ الإعراضِ عنَّا
قدْ غفرْنا لـكَ مـا فـا ... تَ بقِي مـا فـات منَّا

ثم خوْف السُّلُوِّ أو أنْ يغترَّ بحسْنِ النظر أو غلَبَة الغفلة .

ولله درُّ مَن قال في وصْفِ المحبِّ عالي الهمة :

قريبُ الوجدِ ذو مرمًى بعيدِ ... عنِ الأحـرارِ منهـم والعبيدِ
غريبُ الوصفِ ذو علْمٍ غريب ... كأنَّ فـؤادَه زبـرُ الحـديـدِ
لقـد عـزَّتْ معانيهِ وجلَّـتْ ... عـنِ الأبصـار إلّا للشـهيدِ
يرىٰ الأعياد في الأوقاتِ تجري ... لـهُ في كـلِّ يـومٍ ألفُ عيـدِ
وللأحـبـاب أفـراحٌ بـعيـدٍ ... ولا يجـدُ السـرور لـهُ بعيـدِ

ومن علامات المحبِّ عالي الهمَّة : كتمان الحبِّ واجتناب الدعوىٰ : والتوقِّي من إظهار الوجْد والمحبَّة ؛ تعظيمًا للمحبوب وإجلالًا له ، وهيبةً منه وغيْرةً على سِرِّه .

ولله ِدرُّ ذي النون حين ذُكر عنده الكلام في المحبَّة ، فقال : « اسكتوا عن هذه المسألة ؛ لا تسمعها النفوس فتدَّعيها » .

قال الجنيد :

سَرَتْ بأناسٍ في الغيوب قلوبُهُمْ ... فحلُّوا بقرْبِ الماجدِ المتفضلِ
عراصًا بقربِ اللهِ في ظلِّ قُدْسِهِ ... تجولُ بهمْ أرواحُهُمْ وتنقَّلُ
موارِدُهم فيها على العزِّ والنُّهَىٰ ... ومصدرهمْ عنها لِمَا هو أكملُ
تروحُ بعزٍّ مفردٍ منْ صِفاتِهِ ... وفي حُلَلِ التوحيد تَمشي وترفُلُ
ومِنْ بعد هذا ما تدِقُّ صفاتُهُ ... وما كتْمُهُ أولىٰ لديهِ وأعدلُ
سأكْتُمُ منْ علمي بهِ ما يصونُهُ ... وأبذل منه ما أرىٰ المنْع يفضُلُ
على أنَّ للرحمٰنِ سِرًّا يصونُهُ ... إلى أهلِهِ في السِّرِّ والصَّوْنُ أجْمَلُ

ومنها : أن لا يتأسَّف على ما يفوته ممَّا سوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويعظُمُ تأسُّفه على فوت كلِّ ساعة خلَت عنْ ذكْر الله وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغَفَلات بالاستعطاف والتوبة .

قال أحدُ الصالحين : إنَّ لله عبادًا أحبُّوه واطمأنُّوا إليه ، فذهب عنهم التأسُّف على الفائت ، فلم يتشاغلوا بحظِّ أنفسهم ، إذْ كان مُلْك مليكِهم تامًّا ، وما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم ، وما فاتهم فبحُسْن تدبيره لهم .

قال تعالى : ﴿ **وعسىٰ أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم** ﴾ [البقرة : ٢١٦].

كلُّ محبوبٍ سوىٰ اللهِ سَرَفْ ... وهمومٌ وغمومٌ وأَسَفْ
كلُّ محبوبٍ فمنهُ لي خلَفْ ... ما خلا الرحْمٰنَ ما منْهُ خلَفْ
إنَّ للحبِّ دلالاتٍ إذا ... ظهرتْ مِن صاحبِ الحبِّ عُرِفْ
صاحبُ الحبِّ حزينٌ قلبُهُ ... دائمُ الغُصَّةِ مغمومٌ دَنَفْ
همُّه في اللهِ لا في غيرِهِ ... ذاهبُ العقلِ وباللهِ كَلِفْ
أشعثُ الرأسِ خميصٌ بطنُهُ ... أصفرُ الوجْهِ والطرْفُ ذَرِفْ
دائمُ التَّذكارِ من حبِّ الذي ... حُبُّهُ غايةُ غاياتِ الشَّرَفْ
فإذا أمْعَنَ في الحبِّ لهُ ... وعلاهُ الشوْقُ ممَّا قدْ كُشِفْ

باشَرَ المحرابَ يشكو بثَّهُ وأمامَ اللهِ مولاهُ وَقَفْ
قائمًا قُدَّامَهُ منتصِبًا لَهِجًا يتلو بآياتِ الصُّحُفْ
راكِعًا طوْرًا وطوْرًا ساجدًا باكيًا والدمعُ في الأرضِ يَكِفْ
أوْرَدَ القلبَ علىٰ حبِّ الذي فيهِ حبُّ اللهِ حقًّا فعُرِفْ
ثم جالتْ كفُّه في شجرٍ يُنبِتُ الحُبَّ فسَمَّىٰ واقتطَفْ
إنَّ ذا الحُبَّ لمنْ يُعنىٰ بهِ لا بدارٍ ذاتِ لَهْوٍ وترَفْ

وقال بعضهم :

قليلُ العزاء كثيرُ الندمْ طويلُ النحيبِ علىٰ ما اجترمْ
جرىٰ دمعُهُ فبكىٰ جَفنُهُ فصارَ البكاءُ بدمْعٍ وَدَمْ
يخافُ البيَاتَ لهجْمِ الممات وفقْدُ الحياةِ يضرُّ السّقمْ
ويُخفي محبَّةَ ربِّ العلا فتُظهِرُ أنفاسُهُ ما اكتتمْ
وأسْبَلَ من طرْفهِ عَبْرةً علىٰ الصَّحْن من خدِّهِ فانسَجَمْ
وباتَ محاربَ محرابِهِ ولمَّا تزلْ قدمٌ عنْ قَدَمْ
فلمَّا تفتتَ أحشاؤُهُ منَ الشَّوْقِ رقَّ عليهِ الألَمْ
وكمْ ليلةٍ رامَ فيها المنام فصاحَ بِهِ حُبُّهُ لا تَنَمْ
وناحَ علىٰ جسَدٍ ناحلٍ أطالَ النحولُ بهِ فانهَدمْ
أنابَ إلى اللهِ مستغفِرًا فصارَ لهُ من أعزِّ الخدَمْ

الجُنَيْدُ تاجُ العارفين وسيِّد المحبِّين في عصره :

قال الكتاني : جرتْ مسألة في المحبَّة بمكَّة أيام الموسم ، فتكلَّم فيها الشيوخ ، وكان الجُنَيد أصغرهم سنًّا ، فقالوا : هاتِ ما عندك يا عراقي . فأطرق رأسه ودمعَتْ عيناه ، ثم قال : « عبدٌ ذاهِب عن نفسه ، متصل بذكْر ربِّه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوارُ هيبته ، وصفا شربه

من كأسِ وُدِّه ، وانكشف له الجبَّار من أستار غيْبِه ، فإنْ تكلَّم فباللَّه ، وإن نطق فعنِ الله ، وإنْ تحرَّك فبأمْرِ الله ، وإن سكت فمع الله ؛ فهو باللهِ ولله ومع الله» . فبكى الشيوخ وقالوا : « ما على هذا مزيد ، جبَرَك الله يا تاجَ العارفين » .

* * *

□ الشَّوْقُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ □

أحِنُّ بأطرافِ النهارِ صبابةً وفي الليلِ يدعوني الجَوىٰ فأُجيبُ
وأيَّامُنا تَفنَى وشوقي زائِدٌ كأنَّ زمانَ الشوْقِ ليسَ يغيبُ

« أيُّ طيرانٍ يكون أبهىٰ مِن قلوبٍ تطيرُ إلى سيِّدها » :

للهِ قومٌ صعَّدوا أنفاسهم إلى محبوبهم ، لا يخرج ويصعَد نَفَس منها إلا مُتَلَبِّسًا بمحبَّته والشوق إليه ، فإذا أرادوا دفْعَه لم يدفعوه حتى يُتْبِعوه نفسًا آخر مثله ، فكل أنفاسِهم بالله وإلى الله ، فلا يفوتهم نَفَس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم .

الشَّوْقُ في الكتابِ والسُّنَّة :

فالشوق يا أخي إلى الله - عز وجل - نسيمٌ يهُبُّ على القلوب يُطيِّب لها السيْر إلى بلاد المحبوب ، إلى الله وإلى الدار الآخرة .

قال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ وهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [العنكبوت : ٥] .

قال أبو عثمان الحيري : هذا تعزيَةٌ للمشتاقين ؛ معناه : إني أعلـمُ أنَّ اشتياقَكُم إليَّ غالِب ، وأنا أجَّلْتُ للقائكم أجلًا ، وعن قريب يكون وصولُكم إلى ما تشتاقون إليه .

وقال تعالى : ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى** ﴾ [طه : ٨٤] .

معناه : شوقًا إليك ، فستَرُه بلفْظِ الرضا .

وقال ﷺ : « اللهمَّ بعلْمِكَ الغيب ، وقُدرتِكَ على الخلْق ؛ أحيني ما عَلِمْتَ الحياةَ خيرًا لي ، وتوفَّني إذا عَلمتَ الوفاةَ خيرًا لي . اللهـمَّ وأسألُك خشيتَكَ في الغيب والشهادة ، وأسأَلك كلمةَ الإخلاص في الرِّضا والغضَب ،

وأسألُك القَصْدَ في الفقر والغِنَى ، وأسألُك نعيمًا لا ينفَدُ ، وأسألُك قُرَّةَ عَيْنٍ لا تنقطع ، وأسألُك الرِّضا بالقضاء ، وأسألُك بردَ العيشِ بعدَ الموت ، وأسألُك لذَّةَ النظرِ إلى وجهك والشَّوْقَ إلى لقائكَ ، في غير ضرَّاءَ مضرَّةٍ ، ولا فتنةٍ مضلَّة . اللهمَّ زيِّنَّا بزينةِ الإيمان واجعلْنا هُدَاةً مُهتدين »[1] .

وقد كان رسول الله ﷺ يفرح بالمطر ويتلقاه بثوبه ، ولمَّا يُسأَل في ذلك يقول : « إنه حديث عهْدٍ بربِّه » . وفي هذا من الشوْق إلى المولىٰ عزَّ وجلَّ ما فيه .

قال بعض الصالحين : قلوب العاشقين مُنوَّرَة بنور الله ، فإذا تحرَّك اشتياقهم أضاء النورُ ما بين السماء والأرض ، فيعرضهم الله على الملائكة ، فيقول : هؤلاء المشتاقون إليَّ ، أُشهدكم أنِّي إليهم أشْوَقُ .

قال معاذ بن جبل حين الوفاة : اخنقْ خنْقَك ، فوَعزَّتك إني أحبُّك ، مرحبًا بالموت ، زائر مُغِبٌّ جاء على فاقة .

وإذا كان الشوْق هو سَفَر القلب في طلبِ محبوبِه ونُزوعه إليه ، فهو من أشرفِ المقامات وأجلّها وأعلاها ، ومَن أنكر الشَّوْق فقد أنكر المحبَّة ؛ لأن المحبَّة تستلِذُّ الشوْقَ ، فالمحبُّ دائمًا مشتاقٌ إلى لقاءِ محبوبه ، لا يهدأ قلبه ولا يقرُّ قراره إلا بالوصول إليه . وشوْق المحبِّ لله عز وجل ناتجٌ عن معرفته بالله ؛ فمن عرف الله اشتاق إليه . وإذا كانت المعرفة لا نهاية لها فشوْق المحبِّ لا نهاية له ، وإذا كان القلب حاضرًا عند ربِّه وهو غير غائب عنه ، لم يوجب له هذا أنْ لا يكون مشتاقًا إلى رؤيته ولقائه ، بل هذا يكون أتمَّ لشوْقه وأعظمَ .

---

(١) حديث صحيح : رواه النسائي والحاكم عن عمَّار بن ياسر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٣١٢) .

نـوْعَـا الشَّـوْقِ :

والشوْق نوعان :

الشوق إلى اللقاء (الشوق إلى الجنة) : فهذا يزول باللقاء .

وشوق في حال اللقاء : وهو تعلُّق الروح بالمحبوب تعلُّقًا لا ينقطع أبدًا ، فلا تزال الروح مشتاقةً إلى مزيد هذا التعلُّق ، ولذا يشتدُّ .

ما يرجِعُ الطرْف عنهُ عندَ رؤيتهِ　　حتى يعودَ إليهِ الطرْفُ مُشتاقَا

ويقول القائل :

وأعظمُ ما يكونُ الشوقُ شوْقًا　　إذا دنتِ الخيامُ مِنَ الخيامِ

ويقول الشاعر :

ومنْ عجَبٍ أني أحنُّ إليهمُ　　وأسأَلُ شوقًا عنهمُ وهُمُ معي

وتبكيهُمُ عيني وهمْ في سَوادِها　　ويشكو النَّوىٰ قلبي وهُمْ بينَ أضلعي

مـراتِـبُ الشَّـوْق :

وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : شوْق العابد إلى الجنة ، ليأمن الخائف ، ويفرح الحزين ، ويظفر الآمل .

الدرجة الثانية : شوْقٌ إلى الله – عز وجل – زرعه الحبُّ الذي يَنبُت على حافات المِنَنِ ، فعلِق قلبه بصفاته المقدَّسة ، فاشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات برِّه وأعلام فضله .

والشوق إلى الله لا ينافي الشوق إلى الجنة ، فإن أطيَبَ ما في الجنة : قرْبُه ورؤيته ، وسماع كلامه ورضاه . نعَمْ الشوْقُ إلى الأكل والشرب والحور العين في الجنة ناقص جدًّا ، بالنسبة إلى شوْق المحبين إلى رؤية الله تعالى ، بل لا نسبةَ له ألبتة .

وهذا الشوْقَ يَثبُتُ على حافَات المِنَنِ ومطالعةِ إحسان الله ونعمه ، فيعلَقُ

القلبُ بالصفاتِ المختصَّة بالمنن والإحسان ، كالبَرِّ والمنَّانِ والمحسن ، والجواد والمعطي والغفور . هذا الشوْق مشحون بالبِرِّ مغشيٌّ به ، وهو إما برُّ القلب وكَثْرة خيْره ، فهذا القلب أكثر القلوب خيرًا ، فيفعل البِرَّ تقرُّبًا إلى مَن هو مشتاقٌ إليه ، فهو يجيش بأنواع البرِّ ، وهذا من فوائد المحبَّة ؛ أنَّ قلبَ صاحبِها ينبع منه عيون الخير وتتفجَّر منه يَنابيع البرِّ .

الدرجة الثالثة : نار أضرَمها صفوُ المحبَّة ، فنغَّصتِ العيش ، وسكبت السلوة ، و لم يُنَهْنِهَا مَغزًى دون اللقاء .

قال يحيى بن معاذ : عَلَامة الشوق فطَام الجوارح عن الشهوات .

وقال أبو عثمان : علامته حبُّ الموت مع الراحة والعافية ، كحال يوسف لما أُلقي في الجُبِّ لم يقل : « توفَّني » . ولما أُدخل السجن لم يقلْ : « توفَّني » . ولمَّا تم له الأمر والأمْن والنعمة قال : ﴿ **توفَّني مسلمًا** ﴾ .

والشوق لا يزول بالمشاهدة ؛ فإنه لا مشاهدة أكمل من مشاهدة أهل الجنة ، وهم إلى يوم المزيد أشْوَق ، وكذلك هم أشْوَقُ شيءٍ إلى رؤية مولاهم وسَمَاع كلامه تعالى وهُمْ في الجنة .

كانت عجوز مُغيبة : فقدِم غائبها من السَّفر ، ففرِحَ بِهِ أهلُه وأقاربه ، وقعدَتْ هي تبكي ، فقيل لها : ما يُبكيكِ ؟ قالت : ذكَّرني قُدومُ هذا الفتىٰ يومَ القُدْوم على الله عزَّ وجلَّ .

يا من شكا شوْقَهُ مِنْ طُولِ فرْقَتِهِ   اصبرْ لعلَّك تلقىٰ مَن تحبُّ غدَا

وقال أحدُ الصالحين : « سبحانَ من أخرج قلوبَ المشتاقين في رياض الطاعة بين يديه ، سبحانَ مَن أوصل الفهْمَ إلى عُقُول ذوي البصائر ، فهي لا تعتمِد إلّا عليه ، سبحانَ من أوْردَ حياضَ المودَّة نفوسَ أهلِ المحبة ؛ فهي لا تحنُّ إلا إليه » .

وقال أحدهم : « إن لله – عز وجل – عبَّادًا قَدَحَ في قلوبِهِمْ زَنَدَي الشوْقِ والموْقِ[(١)]، فأرواحهم تسرح في الملكوت ، وتنظر ما ذُخِر لها في حُجُب الجبروت؛أولئك قوم آووا إلى كَنَفِ محبته ورحمته » .

إلٰهي ، عجبًا للخليقة كيف أنست بسواك .

لله ما أحلىٰ زمانًا تسعى فيه أقدامُ الطاعةِ علىٰ أرضِ الاشتياق .

بدمِ المُحبِّ يُباع حبُّهُمُ ... فمَنِ الذي يبتاعُ بالثَّمَنِ

يا أخي ، إمّا أن تحرق قلبك بنارِ النَّدم على التقصير والشوق إلى لقاء الحبيب ، وإلّا فسيُصَاح بك : ﴿ **كلَّا إنَّهم عنْ ربِّهم يومئذٍ لَمحجوبون** ﴾.

شجَاكَ الفراقُ فما تصنعُ ... أتصبرُ للبَيْنِ أم تجْزَعُ

إذا كنتَ تبكي وهمْ جيرةٌ ... فكيفَ تكونُ إذا ودَّعوا ؟!

أخي ، اعلمْ أن أرواح المحبِّين خرجتْ بالعبادة من أبدان العادات ، وهي في حواصل طيْر الشوْق ، ترفرف على أطلال الوجد ، وتسرح في رياض الألسن . هؤلاء عندهم شغل عن كل شيء سوى محبوبهم ، ما ترى عيونُهم إلا « فبي يسمعُ وبي يُبصر » .

وقال داود الطائي : « إلٰهي ، همُّك عطَّل عليَّ الهموم ، وشوقي إلى النظرِ إليك أَوْثَقَ مني اللَّذَّات ، فأنا في سجنك أيُّها الكريم مطلوب » .

قال ذو النون – رحمه الله –: « إن لله عبادًا ملأ قلوبَهم مِن صفاءِ محْضِ محبَّتِهِ ، وهيَّج أرواحهم بالشوْق إلى رؤيته ، فسبحان من شوَّق إليه أنفسهم ، وأدنى منه هِمَمَهم ، وصفَتْ له صدورهم ، سبحان مَوفِّقهم ومُؤْنس وحشَتِهِمْ وطبيبِ أسقامهم . إلٰهي ، لك تواضعتْ أبدانهم منك إلى الزيادة ، انبسطت أيديهم إلى ما طيَّبتَ به عيْشَهم وأدمْتَ به نعيمهم . بك أَنِسَتْ محبَّة المحبِّين ، وعليك معوَّل شوْق المشتاقين » .

---

(١) الحبُّ .

هم الذين خدموه خدمة الأبرار الذين تدفَّقت قلوبهم ببرِّه وعاملوه ببرِّه .

ذهبتِ الآلام عن أبدانهم لمَّا أذاقهم من حلاوة مناجاته ، ولمَّا أفادهم من ظرائف الفوائد من عنده .

ويقول - رحمه الله - عن المشتاقين : « هاموا بالشوْق فلا يحطُّون رحالَ الهَمِّ إلا بفِنَاءِ محبوبِهمْ ، فلو رأيتَهم لَرأيتَ أقوامًا أزعجهم الهَمُّ عن أوطانهم ، فهِمَمُهم إلى مولاهم سائرة ، وقلوبهم إليه من الشوْق طائرة .

فداخَل همومَ القومِ للخلْقِ وحْشةٌ ... فصاحَ بهم أُنْسُ الجليلِ إلىٰ الذِّكْرِ
فأجسادهُمْ في الأرض هوْنًا مقيمةٌ ... وأرواحهم تسري إلى مَعْدِن الفخرِ
فهذا نعيمُ القومِ إنْ كنتَ تبتغي ... وتعقِلُ عن موْلاك آدابَ ذوي القدْرِ

سيدي ومولاي :

إذا كانت تحنُّ لكَ المطايا ... فماذا يفعلُ القلبُ المشوقُ ؟

* * *

ما عنكَ يشغلني مالٌ ولا ولدٌ ... نسيتُ باسمِكَ ذكْر المالِ والولدِ
فلو سفكْتَ دمي في الترب لانكتَبَتْ ... بهِ حروفُكَ لم تنقُصْ ولم تَزِدِ

* * *

ارحمْ حَشاشةَ نفْسٍ فيكَ قدْ ذهبتْ ... قبلَ المماتِ فهٰذا آخرُ الرَّمَقِ
ولو مضىٰ الكلُّ مني لمْ يكنْ عجبًا ... وإنَّما عجبي للبعضِ كيفَ بقِي ؟!

* * *

اشتقْ إلى خيامِ اللؤلؤ في الجنةِ .. إلى غرفٍ يُرىٰ ظاهرُها مِن باطنها وباطنها مِن ظاهرها .

تحنُّ الكرامُ لأوطانِها ... حنينَ الطيورِ لأوكارِها

وتذكُر فيها عهودَ الصِّبا ... فتزدادُ شوْقًا بتَذْكارِها

اللهمَّ ارزقنا الشوْق إلى جنتك وإلى لقائك .

* * *

للهِ ما أشدَّ شوقَ المشتاقين إلى ديارهم التي طُرِد أبوهم منها :

محَتْ بعدَكُمْ تلكَ العيونَ دموعُها ... فهلْ مِنْ عيونٍ بعدَها نستعيرُها ؟
رحلْنا وفي سرِّ الفؤادِ ضمائرٌ ... إذا هبَّ نجديُّ الصَّبا يستثيرُها
أتنسىٰ رياضَ الغورِ بعدَ فراقها ... وقد أخذَ الميثاقَ منكَ غديرُها
يجعِّدُهُ مَرُّ الشمالِ وتارةً ... يغازِلُهُ كرُّ الصِّبَا ومرورُها
فيا مسرعينَ السيرَ باللهِ بلِّغوا ... رسالةَ مشتاقٍ حواهُ سطورُها
إذا كتبتْ أنفاسُه بعضَ وجْدِها ... علىٰ صفحةِ الذكرىٰ محاهُ زفيرُها
ترفَّقْ رفيقي هلْ بَدتْ نارُ أرضِهِمْ ... أمِ الوجدُ يُذْكي نارَهُ ويُثيرُها ؟
أعِدْ ذكْرَهُمْ فهو الشفاءُ وربَّما ... شفىٰ النفسَ أمرٌ ثم عاد يَضيرُها
سقىٰ اللهُ أيَّامًا مضَتْ ولياليًا ... تَضوّعَ رياها وفاحُ عبيرُها

ويقول آخر :

وما تلوَّم جسمي عنْ لقائكُمُ ... إلّا وقلبي إليكمْ شَيِّقٌ عَجِلُ
وكيفَ يقعُدُ مشتاقٌ يحرِّكُهُ ... إليكُمُ الحافزانِ : الشوْقُ والأملُ
فإن نهضْتُ فما لي غيركمْ وطرٌ ... وإنْ قعدتُ فما لي غيركمْ شُغلُ
وكمْ تعرَّضَ لي الأقوامُ بعدكُمُ ... يستأذنونَ علىٰ قلبي فما وصلوا

أبو الدرداء المشتاقُ إلى ربِّه :

« كان رضي الله عنه يقول : أحبُّ الموت اشتياقًا إلى ربي ، وأحبُّ الفقرَ تواضعًا لربي ، وأحبُّ المرض تكفيرًا لخطيئتي » .

وعبد الله بن زكريا[1]: يتمنَّى الموتَ شوْقًا إلى ربِّه :

قال رحمه الله : لو خُيِّرتُ بين أنْ أعيشَ مائةَ سنة في طاعة الله، أَوْ أُقبَضَ في يومي هذا أو في ساعتي هذه ؛ لَاخترتُ أن أُقْبضَ في يومي هذا أو في ساعتي هذه ؛ شوقًا إلى الله وإلى رسوله ﷺ ، وإلى الصالحين من عباده .

وقال محمد بن زياد : اجتمع رجالٌ من الأخيار - أو قال : من العلماء والعُبَّاد - وذكروا الموت ، فقال بعضهم : لو أتاني آتٍ ، أو ملكُ الموت ، فقال : أيُّكم سَبق إلى هذا العمودِ ، فوضَع يدَه عليه ؛ لَمَات - لرجوتُ ألَّا يسبقني إليه أحدٌ منكم؛شوْقًا إلى الله جلَّ وعلا .

وكان (**أبو عبد ربِّ الزاهد**) يقول : لو أنه قيل : مَن مسَّ هذا العمودَ لَمات ؛ لَسرَّني أنْ أقوم إليه ؛ شوقًا إلى لقاء الله ورسوله .

وقال أبو عتبة الخولاني : كان إخوانُكم لقاءُ الله ِأحبُّ إليهم من الشَّهْد .

قال سفيان : كان بالكوفة رجلٌ متعبِّد من همذان ، فذكروا عنه أنه كان يقول : إذا ذكرتُ القدومَ على الله كنتُ أشدَّ اشتياقًا إلى الموت من الظمآن الشديد ظمؤه ، في اليوم الحارِّ الشديدِ حرُّه ، إلى الشراب البارد الشديد بردُه .

وقال عبيد الله بن محمد التيمي : سمعتُ امرأةً من المتعبِّدات تقول : واللهِ ، لقد سئمتُ من الحياة ، حتى لو وجدتُ الموتَ يُباعُ لاشتريته ؛ شوْقًا إلى لقاء الله وحبًّا للقائه . قال : فقلت لها : أَفعَلَى ثقةٍ أنتِ من عملك ؟ قالت : لا ، ولكن لحبِّي إيَّاه ، وحُسْن ظني به ؛ أَفتَراهُ يعذِّبني وأنا أحبُّه ؟! .

وكان (**أبو عبد الله النباجي**) يقول في مناجاته : « إنك لَتعلم أنَّك

---

(١) عبد الله بن أبي زكريا ، وقيل : « ابن زكريا الخزاعي ؛ ثقة صاحبُ غزوٍ ، وكان من فقهاء دمشق ، روى عن أمِّ الدرداء وعبادةَ بن الصامت » .

لو خيَّرتني بين أن تكونَ لي الدنيا منذُ خُلقَتْ أتنعَّمُ فيها حلالًا ، ولا أُسال عنها يوم القيامة ، وبين أن تخرج نفسي الساعة - لَاخترتُ أن تخرج نفسي الساعة . ثم قال : إلا تحبّ أن تلقىٰ مَن تطيع ؟! » .

الفتح بن شخروف : طال شوْقي إليك فعجّلْ قدومي عليك :

صحِبَ رجلٌ الفتح بن شخروف بن داود ثلاثين سنة . قال : فلمْ أره رفع رأسه إلى السماء ، إلّا مرَّة واحدة ؛ رفع رأسه وفتح عينيه ونظر إلى السماء ، ثم قال : قد طال شوْقي إليك ، فعجِّلْ قدومي عليك .

فتح الموصِلي : المشتاقُ الصادِق :

وقال فتح الموصلي في يومِ عيد أضحىٰ: قد تقرَّب المتقرِّبون إليك بقربانهم، وأنا أتقرَّب إليك بطول حزْني . يا محبوب ، لِمَ تتركني في أزقَّة الدنيا محزونًا ؟ ثم غُشي عليه ، وحُمِل فدُفِن بعد ثلاثٍ ، رحمه الله تعالى .

وقال عبد الواحد بن زيد : يا إخوتاه،ألا تبكون شوْقًا إلى الله عز وجل ؟ ألا مَنْ بكىٰ شوْقًا إلى سيِّده ، لم يَحرمه النظر إليه .

وكان أبو عبيدةَ الخوَّاص يمشي في الأسواق ويقول : واشـوقاه إلى من يراني ولا أراه !!

للهِ ما أرفعها وأعلاها من درجة .. الشوق إلى الله !! وما أعلى همَّة صاحبها !!

قال حبيب بن عبيد[1]: «كان دليجة إذا مشىٰ طاشت قدَمَاه من العبادة، فقيل له: ما شأنك؟ قال: الشوْق. فقيل له: أَبْشِرْ؛ فإنَّ الأَمير قد بعث إلى شيوخ المسلمين ليأْذن لهم. فيقول: ليسَ شوقي إلى ذلك؛ إن شوقي إلى مَن يحثُّها».

(١) انظر ترجمته في الحلية ٦/١٠٢ .

وقال (**عثمان بن صخر العتكي**): طوبى لمحبي الربِّ الذين عبدوه بالفرح والسرور ، والأنس والطمأنينة ، فصاروا الصفوة من الخلْق ، والخاصَّة من البريّة ، يحنُّون إليه حنين الولْهان ، ويشتاقون إليه شوْقَ مَن لا صبرَ لهم عنه ، قد كُسروا بالخوف ، وروَّحوا بالظفر .

وكانت امرأة من العابداتِ بمكّة تقول : أو ليس عجبًا أن أكون حيَّة بين أظهُرِكُمْ ، وفي قلبي مِن الاشتياق إلى ربي مثل شُعَل النارِ التي لا تُطفأ ، حتى أصيرَ إلى الطبيب الذي عنده بُرءُ دائي وشفائي ؟!

ورأى أحدهم داودَ الطائي منامًا ، فسمعه يقول :

ما نالَ عبدٌ مِنَ الرحمٰن منزلةً أعلىٰ مِنَ الشوقِ إنَّ الشوْق محمودُ

وقال ذو النون : إذا استحكَمتْ معاني المحبَّة في قلب المؤمن ، سكن بعدها الشوق ، فإذا اشتاقَ أدَّاه الشوْقُ إلى الأُنس بالله ، فإذا أنس بالله اطمأنَّ إلى الله ، فإذا اطمأنَّ كان ليلَه في نعيم ، ونهارَه في نعيم ، وسرّه في نعيم ، وعلانيته في نعيم .

إبراهيم بن أدهم يرى ربّه منامًا :

« قال إبراهيم بن أدهم : قلتُ يومًا : اللهمَّ إن كنتَ أَعطيتَ أحدًا من المحبِّين لكَ ما أسكنتَ به قلوبهم قبل لقائك ؛ فأعطني ذلك ، فلقد أضرَّ بي القلق . قال : فرأيتُه تبارك وتعالى في النوم ، فوقَفني بين يديه ، وقال لي : يا إبراهيم ، أمَا استحييتَ مني ؟ تسألني أن أُعطيك ما يَسكُنُ به قلبُك قبل لقائي ، وهل يسكُن قلبُ المشتاق إلى غير حبيبه ؟! أم هل يستريح المحبُّ إلى غير من اشتاق إليه ؟! قال : فقلتُ : يا ربِّ ، تهتُ في حبِّك فلمْ أدرِ ما أقول »[١].

(١) استنشاق نسيم الأنس ص١٠٣ .

يا مَنْ شكا شوقه من طُول فُرقتِهِ اصبرْ لعلَّكَ تلقى مَنْ تُحِبُّ غدَا
وسِرْ إليه بنارِ الشوْقِ مجتهـدًا عسَاك تلقى على نارِ الغرام ِ هدىٰ

« قال الجنيد سمعتُ السري يقول : الشوقُ أجلُّ مقام ِ العارف ، إذا تحقَّق فيه . وإذا تحقَّق بالشـوقِ ؛ لها عن كلِّ ما يشغله عمَّن يشـتاق إليه »[١] .

قال ابن القيم : الشوقُ إلى لقاءِ الله : رأس مال العبد ، وملاك أمْره ، وقوام حياته الطيبة ، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه ، وقرَّة عينه .

والراغبون ثلاثة أقسام : راغبٌ في الله ، وراغبٌ فيما عند الله ، وراغبٌ عن الله ؛ فالمحبُّ راغب فيه ، والعامل راغبٌ فيما عنده ، والراضي بالدنيا من الآخرة راغب عنه ، ومَن آثر الله على غيره آثره الله على غيره . ﴿ **فإذا فرغتَ فانصبْ وإلى ربِّك فارغبْ** ﴾ [الشرح : ٧ ، ٨]، وقال تعالى : ﴿ **ولو أنهم رضُوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون** ﴾ [التوبة : ٥٩].

قال يحيىٰ بن معـاذ : « يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطَرَه من شيْئيْن : بكاؤه على نفسه ، وشوقه إلى ربِّه » .

عليُّ بن سهل المدائني : أنتَ العليمُ أنَّ الشوْق قد برَّح بِي :

« كان علي بن سهل المدائني – رحمه الله – يقوم إذا هدأتِ العيون،فينادي بصوت له محزون : يا من اشتغلتْ قلوب خلقِه عنه ، بما يُعقبهم عند لقائه ندمًا . ويا من سهت قلوب عباده عن الاشتياق إليه ، إذ كانت أياديه إليهم قبل معرفتهم به . ثم يبكي حتى تبكي لبكائه جيرانه ، ثم يُنادي : ليتَ شعري !! سيدي ،

(١) روضة المحبِّين لابن القيم ص٤٣٧ .

إلى متى تحبسني ؟! ابعثني سيِّدي إلى حُسْن وعدك ، وأنت العليم أنَّ الشوق قد برَّح بي ، وطال عليّ الانتظار . ثم يخرُّ مغشيًّا عليه ، فلا يزال كذلك حتى يُحرِّك لصلاة الصبح »[١] .

والحارِثُ بنُ عُمَير مشتاقٌ إلى لقاءِ سيِّده :

« وكان الحارث بن عمير - رحمه الله - يقول إذا أصبح : « أصبحتُ ونفْسي وقلبي مُصِرٌّ على حبِّك سيِّدي ، ومشتاق إلى لقائك ، فعجِّل بذلك قبل أن يأتيني سواد الليل » . فإذا أمسىٰ قال مثل ذلك ، فلم يزل على مثل هذا الحال ستين سنة »[٢].

قلوبُ العارفينَ لها عُيونُ ... ترىٰ ما لا يراهُ الناظرونا
وأجنحة تطيرُ بكلِّ شوْقٍ ... فتأوي عند ربِّ العالمينا

« فبؤْسًا وتعْسًا للنفوس الوضيعة الدنيئة ، التي لا يهزُّها الشوق طرَبًا ، ولا تتَّقد نارُ إرادتها لذلك رغَبًا ، ولا تبعد عمَّا يصدُّ عن ذلك رهَبًا . تجول حول الحُشِّ ، إذا جالت النفوسُ العُلويَّة حول العرش ، وتندسُّ في الأحجار إذا طارت النفوس الزكيَّة إلى أعلى الأوكار .

فلمْ ترَ أمثالَ الرجالِ تفاوتوا ... إلى الفضلِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحِدِ »

أخي ، أبدان المحبِّين عند أهل الدنيا وقلوبهم عند الحبيب .

وترحل وتحدث عجبًا ... أن قلبًا سار عن جسمٍ أقامَا

وللهِ درُّ ذي النون وهو يقول :

أموتُ وما ماتتْ إليكَ صبابتي ... ولا رَوِيتُ مِن صدقِ حُبِّك أوطاري

(١) ، (٢) الطريق إلى الله . أو كتاب الصدق لأبي سعيد الخرّاز ص١١٨، ١١٩ تحقيق : د . عبد الحليم محمود - الناشر : دار الإنسان .

مناي المنىٰ كـلُّ المنـىٰ أنت لي مُنىٰ ... وأنت الغِنىٰ كلُّ الغنىٰ عند إقتاري
وأنـتَ مـدىٰ سُـؤلي وغـايـة رغـبتي ... وموضع شـكواي ومكنونُ إضماري

فارزقنا اللهمَّ صِدْقَ محبَّتك والشوق إليك .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

فِقْهُ مَراتِب الأعمال وبدعةُ القشْرِ واللُّباب

« إن في الأعمال والأقوال سيِّدًا ومسودًا ، ورئيسًا ومرءوسًا ، وذروة وما دونها »

[ابن قيِّم الجوزية]

« إن الفقه – كلَّ الفقه – أن تُبصر أهمَّ الواجباتِ فتقدِّمه ، وتعرف خيْر الخيْرَيْن فتتَّبعه ، وشرَّ الشَّرَّيْن فتدْفعه »

[محمد إسماعيل المقدِّم]

□ فقهُ مراتبِ الأعمالِ وبدعةُ القشْرِ واللُّباب □

« مما ينبغي للحاذق الفَطِن مراعاته : التوسُّط بين الحقوق والواجبات ، بإعطاء كلِّ ذي حق حقَّهُ ، وتقديم فرائض الأعمال على مستحبَّاتها لينجو من الوزْرِ ، وفاضِلِها على مفضولها لِيسلم من الغبْن ؛ فإنَّ الفقه - كلَّ الفقه - أن تبْصر أهمَّ الواجبات فتقدِّمه ، وتعرِف خيْر الخيْرَيْن فتتَّبعه ، وشرَّ الشَّرَّيْن فتدفعه »[1] .

فقهُ مراتب الأعمال : فقه عُلاةِ الهمم وخاصَّةِ العلماء :

وفقه مراتب الأعمال هو من أنواع الفقه التي يجب أن يتعلَّمها المسلم ويهتمَّ بها .

وهو يعني : العلم بفاضل الأعمال ومفضولها ، وأرجحها ومرجوحها ؛ فإن كانت الأعمال طاعةً ، عَلِمَ أيُّها أحبُّ إلى الله وأكثرها أجرًا وثوابًا . وإن كانت معصية ، عَلِم أيها أبْغَضُ إلى الله وأكثرها وزرًا وعقوبةً . وإن كانت الأعمال وسيلة إلى أهداف معيَّنة - المقاصد الشرعية مثلًا - عَلِم أيُّها أقدرُ على تحقيق هذه الأهداف ، وأيُّها أولى بذلك . وإن كان الإنسانُ أمَّ بدائلَ متعددةً من خير أو شرٍّ ، علم خير الخيْريْن وشرَّ الشَّرَّيْن . وإذا جهل المسلم أيّ الأعمال أفضل وأولى ؛ لا شكَّ يُنفق وقته وجُهْده وماله في أجرٍ أقلَّ ، ويفوّت ما هو أجلُّ وأعظم ، وأنه إنِ اختلطتْ لديه مراتبُ الأعمال ، واختلَّ لديه توازنها ؛ قد يصل إلى عكس مقصود الشَّرْع ، فيأثم من حيث يريد أن يغنم ، أو إلى عكس مقصوده في الواقع ؛ فيُفسِد من حيث يريد أن يُصلح .

---

(١) من كلام الشيخ محمد إسماعيل - حفظه الله - في مقدمة كتابي : رهبان الليل ص٨ .

القرآنُ الكريمُ ومراتبُ الأعمال :

وقد وردت آيات عديدة في كتاب الله عز وجل ، تُبيِّن أنَّ الأعمال ليستْ كلّها في درجة واحدة ، بل تختلف درجاتها في الخير ، كما تختلف دركاتها في الشرِّ .

ومن ذلك : قوله تعالى : ﴿ **إنْ تبدوا الصَّدَقات فنِعِمَّا هي وإنْ تُخفوها وتُؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفِّر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير** ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

قال ابن كثير : « فيه دلالة على أن إسرار الصَّدقة أفضل من إظهارها »[١].

ومن ذلك أيضًا : قوله تعالى : ﴿ **أجعلتم سِقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام كَمَن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ [التوبة : ١٩] . ففاضلت الآية بين أمرَيْن كلاهما طاعة وقربة ، وبيّنت أنهما لا يستويان عند الله تعالى .

وفي قوله تعالى : ﴿ **ليلةُ القدْر خيرٌ من ألْفِ شهر** ﴾ [القدر : ٣] : دليلٌ على أن عبادة وقيام ليلةِ القدْر خير من عبادة ألفِ شهر .

كما بيَّن القرآن الكريم في آيات أخرى : أن المحرَّمات منها الكبائر والصغائر ؛ فقال تعالى : ﴿ **إنْ تجتنبُوا كبائر ما تُنهون عنه نكفِّر عنكم سَيِّئَاتِكم ونُدخلْكم مدخلًا كريمًا** ﴾ [النساء : ٣١] .

وقال سبحانه مادحًا عباده المحسنين : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلَّا اللَّمم** .. ﴾ الآية [النجم : ٣٢] ، فدلتِ الآيتان على أن المنهيَّات

---

(١) قال ابن كثير بعدها : « لأنه أبعد عن الرياء إلا أنْ يترتَّب على الإظهار مصلحة راجحة ؛ من اقتداء الناس به ، فيكون أفضل من هذه الحيثية » .

قسمان : كبائر ، وأخرى دونها ؛ سُمِّيت في الآية الأولى : سيِّئات ، وفي الثانية : لَمَمًا . قال ابن كثير : « لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقَّرات الأعمال » .

السُّنَّة النبوية ومراتبُ الأعمال :

والسنة النبوية زاخرة بالنماذج والأمثلة لتفاضل الأعمال والتكاليف الشرعية ، التي يجب على المسلم مراعاتها في عبادته وحركته في الحياة ، وربّما يكون أجْمَعَ حديثٍ في ذلك حديثُ أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « الإيمان بِضْعٌ وسبعون - أو بضع وستُّون - شعبة ؛ فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[(١)] .

وقد سُئِل الرسول ﷺ مِرارًا : أي الإسلام أفضل ؟ أو : أيُّه خير ؟ فأجاب ، وإنما المقصود : أي أعمال المسلم أفضل أو أخْير ؟ ولذلك بوّب الإمام النووي لأحاديثَ رواها مسلم في « صحيحه » من ذلك النوع ، فقال : « باب بيان تفاضل الإسلام ، أو أي أموره أفضل » .

عن عبد الله بن عمرو أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ : أي الإسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على مَن تعرف ومَنْ لم تعرف »[(٢)] .

وعن يزيد بن أبي حبيب ، عن أبي الخير أنه سمِع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : إن رجلًا سأل رسول الله ﷺ : أيّ المسلمين خير ؟ قال : « من سَلِم المسلمون من لسانه ويده »[(٣)] .

وعن أبي الزبير قال : سمعتُ جابرًا يقول : سمعتُ النبي ﷺ يقول :

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

« المسلم مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده »[١] .

قال النووي : « قال العلماء رحمهم الله : قوله : (أيُّ الإسلام خير ؟) : معناه : أيُّ خصالِه وأموره وأحواله ؟ قالوا : وإنما وقع اختلاف الجواب في خير المسلمين ؛ لاختلاف حال السائل والحاضرين ، فكان في أحد الموضعَيْن الحاجة إلى إفشاء السلام وإطعام الطعام أكثر وأهمّ ؛ لِمَا حصل من إهمالهما والتساهُل في أمورهما ونحو ذلك ، وفي الموضع الآخر إلى الكفّ عن إيذاء المسلمين .

وقوله ﷺ : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » : معناه : من لم يُؤْذِ مسلِمًا بقوْلٍ ولا فعل ، وخصَّ اليدَ بالذِّكْر لأن معظم الأفعال بها .

وقوله ﷺ: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»: قالوا: معناه المسلم الكامل ، وليس المراد نفي أصل الإسلام عن من لم يكن بهذه الصفة . ثم إنَّ كمال الإسلام والمسلم متعلِّق بخصال أُخَرَ كثيرة ، وإنما خصَّ ما ذكر لِمَا ذكرناه من الحاجة الخاصَّة . والله أعلم »[٢] .

وفي المقابل بيَّنَتْ أحاديثُ عديدة كوْنَ الذنوب أنواعًا ومراتب ؛ فعن أبي بكْرَةَ ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبِّئكم بأكْبر الكبائر ؟ » . قلنا: بلى يا رسول الله. قال- ثلاثًا-: «الإشراك بالله، وعقوقُ الوالدين» . وكان متَّكئًا فجلس فقال : « ألا وقوْل الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور »[٣] .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قلتُ : يا رسول الله ، أيُّ الذنوب أعظم ؟

---

(١) رواه مسلم .
(٢) شرح النووي لمسلم - باب : بيان تفاضل الإسلام ١/٢١٤ .
(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي .

قال : « أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك » . قلتُ : ثم أيّ ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك »[١] .

علم « أصول الفقه » يضعُ القواعد :

وانطلاقًا ممَّا مرَّ ، فقد اتفقتِ الأمة على أن الأحكام الشرعية التي كُلِّف بها المسلم : أنواعٌ ومراتب ، وليست على ميزان واحد ، كما اتفق جمهور العلماء على انقسام مأمورات الشرع إلى واجبات ومستحبَّات ، وانقسام منهيَّاته إلى مكروهات ومحرمات . يقول مجد الدين ابن تيمية في « المسودّة » : « اتفق الفقهاء والمتكلِّمون على أنَّ أحكام الشرع تنقسم إلى : واجب ومندوب ومحرَّم ومكروه ومباح » .

ولأن الواجب على المسلم أن يضع كلَّ أمرٍ شرْعي موْضِعَه ، ولا يخلط بين أنواع الأحكام أو يتعامل معها كيفما اتفق ؛ فقد قرَّر العلماء - والأصوليون منهم بالخصوص - أنه لا يجوز أن يُسوِّي بين الواجب والمندوب ، « لا في القول ، ولا في الفعل ، ولا في الاعتقاد »[٢]، ولا يسوِّي بين الحرام والمكروه ، ولا بين المباح وبين المندوب والمكروه . يقول الشاطبي : « الواجبات لا تستقرُّ واجباتٍ إلّا إذا لم يسوَّ بينها وبين غيرها من الأحكام ، فلا تُترك ولا يُسامَح في ترْكها ألبتة ، كما أن المحرَّمات لا تستقرُّ كذلك ، إلّا إذا لم يسوّ بينها وبين غيرها من الأحكام فلا تُفعل ، ولا يُسامح في فعلها » .

والمصالح الشرعية مقسَّمة إلى ضروريَّات ، وحاجيَّات ، وتحسينيَّات ؛ وهي مرتَّبة هذا الترتيب ؛ فإن الأوامر المتعلِّقة بالأمور الضرورية - كما يقول الشاطبي -: « ليست كالأوامر الشرعيَّة المتعلِّقة بالأمور الحاجيَّة ولا التحسينية ،

(١) رواه البخاري .
(٢) الموافقات للشاطبي ٣/٣٣١ .

ولا الأمور المكمِّلة للضروريات كالضروريات أنفسها ، بل بينهما تفاوت معلوم . بل الضروريات ليست في الطلب على وزان واحد ؛ كالطلب المتعلِّق بأصل الدين ، ليس في التأكيد كالنفْس ، ولا النفْسُ كالعقل ... إلى سائر أصناف الضروريات . والحاجيات كذلك ... »[(١)] .

إذن لا يكفي المسلم أن يعلمَ ما أمَر به الشرع أو ما نهىٰ عنه ، بل عليه أن يعلم أيضًا درجة الأمر أو النهي ، وأن يُنزِل كلَّ ذلك مرتبته دون إفراط ولا تفريط .

فقْهُ مراتب الأعمال : خاصَّةُ العلماءِ بهذا الدين :

وقد وصف الإمام ابن تيمية فقه مراتب الأعمال بأنه حقيقة الدين ، وحقيقةُ العمل بما جاءت به الرسل ، وبأنه خاصَّةُ العلماء بهذا الدين ؛ يقول : « فتَفَطَّنْ لحقيقة الدين ، وانظرْ ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد ، بحيث تعرِف ما ينبغي من مراتب المعروف ومراتب المنكر ، حتى تقدِّم أهمَّها عند المزاحمة ؛ فإن هذا حقيقة العمل بما جاءت به الرسل ، فإنَّ التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر ، وجنس الدليل وغير الدليل : يتيسَّر كثيرًا . فأمَّا مراتب المنكر ، ومراتب الدليل ، بحيث تقدّم عند التزاحم أعْرَفَ المعروفَيْن فتدعو إليه ، وتُنكر أنْكَرَ المُنْكَرَيْن ، وترجّح أقوى الدليلَيْن ؛ فإنه هو خاصَّة العلماء بهذا الدين »[(٢)] .

أما تلميذه ابن القيِّم : فقدِ اعتبر انشغال الإنسان بالأعمال المفضولة عن الفاضلة من عقبات الشيطان ، التي لا يتجاوزها المسلم إلّا بفقهٍ في الأعمال

---

(١) الموافقات ٣ / ٢٠٦ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٨ .

ومراتبها . إن الشيطان في هذه العقبة يأمر الإنسان ويُحَسِّن له الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات ، ويُريه ما فيها من الفضل والرِّبح ، ليشغله بها عمَّا هو أفضل وأعظم كسْبًا وربحًا ؛ « لأنه لمَّا عجَز عن تخسيره أصْلَ الثواب ، طمع في تخسيره كماله وفضْلَه ، ودرجاته العالية ، فشغله بالمفضول عن الفاضل ، وبالمرجوح عن الراجح ، وبالمحبوب لله عن الأحبِّ إليه ، وبالمرضي عن الأرضى له » .

ثم قال ابن القيم : « فإنْ نجا منها بفقهٍ في الأعمال ، ومراتبها عند الله ، ومنازلها في الفضل ، ومعرفة مقاديرها ، والتمييز بين عاليها وسافلها ، ومفضولها وفاضلها ، ورئيسها ومرءوسها ، وسيدها ومسودها ؛ فإنَّ في الأعمال والأقوال سيِّدًا ومسودًا ، ورئيسًا ومرءوسًا ، وذروة وما دونها ... ولا يقطعُ هذه العقبة إلَّا أهلُ البصائر والصدق من أولي العلم ، السائرين على جادَّة التوفيق ، قد أنزلوا الأعمال منازلها ، وأعطوا كلَّ ذي حقّ حقَّه ، فإذا نجا منها لم يبقَ هناك عقبةٌ يطلبه العدوُّ عليها سوى واحدةٍ لا بدَّ منها »[(١)] .

غيابُ حِسِّ الأوْلويَّات :

[لقد كان لعدم الاهتمام بتعليم المسلم هذا الفقه الجليل آثارٌ، قد تكون بعيدة المدى وشديدة الضَّررِ دنيا وآخرة . ومن تلك النتائج :

١ - ضياعُ الأجْر :

فالجاهل بمراتب الأعمال يهتمُّ بالعمل قليلَ الأجر على حساب كثير الأجر ، ويضيِّع الجهد الكبير للحصول على حسناتٍ قليلة ؛ وتروي لنا السُّنَّة من ذلك أمثلة كثيرة :

فعن أنسٍ قال : كنا مع النبي ﷺ ؛ فمنا الصائم ومنَّا المفطر . قال : فنزلنا منزلًا في يوم حارٍّ ، أكثرُنا ظِلًّا صاحبُ الكساء ، ومنا من يتقي الشمسَ

(١) مدارج السالكين ١/٢٢١ .

بيده . قال : فسقط الصُّوَّام ، وقام المفطرون ، فضربوا الأبنية ، وسقَوا الرِّكَاب ، فقال رسول الله ﷺ : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر »[1] .

وقد يصل الأمر إلى حدِّ تضييع أصل الأجْرِ نفسِه ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ؛ إن فلانة يُذكَر مِن كثرة صلاتها وصيامها ، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها . قال : « هي في النار » . قال : يا رسول الله ، فإن فلانة ... يُذكر من قلَّة صيامها ، وصدقتها وصلاتها ، وأنها تصدَّق بالأثوار من الأقط[2]، ولا تُؤذي جيرانها . قال : « هي في الجنة »[3] .

كما أن ابن الجوزي قد ذكَر أمثلةً متعدِّدة لدى العُبَّاد بالخصوص ، كلها ناتج عن قلّة الفقه بمراتب الأعمال ؛ قال مثلًا : « وقد لبَّس إبليس على جماعة من المتعبِّدين ، فأكثروا من صلاة الليل ، وفيهم مَن يسهره كلَّه ، ويفرح بقيام الليل وصلاة الضحىٰ أكثر ممّا يفرح بأداء الفرائض ، ثم يقع قُبيل الفجر فتفوته الفريضة ، أو يقوم فيتهيَّأ لها فتفوته الجماعة ، أو يُصبح كسلانَ فلا يقدر على الكسْب لعائلته »[4] .

٢ - سُوءُ فهْمِ الشريعة :

إن الجهل بمراتب الأعمال عندما يكون عامًّا ، يؤدِّي إلى فوضىٰ فكرية عارمة ، تشوِّه الشريعة وتُخِلُّ بتوازنها . لقد أرسىٰ الشرع بين المأمورات والمنهيات توازنًا لا يجوز الإخلال به ، تمامًا كَنِسَبِ الدواء الواحد ، قد يؤدِّي تغييرُها إلى إفساده وإلغاء خصائصه ، إن لم ينقلب إلى سُمٍّ قاتِل ، ومن ذلك

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم واللَّفظُ له ، والنسائي .
(٢) أي : بالقِطَع من اللَّبَن المجفَّف .
(٣) صحيح الإسناد : أخرجه أحمد والبزار ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .
(٤) تلبيس إبليس ص١٤١ .

أنَّ المسلم اليوم مثلًا قد أضحىٰ عنده ترتيب جديد لأوامر الشرع ، يجعل الشعائر التعبُّدية « فرائضَ ومستحبَّاتٍ » أعلى مرتبة من سائر الواجبات والفرائض الأخرى ، وأوكد من تَرْك منهيَّات الشرع « محرَّماتٍ ومكروهاتٍ » .

٣ - غِيابُ حِسِّ الأَوْلويَّات في الدعوة :

فسُوءُ فهْمِ الشريعة يؤدِّي إلى عجْز الدُّعاة عن البَدْءِ بما يجب البدءُ به ؛ فإذا كان في أحكام الدين واجب ومستحبٌّ ، وفاضل ومفضول ؛ فإن الدعوة إلى الواجب والفاضل مقدَّم على الدعوة إلى ما دونها ، لكننا نرىٰ من بين شباب الصحوة الإسلامية ودُعاتها مَن ينشغل بالمسائل المرجوحة والأحكام الخلافية ، وتُبدَّد الجهود والطاقات فيها ، والأوْلى البدءُ بالدعوة إلى أصول العقيدة والشريعة ، وبذْل الجهد في معالجة القضايا المصيرية الكبرىٰ للأمة . وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بدَّ من اعتبار درجة المعروف ودرجة المنكر ، حتى لا يُفسد الإنسان بدَلَ أن يُصلح ، وحتى لا ينفِّر بدَل أن يُبشِّر . ولذلك اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه « إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر ، بحيث لا يفرِّقون بينهما ، بل إمَّا أن يفعلوهما جميعًا أو يتركوهما جميعًا ؛ لم يَجُزْ أن يُؤمروا بمعروف ولا أن يُنهوا عن منكر ، بل يُنظر ؛ فإن كان المعروف أكثر : أُمر به وإن استلزم ما هو دونه من المنكر ، ولم يُنه عن منكر يَستلزم تفويت معروفٍ أعظم منه ، بل يكون النهيُ حينئذٍ من باب : الصد عن سبيل الله ، والسعْي في زوال طاعته وطاعة رسوله وزوال فعْل الحسنات . وإن كان المنكر أغلب : نُهي عنه وإن استلزم ما هو دونه من المعروف ، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه ، أمرًا بمنكَر وسعيًا في معصية الله ورسوله »[١] .

---

(١) الحِسْبة لابن تيمية ص٣٨ - ٣٩ .

إن هذا النصّ تطبيقٌ رائع لفقْه مراتب الأعمال وتقديم الراجح منها . وقد صاغ الأُصوليُّون ذلك في قواعد تشريعيَّة هادية مثل : دفْعُ أشدِّ المفسدتيْن بأخفِّهما . والإتيان بأعظم المصلحتيْن وتفويت أدناهما . وتقديم المصلحة الراجحة على المفسدة الخفيفة . وعدمُ ترْك المصلحة الغالبة ، خشيةَ المفسدة النادرة .

ولا يستقيم عمل دَعَويٍّ إلّا بفقه هذه الأصول والقواعد ، والالتزام بها ، فعسىٰ أن يُوفَّق أبناءُ الصحوة الإسلامية وشبابُها إلى ذلك . والحمد لله ربِّ العالمين][(١)] .

بِدْعَةُ تقسيمِ الدِّين إلى قِشْرٍ ولُباب :

فقه مراتب الأعمال شيءٌ ، وتقسيم الدين إلى قشرٍ ولباب شيء آخر ؛ فمصطلح (القشْر واللُّب) : « قناع نفاقيٌّ قبيح ، وإنه مِن لحن قول العالمانيِّين الذين يتخذونه قنطرةً يهربون عليها من الالتزام بشرائع الإسلام ، دون أن يُخدَشَ انتماؤهم إليه ، فهو عند المنافقين الحريصين على اقتلاع شجرة الإسلام من جذورها ، مجرَّد مدخل إلى نبْذِ اللُّب والقشْر معًا »[(٢)] .

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

قال ابن كثير : « يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين به المصدِّقين برسوله ، أن يأخذوا بجميع عُرىٰ الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترْك جميع

---

(١) فقه مراتب الأعمال . مقالة للدكتور سعد الدين العثماني بمجلة « البيان » العدد ٩٧ ، ص٩٤ - ٩٧ بتصرُّف يسير .

(٢) انظر كتاب : تبصير أولي الألباب ببدعة تقسيم الدين إلى قشْرٍ ولباب للشيخ محمد أحمد إسماعيل ص٦ - طبع . دار طيبة . بمكة .

زواجره ما استطاعوا من ذلك »[1]. اهـ .

قال ابن عباس : ﴿ **ادخلوا في السلم** ﴾ يعني الإسلام ، ﴿ **كافة** ﴾ ؛ يعني : جميعًا .

وقال مجاهد : « أي اعملوا بجميع الأعمال ووُجوه البِرِّ » .

قال الألوسي : « والمعنى : ادخلوا في الإسلام بكلِّيَّتكم ، ولا تدَعُوا شيئًا مِن ظاهركم وباطنكم إلّا والإسلامُ يستوعبُه ؛ بحيث لا يبقى مكان لغيره »[2] .

وقال أيضًا : « وقيل : الخطاب للمسلمين الخُلّص . والمراد من « السِّلْم » ، شُعَب الإسلام .

والمعنى : ادخلوا أيُّها المسلمون المؤمنون بمحمد ﷺ في شعب الإيمان كلها ، ولا تُخِلُّوا بشيء من أحكامه » .

ويقول الشيخ محمد إبراهيم شقرة - حفظه الله - في ردِّه على الذين لا يهتمون ببعض الشرائع الظاهرة ، ويسمُّونها «شكليات» أو «قشورًا» ويُدندنون فقط حولَ التمسُّك باللباب : [لقد صارت هذه المقولة المُغْرِضة شعارًا ، له أنصار ودُعاة ، وأقلام وصحف ، ومناهج وعقول . وبالرغم من هذا الحشْد الذي الْتفَّ حول هذا الشعار ؛ فإننا لم نجد حتى الآن ترجمة واضحة له ، أو تحديدًا دقيقًا لمعناه ؛ فإن القائلين بهذه المقولة الحادثة ، رغم تأكيدهم عليها ، والإكثار من الحديث عنها ؛ فإنهم لم يضعوا تعريفًا أو حدًّا لِمَا سَمَّوه : قِشْرًا ، أو لِمَا يُسمَّى : لُبَابًا ، ينتهي إليه الراغب في العمل باللباب وحدَه دون القِشْر .

وما ذاك إلا لأنها مقولة حادثة مبتدَعَة ، لم يعرفها سلَفُ الأمة ومَن تبعهم بإحسان ، وإنما هي من نتاج أفكار المنهزمين المستعبَدين للشرق أو للغرب .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٦١ .

(٢) رُوح المعاني للألوسي ٢/٩٧ .

وإذا حاولنا أن نضع حـدًّا تقريبيًّا ، فلنقل : « اللبابُ في المأمورات الشرعية : هو ما يدخل تحت الحكم الواجب ، والقشر : هو ما جاوز دائرة الحكم الواجب . واللباب في النواهي : هو ما يدخل تحت الحكم الحرام ، والقشر : هو ما لم يتناوله الحرام الصريح في النواهي » .

وعلى ذلك : فالقشور في المأمورات : كلُّ مندوب أو مباح . وفي النواهي : المكروهات ، وبناءً عليه يجتمع لدينا من القشور ما يزيد على نصف الدين ، ويبقى من لُبابه أقلّ من النصف ، فهل يُعقل أن ندعَ أكثر من نصف الدين قشورًا لنأخذ أقلَّ من نصفه لبابًا ؟! وأين سيضعون المسائل المختلَف عليها بين الواجب والمندوب كصلاة الوتر مثلًا ؟! أضِفْ إلى ذلك أنه ليس شيء من القشور أو اللباب - على حدِّ تعبيرهم - إلّا ويدخل تحتَ حُكْم الله وخطابه المتعلق بأفعال المكلَّفين ، على سبيل التخيير أو الطلب تركًا أو فعلًا ، وبالتالي لا يصحُّ تسميته : قشرًا على سبيل الاصطلاح الذي افترضناه ، ولا على سبيل التهوين والغضِّ من شأنه .

وجميع الأحكام من المندوبات أو المباحات أو الواجبات ، وسواءً كانت من المكروهات أو من المحرَّمات ؛ هي شعب الإيمان التي قال فيها عليه الصلاة والسلام : « الإيمان بِضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطةُ الأذى عنِ الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[١]. فأيّما شعبة نقصَت منها كانت نقصًا من الإيمان ، وأيّما شعبة التزمها المسلم كانت زيادة في إيمانه ؛ لأن الإيمان يزيد وينقص بالقول والعمل ، وهذا من شعائر أهل السنة ، وهو مذهب السواد الأعظم من الأمة ، قال رسول الله ﷺ :

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه . رواه البخاري بلفظ : « الإيمان بضع وستون شعبة » . وعند ابن ماجه في المقدمة : « الإيمان بضع وستون - أو سبعون - بابًا » .

« لَتُنْقَضَنّ عرى الإسلام عُروةً عروة ، فكلَّما انتقضت عروة تشبثَّ الناس بالتي تليها ، فأولهنَّ نقْضًا الحكم ، وآخرهن الصلاة »[١]][٢] .

قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتُكم بأمْرٍ فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتُكم عنه فاجتنبوه »[٣] .

فزجر ﷺ عن النواهي مطلقًا ، ولم يفرِّق بين قِشْر ولُبٍّ ، وعلّق امتثال الأوامر على الاستطاعة ، ولم يعلِّقه بكوْنها قشرًا أو لبًّا على زعمهم .

ونقل ابن الحاجِّ عن الغزالي رحمه الله قوله في « كتاب الأربعين » : « اعلمْ أن مفتاح السعادة : في اتباع السُّنَّة ، والاقتداء برسول الله ﷺ في جميع مصادره وموارده ، وحرَكَاته وسَكَنَاته ، حتى في هيئة أَكْلِه وقيامه ، ونومه وكلامه ، لستُ أقول ذلك في آدابه فقط ؛ لأنه لا وجه لإهمال السنة الواردة فيها ، بل ذلك في جميع أمور العادات ، فبه يحصل الاتباع المطلق ، كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ إنْ كنتم تُحبُّون الله فاتبعوني يحببْكم الله** ﴾ [آل عمران : ٣١] . وقال تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ [الحشر : ٧] . فلا ينبغي التساهلُ في امتثال ذلك ، فتقول : « هذا مما يتعلّق بالعادات ، فلا معنى للاتباع فيه » ؛ فإن ذلك يغلق عنك بابًا عظيمًا من أبواب السعادات »[٤] .

« وقسمةُ الدين إلى قشْرٍ ولُبٍّ تُؤثِّر في قلوب العوامِّ أسوأ تأثير ، وتورثهم الاستخفاف بالأحكام الظاهرة ، وينتج عنها الإخلال بهذه الأمور التي سُمِّيت

---

(١) صحيح : رواه من حديث أبي أمامة الإمام أحمد ، والحاكم وقال : إسناده صحيح . ولم يخرجاه . وابن حبان وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع ٥/١٥ .

(٢) « تنوير الأفهام لبعض مفاهيم الإسلام » للأستاذ محمد إبراهيم شقرة ص٣٥ – ٤٤ . ملخَّصًا .

(٣) رواه البخاري ، ومسلم واللفظ له ، والنسائيّ ، وابن ماجة .

(٤) المدخل لابن الحاجّ ١/١٤٣ ، ١٤٤ .

قشورًا ، فلا تلتفت قلوبهم إليها ، فتخلو من أضعف الإيمان ، ألا وهو الإنكار القلبي الذي هو فَرْضُ عيْنٍ على كلِّ مسلم تجاه المنكرات .

والتفريط في محقَّرات الأعمال يؤدِّي إلى التفريط في عظائمها ؛ لأنَّ استمرار هذا التفريط يتحوَّل مع الزمن إلى عادة تنتهي بصاحبها إلى قلّة الاكتراث بأمور دينه والتهاون بها .

ومن هذا القبيل : تقسيم الدين إلى أصول وفروع ، فإن العلماء الذين فعلوا ذلك لا يُظنُّ بهم أنهم قصدوا بذلك التقسيم إيجاب الاتفاق على الأصول ، ثم التسامح مطلقًا في الفروع ، كما يظن بعضُ متفقِّهة هذا الزمان »(١) .

والمحافظة على الهدي الظاهر ليست مجرَّد شكلٍ ومظهر؛ فكم بين الظاهر والباطن من ارتباط وثيق !! وأفرد العلماء المؤلَّفات في حُرْمة التشبُّه بالكفَّار في أحوالهم الظاهرة ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيم « اقتضاء الصراط المستقيم » ؛ قال رحمه الله : « إذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تُورث المحبَّة والموالاة ، فكيف بالمشابهة في أمور دينية ؟! فإنَّ إفضاءَها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشدُّ ، والمحبَّة والموالاة لهم - أي الكفار - تُنافي الإيمان ، قال تعالى : ﴿ **لا تجدُ قوْمًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه** ... ﴾ الآية [المجادلة : ٢٢] ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يوجد مؤمن يوادُّ كافرًا ، فمَن وادَّ الكفار فليس بمؤمن ، فالمشابهة الظاهرة مظنَّة المودة ، فتكون محرَّمة »(٢).

---

(١) تبصير أولي الألباب ص١٢ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص٢٢١ ، ٢٢٢ .

والمشاركة في الهدي الظاهر تُورث تناسُبًا وتشاكُلًا بين المتشابهَيْن يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال ، وهذا أمر محسوس ؛ « فلا يُشبه الزيُّ الزِّي حتى يُشبِهَ القلبُ القلبَ » .

والمخالفة في الهدي الظاهر تُوجب مباينة ومفارقةً تُوجب الانقطاع عن موجبات الغضب ، وأسباب الضلال ، والانعطاف إلى أهل الهدىٰ والرضوان . وكلَّما كان القلب أتمَّ حياةً وأعرفَ بالإسلام الذي هو الإسلام ؛ كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنًا أو ظاهرًا أتمَّ ، وبُعْدُه عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشدّ .

« ومشاركة اليهود والنصارى في الهدي الظاهر تُوجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التمييز ظاهرًا بين المهديِّين المرضيِّين ، وبين المغضوب عليهم والضالين ، إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية . هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلّا مباحًا محْضًا ، لو تجرَّد عن مشابهتهم ، فأمَّا إنْ كان مِن موجبات كفرهم ؛ فإنه يكون شعبة من شُعَب الكفر ، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع معاصيهم . فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له »[١] .

تركيا ولا « عاطفَ اسكلفي » لها :

« الشيخ عاطف اسكلفي صاحب كتاب « قرانك مقلدلغى » - بالتركيّة - يتناول تحريم التشبُّه بالكفَّار ، وأفتى فيه بتحريم ارتداء « القُبَّعة » . ولمّا قام أتاتورك بالانقلاب الأثيم حُوكم الشيخ عاطف بعد الانقلاب بسنتيْن ؛ لتأليفه هذا الكتاب ، ولمَّا مثُلَ الشيخُ أمام القاضي رئيس محكمة الاستقلال ؛ خاطبه القاضي قائلًا : « إنكم أيُّها الشيوخ مُغْرَقون في السفسطة الفارغة ، رجل يرتدي عمامة يكون مسلمًا ، فإذا ما ارتدى قبَّعة صار فاسقًا ، وهذه قماش

(١) المصدر السابق .

وهذه قماش !! » . فأجابه الشيخ الجليل : « انظر أيها القاضي إلى هذا العَلَم المرفوع خلْفَك - أي عَلَمُ تركيا - استبدلْه بعَلَم انكلترا مثلًا ؛ فإن قبلتَ ، وإلَّا فهي سفسطة منك ؛ إذ هذا قماش وذاك قماش » . فبُهتَ القاضي ، ومع ذلك حكَمَ على الشيخ بالإعدام،رحمه الله رحمةً واسعة »[1] .

« قال العلّامة المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني - حفظه الله تعالى ، في سياق ردِّه على مَنِ ادَّعى أنَّ الإسلام لا يهتمُّ بكل المظاهر الشكليَّة ومنها اللِّحية -:
« .. ومع أنها دعوىٰ عارية عن الدليل ؛ فإنها منقوضة أيضًا بأحاديث كثيرة ..
أقول : هذا الزعم باطل قطعًا ، لا يشكُّ في ذلك أي مُنصِفٍ متجرِّد من اتِّباع الهوىٰ ، بعد أن يقف على الأحاديث الآتية ، وكلُّها صحيحة :

١ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ المتشبِّهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال » .

٢ - وعن عائشة رضي الله عنها : أنَّ جارية من الأنصار تزوَّجت ، وأنها مرضت ، فتمعَّط شعْرُها ، فأرادوا أن يَصِلُوهُ ، فسألوا النبي ﷺ ، فقال : « لعَنَ اللهُ الواصلة والمستوصلة » .

٣ - عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: « لَعَنَ اللهُ الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتنمِّصات ، والمتفلِّجات للحسن ، المغيِّرات خَلْقَ الله » .

٤ - عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : رأى رسول الله ﷺ عليّ ثوبيْن معصفريْن ، فقال : « إن هذه من ثياب الكفار ، فلا تلبَسْها» .

أخرج هذه الأحاديث الشيخان في « صحيحيْهما » ، إلّا الأخير منها ، فتفرَّد به مسلم .

وفي الباب أحاديث كثيرة جدًّا ، وهي مادة كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، فليراجعْهُ مَن شاء .

(١) تبصير أولي الألباب ص٦٠ - ٦١ .

فهذه نصوص صريحة تبيِّن أن الإسلام اهتم بالمظاهر الشكلية اهتمامًا بالغًا إلى درجة أنه لعَن المخالِف فيها ، فكيف يسوغ مع هذا أن يُقال : إن كل المظاهر لا يهتم بها الإسلام ؟ »[(١)] .

وبقاء الدين ظاهرًا خَفَّاقةً رايتُهُ : مرهون بمخالفة المسلمين كفَّار أهل الكتاب ، وبقاءِ أمة التوحيد متميِّزة ربّانيِّة ؛ لا شرقية ولا غربية .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « لا يزال الدين ظاهرًا ما عجَّل الناس الفطر ؛ لأن اليهود والنصارىٰ يؤخِّرون »[(٢)] .

الشـريعة كلُّها لُبـابٌ :

قال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى : « لا يجوز التعبير عن الشريعة بأنها قشْر ، من كثرة ما فيها من المنافع والخير ، وكيف يكون الأمر بالطاعة والإيمان قِشْرًا ، وإنَّ العلم الملقَّب بعلْم الحقيقة جزء من أجزاء علم الشريعة ؟! ولا يُطلقُ مثْلَ هذه الألقاب إلّا غبيٌّ شقيٌّ قليل الأدب !! ولو قيل لأحدهم : « إن كلام شيخك قشور » لأنكر ذلك غاية الإنكار ، ويُطلقُ لفظَ القشور على الشريعة ؟!! وليست الشريعة إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ فيعزّر هذا الجاهل تعزيرًا يليق بمثل هذا الذنب »[(٣)] .

وقال تقي الدين السُّبكي رحمه الله : « وقولهم : (من أهل القشور) : إنْ أراد به ما الفقهاء عليه من العلم ومعرفة الأحكام ؛ فليس من القشور ، بل من اللُّب ، ومن قال عليه : (إنه من القشور) ؛ استحقَّ الأدب . والشريعة

---

(١) تمام المنَّة في التعليق على فقه السنة للشيخ الألباني ص٨١ – ٨٢ بتصرُّف يسير .

(٢) حسن : رواه أبو داود ، وابن حبان ، والحاكم ، وصحّحه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وحسَّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم ٧٥٦٦ .

(٣) فتاوىٰ سلطان العلماء ص٢٤ – ٢٥ – تحقيق : مصطفى عاشور – مكتبة القرآن .

كلُّها لُباب »(١) .

النُّخالة في المبتَدِعين .. لا في سَلَف الأُمَّةِ الطِّيِّبين :

يقول فضيلة الشيخ أبو الفرج محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدِّم - حفظه الله -: « ينبغي أن نَذُبَّ عن هدي رسول الله ﷺ ، الذي هو لبابٌ كلُّه لا قشورَ ولا نخالةَ فيه ، ونقول : إنما القشور فيما خالف هدْيه ، وإنما النخالة في المبتدعين الذين عظّموا ما حقَّره ، واستصغروا ما كبّره ، وأهدروا ما اعتبره ، واعتبروا ما أهدره ، ووضعوا ما رفعه ، ورفعوا ما وضعه . ولْيكنْ لنا أُسوة في الأصحاب رضي الله عنهم أُولي الألباب ، الذين لم يعرفوا هذه البدْعة المحْدَثة ، ولم ينقسموا إلى أهل جوهر ولباب ، وأهل قشور ونخالة ؛ كما زعم أصحاب الجهالة .

دخل عائذ بن عمرو - وكان من صالحي أصحاب النبي ﷺ - على الخبيث الجريء عُبيد الله بن زياد ، فقال : إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « شرُّ الرِّعاء : الحُطَمة » ؛ فإياك أن تكون منهم . فقال : اجلسْ ؛ إنما أنت من نُخالة أصحاب محمد ﷺ . قال : وهل كان لهم - أو فيهم - نخالة ؟! إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم »(٢) .

* * *

انتهى المجلَّد الخامس ويليه المجلَّد السادس إن شاء الله تعالى

---

(١) ملحق بكتاب « كشف الغطاء عن حكم سمَاع الغناء » لابن القيم ص٢٥ .

(٢) رواه مسلم في الإمارة ، والإمام أحمد ٥/٦٤ ، والبيهقي ٨/١٦١ .
انظر كتاب : تبصير أولي الألباب ص٦٢ .

فهرس المجلد الخامس

الموضوع | الصفحة

* * *